مِن تاريخ اليَمَن

لجامعه

القاضي عبد الله بن عبد الكريم الجرافي اليمني
المدرس بوزارة دار العلوم التوكلية بصنعاء
ومندوب وزارة المعارف اليمنية بمصر

دار الكتب - صنعاء
رقم عام
رقم خاص
تاريخ الإدخال
٩٥٦,٠٦٢

مؤسسة دار الكتاب الحديث

مؤسسة دار الكتاب الحديث

ص.ب ١٤/٥٩٦٣ المزرعة - بيروت

العنوان: طريق المطار - مقابل الكلية العاملية العالية
سنتر بدير ونحلة - لبنان - بيروت

حقوق الطبع محفوظة
لمؤسسة دار الكتاب الحديث

الطبعة الثانية
١٩٨٤

مقدمة الناشر

اليمن تعتبر جوهرة الجزيرة العربية كلها . وأكثر البلاد العربية خصباً . وقد أشار « اليمني » في قوله بلادنا طيبة الهواء والماء ولكننا لم نهدأ دائماً في احتراب . حاربنا الاتراك وحاربنا الحكم الامامي الدكتاتوري الرجعي . وحاربنا الادريسي وأخيراً وليس آخراً الانكليز ..

والغربة الفكرية بين الشطرين ستزول الى غير رجعة بفضل وعي وحكمة الشعب العربي اليمني في الشطرين الشقيقين. فاليمن غنية بمواردها الطبيعية بدءاً بالذهب والعقيق والرصاص والكبريت والالمنيوم و (الطلق) الذي يسميه اليمنيون دراهم الجن والكحل والحديد والبن والحبوب على كافة أنواعها ، هذه اليمن لن تركع للتخلف والفقر والرئيسين الشقيقين علي ناصر محمد وعلي عبدالله صالح هما صانعا تاريخ اليمن الحديث وسائران في ركاب التطور والتقدم والتغيير ، وهذه الكلمات للتاريخ سلختها عن ألسن المسافرين من أبناء اليمن مما يُظهر بجلاء وعي اليمنيين لمستقبلهم وتاريخهم الحافل وتراثهم الواحد ولن يكونوا إلا مبعث رعب وخوف لأعداء أمتنا العربية .

واليمن التي هي من أهم المناطق الحضارية القديمة في العالم قاومت كل حملات الغزاة وناضلت عبر قرون طويلة من أجل حريتها واستقلالها. وفي تاريخها الحديث شهدت قيام ثورة ٢٦ سبتمبر العظيمة عام ١٩٦٢ التي اسقطت أعتى نظام اقطاعي وأعلنت ولادة الجمهورية العربية اليمنية ، هذه الثورة الام كان لها التأثير الكبير على مجمل الأوضاع السياسية في البلاد وبفضلها كانت انطلاقة ثورة ١٤ اكتوبر المظفرة من ردفان والأغوار وباقي الأرياف زحفاً الى عدن ضد الاستعمار البريطاني وعملائه. فاليمن التي عرفتها صاحبة المميزات الفريدة من نوعها المحاصرة بالجبال والرجال صانعة الأمجاد والسيادة والاستقلال ، هذه اليمن التي أنجبت الزبيري وقاسم راجح لبوزة والشاعر الكبير عبدالله البردوني الذي أبصر برؤية قومية ثاقبة مشاكل اليمن ، والاستاذ محمد عبد القوي والمفكر والأديب المناضل الدكتور عبد العزيز المقالح صاحب الفضل الكبير في دفع هذا المقتطف من تاريخ اليمن الى المطبعة حيث رأى فيه بعض من تراث حضارتها المطمورة . عسى هذا الكتاب يرشد الباحثين عن حضارة اليمن وهو ينقب داخل بطون الكتب الكثيرة عن تاريخ اليمن ذلك الجزء الكبير من عالمنا العربي. سيبقى بلد التوحيد والوحدة على امتداد التاريخ .

الناشر

مقتطف

مقتطف في زمن « القطف » المطلوب

قبل بضع سنين التقيت في فرنسا احد اعضاء المجلس النيابي الاسباني، (اتذكر اسمه الصغير ، الاول، المركب: بول - اميد.. اي بولس - حميد)، وهو من افراد الكتلة الممثلة لمقاطعة ما تزال تحمل، رسميا، اسم « اندلس » - Andalousia - فراح يحدثني عن مطالبة كتلته باعطاء المقاطعة نوعا من الحكم الذاتي، او بصورة ادق اللا مركزي. وقال في تعليله لهذه المطالبة ان سكان المقاطعة لهم سماتهم وخصائصهم المميزة التي تعطي دلالات على غلبة الاصول العربية - الاسلامية فيهم. اذ من اسمائهم الشائعة كثيرا: مامادو، (محمد)، ومامودي، (محمود) وابيدولا، (عبدالله)، وفاتيما، (فاطمة)، وسيتيشا، (ست عائشة) الخ.. وقال ايضا ان سكان المقاطعة يتميزون في كثير من طرائف عملهم وعيشهم وتعاطياتهم عن سائر اهل بلادهم. فهم قلما يربون ويذبحون الخنزير للاكل، بالرغم من كون ديانتهم الكثلكة المرتبطة بالكرسي الفاتيكاني. ولعل اهم ما تحدث به الرجل تفسيره للشق الثاني من اسمه، (حميد)، وتفصيل نسب اسرته الذي يعود الى عرب الشام، وبالتحديد الى فرع من قبائل الازد اليمنية الاصل.

وقد لا يكون من باب المصادفة ان يلتقي حديث النائب الاسباني مع « حواديث » المسنين في ريف البقاع اللبناني، والقائلة ان اسلافهم صنعوا من اليمن، اما مع جيوش الفتح الاتية الى الشام واما قبل ذلك بسبب تعرضهم لبعض الكوارث الطبيعية.

وتبقى فوق هذا كله صفحات كثيرة يمر بها المرء، عبر قراءاته، وهي تحكي عن اليمن تاريخ نظم سياسية - اجتماعية منجزات حضارية تعود الى الاف عدة من السنين، فضلا عن دور يمني في بناء الدولة العربية الاسلامية المركزية، القوية، خلال عهديها الاموي، ثم العباسي الاول والثاني، وفي الذود عن ثغورها وحياضها. فلليمن حضور في

كل قطاع: الادارة والقضاء والتدريس والعسكرية، وفي هذا الاخير - اي العسكرية - نراهم امراء الجيوش والاساطيل البحرية وجهرات المقتحمين من الجنود وسادة الحيلة من قادة الوحدات والكتائب والالوية.

من هنا كان لا بد لي ان اتساءل امام عنوان «المقتطف من تاريخ اليمن»، بغير قليل من الحرقة: امقتطف والمطلوب قطف شامل، كامل؟. امقتطف ويمن اليوم مبشرة، واعدة بكل كبير في حياة العرب، مما يعني ان تاريخها بحاجة الى موسوعات، من حيث هو تاريخ «سيل العرم» العربي الذي اندفق و «انفلش» في اربع رياح الارض؟.

ولكن لعل مؤلف «المقتطف» القاضي عبد الله بن عبد الكريم الجرافي لم يكن غائبا عن وعي الحاجة الى «تظهير» عصري وخلاق للتاريخ اليمني، بدليل ما يشير اليه في كلمة التصدير التي وضعها لكتابه، وهو «انهم - اي اليمنيون - كانوا قبل الاسلام في مقدم الدول المتحضرة، لما تشهد به اثار سبا ومأرب، وفي الاسلام كانوا في طليعة الفاتحين لفارس وسورية والاندلس وغيرها، وكما ان لهم اليد الطولى في نشر راية التوحيد في اقاصي البلدان، وقد احتملوا ابناءهم وارواجهم واموالهم وتركوا الى الطرف الاقصى من ديار الاسلام، وصابروا وصبروا وقاتلوا حتى ظفروا باحدى الحسنيين..».

وشيء آخر يصح ان يقال في «المقتطف» هو ان صاحبه ربما شاء منه اللفت، (ولو عبر محدودية مصادره، ورغم تقيد قلمه بالقيود الرهيبة للحكم الملكي التوكلي المستبد)، الى تاريخ اليمن وتراثه، من حيث تواضعه بتسمية كتابه مقتطفاً. اكأننا به احب ان يشير انتباه اجيال المثقفين اليمنيين وسائر العرب من بعده بالقول لهم: «هذا ما اتاحته لي ظروف عسرتي ان افعله، فتبصروا انتم.. خوضوا البحر الزاخر في الزمن المناسب واخرجوا ما تجدون من لآلىء ثمينة..».

وما زلت بصدد المطلوب لتاريخ اليمن في زمن صحوتها وثورتها، المبشرتين الواعدتين، كما سبقت الاشارة، اجدني مندفعا، بتلقائية علمية، هي من محصلة التأمل النقدي والبحث المتعب في المنشور من تاريخ العرب عموما، (وتاريخ اليمن لبه وكبده)، الى الوقوف عند مسألتين مهمتين هما:

أ - ضرورة تجاوز القواعد التقليدية في الدراسة، وهي قواعد الفكر الاستشراقي، (بروكلمان ومن جاء وراءه)، التي لا تعني غير فرض تعسفي لرؤية الغالب على المغلوب، ولا تتوفر فيها نزاهة التوحيد العلمي، لاسيما وان الاحداث السياسية الكبرى في القرن التاسع عشر والربع الاول من القرن الحالي، قد كشفت ذلك كشفا مثيراً. وحتى لو افترضنا النزاهة لدى بعض المستشرقين، (الروس وبعض الالمان)، نلاحظ ان كتاباتهم باتت مقصرة كثيرا عن المعارف التي وفرتها لنا الاكتشافات الاثرية، مدى قرن مضى. واذكر من العرب الذين عملوا على تجاوز القواعد التقليدية المعنية المؤرخ اللبناني الشيخ نسيب وهيبة الخازن في كتابيه اللامعين «اوغاريت» - وفيه استعراض شامل للوحات رأس شمرا التي تفضح سرقة كتاب الاشعار التوراتية، من اليهود للثقافة الدينية الكلدية - و «من الساميين الى العرب».

ب) التنبه الى ان عطاء الحضارة والتنوير عند العرب قديم جدا وانه يتميز بتفرده وبقدرته اللامحدودة على الاحتواء والاهتضام والتوليد الجديد. فهذا العطاء يعود - في اليمن (بشطريه، ولست احب تعبير «يمنين»، لانه خاطيء ثقافيا وسياسيا ولانه مشبوه ايضا)، - الى بدايات الالف الثاني والعشرين قبل الميلاد، حين كان الاتصال التجاري والثقافي قائما بين «العربية السعيدة» وبين ملوك سورية، حسب دراسات الاب قيصر دي كارا عن تاريخ الحثيين ودولة «الملوك الرعاة» - الهكسوس - المصرية. فهذه الدولة شارك في تأسيسها الحثيون واليمنيون. واسم «الملوك الرعاة» لقب تحقيري صاغه الفراعنة الذين اسقطوها وحكموا بعدها حتى الفتح البابلي والفارسي في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد. ومما يذكر ان دولة «الملوك الرعاة» قامت في مصر، على التقريب ما بين الالف التاسع عشر والالف الخامس عشر قبل الميلاد.

المسألتان اللتان تعرضنا لهما تعنيان اشياء كثيرة، يمكن الوقوف عند الاهم منها، وهو التالي:

اولا: المعطيات العلمية ترفض مقولة «عرب بائدة وعرب عاربة وعرب مستعربة»، وترفض بالتبعية تقسيم العرب عربين: «قحطانية - يمانية، وعدنانية - شمالية»، ذلك انه لا يصح القول بأن طسم وجديس وعاد وثمود بائدة، الا اذ صح القول - علميا اعني - بأن الحثيين والكلدان القدامى، ثم الاشوريين والبابليين بادوا.

فهذه الشعوب التي واكبت تاريخيا من يسمون «عربا بائدة» ما تزال تحيا بيننا - اعني في بلاد الشام والعراق وفي اجزاء من آسيا الصغرى والارخبيل الروماني، حيث «انفلشت»، واثرت حضاريا، حسب الاب دي كارا، في ظهور الفلسفة اليونانية لعصر افلاطون وارسطو.

ثانيا: ليس صحيحا، من وجهة النظر العلمية، القول المطلق ان العرب القدامى كانوا اهل بداوة وترحال وغزو الخ.. فاليمنيون اقاموا دولة تجارية - بحرية توازي، تقريبا، دول مدن الساحل الفينيقي - صور وصيدا وجبيل وارواد - منذ ٢٠ قرنا قبل الميلاد. ولعل بين اعظم العطاءات الحضارية «للعرب البائدة» و «العرب العاربة» انها عملت على تدجين الجمل، عبر دهور من الزمن، فحولته الى حيوان اليف، كبير النفع، ميسرة به لقريش - قبيل ظهور البعثة الاسلامية - ان تمسك بزمام تجارة العبور، (وبأنفس السلع وأرفعها ثمنا)، بين بلدان افريقيا وآسيا الوسطى والقصية - وبين الشام، حيث تتوزع في انحاء دولة الروم.

ثالثا: القول بان الشعر الجاهلي ومعه مجموعة الاعراف والتقاليد العربية قبل الاسلام، (وكثير منها يشع بالفضائل التشريعية والاخلاقية)، هو مخاض حياة البداوة والترحل، يبقى تبسيطيا الى حد الاضحاك. فالثقافة العربية في المراحل التي سبقت ظهور النصرانية والاسلام ما كانت الا حصيلة عطاء تنويري - حضاري، مصدر اكثره اليمن، وليس مصادفة ان النقوش الاثرية المكتشفة في جنوب شبه الجزيرة العربية، والتي وضعها نصارى «العربية السعيدة»، تقدم دلالة قوية على سلامة وصفاء نصرانية اليمنيين، وهذا ما يعنيه اصطدامهم العنيف مع اليهودية، لما تعكسه ذلك قصة ذي نؤاس و «اصحاب الاخدود»، وهي المنقولة في سيرة ابن هشام بأدق التفاصيل.

وهكذا فالتاريخ العربي يبدو وكأنه نهر عظيم، ترفده منابع اليمن بعطاء الخير والبركة، مما يعني ان اي بحث مخلص وجاد - وعلمي ايضا - في تاريخ اليمن لا بد ان يجلو التاريخ العربي من شوائب المفاهيم التبسيطية والابتزال والشبهة التي علقت به.

فعسى ان يكون «المقتطف من تاريخ اليمن» لفتاً لانجاز «قطف» كامل - موسوعي التوجه والصيغة - مع العلم بأن وضع اليمن السياسي، سواء في الشطرين سويا ام في اي منها على حدة، ينطوي على كل مستلزمات هذا الانجاز، وعسى،

ايضا، ان يفاجيء اليمن الكل بصيغة توحيدية رائدة للدنيا العربية، عبر تحويل الامنية الجميلة الى حقيقة من لحم ودم.

اقول هذا رغم معطيات الشؤم والتشاؤم المخيمة بظلها الثقيل على فكر التوحيد العربي وعلى دعاته والقائلين - المؤمنين به.

الياس عبود

كلمة المؤلف

وبعد فإنَّ من أشرف ما خلدته الأيام وتناقلته الشعوب والأقوام واستخدمت لأجله المحابر والأقلام فنَّ التاريخ الذى هو الوصل بين الماضى والحاضر وسِجلّ أعمال الأصاغر والأكابر ومعرض آثار الأمم فى البوادى والحواضر واللسان الناطق بعلومها ومعارفها وطبائعها وأخلاقها وآدابها ومعتقداتها ، والصورة الحقَّة لرقيها وانحطاطها وما كانت عليه من ظلم وعدل وكرم ولؤم . ولذا كان لزاماً على كل أمة تحاول النهوض الالتفات أوّلا إلى ماضيها ودراسة تاريخها ومعرفة ما فيه من الحوادث والكوارث وأسباب الصعود والهبوط لأنَّ حياة الأمم موصولة بماضيها ، وحاضرها القريب وليد ماضيها البعيد . ولذا قيل إن الأمة التى تهمل ماضيها ولا تعرفه مثل الرجل الذى يَفقِد ذاكرته وإن ماضى الأمة لا يموت أبداً ولكنه يكون حيًّا فيها وفى أعقابها وإن الروح العامة للأحياء إنما هى مؤلفة من أفكار الأموات فدراسة التاريخ إذاً من ضروريات البقاء ومعرفة تاريخ الأمة نفسها من أكبر عوامل الارتقاء ولاسيما إذا كان فى تاريخ الأمة من أعمال المجد والعظمة ما يثير الفتوَّة ويبعث النشاط والقوَّة ويدفع الأبناء إلى ترسُّم آثار الآباء كما هى حالة رجال اليمن السعيد ، فإنهم كانوا قبل الإسلام فى مقدم الدول المتحضرة كما تشهد به آثار سبأ ومارب ، وفى الإسلام كانوا فى طليعة الفاتحين لفارس وسوريا والأندلس وغيرها وكما أن لهم اليد الطولى فى نشر راية التوحيد فى أقاصى البلدان وقد احتملوا أبناءهم وأزواجهم وأموالهم ونزحوا إلى الطرف الأقصى من ديار الإسلام وصابروا وصبروا وقاتلوا حتى ظفروا بإحدى الحسنيين ، بَيْد أنه لما كان التاريخ اليمنى مبعثر الأجزاء متفرق الأوصال غير متصل الحلقات ولم يكن وِحْدَةً كاملةً ومعنيًّا به كما ينبغى والكتب الخطيَّة فى التاريخ اليمني سليمة من التصحيف وتغيير الأشكال

فقد يخرج القارئ منها بآراء مضطربة والبعض منها سلطت عليه عوادى الأيام وتكبلت الحدثان ومنها ما جنت عليه أيدى رُوّاد اليمن من الأوروبيين وغيرهم فى أزمنة مختلفة وكان مؤرخ قسم الجبال يقتصر على تاريخ الأئمة ومؤرخ تهامة وجنوب اليمن يقتصر على غيرهم ولم يكن أحد قد جمع شتات المستندات التاريخية اليمنية وأخرج منها ماتشتهيه الأنفس وتستذوقه الألباب .

غير أن المغفور له مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله يحيى بن محمد حميد الدين نوّر الله ضريحه كان قد فكر فى هذا المشروع الخطير وأراد بعد توحيده اليمن السعيدة أن يُوَحِّد تاريخها فأصدر أمره السامى إلى نجله صاحب السمو الملكى سيف الإسلام عبد الله وزير المعارف اليمنية يومئذ بإنشاء لجنة فى وزارة المعارف اليمنية لدرس التاريخ اليمنى وإخراج كتاب مُوَحَّد يضم خلاصة هامة وحقائق سياسية وأدبية واجتماعية برياسة صاحب السماحة السيد العلامة محمد بن محمد زبارة الحسنى وكان لى الشرف باختيارى عضواً فى هذه اللجنة وكان توزيع أعمال اللجنة كالآتى :

القسم الأول[1] تاريخ ما قبل الإسلام .

القسم الثانى[2] من البعثة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام إلى مبدأ دولة بنى زياد باليمن .

القسم الثالث[3] من دولة بنى زياد إلى آخر القرن العاشر .

القسم الرابع[4] من أول القرن العاشر إلى التاريخ الحاضر .

---

(١) كتب فيه شطرا السيد العبقرى أحمد عبد الوهاب الوريث المتوفى بصنعاء فى محرم سنة ١٣٥١

(٢) كتب فيه رئيس اللجنة جزءا .

(٣) كتب السيد الأديب أحمد بن أحمد المطاع جزءا .

(٤) كتبت فيه أربعة أجزاء

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حق حمده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وجنده . وبعد فهذا موجز لتاريخ اليمن من أقدم العصور إلى وقتنا الحاضر قد استخرت الله وجمعت شتاته من أوثق المصادر لكى أقدمه إلى إخوانى العرب فى مختلف الأقطار والأمصار فى هذا الوقت الذى أراد الله أن تأتلف فيه قلوب أفراد الأمة العربية الكريمة ويصبح العرب فيه بنعمة الله اخوانا متحابين متآخين وقد أقدمت على إخراجه عندما وجدت الحاجة ماسة إلى وجود كتاب مثله .

ولما كانت بلاد اليمن من أقدم بلدان العالم وأعرقها مدنية بحيث لا تكاد تضارعها بلاد أخرى فى طول تاريخها المفعم بالحوادث والملىء بالأخبار لم يكن فى الإمكان إلا أن يدوّن مثل هذا التاريخ الطويل مجملا وفى شىء كثير من الإيجاز .

وقد رأيت إتماماً للفائدة أن أبدأ هذا الكتاب ببيان مفصل عن البلاد اليمنية يشتمل على معلومات أولية عن أراضيها وحدودها ومختلف أقاليمها وأقسامها وأنهارها ووديانها وجبالها وأشهر مدنها وثغورها وأهم آثارها القديمة الخالدة وعلى شىء عن اقتصادياتها وقبائلها وسكانها وجملته (الباب الأول) ثم تحدثت بعد ذلك فى (الباب الثانى) فى اليمن قبل الإسلام ، (والثالث) فى الفتح الإسلامى ، (والرابع) فيمن تولى اليمن من الملوك والسلاطين ، (والخامس) فى الدولة الهاشمية من الأئمة الميامين ، (والسادس) فى دولة ملك اليمن الإمام المتوكل على الله يحيى بن محمد حميد الدين ، (والسابع) فى دولة صاحب الجلالة مولانا الإمام الناصر لدين الله أحمد .

فإذا صادف كتابى هذا قبولا فهو غاية ما تمنيت وكل ما إليه رميت وعليه توكلت وما توفيقى إلا بالله .

الباب الأول

معلومات أولية عن موقع بلاد اليمن وأقسامها وسكانها الخ

الفصل الأول

تقع بلاد اليمن فى الجزء الجنوبى من شبه جزيرة العرب وتتصل من الغرب بالبحر الأحمر ومن الجنوب والشرق ببحر العرب كما تحد من الجهة الشمالية الشرقية ببلاد نجد وبالحجاز من الشمال الغربى .

ويقول الهمدانى[1] فى كتابه القيم « صفة جزيرة العرب » إنه يفصل بين اليمن وبين باقى شبه الجزيرة خط واحد يمتد من حدود عُمان وتبرين إلى حد ما بين اليمامة واليمن فإلى حدود الهجيرة وتثليث وأنهار جُرَش وكُتْنَة منحدراً فى جبال السراة على شَمَف عَنْزَة إلى تهامة على أم جَحْدم إلى البحر الأحمر الخ.

وقد أطلق الإغريق والرومان على هذه البلاد منذ القدم اسم العربية السعيدة كما سماها غيرهم باسم « اليمن الخضراء » وذلك لحسن موقعها وجمال مناخها ووفرة مياهها ونظراً لثروتها النباتية والمدنية العظيمة ولأنها إذا قورنت ببقية بلاد العرب كانت دون شك من أوفرها ثروة وأعظمها ازدهاراً وأغزرها ماء وأطيبها هواء وأجملها مناظراً وأكثرها سكانا وأعدلها مناخا .

---

(١) هو الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمدانى اليمنى ، كان عالما بالانساب والجغرافية والأدب ، له كتاب الاكليل فى عشرة أجزاء وكتاب « صفة جزيرة العرب » المطبوع بمدينة ليدن وغير ذلك من المؤلفات . وقد توفى فى سنة ٣٣٤ هجرية .

وتنقسم بلاد اليمن إلى خمسة أقسام أو أقاليم كبيرة هى :

(١) تهامة .

(٢) منطقة الجبال والسهول الشرقية .

(٣) حضرموت .

(٤) عمان .

(٥) الربع الخالى .

وسنتكلم باختصار عن كل قسم من هذه الأقسام فيما يلى :

القسم الأول

تهامة

أما القسم الأول من أقسام بلاد اليمن فهو مقاطعة تهامة ويتكون معظمها من أراض رملية شديدة الحرارة محاطة من جهة الغرب بالبحر الأحمر ومن الجنوب بخليج عدن ومن الشرق بجبال السراة ومن الشمال بتهامة الحجاز وهى صالحة لغرس النخيل وزراعة القطن والتبغ والحبوب كما أن فيها عدداً من الوديان المشهورة ترويها السيول المنهمرة الآتية من جبال السراة والتى قد تفيض إلى البحر الأحمر .

ووديانها المشهورة

ومن وديانها الشهيرة وادى موزع ووادى السَّحارِى ووادى نَخْلَة ووادى زبيد ووادى رِمَع ووادى سهام ووادى مُرْدُد ووادى مور ووادى عَبْس ووادى حَرَض ووادى حازان ووادى صبيا ووادى بيش .

مدنها المشهورة

تعتبر مدينة الحديدة أكبر مدن تهامة وأعظمها شهرة وهى واقعة فى الوسط وتليها من الجنوب مدينة المنصورة ثم مدينة الدريهمى وبيت الفقيه بن عُجَيل والحُسَيْنِيَّة

وخيس وزبيد ومدينة المخا والشيخ عثمان ولحج وعدن ، وقد ذكر الهمدانى فى « صفة الجزيرة » عن مدينة عدن أنها جنوبية تهامية وأنها أقدم أسواق العرب وقال انها ساحل يحيط به جبل لم يكن فيه طريق فقطع فى الجبل باب بزير الحديد وصار لها طريقاً إلى البحر الخ .

وعلى الحديدة من الشرق مدينة المراوعة والقُطَيْع وباجل ومن الشمال مدينة الزيدية والنُّبيرة واللَّحيَّة والزهرة وحرض وميدى وصبيا وباعريش وجازان وغيرها .

أما قرى تهامة التى بنيت بيوتها من القش فكثيرة لا يحصيها عد ومن موانيها المشهورة سوى عدن والحديدة ميناء المخا والحوخة وميدى وجازان واللحية وغليفقة، ومن مدنها القديمة الخربة التى كانت لها شهرة كبيرة مدينة المهجم فى وادى مُرْدد ومدينة الكدرا الواقعة فى وادى سهام وفشال فى وادى رِمَع والمحالب فى وادى مور .

وتتصل بتهامة شبه جزيرة الصنيف[1] ذات الأملاح العظيمة الحجرية . كما أنه توجد على مقربة من تهامة بعض الجزر الواقعة فى البحر الأحمر منها جزيرة فرسان وجزيرة دهلك وجزيرة كمران وجزيرة بريم التى يطلق عليها اسم مَيُّون وهى واقعة على مقربة من مضيق باب المندب .

وهناك جزر أخرى تلى اليمن فى بحر العرب وتتصل باليمن هى جزيرة زِبْلَع وبَرْبَرة وجزيرة سُقَطْرة وقد قال الهمدانى فى «صفة الجزيرة» إن هذه الجزيرة الأخيرة وجزيرة بربرة مما يقطع بين عدن وبلد الزنج ثابتا على السَّمْت فإذا خرج الخارج من عدن إلى بلد الزنج فى اتجاه عمان وجزيرة سقطرة تماشيه عن يمينه حتى تنقطع ثم التوى بها من ناحية بحر الزنج وطول هذه الجزيرة ثمانون فرسخا وفيها من جميع قبائل مهرة وبها نخل كثير كما يسقط إليها العنبر وبها أيضا دم الأخوين والصبر الكثير .

(١) بالصاد المهملة والنون وقد يسميها البعض الصليف باللام .

القسم الثانى

منطقة الجبال والسهول الشرقية

وتلى تهامة من جهة الشرق منطقة أخرى هى منطقة الجبال والسهول الشرقية وتتكون معظم المنطقة الجبلية من جبال السراة التى تمتد من المعافر وهى بلاد الحجرية والتى تتصل بعضها ببعض حتى تصاقب بلاد الحجاز فبلاد الشام فى الشمال والتى يقطعها المسافر من شرقها إلى غربها عرضا فى أربعة أيام على ظهور الدواب وذلك فى أضيق نقطة منها .

وتضم هذه المنطقة مخاليف واسعة أشهرها مخلاف المعافر وهو بلاد الحجرية ومخلاف الجند الذى تقع فيه مدينة تعز الشهيرة ومخلاف السحول ومخلاف يحصب ومخلاف عنس ومخلاف أنس ووصاب وعتمه وحراز وشبام ومخلاف همدان بن زيد الواقع بين مدينتى صنعاء وصعده والذى يضم مساكن قبيلتى حاشد وبكيل الشهيرتين وقد قال الهمدانى فى صفة الجزيرة : « وهى ستة أيام فى ستة آخذ لما بين الغايط وتهامة من نجد والسراه وهى أمنع ديار اليمن وأعزها » الخ كما أنها تضم أيضاً مخلاف حجور .

ومن مخاليف اليمن الواقعة فى الجهة الشرقية مخلاف خولان والحدا ورداع ومراد والبيضا وبيحان ومخلاف شبوة ومارب والجوف ومن مخاليفها الواقعة فى الجنوب الشرقى بلاد العوالق والعواذل والحواشب والفضلى والواحدى وبلاد يافع وغيرها .

ومن مخاليفها الواقعة فى الجهة الشمالية مخلاف صعدة ووادعة وسنحان وقحطان ونجران ورازح وبلاد فيفا وبنى مالك وغيرها .

وتتمتع البلاد الواقعة فى منطقة الجبال فى جميع فصول السنة بجو بديع معتدل بين الحرارة والبرودة وزروعها وغروسها كثيرة كالبن والقطن والحبوب المختلفة كالحنطة والذرة البيضاء والحمراء والصفراء كما أن بهذه المنطقة أنهارا متوسطة أشهرها نهر بنا

وحَبْس وزبيد ومدينة المخا والشيخ عثمان ولحج وعدن ، وقد ذكر الهمدانى فى « صفة الجزيرة » عن مدينة عدن أنها جنوبية تهامية وأنها أقدم أسواق العرب وقال انها ساحل يحيط به جبل لم يكن فيه طريق فقطع فى الجبل باب بزير الحديد وصار لها طريقاً إلى البحر الخ .

وعلى الحديدة من الشرق مدينة المراوعة والقُطَيْع وباجل ومن الشمال مدينة الزيدية والمُنيرة واللَّحَيَّة والزهرة وحرض وميدى وصبيا وباعريش وجازان وغيرها .

أما قرى تهامة التى بنيت بيوتها من القش فكثيرة لا يحصيها عد ومن موانيها المشهورة سوى عدن والحديدة ميناء المخا والخوخة وميدى وجازان واللحية وغُلَيْفِقَة ، ومن مدنها القديمة الخربة التى كانت لها شهرة كبيرة مدينة المهجم فى وادى مَرْدد ومدينة الكدرا الواقعة فى وادى سهام وفشال فى وادى رِمَع والمحالب فى وادى مور .

وتتصل بتهامة شبه جزيرة الصنيف[1] ذات الأملاح العظيمة الحجرية . كما أنه توجد على مقربة من تهامة بعض الجزر الواقعة فى البحر الأحمر منها جزيرة فرسان وجزيرة دهلك وجزيرة كمران وجزيرة بريم التى يطلق عليها اسم مَيُّون وهى واقعة على مقربة من مضيق باب المندب .

وهناك جزر أخرى تلى اليمن فى بحر العرب وتتصل باليمن هى جزيرة زِيلَع وبربَرة وجزيرة سُقَطْرة وقد قال الهمدانى فى «صفة الجزيرة» إن هذه الجزيرة الأخيرة وجزيرة بربرة مما يقطع بين عدن وبلد الزنج ثابتا على السَّمْت فإذا خرج الخارج من عدن إلى بلد الزنج فى اتجاه عمان وجزيرة سقطرة تماشيه عن يمينه حتى تنقطع ثم التوى بها من ناحية بحر الزنج وطول هذه الجزيرة ثمانون فرسخا وفيها من جميع قبائل مهرة وبها نخل كثير كما يسقط إليها العنبر وبها أيضا دم الأخوين والصبر الكثير .

---

(١) بالصاد المهملة والنون وقد يسميها البعض الصليف باللام .

القسم الثانى

منطقة الجبال والسهول الشرقية

وتلى تهامة من جهة الشرق منطقة أخرى هى منطقة الجبال والسهول الشرقية وتتكون معظم المنطقة الجبلية من جبال السراة التى تمتد من المعافر وهى بلاد الحجرية والتى تتصل بعضها ببعض حتى تصاقب بلاد الحجاز فبلاد الشام فى الشمال والتى يقطعها المسافر من شرقها إلى غربها عرضا فى أربعة أيام على ظهور الدواب وذلك فى أضيق نقطة منها .

وتضم هذه المنطقة مخاليف واسعة أشهرها مخلاف المعافر وهو بلاد الحجرية ومخلاف الجند الذى تقع فيه مدينة تعز الشهيرة ومخلاف السحول ومخلاف يحصب ومخلاف عنس ومخلاف أنس ووصاب وعتمه وحراز وشبام ومخلاف همدان بن زيد الواقع بين مدينتى صنعاء وصعده والذى يضم مساكن قبيلتى حاشد وبكيل الشهيرتين وقد قال الهمدانى فى صفة الجزيرة : « وهى ستة أيام فى ستة آخذ لما بين الغايط وتهامة من نجد والسراه وهى أمنع ديار اليمن وأعزها » الخ كما أنها تضم أيضاً مخلاف حجور .

ومن مخاليف اليمن الواقعة فى الجهة الشرقية مخلاف خولان والحدا ورداع ومراد والبيضا وبيحان ومخلاف شبوة ومارب والجوف ومن مخاليفها الواقعة فى الجنوب الشرقى بلاد العوالق والعواذل والحواشب والفضلى والواحدى وبلاد يافع وغيرها .

ومن مخاليفها الواقعة فى الجهة الشمالية مخلاف صعدة ووادعة وسنحان وقحطان ونجران ورازح وبلاد فيفا وبنى مالك وغيرها .

وتتمتع البلاد الواقعة فى منطقة الجبال فى جميع فصول السنة بجو بديع معتدل بين الحرارة والبرودة وزروعها وغروسها كثيرة كالبن والقطن والحبوب المختلفة كالحنطة والذرة البيضاء والحمراء والصفراء كما أن بهذه المنطقة أنهارا متوسطة أشهرها نهر بنا

ونهر ورزان ونهر مُرْدُد ومور وشوابه والخارد . أما أنهارها الصغيرة فكثيرة العدد وفى هذه المنطقة سدود مشهورة ببيت فى فجر التاريخ وأتى عليها الإهمال أشهرها سد مارب[1] وكان منها فى يحصب كثير كما يستدل من قول الشاعر :

وفى الجنة الخضراء من أرض يحصب ثمانون سدا تقذف الماء سائلا

ومنها أيضا سد ريمان الواقع على مقربة من وادى ضهر وكذلك سد الخانق بصعده وسد أضرعة بعنس وسد شاحك بخولان هذا فضلا عن السدود الصغيرة كسد لحج فى بلاد يريم وسد الكُمَيم بالحدا وغيرها .

وحقول هذه المنطقة وأوديتها كثيرة وهى مشهورة كحقل البون وحقل صنعاء وحقل جهران .

المدن الشهيرة

وأشهر مدن هذا القسم مدينة صنعاء عاصمة مملكة اليمن وقد قال الهمدانى عنها فى كتابه « صفة الجزيرة » انها أم اليمن وقطبها لأنها فى الوسط ما بينها وبين عدن كما بينها وبين حد اليمن من أرض نجد والحجاز كما قال إنها كانت تسمى فى أيام الجاهلية باسم مدينة « أزال » وذكر أيضاً فى الجزء الثامن من كتابه « الإكليل » طرفا من أخبارها القديمة وما قيل فى عمارتها كما تحدث عن عمارة قصر غمدان الشهيرة . وكان مما قاله فى صفة الجزيرة عنها أنه « لم يزل بها عالم وفقيه وحكيم وزاهد ممن يحبون الله عز وجل

(١) قال الهمدانى فى الجزء الثامن من كتابه الإكليل : « كانت الجنتان اللتان يقول الله فيهما (لقد كان لسبأ فى مساكنهم آية جنتان) عن يمين السد ويساره وهما اليوم غامرتان والغامر العافى وكذا السامر وإنما عفتا لما اندحق السد فارتفعا عن أيدى السيول وأما مقاسم الماء من مداخل السد فكأن صانعها قد فرغ منها بالأمس وقال إنه رأى أحد الصدفين باقياً على أوثق ما كان عليه ولا يضير إلى أن يشاء الله وإنما وقع الكسر فى العرم وقد بقى من العرم شىء مما يصال الجنة اليسرى يبلغ عرض أسفله خمسة عشر ذراعا انتهى ملخصاً .

المحبة المفرطة ويخشونه الخشية اليقظى وقال عن أهلها إنهم أهل تمييز بعارض الأمور وخدمة السلطان بأبهة وتملك وتنعم فى المنازل وإن لهم صنائع فى الأطعمة التى لا تلحق بها أطعمة بلد آخر ولهم خط المصاحف الصنعانى المكسر والتحسين الذى لا يلحق به كما أن منهم كثيرا من مشاهير الخطباء كمُطَرِّف بن مازن وابراهيم بن محمد بن يعفر ومنهم العلماء كوهب بن منبه وأخواه همام ومعقل وعبد الرزاق وعبد الرحمن بن داود وابن الشرود وهشام بن يوسف الأبناوى وغيرهم ومن علماء الفلك وأصحاب النجوم دردان وأبو عصمة وأبو جندة وابن عاصم وابن المُنَيْذِر ومن الشعراء علقمة بن ذى جدن ووضّاح اليمن وبكر بن مرداس وأبو السمط الفيروزى من الأبْنَا وهو شاعر مفلق وفد على المهدى فقبل مدحته ومدح البرامكة فاقتطعوا له أموالا بصنعاء ومنهم أيضاً مرطل وعبد الخالق بن أبى الطلح الشهابى وكان شاعرا كبيرا وخطيبا مفوها ، ومن أدبائها آل أبى الرجا وبشر بن أبى كبار الذى كانت له رسائل مشهورة ذكر بعضها الهمدانى فى كتابه صفة الجزيرة .

وتلى مدينة صنعاء من الشمال مدينة الروضة المشهورة ببساتينها الغناء وبأعنابها ومدينة عمران وحمر والسودة وحوث وحبور وصمدة ، ومن الجنوب مدينة ذمار وضوران ويريم والمخادر واب وجبلة والنادرة وتعز وقعطبة ورداع كما تليها من جهة الشمال الغربى مدينة شبام وكوكبان وثلا والطويلة والمحويت وحجة ومناخة وغيرها ومن الشرق مدينة مارب المشهورة بآثارها السبئية القديمة وشبوة ومدن الجوف كمعين والبيضا والسودا ومدينة براقش وغيرها .

القسم الثالث

حضرموت

أما بلاد حضرموت فآخذة فى مشارق اليمن وسطحها جبلى يشقه وادعظيم الاتساع يطلق عليه اسم « وادى الكسر » وتحد هذه المنطقة من جهة الشرق شعب وادى النبى هود عليه السلام بالأحقاف وباديتها من الأحوم ومهرة والمشقاص المتصلة بأطراف بلاد عمان .

وتحد من الجهة الغربية بعين بامعبد وبلاد الواحدى والعوالق ومخلاف شبوه ورملة صيهيد . كما تحد من جهة الجنوب ببحر العرب ومن الشمال ببلاد الصيعر ورملة وبار من الربع الخالى .

وأهم مدن حضرموت الداخلية مدينة شبام وتريم وسيئون وتريس كما أن أهم مدنها الساحلية مدينة المكلا والشحر وسيحوت .

هذا ويوجد فى حضرموت كثير من الأودية العظيمة كوادى حجر ومنيفعة فى الجنوب ووادى دوعن ووادى عمد فى شرقها كما أنه يوجد فى بادية حضرموت واد يقال له وادى برهوت من مهرة توجد فيه إلى الآن بئر برهوت القديمة وقبر النبى هود عليه السلام .

وتوجد فى شمال حضرموت كندة التى هى سراة مرتفعة تصب أوديتها فى حضرموت . ومن قرى كندة هينين ودمون كما أن حصنها المسمى باسم النجير مشهور فى التاريخ وقد خرب فى زمن الردة ويقع هذا الحصن على مسافة ثلاثة أميال من مدينة تريم .

وقد تولى حكم اليمن من كندة ملوك كثيرون كان آخرهم الأشعث بن قيس الكندى

وتوجد فى حضرموت ريدة الدين وريدة الصيعر فى الجهة الشمالية وريدة بامسدوس

وريدة العباد فى الجنوب والريدة هى صحراء جبلية تنبت فيها الكثير من أشجار السدر وغيره .

وأهم حاصلات بلاد حضرموت اللبان والحنطة والصبر والتبغ الحوى والبلح والتمر .

القسم الرابع

عُمان

وتقع عمان فى الزاوية الجنوبية الشرقية من جزيرة العرب وحدها من ثغر مرباط إلى شبه جزيرة قطر وعاصمتها مدينة مسقط الواقعة على الخليج الفارسى .

وتوجد فى شمالها مدينة يقال لها صحار كانت عاصمة عمان القديمة كما يوجد فى أطراف عمان من جهة الغرب مدينة ظفار الحبوظى وهى واقعة بين عمان وحضرموت وفى ساحلها مدينة مرباط وهى ميناء ظفار وتبعد عنها بخمسة فراسخ .

أما حاصلات عمان فهى التمر والحنطة والذرة والشعير والنيلة والصندل والصبر والتبغ كما أنه يوجد فى أرضها من المعادن الرصاص والحديد والنحاس والكبريت .

وتوجد على سواحلها مغاصات اللؤلؤ .

القسم الخامس

الربع الخالى

والربع الخالى أو الدهناء هو اسم لصحراء مترامية الأطراف لاتزال إلى يومنا هذا مجهولة الداخل تمتد من جنوبى نجد إلى الحدود الصحراوية لعمان ومهرة وحضرموت وليس بهذه الصحراء عيون ولا أودية ترويها وإنما تجودها الأمطار فى مواسم معلومة فتعشب وعندئذ يؤمها البدو بخيامهم وإبلهم فيرعونها ثلاثة أشهر من أشهر

السنة فإذا أقبل فصل الجفاف هجروها وارتحلوا عنها .

وتسمى هذه الفلاة بأسماء مختلفة إذ يطلق على الجزء الواقع منها بين شرق مارب والجوف وشمال غربى حضرموت اسم صيهد كما يسمى الجزء الواقع فى شمال حضرموت الشرق باسم الاحقاف وكما يطلق اسم وبار على الجزء الواقع شمال مهرة على أن هـذا القسم يطلق عليه أيضا اسم « الدهناء » وذلك لحمرة رمال هـذه الصحارى وكثيراً مايطلق الناس عليه أيضا اسم « الربع الخالى » أى غير المعمور .

وطرق الربع الخالى مجهولة تمام الجهل وذلك لتسترها بالرمال التى تنقلها الرياح من حين لآخر .

وينقسم الربع الخالى إلى قسمين[1] أولهما الجزء الواقع إلى الجنوب والشرق وهو عبارة عن هضاب سهلة من الممكن اجتيازها ويقدر بنحو ثلث الربع الخالى .

وأما القسم الثانى فهو كافة الأراضى الواقعة فى الجهات الغربية والشمالية والتى تتكون من كثبان من الرمال الكثيفة ذات اللون الأحمر والأبيض وتقدر مساحتها بنحو ثلثى الربع الخالى .

---

(١) وفى أطراف الربع الخالى وفى وسطه البحر الساق وهو رمال رقيقة تبتلع الأجسام والأثقال التى تملؤها وهى فى منطقة شاسعة تسمى أم الصميم وحقيقة وصفها أنها من نوع السبخات التى تكون عند السواحل البحرية فإذا كان الجو رطباً كان المرور منها مستحيلا لرخاوة طينها وقلة مقاومتها للأثقال .

الفصل الثانى

الآثار اليمنية القديمة

من البلاد التى لا تزال بها بعض الآثار اليمنية القديمة ذات الشهرة العظيمة مدينة غَيْمان فى بلاد بنى بُهْلول وقد كانت بها مدافن حمير وكذلك صُرْواح فى بلاد خولان العالية وبها — على مايقول الهمدانى — عرش الملكة بلقيس الأعلى الذى لا تزال أعمدته الشاهقة قائمة إلى وقتنا هذا وكذلك توجد الآثار القديمة فى مدَرَة وأتوة فى بلاد أرحب وريدة وحصنها تُلْفُم وأما قصر غمدان بمدينة صنعاء فلم يبق له أثر يذكر .

هذا وتوجد آثار أخرى لا تزال قائمة فى النخلة الحمراء وفى حصن يَنْبُون بالحدا الذى يقول الهمدانى إن بعض ملوك حمير قد نحتوه حتى أخرجوا منه سيلا من بلد وراءه . هـذا عدا الآثار الموجودة فى بلاد عنس وظفار بيحصب وريام ببلاد همدان وروثان الواقعة بين الجوف ومارب وإرياب ببلاد يريم وفى ناعط[1] ببلاد حاشد وسلحين بمارب ومعين والبيضا والسودا وكَمْنى بالجوف وبراقش وكلها خاربة وآثارها ظاهرة .

---

(١) ذكر الهمدانى فى الجزء الثامن من الإكليل « أنه كان فى ناعط قصر ذى لعوة المسكعب والذى سمى بذلك الإسم لسكعاب خارجة فى مغارب حجارته على هيئة الدرق الصغار وبها ما يزيد على عشرين قصراً كبيراً سوى أماكن الحاشية وكان عليها سور ملاحك بالصخر المنجور وليس فيها قصر إلا وتحته كريف (محل لخزن الماء) مجوف فى الصفا مصهرج فما ينزل من السطح ابتلعه وفيها الاسطوانات (الأعمدة) العظيمة التى يبلغ طول الواحدة منها ما ينوف على العشرين ذراعا مربعا والتى نظراً لضخامتها لا يحضن الواحدة منها إلا رجلان » .

الجبال المشهورة والحصون والمعاقل

فى المنطقة الشرقية من مناطق اليمن كثير من الجبال العظيمة الشاهقة الارتفاع ذات الزروع والغروس والأنهار الصغيرة . ومن بين الجبال المشهورة فى مشارق اليمن جبل برط وهو جبل واسع يقع على جوانبه عدد كبير من البلدان كما أن كثيراً من المقافير تنبت فى أرضه وأهله من قبائل بكيل الذين اشتهروا بالقوة والمنعة والشهامة .

ومن جبال هذه المنطقة أيضا جبل صبر الشهير المطل على جبا وتعز والذى تنبت فيه كثير من الفواكه وأجود أصناف القات .

ومن حصونها حصن شهارة ويقال له أيضا حصن شهارة الأمير نسبة إلى الأمير ذى الشرفين محمد بن جعفر ابن الإمام المنصور بالله القاسم بن على العيانى وذلك نظراً لتوليه الإمامة بشهارة وقد تحصن بها أيام حروبه مع الصليحى فى القرن الخامس الهجرى.

ومن حصونها أيضا حصن كوكبان المطل على شبام وحصن ذى مَرمَر فى جبل الغِراس وكذلك حصن الدملوة بالمعافر وقد تحصن بهذا الحصن بنو الكِرَندى من حمير.

هذا عدا الحصون الكثيرة المنتشرة فى كافة أنحاء هذه المنطقة الجبلية المنيعة .

معادن اليمن ومناجمها

وتعتبر البلاد اليمنية نظرا لثروتها المعدنية العظيمة من أغنى بلاد العرب ومعادنها كثيرة جدا وقد قال الهمدانى فى « صفة الجزيرة » أن معدن الذهب موجود بكثرة فى محل الفُقَاعة من نواحى صعدة كما أنه يوجد أيضا فى أرض خولان . وأما معدن الفضة فيوجد بوادى الرضراض بين نهم ومَرْهِبة وكذلك يوجد معدن الحديد بُرغافة وهى قرية تقع على مرحلة من مدينة صعدة كما أن معدن العقيق موجود بآنس بن المان بن مالك وفيه البُقْران وهو من ألوان متعددة ومنه أيضا نوع يقال له المثلث وهو غالى الثمن يمتاز بأن وجهه أحمر فوق عرق أبيض فوق عرق أسود ومنه أيضا

صنف اسمه السَّمَوانية نسبة إلى الجهة التى يستخرج منها وهى وادى سموان المجاور لمدينة صنعاء وهو فص أسود فيه عرق أبيض ويوجد أيضا فى شهارة وعيشان من بلاد حاشد إلى جنب هِنوم وظُلَيمة والجِمْش فى شَرَف همدان .

ومن أحجار اليمن الكريمة « العشارى » وهو الحجر السماوى اللون ويستخرج من ناحية عُشار الغربية من مدينة صنعاء ، وكذلك البلور وهو يوجد فى مواضع كثيرة من البلاد كما يوجد العقيق الأحمر والأصفر العتيقان فى جهة الهان حيث يوجد منجم كبير يستخرج منه هذا الحجر النفيس. وقد ذكر الهمدانى أيضا أن فى اليمن كثيراً من الملح الطبيعى البرى وأن أجوده ببلاد مارب وهو ملح معدوم النظير نظرا لصفاء لونه حتى ليكاد يشبه البلور فى نقاوته وهو ملح ذكر ذو جوهرية .

هذا عدا مايوجد بسواحل تهامة من الأملاح الكثيرة كذلك يوجد الكبريت فى جبل لِسى على مقربة من مدينة ذمار والجص والرخام فى جبل ذَبَاب الموجود فى بلدة السر الواقعة فى شمال صنعاء إلى الشرق .

وأما معدن الفحم فيوجد فى ناحية بلاد الروس جنوبى صنعاء وفى كثير من الجهات الأخرى وأما معدن الرَّصاص فموجود بكثرة بجبل ثائبة من بلاد نهم وقد ذكره مؤلف كتاب طبق الحلوى وذكر أن فيه أيضا معدن الحديد والفضة[1]

هذا وقد اكتشفت آبار البترول فى الأيام الأخيرة فى شمال مدينة صنعاء .

وأما أحجار الأسمنت فموجود بكثرة فى جبال صنعاء وغيرها .

---

(١) كتاب « طبق الحلوى » هو كتاب وضعه العلامة الكبير والشاعر الشهير عبد الله بن على الوزير الذى كان من أكابر علماء اليمن فى عصره والذى برع فى العلوم العربية والتفسير والذى كانت له قصائد مشهورة ومؤلفات عطرة منها أقراط الذهب فى المفاخرة بين الروضة وبئر العزب ومنها طبق الحلوى وصحائف المن والسلوى وقد توفى سنة ١١٤٦ وهو من بيت كبير باليمن مشهور بالعلم والأدب .

الحاصلات الزراعية وفواكه الأشجار

زروع اليمن كثيرة منها الحنطة والذرة بأنواعها المختلفة والشعير والسُّلت والباقلا والعدس كما يزرع الغرب والدُّخن والسمسم بكثرة والآرز فى بلاد تهامة . وكذلك البن والقطن والتبغ .

أما فواكه اليمن فكثيرة جدا وأجلها العنب وأنواعه كثيرة تزيد على العشرين نوعا كالعنب الأبيض والعنب الرازق وهو غير مكروت والعنب العاصمى والأسود والعرق والزيتون والعَذارى وغيرها ومن الفواكه أيضا التين والرمان الحالى والحامض والمشمش والخوخ والبطيخ الأحمر والأصفر والسفرجل والليمون والبرتقال والأترج والموز والقثاء ويقال له الخيار وكذلك الكمثرى والأجاص والتفاح كما ينبت أيضا فى بلاد اليمن قصب السكر ولا سيما فى المناطق السفلى وكذلك يغرس به الجوز واللوز بكميات وافرة ومن الفواكه العَنَبُ باليمن الأسفل وهو الذى يسمى بعصر المنقّه .

وتنبت فى اليمن كثير من أنواع البقول كما تكثر فيه الزهور كالورد والياسمين والفل والنرجس وغيرها.

ويوجد فيه من نبات العقاقير شئ وافر وكذلك الغابات والواحات وتعرف فى اليمن باسم المياج منها هيجة الجرابع بتهامة والقصره اليمانية والشمالية ببيت الفقيه من تهامة

الثروة الحيوانية فى اليمن

فى اليمن من أنواع الحيوان الخيل وأشهرها الخيول الجوفية نسبة إلى بلاد الجوف وهى ليست كبيرة الجسوم ولكنها أكثر الخيول شهامة وأجمعها قلوبا وكذلك فيه الإبل وأشهرها الإبل المهرية وفيها النجائب التى تسابق الخيول والتى لا تتعب ولا تكل من كثرة السير وطول الشوط وفى اليمن أيضا البقر والحمير والغنم والظبا والوعول .

وفيه من السباع النمور والضباع والذئاب وبنات آوى والكلاب وغيرها ومن

الطيور الدجاج والحمام والفواخت والعصافير المختلفة ذات الألوان الجميلة والأصوات الرخيمة كما يوجد فيه الغراب والحدأة والنسر والصقر والهدهد والخفاش وغيرها وفيه النحل وعسله من أجود أنواع العسل كلها وأشهر أنواع العسل اليمنى كله العسل الحيمى والحَين من مساقط حَضُور والعسل الحضرمى والعسل الدباسى ويقول امرؤ القيس:

كأنَّ المسك والكافو ر بالراح اليماني
على أنيابها دهناً مع الشهد الحضوري

أمطار اليمن

أما أمطار اليمن فالوَسْمى ثم الربيع ثم الصَّيف وهو أهمها ثم الخريف ولها أنواء معروفة ومعالم وأكثر زراع اليمن يعتمدون فى أوقات زراعاتهم على مقارنة القمر للثريا ويقولون شهر التسع والسبع والثلاث وهكذا .

مواضع الرّياح

رياح المشرق القبول وهى الصَّبا ويقابلها من المغرب الدَّبُور والجنوب تهبُّ من اليمن ويقابلها الشَّمأل .

الفصل الثالث

القبائل اليمنية

للكلام على قبائل اليمن ولبيان نشأتهم وأصولهم يجب الرجوع إلى الوراء إلى فجر التاريخ ولذلك نستسمح القارئ عذرا إذا ما اضطرنا المقام إلى الإشارة باختصار وإيجاز إلى أصل العرب قاطبة وإلى نشأتهم وتسلسلهم وإلى الكلام والحديث عن القبائل العربية القديمة .

من المعلوم أن القبائل العربية تنقسم إلى بائدة وباقية وان البائدة هى قبائل عاد وثمود وطَسم وجَدِيس وجُرْهُم وغيرها كما أن الباقية هى قحطان وعدنان ولا تختلف علماء الأنساب فى أن قحطان هو أبو اليمن وهو قحطان بن عابر وهو هود عليه السلام وقد تفرع من ولد سبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان — حِمْيَر وكهلان ولكل منهما بطون كثيرة منها ما خرج من اليمن وانتشر فى بلاد العرب الأخرى ومنها مالا يزال باقياً إلى وقتنا هذا على أن أشهر بطون كَهْلان هم الأزْد وكانوا فى بادية اليمن وهم أولاد الأزد بن الغوث بن النَّبْت بن مالك بن زيد بن كهلان وقد تفرقوا بعد خراب السَّد ومنهم بارق والْمَع وغامِد ودَوْس وهؤلاء هم أزد شَنُوءة وقد سكنوا فى سراة عسير ومن الأزد أيضاً العَتِيك وقد سكنوا عُمان ولذلك يقال لهم أزْد عُمان للتفرقة بينهم وبين أزد شَنُوءة .

ومن الأزْد أيضا الغساسنة آل جَفْنة الذين ملكوا بلاد الشام والأوْس والخَزْرج الذين نزلوا المدينة . ومنهم أيضاً خُزَاعة الذين نزلوا مُرّ الظهران وسَوْف يأتى ذكر السبب فى خروجهم وتفرقهم فى البلدان .

ومن كهلان همدان بن أوْسَلَة بن مالك بن زيد بن كهلان ومن همدان القبيلتان العظيمتان اللتان تعتبران من أشهر قبائل اليمن وأشدها بأسا وهما حاشد وبكيل ابنا جُشَم بن حُبْرَان بن نَوْف بن همدان ومساكنهم فى الشمال مابين مدينتى صنعاء وصعدة وتقع منازل بكيل غالباً فى مشارق منازل حاشد كما تقع منازل حاشد فى الغرب من بكيل .

ومن بطون بكيل أولاد أرْحَب بن الدَّعَّام الأكبر ونِهْم ومَرْهِبَة وسُفيان بن أرحب وأولاد شاكر وهم وائلة وأختها دُهْمَة . ومن دهمة ذو غَيْلان الساكنون جبل بَرَط وهم ذو محمد وذو حسين وقد قال الهمدانى فى صفة الجزيرة عند ذكر جبل بَرَط: إن أهله هم أنجد همدان وحماة العورة ومنعة الجار ويسمون باسم قريش همدان .

وبطون حاشد كثيرة منها عِذَر والعُصَيمات وخارف وبنو صُرَيْم ومنهم أيضاً على ماذكره أكثر النسابين وادعة وقد قيل انهم من الأزد[1] وقيل انهم من حمير والأول أصح ومنازلهم فى بلاد حاشد ومنهم أيضاً من يسكنون فى بلاد صعدة وقد قال الهمدانى فى الجزء العاشر من كتابه (الإكليل) « إنما جاءت الغباوة من وادعة فى قولهم نحن من الأزد من أجل أمهم أم الغيث بنت عدى بن ثعلبة بن كنانة بن بارقة بن عمرو بن عامر بن مَزِيقيا الأزدى » .

ومن حاشد أيضاً قبيلة يام المشهورة التى يسكن أفرادها وادى نجران وما حوله كما أن من حاشد كذلك قبيلة حَجُور بن عُلَيَّان والاهنوم وحَجَّة وبنو شاوِر .

ومن كهلان مَذْحِج وهم أولاد مالك بن أُدَد بن عُرَيْب بن زيد بن كهلان ومن مذحج قبائل عنس ومراد والحدا والحكَم بن سعد العَشِيرة وزُبَيْد بأرض خُبَان وزُبَيْد شمال نجران ومن قراهم تَثْلِيث مسكن عمرو بن معديكرب الزُّبَيْدِى ومن

(١) إن نقطة الخلاف عندهم هى : هل هم من حاشد أم من بكيل ولا يعرف عندهم خلاف فى كونهم من الأزد .

عنس عَمَّار بن ياسر الصحابى ومن مراد أُوَيْس بن عبد الله القَرَنى التابعى المشهور وقيس بن المَكْشُوح وفَرْوَة بن مُسَيْك الوافد على النبى ﷺ . ومن مذحج أيضاً بنو الحارث بن كعب وصُدا والنَّخَع ومساكن النخع فى البيضاء وصُدا بينها وبين حضرموت .

ومن كهلان الأشاعرة من ولد الأشعر بن عُرَيب بن زيد بن كهلان ومساكنهم بوادى زبيد فى تهامة .

ومن الأشاعرة أبو موسى الأشعرى الصحابى المعروف الوافد على النبى ﷺ فى جماعة من أصحابه بعد غزوة خيبر .

ومن كهلان كِنْدة وطى وخَثْعَم وبَجِيلة ولَخْم وجُذَام ومن لخم نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة .

بطون حمير

أما بطون حمير فترجع إلى بطنين: البطن الأول الهَمَيْسع أبو الملوك التتابعة والإقيال والأذواء والثامنة والمباهلة

والبطن الثانى مالك وهو أبو قُضاعة ومن تفرع منها وهذا هو المشهور فى نسب قضاعة ومن النساب من يدخل قضاعة فى عدنان .

وقد قال القاضى نشوان [1] فى (كتابه شمس العلوم) وإنما كان ذلك أيام العصبية فى وقت معاوية وابنه يزيد اللذين بذلا لرؤسائهم (رؤساء قضاعة) أموالا جسيمة

(١) القاضى نشوان هو أبو الحسن بن سعيد الحميرى علامة اليمن وأديبها الأوحد فى عصره له مؤلفات مشهورة منها شمس العلوم فى اللغة العربية وهو دائرة معارف مرتبة حسب الحروف الأبجدية وقد اختصره ابنه على بن نشوان فى كتاب سماه « ضياء الحلوم » وللقاضى أيضاً رسالة أدبية طريفة اسمها « الحور العين » وقصيدة فى ملوك حمير مطلعها :

الأمر جد وهو غير مزاح فاختر لنفسك صالحا يا صاح . وشرحها

وتوفى سنة ٥٧٣ هـ .

لحضهم على الانتفاء من اليمن والانتساب فى مَعَد وقد ساعدهما فى ذلك بعض رؤسائهم فلما بلغ قضاعة ذلك غضبوا غضبا شديدا وأنكروا ذلك الأمر أشد الإنكار فحشدوا واجتمعوا ثم دخلوا مسجد دمشق يوم الجمعة على يزيد وهم يرتجزون ويقول راجزهم

يا أيها الداعى ادعنا وابشر وكن قُضَاعِيًا ولا تَنَزَّر
نحن بنو الشيخ الهجان الأزهر قُضَاعة بن مالك بن حمير
النسب المعروف غير المنكر من قال قولا غير ذا تنصر [1]

ثم قالوا ليزيد إنا قوم من أهل اليمن يسعنا مايسعهم ويضيق عنا ما ضاق عنهم فالحقنا بهم . قال قد فعلت ومن ولد الهميسع قبيلة يحصب والأشعوب وذو الكلاع ومن هذه الأخيرة انحدر بنو وائل الذين كانوا ملوك وُحاظة وذو رُعين .

ومن ذى رعين الأَذْلُوك وآل مهدى ملوك عُتمة والشَّراحيُّون الذين كانوا ملوك وُصاب ومن أشهرهم عبد الله بن يوسف الشَّراحى الذى كان معاصرا للخليفة المأمون ولم يدن له بغير السكة .

ومن الهَمَيْسع أيضا يافع وهم بطون كثيرة وسبأ الأصغر ومنه آل الكرندى ملوك المعافر وأصحاب حصن الدُّمْلُوَة ومنه ذوحُوال جد آل يَعْفُر الذين تولوا الملك فى مخلاف أقيان وشبام كوكبان .

ومن سبأ الأصغر آل ذى يَهَر صاحب حصن بيت حَنْبَص بجبل حَضور ومن ذريته الشيخ أبو نصر أستاذ الحسن بن أحمد الهمدانى مؤلف كتاب الإكليل . وقد هرب أبو نصر هذا إلى صعدة أيام أبى المَلَاحِف القرمطى قائد جيش على بن الفضل لما قصد بيت حنبص وخرَّب حصن ذى يهر كما ذكر ذلك القاضى نشوان فى شمس العلوم .

ومن الهميسع التباعيون والسَّحُول وجهران والشَّوافى ووُحَاظة وبَعْدان ومَيْتَم

(٢) البيت بتمامه فى سير ابن هشام هكذا :

النسب المعروف غير المنكر فى الحجر المنقوش تحت المنبر

وآل ذى مناخ ومنهم الأمير جعفر بن ابراهيم بن محمد ذى الشُّلَّة الناخى وإليه ينسب مخلاف جعفر لا إلى جعفر مولى ابن زياد كما قال القاضى عمارة اليمنى فى كتابه «المفيد».

وأما بطون قضاعة فخولان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة فى بلاد صعدة وخولان التى فى مشارق صنعاء ويقال لهم خولان العالية.

وقد قال القاضى نشوان إنهم سموا بهذا الاسم لأن خولان كلها كانت بمارب فى صُرْوَاح وهو قصر لهم ولما ارتفع بعضهم إلى الجبال الكائنة شرق صنعاء أطلق عليهم هذا الاسم وأما سائرهم فبقى بمارب حتى خرجوا فيما بعد إلى صعدة وقد قال شاعر خولان العالية فى ذلك.

أيها السائل عن أنسابنا ... نحن خولان بن عمرو بن قضاعة

نحن من حمير فى فروتها ... ولنا المِرْباع[1] فيها والرِّباعة

ومن خولان العالية أبو مسلم الخولانى واسمه عبد الرحمن بن مِشْكم وكان من خيار التابعين وقيل إن خولان العالية من خولان بن عمرو بن مالك بن الحارث بن مُرَّة ابن أدد بن زيد بن عمرو من عُرَيب بن زيد بن كهلان لأنهم لو كانوا من خولان قضاعة لما قيل لهم خولان العالية على أن هذا القول لا قيمة له إذ أنه يخالف قول علماء الأنساب ولأن خولان العالية أنفسهم معترفون بأنهم من قضاعة ولأن اسم خولان العالية إنما أتى من الخلاف فى البلاد لا للفرق فى النسب كما تقول العرب طى السهل وطى الجبل وأزد شَنُوءة وأزد عُمان وهمدان البَوْن وهمدان الحجاز وزُبَيْد نجران وزُبَيد اليمن وعِذَر مَطِره وعذر شَعْب ونحو ذلك وهذا كثيرٌ لا يحصى انتهى.

ومن قضاعة أيضاً بنو شهاب أهل المخلاف المسمى باسمهم فى جبل حضور كما قال القاضى نشوان بن سعيد وقيل من كندة.

---

(١) المرباع ربع الغنيمة الذى كان يأخذه الرئيس فى الجاهلية، والرباعة الرياسة وحسن الحال.

ومن قضاعة مَهْرة بن حَيْدان وبنو جُماعة وبنو مَجيد وكانوا ملوكا فيما بين عدن وعمان.

ومن قضاعة أيضاً سحار ورازح وبنو مُنَبِّه والصَّيْعر وغيرهم وتسكن تهامة اليمن قبيلة عك المشهورة وأفرادها ولد عك بن عدنان بن عبد الله بن الأزد فى أصح القولين ويقال أيضا إنهم ولد عك بن عدنان أخى معد.

وقد قال القاضى نشوان بن سعيد فى شمس العلوم ان الأمر ليس كذلك وإنما سبب نسبتهم فى معد أن غسان وقت خروج الأزد من مارب نزلوا تهامة وبها عك فتلاحت عك وغسان واقتتلوا فقتلت غسّان عكا قتلا ذريعا وأجلتها عن الكثير من أوطانها فمن ثمة انتفت عك من اليمن وانتسبت فى عدنان وقد قال القاضى نشوان

ألم تر عكّا هامة الأزد أصبحت ... مُذَبْذَبَة الأنساب بين القبائل

وعقت أباها الأزد واستبدلت به ... أبا لم يلدها فى القرون الأوائل

وعك بطون كثيرة بتهامة منها عَبْس وغافق والقُحْرى والجرابح والحَجْيا والواعِظات والزَّعْلِيَّة وبنو جامع والعُجَيْبَة من قبائل اللَّحَيَّة وسُلَيل والعَبْسية وغيرهم.

ومن القبائل التى تسكن بلاد اليمن قبائل الزَّرَانِيق والمعازبه وهؤلاء يتفرعون إلى بطون كثيرة. ومن قبائل تهامة قبيله بنى مَرْوان والمسارحة والحُرُث وغيرهم ومنها أيضا قبيلة الصَّبَيْحة وهم الأصابح من حمير ومنهم الإمام مالك بن أنس الأصبحى إمام دار الهجرة وصاحب المذهب الشهير:

ومن سكان تهامة فى الشمال الحَكَمِيُّون من أولاد الحَكَم بن سعد العشيرة وينسب لهم مخلاف الحكم ونسبهم فى مذحج كما سبق.

على أن هذا الذى ذكرناه آنفا إنما هو بعض من كل وأنموذج للقبائل اليمنية

ذكرناه ليكوّن القارىء فكرةً عن القبائل اليمنية ولم يكن غرضنا الحصر لأن ذلك لايتسع له هذا المقام .

أشراف اليمن

ومن سكان اليمن الأشراف سادات الجبال وأكثرهم من أولاد الإمام الهادى الى الحق يحيى بن الحُسَين بن القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وهو موسس الدولة الهاشمية فى اليمن وسيأتى ذكر ذلك فيما بعد

ومنهم السادة الكباسيّة وهم أولاد ضوه عبد الله ابن الحسين بن القاسم وأكثرهم يسكنون قرية الكبس بخولان العالية ومنهم الحمزات من أولاد الإمام حمزة بن أبى هاشم ويسكن أكثرهم فى بلاد الجوف ومنهم السادة بنو الأمير يحيى بن حمزة صنو الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة .

ويسكن اليمن من الأشراف أيضاً أولاد محمد بن القاسم الرَّمّى وهم ذرية الإمام المنصور بالله القاسم بن علىّ بن عبد الله بن محمد بن القاسم المشهور بالعيانى لسكونه حصن عيان ويطلق عليهم اسم القواسم وأكثرهم فى بلاد الجوف .

ومن سادات الجبال آل الوزير الذين يجمعهم الأمير العفيف بن منصور ومنهم الإمام الحجة محمد بن إبراهيم مؤلف « العواصم والقواصم » ومختصر الروض الباسم والسادة بنو الشامى من آل يحيى بن يحيى .

ومن سادات اليمن الذين فيهم كثرة وأدب أولاد الإمام المتوكل على الله يحيى شرف الدين ابن شمس الدين بن الإمام المهدى أحمد بن يحيى المرتضى والمهدى هو مؤلف كتاب البحر الزخار الجامع لمذاهب الأمصار وغيره من المؤلفات الشهيرة .

وممن بارك الله فى نسله بعد الألف الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد مؤسس الدولة القاسمية وكان فى أولاده الملك والرياسة باليمن من بعد الألف إلى وقتنا الحاضر .

وأولاده المؤيد بالله محمد بن القاسم والحسن والحسين والمتوكل على الله إسماعيل وأحمد وعبد الله وعلىّ وهذا الأخير لم يعقب .

ومن سادات اليمن أيضاً العباسيون وهم من أولاد العباس بن على بن أبى طالب كبنى الطاع وكذلك يوجد بين السادة لليمن حُسَينيون من ذرية الحسين بن على منهم السادة بيت عُشَيْش وآل الشِرعى ؟ فى حوث وهم من ذرية الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة ومن سادات اليمن بنو الديلمى من ذرية الإمام أبو الفتح ناصر بن الحسين الديلمى.

ومن سادات اليمن أيضا أشراف تهامة أولاد موسى الجون بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن على بن أبى طالب وهم كثيرون منهم النُّمَيِّيُّون والخُواجِيُّون والغَوانِم والذَّرَوات والقُطْبِيُّون والحَوازمة وغيرهم .

ومن أشراف تهامة بنو الأَهْدَل وبنو القُدَيمى وبنو علوى وهم من ذرية الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق وفيهم كثير من أهل العلم والأدب .

ومن أشراف تهامة أيضا أشراف أبى عريش من ذرية الشريف أحمد بن محمد بن خَيْرات بن بَشِير من آل أبى نُمَىّ وقد خرج جدهم خيرات بن بشير من مكة المشرفة فى القرن الحادى عشر وسكن بأبى عريش ومن هذا البيت أمراء تولوا حكم المخلاف السليمانى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر منهم الشريف الماجد حمود بن محمد الذى ألف فى سيرته القاضى البهكلى كتاب نفح العود فى إخبار الشريف حمود .

ومن أشراف تهامة السادة الأدارسة الساكنون فى مدينة صبيا وهم من ذرية السيد أحمد بن محمد الإدريسى الذى وصل إلى بلاد اليمن من بلاد المغرب فى القرن الثالث عشر وسكن صبيا بعد تنقله فى تهامة وينتهى نسبه إلى الإمام إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن .

ولا يفوتنا أن نذكر بين أشراف اليمن سادات حضرموت وهم آل باعلوى من ذرية السيد أحمد بن عيسى بن محمد بن على بن جعفر الصادق بن محمد بن على بن الحسين

ابن على بن أبى طالب ويعرفون هناك باسم الأحباب آل باعلوى ولهم سلطة روحية عظيمة فى البلاد وكان خروج جدهم أحمد بن عيسى إلى حضرموت من البصرة فى القرن الرابع ولذلك عرف باسم المهاجر وسكن قرية الحُسَيْسَة بحضرموت .

وقد عرف سادة حضرموت بعلو الهمة والمروءة كما أن لهم أكبر الأثر فى الدعاية الإسلامية وفى بثها فى أفريقية الجنوبية وفى بلاد جاوه وقد صلح بهم جيل عظيم من الناس .

ومن مشاهيرهم السادة آل السقاف وآل الكاف وبنو الحبشى والعيدروس وغيرهم .

وفى حضرموت قبائل مشهورة منهم من يسكنون الحواضر كآل كثير ونهد وآل تميم والعوامر وآل جابر وآل باجرى ومنهم من يسكنون البوادى كالمناهل والأحْمُوم والمِشْقاص والصَّيْعر وبعض من بطون حمير .

وفى اليمن أشراف آخرون غير من ذكرنا ومن بيوتات قريش آل أبى الرِّجال وينتسبون إلى الخليفة عمر بن الخطاب وفى اليمن بقيّة من الأبنا والحبشة والأتراك وغيرهم .

هذا وقد سكن اليمن جم غفير من اليهود تحت الذمة ولكنهم أخلوها فى الزمن الحاضر بهجرتهم إلى فلسطين .

وليس لسكان اليمن إحصاء رسمى والمعتقد أنهم لاينقصون عن خمسة ملايين وأهل اليمن أهل ذكاء وفطنة وكرم وشجاعة وإقدام فى خوض الحروب ولسلفهم أثر عظيم فى الفتوحات الإسلامية وستأتى الإشارة إلى ذلك .

الباب الثانى

اليمن قبل الإسلام

سنتكلم فى هذا الباب عن الدول التى حكمت اليمن قبل الإسلام حتى ظهور النبى محمد صلوات الله عليه ، وهذه الدول هى :

(١) دولتا سبأ وحمير وما قيل فى مَعِين .

(٢) دولة الحبشة فى اليمن .

(٣) دولة الفرس .

وسنفرد للكلام على كل دولة من هذه الدول فصلا خاصا نتحدث فيه عن أشهر ملوكها وعن حضارتها وتجارتها وآثارها والحوادث المشهورة التى وقعت فى عهدها .

هذا وما من شك فى غموض التاريخ القديم قبل الإسلام ومن أجله اختلفت أقوال المؤرخين فى أسماء الملوك وترتيبهم وقد يُثبت بعضهم من الحوادث العظام ما ينفيه الآخر ولكنا فى هذا المختصر نذكر أشهر الأقوال .

الفصل الأول

دولتا سبأ وحمير

قال ابن خلدون فى تاريخه : « كانت الدولة والملك فى بنى قحطان متصلة من يعرب ابن قحطان وكان من أعاظم ملوك العرب حتى ليقال إنه أول من حيّاه قومه بتحية الملك وقد ولّى بنيه على أطراف البلاد ثم تسلسل الملك إلى سبأ بن يشجب بن يعرب ثم فى دولة كهلان وحمير ثم فى أولادها وقد اختلف المؤرخون فى تعدادهم وترتيبهم اختلافاً كبيراً .

كما ذكر بعض المتأخرين[1] دولة معين وقال إن المستشرقين كشفوا آثارها فوجدوا فى الكتابة التى على أحجار مدينتها ما يفيد أن سلطان هذه الدولة كان قد امتد إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط وشواطئ الخليج الفارسى وبحر العرب أى أنها استولت على جميع مناطق شبه جزيرة العرب وأنها كانت دولة تجارة وسلام لا فتح وحرب واحتملوا أن هذه الدولة كانت متقدمة وأنه قد تأسست على أثرها دولتا سبأ وحمير وأن دولة حمير إنما هى فرع من سبأ غير أن دولة حمير تمتاز على دولة سبأ ومعين بأنها كانت دولة فاتحة وأنها حاربت الفرس والأحباش وغيرهما .

على أن فى كلام الهمدانى فى كتابه « الإكليل » ما يشعر بأن دولة مَعين إنما هى من حمير .

(١) مؤلف دائرة المعارف العربية .

أشهر ملوك حمير

لاشك فى أن أوسع ملوك حمير شهرة إلى اليوم الملكة بلقيس بنت الهدهاد بن شُرَحْبيل بن ذى سَحَر من المثانة وقد عاصرت هذه الملكة النبى سليمان بن داود عليه السلام وقد حكى الله جل وعلا قصتها فى القرآن الكريم فقال «وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم » .

والعرش هو القصر المعروش على دعائم من حجارة وقال أسعد تبع فى وصف قصر الملكة بلقيس بمدينه مارب هذين البيتين .

عرشها شَرْجَع[1] ثمانون باعا كلّلته بجوهر وفريد
وبدرّ قد قيدته وياقو تٍ وبالتبر أيما تقييد

وقد قال القاضى نشوان فى شمس العلوم: إن باقى دعائم قصرها معروف بمارب وإنها قد انكبست وبقى منها فى الطول على هيئة أطول الرماح وإنه لو اجتمع رِجيلٌ من الناس على قلع دعامة واحدة منها لما قدروا وقال إن الواحدة منها لو احتضنها رجلان ومدا باعيهما لا تلتقى أيديهما عليها .

وقال الهمدانى فى «الإكليل» إن أعمدة العرش السفلى (يعنى عرش بلقيس الذى فى صرواح) قيام إلى اليوم ولو اجتمع رِجيلٌ على أن يصرعوا واحدة منها لما قدروا لأن كل عمود منها نقر له فى الصفا ثم ألقم أسفله ثم صب بينهما القِطْر .

ومن ملوك حمير الملك شَدّاد بن عاد بن السَّكْسَك بن وائل بن حمير وقد قال الهمدانى فى الإكليل إن هذا الملك قد دوّخ الأرض وإنه وصل بفتوحاته حتى سمرقند وأرمينيا .

ومنهم الملك ذو الأذعار وقد سمى بهذا الاسم لمجيئه بالأسرى من افريقيا ويعرف

(١) الشرجع هو التابوت .

أيضا باسم ناشر النِّعَم ويقال له ياسر أنعُم وقيل بأن هذا هو الموافق لما جاء فى الآثار

وقد قال ابن خلدون فى تأريخه نقلا عن هشام بن الكلبى بانه هو الذى غزا أفريقيا وبلغ وادى الرمل وكتب على صنم من نحاس على شفير الوادى بالخط المسند « هذا الصنم لناشر النعم الحميرى ليس وراءه مذهب فلا يتكلف ذلك أحد فيعطب ».

ومنهم الملك شَمَر يَرْعِش بن الملك ناشر النعم وهو تبع الأكبر وقد قيل انه هو الذى ذكره الله فى القرآن (١) وقد غزا هذا الملك بلاد الصين وغيرها من البلدان وسمى باسم يَرْعِش نظرا لارتعاش كان به .

ومن ملوكهم عمرو بن عامر بن مَزِيقِيا صاحب سبأ الذى خرب السد فى أيامه وقد رحل من اليمن ومعه كثير من الأزد الذين تفرقوا فى الأرض وسيأتى ذكر ذلك .

ومنهم الملك أسعد تُبَّع أبو كَرِب وقد قيل انه آمن بالرسول صلوات الله عليه ولم يره وكان عارفا بالنجوم وأحكام القِرانات وطاف بكثير من البلاد ومر فى رحلته بالمدينة المشرفة فقيل له إنها سوف تكون مهاجَر النبى فأحسن إلى أهلها وكسا البيت الحرام وقد رويت له هذه الأبيات .

شهدت على أحمد أنه ... رسول من الله بارى النَّسَم
له أمة سميت فى الزبور ... فأمة أحمد خير الأمم
فلو مد دهرى إلى دهره ... لكنت وزيرا له وابن عم
وكنت ظهيرا على المشركين ... أسقيهم كأس حرب وهم

وقد أخرج أسعد الحَبْرين اليهوديين اللذين لقيهما بمدينة يثرب فما كا حمير فى دينها إلى النار وهذه القصة مشهورة وعندئذ تهودت حمير وقد كانت تعبد الأوثان كما كان فيها من يعبد الشمس كما جاء فى حديث الهدهد مع سيدنا سليمان إذ قال « وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ».

(١) فى سورة ق « وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد ».

واعتل أسعد تبع علة الموت بمدينة غيمان ومات بها وأوصى بالملك إلى ابنه حَسَّان فحكم حمير ومن أخبار حسان هذا غزوه لقبيلة جَدِيس باليمامة انتصارا لأختها طَسْم وقتل الزَّرقا التى كانت تنظر الراكب من مسافة ثلاثة أيام وقد ذكر ذلك ابن الأثير وغيره من المؤرخين وسبقت الإشارة إلى أن قبيلتى طَسْم وجَدِيس من العرب البائدة وقد كانت القبيلتان باليمامة وفيها آثار قديمة أشار إليها الهمدانى فى كتابه « صفة الجزيرة ».

وروى ابن هشام فى مقدمة السيرة أن حسان سار بحمير عن بلادها يريد غزو بلاد العرب والفرس كما كانت تفعل التبابعة فكرهت حمير البقاء معه وأرادوا الرجوع إلى بلادهم فكلموا فى ذلك أخا لحسان كان معهم فى العسكر يقال له عمرو وقالوا له اقتل أخاك ونحن نملكك علينا وترجع بنا إلى بلادنا فاتبع مشورتهم وقتل أخاه حسان برحبة مالك بن طَوْق من أرض العراق ورجعت حمير إلى اليمن ولكن عمرا ندم على ما فعله وعلى غدره بأخيه فأخذ يقتل وزراءه الذين أشاروا عليه بقتل حسان ولم يسلم من رؤساء حمير غير ذو رعين لأنه كان الوحيد الذى خالفهم والذى نصح عمرا بأن لا يقتل أخاه ولما أصر على قتله أودعه صندوقا جعل فيه هذين البيتين .

ألا من يشترى سهراً بنوم ... سعيد أم يبيت قرير عين
فأما حمير خدعت وخانت ... فمعذرة الإله لذى رعين

هذا وفى ملوك حمير كثير من الأذوا والأقيال منهم قيل ذى رُعَين وقيل ذى يَزَن وقيل ذى جَدَن وقيل ذى فايش وقيل ذى يَهَر وقيل ذى حُوال وقيل ذى مَنَاخ وقيل ذى الكِلاع وغيرهم وقد أشار إليهم القاضى نشوان فى قصيدته الحائية (١) التى سبق أن أشرنا إليها والتى مطلعها :

الأمر جد وهو غير مزاح ... فاختر لنفسك صالحا ياصاح

(١) تضمنت أعداد مجلة الحكمة اليمانية تعليقاً على هذه القصيدة بقلم المؤلف .

ومن آخرهم الملك ذو نواس واسمه يوسف وهو صاحب الأخدود الذى ذكره الله فى كتابه العزيز حيث قال : « قتل أصحاب الأخدود » وسوف يأتى ذكر ما كان من أمره بعد خروج الحبشة إلى اليمن .

حضارة الحميريين وآثارهم وتجارتهم

كانت لحمير حضارة عظيمة وتقدموا تقدماً ملموساً فى طرق الرى وعمارة السدود والقناطر ورسخت أقدامهم فى مختلف الصناعات والهندسة والفنون كما يشهد بذلك ما كان لملوكهم من المسكوكات الذهبية والفضية والنحاسية وما نقشوه عليها من النقوش المحكمة التى تدل على براعة فى فن الزخرفة والتصوير وما خلفوه من التماثيل العجيبة التى صنعوها من المعادن والأحجار وما كتبوه عليها بالقلم المسند وما تشهد به آثارهم من المبانى الضخمة وما نحتوه من الجبال كبينون وغيره مما سبق ذكره .

ولقد كانت لليمن فى أيامهم تجارة واسعة مع مختلف الأقطار وكانت واسطة التجارة بين الشرق والغرب تحمل إلى الشرق ما ينتجه الغرب وإلى الغرب ما ينتجه الشرق .

تفرق الأزد بعد خراب سد مارب

لما تطاولت الأيام على سد مارب امتدت إليه يد البلى فتصدعت جوانبه وفاضت المياه على ما أمامه من القرى والدساكر والحقول فأتلفتها فكان من نتيجة ذلك هجرة الأزد المشهورة وتفرقهم فى البلاد نزولا على رأى رئيسهم عمرو بن عامر بن مزيقيا حيث خرج هو وعشائره يرتادون لهم مواضع صالحة لسكناهم وتقوم مزروعاتها بحاجاتهم وحاجة مواشيهم من إبل وبقر وأغنام وخيول وكان الأزد فى كثرة عظيمة فتفرقوا فى كل مكان حتى ضرب المثل بتفرقهم فيقال تفرقوا أيدى سبا إذ نزل ثعلبة بن عمرو أرض الحجاز وسكن المدينة ومن أبنائه الأوس والخزرج كما نزل حارثة بن عمرو

الحرم المكى وأحلى هو ومن كان معه سكانه من جُرْهم وسارت قبيلة نصر بن الأزد إلى تهامة فسكنتها وسار جَفْنة بن عمرو إلى الشام فحط رحاله فيه وجفنة هذا هو أبو الملوك الغساسنة كما سكنت قبيلة لَخْم بن عَدِى بالحيرة وهؤلاء ليسوا من الأزد بل من كهلان ومنهم نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة . ونزلت أزد شنوءة وهم ألمع وغامد وزهران ودوس فى سراة عسير كما نزلت قبيلة العَتِيك بن الأزد فى عمان وقبيلة طيء جبلى أجا وسلمى فى الشمال الغربى من المدينة وهى خارجة عن الأزد وكذلك خَثْعَم وبجيلة .

وقد بقيت باليمن قبائل كثيرة من حمير وكِنْدة ومَذْحِج وهمدان وغيرهم وقد قال الهمدانى فى « صفة الجزيرة » فى ذكر هجرة الأزد إنهم عند خروجهم من مارب أقاموا بأرال وجانب بلد همدان فى جوار ملك حمير فى ذلك العصر حتى استَحْجَرت خَيْلهم ونَعَمهم وماشِيَتهم وصلح لهم طلوع الجبال فطلعوها من ناحية سهام ورِمَع وهبطوا منها على ذوال وغلبوا غافقا عليها وأقاموا بتهامة حتى وقعت الفرقة بينهم وبين كافة عك فساروا إلى الحجاز فِرَقاً فصار كل فخذ منهم إلى بلد فمنهم من نزل السَّروات ومنهم من تخلف بمكة وما حولها ومنهم من خرج إلى العراق ومنهم من سار إلى الشام ومنهم من رمى قصد عُمان واليمامة والبحرين وفى ذلك يقول جُمَاعة البارقى :

حلّت الأزد بعد ماربها الغوْ ... ر فأرض الحجاز فالسَّروات
ومضت منهم كتائب صدقٍ ... منجدات تخوض عرض الفلات

إلى آخر ما ذكره فيما قيل فى هجرة الأزد من الشعر .

الفصل الثانى

غزو الأحباش لليمن

كان الملك ذو نواس السابق ذكره واسمه يوسف قد دان باليهودية وتعصب لها ، ولما بلغه أن أهل نجران قد دخلوا فى دين المسيح عيسى عليه السلام غضب غضباً شديداً وأراد الانتقام منهم فسار إليهم وقاتلهم وجعل لهم أخاديد فى الأرض وأحرق منهم فيها خلقاً كثيراً وكان ممن فروا من الموت رجل اسمه دوس ذو ثعلبان سار إلى هرقل عظيم الروم وشكا إليه ماحلّ بقومه بسبب تنصرهم وكان هرقل هذا هو حامى المسيحية فى ذلك الوقت فلما سمع ذلك هاله ما سمع وأمر النجاشى ملك الحبشة الذى كان يدين بالنصرانية بالانتقام من ذى نواس وبعث إليه بسفن كثيرة ملآى بالسلاح والمؤونة وعندئذ أرسل النجاشى جيشاً لَجِبًا من الأحباش وجعل عليه قائداً اسمه إرياط ونزل هذا الجيش بساحل اليمن كما جمع ذو نواس جيشاً من حمير وممن أطاعه من أهل اليمن على اختلاف وافتراق فى الأهواء والأميال فتقابل الجيشان ولم تطل الحرب بينهما إذ انهزمت حمير هزيمة منكرة ولما رأى ذو نواس ماحلّ بقومه وكان بالساحل وجّه بفرسه إلى البحر واقتحمه حتى غرق وكان هذا آخر عهده بالملك الذى دام له ثمانى وثلاثين سنة على ما ذكره الهمدانى فى كتابه « الإكليل » .

ولما وطئ الأحباش أرض اليمن عاثوا فيها فساداً فأذلوا أهلها ودكوا حصونها ودمروا مصانعها وهدموا مبانيها ولم يبقوا فيها على شىء وأراد الله أن ينشب خلاف بين أبرهة أحد قواد جيش الحبشة وبين إرياط وكادت تقع الحرب بين فريق جيش الحبشة فدعا أبرهة خصمه إرياط للنزال وتقدما للمبارزة فاختلفا بضربتين وكان لأبرهة

مملوك اغتال إرياط من الخلف فقتله وأصابت أبرهة ضربة بشفته قطعتها ولذلك سمى بالأشرم. فتولى إبرهة بعد ذلك على اليمن ثم حدثته نفسه أن يبنى بموضع قصر القُلَيْس (١) بمدينة صنعاء كنيسة كبيرة جمع لها الرخام من كل مكان وزخرفها بالفُسَيْفساء وأراد أن يصرف إليها حج العرب بدلا من مكة وتحدث العرب فى ذلك وغضب رجل من بنى فُقَيم بن عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحرث بن مالك بن كنانة فخرج حتى أتى القليس فأحدث فيها ولحق بأرضه .

ولما بلغ أبرهة مافعله ذلك الكنانى غضب وعزم على هدم البيت الحرام وجمع الجموع الكبيرة وسار بهم إلى مكة (٢) ومعه الفيلة وكان أعظمها فيلا اسمه محمود . ولما اقترب أبرهة من مكة فر منه أهلها وتحصنوا بالجبال لعجزهم عن مقاومة هذا الجيش الكبير وأصاب جيش أبرهة إبلاً لعبدالمطلب بن هاشم رئيس أهل مكة فسار إلى أبرهة يراجعه فى شأنها وكان عبدالمطلب شيخاً جليلاً وسيماً فلما رآه أبرهة نزل عن سريره تكريماً له وسأله عن حاجته فكلمه عبدالمطلب فى شأن الإبل فعجب لذلك أبرهة وقال له اننى جئت لكى أهدم البيت الذى هو مفخرتك ومفخرة آبائك وتكلمنى فى الإبل فأجابه عبدالمطلب إنما أنا رب إبلى وإن للبيت ربا يحميه فردها عليه وأرسل الله على أبرهة وجنوده طيراً أبابيل (أى جماعات) من البحر ترميهم بحجارة من سجيل فلا تصيب أحداً إلا هلك مكانه وأصابه فى موضع الحجر من جسده كالجدرى وأصيب أبرهة فى

---

(١) القليس كان قصراً لبعض ملوك حمير ذكره القاضى نشوان فى شمس العلوم .

(٢) فى السيرة أن الجيش الذى غزا به إبرهة البيت الحرام كان عدده ٦٠,٠٠٠ كما قال ابن الزبعرى من أبيات يذكر فيها حرم مكة وهى :

ستون ألفاً لم يؤوبوا أرضهم ... بل لم يعش بعد الإياب سقيمها
كانت بها عاد وجرهم قبلهم ... والله من فوق العباد يقيمها

ويعنى بقوله سقيمها أبرهة إذ حملوه معهم حتى مات بصنعاء وقد أصابه ما أصابهم .

جسده بمثل ذلك وأرجع إلى صنعاء حيث مات وخرجت الأحباش من مكة هاربين يبتدرون الطريق التى جاءوا منها فكانوا يتساقطون بكل مَهْلِك وعلى كل مَنْهل وكانوا قد بعثوا إلى مكة بالفيل الأكبر ولكنه حسر ولم يتحرك فقدموا فيلاً آخر فحسب وبعث الله سيلاً عجفا فذهب بهم وألقاهم فى البحر .

ولما هلك أبرهة تولى أمر الحبشة باليمن ابنه يَكْسُوم وقد استفحل ملكه وأذل حمير ثم هلك يكسوم بن أبرهه فملك الأمر أخوه مسروق وساءت سيرته وعظم سفه وظلمه حتى ضج منه الأهلون واستعانوا عليه بكسرى ملك الفرس وقتلوه بعد أن هزم جيشه هزيمة منكرة وسيأتى ذكر ذلك .

ويليق أن نذكر هنا شيئاً وهو أنه لا خلاف بين المؤرخين أن سبب خروج الحبشة إلى اليمن هو الانتقام من ذى نواس الحميرى لما قتل نصارى نجران وأن الحبشة هم أصحاب الفيل الذين ذكرهم الله فى كتابه وأهلكهم لما أرادوا هدم البيت الحرام غير أن من الناس من نقل عن كتاب الفاصل بين الحق والباطل وينسب تأليفه إلى الحسن بن أحمد الهمدانى إنكار ما رواه ابن هشام وغيره من المؤرخين أن أبرهة الأشرم الحبشى عمر كنيسة القُلَيس بصنعا وأنه أراد أن يصرف حج البيت الحرام إليها وأن غزوهم مكة كان من اليمن بل يقول ان خروج الحبشة كان ابتداء من البحر إلى مكة وانهم هلكوا إثر غزوتهم ولم يتملكوا اليمن والمشهور ما ذكرناه سابقاً .

الفصل الثالث

دخول الفرس اليمن

لما عظم عسف الحبشة باليمن سار سيف ابن ذى يزن الحميرى إلى كسرى ملك الفرس وطلب نصرته على الأحباش واسترجاع ملك حمير منهم فوعده بأن يمده بالمال ولكن سيفاً لم يقبل ذلك وقال لكسرى إن المال عندنا كثير ولا حاجة لنابه وعندئذ أشار بعض مرازبة الملك عليه بأن يمده بمن فى سجونه وقال إن ظفروا فأبناؤك وإن قتلوا فأعداؤك فأمده بهم ووهبهم له فسموا الأبناء وقيل إنما سموا الأبناء لأنه يقال لهم أبناء سيف فسار بهم سيف ورأس عليهم كسرى رجلا من فارس اسمه وهرز الذى تقدم بهم من الخليج الفارسى حتى نزل على شاطىء حضرموت ثم نزل عدن ومنها توجه إلى صنعاء وقد التحق بسيف كثير من رجال قبائل قحطان وكانت الحرب بين الحبشة وفارس فانتصر وَهْرَز انتصاراً عظيماً وقتل ملك الحبشة[1] باليمن وتوج سيف بن ذى يزن ملكاً على حمير فأقبل عليه رؤساء العرب ووفودهم يهنئونه برجوع ملك آبائه وكان ممن وفد عليه لهذا الغرض عبدالمطلب بن هاشم رئيس أهل مكة وقد قال المسعودى فى كتابه « مروج الذهب » إن سيف بن ذى يزن هلك فى الطريق قبل إكمال مهمته وان الذى أخرج جيش الفرس ابنه معد يكرب بن سيف على أن القول الأول أشهر .

ولما استتب الأمر فى اليمن عاد وهرز إلى كسرى واتخذ سيف بن ذى يزن جماعة

(١) قال ابن هشام فى مقدمة السيرة عن ابن إسحق « وكان ملك الحبشة باليمن فيما بين أن دخلها إرياط إلى أن قتلت جيوش الفرس مسروق بن أبرهة وأخرجت الأحباش من البلاد اثنين وسبعين سنة تولى الملك منهم أربعة هم إرياط وأبرهة ويكسوم بن أبرهة ومسروق بن أبرهة .

من الأحباش يخدمونه وكانت الأحقاد تأكل قلوبهم لما نزل بقومهم فلما انفردوا به عن الناس رموه بحرابهم حتى قتلوه ولما بلغ هذا الخبر كسرى بعث وهرز فى أربعة آلاف مقاتل من الفرس وأمره بقتل كل أسود يجده فى البلاد ففعل وأمّره كسرى على اليمن فكان يبعث إلى كسرى بخراج اليمن ولما مات وهرز ملك الأمر بعده ابنه المَرْزُبان حتى هلك وتولى بعده ابنه النَّيجان بن المرزبان ثم مات فأمّر كسرى خَرْخَسْرُو ابن النيجان بن المَرْزُبان ولكن كسرى عزله وولى بدلا منه باذان ولم يزل باذان والياً على اليمن من جهة كسرى حتى كانت البعثة المحمدية واشتهر أمر رسول الله ﷺ فأسلم باذان وانتشر الإسلام فى اليمن .

الباب الثالث

اليمن فى الفتح الإسلامى والعصر الأموى والعباسى

سنتكلم فى هذا الباب على إسلام أهل اليمن ووفودهم إلى النبى صلوات الله عليه وما قاله فيهم وسنذكر عماله على اليمن وأخبار اليمن فى عصر الخلفاء الراشدين وعمال الأمويين والعباسيين على اليمن .

الفصل الأول

إسلام أهل اليمن

لما ظهر أمر النبى ﷺ أسلم باذان والى اليمن من قبل كسرى وانتشر الإسلام فى بلاد اليمن وكان فى بعض مخاليف اليمن بقية من أقيال حمير منهم قيل ذى رُعَين والحرث ابن عبد كُلال ونُعيم بن عَبْد كلال وقيل ذى الكِلاع وغيرهم فكتب إليهم النبى يدعوهم إلى الإسلام فأجابوه وقد وفد على النبى صلوات الله عليه فى السنة العاشرة من البعث نصارى نجران كما وفد بعدهم ضِماد الأزدى والطُّفَيل بن عمرو والدَّوْس وكذلك وفد بعد الهجرة أبو موسى الأشعرى وقبائله من الأشاعرة أهل وادى زَبيد والتقت سفينتهم بسفينة جعفر بن أبى طالب ومن معه من مهاجرى المسلمين فى الحبشة عند قفولهم إلى المدينة فى السنة السابعة من الهجرة وقدموا على النبى بعد فتح خيبر فأشركهم فى الغنائم ووفد من نجران أيضا بنو عبد المدان ووفدت قبائل همدان وكان منهم مالك ابن نَمَط ذى المِشعار وقدوافوا الرسول بالمدينة عندرجوعه من تبوك وعليهم الحِبَرات والعمائم العدنية وهم على النجائب المهرية والخيول الأرحبية وكان هذا الوفد من خارف ويام وشاكر وهم يرتجزون .

همدان خير سَوْقة وأقيال ... ليس لها فى العالمين أمثال
محلها الهضب ومنها الأبطال ... لهم أطابات (١) بها وآكال

ويقولون:

اليك جاوزن سواد الرّيف ... فى هبوات الصيف والخريف
مُخدلجات بحبال الليف

(١) أراد مآكل طيبة .

وقد قال مالك بن نمط فى ذكر وفادته أبياتا منها :

حلفت برب الراقصات إلى منى ... صوادر بالركبان من هضب قردد
بأن رسول الله فينا مصدق ... رسول أتى من عند ذى العرش مهتدى
فما حملت من ناقة فوق رحلها ... أبرّ وأوفى ذمة من محمد
وأعطى إذا ما طالب العرف جاءه ... وأمضى بحد المشرفى المهند

كذلك وفدت قبائل خولان والنخع كما وفد الأشعث بن قيس الكندى ومن معه من كندة ووفد وائل بن حُجْر ومن معه من حضرموت ووفد فَرْوة بن نُفيك المرادى وكانت قبل وفادته واقعة الرزم [1] رزم ملاحا بين مراد وهمدان فى بلادهم انتصرت فيها همدان وأجلت مرادا عن الجوف فقال النبى ﷺ لفروة . هل ساءك ما أصاب قومك يوم الرزم فقال فروة يارسول الله من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومى يوم الرزم ولا يسوءه ذلك فقال رسول الله أما إن ذلك لم يزد قومك فى الإسلام إلا خيرا واستعمله النبى على مراد وزبيد ومذحج كلها وبعث معه خالد بن سعيد بن العاصى على الصدقة فكان معه فى بلاده حتى توفى الرسول ولحق بالرفيق الأعلى

وممن وفد على النبى ﷺ من اليمنيين أبيضُ بن حمّال المأربى وقد وهبه النبى الملح فقيل له إنه الماء العِدّ فاستقاله وكذلك وفدت قبائل صُداء من غرب حضرموت فى جهة بلاد البيضا وأهل وادى جُرْدان كما وفد غير هؤلاء من اليمن وقد قال ﷺ فى أهل اليمن : أتاكم أهل اليمن هم ألين قلوبا وأرق أفئدة الإيمان يمان والحكمة يمانية [2]

---

(١) الرزم بالراء والزاى ويقال الردم بالدال المهملة كما جاء فى السيرة لابن هشام .
(٢) رواه البخارى والترمذى عن أبى هريرة .

الفصل الثانى

عمال النبى على اليمن

بعد أن انتشر الإسلام فى بلاد اليمن بعث الرسول صلوات الله عليه بعماله عليها وأمرهم بإرشاد أهلها وتعليمهم أصول دينهم وأخذ واجباتهم المالية وكان من هؤلاء العمال الإمام علىّ بن أبى طالب الذى بعثه النبى مرة إلى نجران ومرة إلى همدان وقد أسلمت همدان كلها فى يوم واحد وبعث علىّ كرم الله وجهه بخبر إسلامهم إلى النبى ﷺ فسجد شكرا ومن عماله أيضا أبوموسى الأشعرى، وخالد بن الوليد ، والبراء بن عازب وزياد بن لبيد الأنصارى ، وخالد بن سعيد بن العاصى ، والطاهر بن أبى هالة ، ويَعْلى ابن أمية ، وعمرو بن حَزْم ، وعُكاشة بن ثَوْر ، وجرير بن عبد الله البَجلى ، وعامر ابن شَهْر ، وشَهْر بن بادام ، ووَبَر بن يُحَنَّس وقد أمره رسول الله بأن يعمر مسجد صنعاء فى بستان بأذان وأمره بأن يعمر الجبانة فى شمال مدينة صنعاء .

ومن عماله أيضا معاذ بن جبل وقد أمره النبى بأن يعمّر مسجد الجند وقد قال ابن جرير الطبرى فى تاريخه : مات ﷺ وعلى نجران أبوسفيان بن الحرث وعمرو بن حزم وكان أبوسفيان على الصدقة وعمرو بن حزم على الصلاة وكان عامر بن شَهْر على همدان كلها وخالد بن سعيد بن العاصى على ما بين رِمَع وزَبيد إلى نجران وعلى صنعاء فَيْروز الديلمى وقَيْس بن المَكْشوح المرادى وعلى الجند يعلى بن أمية وعلى مأرب أبوموسى الأشعرى وعلى الأشعريين مع عك الطاهر بن أبى هالة وكان معاذ يعلم القوم الخ . .

وإنا لنجد فى كتاب « الاستيعاب » لابن عبدالبر فى ترجمة معاذ رضى الله عنه أن النبى ﷺ قسّم بلاد اليمن بين خمسة رجال هم : خالد بن سعيد وقد ولاه على مدينة

صنعاء كما ولى المهاجرين أبى أمية على كِنْدَةَ وزياد بن لَبِيد على حضرموت ومعاذ بن جبل على الجند وأبا موسى الأشعرى على زبيد ورَمَع وعدن والساحل. وقد جاء أيضاً فى سيرة ابن هشام أن النبى ﷺ استعمل فَرْوَةَ بن مُسَيْك على مراد وزبيد ومذحج كلها وبعث معه خالد بن سعيد بن العاصى لكى يقوم على الصدقة فكان معه فى بلاده حتى توفى الرسول صلوات الله عليه .

وفى الروايات اختلاف ربما كان مرجعه اختلاف الأوقات التى تولى فيها هؤلاء الولاة وقد روى البخارى عن ابن عباس أن النبى قال لمعاذ حين أرسله إلى اليمن « انك ستأتى قوماً أهل كتاب فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا اله إلا الله . أن محمدا رسول الله فإن هم أطاعوك بذلك فاخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة فإن هم أطاعوك فاخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فإن هم أطاعوك بذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب . وروى عن معاذ أنه قال . بعثنى النبى ﷺ إلى اليمن وأمرنى أن آخذ من كل حالم ديناراً أو عدله مَعافريا أخرجه أهل السنن إلا ابن ماجه والمعافرية ثياب كانت تصنع بالمعافر من بلاد اليمن .

وفى الحديث عن أبى موسى الأشعرى أن النبى ﷺ قال له اذهب إلى اليمن ثم أتبعه معاذ بن جبل فلما قدم عليه ألقى له وِسَادَةً وقال انزل وإذا رجل عنده مُوثَق قال ما هذا ؟ قال كان يهوديا فأسلم ثم تهوَّد قال لا أجلس حتى يقتل قضاء الله ورسوله متفق عليه ولأبى داود فى هذه القصة فأتى أبو موسى برجل قد ارتد عن الإسلام فدعاه عشرين ليلةً أو قريباً منها فجاء معاذ فدعاه فأبى فضرب عنقه .

الفصل الثالث

اليمن فى عهد الخلفاء الراشدين

يروى عن أبى هريرة أن رسول الله قال « بينما أنا نائم رأيت فى يدى سوارين من ذهب فأهمنى أمرهما فأوحى إلىَّ فى المنام أن أنفخهما فنفختهما فطارا فأولتهما كذابين يخرجان بعدى هما العنسى والآخر مُسَيلمة والحديث متفق عليه وكلا الكذابين المذكورين ادعى النبوة واسم العنسى الأسود بن كعب ولقبه عَبْهَلَة وكان أول ظهوره باليمن فى وادى خَبّ بالجوف ثم استطار أمره بحضرموت ولم تلبث أن تابعته قبائل مذحج وهكذا عظمت فتنته ولكنه عندما وصل إلى مدينة صنعاء غُلِب على أمره وقتله. واليها فيروز الديلمى غيلة بالتواطؤ مع امرأته وكانت مؤمنة صادقة الإيمان وقد بشر رسول الله أصحابه بقتله فى مرض موته .

وبعد وفاة رسول الله ارتدت بعض قبائل العرب وثبتت قبائل اليمن على الإسلام إلا ما كان من أمر كندة والأشعث بن قيس فإن العامل عليهم زياد بن لَبِيد الأنصارى عندما أدرك منهم الشر وعلم بمقصدهم بعث إلى المهاجر بن أبى أمية وطلب إليه أن يمده فأسرع إليه وقد تَحَصَّن جماعة من كندة بحصن « النُّجَيْر » وكان المهاجر هذا أحد عمال أبى بكر فى جهة أخرى من جهات اليمن فألقى القبض على أهل حصن النُّجَير وهدمه وأسر الأشعث بن قيس وأرسله إلى الخليفة أبى بكر فمن عليه أبو بكر وعفا عنه فحسن إسلامه وزوجه أبو بكر بأخته أم فروة بنت أبى قحافة . وقد قاتل أبو بكر أهل الردة فى غير هوادة حتى ثابوا إلى رشدهم ورجعوا إلى الإسلام كما قتل مسيلمة الكذاب باليمامة .

وقد استنفر أبو بكر فى أيام خلافته أهل اليمن للجهاد فى سبيل الله فساروا إليه أفواجا ووصل إلى المدينة فى يوم واحد منهم أحد وعشرون ألفا فأنفذ نصفهم إلى الشام وهم قبائل عك وحمير ومن انضم إليهم وأنفذ النصف الآخر إلى العراق وكان أفراده من قبائل همدان ومذحج وممن انضم إليهم من القبائل الأخرى وقد كان لأهل اليمن أثر عظيم فى الفتوحات الإسلامية أيام الخلفاء الراشدين وكذلك فى أيام دولتى بنى أمية وبنى العباس وقد سميت بعض قلاع الأندلس بأسمائهم[1] من ذلك قلعة همدان بالقرب من مدينة غرناطة وقلعة خولان بالقرب من أشبيلية وقلعة يحصب وغيرها من القلاع والحصون .

وقد نبغ بالعراق والشام والأندلس كثيرون من أبناء أهل اليمن الفاتحين منهم جماعة من علماء التابعين الذين أدركوا أصحاب رسول الله فمن اليمنيين الذين استوطنوا أرض العراق القاضى عامر بن شَرَاحيل الشعبى ومسروق الهمدانى وطلحة بن مُصَرِّف الإيامى الهمدانى وأبو اسحق السَّبِيعى الهمدانى وابراهيم النَّخَعى المذحجى وعلقمة النخعى وعمرو بن ميمون الأَوْدى المذحجى وغيرهم ومن اليمنيين الذين استوطنوا الشام واشتهروا بالعلم والفضل وتولوا الرياسة أبو عمرو الأوازعى الحميرى .

وقد جاء بعد هذه الطبقة كثير من أهل الفضل من أمثال الإمام مالك بن أنس الأصْبَحى صاحب المذهب المشهور والقاضى عياض اليَحْصُبى ومن الأمراء البارز بن الأمير عبد الرحمن الغافق ومنصور بن أبى عامر المعافرى صاحب الأندلس » والمهلَّب بن أبى صُفْرة الأزدى العَتَكى وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندى وغيرهم .

وقد نبغ فى اليمن نفسها جماعة من علماء التابعين منهم وهب بن منبِّه الأبْنَاوى

(١) راجع الحلل السندسية فى الأخبار الأندلسية .

وأخوه هَمَّام وطاووس بن كَيْسان اليمانى وابنه عبد الله والقاضى اسحق الدَّبَرى وهو الذى قصده الإمام الشافعى للأخذ عنه وقال لابد من صنعاء وإن طال السفر وعبد الرازق بن هَمَّام الصنعانى صاحب « المسند »[1] وكان يرحل إليه لسماع الحديث وكان ممن رحل إليه الإمام أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وكان والده همام بن نافع رجلا من أهل العلم والفضل وحج إلى بيت الله أكثر من ستين حجة ووثقه ابن معين وله عنه حديث .

عمال اليمن أيام الخلفاء الراشدين

لما لحق النبى بالرفيق الأعلى ونودى بأبى بكر خليفة للمسلمين أقر بعض عمال رسول الله واستعمل على الجند عبد الله بن أبى رَبِيعة المخزومى وعلى مدينة صنعاء وجهاتها يَعْلَى بن أمية وقفى على أثره الخليفة عمر بن الخطاب فأقر عمال أبى بكر وبقى يعلى بن أمية عاملا على اليمن إلى أن عزله أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه واستعمل بدلا منه على صنعاء وما حولها عُبَيد الله بن العباس بن عبد المطلب كما استعمل على الجند سعيد بن سعد بن عبادة الأنصارى وقد وصلت عن يعلى بن أمية أخبار إلى الخليفة عمر بن الخطاب أيام عمالته فاستقدمه عمر من أجلها مرتين إلى المدينة .

وفى أيام عمر بن الخطاب جلا يهود خيبر ونصارى نجران عملا بحديث شريف روى عن النبى ﷺ وهو : لايجتمع فى جزيرة العرب دينان وحديث آخر هو: اخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب .

وقد سار نصارى نجران إلى سواد الكوفة ورجع بعضهم بعد زمن عمر بن الخطاب .

(١) يوجد منه فى اليمن أجزاء صغيرة .

الفصل الرابع

اليمن فى عهد الخلفاء الأمويين

فى سنة أربعين من الهجرة أرسل معاوية بن أبى سفيان بُسْر بن أرْطاة العامرى والياً على اليمن فى ثلاثة آلاف مقاتل وأمره بأن يقتل شيعة علىّ عليه السلام فلم يرد اليها عبيد الله بن العباس بدًّا من الفرار . وكان من أعمال بسر الشنيعة بعد وصوله إلى اليمن قتله الطفلين قُثَم وعبد الرحمن ابنى عبيد الله بن العباس ظلماً وقبرهما إلى جانب مسجد الشهيدين بصنعاء وقد قال الهمدانى فى الجزء العاشر من الإكليل إنه كان ممن نفر عن اليمن مع علىّ عليه السلام أبو مُعَيد حمزة[1] بن الحرث بن إسبا الهمدانى ولكن لما صيّر علىّ راية همدان إلى سعيد بن قيس غضب ولحق بمعاوية فكان عنده وجيهاً وقدم اليمن فلزم بلدة المغرب والأهنوم حتى قدم بُسْر بن أرطاة من قِبَل معاوية فكان له يداً ورجلا وقد أسرف فى استعمال سلطته فى بلدة همدان حتى ليقال بأنه ضرب موضع « المِصْرَع »[2] من الأبناء اثنتين وسبعين رقبة حتى سمى هذا الموضع باسم المصرع . وقد رجع بسر بن أرطاة من اليمن وساءت خاتمته وجن كما ذكر ذلك ابن عبد البر فى كتاب « الاستيعاب » .

---

(١) هو جد الأمير أبى جعفر أحمد بن محمد بن الضحاك بن العباس بن سعيد بن قيس بن أبى معيد بن حمزة المذكور وكان الأمير أبو جعفر رئيساً لهمدان أيام الإمام الهادى يحيى بن الحسين ولأولاده ذكر فى التاريخ وستأتى الإشارة إليهم وكان مقرهم قرية ريدة من بلاد حاشد .

(٢) موضع المصرع ذكره الهمدانى فى صفة الجزيرة وهو قريب من قرية أثافت فى بلاد بنى صرم من حاشد وكانت قرية الأعشى الشاعر وفيها يقول :

أحب أثافت وقت القطاف ووقت عصارة أعنابها

الفصل الخامس

عمال خلفاء بنى أمية على اليمن

لما تم الصلح بين الحسن بن على بن أبى طالب وبين معاوية بن أبى سفيان واستتب الأمر لمعاوية استعمل على اليمن عثمان بن عفان الثقفى فأقام بها مدة من الزمن ثم عزله بأخيه عتبة بن أبى سفيان ثم استعمل النعمان بن بشير الأنصارى ثم بشير بن سعد الأعرج الذى مات بعد ستة أشهر من ولايته وعندئذ استعمل معاوية الضحاك بن فيروز فلم يزل واليا باليمن إلى أن مات معاوية وعند ذلك استعمل ابنه على اليمن بحير بن ريشان الحميرى .

وحدث أنه لما تملك عبد الله بن الزبير الحجاز استعمل على اليمن الضحاك بن فيروز الديلمى فأقام بها سنة ثم عزله وعين بدلا منه عبد الله بن عبد الرحمن بن خالد ابن الوليد المخزومى فأقام أياما ثم عزله وعين عبد الله بن عبد المطلب بن وادعة السهمى فأقام فيها سنة وعدة أشهر ثم عزله وولى مكانه حسن بن عبد الله الفقيه ثم استعمل قيس بن يزيد السعدى .

ولما قتل عبد الله بن الزبير بمكة واستولى عبد الملك بن مروان على الحجاز جعل أمر اليمن إلى الحجاج بن يوسف الثقفى فاستعمل هذا على صنعاء ومخاليفها أخاه محمد بن يوسف وعلى الجند واقد بن مَسْلمة الثقفى ولكن الحجاج عزل هذا الأخير وجعل اليمن كلها لأخيه محمد بن يوسف الذى بقى عاملا بها إلى أن توفى فاستعمل الحجاج على اليمن ابن عمه أيوب بن محمد الثقفى وهو الذى زاد فى عمارة جامع صنعاء بأمر الوليد ابن عبد الملك .

وعندما ولى سليمان بن عبد الملك الخلافة استعمل على اليمن عروة بن محمد

السَّعدى[1] وكان رجلا فاضلا خيّرا من أهل الحديث وقد أقام باليمن أيام سليمان بن عبد الملك وشطرا من عهد خلافة عمر بن عبد العزيز وقد استعمل عمر بن عبد العزيز على القضاء بصنعاء وهب بن مُنَبِّه الابناوى .

وفى سنة إحدى ومائة توفى الخليفة عمر بن عبد العزيز وولى الخلافة بعده يزيد بن عبد الملك فاستعمل على اليمن مسعود بن عوف الكلبى وفى سنة خمس ومائة مات يزيد بن عبد الملك وتولى الخلافة هشام بن عبد الملك فأقرّ على اليمن مسعود بن عوف أياما ولكنه لم يلبث أن عزله وولى بدلا عنه يوسف بن عمر الثقفى الذى ولى الأمر فى اليمن ثلاث عشرة سنة وقد ولى القضاء على صنعاء الغِطْرِيف بن الضحاك بن فيروز الديلمى .

وقد حدث فى أيام ولاية يوسف بن عمر لليمن أن خرج عَبّاد الرُّعَينى من ذرية القيل ذى رُعَين على الحكومة ولكن يوسف بن عمر هزمه شر هزيمة . وفى سنة سبع عشرة ومائة استدعى هشام بن عبد الملك يوسف بن عمر لأعمال العراق بعد أن عزل عنها خالد بن عبد الله القَسْرى فخلف يوسف بن عمر على اليمن ابنه الصَّلت بن يوسف وسار إلى العراق ولم يزل الصلت عاملا على اليمن مدة هشام بن عبد الملك .

وفى أيام الوليد بن يزيد تولى أعمال اليمن مروان بن محمد بن يوسف الثقفى ولم يزل بها حتى قتل الوليد وقام بالأمر بعده يزيد بن الوليد الملقب بالناقص فاستعمل على اليمن الضحاك بن واصل السَّكْسَكى فأقام فيها حتى آخر أيام يزيد بن الوليد وقام بعده مروان ابن محمد الجَعْدى نسبة إلى شيخه الجَعْد بن درهم فاستعمل على اليمن القاسم بن عمر الثقفى وفى أيامه ظهر بحضرموت عبد الله بن يحيى طالب الحق الخارجى الأباضى وقصد

(١) قال ابن المدينى إنه ولى اليمن عشرين سنة وإنه كان من أصلح العمال وإنه صرف عنها سنة ١٠٢ ولم يخرج إلا بسيفه ورمحه ومصحفه وقيل إنه لما دخل اليمن قال ياأهل اليمن هذه راحلتى فإن خرجت بأكثر منها فأنا سارق اه خلاصة .

مدينة صنعاء فى ألفى مقاتل من أصحابه فجرت بينه وبين القاسم بن عمر حروب كثيرة انتصر فيها طالب الحق وهزم القاسم بن عمر وقتل ابن أخيه الصَّلت بن يوسف واستولى طالب الحق على صنعاء وسار بعساكره إلى مكة والمدينة وقتل أهل المدينة فى وادٍ يقال له وادى بَدْبَد . ولما وصلت إلى مسامع الخليفة مروان أخبار انتصارات طالب الحق استعمل على اليمن الوليد بن عروة الذى بقى فى منصبه هذا حتى اضمحلت دولة بنى أمية بالشام وانتقلت الخلافة إلى بنى العباس .

الفصل السادس

اليمن فى أيام الخلفاء العباسيين

وفى سنة اثنتين وثلاثين ومائة زالت دولة بنى أمية وانتقلت الخلافة إلى بنى العباس وبايع الناس أبا العباس عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس الملقب بالسفاح فاستعمل على اليمن عمه داود بن على فاستناب داود على أعمال اليمن عمر بن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب وهو الذى بوّب جامع صنعاء .

ولما مات داود بن على استعمل السفاح على اليمن محمد بن يزيد بن عبد المدان الحارثى فقدمها لسبع بقين من شهر رجب سنة ثلاث وثلاثين ومائة وساءت سيرته باليمن حتى لقد همّ بإحراق المجذومين ولكن الله عاجله بالانتقام منه وأرسل أبو العباس السفاح بدلا منه عبد الله بن مالك الحارثى ثم عزله وولى بدلا منه الأمير على بن الربيع بن عبد الله ابن عبد المدان فمكث فى منصبه أربع سنين زاد فى خلالها فى عمارة جامع صنعاء وفى أيامه كانت المحاكمة بين الأبناء وأهل صنعاء من أجل الرَّحَبة التى على مسافة ثلاث ساعات

إلى شمال مدينة صنعاء وقد قال الهمدانى فى صفة الجزيرة انها سميت بالرحبة نسبة إلى صاحبها الرَّحَبة بن الغوث بن سعد بن عوف وقد جعلها رسول الله ﷺ للحاملة والعاملة ثم للشاء . وقد روى أنه نهى عن عضد عِضاهها وكان قدماء المسلمين يتوقون ذلك ثم انهمك الناس فى قطعها وحطبها[1] انتهى .

وفى سنة ست وثلاثين ومائة توفى أبو العباس السفاح وتولى الخلافة بعده أخوه المنصور أبو جعفر عبد الله بن محمد فاستعمل على اليمن عبد الله بن الربيع الحارثى الذى أقام بها مدة ثم عاد إلى المنصور بعد أن استخلف على اليمن ولده حتى قدم اليمن الأمير الشهير مَعْن بن زائدة الشيبانى سنة أربعين ومائة فبقى فى اليمن مدة قتل فى أثنائها كثيراً من أهل حضرموت الذين كانوا على رأى الخوارج وانتصف لأهل المدينة الذين ظلمهم طالب الحق ثم استقدمه المنصور إليه فاستخلف على اليمن ابنه زائدة بن معن فأقام باليمن ثلاث سنين ثم عزله المنصور وولى مكانه الحجاج بن منصور الذى أقام مدة ثم عزله المنصور وأحلّ مكانه الفرات بن سالم العبسى الذى أقام فى اليمن إلى سنة أربع وخمسين ومائة ثم عزله وولى يزيد بن منصور الحارثى خال ولده المهدى الذى أقام باليمن خمس سنين كاملة .

ولما توفى الخليفة المنصور وتولى الخلافة ابنه المهدى أبقى خاله يزيد ابن منصور والياً لليمن سنة واحدة ثم استقدمه إلى مكة ليحج بالناس فاستخلف على اليمن عبد الخالق ابن محمد الشيبانى الذى لم يلبث بها غير وقت يسير .

ومات يزيد بن منصور فولى المهدى على اليمن رجاء بن حَيْوه[2] الجُذامى فلبث به سنة ثم عزله وولى مكانه على بن سليمان بن العباس فأقام مدة ثم رجع إلى العراق بعد

(١) أى نهى عن قطع أشجارها التى تعظم ويكون لها شوك ثم أخذ الناس بعد ذلك فى قطعها وحمل أخشابها .

(٢) جاء فى تاريخ الكيسى أن اسمه هكذا رجا بن حيوة وفى الخزرجى رجا بن روح الجذامى

أن استخلف على اليمن واسع بن غصمة الذى أقام به أحد عشر شهراً حتى أرسل الخليفة المهدى إلى اليمن عبدالله بن سليمان العباسى فى شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وستين ومائة ثم أرسل منصور بن يزيد الحميرى سنة خمس وستين ثم عبدالله بن سليمان النوفلى[1] وكان رجلا خيراً من أهل العلم يروى الحديث عن الزهرى ثم أرسل بعده سليمان بن يزيد بن عبدالله بن عبدالدان الحارثى .

وتوفى الخليفة المهدى سنة تسع وستين ومائة فتولى الخلافة من بعده ولده موسى الهادى الذى استعمل على اليمن عبدالله بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن على بن عبد الله ابن العباس فأقام فى البلاد سنة ثم بعث الهادى بدلاً عنه الربيع بن عبدالله الحارثى ولكن أهل صنعاء ثاروا عليه وتغلبوا عليه فأرسل الهادى إبراهيم بن سليمان بن عقبة ابن مسلم الباهلى فمكث فى اليمن مدة أربعة عشر شهراً .

ولما مات الخليفة الهادى تولى الخلافة من بعده أخوه هرون الرشيد سنة سبعين ومائة فاستعمل على اليمن خاله الغِطْرِيف وكانت الفتنة قائمة على ساقٍ وقَدَم بين أهل صنعاء ومخلاف الجَند فأصلح أمرهم ومكث فى الجند ثلاث سنين وسبعة أشهر ثم عاد إلى الرشيد بعد أن استخلف على اليمن عَبّاد بن محمد الشهابى .

وفى سنة أربع وسبعين ومائة بعث الرشيد إلى اليمن الربيع بن عبدالله بن عبد الدان الحارثى ثم عزله وولى مكانه أيوب بن جعفر بن سليمان العباسى ثم ان الرشيد أعاد إلى ولاية اليمن الربيع بن عبدالله بعد أن ضم إليه العباس بن محمد الهاشمى ثم جعل اليمن والحجاز تحت نظارة محمد بن إبراهيم الهاشمى فبقى بالحجاز وبعث إلى اليمن ابنه العباس ولكن الناس شكوه فعزله الرشيد وولى عبدالله بن مصْعب بن عبدالله بن الزبير فأقام سنة ثم عزل وحل محله أحمد بن إسماعيل الهاشمى .

وفى هذه السنة ثار الهيْصَم بن عبد المجيد فى جبل مسور وحارب جند بنى العباس

(١) ذكره مؤلف الخلاصة وقال إنه توفى سنة سبع وتسعين ومائة .

وهزمهم وسيأتى ذكر ما كان من أمره . ثم ولى الرشيد على اليمن إبراهيم بن عبيد الله بن عبدالله بن طلحة بن أبى طلحة[1] فأقام فيها سنة ثم اختلف مع أهل الجند وكان ضعيفاً فى ولايته ولذلك أرسل الرشيد الأمير محمد بن خالد بن برمك صنو الوزير يحيى بن خالد وكان هذا الوالى من أحسن العمال القادمين اليمن عدلا ورحمة بالناس وقد استخرج النهر الذى فى جنوب مدينة صنعاء والذى اشتهر باسم غيل البرمكى .

وفى أيام هذا الوالى خرج عن طاعته أهل تهامة فأرسل الرشيد حَمَّاد البَرْبَرى وكان رجلا حازماً قوى البأس وقال له الرشيد أسمعنى أصوات أهل اليمن ولذلك عامل الناس بالشدة وعاقب العصاة فى غير هوادة فدانوا له بالطاعة وأخذت القوافل تسير من اليمامة إلى صنعاء دون أن يعترضها أحد وأخصبت أراضى اليمن فى أيامه خصباً لم يعهد مثله وحارب الهَيْصَم بن عبدالمجيد صاحب مَسْوَر واستمد الجيش من الرشيد فأمده فهرب الهيصم إلى بيشه حيث أسرته أجناد بنى العباس وساقوه إلى الرشيد فأمر بضرب عنقه فى جماعة من أصحابه . وقد ذكر الجهشيارى فى كتابه « الوزراء والكتاب » أن بعض أصحاب الهَيْصَم قد تخلص من القتل بحفظه باباً غريباً من الأغانى .

وفى سنة ثلاث وتسعين ومائة مات هرون الرشيد بطوس وقد ذكر الجهشيارى أن خراج اليمن فى أيام الرشيد بلغ ثمانى مائة وسبعين ألف دينار سوى الثياب .

وبعد وفاة الرشيد تولى الخلافة بعده ابنه محمد الأمين فأبقى حَمَّاد البَرْبَرى عاملاً على اليمن ثم عزله وولى مكانه محمد بن سعيد بن السرح الكِنَانى . ولما قتل الخليفة الأمين على يد طاهر بن الحسين الخزاعى قائد جيوش المأمون استعمل المأمون على اليمن يزيد بن جرير بن يزيد بن جرير بن خالد بن عبدالله القسرى وهذا الرجل كان ضعيفاً سيء السيرة ولذلك عزله المأمون وولى مكانه عمر بن إبراهيم بن واقد بن محمد بن يزيد بن عبدالله بن عمر بن الخطاب ولكن هذا الوالى عزل وحل محله اسحق بن موسى بن محمد بن على

(١) هو الحجبى نسبة إلى حجابة البيت .

ابن عبدالله بن العباس سنة ثمان وتسعين ومائة فأقام باليمن مدة ثم استخلف ابن عمه القاسم بن إسماعيل .

بعد ذلك أرسل المأمون إلى اليمن حَمْدَوَيْه بن عيسى بن ماهان وفى أيامه ظهر باليمن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب وعظم أمره ولم يلبث أن دخل مدينة صَعْدَه وخربها كما خرب سد الخانق برحبان وقد أشار إلى ذلك الهمدانى فى كتابه الإكليل وكان مرسلاً لإظهار الدعوة من قبل الإمام محمد بن إبراهيم بن طباطبا وكان ظهور الإمام محمد هذا بالكوفة سنة تسع وتسعين ومائة . وقد جرت بين إبراهيم بن موسى وبين الوالى حَمْدَوَيْه بن عيسى عدة وقائع كان النصر فيها إلى جانب إبراهيم بن موسى حتى مات الإمام محمد بن إبراهيم وقام بالأمر بعده بالكوفة محمد بن محمد بن زيد بن على بن الحسين وناصره أبو السَّرايا السَّرِى بن منصور أحد بنى ربيعة بن ذهل بن شيبان .

وكان أبو السرايا هذا قد ثار على الدولة العباسية وشق عصا الطاعة وعاش فى نواحى سواد العراق وناصر أولاً الإمام محمد بن إبراهيم ثم محمد بن محمد بن زيد ولم يمض وقت طويل حتى أسر محمد بن محمد بن زيد وقتل أبو السرايا وانتهت ثورة الطالبيين وانحلت حركتهم التى قاموا بها فى اليمن والحجاز .

وبعث المأمون بعد ذلك إلى اليمن عيسى بن يزيد الجَلودى ولكن حمدويه بن عيسى أبى أن يسلم له الأمر وجهز جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل وتقدم لحرب الجلودى ولكن الوالى الجديد هزمه وقبض عليه وهكذا استقر الجلودى بمدينة صنعاء ثم سار إلى العراق بعد أن استخلف على اليمن الحُصْن بن المِنْهال فأقام بها أياما ثم قدم اليمن ابراهيم الافريقى الشيبانى وأرسل المأمون الأمير محمد بن عبد الله بن زياد إلى تهامة فمالبث هذا الوالى أن انفصل عن الدولة العباسية وأسس الدولة الزيادية التى سيأتى الكلام عليها . وكانت الدولة التى أنشأها أول دولة مستقلة فى داخل اليمن وعلى أثره استقل بنو

يعفر ببلاد الجبال وقد عارضهم فى بعض السنين عمال بنى العباس كما عارضهم بعض رؤساء اليمن كإبراهيم بن الدَّعَّام الأرجبى وغيره وسوف يأتى الكلام على ذلك فيما بعد.

الباب الرابع

فيمن تولى اليمن من الملوك والسلاطين

قد أشرنا قريباً إلى كيفية خروج الأمير محمد بن زياد إلى اليمن أيام الخليفة المأمون واستقلاله.

وسنتكلم فى هذا الباب عن الدولة التى أنشأها محمد بن زياد والدول الآخرة التى قامت تحكم اليمن فى عهد الاستقلال وبعضها كان يعارض البعض الآخر ويحكم فى جهة غير التى يحكم فيها الآخر وفيه فصول.

الفصل الأول

١ — دولة بنى زياد بزبيد

من سنة ٢٠٣ إلى سنة ٣٩١

فى سنة ثلاث ومائتين شق أهل تهامة عصى الطاعة على الخليفة المأمون بن هارون الرشيد فبعث إلى اليمن الأمير محمد بن عبد الله بن زياد وقلده أعمال اليمن وأناط به أمر تأديب العصاة فقاتل قبيلة الأشاعرة وغيرهم واستولى على تهامة وعدن وحضرموت وامتد نفوذه إلى مكة واختط مدينة «زبيد» سنة أربع ومائتين وبنى حولها سوراً عظيما وقد قام بنصرته فى حروبه هذه مولاه جعفر حتى كان يقال (ابن زياد بجعفره) وقد توفى

محمد ابن زياد سنة اثنين وأربعين ومائتين بعد أن أسس دولة مستقلة عن دولة الخلافة وقد قام بالأمر بعده ابنه ابراهيم وتوفى سنة تسع وثمانين ومائتين وتولى بعده ابنه أبو الجيش اسحق بن ابراهيم وقد طال عمره وامتد زمن حكمه وتوفى سنة إحدى وتسعين وثلثمائة وقد اختلف الرواة فى التاريخ الذى توفى فيه.

وقد خلف أبو الجيش ولدا صغيرا قام بأمره مولاهم الحسين بن سلامة وكان رجلا خيرا عظيم الهمة له مآثر كثيرة إذ هو الذى أقام دولة بنى زياد بعد اندثارها وقد روى الشيخ عمارة اليمنى فى تاريخه «المفيد» أن ارتفاع أعمال الحسين بن سلامة من الدنانير قد بلغ ألف ألف عترية وهذا خلاف ضرائبه على مراكب الهند من العود والمسك والكافور والعنبر والصندل والصينى كما ذكر أن سليمان بن طَرَّف صاحب مخلاف عثر[1] الذى كان معارضا لأبى الجيش بن زياد كان مبلغ ارتفاع أعماله خمسمائة ألف دينار.

وقد توفى الحسين بن سلامة سنة اثنتين وأربعمائة وتولى الأمر بعده مولى له يسمى مِرْجان وقد عهد بالأمر إلى مولاه نَفِيس وإلى طفل صغير من آل زياد وإلى مولى آخر اسمه نجاح وسيأتى ذكر ما كان من أمرهم عند الكلام على دولة بنى نجاح التى قامت بزبيد وقد ذكر الخزرجى وغيره من المؤرخين أنه لما مات الحسين بن سلامه مولى آل زياد استولى على بن مَعْن على عدن ولحج وأبين والشَّحر وحضرموت كما تغلب يعفر بن أحمد الكِرَنْدِى الحميرى على حصن السَّمدان وحصن الدُّمْلوة وجبل صَبْر وحصن التَّعْكر الحاكم على مخلاف الجند ومخلاف عَنَّه والمعافر ولقد اتسعت سلطة بنى الكرندى وعظم أمرهم وهم من ولد أبيض بن حَمَّال المارِبى.

وتغلب أيضا أبو عبد الله الحسين التُّبَّعى على حصن حَبّ وعِزّان وخَدِد وحصن

(١) عثر بفتح العين المهملة وسكون المثلثة وبفتحها مشددة مخلاف مشهور فى أقصى تهامة الشمالية كان به معدن ذهب.

الشعر وحصن أنود والسحول والشواق كما تغلب بنو وائل من ولد ذى الكلاع الحميرى على وحاظه وحصونها وتغلب بنو الناخى ومنهم جعفر بن ابراهيم بن محمد ذى الثلة على الجند وكان هؤلاء من آل ذى مناخ الحميرى وقد أسس كل هؤلاء لهم دويلات مستقلة وستأتى الإشارة إلى انحلالها عند قيام الملك على بن محمد الصليحى الذى سيأتى ذكره .

الفصل الثانى

٢ — دولة بنى يعفر[1] الحوالى الحميرى بشبام

من سنة ٢٢٥ إلى سنة ٣٩٣ هجرية

قال الخزرجى وغيره من المؤرخين إن الخليفة المعتصم بن الرشيد بعث فى سنة خمس وعشرين ومائتين بأمر اليمن للأمير عبد الرحيم بن ابراهيم الحوالى .

وفى سنة سبع وأربعين ومائتين تولى حكم اليمن محمد بن يعفر بن عبد الرحيم من قبل الخليفة المنتصر بن المتوكل وبقى فيها فى عهد الخليفتين المتوكل ثم الهادى وقد سار محمد بن يعفر إلى مكة لأداء فريضة الحج وخلف على اليمن ابنه أبا يعفر ابراهيم بن محمد ولما عاد من مكة جدد عمارة جامع صنعاء وكان قد تهدم جانب منه بفعل السيول فى سنة خمسة وستين ومائتين وبعد أن أتم إصلاحه أوقف عليه أموالا وأملاكا بحل شاهرة

(١) بنو يعفر من ذرية ذى حوال الحميرى وقد اتخذوا عاصمة لملكهم مدينة شبام فى أسفل جبل ذخار التى يطل عليها قصر كوكبان وقد ضرب يعفر بن عبد الرحيم على هذه المدينة سوراً عندما حاربه عمال بنى العباس أيام المعتصم والواثق والمتوكل الذين كان منهم منصور بن عبد الرحمن النوخى وهرثمة بن الشمر وجعفر بن دينار الخياط وقد هزمهم جميعاً وردهم على أعقابهم كما ذكر ذلك الهمدانى فى « صفة الجزيرة » وفى الجزء العاشر من « الإكليل » .

غربى مدينة صنعاء إلى الشمال وقد ذكر المؤرخون أن أبا يعفر ابراهيم بن محمد قد قتل أباه وعمه بمدينة شبام نزولا على أمر جده يعفر بن عبد الرحيم وقد ذكر الهمدانى فى العاشر من الإكليل أن الدعام بن ابراهيم كبير أرحب وسيد همدان فى عصره كانت له حظوة ومكانة عظيمة عند محمد بن يعفر وكان يسكن بلاد الجوف فقدم على أبى يعفر معزيا له ومنتقدا له على ما فعل بأبيه وعمه وجرى بينهما عتاب فلطم أبو يعفر الدعام ابن ابراهيم فخرج الدعام من عنده غاضبا ساخطا ثائرا فلما أضحى أبو يعفر أخبر بما كان منه فأسرع بالاعتذار إلى الدعام وقربه منه وقال له إن كرامة اليوم ترفع هوان أمس فأظهر الدعام الرضاء حتى خرج من عنده فلما صار فى بلاد همدان أظهر الخلاف واجتمعت له بكيل كلها وقد حدث أيضا أن قتل محمد بن الضحاك وكان قاتله هو غلام أبى يعفر بأمر من مولاه فغضبت فيه حاشد وكانت لهم مع أبى يعفر وقائع مشهورة منها يوم خيوان ويوم وزور ويوم خمر وقد عظمت صولة الدعام واشتد ساعده حتى ضرب به المثل فيما استعظم من الأمور حتى ليقال « لا فعلته لو قام فيما قام فى الغبرا أو ما قام فى لطمة الدعام » وفى ذلك يقول بعض شعراء أرحب :

سلبنا من حُوال الملك قسرا بلطمة شيخ كهلان الدعام

وقد انتهت هذه الوقائع باستلاب الدعام لملك آل يعفر وامتلاك بلدهم والتآمر على صنعاء وجبيت له اليمن كلها إلى ساحل عدن على أن ذلك لم يطل لأن الخليفة العباسى أرسل الأمير جُفَيْنَم بن الحسن نصرة لآل يعفر فخرج الدعام من صنعاء ثم عاد إليها كرة أخرى مع الإمام الهادى يحيى بن الحسين وقام معه على بنى طريف والقرامطة . وقد بقى الأمير جفنم بن الحسن عاملا على اليمن فى أيام الخليفتين الموفق والمعتمد ثم فى أيام المعتضد وكان يتردد بين صنعاء وبغداد . وسيأتى ذكر بقية الكلام على آل يعفر فى الفصلين التاليين .

الفصل الثالث

٣ — خروج الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين إلى اليمن للمرة الأولى

وفى سنة ثمانين ومائتين خرج الإمام الهادى يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم ابن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب من الحجاز إلى اليمن للمرة الأولى ووصل إلى محل الشرفة من بلاد نهم بعد أن سار إليه جماعة من أهل اليمن إلى جبل الرس الواقع فى شرق المدينة المنورة بالحجاز وبايعوه بالإمامة ووعدوه الطاعة ثم عاد إلى الحجاز فعادت إليه السفارة من أهل اليمن ثانياً فخرج إليها للمرة الثانية فى صفر سنة أربع وثمانين فملك مدينة صعدة وأعمالها ونجران ومشارق جبل بَرَط بعد حروب طويلة وخطوب متعددة وقد استدعاه أبو العتاهية بن الرَّوِيَّة[1] إلى صنعاء وكان من أمرائها فنهض الإمام الهادى قاصداً صنعاء وفيها تلقاه الأمير أبو العتاهية بن الرَّوِيَّة وبايعه وملك صنعاء فى شهر محرم سنة ست وثمانين وعاد إلى صعدة وسيأتى الكلام على أخباره وإصلاحاته وهو مؤسس الدولة الهاشمية باليمن التى سيأتى الكلام عنها فى الباب التالى . وفى سنة أربع وثمانين ومائتين تولى إمارة آل يعفر الأمير أسعد بن أبى يعفر إبراهيم بن محمد بن يعفر .. والكلام على بعض أخباره فيما يلى .

(١) كان بنو الروية من أمراء صنعاء وبلادها ويقال لوادى السرسر ابن الروية كما ذكر ذلك الهمدانى فى صفة الجزيرة .

الفصل الرابع

٤ — « فتنة على بن الفضل القُرْمُطِى الحِمْيرى ومنصور بن حسن »

وفى سنة إحدى وتسعين ومائتين بعث ميمون القداح الكوفى أحد دعاة ولده عبيد الله المهدى[1] برجلين إلى اليمن هما على بن الفضل الحميرى الحَنْفَرى[2] ومنصور بن حسن الكوفى وكانا على مذهب الاسماعلية ويروى أن على بن الفضل كان قد حج ثم دخل الكوفة لزيارة قبر الحسين بن على عليه السلام ولما رآه ميمون القداح تفرس فيه وفى منصور بن حسن وكان فلكياً ومتضلعاً فى علم النجوم فظهر له من أمرهما علو الهمة فتحدث إليهما وأخبرهما بأن عبيد الله المهدى ابنه وأنه علوى النسب ورغبهما فى القيام بالدعوة له فوجدهما عند ظنه فسارا إلى اليمن سويا حتى افترقا فى بندر البقعة إحدى موانى زبيد يؤمئذ وقصد على بن الفضل بلاد يافع وقصد منصور بن حسن بلاد لاعة فى مغارب صنعاء على ثلاث مراحل إلى الشمال وقد أظهر الرجلان الزهد والتقشف حتى أقبل الناس عليهما وتجمعوا حولهما ولما اشتد ساعداهما أغارا على أطراف البلاد وتحصَّن منصور بن حسن فى جبل مسور القريب من لاعة وهو جبل واسع الأرجاء أطنب الهمدانى فى وصفه فى كتابه صفة الجزيرة وسماه « جبل التخلى » ، كما حارب على بن الفضل الأمير ابن أبى العلا الذى كان والياً على لحج وعدن وابين فهزمه ابن أبى العلا ولكن على بن الفضل لم

(١) اختلف الناس فى صحة نسب عبيد الله المهدى جد الفاطميين إلى إسماعيل بن جعفر بن محمد ابن على بن الحسين بن على بن أبى طالب وقد ذكر المؤرخ ابن خلكان بعض الأقوال فى ترجمة المهدى وصحح نسبهم ابن خلدون فى مقدمته الشهيرة .

(٢) نسبة إلى حنفر بفتح الحاء المعجمة وسكون النون وفتح الفاء وهى مدينة أبين وقاعدتها وأبين هى فى شرق أبين الجنوبى وتقع عدن على مقربة منها وبينهما مرحلتان .

بيأس وعاود الكرة على خنفر فامتلكها وقتل ابن أبي العلا في جماعة من أصحابه وهكذا عظم أمر علي بن الفضل وذاع صيته في البلاد حتى إنه في سنة اثنتين وتسعين ومائتين قصد الذيخرة من مخلاف جعفر الناخي وأخذ حصن التعكر وهزم سلطان المخلاف جعفر بن إبراهيم الناخي الذي ذهب إلى تهامة واستمد من ابن زياد صاحب زبيد المعونة لقتال علي بن الفضل فأعانه وعاد جعفر الناخي لقتال علي بن الفضل فلحق به في وادي نخلة وكانت بينهما موقعة مشهودة قتل فيها إبراهيم الناخي .

وفي سنة ثلاث وتسعين ومائتين زحف علي بن الفضل على اليمن الأعلى واستولى على ذمار وصنعاء بعد أن تغلب على مقاومة الأمير أسعد بن أبي يعفر الذي فر إلى شبام ولكن منصور بن حسن أقبل إليه من بلاد لاعة فخرج أسعد من شبام بأهله وأولاده قاصداً إلى ناحية الجوف ونزل على الدعام بن إبراهيم الأرحبي رئيس همدان الذي سبقت الإشارة إليه وأخذ علي بن الفضل في نشر مذهب القرامطة ثم انتقل إلى بلاد زبيد بعد أن ترك بعض جنوده في صنعاء ولما وصل إلى زبيد هرب منه ابن زياد وأخذ جنوده يعيثون في الأرض فساداً حتى ضج الناس من أفاعيلهم المنكرة .

وفي سنة أربع وتسعين ومائتين استدعى أهل صنعاء الإمام الهادي يحيى بن الحسين من بلاد صعده ولما قدم إليها أخرج منها القرامطة وأرسل ولده محمداً إلى ذمار لقتال القرامطة فنافسه بعض آل طريف بن ثابت (١) فعاد إلى أبيه ورجع الإمام الهادي إلى صعده فكرت القرامطة على صنعاء مرة أخرى وعندئذ كتب أهل صنعاء إلى الإمام الهادي يطلبون إليه العودة إليها فأرسل علي بن جعفر العلوي العباسي والدعام ابن إبراهيم رئيس همدان وبعث في أثرهما بولده أبي القاسم محمد بن الهادي فأعاد على

(١) قال الهمداني في الجزء العاشر من الإكليل عن ذكر أنساب بني مرب من همدان أن منهم فرسان العرب ودوي شوكتها . طريف بن ثابت الكبازي الذين كانت لهم ولاية يعفر الحوالي الخ

ابن الفضل الكرة من الذيخرة ولما قرب من صنعاء خرج منها محمد بن الهادي ودخلها أصحاب علي بن الفضل فاستباحوها ومكثوا فيها ثلاث سنين فابتلاهم الله بالأسقام فخرجوا منها إلى الذيخرة .

وفي سنة ثلاث وثلاثمائة أراح الله العباد بهلاك الطاغية علي بن الفضل على يد شريف حسني دُعي لحجامة علي بن الفضل فجعل له السم في المِبْضَع ولما خرج من عنده ظهر عليه السم وأدرك الشريف في الطريق فقُتِل ولما بلغ الأمير أسعد بن أبي يعفر خبر هلاك علي بن الفضل استنفر قبائل اليمن وزحف بهم إلى الذيخرة فدخلها قهراً بالسيف وسبى بنات علي بن الفضل وأعطى أحداهن لابن أخيه عبدالله بن قحطان بن أبي يعفر فجاءت له بأسعد بن عبدالله بن قحطان وانقطعت دولة القرامطة من مخلاف جعفر وخربت الذيخرة .

وأما منصور بن حسن صاحب مسور فإنه ضعف أمره بعد وقعة نُغاش المشهورة التي قاتل فيها الإمام الناصر أحمد بن الهادي كما سيأتي بيان ذلك فيما بعد وقد مات منصور بن حسن صاحب مسور سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة بمسور وعهد بالأمر إلى ابنه حسن بن منصور وإلى رجل من أصحابه اسمه عبد الله الشاوري وأمرهما بأن يكتبا إلى القائم العبيدي لكي يولي أحدهما فولى الشاوري ولكن حسن بن منصور وثب عليه وقتله في غفلة وتولى هو حكم البلاد وأظهر للناس براءته من مذهب القرامطة وأخذ يتتبع القرامطة ويقتلهم وقد حدث أن خرج يوما من مسور إلى مكان اسمه عين محرم فوثب عليه رجل من بني المرجا سلاطين تلك الناحية فقتله واقتسم البلاد بينه وبين ابراهيم بن عبد الحميد صاحب مسور وأخرج ابراهيم عبد الحميد أولاد منصور بن حسن إلى بني عشب فوثب عليهم الناس وقتلوهم عن آخرهم وأخذ ابراهيم بن عبد الحميد يخطب لبني العباس وتتبع القرامطة قتلا حتى أبادهم عن آخرهم .

ولما مات ابراهيم بن عبد الحميد استخلف ابنه المنتاب والي بنسب جبل مسور

فيقال مَسْور المُنْتاب وكاتب المنتاب المعز لدين الله العبيدى إلى مصر بعد استيلائه عليها وقام بالدعوة له ولما حضرته الوفاة استخلف على الدعوة رجلا من حراز يعرف بابن الأسد فقام بالدعوة واستخلف سليمان بن عبد الله الزواحى أحد أهالى قرية زواحة من بلاد حراز وهو الذى استمال على بن محمد الصُّلَيْحِى الذى سيأتى ذكره إلى مذهب الاسماعيلية فكان من أمره ماسيأتى ذكره .

وفى سنة ثلاثمائة وإحدى وثلاثين توفى الأمير أسعد بن أبى يعفر ودفن بمحل شاهرة التى أوقفها جده محمد بن يعفر على جامع صنعاء وتولى بعده ابن أخيه عبد الله ابن قحطان الذى سار إلى زبيد ودخلها فى أيام ابن زياد وتولى حكم مخلاف جعفر ثم عاد إلى صنعاء وتوفى بها سنة سبع وثمانين وثلثمائة وقام بالأمر بعده ابنه أسعد بن عبد الله بن قحطان الذى توفى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة وبوفاته انتهت دول آل يعفر .

الفصل الخامس

٥ — دولة آل نجاح بزبيد

من سنة ٤٠٣ إلى سنة ٥٥٥

سبق أن أشرنا عند حديثنا عن دولة بنى زياد إلى مولاهم الحسين بن سلامة وقيامه بأمور دولة آل زياد خير قيام وقلنا إنه حين وفاته لم يبق من آل زياد سوى ولد صغير . وقد كفلت هذا الصغير وعبد حبشى يقال له مرجان وكان لمرجان هذا عبدان أحدهما يقال له نَفِيس وثانيهما اسمه نجاح فعهد إلى نجاح بأعمال مدينة الكدار والمَهْجَم ومَوْز والمخلاف السليمانى كما عهد إلى نفيس بأعمال داخليته وقد دب التنافس بين نفيس ونجاح وكان مرجان يقرب نفيساً ويفضله على نجاح وكان ابن

زياد وعمته يفضلان نجاحا فشكا نفيس إلى مرجان فعلهما فما كان منه إلا أن سلمهما إليه فأدخلهما فى جدار وبنى عليهما فهلكا وبذلك انقطع عقب بنى زياد وانتهى عهدهم بزبيد وكانت مدة ملكهم مائتى سنة إلا سنة واحدة ووثب نفيس على ملكهم وكان نجاح غائباً فلما بلغه ما فعل نفيس بابن زياد وعمته غضب غضباً شديداً لذلك واستنفر القبائل ودعاهم لمحاربته والانتقام منه فوقعت بينهما حروب طويلة انتهت بقتل نفيس على باب مدينة زبيد ودخل نجاح المدينة وقبض على مولاه مرجان وجعله فى الموضع الذى كان فيه ابن زياد وعمته بعد أن أخرجهما منه وصلى عليهما واحتفل بدفنهما وبعد ذلك استولى نجاح على تهامة وضرب النقود باسمه وكاتب بنى العباس ودان لهم بالطاعة ولم يزل حتى دس له السم على بن محمد الصليحى بواسطة جارية أهداها له سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة وضم إليه ملك التهائم التى كانت بيد نجاح وفر أولاد نجاح إلى جزيرة دَهْلَك فى البحر الأحمر ثم كان من أمرهم مع الصليحى ماسيأتى ذكره وجرت بين بنى نجاح وآل الصليحى حروب وقلاقل سيأتى الإشارة إلى بعضها .

وفى سنة إحدى وثمانين وأربعمائة قتل الأمير سعيد بن نجاح وفر صنوه جياش إلى الهند ثم لم يلبث أن عاد إلى زبيد متنكراً وأخذ يعمل على استرداد ملكه حتى تولاها واستمرت ولايته عليها إلى أن مات سنة ثمان وتسعين وأربعمائة وكان رجلا من أهل العلم له تاريخ نفيس اسمه « المفيد » ويقال « مفيد جياش » للتفرقة بينه وبين كتاب « المفيد » الذى وضعه القاضى عمارة اليمنى .

وقام بالأمر بعده ولده فاتك بن جياش إلى أن مات سنة ثلاث وخمسمائة وكانت له عملة ضربها من الذهب الأحمر وقد عثر على دفائن منها فى بلاد يريم فى عصر التحرير وعليها اسمه وقام من بعده ولده منصور بن فاتك ثم فاتك بن المنصور ثم فاتك بن محمد بن فاتك وفى أيام هذا الأخير ظهر علىّ بن مهدى الحميرى فى محل العَنْبَرَة خارج زبيد وتغلب على زبيد سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، ثم هلك

فى شهر شوال من تلك السنة وقام من بعده ابناه مهدى بن على وعبدالنبى بن على بن مهدى ثم انتهت أيام بنى مهدى بزحف السلطان توران شاه بن أيوب من مصر إلى اليمن سنة تسع وستين وخمسمائة وفيها قتل عبدالنبى بن مهدى عن أمر السلطان توران شاه. واضمحلت دولة بنى مهدى وسيأتى تاريخ خروج السلطان توران شاه إلى اليمن.

الفصل السادس

٦ — دولة بنى الصليحى الهمدانيين باليمن

من سنة ٤٣٩ إلى ٥٣٢

كانت الرياسة على همدان من أواخر القرن الثالث للسلطان محمد بن الضحاك بن العباس بن سعيد بن قيس بن أبى مُعَيْد بن حمزة الهمدانى ثم كانت من بعده لأبى جعفر أحمد بن محمد بن الضحاك ثم بعد ذلك لأبى حاشد بن العباس بن الضحاك ثم ليحيى ابن أبى حاشد وكانت عاصمتهم قرية رَيْدَة من بلاد حاشد وكانوا يلقبون بالسلاطين، قد سبق ذكر جدهم أبى مُعَيد عند حديثنا عن خروج بسر بن أرطاة إلى اليمن كما سبق أيضا ذكر الدعوة إلى العبيدية أيام على بن الفضل ومنصور بن حسن وكانت هذه الدعوة قد خفتت وأميتت بمساعى الأئمة من أهل البيت.

وفى سنة تسع[1] وثلاثين وأربعمائة ظهر على بن محمد الصليحى حيث خرج من جبل مَسار من أعمال حراز ولم يكن قد ولى الأمر أحد من أهله وكان والده القاضى محمد بن على شافعى المذهب وكان مطاعاً فى عشيرته يتولى فصل الخصومات فى جهته وكان محل بنى الصليحى فى مغارب جبل حَضُور كما قال الهمدانى فى صفة الجزيرة وأهله كانوا أشرافاً كرماء وكان على بن محمد فى أول أمره يسير على طريقة والده

(١) اختلف المؤرخون فى تاريخ ظهور على بن محمد الصليحى كما اختلفوا فى تاريخ قتله، وقد ذكرنا الراجح من الأقوال.

ولم يزل هذا شأنه حتى استماله عامر بن عبدالله الزُّواحى أحد دعاة الإسماعيلية إلى مذهبه وأوصى له بجميع كتبه وما كان قد جمعه من مال فسمت نفس على بن محمد إلى القيام بالدعوة للعبيديين وتحدث الناس بأنه سيملك اليمن وكان يدخل مكة لأداء فريضة الحج ويتفق ببعض رجال أخذ يستميلهم إلى نشر الدعوة فى بلاد اليمن للمُسْتَنْصِر[1] العبيدى ثم انه طلع جبل مَسار من جبال حراز المنيعة؟ وأراد التحصن فيه فأنكر عليه الناس ذلك ولكنه استطاع أن يخدع هؤلاء المنكرين وأرضاهم ثم انتشر أمره وذاع فقصده الأمير جعفر بن الإمام القاسم بن على بن العيانى والأمير جعفر بن العباس فى طائفة من همدان لمقاتلته فنزل إليهم على بن محمد فى جماعة ممن استمالهم إليه فأوقع بهم وقتل جعفر بن العباس وتفرق الآخرون وهكذا استفحل أمر الصليحى وقصد بلاد حضور واستولى عليها وعندئذ اجتمع رجال قبائل همدان مع السلطان يحيى بن أبى حاشد وانضم إليهم بنو شهاب وبنو الراعى وقصدوا الصليحى للقتال فلقيهم هذا فى محل صُوُف بالقرب من قرية يازِل وجرت بين الفريقين وقعة عظيمة انتهت بانتصار الصليحى وقتل السلطان يحيى بن أبى حاشد وألف رجل من همدان وكان من أثر هذا الانتصار الذى ناله الصليحى أن عظم أمره واتسعت مطامعه فسار إلى صنعاء وملكها وبعث بعماله إلى مخاليف اليمن.

وفى سنة أربع وأربعين وأربعمائة قُتِل الإمام أبو الفتح الديلمى الذى سيأتى ذكره فيما بعد فى وقعة بينه وبين الصليحى فى قاع فَيْد من بلاد عنس. وفى سنة ثمان وأربعين وأربعمائة اجتمع رؤساء همدان مع الشريف الفاضل القاسم بن جعفر بن الإمام القاسم بن على العيانى وصنوه الأمير ذو الشرفين محمد بن جعفر وقصدوا قتال الصليحى فى صنعاء فقاتلهم الصليحى برجاله فهزمهم ولكن الشريف الفاضل وصنوه الأمير ذو الشرفين ثبتا مع طائفة من همدان وساروا إلى حصن المِرابة من بلاد

(١) سبقت الإشارة إلى ما كان من أمر على بن الفضل ومنصور بن حسن باليمن ودعايتهما لعبيدالله المهدى الذى ظهر بأفريقية سنة ٢٩٩ وقد ملك بعده ابنه القائم بأمر الله ثم المنصور ثم المعز وهو الذى فتح مصر سنة ٣٥٨ وقام بعده بمصر.

وادعة وتحصنوا به فتبعهم الصليحى وحاصرهم حصاراً شديداً وعندئذ خرج الشريف الفاضل إلى يد الصليحى فأبقاه لديه مدة ثم أطلق سراحه ولكن الأمير ذو الشرفين رأى أن يتحصن فى شهارة وعمرها ولذلك يقال لها شهارة الأمير .

وسار الصليحى بعد ذلك إلى بلاد اليمن الجنوبية واستولى على بلاد بنى الكِنْدى ملوك المافر وحصن الدُّمْلُوَة كما استولى على بلاد الحسين التُّبَّعى الحميرى صاحب حصن حَبّ وبعدان والسُّحُول والشَّوافى ثم سار إلى عدن واستولى على بلاد بنى مَعْن الذين كانوا يملكون عدن ونزل تهامة واستولى على ما كان تحت يد نجاح صاحب زبيد بعد موته بالسم على يد جارية أرسلها إليه الصليحى كما سلف .

ولما استولى الصليحى على تهامة جعل عليها صهره أسعد بن شِهاب وقد قال الكبسى فى تاريخه إن خراج تهامة الذى كان يحمل إلى الصليحى بعد النفقات قد بلغ ألف ألف دينار .

وفى سنة ثمان وخمسين واربعمائة سار الأمير العالم حمزة بن أبى هاشم فى جيش كبير من همدان لقتال الصليحى فالتقى مع جيش الصليحى فى المَلْوى من بلاد ارحب فى بلد الخَشَب وجرت بين الجيشين وقعة عظيمة قتل فيها الأمير حمزة بن أبى هاشم فى سبعين رجلاً من رؤساء همدان وكان يتولى قيادة رجال الصليحى عامر بن سليمان الزُّوَاحى وسوف يأتى ذكر مقتله وأخذ الثأر منه .

وفى تلك السنة سار على بن محمد الصليحى من صنعاء فى موكب عظيم إلى تهامة يريد مكة لأداء فريضة الحج وكان بصحبته عدد كبير من آل الصليحى وملوك اليمن الذين خضعوا له وكان معه كثير من الخيل والرجل بعد أن خلف على اليمن ولده المُكَرَّم أحمد بن على وكان يريد زيارة المُسْتَنصر العُبَيْدى بمصر وكانت له نفس طموح وأنشد على لسان حاله :

(١) العزيز ثم الحاكم ثم الظاهر ثم المستنصر المذكور ثم المستعلى ثم الآمر ثم الحافظ ثم الظاهر ثم الفائز ثم العاضد وكانت مدة ملكهم مائتى وستين سنة منها بمصر مائتا سنة وثمان سنين وانقرضت دولتهم على يد السلطان صلاح الدين بن أيوب سنة ٥٥٩ أيام العاضد . اه

وألذ من قرع الشانى عنده ... فى الحرب ألجم بالعلام وأسرج
خيل بأقصى حضرموت مجالها ... وصهيلها بين العراق ومنبج

ولما نزل ظاهر المهجم من تهامة ضرب مخيمه فى ضيعة تعرف باسم الدُّهَيْم وبئر ام مِعْبَد وخيمت عساكره والملوك الذين كانوا معه حوله وكان أولاد نجاح قد نزلوا بعد زوال ملكهم بجزيرة دهلك وسكنوا بها وكان سعيد الأحْوَل يخرج خفية إلى زبيد ويترقب الفرصة لاسترجاع ملك أبيه ولما بلغه خبر نزول الصليحى فى تهامة كتب إلى أخيه جيَّاش وهو فى دهلك طالباً إليه أن ينهض هو ومن يقدر عليه من مواليهم فخرج جياش فى أربعمائة رجل وجمع سعيد الأحول سبعين رجلا من عبيدهم ولم يكن معهم من السلاح غير جريد النخل وقد جعلوا على رؤوسها مسامير الحديد فلما بلغ الصليحى أمر خروجهم من دَهْلك وجه اليهم نحو خمسة آلاف مقاتل ولكنهم اختلفوا فى الطريق فى حين وصل آل نجاح إلى مُخَيَّم الصليحى ودخلوا فى غمار الناس وظن من شاهدهم أنهم من عبيد من فى المهجم ولما وصلوا إلى خيمة على بن محمد الصليحى عرفهم أخوه عبدالله بن محمد وقال لأخيه على بن محمد يامولاى هذا سعيد الأحْوَل بن نجاح ففشل ولم يبرح مكانه حتى قطع رأسه بسيفه وقتل أخوه عبدالله ومن حضر مخيمه وركب سعيد الأحول وأخوه جيَّاش فرمَى على بن محمد الصليحى وأخيه عبدالله وعلقا رأسيهما فى الرماح ونادى المنادى فى المعسكر بأن الصليحى قد قتل وسرعان ما دبَّ الفشل بين عساكر الصليحى وتفرق شملهم وذهبوا فى كل وجه وتخطفتهم قبائل تهامة واستولى آل نجاح على خزائن الصليحى وأمر سعيد الأحول زوجة على ابن محمد الصليحى السيدة أسماء بنت شِهاب بأن تسير معه وسار بها إلى زبيد حيث بقيت فى أسره حتى أنقذها ولدها المكرم بعد ثمانية أشهر فى غزوته الشهيرة لزبيد مع قبائل همدان وملك زبيد وفر أمامه أولاد نجاح وقد سبقت الإشارة إلى عودة الملك بزبيد إلى آل نجاح .

وبعد قتل على بن محمد تولى أمر اليمن ولده المُكَرَّم وكانت بينه وبين الأمير ذى

الشرفين حروب عظيمة وقد تحصن الأمير ذو الشرفين فى أثنائها بحصن شهارة التى أطلق عليها اسم شهارة الأمير كما ذكرنا أولا وشاركت المكرم فى الإمارة زوجته السيدة أرْوَى بنت أحمد بن جعفر بن موسى بن محمد الصليحى وموسى أخو على بن محمد . وقد مات المُكَرَّم سنة أربع وثمانين واربعمائة وقام بأمر الدعاية إلى العبيدية الداعى سبأ بن أحمد بن المظفر بن على بن محمد وتزوج السيدة عن أمر المستنصر العبيدى وكانت له حصون مطلة على تهامة منها حصن أشيح بآنس وظلت تهامة متداولة بين آل الصليحى وآل نجاح فكان بنو الصليحى يغزونها فى أيام الشتاء وعندئذ يدخل آل نجاح جُزُر البحر الأحمر . وفى أيام الصيف كان بنو الصليحى يرتفعون إلى الجبال ويعود آل نجاح إلى تهامة . وقد كان سبأ بن أحمد شاعراً فصيحاً وفيه يقول الحسين ابن القِمّ الشاعر المشهور :

ولما مدحت المِزْبَرى بن أحمد أجاز وكافانى على المدح بالمدح
وعوضنى شعراً بشعرى وزادنى نوالاً فهذا رأس مالى وذا ربحى

ومات سبأ سنة اثنتين وتسعين واربعمائة وعندئذ استقلت السيدة أرْوَى بنت أحمد بدولة آل الصليحى حتى توفيت سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة بجبلة وقد بلغت من العمر ثمان وثمانين سنة وكانت عاقلة كاملة وقد عملت الحيلة فى قتل سعيد الأحول حتى خرج من زبيد وبعثت جيوش الصليحيين لقتاله ففاجأوه بالقرب من زبيد وكانت بينهم معركة حامية الوطيس قتل فيها سعيد الأحول وأسرت امرأته أم المَعارِك وأتى بها إلى السيدة أرْوَى بنت أحمد فتمنت لو أن أسماء بنت شِهاب كانت شهدت ذلك نظرا لأنه سبق أسرها عند قتل زوجها على بن محمد الصليحى بتهامة .

وللسيدة أرْوَى بنت أحمد مآثر عظيمة باليمن منها بناء جامع جبلة والجناح الشرقى بجامع صنعاء كما ذكره مؤلف كتاب « أنباء الزَّمَن » وإن جودة الأخشاب ورشاقة نقوشها فى سقفه ليشهدان على مخالفته لعمارة محمد بن يعفر كما أن لها مآثر أخرى وبموتها

اضمحلت دولة بنى الصليحى وانتقل ما كان بأيدى ملوكها من الحصون إلى منصور بن الفضل الحميرى الذى باعها إلى الداعى محمد بن سبأ الزُّرَيْعى كما تغلب على بلاد الجبال السلطان حاتم بن القَشْم الهمدانى الآتى ذكره .

الفصل السابع

٧ — دولة بنى زُرَيْع الهمدانيين بعدن

من سنة ٤٦٧ إلى سنة ٥٦٩ هجرية

لما مات الحسين بن سلامه مولى آل زياد كما سبقت الإشارة إلى ذلك تغلب على بن مَعْن على عدن وعندما دخلها على بن محمد الصليحى فرض على بنى معن جُعْلا يسلمونه إلى السيدة أروى بنت أحمد الصليحى مقابل مهرها من ولده المكرم ثم تغلبت بنو معن على عدن ومات العباس بن معن سنة أربعمائة و اثنتين وستين وقام بالأمر بعده أخوه محمد بن معن ولما دخل المكرم بن على الصليحى مدينة عدن سنة أربعمائة وسبع وستين هرب منه محمد بن معن إلى أَخْوَر وولى المكرم على عدن العباس ومسعودا بنى المكرم الجُشَمى الهمدانى وكانت لهما سابقة معرفة عند المكرم لقيامهما معه عند نزوله زبيد واستنقاذه أمَّه من سعيد الأحول فجعل للعباس حصن التَّعْكَر بعدن كما جعل للمسعود حصن الخضراء .

وكان ارتفاع حاصل عدن يحمل إلى السيدة كل سنة مائة ألف دينار وقد يزيد وقد ينقص واستمر الأمر كذلك حتى وفاة العباس بن المكرم فخلفه ولده زُرَيع بن العباس على ما كان متوليا عليه ولما بعثت السيدة بنت أحمد ـ الفضل بن أبى البركات ـ لقتال أولاد نجاح بعد أن احتالت على خروجهم من زبيد كتبت إلى زُرَيع وعمه المسعود

طالبة إليهما أن يلقيا الفضل بزبيد فلقياه وقاتلا معه حتى قتلا بباب زبيد سنة خمس وثمانين وأربعمائة وقام بعدهما أبو السعود بن زُرَيْع وأبو السعادات بن السعود وكل منهما فى جهة ولما مات أبو الغارات قام بعده ابنه على بن أبى الغارات وقام بعد أبى السعود بن زريع ابنه سبأ وقد توفى الملك سبأ سنة أربع وتسعين وأربعمائة وقام بعده ابنه محمد بن سبأ الذى اشتهر بالكرم والفصاحة وتوفى سنة خمسمائه وخمسين وقام بعده ابنه عمران بن محمد بن سبأ وكان كأبيه فى السماحة وحسن الخلق وتوفى سنة خمسمائة وستين وخلف أولادا صغارا قام بأمرهم أبو الدر جوهر المعظمى فى حصن الدملوة حتى خرج إلى اليمن السلطان نورَان شاه بن أيوب فانتقل بهم إلى الحبشة وانقضت دولتهم . وقد ذكر محمد بن سبأ وابنه عمران ـ القاضى عمارة اليمنى فى تاريخه «المفيد» وأثنى عليهما أحسن الثناء وذكر بعض ما قاله فى مدحهما أبو بكر المندى الأديب المشهور فى زمنهما وكانت بين آل زُرَيع وآل مسعود حروب طويلة استمرت بعض سنين ولما تغلب سبأ بن زريع على قرية الرَّعارِع وأخذها من يد على بن أبى الغارات قال على بن زياد المازنى :

خلت الرَّعارِع من بنى المسعود فعهودهم عنها كغير عهود
حلّتْ بها آل الزُّرَيْع وإنما حلّتْ أسود فى مقام أسود

ومن آثار آل الزُّرَيْع بعدن ذلك السور الممتد من جبل التعكير بعدن إلى جبل حُقّات وقد أشار إلى ذلك مؤلف كتاب « بهجة الزمن فى تاريخ لحج وعدن » .

الفصل الثامن

٨ — دولة السلاطين بنى حاتم الهمدانيين

من سنة ٤٩٢ إلى سنة ٥٦٩

لما مات سبأ بن أحمد الصليحى سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة وأقامت السيدة بنت أحمد بمدينة جبلة قام بأمر صنعاء وبلادها السلطان حاتم بن الغشم الهمدانى وناصرته قبائل همدان ثم قام ابنه عبد الله ومات مسموما فقام بالأمر أخوه معن بن حاتم أياما ثم خلعته همدان وولت مكانه كلاً من هشام وحمّاس ابنى القبيّب الهمدانى .

وفى سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة ألقت همدان أمرها إلى السلطان حاتم بن أحمد ابن عمران اليامى فقام بأمر همدان. وفى أيامه قام الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان واستولى على صنعاء بعد حصار السلطان حاتم بها وكان السلطان حاتم شاعرا فصيحاً وهو القائل فى كتابه إلى الإمام أحمد بن سليمان أيام حصار الإمام لصنعاء وقد عثر السلطان حاتم على رسول الإمام يشترى ورقا من صنعاء :

أبالوَرَق الطَّلْحى تأخذ أرضنا ولم تشتجر تحت العجاج رماح
وتأخذ صنعا وهى كرسى ملكنا ونحن بأطراف البلاد شِحَاح

ولما تم الأمر للإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان وتملك صنعاء . وخرج منها السلطان حاتم قال السلطان حاتم متسليا :

غلبنا بنى حوّاء مجداً وسؤدداً ولكننا لم نستطع غَلَب الدهر
فلا لوم فيما لا يُطاق وإنما يلام الفتى فيما يطاق من الأمر

وسار السلطان حاتم فى جماعة من أصحابه إلى الإمام وكان فى محل بيت بَوْس جنوب مدينة صنعاء. وأنشد السلطان حاتم عند وصوله إلى الإمام قول كعب بن زهير .

نبئت أن رسول الله أوعدنى والعفو عند رسول الله مأمول

فعفا عنه الإمام وبايع السلطان حاتم ومن معه الإمام ودخل الإمام صنعاء فى اليوم التالى دخولا معظما واستعمل عليها القاضى جعفر بن أحمد بن عبد السلام وسكن السلطان حاتم مدينة الروضة وفى جانب منها دَرْب السلاطين نسبة إلى السلاطين بنى حاتم ثم إنه حصل خلاف بين السلطان حاتم وأصحاب الإمام فزحف السلطان حاتم على صنعاء ثم خرج منها مرة ثانية ودخلها الإمام المتوكل على الله وكان السلطان حاتم باقلا ذكيا كريما مدحه كثير من الشعراء وتوفى سنة خمسين وخمسمائة وفى أيامه خرج إلى اليمن من مصر القاضى الرشيد أبو الحسين أحمد بن القاضى الرشيد ابراهيم بن محمد بن الحسين ابن الزبير الغسانى الإسوانى وكان من أهل الفضل والرياسة وكان مجيدا فى الشعر والنثر ومن شعره فى مدح السلطان حاتم :

إذا أجدبت أرض الصعيد وأقحطت فلست أخاف القحط فى أرض قحطان

ومذ كفلت لى مأرب بمآربى فلست على إسوان يوما بأسوان

وقام بأمر همدان بعد السلطان حاتم ابنه السلطان على بن حاتم وقد استنجده آل زُرَيْع سنة ثمان وستين وخمسمائة لقتال عبد النبى بن مهدى الحميرى فسار إليهم فى قبائل همدان ووصل مدينة تعز والتقت به أجناد عبد النبى بن مهدى وكانت بين الطائفتين وقعة عظيمة بذى عُدَيْنَة انتصر فيها السلطان على بن حاتم نصرا عظيما وفر عبد النبى ابن مهدى إلى زبيد ولم تزل دولة على بن حاتم مسيطرة على معظم اليمن الأعلى حتى خرج السلطان توران شاه بن أيوب إلى اليمن سنة تسع وستين وخمسمائة فانقطعت دول بنى حاتم وبنى مهدى وآل زُرَيْع وقامت دولة بنى أيوب التى سيأتى الكلام عليها .

الفصل التاسع

٩ - دولة بنى أيوب باليمن

من سنة ٥٦٩ إلى سنة ٦٢٦

كانت بلاد اليمن قد تفرق شملها قبيل حكم الأيوبيين لها وغزوهم بلادها وكانت قد انقسمت إلى عدة دويلات صغيرة قامت كل منها فى ناحية من نواحى البلاد واختصت فيما بينها فكانت عدن ومخلاف الجَنَد بيد آل زُرَيْع وكانت صنعاء وبعض مخاليفها بيد السلطان على بن حاتم كما كانت بلاد صعدة والجوف بيد الإمام المتوكل على الله أحمد ابن سليمان والمخلاف السليمانى بيد الشريف غانم بن يحيى بن حمزة وبلاد زبيد وأطرافها بيد عبد النبى بن مهدى الحميرى وعندما استفحل أمر عبد النبى بن مهدى فى بلاد تهامة وقامت بينه وبين الشريف غانم بن يحيى بن حمزة حروب طويلة قتل فيها الشريف غانم بن يحيى سنة ستين وخمسمائة استنجد صنوه الشريف قاسم بن يحيى الخليفة الناصر ابن أحمد المستضى العباسى صاحب بغداد على عبد النبى بن مهدى فكتب له هذا إلى السلطان صلاح الدين[1] بن أيوب وأمره بنصرته وانتدب السلطان صلاح الدين

(١) كان صلاح الدين بن أيوب وإخوته من أعوان الملك نور الدين محمود بن زنكى صاحب بلاد الشام واشتهر صلاح الدين بالشجاعة والإقدام وحسن الرأى فأرسله نور الدين إلى مصر فى أواخر أيام العبيدية ففتحها وبعد موت نور الدين استطاع فتح بلاد الشام وأخرج منها الأفرنج الصليبيين من بيت المقدس سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة بعد أن لبثوا بهذه المدينة المقدسة إحدى وسبعين عاما ولقد تولى أولاد السلطان صلاح الدين وأخوته على البلاد فتولى الملك من بعده ولده عثمان وأعطيت دمشق لأخيه الأفضل وحلب لأخيه غياث الدين كما تولى الملك من بعدهم الملك المنصور محمد بن عثمان ابن صلاح الدين ثم عم أبيه أبو بكر بن أيوب ثم ولده الملك الكامل أو الفتح ناصر الدين محمد ثم ولده الملك العادل محمد بن محمد ثم أخوه الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل ثم ولده توران شاه ثم شجرة الدر سرية الملك الصالح ثم الملك الأشرف موسى بن الملك الكامل وبموته انتهت دولة الأيوبيين ومدة ملكهم إحدى وثمانون سنة وجاءت بعدهم دولة المماليك التركية وأولهم المعز أيبك زوج شجرة الدر ومدتهم مائة وست وثلاثون سنة ثم دولة الجراكسة وأولهم السلطان برقوق وسأتى الإشارة إليهم فى الفصل الحادى عشر

بإرسال أخيه السلطان تُوران شاه إلى اليمن وأرسل معه نحو ثلاثة آلاف مقاتل وعندما وصل توران شاه إلى ناحية صبيا من بلاد تهامة انضم إليه الأشراف وبعدئذ قصد مدينة زبيد فأخذها عَنْوَةً وقضى على دولة عبد النبي بن مهدى وأمر بقتله ثم سار بعد ذلك إلى عدن ففتحها وقضى على دولة بنى زُرَيْع وكان القائم بأمرهم فيها جَوْهَر الصقلبى الذى تحصن بالدَّمْلُوة مدة ثم حاول الخروج من الحصن خفية مع من بقى من آل زُرَيْع وانتقل بهم إلى بلاد الحبشة كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

وبعد أن أخضع توران شاه بلاد تهامة واستولى عليها بأجمعها سار بجيوشه نحو بلاد الجبال فأجمعت عليه القبائل اليمنية وعندما وصل إلى ذمار أنشده شاعره قصيدة جاء فيها:

وقال لقومه موتوا كراما فأين ديار مصر من ذمار

ولقد ساعدته الأيام على فتح بلاد اليمن كلها وهكذا قضى على دولة على بن حاتم واستتب له الأمر فى البلاد واختار مدينة زبيد عاصمة لمملكته ولكن لم تطب له الإقامة فيها وشعر بالحنين إلى مصر فكتب إلى أخيه السلطان صلاح الدين كتابا يبدى فيه تبرُّمه من الإقامة باليمن ويطلب إليه السماح له بالعودة إلى مصر وقال فى كتابه هذا شعراً :

وإذا أراد الله أن يشقى امرأ وأراد أن يحييه غير سعيد
أغراه بالترحال عن مصر بلا سبب وأسكنه بأرض زبيد

ثم أعقب هذا الكتاب بكتاب ظريف آخر أنشأه على لسانه الأديب أبو بكر بن أحمد العَنْدى الشاعر المشهور وضمنه شعراً ونثراً وجاء فيه قوله .

يابارق الشام ما الأوطان من يمن أوطان شجوى ولا الأوطار أوطارى
ما الدار إلا دمشق والنى حَلَبٌ والسؤل مصر وفى الزوراء مُزْدَارى
تلك المنازل لا لَحْجٌ ولا عَدَنٌ ولا زبيدٌ ولا أكناف تِمْشارى
هذا على قدر أن الملك فى يمن غالٍ ولكنه من دون مقدارى

ولقد أجابه السلطان صلاح الدين بأن اليمن قطر مبارك كثير الخيرات ثم أذن له بالقدوم عليه فسار إلى مصر وتولى دمشق أياما ثم مات بمدينة الإسكندرية سنة ست وسبعين وخمسمائة .

السلطان طُغْتَكين بن أيوب

وعندما ترك توران شاه بلاد اليمن وقفل راجعا إلى مصر خرج إلى اليمن أخوه السلطان طغتكين بن أيوب وكان يلقب بالعزيز فملكها سنة تسع وسبعين وخمسمائة وقامت بينه وبين الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة وقائع سيأتى الكلام عنها فى الباب الخامس ولقد أقام السلطان طغتكين بمدينة صنعاء وبنى سورها العظيم بعد أن أدخل فيها الجهة الغربية من السائلة إلى باب السَّبَحَة كما بنى له دارا فى البستان الذى يعرف الآن باسم بستان السلطان ولقد سار بجيوشه إلى حضرموت واستولى عليها وسكن مدينة تعز وعمر مدرسة المنصورة وأرسل إليها نهرا من جبل صَبِر كما بنى مدينة المنصورة بالحجرية فى أرض المعافر وتوفى السلطان طغتكين بمدينة المنصورة سنة تسعين وخمسمائة وكان رجلا كريما عالى الهمة واسع الصدر مما جعل الناس يفدون عليه من أقاصى البلاد ولقد كان من بين من قصدوه شرف الدين أبو المحاسن محمد بن عُنَيْن الشاعر المشهور الذى مدحه فأجزل صلته ولما عاد إلى الديار المصرية وسلطانها يومئذ العزيز عماد الدين بن عثمان ابن السلطان صلاح الدين ألزمه رجال الديوان دفع زكاة المتاجر والأمتعة التى دخل بها فقال :

ما كل من يتسمى بالعزيز لها أهلا ولا كل برق سُحْبه غَدِقَه
بين العزيزين بَوْنٌ فى فعالهما هذاك يعطى وهذا يأخذ الصدقه

ولقد روى الجندى والخزرجى وغيرهما من المؤرخين أن السلطان طغتكين هم بشراء الأموال من الأرض اليمنية ويجعلها باسم الديوان كما كان يومئذ بمصر فكره

الناس ذلك واجتمع منهم طائفة عكفت ببعض المساجد تسأل الله الفرج فخرج أحدهم وإذا به يسمع قائلا يقول قضى الأمر الذى فيه تستفتيان وأخبرهم بموت السلطان طغتكين .

الملك العزيز اسماعيل بن طُغتكين

ولقد تولى بعده على بلاد اليمن ابنه الملك العزيز بن طغتكين وكان رجلا سيئ السيرة اشتهر بسوء الخلق والشراسة حتى قيل عنه إنه كان مولعاً بأكل لحوم البشر وكانت الأحوال فى أيامه مضطربة وقتل سنة ثمان وتسعين وخمسمائة بمدينة زبيد استولت أمه على الأموال واستبقتها عندها حتى وصل إلى اليمن خلفه الملك سليمان بن سعد الدين ابن تقى الدين بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب .

الملك سليمان

وعندما وصل الملك سليمان إلى اليمن استدعته والدة الملك اسماعيل وتزوجته وملك البلاد ولكنه جار فى أعماله وظلم الناس حتى ضجوا من أعماله ولذلك أرسل الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ابنه الملك المسعود يوسف إلى اليمن فدخل زبيد فى سنة ستمائة واثنتى عشرة وقبض على الملك سليمان هذا وأرسله إلى مصر وتولى هو أمر اليمن من بعده .

الملك المسعود

لم تطل إقامة الملك المسعود باليمن بعد توليه الملك إذ عاد إلى مصر سنة تسع عشرة وستمائة واستخلف عليها نور الدين عمر بن على بن رسول ولكنه عاد إلى اليمن مرة ثانية سنة أربع وعشرين وستمائة ثم تركها وعاد إلى مكة سنة ٦٣٥ واستخلف على اليمن الأمير نور الدين عمر بن على بن رسول بعد أن قبض على اخوته الأمير بدر الدين بن

على ومحمد بن على وموسى وأبو بكر وساقهم معه إلى مكة حيث توفى بها .

وبعد وفاته تخوف الأمير نور الدين من بنى أيوب فأعلن الاستقلال باليمن وأسس الدول الرسولية . أما أمراء دولة بنى أيوب باليمن الذين كانوا يقومون بجباية الأموال وقيادة الجيوش فقد قامت بينهم وبين أئمة اليمن حروب وقلاقل وقد ذكر المؤرخون من بين هؤلاء الأمراء الأمير وزدسان والأتابك سنقر والشهاب الجزرى والأمير جكو والأمير شمس الخواص وغيرهم وسنأتى الإشارة إلى بعض ذلك فى الباب الخامس

الفصل العاشر

١٠ — دولة بنى رسول الغسانيين

من سنة ٦٢٦ — ٨٥٨

قلنا فيما سبق إنه كانت لآل على بن رسول رياسة فى أيام حكم بنى أيوب باليمن وكانوا قد وفدوا على بلاد اليمن من مصر مع بنى أيوب ، أما جدهم رسول واسمه محمد ابن هارون فقد كان أميناً فى دولة الأيوبيين فى مصر وينتهى نسبهم إلى جفنة بن عمرو الغسانى الذى رحل من اليمن إلى بلاد الشام بعد خراب سد مارب .

ولقد كان نور الدين بنوع خاص محل ثقة بنى أيوب وعندما استخلفه الملك المسعود الأيوبى على اليمن وقبض على اخوته الذين ذكروا آنفا تخوف نور الدين من بنى أيوب وخشى على نفسه منهم فأعلن الاستقلال بملك اليمن سنة ست وعشرين وستمائة وأسس الدولة الرسولية واتخذ من مدينة تعز عاصمة لمملكته وتلقب بالملك المنصور واستمد من الخليفة الظاهر بن الناصر العباسى النيابة عنه على اليمن وملكها فطار صيته وعظم أمره وسار إلى مكة لأداء فريضة الحج سنة ثلاث وثلاثين وستمائة وحارب عمال بنى أيوب

بمكة حتى أخضعهم وامتلكها ثم عاد منصوراً إلى بلاد اليمن وفى سنة سبع وأربعين وستمائة قتلته المماليك غيلة فى قصر الجَنَد وكان قد استكثر منهم حتى بلغ عددهم ألف فارس ولقد كانت للسلطان نور الدين هذا مآثر عظيمة إذا أنشأ الكثير من المدارس

الملك المظفر

بعد وفاة الملك المنصور قام بالأمر بعده ابنه الملك الظفر يوسف بن عمر . كان حازم الرأى قوى الحركة ولقد طالت أيام حكمه باليمن وفتح ظفار الحَبُوظى بأقصى بلاد حضرموت وأخذها من يد سالم بن أدريس الحَبُوظى بعد أن جهز عليه جيشا كبيرا حاصره من البر والبحر وسار بعد ذلك إلى مكة المشرفة لأداء فريضة الحج بقوة عظيمة من البر وكانت السفن الشراعية تسير بحذاء جنوده فى البحر الأحمر واستولى على مكة وطرد منها أمراء بنى أيوب .

وقامت بينه وبين أئمة اليمن حروب عظيمة ستأتى الإشارة إليها فيما بعد وكان يستميل الأشراف من بنى حمزة ويمنحهم المنح العظيمة ولقد قصده الأمير شمس الدين أحمد بن المنصور بالله عبدالله بن حمزة إلى زبيد فقابله الملك المظفر بكل إجلال واحترام وحضر عيد الفطر وهو فى ضيافة الملك المظفر فقال الأمير شمس الدين فى مدحه قصيدة مطلعها :

لعل الليالى الماضيات تعود ... فتبدو نجوم العيد وهى سعود
عفا منزل ما بين نَعمان واللّوا ... وخرت به للراسيات بُرُود
هواى بنجد والمنى بتهامة ... متى تلتقى بالمتهمين نُجُود
فيادارنا بين العُيَنية والحمى ... هل الدار دار والزَّرُود زَرُود

ومنها :

ولما قصدت الملك ذا التاج يوسفا ... علمت بأن الهمّ ليس يعود
وأدنيت كفى من أنامل لم تخن ... عهوداً ولم تُخلف لهن وعود

إلى آخرها

وقال الكبسى إن الملك المظفر أقطعه مدينة القَحْمة وجهز معه مائة فارس من المماليك . عاد إلى الجوف وقد توفى الملك المظفر سنة أربع وتسعين وستمائة وكان يقال له « تُبَّع الأصغر » ومن مآثره جامع المظفر بمدينة تعز .

الملك الأشرف

وبعد وفاة المظفر قام بعده ولده الملك الأشرف عمر بن يوسف وقد نازعه فى بداية الأمر شقيقه داود بن المظفر وكان عند وفاة والده غائباً بالشِّحْر فجمع الجنود واستولى على لحج وعدن ولذلك جمع أخوه الملك الأشرف عساكره لمحاربته واجتمع الفريقان فى أبين وتمكنت عساكر الملك الأشرف من محاصرة داود وإلقاء القبض عليه بعد أن تفرق أصحابه فاعتقله الملك الأشرف فى مدينة تعز سنة خمس وتسعين وستمائة وفى ذلك يقول تاج الدين موسى بن حسن الوصلى فى قصيدة هنأ بها الأشرف :

ولو لا أن ضرّك منك قلنا ... مقالا منه تنفلق الصخور
ولكنا نرجى السخط منكم ... يعود رضى وتنجبر الأمور

وتوفى الملك الأشرف سنة ست وتسعين وستمائة .

الملك المؤيد

وتولى بعده أخوه الملك المؤيد داود بن يوسف وكان رجلاً عالماً أديباً له شغف عظيم بالعلم والأدب جمع الكثير من الكتب النفيسة وألف كتاب « المعتمد » فى الطب كما ألف كتباً أخرى غيره وقصده أهل الفضل من أقاصى البلدان وكان يكرم وفادتهم وتوفى سنة إحدى وعشرين وسبعمائة .

الملك المجاهد

وقام بالأمر بعد المؤيد ولده الملك المجاهد على بن المؤيد وقامت بينه وبين ابن عمه الظاهر بن المنصور حروب طويلة انتهت باستيلاء الملك المجاهد على البلاد ثم سار بعد

ذلك إلى مكة لأداء فريضة الحج سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة وعاد إلى اليمن ثم سار إلى مكة مرة ثانية سنة إحدى وخمسين وسبعمائة ووقع بينه وبين أمير المحمل المصرى خلاف كان من شأنه إلقاء القبض على الملك المجاهد وحمله إلى القاهرة وحبسه الكرك ولكنه أفرج عنه سنة اثنين وخمسين وعاد إلى اليمن وبقى بها إلى أن توفى سنة أربع وستين وسبعمائة وقد نزل فى أيامه الإمام المهدى محمد بن المطهر إلى عدن فى ثورة عظيمة كما سيأتى الكلام على ذلك فيما بعد .

الملك الأفضل

بعد أن توفى الملك المجاهد تولى بعده ابنه الملك الأفضل العباس بن على وتوفى سنة ثمان وسبعين وسبعمائة .

الملك الأشرف

وبعد وفاة الملك الأفضل قام بعده الملك الأشرف إسماعيل بن العباس الذى توفى سنة ثلاث وثمانمائة والذى كان آخر ملوك بنى رسول ذوى الصولة والرياسة وكان هو الذى ألف على بن الحسن الخزرجى المؤلفات النفيسة التاريخية بناء على إشارته وقد ذكره فى خطبة كتابه « طراز أعلام الزمن » وفى أيامه قدم مجد الدين الفيروزابادى إلى مدينة زبيد وشرع وهو مقيم فيها فى تأليف كتابه « القاموس » وذكره فى خطبة الكتاب ومن مآثر الملك الأشرف إنشاء جامع الأشرفية بمدينة تعز وفى أيامه هاجم الإمام صلاح الدين على بن محمد بنى رسول فى زبيد كما سيأتى الإشارة إلى ذلك وتولى بعده ابنه الملك الناصر أحمد بن الأشرف .

الملك الناصر

حدث فى أيام الملك الناصر أن توفى الشيخ معوضة بن تاج الدين جد ملوك بنى طاهر الذين سيأتى ذكرهم ووصل ابنه طاهر إلى الملك الناصر وكان بنو طاهر أمناء فى

دولة بنى رسول فى عدن وأطرافها وفى سنة تسع وعشرين وثمانمائة مات الملك الناصر وتولى بعده الملك المنصور عبد الله بن الناصر .

الملك المنصور

لم تطل أيام الملك المنصور إذ توفى سنة ثلاثين وثمانمائة .

الملك الأشرف

وقام بالأمر بعده ابنه الأشرف إسماعيل الذى خلعه الأمراء وأقاموا مكانه عمه الملك الطاهر يحيى بن إسماعيل .

الملك الطاهر

وقد مات الملك الطاهر سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة وولى الملك بعده الملك الأشرف ابن إسماعيل بن الطاهر .

الملك الأشرف

مات الملك الأشرف هذا سنة خمس وأربعين وقد عارض هذا الملك أمراء آخرون من بنى رسول ولكن لم يستتب لهم الأمر ولما رأى المشايخ بنو طاهر اضطراب الأحوال واختلاف بنى رسول فيما بينهم صمموا على الاستقلال بملك اليمن ولكن قاومهم الملك المسعود أبو القاسم بن الأشرف بن الناصر بن الأشرف الذى كان مقيما بعدن وقامت الحرب بينه وبينهم وأخيراً انتصروا عليه وهزموا جيوشه وأسسوا الدولة الطاهرية التى سيأتى الكلام عنها ..

الفصل الحادى عشر

دولة بنى طاهر

من سنة ٨٥٨ إلى سنة ٩٣٣

السلطان عامر بن طاهر

كانت للمشايخ من بنى طاهر بن معوضه بن تاج الدين بن محمد بن سعيد بن عامر ابن مسعود بن فهد بن وهب بن حرب القرشى رياسة فى دولة بنى رسول كما كانوا أمناء لسلاطين بنى رسول ووكلاء عنهم فى عدن وما جاورها من النواحى ولما اشتد ساعدهم وقويت شوكتهم عندما ضعفت دولة بنى رسول فملكوا الحصون واستولوا على الخزائن والأموال وملكوا عدن سنة ثمان وخمسين وثمانمائة وأخرجوا منها الملك المسعود بن الأشرف آخر ملوك بنى رسول وتولى الأمر منهم عامر بن طاهر الذى تلقب بالملك الظافر وناصره أخواه على بن طاهر وداود بن طاهر وفتحوا كثيراً من البلاد اليمنية وجعلوا عاصمة ملكهم القرانة من بلاد رَدَاع ثم سار السلطان عامر بن طاهر لفتح مدينة صنعاء وكان بها الأمير محمد بن الناصر الذى سيأتى ذكره فى الفصل القادم فسلمت له المدينة صلحا على أن يبقى الأمر فيها مشتركا بين محمد بن الناصر وعامل آل طاهر على أن السلطان عامر بن طاهر لم يلبث أن طمع فى الاستقلال بأمر صنعاء وبلادها فسار إليها فى سنة ثمانمائة وسبعين وحاصرها حصاراً شديداً وفى خلال هذا الحصار وصل النقيب محمد بن عيسى شارب من بعض الجهات وكان من كبار أصحاب محمد بن الناصر ومعه جماعة من الفرسان وتقدم بشجاعة واستبسال إلى معسكر عامر ولما عرف ذلك أهل صنعاء خرجوا لفك الحصار وهاجموا رجال السلطان عامر ونهبوا

معسكره واستولوا على الإبل وما عليها ولما علم السلطان عامر بهذه الهزيمة التى مُنى بها جيشه مات غمًّا وقيل بل إنه أصيب بسهم ذهب بحياته وانهزم أصحابه .

الملك المجاهد

وبعد وفاة الملك عامر بن طاهر قام بالأمر بعده شقيقه الملك المجاهد على بن طاهر وكان كيّسا حكيما فأعرض عن الفتن وأحسن السياسة وتدبير شئون المملكة وبنى الكثير من المساجد والرباطات ومات بمدينة جُبَن من بلاد رداع سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة .

الملك المنصور

وبعد أن توفى الملك المجاهد تولى الملك بعده ابن أخيه الملك المنصور عبد الوهاب ابن داود بن طاهر ومات سنة أربع وتسعين وثمانمائة ببلدة جُبَن .

السلطان عامر الملقب بالملك الظافر

وبعد أن توفى الملك المنصور عبد الوهاب قام بالأمر بعده السلطان عامر بن عبد الوهاب وتلقب بالملك الظافر وفى بداية حكمه تم الصلح بينه وبين الأمير محمد بن الناصر . ولقد امتد نفوذه حتى شمل بلاد تهامة وغيرها وعظم شأنه *وفى سنة سبع وتسعمائة تقدم نحو مدينة ذمار فأخذها ثم يمم مدينة صنعاء وحاصرها وعندئذ وصل الإمام محمد بن على الوشلى والأمير محمد بن الحسين الحمزى لفك حصار المدينة ومناصرة محمد بن الناصر وشنوا الغارة على الأمير محمد البعدانى رئيس أصحاب السلطان عامر وهزموه ونهبوا معسكره فعاد إلى اليمن الأسفل * وفى سنة عشر وتسعمائة أعاد السلطان عامر الكرة على صنعاء بجمع وافر من الجند ونصب لمحاصرتها العَرَّادات والمُنْجَنِيقات وكان ذلك فى أيام الأمير أحمد بن الناصر بعد أن توفى أخوه محمد بن الناصر وعندئذ أقبل الإمام محمد بن على الوشلى والأمير محمد بن الحسين الحمزى لشد أزر أحمد بن الناصر وأحاطا بجنود

السلطان عامر ولكن السلطان عامر تغلب عليهما وأسر الإمام محمد بن على الوشلى وحبسه فى صنعاء بعد أن فتحها عنوة حتى مات فى حبسه كما هزم الأمير أحمد بن الحسين الحزى .

ولما استولى السلطان عامر على صنعاء استسلم له الأمير أحمد بن الناصر فنقله السلطان عامر إلى مدينة تعز هو وطائفة من أصحابه وحبسهم بها . وبعد فتح صنعاء تقدم السلطان نحو بلاد حاشد وامتد نفوذه فى كثير من بلاد الجبال ووصل إلى ظفار داود الشرف على ذى بين واقتلع منها صروف الذهب وأخذها معه إلى القرانة وسوف نتكلم فى الفصل القادم عن غزوة القرانة التى قام بها المطهر بن شرف الدين ، إعادة صروف الذهب كما كانت .

وفى سنة إحدى وعشرين وتسعمائة ظهرت بوادر زوال دولة آل طاهر عندما خرجت طائفة من الجراكسة من قبل ملك مصر السلطان قانصوه الغورى نزلت فى جزيرة كمران فى البحر الأحمر لمطاردة النصارى من البرتغاليين وغيرهم وعندما وصلهم فى كمران طلبوا إلى السلطان عامر أن يرسل لهم الميرة من الطعام ولكنه منعها عنهم فخرجوا لقتاله من بندر اللحية وكانوا مسلحين بالبنادق النارية ولم تكن العرب قد عرفتها حتى ذلك الحين فذعروا منها وانهزموا بسببها شر هزيمة وهكذا فشل أصحاب السلطان عامر فشلا ذريعاً واستولت الجراكسة على زبيد وتعز ورداع وقتل عبد الملك الوهاب شقيق السلطان عامر فى معركة تعز كما قتل عبد الوهاب بن السلطان عامر فى زبيد وانهزم السلطان عامر وتقهقر إلى صنعاء وأراد التحصن بذى مرمر ولكنه لم يصله وقتل حول مدينة صنعاء فى شهر ربيع الثانى سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ولقد قال القاضى الحافظ عبد الرحمن الديبع الزبيدى فى رثاء السلطان عامر وشقيقه عبد الملك أبياتا جاء فيها :

أخلاى ضاع الدين من بعد عامر ... وبعد أخيه أعدل الناس بالناس

فقدا والله والله إننا ... من الأنس والسلوان فى غاية اليأس

ولقد كان السلطان عامر محسنا إلى القاضى عبد الرحمن الديبع كما ذكر القاضى ذلك فى بعض مؤلفاته التاريخية وذكر فى كتابه « فضل المزيد » ذيل بغية المستفيد فى أخبار زبيد ما يأتى :

« لم يكن فى الملك الظافر خصلة تذم سوى تعرضه للوقف وأظن أن ذلك هو الذى كان سبباً لزوال دولته وما فى يديه وأنا ناصح والنصيحة من الدين لكل من يتولى أمور المسلمين من الملوك والسلاطين وسائر المتصرفين ألا يتعرض للوقف وأهله ولا يمنع من بذله الخ وأنشد .

يا صاحبى ... لا تكلم ... فى الوقف أولى وأصلح

فإننا ... ما رأينا ... شخصاً تولاه أفلح

وانمحلت دولة بنى طاهر بسبب الجراكسة ولم يبق منهم سوى عامر بن داود ابن عامر بن طاهر فى جهة لحج وعدن وسيأتى ذكر ما كان من أمره عند خروج الأتراك إلى عدن .

الفصل الثانى عشر

فى دولة الجراكسة باليمن

فى سنة إحدى وعشرين وتسعمائة خرجت من مصر طائفة من الجراكسة على رأسها الأمير حسين الجركسى من قبل السلطان قانصوه[1] الغورى ملك مصر إلى

(١) هو آخر ملوك الجراكسة بمصر وهم المماليك البحرية وسموا بهذا الاسم لأنهم كانوا يسكنون جزيرة الروضة بالنيل وكان أولهم السلطان برقوق وقد حكموا مصر مائة وعشرين سنة وكان يحكمها قبلهم المماليك التركية الذين خلفوا الدولة الأيوبية . وسبقت الإشارة إليهم فى الفصل التاسع

جزيرة كمران لمطاردة النصارى البرتغاليين فى البحر الأحمر ولما نزلت بالجزيرة المذكورة طالبت السلطان عامر بن عبد الوهاب بمعاونتها على جهاد النصارى ولكن هذا أبى ومنع عنهم الميرة ولذلك خرج الأمير حسين الجركسى فى نحو ألف مقاتل من رجاله من بندر اللحية وانضم إليه الفقيه القبول ابن أبى بكر الزيلعى صاحب اللحية وكذلك قام بمعاونته الشريف عز الدين بن دريب صاحب صبيا واتباعهما من العرب كما خرجت طائفة أخرى من الجراكسة واتجهت نحو عدن وكان رجالها مسلحين بالبنادق النارية التى لم تكن العرب تعرف عنها شيئاً فى ذلك الوقت كما أسلفنا ولذلك ذعرت أمامها عساكر بنى طاهر وانهزمت فى جميع المعارك التى وقعت بينها وبين الجراكسة الذين احتلوا زبيد ودخلها الأمير حسين الجركسى هو ورجاله وكان قد وعدهم بأن يعطى كل واحد منهم مائة أشرفى ولما جمع المال الكثير طالبوه بالوفاء بما وعد ولكنه خاف منهم وخرج من زبيد إلى بندر البقعة وركب بعض الزوارق إلى زيلع ومنها رحل إلى بلاد الهند وخلف على عساكر مصر أميراً اسمه برسباى الذى تقدم بهم إلى مدينة تعز ودخلها وقاتل فيها السلطان عامر الذى دافع دفاع الأبطال ولكنه انهزم شر هزيمة بعد أن قتل أخوه عبدالملك وسار إلى صنعاء وقتل خارجها .

وسار الأمير برسباى بعد ذلك نحو رداع واستولى على مدينة القرانة وعثر بها على أموال كثيرة ثم تقدم نحو بلاد آل عمار ولكنه قتل بها وعندئذ ولى الجراكسة عليهم واحداً منهم اسمه الإسكندر تقدم بهم إلى صنعاء ، فدخلوها واستولوا على جميع مافيها من أموال وانتهكوا الحرمات وسفكوا الدماء وفى خلال تلك الأيام تقدم الإمام المتوكل على الله شرف الدين نحو حصن ثلا فأخذه من يد عامل السلطان عامر ولما علمت الجراكسة بذلك الأمر أرسلوا طائفة من رجالهم من صنعاء لقتاله وبينما كانوا يقومون بحصار ثلا وصلهم خبر[1] دخول السلطان العثمانى سليم بن بايزيد فى أرض

(١) كان السبب فى غزو السلطان سليم بن بايزيد مصر وفتحها أنه حين اشتبك فى قتال =

مصر ومقتل السلطان الغورى فسقط فى أيديهم وبادر أميرهم الاسكندر إلى جمع الناس بجامع صنعاء وأخبرهم بانتمائه إلى الدولة العثمانية وإنما فعل ذلك مخافة أن يتخطفه الناس هو ورجاله ثم سار إلى زبيد ومعه الأموال التى كان قد جمعها وأقام بها حتى مات وتولى بعده أمر الجراكسة بزبيد الأمير أحمد الناخوذة وقد قتله الأتراك عند دخولهم بلاد اليمن أما بقية الجنود الجراكسة فقد انضموا إلى الأتراك .

وأما الطائفة التى كانت قد خرجت من صنعاء . لقتال الإمام شرف الدين فى ثلا فإنها عادت إلى صنعاء وزحف بعضها إلى بلاد بنى بهلول ولكنها عادت مهزومة وثار عليها أهل صنعاء واضطروها إلى التحصن والاعتصام بالقصر وعندما رأى أهل صنعاء ذلك كاتبوا الإمام شرف الدين فبادر بالحضور إلى صنعاء على رأس بعض القبائل اليمنية وحاصر الجراكسة حتى خرجوا صلحا إلى زبيد وفتحت اليمن أبوابها للإمام شرف الدين وولده المطهر وسوف نتكلم فيما بعد عن فتوحاتهما وعن غزو المطهر للجراكسة فى زبيد وقد ابتهجت صنعاء وأهلها بدخول الإمام شرف الدين بعد تلك الكوارث وأنشأت الشعراء فى تهنئة الإمام القصائد البليغة وستأتى الإشارة إلى بعضها فى الباب التالى .

= الشاه إسماعيل ملك العجم كانت تنقطع عنه القوافل التى تحمل إليه المؤن ولما استفسر عن السبب علم أنه من جهة سلطان مصر قانصوه الغورى الذى كانت بينه وبين شاه العجم مودة ولما أتم السلطان سليم تلك الحروب استعد لأخذ مصر وفتحها وهكذا دخلت مصر تحت سيطرة الدولة العثمانية من سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة وبقيت كذلك حتى القرن الثالث عشر ثم أصبحت تحت تصرف محمد على باشا وأسرته .

الفصل الثالث عشر

الدولة العثمانية باليمن للمرة الأولى

من سنة ٩٤٥ ـ سنة ١٠٤٥

ففى سنة خمس وأربعين وتسعمائة أرسل السلطان سليمان بن سليم بن بايزيد قوة بحرية كبيرة لمطاردة النصارى من البرتغاليين وغيرهم الذين كان قد استفحل أمرهم فى البحر الأحمر وخيف من شرهم وكان على رأس هذه القوة والى مصر الباشا سليمان فوصلت القوة إلى جزيرة كمران ولما بلغ خبر قدومها إلى مسامع عامر بن داود بن عامر ابن طاهر الطاهرى، وكان بعدن طمع فى الالتجاء إليه لكى ينصره على الإمام شرف الدين وولده المطهر وكتب إلى الباشا سليمان بذلك فرد عليه الباشا مظهراً استعداده لمساعدته وسار الباشا إلى عدن وكان أول عمل أجراه فيها هو قتل الأمير عامر بن داود المذكور ثم سار بعد ذلك إلى زبيد وأمر بقتل أحمد النَّاخُوذَه أمير الشراكسة وكان نائباً عن ولد الاسكندر أميرهم السابق وانضمت عساكر الجراكسة إلى جيش الترك ثم أناب الباشا سليمان رجلاً آخر من رجاله هو مصطفى باشا وأمره بالتوجه إلى تعز وعاد هو إلى مصر ثم عين بعد ذلك مصطفى باشا نَشَّار الذى انفصل عن اليمن فى سنة ٩٥٢ وعين مكانه أُوَيْس باشا وكان مملوكاً [1] للسلطان سليم بن بايزيد فقصد إلى تعز وفتحها وأقام عليها ازدُمُر باشا وعاد هو إلى زبيد فقتله بها حيدر باشا أحد أمراء الجراكسة ولو أنه قد جاء فى تاريخ السكبسى أن الذى قتله هم الأتراك بمحل الشلالة

(١) ذكره مؤلف سلنامة العثمانية وفى تاريخ السكبسى أنه ابن السلطان ولكن ما فى سلنامة أرجح .

بتدبير من ازدمر وبعض العسكر والقول الأول أرجح وفى تاريخ روح الروح شىء من الاضطراب .

ثم حدث أن عين السلطان ازدُمُر باشا والياً على اليمن وقد تحرك هذا من تعز للاستيلاء على صنعاء وفى خلال ذلك قتل الأمير حسن بَهْلَوان حول إِرْيَاب وهو الذى كان قد وصل قبل الاحتلال التركى إلى حضرة الإمام شرف الدين وبذر الفتنة بين أولاد الإمام حتى قام بينهم نزاع كبير ولما خرج أزدمر باشا من تعز ترك الإمام شرف الدين أمر الدفاع لولده المطهر بعد أن تفاقم الأمر وظهر الشر فوصل ازدُمُر باشا إلى صنعاء وحاصرها أياما حتى دخلها عنوةً فعاثت فيها عساكر الأتراك فساداً وأعملت فيها السلب والنهب وسفك الدماء واستولت على الأموال وانتهكت الحُرُمات مما اضطر المطهر إلى التحصن فى ثلا فخرج الأتراك من صنعاء لقتاله وحاصرته فى ثلا وسار أزدمر إلى بلاد حاشد وأمر بها عز الدين بن الإمام شرف الدين من ظفار داود وأرسله إلى عاصمة السلطنة فمات فى يَنْبُع وعاد أزدمر لحرب المطهر بثلا ولما طال عليه الحصار عقد مع المطهر صلحاً وعاد إلى صنعاء حيث عمر المسجد الذى بباب شُعُوب .

وفى سنة اثنتين وستين وتسعمائة عزل أُزْدُمُر باشا وعين بدلاً منه مصطفى نشار ثم مصطفى باشا وقد عرض الباشا مصطفى على السلطان أن يحدث مَحْمِلاً لحجاج اليمن على غرار المحمل المصرى فأذن له السلطان بذلك فى سنة ثلاث وستين وتسعمائة واستمر مسير المَحْمِل من اليمن إلى مكة فى كل عام حتى سنة ألف وخمس وأربعين كما ذكر ذلك مؤلف كتاب « خلاصة الكلام » .

وقد تولى حكم اليمن بعد الباشا مصطفى الوالى محمود باشا ثم رضوان باشا وفى أيام هذا الأخير انتقض الصلح بين الأتراك والمطهر سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة ففتح المطهر معظم البلاد اليمنية التى كانت بأيدى الأتراك وحاصر مدينة صنعاء وفى خلال هذه المدة خرج من عاصمة السلطنة مراد باشا ووصل إلى تهامة وحاول فك الحصار عن صنعاء

فتوجه نحو مدينة ذمار فأرسل المطهر بن الإمام شرف الدين الشيخ أحمد الـ ـداني في جماعة من أصحابه التقت بالباشا مراد في الشلالة فقتلته وحزت رأسه وأرسل إلى المطهر الذي أرسله بدوره إلى الأتراك المحصورين في صنعاء الذين لم يسعهم إلا الاستسلام وعقد الصلح مع المطهر ثم فتح المطهر بعد ذلك مدينة تعز وبلادها وأرسل قوة من رجاله فتح مدينة زبيد ولكنه لم ـ جح في هذه المرة ودخل أصحابه مدينة عدن ولبثوا بها ـ و سنتين وأمر المطهر بعمار ـ منارة لبعض مساجدها وأرسل جماعة من أصحابه إلى جازان ودخلوا جزيرة فرسان .

وفي سنة ـ ت وتسعين وتسعمائة خرج حسن باشا وعثمان باشا إلى اليمن وتحت إمرتهما قوة عظيمة واستطاعا استرجاع مدينة تعز وغيرها من البلدان ثم ـ ج الوزير سنان بقوة عظيمة من السلطنة وكان وزيراً للسلطان سليمان بن سليم فاتجه نحو صنعاء ودخلها بعد أن نحى عنها المطهر بن شرف الدين إلى ثلا وأذن لأهل صنعاء في مواجهة الوزير سنان وكان المطهر قد ندم على منعهم من مواجهة أزدمر باشا حتى كان ما كان من انتهاك الحرمات وسفك الدماء وبعد دخول سنان باشا صنعاء سار إلى ثلا لمحاربة المطهر فحاصره أياماً ولكنه عندما يئس من التغلب عليه عقد معه صلحاً وعاد إلى السلطنة .

وفي سنة ثمان وسبعين وتسعمائة عين بهرام باشا والياً على اليمن واختار الإقامة في مدينة ذمار وفي أيامه في سنة ثمانين وتسعمائة توفي المطهر بن شرف الدين * وفي سنة أربع وثمانين وتسعمائة عين لولاية اليمن الباشا مُراد ومن آثاره عمارة القبة التي في نصر صنعاء ومنارتها وكان هو الذي أجرى نهراً إلى صنعاء من جبل نقم وقيل في تاريخ بناء قبته المذكورة ما يأتي :

قبة الباشا مراد لُقِبَت بالعادلية
جاء تاريخ بناها مُسْتَقَر الحانفية

وعين بعده لولاية اليمن الوزير حسن ففتح معظم البلاد اليمنية وفي أيامه أتى الباشا سنان القبض في بلاد الأهنوم على الإمام الحسن بن علي بن داود الذي سيأتي ذكره في الباب الخامس ثم كان إلقاء القبض على أولاد المطهر بن الإمام شرف الدين بعد خطوب وحروب طويلة وأرسلوا جميعاً مع الإمام الحسن إلى عاصمة السلطنة ولقد طالت أيام الوزير حسن باليمن وكان هو الذي عمر القبة المشهورة بأعلى صنعاء المسماة البكيرية باسم مولاه بكير ولقد قال السيد البليغ محمد بن عبد الله بن شرف الدين في تاريخ عمارتها ما يأتي :

شاد الوزير جامعا يلوح نورا ساطعا
وقد أتى تاريخه لكل خير جامعا

كما أنه هو الذي عمر الحمام الموجود إلى جوارها ووقفه عليها * وفي أيامه سنة ست وألف ظهر الإمام القاسم بن محمد فتكدر الوزير حسن لقيامه وستأتي في الباب الخامس الإشارة إلى ما كان من الحروب والقلاقل بعد قيام الإمام القاسم .

وفي سنة ثلاث عشرة وألف رحل الوزير حسن عن بلاد اليمن وخلف الباشا سنان على ولاية اليمن وكان سنان باشا هذا مشهوراً بالذكاء وحسن السياسة والشجاعة وقد جمع أموالا كثيرة من اليمن وطالت أيامه بها وقد عمر البريكة المشهورة بمحل مَتْنَة غربي صنعاء والبريكة التي بمحل القُبَّتين جنوب مدينة صنعاء والسمسرة التي بالقرب من البريكة .

وفي سنة ست عشرة وألف عزل سنان باشا وعين مكانه جعفر باشا فسار الباشا سنان من صنعاء إلى المخا في طريقه إلى السلطنة ولكن وافته المنية بها ودفن إلى جانب الشاذلي .

وعندما تولى جعفر باشا كاتب الإمام القاسم وعرض عليه الصلح فوافقه الإمام القاسم على ما طلب وسكنت القلاقل وهدأت الفتن وسارت الأمور كذلك إلى أن عزل

الباشا جعفر وعين مكانه ابراهيم باشا وسار جعفر باشا إلى المخا متوجها إلى السلطنة وحدث أن مات ابراهيم باشا فى ذمار فانتقض الصلح الذى عقد بين الإمام القاسم وجعفر باشا ولذلك عاد جعفر باشا من المخا وكان الإمام القاسم قد استولى هو وأولاده على بعض البلاد التى كانت بأيدى الأتراك ولذلك أسرع جعفر باشا بتجهيز عساكر الأتراك لحرب الإمام واسترجاع البلاد وتمكن من أسر الحسن بن الإمام من عِزَّة الأشمُور وحبسه بقصر صنعاء كما تقدم حيدر باشا إلى صعدة فأخذها وقامت ببلاد صعدة حروب طويلة قتل فى بعضها الأمير على بن الإمام القاسم بموضع الشقات ثم عادت الكرَّة للإمام القاسم وتوالت هزائم الأتراك فى بلاد صعدة ولذلك خرج حيدر باشا من صعدة خائفاً يترقب وواصل السفر خفية إلى مدينة خِمَر من بلاد حاشد وكانت موقعة غارب أثافة المشهورة ببلاد حاشد التى قتل فيها كثير من أمراء الأتراك وأسر الآخرون .

بعد ذلك عرض جعفر باشا الصلح على الإمام القاسم بواسطة ابنه الحسن الذى كان محبوساً بقصر صنعاء فكتب الحسن بن الإمام القاسم إلى والده يراجعه فى أمر الصلح أبياتا بليغة منها :

مولاى إن الصلح أعذب موردا ... فاسلك له سُبُلا سويًّا أملدا
أرسل دِلاء الحِلْم فى صافيه كى ... يروى ظِمَاء المسلمين من الصَّدى
رفقاً عداك اللوم يا ابن محمد ... بالمسلمين وعَطْفَةً وتودُّدا

إلى آخرها ، فقبل الإمام ذلك وتم الصلح على خروج الأمير صفر الملوك جعفر باشا من صعدة وكان محصوراً بها وتقرير يد الإمام على ما تحت يده من البلاد وسيأتى ذكر ذلك تفصيلاً فى الباب القادم .

وفى سنة خمس وعشرين وألف عزل جعفر باشا وتولى على اليمن مكانه الوزير

محمد باشا ولقد كان لجعفر باشا ميل إلى الأدب [1] وحب لأهل العلم فكان يجالس السيد العلامة صلاح بن أحمد الوزير ويأخذ عنه فى تفسير أبى السعود كما كان خلفه محمد باشا متحليا بالعدل معروفاً بحبه الإنصاف وكان قبل مجيئه إلى اليمن متوليًا شئون مصر المالية ولقد جدد عقد الصلح بينه وبين الإمام القاسم وأحسن إلى سيف الإسلام الحسن وعمر مسجد طلحة ومنارته * وفى أيامه سنة تسع وعشرين وألف توفى الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد وقام بعده ولده الإمام المؤيد بالله محمد فأكد أمر الصلح .

وفى سنة إحدى وثلاثين وألف عزل محمد باشا وعين مكانه فضلى باشا وهيأ الله خروج الحسن بن الإمام من الحبس خفية قبيل وصول فضلى باشا صنعاء .

بعد ذلك عزل فضلى باشا وعين بدلا منه حيدر باشا الذى كان رجلا ضعيفا منهمكا فى اللذات فنقض عقد الصلح الذى كان معقودا بين آل القاسم والأتراك للسبب الذى سنوضحه فى الباب القادم فكان ما يأتى ذكره من الحروب والمعارك التى انتهت بخروج الأتراك من صنعاء وتعز وغيرها من البلاد حتى خرج قانصوه باشا بقوة عظيمة من مصر إلى تهامة ثم أراد الزحف على بلاد الجبال اليمنية ولكن حالت بينه وبين تعز عزمات الحسن بن القاسم وإخوته وانتهى أمر قانصوه باشا إلى التسليم وخروج الأتراك من بلاد اليمن كلها فى سنة ١٠٤٥ واستقلت اليمن تحت حكم أولاد الإمام القاسم كما سيأتى الكلام على ذلك بأكثر من هذا فى الباب الآتى .

---

(١) أنشد جعفر باشا فى بعض الأيام هذين البيتين فى التوجيه بالمذاهب الأربعة :

خدك ذا الأشعرى حنفى ... وكان من أحمد المذاهب لى
حبك ما زال شافعى أبداً ... يا مالكى كيف صرت معتزلى

والتفت إلى السيد صلاح وقال له أين ذكر الزيدى فقال السيد صلاح مرتجلا .

زاد غرامى به فزيدنى ... بعداً عن المكثرين فى عذلى

الفصل الرابع عشر

الدولة العثمانية باليمن للمرة الثانية

من سنة ١٣٦٥ ـ ١٣٣٦

بعد إخراج الأتراك من بلاد اليمن سنة خمس وأربعين وألف كما ذكرنا ذلك فيما سلف استمرت إدارة اليمن تحت رياسة آل الإمام القاسم بن محمد وسيأتى ذكر الأئمة منهم فى الباب الآتى ، خرجت بعض الأطراف من أيديهم كحضرموت ويافع ـ ث استبد بهما سلاطين أهل البلاد فى آخر القرن الحادى عشر وكعدن ولحج اللتين ، قمتا تحت حكم سلاطين ا بادلة فى أثناء القرن الثانى عشر ثم نزل الإنكليز عدن سنة ١٢٩٥

ولما كانت الفتن والقلاقل قد استمرت فى تهامة بعد حركة النجود فى القرن الثالث عشر فقد استبد بمعظمها الشريف حمود بن محمد صاحب أبى عريش بعد المعا ك العظيمة التى نشبت بينه وبين النجود وقام على أثر الشريف حمود ولده أحمد وفى أيامه خرج خليل باشا من مصر إلى تهامة فألقى القبض على الشريف أحمد وأحضره إلى مصر وأعيدت بلاد تهامة والساحل إلى المهدى عبدالله بن المتوكل وفى أيام المهدى خرج تركى باشا من جدة على رأس جماعة من الأتراك إلى تهامة فعاث بها وتولى الأمر فيها إلى أن خرج عليه أمير عسير على بن مجثل فحاصره بالمخا حتى اضطر إلى الإبحار منها على بعض القوارب ثم خرج بعد ذلك ابراهيم باشا من مصر من قبل واليها العظيم محمد على باشا وتغلب على معظم بلاد تهامة واستولى على نمز وبلادها ثم انه لما وقع الخلاف بين محمد على باشا والدولة العثمانية أيام السلطان عبد المجيد بن محمود وكان كف يد محمد على باشا عن اليمن والحجاز ارتفع الأتراك الذين كانوا باليمن من قبل محمد على عنها وتغلب على تهامة الشريف الحسين بن على بن حيدر وهو ابن أخ الشريف حمود بن محمد صاحب أبى عريش وكانت صنعاء ومخاليفها بيد المتوكل على الله محمد بن يحيى وكان الصفا بينه وبين الشريف الحسين ثم لم يلبث

المتوكل على الله محمد بن يحيى أن نازع الشريف الحسين بن على بن حيدر من أجل البنادر وقامت بينهما معركة شديدة فى قرية القطيع من تهامة نهبت فيها أموال التجار الذين رفعوا القضية إلى السلطان عبدالمجيد ولذلك أرسل توفيق باشا والشريف محمد بن عون أمير مكة إلى الحديدة فى ثلاث آلاف من عساكر الدولة بين مشاة وفرسان ووصلوا الحديدة فى جمادى الآخرة من سنة خمس وستين ومائتين وألف فاستدعاهم المتوكل محمد بن يحيى إلى صنعاء ليستعين بهم على ازدياد نفوذه ونزل الحديدة للتحدث إليهم فى تسليم قصر صنعاء وذهبت طائفة منهم إلى صنعاء مع الباشا توفيق وفى اليوم الثانى لوصولهم ثار عليهم أهالى صنعاء وحاصروهم بالقصر ونصب أهالى صنعاء على بن المهدى إماماً لهم وحبسوا المتوكل محمد بن يحيى ثم عقد الصلح بين الطرفين وكان هذا الصلح يقضى بخروج الأتراك من قصر صنعاء فخرجوا منها صلحاً وعادوا إلى الحديده وقام توفيق باشا بحكم الحديدة وبلاد تهامة حتى مات وعين بعده سليمان بك ثم محمود باشا ثم مصطفى باشا صبرى ثم محمد برى ثم بونابرت مصطفى باشا وكان رجلاً باسلاً قوى الشكيمة أراد غزو بلاد الزرانيق ولكنه لم ينجح وهزم ومات فى بيت الفقيه بغتة وعين مكانه كرد محمود باشا ثم أحمد باشا السليمانى .

وفى اليوم العاشر من شهر محرم سنة ست وثمانين ومائتين عين على باشا الحلبى وفى أيامه أراد محمد بن عايض العسيرى أن يغزو الحديدة ويحاصرها وبدأ فى تنفيذ مشروعه هذا فى شهر رمضان سنة سبع وثمانين ولكن الأتراك قابلوا قوته بنيران مدافعهم فانهزم هو وأصحابه هزيمة منكرة وعندما بلغ السلطان عبد العزيز بن محمود ما كان من أمر محمد بن عايض بعد ما كان من إحسان الدولة إليه غضب غضباً شديداً وأرسل فرقة من العساكر النظامية لتأديبه ولمعاقبته على فعلته الشنعاء وتوجهت هذه القوة إلى القنفذة برياسة رديف باشا وعندما وصلت إلى مدينة أبها أخذت فى تدمير حصون محمد بن عايض كحصن مناظر وغيره وقبضوا عليه وأمر رديف باشا بإعدامه

غيلة ولكن قتله على هذه الصورة أغضب السلطان من رديف باشا فعزله وولى مكانه فى القيادة أحمد مختار باشا الذى أخذ فى تنظيم أحوال بلاد عسير ثم سار بعساكره منها إلى الحديدة واستقر بها وقد كتب إليه أعيان مدينة صنعاء يطلبون إليه إنقاذهم من الفوضى التى ضربت أطنابها فى البلاد بعد سقوط الدولة القاسمية فخرج أحمد مختار باشا من الحديدة وقصد إلى بلاد حراز وقضى على دولة المكارمة التى هى فرقة من فرق الإسماعيلية ثم تقدم زاحفاً إلى صنعاء وضربت عساكره خيامهم فى جنوب مدينة صنعاء سنة تسع وثمانين ومائتين وألف ثم أخذت فى تنظيم القصر وتأديب بعض رجال القبائل العاتية التى سطت على الضعفاء من الناس من أمثال الشيخ على حسين الدَّفمى صاحب شُعُوب وغيره ولقد وقعت فى هذه الأثناء حروب بين الأتراك وبين القبائل اليمنية فى بلاد أرحب وخولان والحدا وغيرها ونزلت فرقة كبيرة من الأتراك إلى اليمن الأسفل واستولت عليه فذعرت منها قبائل الشرق من ذى غَيْلان ورحلت إلى بلادها وبعد أن استقر الأتراك بمدينة صنعاء سارت فرقة منهم لحصار حصن كوكبان برياسة ولى الدين باشا وكان يحكم كوكبان إذ ذاك الأمير الحُلاحِل أحمد بن محمد بن شرف الدين بن أحمد بن محمد بن الحسين بن عبدالقادر بن الناصر بن عبدالرب بن على بن شمس الدين ابن الإمام شرف الدين وقد حكم آباؤه بلاد كوكبان كابراً عن كابر من عهد الإمام شرف الدين واستمر الحصار ستة أشهر كاملة ثم عقد الصلح الذى قضى بخروج الأمير أحمد وأهل بيته إلى صنعاء وتسليم الحصن للدولة وكان إمام اليمن فى ذلك الوقت هو المتوكل على الله المحسن بن أحمد وقد حارب جماعة الإسماعيلية بحراز والحَيْمة مدة ثم انتقل إلى بلاد حاشد وقد كانت للأتراك الغلبة على القبائل اليمنية فى أول الأمر نظراً لتفوقهم بالسلاح .

وفى سنة تسعين ومائتين وألف عزل الوالى أحمد مختار باشا وعين بدلا منه أحمد أيوب وهو الذى بدأ فى تشييد المستشفى بمدينة صنعاء وشرع فى بناء الثكنات العسكرية

فى جنوب المدينة ثم عزل وعين مكانه الوالى مصطفى عاصم وكان رجلا مهاباً عرف بالكياسة والدهاء وفى أيامه بدأ حكم السلطان العثمانى عبد الحميد بن عبد المجيد بن محمود فى سنة ثلاث وتسعين وفى هذه السنة خرج الوالى مصطفى عاصم من صنعاء وزحف على بلاد أرحب وحاشد ودخل حجر وظُلَيْمة والسُّوْدَة وغيرها من البلاد .

وفى سنة خمس وتسعين سَعَى بعض الوشاة لدى الوالى مصطفى عاصم بالنميمة ضد علماء صنعاء زاعماً أن الحركات التى يقوم بها الإمام المتوكل على الله المحسن بن أحمد ضد الدولة تنشأ عن مؤامراتهم فلم يسع الوالى سوى حبس جماعة منهم بصنعاء ثم بمدينة الحديدة ومن بينهم الإمام المنصور بالله محمد بن يحيى حميد الدين ورئيس العلماء السيد العلامة أحمد بن محمد الكبسى والسيد الفاضل محمد بن إسماعيل عُشَيْش والمهدى محمد ابن قاسم الحوثى والسيد محمد المُطَاع والسيد على الجُدَيْرى وغيرهم ولقد مات بعضهم بالحبس فى الحديدة وأطلق سراح الباقين بعد سنتين .

وفى سنة سبع وتسعين ومائتين وألف عزل الوالى مصطفى عاصم وعين بدلاً منه المشير إسماعيل حافظ وكان إسماعيل هذا قد دخل إلى الآستانة ناعياً على الوالى مصطفى عاصم حركاته العسكرية فاستصدر أمراً بعزله وبإطلاق سراح العلماء الذين كانوا محبوسين بالحديدة ولقد نظم هذا الوالى الجديد جيشاً من العرب وأطلق على أفراده اسم الحَمِيْدِيَّة وقد عزل فى سنة تسع وتسعين وعين مكانه الوالى محمد عِزَّت وبعد وصوله إلى صنعاء خرج إلى ظَفِيْر حجة وعاد بعد أن أصيب بمرض كان السبب فى وفاته بصنعاء سنة إحدى وثلثمائة ودفن إلى جوار جامع البكيرية وعين بعده أحمد فيضى باشا للمرة الأولى ثم طلب إلى الآستانة فى السنة الثالثة وعين لولاية اليمن أحمد عزيز باشا ثم المشير عثمان باشا الأعرج وقد عزل وعين مكانه الفريق عثمان نورى المعروف باسم الفقيه وكان رجلا خيراً مواظباً على إقامة الصلاة فى أوقاتها ثم استدعى وأعيد إلى اليمن بدلا منه

الوالى الأسبق إسماعيل حافظ سالف الذكر سنة سبع وثلثمائة وألف وفى أيامه فى الإمام الهادى شرف الدين بن محمد الذى قام بالإمامة بعد وفاة الإمام المتوكل على الله المحسن بن أحمد ولقد كانت مصاولة اليمنيين للأتراك فى أيام هذين الإمامين ضئيلة قام بعد الإمام الهادى شرف الدين الإمام المنصور بالله محمد بن يحيى حميد الدين الذى استطاع أن يؤلب القبائل اليمنية ويثيرها على الأتراك ويغزوهم فى صنعاء وفى غيرها حتى اضطر الوالى إسماعيل حافظ باشا أن يستنجد بالدولة ويكتب لها كتاباً مزعجاً حملها تبادر بإرسال قوة عظيمة من العساكر والمدافع إلى اليمن لفك الحصار عن صنعاء ولقد توفى إسماعيل حافظ باشا أثناء هذا الحصار ودفن إلى جنب جامع البكيرية بعد وفاته عين لولاية اليمن الفريق حسن أديب باشا الذى وصل إلى اليمن فى أثناء حصار صنعاء وغيرها من المراكز فزحف على حجة مع أمير اللواء أحمد رشدى على رأس طائفة من الجند وما إن دخلها حتى حوصر فيها هو ومن كان معه وبقى محصوراً حتى جاء إلى اليمن أحمد فيضى باشا للمرة الثانية وعند وصوله إلى الحديدة انضم إليه الفريق حسن أديب وأمير اللواء أحمد رشدى اللذان كانا محاصرين فى حجة فتقدم بهما إلى صنعاء ففتحها واسترجع كل ما كان بأيدى الأتراك من البلاد وسار بعد ذلك إلى جبل برط لإنقاذ الأسرى ولقد استمرت ولايته حتى سنة ست عشرة وثلثمائة .

وقد عزل فيضى باشا وعين مكانه حسين حلمى باشا ولكنه بقى قائداً للجنود التركية. وقد خرجت مع الوالى الجديد حسين حلمى باشا هيئة اختارها السلطان بقصد عمل الإصلاحات اللازمة وكانت هذه الهيئة مكونة من رجال ذوى خبرة من بينهم المستشار حسنى باشا الذى كان رجلاً فاضلا يحب العلم ويكرم أهله والذى جمع من اليمن كتباً خطية نفيسة .

بعد ذلك عزل فيضى باشا عن القيادة وعين بدلاً منه عبدالله باشا الذى زحف بعساكره على بلاد حاشد وطالب الإمام المنصور بالله بإرجاع المدفع المأخوذ من

الشرف ولكنه لم ينجح فى غزوته هذه وعاد إلى صنعاء .

وفى سنة عشرين وثلثمائة عزل الوالى حسين حلمى عن ولاية اليمن وعين بدلاً منه المشير عبدالله باشا ولقد كان الوالى حسين حلمى باشا أحسن من عرفه اليمنيون من ولاة الأتراك وأكثرهم عدلاً وعفة وأعظمهم سياسة وبراعة .

وفى سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة توفى الإمام المنصور بالله محمد بن يحيى حميد الدين فى أيام المشير عبدالله باشا وقام بعده ابنه الإمام المتوكل على الله يحيى بن محمد فتزلزلت لقيامه أركان الدولة العثمانية باليمن وعزل عبدالله باشا واستبدل بتوفيق باشا الذى تحرك الإمام يحيى فى أيامه لغزو الأتراك وألب عليهم القبائل اليمنية وأرسل أمراءه إلى بلاد الحيمة وحجة والطويلة وعمران وصنعاء وغيرها من البلاد وحاصرها وكانت الأزمة الاقتصادية شديدة فى تلك السنة وارتفعت الأسعار فجاع الأتراك فى صنعاء وانتقل الإمام من القفلة إلى مدينة عمران واستسلم له الأتراك الذين كانوا بها ثم طلع إلى كوكبان وقد أرسل الأتراك جماعة من أمرائهم ومن أعيان مدينة صنعاء لطلب الصلح وتم الصلح فعلاً وكان يقضى بخروج الأتراك من صنعاء وغيرها من المراكز إلى بلاد حراز على شرط أن لا يأخذوا معهم شيئاً من السلاح أو المدافع أو الأموال الخاصة بالدولة وضمن الإمام أمانهم وتعهد بإحضار الجمال اللازمة لنقل أثاثهم وسار بنفسه إلى جبل حضور لتأمين الطريق ثم دخل صنعاء واستولى عليها وهكذا امتد نفوذه إلى غيرها من البلاد اليمنية كما سيأتى الكلام على ذلك تفصيلاً فى الباب القادم.

وفى سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة عين لولاية اليمن أحمد فيضى باشا للمرة الثالثة فخرج من الحجاز ووصل إلى الحديدة وانضم إليه الأتراك الذين كانوا فى حراز وزحف بهم على صنعاء وكان رجلاً محنكاً ذا خبرة واسعة بفنون الحرب وأساليب القتال ففتح صنعاء وخرج منها الإمام المتوكل على الله وانتقل إلى بلاد حاشد .

ولقد لبث أحمد فيضى باشا بصنعاء ريثما استرجع البلاد التى كانت بأيدى الأتراك

ثم خرج من صنعاء فى قوة مؤلفة من عشرة طوابير إلى بلاد حاشد وكان على وشك من تملك شهارة وطلع جبل العيازرة القابل لجبل شهارة من جهة الغرب ثم انقلبت ريح النصر مع العرب وانتقل الخوف الذى كان مستولياً على قلوبهم إلى قلوب الأتراك فانهزم أحمد فيضى باشا ورجاله ونزل من جبل العيازرة ولم يزل جنود المتوكل على الله يحيى يجدّون فى إثره حتى وصل إلى الجراف من بلاد حاشد وقد اشتد الضغط عليه فقتل الكثيرون من رجاله وخسر الأتراك كثيراً مما كان فى أيديهم من المدافع وآلات الحرب وسيأتى فى الباب الخامس ما قيل فى هذه الواقعة من الشعر .

وفى سنة ست وعشرين وثلثمائة عزل أحمد فيضى باشا وعين مكانه حسن تحسين باشا وكان رجلا خيرا .

وفى سنة سبع وعشرين وثلثمائة خلع السلطان عبدالحميد ونصب أخوه السلطان محمد رشاد لقبوله الدستور وإباء السلطان عبدالحميد .

وفى سنة ثمان وعشرين وثلثمائة عين والياً على اليمن محمد على باشا الذى كان من أنصار حزب الاتحاد والترقى الذين قاموا بالثورة على السلطان عبدالحميد وكان هذا الوالى يعتزم على معاملة أهل اليمن بالشدة والقسوة ويسير فيهم سيرة غير مرضية ولذلك نهض الإمام المتوكل على الله لحربه وحاصر صنعاء وغيرها من البلاد التى كان تقيم فيها الأتراك ولم يستطع هذا الوالى تنفيذ سياسته .

وفى سنة تسع وعشرين وثلثمائة وألف أرسلت السلطنة إلى اليمن المشير أحمد عزت باشا على رأس قوة من الجيش المنظم والمسلح أعظم تسليح ومعه الكثير من الأموال واستطاع أن يفك الحصار عن صنعاء وغيرها وحاول عقد الصلح بين الدولة وبين الإمام فنجح فى ذلك وأرسل القاضى العلامة الحسين[1] بن على العمرى والسيد العلامة قاسم بن حسين العزى أبوطالب والقاضى الألمعى عبدالله بن حسين العمرى لمفاوضة

(١) هو شيخنا العمر العلامة المحدث ملحق الأصاغر بالأكابر مولده فى سنة ١٢٦٥ تقريباً وتوفى سنة ١٣٦١ وقد كتبت فى ترجمته مؤلفاً صغيراً سميته «تحفة الأخوان وصحبة عشرين عاماً» وطبع بالمطبعة السلفية بمصر .

الإمام وأخيراً اجتمع المشير أحمد عزت والإمام بمحل دَعَّان شمال مدينة صنعاء على نحو مرحلة منها وفى هذه المقابلة تم التوقيع على مواد الصلح التى أرسلت للسلطنة للتصديق عليها وكان خلال المقابلة بين الإمام والمشير اجتماع كبير بدَعَّان حضره كثير من أصحاب الإمام منهم سيف الإسلام أحمد بن قاسم حميد الدين وسيف الإسلام محمد بن المتوكل على الله المحسن بن أحمد وشيخ الإسلام القاضى على بن على اليمانى والسيد الرئيس عبدالله ابن ابراهيم وحضره من أصحاب المشير أحمد عزت عصمت باشا رئيس جمهورية تركيا السابق وكان يومئذ معاوناً بأركان الحرب وأنشد لسان الحال :

حسم الصلح ما اشتهته الأعادى وأذاعته ألسن الحساد

وقد ذكرت مواد هذا الصلح وكثير من الحوادث التى وقعت من أئمة اليمن والدولة العثمانية فى غير هذا المختصر وسنشير إلى بعضها فى الباب القادم .

وفى سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة وألف سار المشير أحمد عزت باشا من اليمن إلى الأستانة وتعين لولاية اليمن محمود نديم وقد أعلنت فى هذه السنة الحرب العظمى من دول أوربا وانضمت الدولة العثمانية إلى ألمانيا وأراد الأتراك الذين باليمن أن يقوموا واجبهم ؟ وأن يشغلوا الإنكليز وعساكرهم بقدر المستطاع ؟ فأرسلوا قوة من الجنود والدفعية بقيادة على سعيد لمهاجمة لحج وعدن وانضمت إليهم بعض قبائل اليمن الأسفل فاستولوا على لحج ونهبوها وضايقوا الإنجليز فى عدن وانتهت هذه الحرب بانتصار الحلفاء وخسرت الدولة العثمانية أكثر ولايتها واستقلت اليمن استقلالا تاما ناجزا ابهمة مليكها المعظم الإمام المتوكل على الله يحيى بن محمد حميد الدين وتخلى الأتراك له عن اليمن فدخل صنعاء سنة سبع وثلاثين وثلثمائة وألف وامتد نفوذه فى كافة البلاد اليمنية ودخل اليمن فى دور جديد .

هذا وقد قامت فى اليمن دويلات غير التى ذكرناها فى مخلافى حضرموت وتهامة[1]

(١) سبقت إشارة إلى إمارة الأشراف القوائم بتهامة وكان أولهم الشريف غانم بن يحيى بن حمزة ومنهم آل دريب ودامت إمارتهم مائة وأربعين سنة ثم تقلصت أيام السلطان عامر بن عبدالوهاب.

كدولتى القُعَيطى والكَثيرى بحضرموت ودولة أشراف أبى عَرِيش بتهامة ودولة آل عايض بعسير ودولة الأدارسة بصبيا ولقد سبقت الإشارة الى ذلك وإلى تغلب البادلة على لحج ونزول الإنجليز فى عدن .

وعندما توفى السيد محمد بن على بن الإدريسى التجأ ولده السيد حسن بالملك عبد العزيز آل سعود ودخل الملك عبد العزيز فى بلاد عسير بعد تملكه للحجاز واحتك رجال حكومته بحكومة اليمن من أجل الحدود ونشبت حرب بين حكومتى اليمن ونجد فى نجران وباقم وتهامة ولكنها لم تطل إذ عقد الصلح فى سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة بالطائف بين الحكومتين على احتفاظ كل منهما بما كان تحت يده قبل هذه الحرب وعاد الصفاء والوئام إلى ما كانا عليه وبعد استشهاد مولانا الإمام المتوكل على الله سنة سبع وستين وثلثمائة وألف تأكدت روابط الإخاء بين مولانا ملك اليمن الإمام الناصر لدين الله أحمد والملك عبد العزيز بن سعود ووصل الوفد النجدى إلى مدينة تعز للتشرف بمقابلة الإمام الناصر وستأتى الإشارة إلى ذلك فى الباب القادم .

الباب الخامس

فى الدولة الهاشمية

لا شك فى أن هذه الدولة هى الدولة الشرعية الوحيدة التى قامت بالأمر فى اليمن منذ نيف وألف عام وفى الحق أن هذه الدولة قامت على عواتق اليمنيين وبقيت برضائهم وما زالت تؤيدها وتشد أزرها القبائل اليمنية ولا سيما أعمامها شأنا وأقواها بأساً وهى قبيلة همدان بن زيد من حاشد وبكيل أنصار البيت الهاشمى المجيد . هذا ولا تزال هذه الطائفة من أهل البيت ظاهرة فى هذا القطر المبارك حتى الوقت الحاضر ولقد حدث فى أثناء قيام هذه الدولة أن طغى تيار بعض الدول الناشئة

فى بعض السنين على بعض البلاد اليمنية أو معظمها ولكنه كان لا يلبث أن يضمحل وتتلاشى هذه الدول الناشئة ويعود الأمر إلى الدولة الهاشمية القرشية التى وجدت وقامت تصديقاً للحديث النبوى الشريف الذى أخرجه البخارى فى صحيحه من كتاب الأحكام عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ « لا يزال هذا الأمر فى قريش ما بقى منهم اثنان » قال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى عند شرحه لهذا الحديث انه بقى الأمر فى قريش فى قطر من الأقطار ببقاء طائفة من أولاد الحسن بن على بن أبى طالب فى جهات صعدة وما إليها من البلاد اليمنية مالكة لتلك البلاد من أواخر المائة الثالثة من الهجرة النبوية إلى آخر كلامه وفى الحق أنه مما يؤكد صدق الحديث الشريف اضمحلال الدول ذات العدد والعدد دونها ومايزال الأئمة الهاشميون بهذا القطر المبارك على طريقة التمسك بالتقوى والتعلق بشعائر الدين الحنيف مع لين الجانب والمثابرة على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإن شذ بعض أفرادهم عن السلوك وحاد عن الطريق المستقيم أرشده غيره من القائمين بالحجة وسنتحدث عن هؤلاء الأئمة الميامين فى الفصول التالية كما سنذكر من نازعهم الحكم من الدول التى أشرنا إليها فى الباب السابق ولقد كان من حق هذه الدولة الهاشمية أن نقدمها على غيرها ولكنا آثرنا تأخير الكلام عنها لاتصالها بالعهد الحاضر .

الفصل الأول

فى الكلام على الأئمة الذين عاصروا دول بنى زياد وبنى يَعفر وآل الضَّحَّاك

وهم الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وولداه الإمام أبو القاسم المرتضى محمد بن

الهادى وأخوه الإمام الناصر لدين الله أحمد بن الهادى وأولاده والإمام القاسم بن على العيانى وولده المهدى لدين الله الحسين بن القاسم والشريف محمد بن القاسم الزيدى والإمام أبو هاشم الحسن بن عبد الرحمن وقد قاموا بالأمر فى اليمن من سنة ٢٨٠ حتى سنة ٤٣٧ هجرية وسنتحدث عنهم فيما يلى مبتدئين بالإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم الرَّسِّى مؤسس الدولة الهاشمية باليمن .

الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم

ولد الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين سنة خمس وأربعين ومائتين بجبل الرس من بلاد الحجاز على مقربة من المدينة المنورة فى أيام جده الإمام القاسم ولما حمل إليه دعا له واستبشر به ولقد نشأ الإمام الهادى نشأة الصلاح والورع وأخذ العلم عن أبيه الحسين ابن القاسم وعمه الحسن بن القاسم وعن غيرهما من أهل العلم والفضل وقد حضر إلى اليمن بناء على دعوة أهل اليمن له فى المرة الأولى وكان ذلك سنة ثمانين ومائتين وقد وصل إلى محل الشرفة من بلاد نهم ثم عاد إلى الحجاز ولكنه عاد للمرة الثانية إلى اليمن فى جماعة من أهله سنة أربع وثمانين ومائتين واستولى على مدينة صعدة وبلادها وعلى نجران وبرط وامتد نفوذه واتسع حتى شمل كثيراً من البلاد اليمنية وكاتبه من أمراء صنعاء والبلاد المجاورة لها أبو العتاهية عبد الله بن بشر بن الروية[1] فسار إليها واستولى عليها بمناصرة أبى العتاهية ولكن عارضه بعض رؤساء همدان مثل أبى جعفر أحمد بن محمد بن الضحاك بن العباس الهمدانى صاحب رَيْدَة والأمير جُفْتم بن الحسن صاحب بغداد الذى كان عامل بنى العباس باليمن وبعض أمراء آل يَعْفُر وآل طَرِيف[2] وبعض

(١) بنو الروية بفتح الراء المشددة وكسر الواو وتشديد المثناة التحتية كانوا من أمراء صنعاء واقليمها وقد جاء فى « صفة الجزيرة » للهمدانى أن وادى السر الكائن شمال صنعاء يعرف بسر ابن الروية وكان لهم به دور وبها مرابط للخيل .

(٢) قال الهمدانى فى الجزء العاشر من الإكليل فى أنساب آل ذى مرب من همدان =

بنى الروية ثم ناصره أخيراً رئيس قبيلة بكيل الدعام بن ابراهيم الأرحبى . ولقد كان الإمام الهادى مشهوراً بالقوة والشجاعة والورع والفقه ويعتمد فقهاء الزيدية باليمن على مؤلفاته العظيمة التى منها الأحكام والمنتخب والفنون ولقد فرّع العلماء على نصوصه كثيراً من مسائل الفقه وخرجوا منها التخاريج المبنية على القواعد الفقهية ولقد انتشرت أقواله وفتاويه فى اليمن انتشاراً عظيما وتابعه جماهير أهل الجبال واجتهادات هذا الإمام مستمدة من الكتاب والسنة وكثيراً ما كان يربطها بالدليل ومذهبه برىء من البدع الرديئة والمعتقدات الفاسدة ولقد ظهرت مؤلفاته ببلاد جَيْلان ودَيْلَمان وقام بخدمتها كثير من علماء تلك البلاد من أمثال الإمام المؤيد بالله أحمد بن الحسين الهارونى وأخوه الإمام أبو طالب يحيى بن الحسين وغيرهما وكان الإمام الهادى رجلا نافذ البصيرة حكيما إلى أقصى حدود الحكمة يعهد إلى عماله بكيفية أخذ الصدقات من أربابها وصرفها فى أحسن الوجوه ولقد سبقت الإشارة إلى ما كان من أمر جهاده ضد القرامطة أصحاب على بن الفضل ومنصور بن حسن السابق ذكرهما ومما يذكر لهذا الإمام أنه أزال الكثير من البدع وعمر الكثير من المساجد وطاف بأكثر البلاد اليمنية وتعهدها بالإصلاح وقام بإرشاد أهلها إلى ما فيه صلاح أحوالهم وكان وجيها محبوباً قال الهمدانى فى « صفة الجزيرة » ومدحه ابن أبى البَلَس من شعراء اليمن بقصيدة جاء فيها :

لو ان سيفك يوم سجدة آدم قد كان جُرِّد ما عصى إبليس

هذا وقد كان الإمام الهادى فصيحا مسترسلا وضع كثيراً من الرسائل المفيدة شعر بليغ منه أرجوزة فى جمل من الآداب خاطب بها أولاده منها قوله فى الشوق إلى الجهاد وقد ذكرها فى كتابه الأحكام عند ذكر « أفضل التجارة » وهو الجهاد :

= « ومنهم فرسان اليمن وذوو شوكتها بنو طريف بن ثابت الكبارى ومنهم الرقاف والحورى ويوسف ابنا خلف بن طريف وكانت لهم ولادة يعفر الحوالى » .

يا ويح نفسى وجوآء ضمائرى على الرماح السُّمْر والبواتر
وكل مطوى الحشا جَنُوب شَنْج النَّسا مُشَمَّرٌ يَعْبُوب
صافى الأديم حالك القذال مُحَبَّب التحجيل فى اعتدال
كأنه فى البلد البَرَاح إذا جرى الخُذْرُوف فى الرياح
يَغدو بكل باسل قِمْقام يسير فى حنادس الظلام
أنا لعمرى شيخها المفهوم أبو الحسين الدُّرَبُ المعلوم

ومن شعر الإمام الهادى ماقاله فى رثاء الشريف[1] على بن أبى جعفر محمد بن عبد الله بن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن على بن أبى طالب وكان قد تولى نجران بعد والده للإمام الهادى ثم سار إلى خيوان ومات بها .

قبرٌ بخيوان حوى ماجداً منتخب الآباء عبَّاسى
قبرُ علىّ بن أبى جعفر من هاشم كالجبل الراسى
من يطعن الطعنة خوَّارة كأنها طعنة جَسَّاس

ولقد توفى الإمام عليه السلام بمدينة صعدة لعشر بقين من ذى الحجة سنة اثنى وتسعين ومائتين وعمره ثلاث وخمسون سنة ولا يزال قبره مشهوراً بمدينة صعدة وقد قال الهمدانى فى صفة الجزيرة ، ورثاه ابراهيم بن الجَدَوَيه[2] من شعراء صنعاء بقصيدته التى مطلعها :

وهت عضد الإسلام واندقّ كاهله وغالت بنيه فى الأنام غوائله

هذا وإن أكثر سادات جبال اليمن من ذرية هذا الإمام وسبقت الإشارة إلى ذلك.

---

(١) هو جامع سيرة الإمام الهادى التى أتمها غيره ، ذكر فيها مقتل والده بنجران ولقد أخذ الإمام الهادى بثأره من بنى الحارث الذين قتلوه .

(٢) قال الهمدانى فى « صفة الجزيرة » : كان إبراهيم بن الجدوية مطبوعا فى الشعر ، وكان الرجز أبرع وكان ربما يشابه فى بعض مذهبه مذهب الكميت .

الإمام المرتضى محمد بن الهادى

قام بالأمر بعد موت الإمام الهادى ولده أبو القاسم المرتضى محمد بن الهادى وذلك لأن أخاه أحمد بن الإمام الهادى كان غائبا عند وفاة والده ولما عاد من غيبته بايعه أخوه وتنحى له عن الإمامة نظرا لأنه كان أنهض منه وأقوى شوكة وتلقب بالإمام الناصر.

الإمام الناصر لدين الله أحمد بن الهادى

كانت لهذا الإمام مع القرامطة وقائع مشهورة وأشهرها وأعظمها شأنا واقعة نَغَاش (بضم النون) وهو مكان على مقربة من مدينة عمران وكان من أسبابها أن الناس كانوا قد تضرروا من أصحاب منصور بن حسن القومطى الذى كان يحكم جبل مسور وبلاد لاعة وما حولها ولذلك تحرك الإمام الناصر لقتالهم وجمع جنوده وطلب رؤساء أصحابه وجعلهم أمراء على الجيش وقوادا له وهم ابراهيم بن المحسن العلوى العباسى والأمير أحمد بن محمد بن الضحاك الهمدانى وعبد الله بن عمر الخارفى الجبرى ولقد قام الإمام من صعدة فى ألف وستمائة مقاتل واجتمعت القرامطة تحت لواء قائدهم عبد الحميد بن محمد المسورى صاحب جبل مسور وساروا إلى حِلَمْلَم من ناحية الأشمُور وهم زهاء سبعة آلاف مؤلفين من تهامة والشَّرَف وحَجَّة ولاعة وحَفاش ومِلْحان وسائر بلاد المغارب وقد التقى الجمعان ببيت الوَرْد واستمر القتال فى اليوم الأول من الظهر إلى المغرب وفى اليوم الثانى نهض جيش الإمام الناصر إلى بيت الحمودى بالقرب من نُغاش وفى اليوم الثالث استَحَرَّ القتال وأعمل الجيش الناصرى سيوفه فى القرامطة واستولى على جميع ما جلبوه من السلاح والكراع ولم ينج من القرامطة إلا من فر منهم إلى جبل مسور وبعد هذه الواقعة تشتت شمل القرامطة ولم يبق لهم شأن وقد ذكر الكبسى وغيره من المؤرخين أن الإمام الناصر سار بعد هذه الواقعة فى جيش عظيم إلى مدينة عدن أبين لتتبع أثر القرامطة وكان الناصر زعيما عظيما قال الهمدانى عنه فى صفة الجزيرة أن ابراهيم بن الجدوية أحد شعراء صنعاء مدحه بقصيدة جاء فيها .

ناصر الدين لم تزل منصورا شكر الله سعيك المشكورا

وقد توفى الإمام الناصر للحق أحمد بن الإمام الهادى سنة اثنين وعشرين وثلثمائة وقيل سنة خمس وعشرين وثلثمائة وكان قد توفى قبله أخوه المرتضى محمد بن الهادى سنة عشر وثلثمائة وكان المرتضى من أنصار والده فى حروبه وسبق ذكر مسيره من قبل والده لحرب القرامطة وغيرهم .

الإمام المنصور بالله يحيى بن الناصر

وأخوه المختار بن الناصر

قام بعد الإمام الناصر ابنه المنصور بالله يحيى بن الناصر ثم أخوه المختار القاسم ابن الناصر وقد قتله آل الضحاك بريدة فى شهر شوال سنة خمس وأربعين وثلثمائة

الإمام المنتصر محمد بن القاسم

بعد قتل الإمام المختار قام ابنه المنتصر محمد بن القاسم الذى جمع جيشاً عظيما من نجران وغيرها من الجهات وغزا به آل الضحاك فى ريدة فخرب ديارهم وأخذ بالثأر من قاتل أبيه وقال فى ذلك قصيدته المشهورة التى مطلعها :

علامَ ألامُ ياسَلْمى علاما عدانى اللوم فاطرحى الملاما

الإمام الداعى إلى الله يوسف

وقد قام بعده الإمام الداعى يوسف بن يحيى وقد دعا من قرية ريدة فى بلاد حاشد ودخل صعدة وأقام بها أياما ثم سار إلى نجران ومنها إلى صنعاء وذمار وآنس وغيرها ولقد كانت بينه وبين السلطان يحيى بن أبى حاشد بن العباس بن الضحاك الهمدانى والأمير عبدالله بن قحطان بن أبى يعفر والمنصور بن أبى الفتوح الهمدانى وأبى جعفر أحمد بن قيس بن أحمد بن محمد بن الضحاك الهمدانى حروب طويلة وظلت صنعاء

وملحقاتها طوال القرن الرابع تخضع لمن غلب من هؤلاء الرؤساء ومن عاصرهم من الأئمة .

الإمام المنصور بالله القاسم بن على العيانى

وفى سنة تسع وثمانين قام بمدينة صعدة الإمام المنصور بالله القاسم بن على بن عبد الله بن محمد بن الإمام القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب — المعروف بالعيانى وذلك لسكنه أخيرا بمحل اسمه عِيَان من بلاد سفيان . وقد ولد هذا الإمام سنة عشر وثلثمائة وكانت إقامته فى تُبَالة من بلاد خَثْعَم شمال مدينة صعدة وممن بايعه بصعدة الإمام يوسف الداعى بن يحيى بن الناصر لظهور كماله ولشهرته بالعلم والفضل ولقد سار الإمام المنصور بالله إلى الجوف وسكن أياماً على انقاض مدينة براقش حتى إذا استدعاه أهالى مدينة صنعاء وآل الدعام انتقل إلى قرية عيان وسكن بها حيث بعث منها عامله على صنعاء الشريف القاسم بن الحسين الزيدى من ذرية الإمام زيد بن على وهو الذى حفر غيل الاف الكائن فى جنوب مدينة صنعاء ولم يزل الإمام المنصور على أحسن حال حتى توفى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة فى عيان ودفن فيها .

الإمام المهدى الحسين بن القاسم

بعد وفاة الإمام المنصور قام بعده ابنه الإمام المهدى الحسين بن قاسم وكان رجلاً عظيما متوقد الذهن يضرب به المثل فى الحفظ والذكاء له مؤلفات عديدة وأجوبة سديدة وقد قتل حول قرية ريدة فى إحدى المواقع الحربية التى نشبت بينه وبين آل الضحاك سنة ثلاث وأربعمائة ولقد اعتقدت طائفة من أصحابه يقال لهم الحُسَيْنِيَّة بأنه لم يمت وبأنه المهدى المنتظر ورد عليهم معاصروهم وقال السيد صارم الدين إبراهيم بن محمد الوزير فى قصيدته البسَّامة :

وقال قوم هو المهدى منتظر قلنا كذبتم حسين غير منتظر

كيف انتظاركم نفساً مطهرة سالت على البيض والصمصامة الذكر

الشريف محمد بن القاسم الزيدى

وفى أيامه فى سنة أربع وتسعين وثلثمائة قام الشريف محمد بن القاسم بن الحسين بن محمد ابن الحسين بن محمد بن القاسم بن يحيى بن الحسين بن زيد بن على بن الحسين بن على ابن أبى طالب فكان الخلاف بينه وبين المهدى واشتعلت نار الحرب بينهما وقتل محمد ابن القاسم بحقل صنعاء فى إحدى الوقائع التى قامت بينه وبين المهدى فى صفر سنة ثلاث وأربعمائة وكان والده الشريف القاسم الزيدى عاملا من عمال والد المهدى على صنعاء وسبق ذكره وأما جده القاسم بن يحيى فقبره بمحل الجَوْرَة فى وادى الأجبار من بلاد سنحان جنوب صنعاء وله ذرية فى بيت نِعامة وفى هجرة حَمِل وفى محلات أخرى باليمن .

الأمير جعفر بن القاسم

وفى سنه ثلاث عشرة واربعمائة قام بأمر الحِسْبَة الأمير جعفر بن الإمام القاسم ابن على العيانى وهو الذى قاوم حركة على بن محمد الصليحى عند ظهوره فى جبل مسار كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

الإمام أبو هاشم الحسن بن عبد الرحمن

وفى سنة ست وعشرين واربعمائة قام الإمام أبو هاشم الحسن بن عبد الرحمن بن يحيى بن عبد الله بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم الرسى ودخل مدينة صنعاء ولبث فيها أياماً ثم توفى بناعط من بلاد حاشد سنة إحدى وثلاثين واربعمائة .

الفصل الثانى

الأئمة الذين عاصروا دولتى بنى الصُّلَيْحى وبنى نَجاح

وهم الإمام أبو الفتح الديلمى والشريف الفاضل القاسم بن جعفر وأخوه الأمير ذو الشرفين محمد بن جعفر والأمير حمزة بن أبى هاشم والأمير الحسن بن الحسن والأمير على بن زيد والإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان وقد استمر حكمهم لليمن من سنة سبع وثلاثين وأربعمائة إلى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة .

الإمام أبو الفتح الديلمى (١)

فى سنة سبع وثلاثين واربعمائة وصل إلى بلاد اليمن من بلاد الديلم الإمام أبو الفتح الناصر بن الحسين بن محمد بن عيسى بن محمد بن عبدالله بن أحمد بن عبدالله بن على ابن الحسن بن على بن أبى طالب وانضمت إليه بعض قبائل اليمن الذين دخل بهم مدينة صعدة ثم سار منها إلى صنعاء وملكها ثم عاد إلى ذى بَيْن واختط ظفار ذى بَيْن .

وفى سنة أربع وأربعين واربعمائة استشهد فى جماعة من أصحابه فى واقعة نشبت بينه وبين على بن محمد الصليحى بقاع فَيْد من بلاد عنس ويوجد قبره بقرية أَفِيق من بلاد عنس وكان عالماً كبيراً وفقيهاً عظيماً له تفسير للقرآن المجيد .

---

(١) للامام أبى الفتح ذرية فى اليمن يعرفون ببنى الديلمى فى مدينة ذمار وغيرها ومنهم بيت هاشم من ذرية السيد الفاضل عبد الله أبو شملة كان فى أيام الإمام صلاح الدين ودفن إلى جنب جامع الأمة بصنعاء .

الشريف الفاضل وأخوه الأمير ذو الشرفين

وفى سنة ثمان وأربعين قام بأمر الحسبة الشريف الفاضل القاسم جعفر بن الامام القاسم ابن على العيانى وعضده أخوه ذو الشرفين محمد بن جعفر وانضمت إليهما بعض قبائل همدان وساروا جميعاً لقتال على بن محمد الصليحى حول صنعاء ولكن لم يكتب لهم النصر وهزمهم الصليحى وتحصن الشريف الفاضل بحصن الهرابة وهو أكمة فى بلاد وادعة على مقربة من حوث فقصده الصليحى فى جيش عظيم وحاصره فى الهرابة ونصب على الحصن العرادات والمنجنيقات فصبر من كانوا بالحصن صبرا لم يعهد له مثيل على هذا الحصار ولما انقطع عنهم الماء استسلموا وخرج الشريف الفاضل لتقديم نفسه إلى الصليحى الذى أكرمه وخلع عليه وأبقاه لديه فى صنعاء نحو عامين ثم أطلق سراحه وخرب حصن الهرابة وأعجب بصبر أهله وسار الشريف الفاضل بعد ذلك إلى مكة المشرفة فأقام بها سبع سنين ثم عاد إلى اليمن وسكن الجوف الأعلى وأقبل على أعمال الزراعة بوادى شوابه ولكن بعض أهالى نهم غدروا به وقتلوه شهيدا سنة ثمان وستين وأربعمائة ونقل إلى مشهده بحصن وادعه وسار أخوه الأمير ذو الشرفين إلى الجوف فى جماعة من جيشه وأخذ بثأر أخيه وخرب بيوت من قتلوا أخاه ولقد نشبت بين الأمير ذى الشرفين وآل الصليحى حروب ومعارك طويلة وتحصن الأمير ذو الشرفين بشهارة وعمرها فنسبت إليه وأصبحت يقال لها شهارة الأمير ومات سنة ثمان وسبعين وأربعمائة.

الأمير جعفر بن محمد ذى الشرفين

بعد وفاة الأمير ذى الشرفين قام بعده بالحسبة ابنه الأمير جعفر بن محمد بن جعفر ابن القاسم وكان هو آخر من ولى الأمر من أولاد الإمام القاسم بن على الدين سبقت الإشارة إلى بعض أخبارهم فيما سلف عند ذكر الصليحيين.

الأمير حمزة بن أبى هاشم

وفى سنة ثمان وخمسين وأربعمائة قام بالحسبة الأمير العالم حمزة بن أبى هاشم الحسن ابن عبد الرحمن السالف الذكر وسار لمحاربة الصليحيين فى جيش مؤلف من ثمانية آلاف مقاتل من همدان فخرج إليهم عامر بن سليمان الزواحى من صنعاء فى ألف وخمسمائة فارس (١) وخمسة عشر ألف راجل والتقت الطائفتان فى محل الملوى (٢) من بلاد أرحب ونشبت بين الجيشين معركة عنيفة قتل فيها الأمير حمزة وطائفة من رجال همدان وفرسانها.

الإمام أبو طالب الصغير

وفى سنة إحدى عشرة وخمسمائة وصلت إلى اليمن دعوة الإمام أبى طالب الصغير يحيى بن أحمد بن الحسين بن الإمام المؤيد بالله أحمد بن الحسين الهارونى من بلاد الجيل والديلم فقام بها الأمير المحسن بن الحسن بن الناصر بن الحسن بن الحسن بن عبد الله ابن محمد بن القاسم المختار بن الناصر أحمد بن الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين.

الأمير المحسن بن الحسن

ولقد أجاب الأمير المحسن بن الحسن كثير من الناس بصعدة ونجران والجوفين والظاهر وغيرها فأخذ بثأر الإمام حمزة بن أبى هاشم وقتل عامر بن سليمان الزواحى رئيس أصحاب الصليحى فى واقعة شهيرة نشبت بين ثلا وكوكبان ولم يزل على امارته حتى قتله الحدادون بصعدة فاجتمعت القبائل للأخذ بثأره وحاصروا صعدة حتى استسلمت منهم فدخلوها وخربوا دور الحدادين.

---

(١) تاريخ السكبسى.

(٢) فى بعض نسخ منظومة السامة « المنوى » بالنون وهو محل فى الحشب يعرف الآن باسم اللوى فى بلاد أرحب.

الأمير على بن زيد

وفى سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة قام بأمر الحسبة الأمير على بن زيد بن ابراهيم ابن المنتصر محمد بن القاسم بن أحمد بن الهادى يحيى بن الحسين فى بلاد صعدة وناصره الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان قبل دعوته والقاضى نشوان[1] بن سعيد الحميرى وقد قتله بعض قبائل بنى الحجّاج غدراً بشَظَب .

الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان

وفى سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة قام الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان بن المطهر ابن محمد المطهر بن على بن الإمام الناصر أحمد بن الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين . استقام له الأمر ببلاد صعدة ونجران والجوفين والظاهر وسار إلى مدينة صنعاء واستولى عليها وكان بها إذ ذاك السلطان حاتم بن أحمد اليامى الذى اضطر إلى تركها والخروج منها بعد الحرب التى نشبت بينه وبين الإمام ولقد سبق ذكر ماقاله السلطان حاتم من الشعر فى ذلك .

وسار الإمام المتوكل على الله بعد ذلك إلى زبيد سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة بعد أن استدعاه أهل زبيد لنصرتهم ولدفع الأمير على بن مهدى الحميرى سالف الذكر عنهم ولما دخل المتوكل على الله زبيد أجرى الحد على الأمير فاتك بن نجاح نظراً لسوء سلوكه وعاد الإمام بعد ذلك إلى ذمار ومنها توجه إلى صعدة ومات بمحل حَيْدان من بلاد

---

(١) كان القاضى نشوان بن سعيد الحميرى عالما لغويا نحويا أصوليا له تصانيف مشهورة منها شمس العلوم فى اللغة العربية وتقوم مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركائه بطبعه على نفقة ملك اليمن وتخرجه فى أربعة أجزاء وشرح رسالة الحور العين وله شعر جيد من ذلك قصيدته المشهورة فى ملوك حمير وقد علق عليها كاتب هذه الأسطر ونشرتها مع التعليق بمجلة الحكمة اليمانية ومطلعها :

الأمر جد وهو غير مزاح فاختر لنفسك صالحاً يا صاح

وتوفى فى ذى القعدة سنة ٥٧٣ .

خولان بن عامر شمال مدينة صعدة سنة خمسمائة وست وستين ولهذا الإمام مؤلفات شهيرة منها أصول الأحكام فى الحديث مرتب على أبواب الفقه ، وحقائق المعرفة فى علم الكلام وغيرهما من الكتب وكان شاعراً فصيحاً جرت بينه وبين القاضى نشوان بن سعيد الحميرى مكاتبات شعرية ومما كتبه الإمام إلى القاضى نشوان قصيدته الوعظية التى مطلعها :

دعينى أطفى عَبْرتى ما بداليا وأبكى ذنوبى اليوم إن كنت باكيا

وقد ذكر فى هذه القصيدة مآثر الملوك ولقد أجابه عليها القاضى نشوان بقصيدته التى مطلعها :

ذكرت دياراً دراسات خواليا رسوماً عفت عن أهلها ومغانيا

وهى قصيدة من الشعر الجيد الرصين تعتبر من القصائد التاريخية الهامة وقد نشرتها مجلة الحكمة اليمانية مع تعليق من كاتب هذه الأسطر .

ومما كتبه القاضى نشوان أيضاً إلى الإمام المتوكل على الله قوله فى أبيات منها :

فأنت تصلح للرايات تعقدها وفى المواكب تحيى الدين والسننا
ما كان جدك حرّانا فتلحقه بل مرسل قد أتى بالوحى مؤتمنا
ما زال فى عمره مستفتحا بلدا أو قاسما مغنما أو مالكا وطنا

وكان من أنصار الإمام المتوكل على الله القاضى العالم جعفر بن أحمد بن عبد السلام ابن أبى يحيى والشيخ إسحق بن عبد الباعث الداورى وغيرهما .

الفصل الثالث

فى ذكر الأئمة الذين عاصروا دولة بنى أيوب

وهم الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة وبعض أولاده والإمام المعتضد بالله يحيى ابن المُحَسِّن والأمير الشهير محمد العفيف اللقب بالوزير وابن أخيه الأمير محمد بن منصور اللقب بالشرق وقد تولوا الأمر من سنة ٥٨٣ إلى ٦٤٦ .

الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة

فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة دعا الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة بن سليمان ابن حمزة بن على بن حمزة بن أبى هاشم الحسن بن عبد الرحمن بن يحيى بن عبد الله بن الحسين بن الإمام القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب فى بلاد الجوف وكانت صنعاء وبلادها إذ ذاك تحت حكم دولة بنى أيوب ولقد سبقت الإشارة إلى خروج السلطان توران شاه بن أيوب ودخوله بلاد اليمن سنة تسع وستين وخمسمائة وعندما عاد إلى الديار المصرية خفت وطأة الدولة الأيوبية على أهالى اليمن فأرسل الإمام بعض أصحابه إلى جبل كوكبان وغيره من الجهات وفى سنة خمس وثمانين وخمسمائة جاء إلى اليمن السلطان طُغْتَكين كما سبقت الإشارة إلى ذلك فعادت دولة بنى أيوب إلى سابق عهدها وسرعان ما جهز السلطان الأيوبى جيشاً أرسله لمحاربة أصحاب الإمام الموجودين فى كوكبان وحاصرهم حتى استولى على هذا الحصن وسار إلى صعدة وملكها كما امتلك أكثر البلاد اليمنية وسكن الإمام المنصور بالله بالجوف وبقى بها حتى مات السلطان طغتكين سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة وعندئذ اشتد ساعد الإمام المنصور بالله وفتح حصن كوكبان وشهارة وثلا وقد أعانه على ذلك السلطان على ابن حاتم الهمدانى ولقد استمرت الحرب بين الإمام المنصور بالله وبين أمراء بنى أيوب

زمناً وكانت سجالا ولقد اشتهر من أمرائهم الأمير وَرْدسان والأتابك سُنقر والشهاب الجزرى والأمير جكو والأمير شمس الخواص وكانت بينهم وبين الإمام حروب طويلة وحدث أن مال الأمير سنقر مدة إلى الإمام ثم تحول ثانية إلى بنى أيوب وقد فتح الإمام صنعاء وغيرها وأقام أياما ببلاد الجوف وأسكن بها أولاده وأسس بها مدينة الزاهر على شاطئ النهر النازل من جبالها الغربية الذى يقال له نهر الحارد وأنشأ هناك مسجداً واسعاً كما شيد حصن ظفار ذى بين الذى نسب لولده داود بن المنصور والذى يقال له ظفار داود لإقامته به ولقد عمر الإمام أيضا مدينة الغيل المعروف بغيل مراد بالجوف وكان الإمام المنصور بالله فصيحاً مترسلا وشاعرا بليغاً وله مؤلفات عديدة ورسائل وفتاوى كثيرة ومن مؤلفاته الشهيرة كتاب « الشافى » الذى رد به على فقيه الخارقة فى أربعة مجلدات « والخارقة » رسالة وضعها الفقيه [1] عبدالرحيم بن أبى القبائل من أهل اليمن الأسفل اعترض فيها على الإمام فى عدة مسائل أدبية ومذهبية ولقد راسل الإمام الكثيرين من عظماء الأقطار النائية ومن بينهم أمير مكة الشريف قتادة بن أدريس سنة ثمان وتسعين وخمسمائة الذى تلقى رسله بكل حفاوة وإكرام وخطب [2] له بمكة كما راسل الإمام أيضاً صاحب بغداد الناصر أحمد بن الحسن وعاتبه بأبيات بليغة وأرسل دعاته إلى جَيْلان ودَيْلَمان ومن هؤلاء محمد بن أسعد المرادى ومحمد بن قاسم بن بصير ولقد أجابه وقبل دعوته جيل من الناس انتموا إليه وناصروه كما ناصره أيضاً أخوه الإمام الشهير يحيى بن حمزة الذى هو جد السادة بنى الأمير بصنعاء كما ناصره أيضاً الأمير الشهير محمد العفيف بن المفضل ابن الحجاج بن على بن يحيى بن القاسم بن الإمام الداعى يوسف بن يحيى بن الناصر أحمد بن الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين وهو جد السادة آل الوزير وأول من لقب بالوزير نظراً لمؤازرته الإمام المنصور .

(١) هو عبدالرحيم بن منصور بن على . وآل أبى القبائل من أهل الشوافى ويعرفون ببنى آل الفقيه توفى بذى جبلة سنة ٦٠٦ وكان مدرساً بمسجد السنة .

(٢) تاريخ السكسى .

الفصل الثالث

فى ذكر الأئمة الذين عاصروا دولة بنى أيوب

وهم الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة وبعض أولاده والإمام المعتضد بالله يحيى ابن المُحَسِّن والأمير الشهير محمد العفيف الملقب بالوزير وابن أخيه الأمير محمد بن منصور الملقب بالشرق وقد تولوا الأمر من سنة ٥٨٣ إلى ٦٤٦ .

الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة

فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة دعا الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة بن سليمان ابن حمزة بن على بن حمزة بن أبى هاشم الحسن بن عبد الرحمن بن يحيى بن عبد الله بن الحسين بن الإمام القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب فى بلاد الجوف وكانت صنعاء وبلادها إذ ذاك تحت حكم دولة بنى أيوب وقد سبقت الإشارة إلى خروج السلطان توران شاه بن أيوب ودخوله بلاد اليمن سنة تسع وستين وخمسمائة وعندما عاد إلى الديار المصرية خفت وطأة الدولة الأيوبية على أهالى اليمن فأرسل الإمام بعض أصحابه إلى جبل كوكبان وغيره من الجهات وفى سنة خمس وثمانين وخمسمائة جاء إلى اليمن السلطان طُغْتَكين كما سبقت الإشارة إلى ذلك فعادت صولة بنى أيوب إلى سابق عهدها وسرعان ما جهز السلطان الأيوبى جيشاً أرسله لمحاربة أصحاب الإمام الموجودين فى كوكبان وحاصرهم حتى استولى على هذا الحصن وسار إلى صعدة وملكها كما امتلك أكثر البلاد اليمنية وسكن الإمام المنصور بالله بالجوف وبقى بها حتى مات السلطان طغتكين سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة وعندئذ اشتد ساعد الإمام المنصور بالله وفتح حصن كوكبان وشهارة وثلا وقد أعانه على ذلك السلطان على ابن حاتم الهمدانى ولقد استمرت الحرب بين الإمام المنصور بالله وبين أمراء بنى أيوب

زمناً وكانت سجالاً ولقد اشتهر من أمرائهم الأمير وَرْدَسان والأتابك سَنْقَر والشهاب الجزرى والأمير جَكُو والأمير شمس الخواص وكانت بينهم وبين الإمام حروب طويلة وحدث أن مال الأمير سنقر مدة إلى الإمام ثم تحول ثانية إلى بنى أيوب وقد فتح الإمام صنعاء وغيرها وأقام إماماً ببلاد الجوف وأسكن بها أولاده وأسس بها مدينة الزاهر على شاطئ النهر النازل من جبالها الغربية الذى يقال له نهر الخارد وأنشأ هناك مسجداً واسعاً كما شيد حصن ظفار دى بين الذى نسب لولده داود بن المنصور والذى يقال له ظفار داود لإقامته به ولقد عمر الإمام أيضاً مدينة الغيل المعروف بغيل مراد بالجوف وكان الإمام المنصور بالله فصيحاً مرسلا وشاعراً بليغاً وله مؤلفات عديدة ورسائل وفتاوى كثيرة ومن مؤلفاته الشهيرة كتاب « الشافى » الذى رد به على فقيه الخارقة فى أربعة مجلدات « والخارقة » رسالة وضعها الفقيه [1] عبد الرحيم بن أبى القبائل من أهل اليمن الأسفل اعترض فيها على الإمام فى عدة مسائل أدبية ومذهبية ولقد راسل الإمام الكثيرين من عظماء الأقطار النائية ومن بينهم أمير مكة الشريف قتادة بن أدريس سنة ثمان وتسعين وخمسمائة الذى تلقى رسله بكل حفاوة وإكرام وخطب [2] له بمكة كما راسل الإمام أيضاً صاحب بغداد الناصر أحمد بن الحسن وعاتبه بأبيات بليغة وأرسل دعاته إلى جيلان وديلمان ومن هؤلاء محمد بن أسعد المرادى ومحمد بن قاسم بن بصير ولقد أجابه وقبل دعوته جيل من الناس انتموا إليه وناصروه كما ناصره أيضاً أخوه الإمام الشهير يحيى بن حمزة الذى هو جد السادة بنى الأمير بصنعاء كما ناصره أيضاً الأمير الشهير محمد العفيف بن المفضل ابن الحجاج بن على بن يحيى بن القاسم بن الإمام الداعى يوسف بن يحيى بن الناصر أحمد بن الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين وهو جد السادة آل الوزير وأول من لقب بالوزير نظراً لمؤازرته الإمام المنصور .

(١) هو عبد الرحيم بن منصور بن على . وآل أبى القبائل من أهل الشوافى ويعرفون ببنى آل سهى توفى بذى جبلة سنة ٦٠٦ وكان مدرساً بمسجد السنة .

(٢) تاريخ السكسى .

الأمير محمد العفيف

وقدمه الأمير محمد العفيف لنفسه فى وَقَش سنة ٥٩٩ ولما قام الإمام المنصور بالله كان من أنصاره .

الأمير محمد بن مَنْصور المَشْرِقى

ولقد عارض الإمام المنصور بالله ابن أخ العفيف الأمير محمد بن منصور بن الفضل ابن الحجاج اللقب بالمشرق [1] سنة ٦١٠ وقام بنصرة المُطَرَّفية ضد الإمام المنصور بالله والمُطَرَّفية هى فرقة من فرق الزيدية كان أفرادها يسكنون فى وَقَش من بلاد السنان وظهرت منهم أقوال تخالف أصول الزيدية فقاتلهم الإمام المنصور بالله كما رد عليهم كثير من علماء ذلك العصر .

ولقد كان الإمام المنصور بعيد الصيت عالى الهمة ذكره الشيخ ياقوت الحموى فى معجم البلدان عند ذكر جبل وَرْوَر (بفتح الواوين وسكون الراء الأولى) من بلاد مَرْهِبة الذى فيه حصن ظفار المشرف على ذى بين فى شمال صنعاء على نحو ثلاث مراحل فقال فى وصفه : كان ذا لسان وعارضه وأنشد له :

لا تحسبوا أن صنعاء جُلَّ مأربتى ... ولا ذماراً إذا أشمتْ حُسَّادى

واذكر إذا شئت تشجينى وتطربنى ... كرَّ الجياد على أبواب بغداد

ومما يثبت ويؤكد علو همته وطموحه إلى المعالى ما كتبه حسن بن محمد بن النَّسَّاخ وكان من المطرفية يسكن بلاد آنس — إلى خليفة بغداد الناصر من الرسالة المحشوة بمناقب الإمام يحث فيها الخليفة الناصر على التجهيز على [2] الإمام ويذكر طموحه

---

(١) لقب بالمشرق لإقامته فى بنى جبر من مشارق صنعاء فى بلاد خولان العالية .

(٢) وقد خرج إلى اليمن بسبب رسالة ابن النساخ فليت فالتركى من مصر بأمر بنى أيوب ، ألف فارس من الترك لما أمرهم الخليفة الناصر صاحب بغداد بذلك امداداً لمن باليمن من الغز ذكر ذلك مؤلف تاريخ آل الوزير وكما قيل :

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت اتاح لها لسان حسود

إلى المعالى ويحذر منه بنى العباس ويغريهم به وقد أودعها نثراً ونظماً كقوله فى هذه الأبيات :

نياماً يابنى العباس أنتم ... وهذا ثوب مجدكم تُرَدَّى

أراكم غافلين وسوف عنها ... يباعدكم بجد أى جد

ويرميكم ببغداد بجيش ... أجش متبعاً برقا برعد

ينادى يا لثارات بفخٍّ ... وباخمرا ووقعة يوم مهدى

ويدعو أين إدريس ويحيى ... وعبدالله أينَ أبى وجدى

ومنها قوله :

إمام هاشمىٌّ فاطمىٌّ ... مُعِيدٌ للنضال لكم ومبدى

أشار إلى الخلافة فانتضاها ... ولكن ما تملاها بخُلْد

فصيح لفظه عذب فرات ... يَفُضُّ به صلابة كل صَلْد

يقود قبائل اليمن اللواتى ... تزوركم مُكَفَّرَةً بسَرْد

وكانت وفاة الإمام المنصور بالله فى شهر محرم سنة أربع عشرة وستمائة بحصن كوكبان الذى حمل منه إلى حصن ظفار ودفن به .

الأمير محمد بن المنصور

خلف الإمام المنصور بالله أولاداً نجباء كان أكبرهم الأمير محمد بن المنصور ثم أحمد ابن المنصور وداود الذى ينسب إليه حصن ظفار ذى بين فيقال ظفار داود لإقامته به وموسى بن المنصور الذى يقال انه هو الذى طمس الآثار التى كانت على طريق العراق من بلاد الجوف خوفاً من الغزاة والحسن بن المنصور ولأكثر هؤلاء ذرية بالجوف ومنهم آل مطهر وآل الضُّمَين وآل النَّمس وآل قَشْم ومنهم ببلاد همدان آل الشويع وفى مارب آل علوى وفى بيحان آل الهُبَيْلِى وغيرهم . وبعد وفاة المنصور بالله دعا ابنه محمد بن المنصور من جبل كَيِن من بلاد سنحان وسار إلى صعدة وقدعا بها قبل وصوله

الإمام المعتضد بالله يحيى بن المحسن

الإمام المعتضد بالله الداعى إلى الله يحيى بن المحسن بن محفوظ بن محمد بن يحيى بن الناصر بن الحسن بن عبدالله المنتصر بن محمد بن القاسم المختار بن الناصر أحمد بن الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين وهو جد السادة بنى الشامى المقيمين بوادى مَسُور وغيره من بلاد خولان العالية ومدينة صنعاء. وقد أجابته قبائل صعدة وفقهاؤها ولكنهم عندما وصل إليهم الأمير محمد بن الإمام المنصور مالوا إليه وساروا معه إلى صنعاء لغزو بنى أيوب أيام إنابة عمر بن على بن رسول عن الملك المسعود فهزمهم جنود بنى أيوب وأصيب الأمير محمد بجرح فعاد إلى مدينة حوث ومات بها وحمل منها إلى ظفار داود وانتقلت الإمارة إلى أخيه أحمد بن المنصور.

وفى سنة ٦٣٦ ست وثلاثين وستمائة توفى الإمام الداعى المعتضد بالله يحيى بن المحسن ودفن بمحل سافين من بلاد صعدة وسيأتى فيما بعد ذكر أخبار الأمير أحمد ابن المنصور.

الفصل الرابع

فى ذكر الأئمة الذين عاصروا دولة بنى رسول

وهم: الإمام المهدى أحمد بن الحسين والإمام يحيى بن محمد السَّراجى والمنصور بالله الحسن بن بدر الدين والمهدى ابراهيم بن تاج الدين والمتوكل على الله المطهر بن يحيى وابنه المهدى محمد بن المطهر والإمام يحيى بن حمزة والإمام المطهر بن محمد والمهدى على ابن محمد وابنه الإمام صلاح الدين وابنه الناصر على بن صلاح الدين والإمام المهدى أحمد ابن يحيى والإمام الهادى على بن المؤيد بن جبريل وقد تولوا الأمر فى اليمن من سنة ٦٤٦ إلى سنة ٨٤٠.

الإمام المهدى أحمد بن الحسين المكنى بأبى طَير

فى سنة ست وأربعين وستمائة قام من حصن ثلا الإمام المهدى لدين الله أحمد بن الحسين بن أحمد بن القاسم بن عبد الله بن القاسم بن أحمد بن اسماعيل بن أبى البَرَكات أحمد بن قاسم بن محمد بن الإمام القاسم الرسى بن ابراهيم وكان قيامه آخر أيام الملك المنصور عمر بن على بن رسول مؤسس الدولة الرسولية باليمن.

وفى سنة ثمان وأربعين وستمائة بعد موت الملك المنصور عمر بن على وقيام ابنه الملك المظفر يوسف بن عمر سار الإمام المهدى إلى صعدة فى جيش عظيم من همدان وخولان فدخلها دخول الفاتحين الظافرين وصالحه الأشراف الحمزات ثم عاد إلى صنعاء. والوالى عليها إذ ذاك الأمير أسد الدين محمد بن الحسن بن على بن رسول من قبل ابن عمه الملك المظفر فالتجأ أسد الدين إلى حصن بَراش ودخل الإمام صنعاء ثم عقد الصلح مع الملك المظفر على أن تكون للإمام صنعاء وصعدة وما بينهما وللسلطان اليمن الأسفل والتهائم وبنادرها وأن يكون للإمام من السلطان ثمانون ألف درهم تحمل إلى خزائنه.

وفى سنة إحدى وخمسين وستمائة أراد السلطان المظفر فتح البلاد التى تحت يد الإمام وانضم إليه الأشراف الحمزات بعد أن مناهم بالحطام الفانى وحملهم على قتال الإمام فكانت بينهم وبين الإمام وقايع كان النصر فى غالبها حليف الإمام وفى شهر رمضان سنة اثنتين وخمسين وستمائة نشبت معركة الحُصَبات بالقرب من الهَجَر بين أصحاب الإمام وبين أصحاب الملك المظفر ومن ظاهرهم من الحمزات وقد قتل فى هذه الواقعة القاضى الشهير حميد بن أحمد المحلى من كبار أصحاب الإمام وللقاضى الشهير مؤلفات عظيمة نافعة منها «الحدائق الوردية فى سير الأئمة الزيدية» وكتاب «محاسن الأزهار فى فضائل العترة الأخيار الذى جعله شرحاً لقصيدة الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة التى خاطب بها الخليفة» الناصر صاحب بغداد والتى مطلعها:

نشدتك الله بآلائه وبالنبي المصطفى والوصي
أبوك أولى يابن عمي بها فما تراه منصفاً أو أبي
أيهما نص بها أحمد له على المكي واليثربي

وفى سنة خمس وخمسين وستمائة نكث بعض أصحاب الإمام بيعته وعهده ومالوا إلى أولاد المنصور بالله وكاتبوا الملك المظفر الذى أمدهم بالمال وكان حشد الجنود فى وادى شُوَابه من بلاد الجوف الأعلى وجمع الإمام أصحابه ونشبت هناك معركة شديدة انتهت بقتل الإمام المهدى وطائفة من أصحابه سنة ست وخمسين وستمائة .

قيام الحسن بن وَهَّاس

بعد قتل الإمام المهدى بايع بعض الناس الحسن بن وَهَّاس بن محمد بن حسين ابن حمزة بن الإمام أبى هاشم الحسن بن عبد الرحمن ولكن لم يرتضه أكثر الناس لمشاركته فى حرب الإمام ولم يتم له الأمر بل لقد قبض عليه الأمير داود بن المنصور وحبسه فى حصن ظفار عشر سنين ثم أطلق سراحه بعدها وتوفى بصعدة سنة ثلاث وثمانين وستمائة ولقد كان الإمام المهدى كريما إلى أبعد حدود الكرم مدحه كثير من الشعراء فأجاد عليهم إحسانه ومن هؤلاء الشعراء شاعر المخلاف السُّليمانى القاسم بن هُتَيْمِل الذى نظم غرر قصائده فى مدح الإمام ورُوِى أن المهدى أجازه على بعض قصائده خمسين فرسا مُسْرَجة وقد أشار إلى ذلك القاضى موسى بن يحيى بهران شاعر الإمام شرف الدين فى قصيدة عارض بها قصيدة ابن هُتَيْمِل فى مدح الإمام المهدى إذ قال فى آخرها .

فكن لى أنت كالمهدى جوداً فقد أروت مروّته عظامه
فما أنا دون قائلها نظاما ولا المهدى فوقك فى الزعامة

ودفن الإمام المهدى فى مدينة ذى يَبْن وكان بعيد النظر ثاقب الفكر وكان من

أنصاره القاضى العلامة عبد الله بن زيد العنسى مؤلف كتاب الإرشاد والقاضى شُعْلة الأكوع وغيرهما .

الإمام محمد بن يحيى السّراجى

وفى سنة تسع وخمسين وستمائة قام الإمام يحيى بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبدالله ابن الحسن سراج الدين بن عبد الله بن محمد بن الحسن بن على بن محمد بن جعفر بن عبدالرحمن بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب وكان ظهوره فى ناحية مسّور من بلاد خولان العالية ولما اشتد ساعده واشتهر أمره خرج إليه الأمير سَنْجر الشَّعبى من صنعاء وكان عاملا عليها من قبل الملك المظفر فانتقل الإمام إلى بنى فاهم من أهل حضور ولكن هؤلاء قبضوا عليه وسلموه للشعبى الذى سَمَّله فى ذى الحجة سنة ستين وستمائة ولقد أصاب الذين قبضوا عليه الجذام وعكف الإمام بعد ذهاب بصره على دراسة العلم وإحيائه بمسجد الأَجْذَم بصنعاء وهو المعروف الآن باسم مسجد الوَشَلى وبقى كذلك إلى أن أدركته المنية سنة ست وتسعين وستمائة ودفن إلى جانب المسجد المذكور وله ذرية فى صنعاء وغيرها من البلاد اليمنية .

الإمام المنصور بالله الحسن بن بدر الدين

وفى سنة إحدى وستين وستمائة دعا الإمام المنصور بالله الحسن بن بدر الدين محمد بن أحمد بن يحيى بن يحيى بن الناصر بن الحسن بن عبد الله بن محمد المنتصر بن القاسم المختار بن الإمام الناصر أحمد بن الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين وهذا الإمام هو أخو الأمير الحسين بن محمد مؤلف كتاب الشفاء فى الحديث وكان ظهوره من هجرة زُغافة من بلاد صعدة وناصره أخوه الأمير الحسين ورفضا دعوة الأمير الحسن ابن وهّاس السالف الذكر وتوفى الإمام الحسن بن بدر الدين سنة سبعين وستمائة .

الامام المهدى ابراهيم بن تاج الدين

وفى سنة سبعين وستمائة دعا الإمام المهدى ابراهيم بن تاج الدين أحمد بن بدر الدين محمد بن أحمد وهو ابن أخى الإمام الحسن بن بدر الدين المذكور فيما سلف وكان ظهوره من ظفار داود وسار فى جيش ضخم لمقاتلة بنى رسول وقد صحبه فى غزوته هذه كثير من الحمزات ومن بينهم الأمير على[1] بن عبد الله بن الحسن بن حمزة بن سليمان ولقد تقدموا إلى محل سَناع فى جنوب صنعاء حيث انضم إليهم بنو شَهاب وبنو الرَّاعى فخرج إليهم الأمير سَنْجَر الشَّعبى من صنعاء ولكن الإمام انتقل إلى بيت حَنْبَص بالقرب من حَدَّة بنى شهاب حيث نشبت معركة شديدة بين الفريقين التجأ الإمام بعدها إلى أخواله الأشراف آل موسى بن داود بن على بن حمزة الذين كانوا يسكنون على مقربة من ذمار ولما انتقل الإمام إليهم فتحوا مدينة ذمار وبعد ذلك عزم الإمام على اكتساح اليمن الأسفل ولكن السلطان المظفر لحق به فى ذمار فى جموع كبيرة والتقى الجمعان بأفق غربى مدينة ذمار ولما رأى أصحاب الإمام كثرة رجال السلطان المظفر تفرقوا وقالوا للإمام بأن لاطاقة لهم بحرب السلطان ولكن الإمام ثبت فى طائفة يسيرة من أصحابه ونشبت بينهم وبين أصحاب السلطان وقعة أسر فيها الإمام سنة أربع وسبعين وأنزله الملك المظفر معه إلى تعز وبقى فى أسره مكرما حتى توفى سنة ثلاث وثمانين وستمائة وكان هذا الإمام شاعراً بليغاً له قصائد بليغة كتبها فى أيام حبسه فى مدينة تعز منها الأبيات التى ذكر فيها أسره وتخلّى أصحابه وأقاربه عنه وإحسان الملك المظفر إليه وهى :

(١) هو والد الأمير إدريس بن على بن عبدالله مؤلف كتاب « كنز الأخبار فى التاريخ والأخبار » وجده الحسن بن حمزة أخو الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة ومن ذرية الحسن بن حمزة الأمير عبدالله بن على بن داود بن عبد الله بن يحيى بن الحسن صاحب وقفية مال عصر غربى مدينة صنعاء لصرف على طلاب العلم وعلى من وفد إلى جامع مدينة صنعاء وتاريخ هذه الوقفية سنة ٧٦٦ وقد تضمنتها المسودة السنانية المشهورة وقد قرر الوقفية الفقيه حسن النحوى وحكم بصحتها .

نوائب الدهر فى أفعالها عَجَبُ ... والحرب لفظٌ ومعنى لفظه الحَرَبُ
والدهر أن سر يوما فى تصرفه ... فعن قليل إذا ماسرَّ ينقلب
وقد رمتنى صروف الدهر عن كَثَبٍ ... بأسهمٍ ماضيات عندها العَطَبُ
فلم تَجِدْنى جبانا حين تطرُقنى ... ولا جزوعا على البأساء يَنْتحب
بل صادفتنى قوىّ القلب ان طحنت ... رحا العَجاج فإنى للرّحا قُطُب
ورُبَّ يوم يُغيبُ الشمسَ قَسْطَلُه ... فتظلم الشمس حتى تُنْتَضى القُضُب
صبرت فيه على البأساء محتسبا ... فيه إذا كان مثلى فيه يَحْتَسِب
كيوم حَدَّةَ والأبطال عابسةٌ ... من الهزاهز والشَّعبى مضطرب
حتى إذا خان بعضُ الأهل موثقه ... وغرَّه فضة السلطان والذهب
أبدى شقاقا وأخفى من مُعْظَمه ... وجاء بالغدر لامن حيث يُحْتَسب
فِلْتُ بالكُرْه لاجبناً ولا جزعاً ... إلا لأحياء ماجاءت به الكتب
كيوم أفق وقد جاء المظفر فى ... عساكر جُلُّها الأتراك والعرب
فلم أُحِم عن لقاء الأسد إذ نزلوا ... ولا هربت مع الأبطال إذ هربوا
بل جُلْتُ فيه على الآساد منتضياً ... عَزْماً كعزم هِزَبْر الغاب إذ يثب
وتحت سَرْجى وقاخ حين أحفِزُها ... تخالها كوكبا فى الجو ينقضب
فما أطاقوا لقائى إذ وثبت لهم ... بعاسل كرِشاء البئر مضطرب
حتى إذا صرت مشغولا بجمعهم ... وكان من خلف ظهرى عسكر لَجِبُ
نالوا بأيديهم رمحى على غَرَر ... فأمسكوه وسيفى بعده جَذَبوا
ولم أجد عنهم مثنى ومتسعا ... فأحفِزُ الطَّرْفَ عنهم ثم انقلب
لكنهم رسدوا فى كل ناحية ... فحين حُقَّ اشتغالى منهم وثبوا
ولو يكون قتال القوم فى جهة ... لكان للخلق فى افعالى العجب
فإن غُلِبْتُ فما هذا بمُبْتَدع ... فكم بها لِيل غلاَّبون قد غُلِبوا

وبعد ذلك جاءوا بى إلى ملك ... له المفاخر والعلياء تكتسب
أبو الهزبر نقى العرض من دنس ... وباذل المال لا زور ولا كذب
فكان منه من الإحسان ماشهدت ... بفضله فيه عجم الناس والعرب
فمن يبلغ عنى كل من سكنت ... قلبى محبته أو بيننا نسب
إنى على خفض عيش فى منازله ... لايسكن الضيم فى قلبى ولا التعب
فليشكروه فإنى اليوم شاكره ... سرا وجهرا وهذا بعض ما يجب

الإمام المتوكل على الله المطهر بن يحيى

وفى سنة ست وسبعين وستمائة قام الإمام المتوكل على الله المطهر بن يحيى بن المرتضى ابن القاسم بن المطهر بن محمد بن المطهر بن على بن الناصر أحمد بن الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين وقد نشبت الحرب بينه وبين أصحاب المظفر ثم بينه وبين ولدى المظفر الملك الأشرف على بن يوسف والملك المؤيد داود بن يوسف ولكن هذه الحرب كانت سجالا مدة من الزمن وأخيراً قصدته جنود بنى رسول إلى محل تنعم من جبل اللوز فى بلاد خولان العالية وكان أهل هذا المحل قد أضمروا الغدر بالإمام ولذلك خرج فى بعض أصحابه وسلك طريقاً غير مأهولة وطبق الغمام الأفق فاستتر الإمام عن عيون أعدائه مع شدة طلبهم له وتتبعهم آثاره ومن ثم لقب بالمظلل بالغمام وتوفى بذروان حجة سنة سبع وتسعين وستمائة .

الإمام المهدى محمد بن المطهر بن يحيى

وقام بعد الإمام المتوكل على الله المطهر بن يحيى ابنه الإمام المهدى لدين الله محمد بن المطهر وقد نشبت بينه وبين أمراء الملك المؤيد داود بن المظفر حروب طويلة كان النصر فيها حليفه واستطاع أن يدخل صنعاء ويستولى عليها سنة أربع وعشرين وسبعمائة وهاجم مدينتى لحج وعدن فى أيام الملك المجاهد على بن داود وتوفى فى حصن ذى مرمر فى ذى

الحجة عام ثمان وعشرين وسبعمائة ودفن به ثم نقل جثمانه إلى مدينة صنعاء حيث دفن فى مؤخر الجامع الكبير وكان عالماً عظيماً له مؤلفات نافعة تشهد بفضله وعلمه منها كتاب « المنهاج الجلى » شرح مجموع الإمام زيد بن على وكتاب « عقود العقيان فى الناسخ والمنسوخ من القرآن » وغير ذلك .

الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة الحسينى

وبعد وفاة الإمام المهدى قام الإمام الحجة المجدد للدين المؤيد بالله يحيى بن حمزة بن على بن إبراهيم بن يوسف بن على بن إبراهيم بن محمد بن أحمد بن إدريس بن جعفر بن على بن محمد بن على الرضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب المولود بصنعاء فى صفر سنة تسع وستين وخمسمائة وكانت دعوته فى بلاد صعدة فى سنة ثلاثين وسبعمائة وفيها نهض إلى صنعاء وتقدم فى جمع وافر لمحاربة الإسماعيلية فى بلاد همدان ثم أبرم الصلح بينهما بعد مدة وقد توفى الإمام المؤيد بالله بحصن هران حول مدينة ذمار سنة سبع وأربعين وسبعمائة وقبره بمدينة ذمار وكان هذا الإمام عظيم الورع جم الفضائل واسع الاطلاع كثير التآليف كما كان أديباً بليغاً ومن مؤلفاته المشهورة كتاب «الانتصار الجامع لمذاهب علماء الأمصار» فى ثمانية عشر جزءا وكتاب « الشامل فى الكلام » «وكتاب نهاية الوصول فى علم الوصول » وكتاب «الطراز» فى علم المعانى والبيان والبديع فى ثلاثة مجلدات طبع بمصر وله رسائل كثيرة طبع منها «الرسالة الوازعة للمعتدين عن سب أصحاب سيد المرسلين» هذا عدا مؤلفات ورسائل أخرى عظيمة الشأن .

الإمام الواثق بالله المطهر بن محمد

وفى أيام المؤيد بالله قام الإمام الواثق بالله المطهر بن محمد بن المطهر بن يحيى سنة

سبعمائة وثلاثين وبقى متوليا الأمر حتى قام الإمام المهدى على بن محمد الآتى ذكره فسلم له الأمر وأنشد فى ذلك .

إذا نحن بايعنا عليا فحسبنا ... أبو حسن مما نخاف من الفِتَن
وجدناه أولى الناس بالناس عن يدٍ ... وأعلم أهل الأرض بالفرض والسُّنن
ففيه الذى فينا من الخير كله ... وليس بنا كل الذى فيه من حَسَن

الإمام المهدى على بن صلاح

وفى أيام الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة قام أيضاً الإمام المهدى على بن صلاح بن ابرهيم بن تاج الدين من بلاد شَظَب سنة سبعمائة وثلاثين وتوفى فى هذا العام نفسه فى سودة شَظَب .

الإمام أحمد بن على الفَتْحى

وفى أيامه قام أيضا الإمام أحمد بن على الفتحى من ذرية الإمام أبى الفتح الديلمى السابق الذكر وكانت دعوته فى بلاد سفيان سنة سبعمائة وثلاثين وتوفى بقرية رُغَافة من بلاد صعدة سنة خمسين وسبعمائة وقال صاحب البسامة السيد ابراهيم بن محمد الوزير فى ذكر الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة ومعارضيه هذه الأبيات :

وفى على ويحيى والمطهر والا ... فَتْحى جاءت بمشهور من السير
وكان يحيى هو الحَبْرُ الذى ظهرت ... علومه كظهور الوَشْى فى الحِبَر
وما ابن حمزة إلا عالم عَلَم ... مخايل اليُمن لاحت فيه من صِغَر

الامام المهدى على بن محمد

وفى سنة خمسين وسبعمائة دعا الإمام المهدى لدين الله على بن محمد بن على بن منصور ابن يحيى بن منصور بن الفضل بن الحجاج بن على بن القاسم بن يوسف الداعى بن المنصور يحيى بن الإمام الناصر أحمد بن الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين

من حصن ثلا ونهض بالأمر ولم يلبث أن سار إلى مدينة صعدة وفتحها وآزره فى ذلك ولده صلاح الدين محمد بن المهدى حتى فتح مدينة ذمار وجبل هران وبلاد رداع وماساقبها إلى بلاد ريمة وتوفى فى شهر ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة بمدينة ذمار فوضع جُثمانه ابنه صلاح الدين فى داخل تابوت وحمله إلى مدينة صعدة حيث دُفن إلى جانب جده الإمام الهادى بناء على وصيّة منه .

الإمام الناصر صلاح الدين

بعد وفاة الإمام المهدى بايع الناس ولده صلاح الدين محمد بن على وتلقب بالناصر الذى اتسع صيته واستولى على أكثر مدن اليمن وحصونه وقهر ملوك بنى رسول وفتح صنعاء وسار إلى زبيد وتوفى فى ذى القعدة سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة بصنعاء وكان مولده فى سنة تسع وثلاثين وسبعمائة ومن مآثره الخالدة تأسيسه مسجد صلاح الدين بمدينة صنعاء ومخزن صلاح الدين بالقصر وسمسرة صلاح الدين بسوق صنعاء وغير ذلك وكتب فى سيرته السيد الهادى بن إبراهيم الوزير كتاباً سماه « كريمة المناصر فى الذبّ عن سيرة الإمام الناصر » .

الامام المنصور بالله على بن صلاح الدين

قام بعد الإمام صلاح الدين ابنه الإمام المنصور بالله على بن صلاح الدين وكان نافذ الأمر فى جبال اليمن وقد عارضه أول الأمر الإمام المهدى أحمد بن يحيى الآتى ذكره .

الإمام المهدى أحمد بن يحيى

وبعد وفاة الإمام صلاح الدين بايع بعض علماء صنعاء الإمام المهدى أحمد بن يحيى ابن المرتضى بن مفضل بن منصور بن المفضل بن الحَجّاج بن على بمسجد جمال الدين ورأوا أنه الأوْلَى بالإمامة فخرج من صنعاء للقيام بالأمر وبعه أصحاب المنصور بالله على

ابن صلاح الدين إلى محل جهران جنوب صنعاء وكانت بين المهدى وأصحاب المنصور حرب أسر فيها الإمام المهدى وحبس بصنعاء أياماً ألف فى خلالها الأزهار فى الفقه وللإمام المهدى مؤلفات جليلة منها البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار وقد طبع مع تخريج أحاديثه الذى ألفه القاضى محمد بن يحيى بهران بمصر وأشرف كاتب هذه الأسطر على التصحيح وتم فى خمسة أجزاء ومن مؤلفات هذا الإمام كتاب منهاج الوصول شرح معيار العقول فى علم الأصول وشرح القلائد فى الكلام وغير ذلك من المؤلفات الحسان وكانت وفاته فى رجب سنة أربعين وثمانمائة بظفير حجة كما كانت وفاة الإمام المنصور بالله على بن صلاح الدين فى محرم سنة أربعين وثمانمائة بصنعاء .

الإمام الهادى لدين الله على بن المؤيد

فى أيام الإمام المهدى والإمام المنصور بالله قام الإمام الهادى على بن المؤيد بن جبريل ابن المؤيد بن أحمد بن يحيى بن أحمد بن يحيى بن يحيى بن الناصر بن الحسن ابن عبد الله بن المنتصر محمد بن المختار القاسم بن الناصر أحمد بن الإمام الهادى يحيى ابن الحسين وكان قيامه من هجرة قطابر من بلاد صعدة وتوفى سنة ست وثلاثين وثمانمائة بهجرة فلة من بلاد صعدة وقد أشار إلى هؤلاء الأئمة الثلاثة السيد صارم الدين إبراهيم ابن محمد الوزير فى أبيات القصيدة البسامة إذ قال :

وكان بعد صلاح من حوادثها ... بحر اختلاف عظيم هائل خطر
قام الإمام على بعد والده ... وأحمد قام والهادى على الأثر
وذاد عن مذهب الهادى أبو حسن ... وسعى أحمد فيه سعى معتبر
هذا إمام جهاد لا مراء به ... وذا إمام اجتهاد ثاقب النظر
وابن المؤيد نور يستضاء به ... ومنهل للندى أندى من المطر
وكلهم سادة غر غطارفة ... بيض بهاليل فراجون للعكر

الفصل الخامس

الأئمة الذين عاصروا دول بنى طاهر والجراكسة والأتراك

وهم الإمام المتوكل على الله المطهر بن محمد الحمزى والمهدى صلاح بن على والمنصور بالله الناصر بن محمد والأمير محمد بن الناصر وأخوه الأمير أحمد بن الناصر والإمام عز الدين بن الحسن وولده الإمام الناصر الحسن بن عز الدين والإمام محمد بن على الوشلى والإمام المتوكل على الله شرف الدين وولده المطهر والإمام الحسن بن على بن داود والإمام المنصور بالله القاسم بن محمد وولده الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم وقد تولوا الأمر باليمن من سنة ٨٤٠ إلى سنة ١٠٥٤ هجرية .

الإمام المطهر بن محمد الحمزى

فى سنة أربعين وثمانمائة بعد وفاة الإمام المنصور بالله على بن صلاح الدين قام الإمام المتوكل على الله المطهر بن محمد بن سليمان بن محمد بن سليمان بن يحيى بن الحسين بن حمزة ابن على بن محمد بن حمزة بن أبى هاشم الحسن بن عبد الرحمن سابق الذكر ولكن حدث أن عارضه الإمام المهدى صلاح بن على بن محمد بن أبى القاسم بن محمد بن جعفر بن محمد ابن حسين بن جعفر بن يحيى بن أحمد بن يحيى بن عبد الله بن يحيى بن الناصر أحمد ابن الإمام الهادى يحيى بن الحسين وقامت بين المهدى صلاح بن على والمتوكل المطهر ابن محمد حروب طويلة سببت كثيرا من الكوارث والويلات حتى قال بعضهم :

هلا سألت مطهرا وصلاحا ... هل حصلا للمسلمين صلاحا

الإمام المهدى صلاح بن على

وكان المهدى صلاح بن على عالما محققا له شرح على كافية ابن الحاجب سماه « النجم الثاقب » على مقدمة ابن الحاجب » وقد توفى بمدينة صنعاء ودفن بها فى سنة ٨٤٩ بصرح

مسجد موسى ومما يذكر أن والده السيد على بن محمد بن أبى القاسم مؤلف تجريد الكشاف ألف رسالة استبعد فيها إمكان الاجتهاد فى زمنه وردعليه تلميذه ناصر السنة السيد العلامة الحافظ الحجة محمد بن ابراهيم الوزير بكتابه « العواصم والقواصم » فى أربعة مجلدات وهوالذى اختصره فى كتابه «الروض الباسم فى الذب عن سنة أبى القاسم» وهو كتاب مطبوع جم الفوائد عظيم المقاصد . وقد تم أمر الزعامة للمطهر بن محمد ابن سليمان حتى توفى بمدينة ذمار سنة تسع وسبعين وثمانمائة .

الإمام المنصور بالله الناصر بن محمد

كان ممن عارض الإمام المطهر الإمام المنصور بالله الناصر بن محمد بن الناصر بن أحمد بن الإمام المطهر بن يحيى السالف الذكر وأمه الشريفة مريم بنت الإمام المنصور بالله على بن صلاح الدين وقد فتح كثيرا من بلاد اليمن وغزا بنى طاهر واستولى على كثير من الحصون وتمكن من أسر الإمام المطهر وحبسه بحصن الرَّبْعَة بذمار ولكن المطهر فر بعد ذلك من الحصن وعاد للزعامة وقبض أهل عرقب من الحدا على الإمام المنصور وسلموه إلى الإمام المطهر بن محمد فحبسه بحصن العَرُوس حتى مات سنة سبع وستين وثمانمائة ونقل جثمانه إلى صنعاء حيث دفن بقبة جده أبى أمه الإمام المنصور بالله على بن صلاح الدين ووالده الإمام صلاح الدين .

المؤيد بالله محمد بن الناصر وأخيه أحمد بن الناصر

بعد القبض على الإمام المنصور بالله الناصر بن محمد قام ولده الإمير محمد بن الناصر فى سنة ست وستين وثمانمائة ونفذ أمره فى مدينة صنعاء وما حولها وقد أحبه أهلها وتلقب بالمؤيد بالله وكان فاضلا حكيما عادلا . وفى أيامه غزا صنعاء السلطان عامر بن طاهر مرتين المرة الأولى حاصرها حتى سلمها محمد بن الناصر على مال معلوم ودخلها عامل السلطان عامر بن طاهر وأقام بها مع محمد بن الناصر وفى المرة الثانية أراد السلطان عامر الانفراد

بأمر صنعاء وإخراج محمد بن الناصر منها فجاء من اليمن الأسفل بجيش جرار ومؤن وأحمال كثيرة وعندئذ خرج أهل صنعاء لقتاله ونهبوا مؤنه وأحماله ولما عرف ذلك مات غيظا وقيل إنه أصيب بسهم قتله وقد أشرنا إلى ذلك عند كلامنا على دولة بنى طاهر وعند ما تولى السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهرى تظاهر بالمودة والمصافاة لمحمد بن الناصر فى بداية حكمه ثم ما لبث أن قام بمهاجمة صنعاء ولكنه لم ينجح وأصيب بهزيمة منكرة كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

وقد توفى الإمام المؤيد بالله محمد بن الناصر سنة ثمان وتسعمائة ودفن فى قبة القاسمى بصنعاء وقام بالأمر بعده أخوه الأمير أحمد بن الناصر . وفى أيامه أعاد السلطان عامر ابن عبدالوهاب مهاجمة صنعاء بجيش عظيم واستمر محاصراً المدينة فترة من الزمن وأقبل للاغارة عليه الإمام محمد بن على الوشلى الآتى ذكره والأمير محمد بن الحسين الحمزى صاحب صعدة واصحابهما ولكنهم لم يغنوا شيئاً وقُبِضَ على الإمام محمد بن على الوشلى ودخل السلطان عامر صنعاء وقبض على الأمير أحمد بن الناصر وطائفة من أصحابه منهم السيد الهادى بن ابراهيم بن محمد الوزير وأخيه أحمد بن ابراهيم وأخذهم إلى تعز حيث حبسهم بها كما حبس الإمام محمد بن على الوشلى فى صنعاء حتى مات .

الإمام عز الدين بن الحسن

وفى سنة تسع وسبعين وثمانمائة قام الإمام الهادى عز الدين بن الحسن بن محمد بن الهادى على بن المؤيد بن جبريل فى بلاد صعدة من قرية فَلَلَه وبقى فى الزعامة حتى توفى فى شهر رجب من عام تسعمائة وكان إماماً محققاً رحل لطلب العلم وأخذ الحديث عن الشيخ العارف الحافظ يحيى بن أبى بكر العامرى صاحب حَرَض وله مؤلفات نافعة منها شطر فى شرح البحر الزخار الذى ألفه الإمام المهدى أحمد بن يحيى .

مسجد موسى ومما يذكر أن والده السيد على بن محمد بن أبى القاسم مؤلف تجريد الكشاف ألف رسالة استبعد فيها إمكان الاجتهاد فى زمنه وردعليه تلميذه ناصر السنة السيد العلامة الحافظ الحجة محمد بن ابراهيم الوزير بكتابه « العواصم والقواصم » فى أربعة مجلدات وهوالذى اختصره فى كتابه «الروض الباسم فى الذب عن سنة أبى القاسم» وهو كتاب مطبوع جم الفوائد عظيم المقاصد . وقد تم أمر الزعامة للمطهر بن محمد ابن سليمان حتى توفى بمدينة ذمار سنة تسع وسبعين وثمانمائة .

الإمام المنصور بالله الناصر بن محمد

كان ممن عارض الإمام المطهر الإمام المنصور بالله الناصر بن محمد بن الناصر بن أحمد بن الإمام المطهر بن يحيى السالف الذكر وأمه الشريفة مريم بنت الإمام المنصور بالله على بن صلاح الدين وقد فتح كثيرا من بلاد اليمن وغزا بنى طاهر واستولى على كثير من الحصون وتمكن من أسر الإمام المطهر وحبسه بحصن الرَّبْعَة بذمار ولكن المطهر فر بعد ذلك من الحصن وعاد للزعامة وقبض أهل عرقب من الحدا على الإمام المنصور وسلموه إلى الإمام المطهر بن محمد فحبسه بحصن العَرُوس حتى مات سنة سبع وستين وثمانمائة ونقل جثمانه إلى صنعاء حيث دفن بقبة جده أبى أمه الإمام المنصور بالله على بن صلاح الدين ووالده الإمام صلاح الدين .

المؤيد بالله محمد بن الناصر وأخيه أحمد بن الناصر

بعد القبض على الإمام المنصور بالله الناصر بن محمد قام ولده الإمير محمد بن الناصر فى سنة ست وستين وثمانمائة ونفذ أمره فى مدينة صنعاء وما حولها وقد أحبه أهلها وتلقب بالمؤيد بالله وكان فاضلا حكيما عادلا . وفى أيامه غزا صنعاء السلطان عامر بن طاهر مرتين المرة الأولى حاصرها حتى سلمها محمد بن الناصر على مال معلوم ودخلها عامل السلطان عامر بن طاهر وأقام بها مع محمد بن الناصر وفى المرة الثانية أراد السلطان عامر الانفراد

بأمر صنعاء وإخراج محمد بن الناصر منها فجاء من اليمن الأسفل بجيش جرار ومؤن وأحمال كثيرة وعندئذ خرج أهل صنعاء لقتاله ونهبوا مؤنه وأحماله ولما عرف ذلك مات غيظا وقيل إنه أصيب بسهم قتله وقد أشرنا إلى ذلك عند كلامنا على دولة بنى طاهر وعند ما تولى السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهرى تظاهر بالمودة والمصافاة لمحمد بن الناصر فى بداية حكمه ثم ما لبث أن قام بمهاجمة صنعاء ولكنه لم ينجح وأصيب بهزيمة منكرة كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

وقد توفى الإمام المؤيد بالله محمد بن الناصر سنة ثمان وتسعمائة ودفن فى قبة القاسمى بصنعاء وقام بالأمر بعده أخوه الأمير أحمد بن الناصر . وفى أيامه أعاد السلطان عامر ابن عبدالوهاب مهاجمة صنعاء بجيش عظيم واستمر محاصراً المدينة فترة من الزمن وأقبل للاغارة عليه الإمام محمد بن على الوشلى الآتى ذكره والأمير محمد بن الحسين الحزى صاحب صعدة واصحابهما ولكنهم لم يغنوا شيئاً وقُبِضَ على الإمام محمد بن على الوشلى ودخل السلطان عامر صنعاء وقبض على الأمير أحمد بن الناصر وطائفة من أصحابه منهم السيد الهادى بن ابراهيم بن محمد الوزير وأخيه أحمد بن ابراهيم وأخذهم إلى تعز حيث حبسهم بها كما حبس الإمام محمد بن على الوشلى فى صنعاء حتى مات .

الإمام عز الدين بن الحسن

وفى سنة تسع وسبعين وثمانمائة قام الإمام الهادى عز الدين بن الحسن بن محمد بن الهادى على بن المؤيد بن جبريل فى بلاد صعدة من قرية فَلَلَه وبقى فى الزعامة حتى توفى فى شهر رجب من عام تسعمائة وكان إماماً محققاً رحل لطلب العلم وأخذ الحديث عن الشيخ العارف الحافظ يحيى بن أبى بكر العامرى صاحب حَرَض وله مؤلفات نافعة منها شطر فى شرح البحر الزخار الذى ألفه الإمام المهدى أحمد بن يحيى .

الإمام الناصر الحسن بن عز الدين

وبعد وفاة الإمام عز الدين قام بعده ابنه الإمام الناصر لدين الله الحسن بن عز الدين وبدأ دعوته من جبل كُحْلان تاج الدين سنة تسعمائة وتوفى بقرية فَلَلَه من بلاد صعدة وقد ترك هذا الإمام عدة مؤلفات منها القسطاس المقبول شرح معيار العقول فى أصول الفقه كما أنه تمم شرح والده على البحر .

الإمام محمد بن على الوَشَلِي

وفى أيام الإمام الناصر قام الإمام محمد بن على بن محمد بن أحمد بن على بن الإمام يحيى بن محمد السراجى بمعارضته وتلقب بالمنصور بالله واشتهر باسم الوشلى وكانت دعوته بعد وفاة الإمام عز الدين بن الحسن من وادى ضَهْر من أعمال صنعاء وامتد نفوذه فى بلاد المغرب وسار إلى صنعاء للقتال مع الأمير أحمد بن الناصر فأسره السلطان عامر وحبسه كما ذكرنا آنفاً وتوفى فى حبس السلطان عامر سنة عشر وتسعمائة ودفن إلى جوار مسجد الوشلى فى صنعاء .

الإمام المتوكل على الله شرف الدين

وفى سنة اثنتى عشرة وتسعمائة قام الإمام شرف الدين يحيى بن شمس الدين بن المهدى أحمد بن يحيى سالف الذكر من جبل حضور الشيخ فى بلاد المصانع وكانت السلطة يومئذ فى معظم جبال اليمن والتهائم وبنادرها للسلطان عامر بن عبدالوهاب الطاهرى وفى سنة إحدى وعشرين وتسعمائة بدأت الأسباب لتأسيس دولة الإمام شرف الدين واضمحلال دولة آل طاهر بأن أرسل السلطان قانصوه الغورى ملك مصر طائفة من الجراكسة إلى البحر الأحمر لمطاردة الأفرنج ولما نزلت هذه الطائفة جزيرة كران طالبت السلطان عامر بإعانتها على جهاد الأفرنج ولكنه لم يُجِبْ هذا الطلب

ومنع عنها الميرة ولذلك وجهوا إليه سهام اللوم وعزموا على حربه بعد أن كان الإمام شرف الدين قد كاتبهم وشكا لهم من جور السلطان عامر وإساءته إلى أئمة أهل البيت وعندما تحققوا من صدقه خرجوا من بندر اللحية بعد أن انضم إليهم صاحب اللحية الفقيه الزَّيْلَعى والشريف عز الدين بن دُرَيْب صاحب جازان ومن اجتمع لهما من العرب فطاردوا جنود السلطان عامر فى زبيد وتعز ورداع وغيرها حتى وصلوا إلى صنعاء وقتل فى خلال هذه المعارك ولده عبدالوهاب بن عامر وأخوه عبدالملك ثم قتل السلطان عامر نفسه خارج مدينة صنعاء وطويت صحيفة ملكه سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة وقد سبق ذكر هذا تفصيلاً فى الفصلين الخاصين بدولتى بنى طاهر والجراكسة اللذين أشرنا فيهما إلى ما كان من خروج الجراكسة من صنعاء لحرب الإمام شرف الدين إلى حصن ثلا وهزيمتهم ومحاصرة الإمام شرف الدين لهم فى قصر صنعاء حتى خرجوا صلحاً إلى زبيد ودخل الإمام شرف الدين صنعاء بعد الكوارث العظيمة التى نالتها من الجراكسة وابتهجت صنعاء وابتهج أهلها بمقدمه وهنته الشعراء بغرر القصائد من ذلك قول القاضى البليغ موسى بن يحيى بَهْران بعد أن استهل قصيدته بالنسيب وتخلص إلى المديح .

جارى من الجَوْر إمام الهدى ... أكرم من رُفَّتْ عليه البُنُود
خليفة الرَّحمن فى أرضه ... مبارك الوجه كريم الجُدُود
قالت له الأيام إذ أقبلت ... ما أحسنَ الوصلَ عقيب الصدود
وليست الدنيا له بِغْيَةً ... ولو بَدَتْ فى زِىّ خُود خَرُود
وإنما قام لنصر الهدى ... بهمةٍ مَا برحت فى صُعُود
فأهلك الباغين حتى ثووا ... واستبدلوا بعد القصور اللحود
وأصبحت صنعاء من عُجْبها ... تَرْفُل فى مستحسنات البُرُود
فقل لمولانا إمام الورى ... أكرم من سارت إليه الوفود

يا شرف الدين وُقيتَ الردا ... ودُمتَ تحمى بالحِداد الحدود
لا غَرْوَ ان سُدتَ جميع الورى ... مثلك بابحر النَّدى من يَسُود
فضلك مثل الشمس مشهورة ... ليس لها من مُشْبِهٍ فى الوجود
ما أحد والاك إلا علا ... وأشرقت أيامه وهى سود
فيك من الرحمن سبحانه ... سرٌّ عظيم ماله من جحود
أيدك الله ولا زلت فى ... عزٍّ به ترغم أنف الحَسُود

وبعد أن رمَّم الإمام شرف الدين صنعاء ونواحيها توجَّه لفتح أطراف اليمن فأرسل ولده المطهر لفتح مدينة ذمار ومدينة رداع وغيرها من المدن وهو فى السادسة عشرة من عمره وكان الإمام قد فتح حصن كوكبان وأخذه من يد عامل السلطان عامر بدون مقاومة وقال فى ذلك بعض الأدباء :

فتح الله بالهنا كوكبانا ... لإمام أحيى الهدى وأبانا
ان خير الفتوح ماسكَّن الشر ... وأطفأ الحروب والنيرانا
بارك الله للإمام وهنَّاه ... وبوَّاه للمعالى مكانا

وفتح الإمام بعد ذلك حصن مُدَع وبلاد كُحْلان تاج الدين وكانت بيد آل المؤيد وأعاد المطهر الكرة على بلاد آل طاهر وغيرها من بلاد اليمن الأسفل ففتح المعاقل واستولى على الأماكن القاصية وعاد إلى صنعاء وأخذ معه إليها أبواب القِرانة وفيها صُرُوف الذهب التى كانت فى مجلس سقف الذهب بظفار داود برسم الإمام المنصور بالله عبد الله حمزة وكان السلطان عامر بن عبد الوهاب عندما استولى على حصن ظفار وشاهد حسن هذا المجلس أمر باقتلاع تلك الأصراف وأرسلها إلى القِرانة وأنشد شاعره وهو فى ظفار :

مافى ظفار مايُزار وإنما ... زرناه إرغاما لكل مُعادى

وقد عرَّج المطهر بن الإمام شرف الدين قبل طلوعه إلى صنعاء على عَرَاس من

بلاد يريم وكانت توجد بمراس طائفة من الإسماعيلية فقبض على على بن جعفر الداعى الذى كان الإمام قد أخرجه من حصن طيبة بعد حصارها وأطلق سراحه .

وفى سنة أربعين وتسعمائة نهض الإمام شرف الدين وولده المطهر لفتح البلاد الشمالية فتقدما نحو بلاد صعدة والجوفين وكان الطريق إليهما من بلاد نهم وكانت الرياسة فى صعدة وبلادها إذ ذاك للأمير أحمد بن محمد بن الحسين الحمزى وكاتبه أشراف الجوف وقالوا له إنهم معه يدٌ واحدة على حرب الإمام وتقدم المطهر إلى قرية الزاهر من قرى الجوف فدخلها بعد معركة نشبت بينه وبين الأشراف قتل فيها الشريف أحمد ابن عبد الله من أعيان آل سليمان وأبو شيبه من أشراف الحُسَيْنات وآخرون ثم تقدم الإمام إلى صعدة فنزل الرعب فى قلوب أهلها ولما اقتربت طلائع جيش الإمام من صعدة استقبله أهلها وأعيانها ودخل المدينة بغير قتال وجعل طريقه إلى جامع جده الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين وخرج منها الأشراف الحمزات وقد توفى الأمير أحمد ابن محمد بن الحسين بعد دخول الإمام مدينة صعدة بثلاثة أيام وأنشد الإمام شرف الدين عند مشهد جده الإمام الهادى هذه الأبيات :

زُرْناك فى زَرْد الحديد وفى القنا ... والمَشْرَفيَّة والخيول الشُّزَّب
وجحافل مثل البحار تلاطمت ... أمواجهن بكل أصْيَد أغْلَب
من كل أبْلَج من ذوابة هاشم ... وبكل أرْوَع من سُلالة يَعْرُب
وأعاجم تركٍ وروم قادةٍ ... وأحابش مثل الأسود الوُثَّب
من بعد ماحال القرابة بيننا ... وتَحَزَّبوا حُقْباً أشدَّ تَحَزُّب

والقصيدة أكثر من هذه الأبيات ولما استقر الإمام فى صعدة دان له كل ماحولها من البلاد وتابعه السادة آل المؤيد ومن بينهم الأمير شمس الدين أحمد بن الإمام الهادى عز الدين بن الحسن وأخوه صلاح الدين المهدى بن الإمام عز الدين وقد استقبلهم الإمام بالإجلال والاحترام . وأما الأشراف الحمزات فإنهم كانوا قد ألبوا قبائل يام وسَنْحان

ووادعة وذهمة وتقدموا معهم إلى محل يقال له الحسينات فقصدهم المطهر بجنوده وكشف صفوفهم وأعمل فيهم العوامل وعظم فيهم القتل والأسر ولما انتهى أمرهم فتح المطهر جبل برط وما حوله ودخلت البلاد تحت طاعة الإمام ثم تقدم الامام وولده المطهر إلى بلاد نجران فكان فتحها فى سنة إحدى وأربعين وتسعمائة وشيد الامام قبة على قبر عبد الله بن الثامر الشهيد وقصته مذكورة فى مقدمة السيرة لابن هشام.

وفى سنة إحدى وأربعين وتسعمائة سولت لعامر بن داود الطاهرى نفسه فتح البلاد اليمنية وأرسل الجيوش العامرية إلى حدود البلاد الامامية اعتماداً على اشتغال الامام وولده المطهر بالبلاد الشامية فلما بلغ الامام وولده المطهر هذا الخبر سار المطهر بن الإمام من البلاد الشامية لايلوى على شىء فى طائفة من أصحابه على ظهور المطى فصبح الجيش العامرى فى مَوْكَل وأسرف فى قتل رجاله وأرسل الأسرى إلى صعدة وأمر بقتلهم وقد تبرأ الإمام من فعل ولده المطهر وتحصن عامر بن داود بعدن إلى أن خرجت الأتراك إلى اليمن فكان من أمره ماسبقت الإشارة إليه وقتله الأتراك وطاف المطهر بعد ذلك بلاد ريمة ووصاب وغيرها وسار إلى مدينة تعز فأقام بها وعمّر سورها وخضعت له البلاد المجاورة لها مثل لحج وأبين.

الإمام مجد الدين بن الحسن

وفى سنة اثنتين وأربعين وتسعمائة مات بالحَرَجَة من بلاد صعده الإمام مجد الدين ابن الإمام الحسن بن عز الدين بن الحسن السالف الذكر وكان مجد الدين قد دعا من هجرة فَلَلَة من بلاد صعدة سنة تسع وعشرين وتسعمائة.

وفى سنة ثلاث وأربعين غزا المطهر بن الإمام شرف الدين الجراكسة إلى زبيد فى جيش كامل العدة وعندما أشرف على فتحها أرسلت الجراكسة نهر زبيد إلى الأراضى التى توغل فيها أصحاب المطهر وخيله ثم حملوا عليهم حملة رجل

واحد فعاقت الأوحالُ الخيلَ وانهزم أصحاب المطهر وقتل منهم جم غفير ومن بين رؤسائهم السيد جمال الدين على بن يحيى بن الإمام المطهر بن محمد بن سليمان الحمزى والسيد صارم الدين إبراهيم بن محمد بن الهادى الصغير بن إبراهيم بن محمد بن عبدالله بن السيد الهادى ابن إبراهيم الوزير.

وفى سنة أربع وأربعين فتح الأمير شمس الدين بن الإمام شرف الدين بلاد حراز وحصونها كِشبَام ومَسَار وبلاد صَعْفان.

وفى سنة سبع وأربعين فتح عز الدين بن الإمام شرف الدين جازان وباعَريش وسائر الجهات الشامية التهامية وكان يأتيها من بلاد صعدة وفى خلال هذه الأيام خرجت الأتراك إلى كمران ثم إلى عدن ثم إلى تعز وسبقت الإشارة إلى ذلك.

وفى سنة خمس وخمسين تقدم الباشا أزدمر من تعز لفتح صنعاء وقد أشرنا إلى هذا وإلى ما كان من حصار المطهر بثلا وأسر عز الدين بن الإمام من حصن ظفار وإلى الصلح الذى عقد بين المطهر والأتراك وغير ذلك من أخبار الأتراك عند كلامنا على الدولة العثمانية فى اليمن.

وفى سنة خمس وستين وتسعمائة توفى الإمام شرف الدين يحيى بن شمس الدين بظفير حجة ودفن به وكان مولده فى شهر رمضان من سنة سبع وسبعين وثمانمائة وأمه هى الشريفة الفاضلة ابنة الإمام المطهر بن محمد بن سليمان الحمزى هذا وللإمام شرف الدين مآثر عظيمة منها إنشاؤه المساجد المعروفة بالمدارس بصنعاء وذمار وكوكبان وثلا وقد أنشئت بها مقصورات لإحياء العلم وتدريسه وعندما تفشى الطاعون الكبير وانتشر بصنعاء سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة وأقفرت كثير من البيوت وتعطلت كثير من الأموال بسبب وفاة سكانها وأصحابها أمر الإمام شرف الدين باتخاذ بساتين كبيرة لكثير من المساجد وحفرت لها الآبار وعمرت المطاهر وبُنِيَت بها البرك وخصص كثير من الأموال المتروكة للإنفاق عليها وصيانتها ومن مآثره أيضاً زيادات كثيرة فى مساحة

صنعاء وغيرها وكان عالما عظيما له مؤلفات قيمة منها كتاب « الأثمار فى تقويم عبارات الأزهار » لجده الإمام المهدى أحمد بن يحيى وقد شرح « الأثمار » القاضى العلامة محمد بن يحيى بهران كما شرحه أيضاً الفقيه الحافظ صالح النمازى الشافعى وللإمام شعر جيد امتاز بالرصانة والسلاسة من ذلك قصيدته المسماة « قصص الحق » التى ضمنها المعجزات ومطلعها :

لكم من الحُبِّ صافيه ووافيه ومن هوى القلب باديه وخافيه

وقد شرحها ابنه الأمير الجليل عبد الله بن الإمام وللإمام ذرية كبيرة منتشرة باليمن وفيهم أهل العلم والادب وكان أكبر أولاده المطهر ومنهم أيضاً شمس الدين الذى توفى قبله بأيام قلائل وعز الدين وعلى وعبد الله .

الإمام المطهر بن الامام شرف الدين

وتولى الأمر بعد الإمام شرف الدين بل ومن أواخر أيامه ولده المطهر وفى سنة ثلاث وسبعين انتقض الصلح المعقود بين المطهر والأتراك فكان ما سبق أن أشرنا إليه من استيلاء المطهر على صنعاء وتعز وعدن ومسير أصحابه إلى جازان وجزيرة فرسان وحصار الأتراك لزبيد حتى جاء كل من حسن باشا وعثمان باشا واسترجعا تعز ثم ما كان من خروج الوزير سنان وإرساله من لدن السلطان سليمان بن سليم على رأس قوة جبارة واسترجاعه صنعاء وما حولها ومحاصرة المطهر بثلا ثم عقد الصلح بين المطهر والوزير سنان ورجوع الوزير إلى عاصمة السلطنة .

وفى سنة ثمانين وتسعمائة توفى المطهر بن الإمام شرف الدين بمدينة ثلا ودفن بها وكان مولده سنة ثمان وتسعمائة وقد اشتهر بالبسالة والاقدام وأظهر فى حروبه بطولة غريبة وذكر حفيده عيسى بن لطف الله بن المطهر شيئاً من ذلك فى تاريخه « رَوْح الرُّوح » وقد قام بعد المطهر أولاده لطف الله وغوث الله وحفظ الله وعلى يحيى

ولكنهم تفرقوا فحق عليهم قول الشاعر :

وتفرقوا فِرَقاً فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومِنْبَر

الإمام الحسن بن على بن داود

وفى سنة ست وثمانين وتسعمائة قام من جبل الأهنوم الإمام الحسن بن على بن داود بن الحسن بن الإمام الهادى على بن المؤيد بن جبريل سالف الذكر وقد استمر فى حروب مع الأتراك إلى سنة ثلاث وتسعين وتسعمائة ثم أسره سنان باشا أيام الوزير حسن الذى ألقى القبض على أولاد المطهر بن شرف الدين بعد أن حاصر لطف الله فى ذى مَرْمَر وغوث الله فى حصن عَفَّار وعلى يحيى بجبل مَسْوَر وبعد أن جمعهم فى صنعاء أرسلهم مع الإمام الحسن بن على بن داود تحت الحفظ الى السلطنة سنة أربع وتسعين وتسعمائة حيث حبسوا بالاستانة ولم يعد إلى اليمن منهم أحد .

الأمير أحمد بن شمس الدين بن الإمام شرف الدين

تولى الأمير أحمد بن شمس الدين بن الإمام شرف الدين من قِبَل الأتراك فى بلاد كوكبان وكان لهم مناصرا ولم تزل إمارة البلاد الكوكبانية بيد أولاد على بن شمس الدين حتى سنة ١٢٨٩ ثم كان ما سبقت الإشارة إليه من محاصرة الأتراك لكوكبان أيام الأمير أحمد بن محمد بن شرف الدين حتى كان استسلامه للدولة العثمانية ودخوله صنعاء .

الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد

مؤسس الدولة القاسمية

وفى سنة ست وألف قام الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد بن على بن محمد بن على ابن الرشيد بن أحمد بن الأمير الحسين بن على بن يحيى بن محمد بن يوسف الأشل بن يوسف الداعى بن المنصور يحيى بن الإمام الناصر أحمد بن الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن

الحسين – من بلاد الشرف من محل يقال له حديد قارة فاستجابت القبائل لدعوته وقد تزلزلت لقيامه أركان دولة الأتراك باليمن وكانت لها إذ ذاك قوة عظيمة من الرجال والمال وقد قال السيد عيسى بن لطف الله ...

« قام الإمام القاسم وعساكر الأتراك باليمن سبعون ألفا أحاطت به دفاترهم وكان نفوذهم قد امتد من صعدة إلى عدن ولما بلغتهم دعوة الإمام القاسم خرجوا إلى الشرف بقوة هائلة من صنعاء وكان الإمام فى قلة من أصحابه فسار إلى بَرَط وكانت له دعاة ببلاد حاشد والحيمة وغيرها فثاروا على الأتراك وملكوا كثيرا من السلاح وكاتبوا الإمام بما تجدد من النصر فعاد من برط وخرج إلى شاطب من بلاد سفيان ثم سار إلى الأهنوم وسار القاضى يوسف الحاطى وكان من أنصار الإمام القسم بجماعة من قبائل الحيمة إلى بلاد آنس ثم إلى ذمار وهيج القبائل للخلاف فأسره الأتراك وحبس بصنعاء وثارت قبائل يافع ونهبوا خزانة الأتراك من الحلقة واجتمعت قبائل صعدة والأشراف على قتال الأتراك وسار الحاج أحمد الأسدى الشاطبى إلى نهم وخولان ودعاهم لحرب الأتراك فأجابوه ولم تمض السنة إلا وقد ملك الإمام أكثر المعاقل كالسودة وشهارة وثلا ومدع ولم يبق بيد الأتراك إلا صنعاء وصعدة وهما فى حكم الحصار وفعلت رسائل الإمام فعل البوار وهاجم السيد عامر بن على عم الإمام القاسم البلاد الكوكبانية .

وفى سنة سبع وألف عادت الكرة للأمير سنان فصاول القبائل اليمنية واسترجع كثيرا من البلاد التى كانت تحت يد الأتراك وأسر السيد عامر بن على وقتله ظلما وحاصر الإمام القاسم فى شهارة سنة تسع ولكنه خرج منها سنة عشر خفية إلى برط وخرج أولاده بعد عقد الصلح إلى كوكبان بواسطة الأمير أحمد بن محمد بن شمس الدين .

وفى سنة ثلاث عشرة وألف استقال الوزير حسن من اليمن وعاد إلى الاستانة . وخلف الأمير سنان على اليمن وفيها خرجت الأتراك من صعدة إلى جبل برط لمحاربة الإمام القسم فتحول إلى محل نازح فعادوا إلى صعدة .

وفى سنة أربع عشرة وألف خرج الإمام القاسم من برط إلى جبل شاطب بعد أن كاتبه الأمير عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن المطهر وحاصر عبد الرحيم شهارة وطلب من كان بها من الأتراك التسليم إلى الإمام القاسم فأسرع إليها وتسلمها منهم فى سنة خمس عشرة وألف وقد هنأه بفتحها السيد البليغ على بن صلاح العيانى بهذه الأبيات .

هنيئا بهذا الفتح يا ابن محمد ... وحمدا لمن أولاك سؤلى ومقصدى
على بعد عهد فى الزمان وموعد ... وبعد أياس من ولى ومعتدى
وثبت إلى العليا بصدق عزيمة ... فنلت الثنا والنصر والفتح عن يد

وفى سنة ست عشرة وألف عزل الباشا سنان عن ولاية اليمن وعين مكانه جعفر باشا وكان سنان باشا قد جمع أموالا كثيرة من اليمن وطالت أيامه بها فسار إلى المخا قاصدا العودة إلى الاستانة فأدركته المنية بالمخا ودفن إلى جنب الشاذلى ولسنان باشا مآثر عظيمة باليمن سبقت الإشارة إليها ولما وصل جعفر باشا إلى صنعاء كاتب الإمام القاسم وعرض عليه الصلح فأجابه الإمام إلى ما طلب وتم عقد الصلح على أن يكون للإمام ما تحت يده وهى الأهنوم وعذر وظليمة ووادعة والعصيمات وكان كل من الإمام والباشا يتغاضى عما يقع فى جانبه مما يوجب النفور .

وفى سنة اثنتين وعشرين وألف عزل جعفر باشا وعين بدلا منه إبراهيم باشا وقد سبقت الإشارة إلى أخبار موت إبراهيم باشا وانتقاض الصلح بين الإمام والأتراك وما حدث بعد ذلك من مهاجمة أصحاب الإمام للبلاد التى كانت بأيدى الأتراك وما أعقب ذلك من عودة جعفر باشا من المخا وزحفه على صنعاء وفتح البلاد التى كانت بأيدى أصحاب الإمام وأسر الحسن بن الإمام فى عِرَّة الأشمور وحبسه بمدينة صنعاء وتقدم حيدر باشا إلى صعدة واستشهاد على بن الإمام بموضع الشُقَّات من بلاد صعدة ثم ما كان من عود الكرة وابتسام الحظ لأصحاب الإمام ووقوع معركة غارب أثلة فى بلاد حاشد وخروج حيدر باشا من صعدة خائفا مذعورا .

وفى سنة خمس وعشرين وألف عرض جعفر باشا الصلح على الإمام القاسم بوساطة ابنه الحسن الذى كان محبوساً بقصر صنعاء والذى راجع والده فى ذلك وقد أجابه الإمام إلى ما طلب وقد تم الصلح على أن يستبقى الامام ما تحت يده من البلاد وكانت أكثر مما كانت فى أثناء الصلح السابق ثم عزل جعفر باشا وعين بدلاً منه والياً على اليمن محمد باشا وعند ما وصل إلى اليمن أقر الصلح الذى عقده جعفر باشا مع الامام القاسم على أن هذا الصلح لم يدم سوى سنة واحدة ثم حدثت بعد انقضائها أمور وأحداث خطيرة منها سقوط صعدة وحجة وبلادها وبعض بلاد الظاهر والحيمة وجبل حفنور فى يد الامام القاسم ثم عقد الصلح بين الامام القاسم والوالى محمد باشا وكان هذا الصلح يقضى بأن يحتفظ الامام بما تحت يده من البلاد التى استولى عليها وقد تلطف محمد باشا كثيراً مع الأمير سيف الاسلام الحسن ابن الامام واعتذر له عن عدم إطلاق سراحه بأن جعفر باشا سلفه قد كان رفع أمره إلى السلطنة وبأنه لا يمكنه إخراجه من حبسه إلا بعد مراجعة السلطنة واستئذانها .

وفى ليلة الثلاثاء لاثنتى عشرة من شهر ربيع الأول سنة تسع وعشرين وألف توفى بشهارة الامام المنصور بالله القاسم بن محمد ودفن بجوار مسجد الجامع الذى بناه بجبل شهارة وكان مولده فى شهر رمضان سنة سبع وستين وتسعمائة فى بنى مديخة من الشرف الأسفل وقد خلف الامام القاسم أولاداً نجباء أكبرهم محمد بن القاسم والحسن والحسين وأحمد وإسماعيل وعبدالله وكان ابنه على قد استشهد قبل وفاته ومنهم يحيى ويوسف وقد أعقب من الستة الأولين الذين تركوا ذرية كبيرة لا تكاد تخلو منهم مدينة من مدن اليمن وللامام القاسم مؤلفات نافعة منها كتاب « الاعتصام » فى الحديث ولم يكمل وقد أكمله من بعده السيد العلامة أحمد بن يوسف زبارة من علماء القرن الثالث عشر ومنها كتاب « الأساس فى علم الكلام » و « الارشاد فى تيسير الاجتهاد » وله رسائل مفيدة أخرى وآراء صائبة وهو مؤسس الدولة القاسمية باليمن .

الإمام المؤيد بالله محمد بن القسم

وبعد وفاة الإمام القاسم قام ابنه الأكبر محمد بن القسم وتلقب بالمؤيد بالله وأقر الصلح الذى عقده والده مع الأتراك وفى أيامه عزل محمد باشا وجاء إلى اليمن بعده الوالى فضلى باشا الذى لم يبق باليمن إلا وقتاً يسيراً وعين مكانه حيدر باشا .

وفى سنة إحدى وثلاثين وألف استطاع سيف الإسلام الحسن بن القاسم الخروج خفية من حبس صنعاء وكان أصحابه قد أعدوا له فرساً خارج السور ودبروا خروجه فسار إلى شهاره وبها صنوه الإمام المؤيد بالله وقد أقام لديه بشهارة أياماً وابتهج اليمنيون بخروجه من حبس الأتراك وهنأه الشعراء بغرر القصائد من ذلك ما قاله القاضى الأديب زيد بن على المسورى من أبيات :

ما العيد أن تنحر المستسمنات ضحى ... وإنما العيد يوم جاءنا فيه
ضيق أزال عن تحوينه كمدا ... وباشهار عليها رفعة تيهى
وقد أعد ولم يدروا له فرسا ... عبل الشوى يعتلى الجوزا أعاليه
وجاءنا فى خميس لو يروم به ... بغداد لبته إن نادى منادية
لولا مواثيق عهد كان أسسها ... أبوه ثم اقتفاه بعد قافيه
إمامنا خير أهل الأرض قاطبة ... من ليس ينقض عهداً وهو موليه
لكان فى معقل الأعداء من حسن ... ما أنت منه لطول العهد ناسيه

وفى سنة اثنين وثلاثين وألف اضطربت بلاد صعدة ومنع أهلها أداء الحقوق فجهز عليهم الإمام صنوه سيف الإسلام الحسن فى ثلاثين فارساً وألف راجل ولما وصل حيدان أقبل إليه أهل تلك الجهات طائعين وأصلح الحسن تلك الجهات وانتظمت بحسن إدارته الأمور وصلح الجمهور فأرسل له الإمام بولاية تلك البلاد فأقام الحسن فى الجهة الشامية ودوخها إلى ظهران ونجران وغزا وادى العماليسة من مشارق أملح من بلاد صعدة وهو واد عظيم غربى نجران طوله نحو يوم، كثير الآبار ويشبه وادى نجران وفيه قبائل من دهمة .

فتح فيفا وبنى مالك

وفى سنة خمس وثلاثين وألف توجه سيف الإسلام الحسن على بلاد فيفا وهى أرض نازحة متصلة ببلاد قحطان فى السراة وفى تهامة إلى قرب ضمد فوصل إلى نوصان وأرسل من هنالك أصحابه إلى بلاد يسنم وهو جبل عال مشرف على بلاد فيفا ودعاهم إلى الدخول فى الطاعة فأجابوه بعد حروب طفيفة ووصل إليه رؤساؤهم وأخذ رهائنهم وأحسن إليهم وأعطاهم ما لا يعرفونه من غيره وفتح جبل فيفا وحصنه المعروف بالمنسية وقال فى ذلك السيد البليغ صلاح بن عبدالخالق حجاف أبياتاً منها فى مدح الحسن بن القسم :

مُسْتَنِير الجَبِين إذ يُسْأَل العُرْ ... ف سخى الأكف بالإعطاء
جاء عنه البشير أن قد أفا الله ... على جيشه قرى فيفاء
فتحتها عناية الله ذى الملـ ... ـك وتصميم همة قعساء
قلعة فى السماء لا يرتقيها ... غير فتخا لقوة شغواء[1]
هو أعلى من حصن كيفا شأناً ... ابن فيفا فى الحسن من كيفاء[2]

نقض الصلح بين الإمام والأتراك وسببه

وفى سنة ست وثلاثين وألف انتقض الصلح بين الإمام المؤيد بالله والأتراك وكان السبب فى ذلك أن الفقيه حسين بن على العلمانى أحد أهالى علمان التى هى قرية فى أسفل وادى ضهر كان يتردد بين شهارة وصنعاء وقد بلغ حيدر باشا أن هذا الفقيه يقبض للامام من أهالى صنعاء شيئاً من الزكاة فغضب حيدر باشا لذلك وكان الفقيه حسين يعتاد الدخول على الولاة من قبل حيدر باشا ولما وصل فى بعض الأيام إلى باب حيدر باشا أمر بقتله خفية ولما شاع الأمر طالب الإمام المؤيد بالله الباشا حيدر

(١) الفتخا العقاب اللينة الجناح واللقوة العقاب الأنثى السريعة وكذلك الشغواء .
(٢) كيفاء حصن مشهور بين جزيرة ابن عمر وميافرقين بالقرب من الموصل .

بالرجوع إلى حكم الشرع فى شأن المذكور فلم يقف الإمام من مراجعته للباشا على طائل ولم يحصل على نتيجة فصمم على أن ينبذ إلى الأتراك عهدهم ويغزوهم إلى معاقلهم وأرسل أخاه سيف الإسلام الحسين إلى بلاد حراز فوصل إلى جبل مسار ورتبه ثم سار إلى بناع من بلاد الحيمة ثم إلى بنى مطر وحضور الأعلى والأسفل واتفق مع مشايخ تلك البلاد على قتال الأتراك ثم شن الحرب عليهم وقد أثبت مؤلف سيرة الأيام ما دار من المراسلات فى هذا الشأن بين الإمام والباشا قبل إعلان الحرب على الأتراك وأرسل الامام أخاه أحمد إلى خمر فلبى دعوته أهل الظاهر والسودة وكحلان وعفار وسار السيد على العبالى إلى بلاد حجة ولاعة ومسور فاستولى عليها كما سار القاضى أحمد بن على بن أبى الرجال إلى جبل اللوز من بلاد خولان وتلا على الناس رسائل الإمام التى وجهها إليهم فأجابوه .

وكتب الإمام إلى أخيه الحسن وأمره بالتقدم من صعدة فخرج منها فى ثامن صفر وجمع من قبائل خولان بن عامر وسحار وبنى جماعة وغيرهم نحو ثلاثة آلاف رجل منهم نحو مائة فارس ومنهم أشراف الجوف الحمزات كالشريف ياسين بن الحسن والى نجران وغيره وتقدم الحسن إلى ذى بين ثم إلى بلاد نهم واستخلف على صعدة ولده عز الإسلام محمد بن الحسن ووصل عامل نهم السيد الهادى ابن مطهر الشويع إلى الحسن بن الإمام باذلاً للطاعة ووصلت قبائل خولان إلى نهم وتقدم بهم الحسن إلى جبل اللوز من بلاد خولان فاستفتح القلعة التى كان بها الأتراك وتوجه إلى محل الأبيض وهو شرق الذراع قاصداً قطع طريق اليمن إلى صنعاء وحاصر الأمير سنبل ومن معه من عسكر الأتراك فى قلعة الذراع وقطع عليهم المواد وفى خلال ذلك سار الحسين بن الإمام من الأهجر إلى أخيه الحسن للمفاوضة فى ترتيب الحرب وعاد الحسين ابن القاسم لمحاصرة كوكبان وخرج الأمير سنبل من قرية الذراع إلى ذمار وارتفعت عساكر الأتراك من القبتين إلى ريمة بن حميد فغزاهم الحسن وأوقع بهم وقعة عظيمة

ثم انتقل إلى حضور واستقر فى مَسْيَب ووصل إليه أخوه الحسين فأجمع رأيهما على قصد أنوَد محل بالقرب من كوكبان وكان به نحو خمسائة من عساكر الأتراك وأمير كوكبان عبدالرب بن على بن شمس الدين ففشلوا وكان الإستيلاء عليهم وقتل منهم جماعة وأسر آخرون وانهزم الأمير عبدالرب إلى حصن بُكُر وهو جبل يحاذى كوكبان وفيه سبعمائة من عساكر الأتراك وجرت المكاتبة بين الحسن بن القاسم والأمير عبدالرب على تسليم بكر وكوكبان إلى الحسن بن القسم ويكون أمير كوكبان من حزب الإمام وطلع الحسن وأصحابه إلى كوكبان وأبقى إمارة كوكبان للأمير عبدالرب وأحسن إلى أهله وسار الحسين بن الإمام لمحاصرة ثلا وعمران فاستسلم من كان بهما من الأتراك ووصل إلى الحسن الأمير سنبل من أمراء الأتراك وانضم إلى الإمام وكان خائفاً من الباشا حيدر بعد انهزامه من الذّراع وكان متولياً على ذمار وبلادها ووصاب وعتمة ثم مازال مرْعِى الجانب من آل الإمام القسم وبعد أن أكمل الحسن بن القسم إصلاح بلاد كوكبان سار لحصار صنعاء ومعه الأمير عبد الرب ورؤساء كوكبان وكان بين الأتراك والحسن بن القسم معارك حامية الوطيس فى (الحَفا) وفى قاع الصافية وقد أحاطت خيل الأتراك بالحسن وأخيه الحسين وفر أصحابهما ولم يبق غير جماعة قليلة من آل شرف الدين وأمرا الجوف وتراجعوا إلى حَدَّة ورجعت الأتراك صنعاء وقتل من أصحاب الحسن نحو الخمسين وأنبأت هذه الوقعة عن بسالة فى الحسنين وثبات عظيم وأخذ أصحاب الحسن جبل نُقُم وطال الحصار على صنعاء وطلب أهلها الخروج فأذن لهم الباشا وتفرقوا فى البلدان وفى خلال هذه الأيام أنشأ السيد البليغ محمد بن على بن شمس الدين أخو الأمير عبدالرب قصيدة خاطب بها الحسن بن القسم وأشار إلى عدة من الوقائع ومستهلها :

بلَغَتْ بنو الزهرا بك المأمولا ... وبطول سيف علاك زادوا طولاً
ورفعت ياحَسَنَ البريةِ مجدهم ... وتركت سيف عِداهم مَفلولاً

وبشدة العزمات نلت من العلا ... مجداً وجَدُّك فى العلا مانيلاً
وجعلت يا ابن القسم بن علىّ ما ... بخلوا عليه للعلا مَبْذولاً
وتركت عِقْد نظامهم من بعد ما ... عقدوه ياسامى العلا محلولاً
وسطوت فى يوم (الذّراع) فشاهدوا ... طول الذراع من المخافة ميلاً
و (بأنْوَدٍ) مادَتْ جبال تهامة ... وكذا (ثلا) قد خرَّ منك مَهُولاً
شمرت من أرض الذّراع فككت مَن ... قد كان فى أيدى الخطوب غليلاً
و (بظَبْرِ حدّين) اشتهرت فلم يجد ... منك العدو إلى الفرار سبيلاً
وكذاك فى يوم (الحَفا) فهذه ... جُمَلٌ ولم يدرك لها تفصيلاً
فلك الهنا و (للحسين) فإنه ... أضحى لنصرك ساعداً مفتولاً
ورقى بهمته العلية فى العلا ... مجداً عظيماً لا يُرام جليلاً
ما كان أجْدرَه بما قد قيل فى ... بدر بن عمّار بن اسماعيلا
(نطِقٌ (١) إذا حط الكلامُ لثامَه ... أعطى بمنطقه القلوب عقولاً)
كم سُدْتم أبناء دهركم فلا ... لكم لنا جعل الإله بديلاً
وشددتم أمر الإمام محمد ... من فَضْلُه ترك العزيز ذليلاً
غوث الأنام إمامنا البدر الذى ... أضحى إلى دين الرسول دليلاً

وفى خلال هذه الأيام انضم إلى الإمام الأمير الحسين بن محمد الحمزى وكان من الأمراء مع الباشا حيدر وأرسله الحسن بن القسم لفتح اليمن الأسفل .

وأرسل الإمام المؤيد بالله من شهارة الشريف هاشم بن حازم المكى والسيد التقى ابن ابراهيم إلى تهامة فاستفتحا ما بين جازان وبيت الفقيه وأرسل الإمام السيد صلاح المؤيدى إلى أبى عريش وبندر جازان فى طائفة من الجند وانضم إليهم جماعة من الأشراف آل قطب الدين ففتحوا صبيا وأبى عريش واستسلم الأتراك الذين كانوا هنالك وأرسل

---

(١) البيت المضمن المتنى من قصيدة فى مدح بدر بن عمار .

الإمام بعد ذلك السيد أحمد بن محمد الشرفى لأخذ البيعة من أشراف صبيا وكتب إليهم الإمام رسالة مطولة وأنشد ما قاله الإمام المنصور عبد الله بن حمزة .

دعوةٌ يابنى علىّ إليكم ... وهى منكم فهل لها من سميع
حار فكرى فى وقفة الخيل والصيد ... إلى أن حمى على فجُوعى
أرسلوها شعثاً تبارى ... فى الفيافى كماسلاتٍ مُرُوعْ
هل آراها مُغيرةً كُبُراة الطير ... تردى بكل ليثٍ منيع
غصب الناس حقكم فاطلبوه ... بالمواضى فهى خير شفيع

فأخذ منهم البيعة وعاهدوا الإمام على النصرة واستنهضهم الإمام إلى الخروج إلى زبيد لقتال الأتراك فساروا إليها بقيادة رئيسهم الأمير عزالدين بن أحمد وثبتو فى المراكز الأمامية خارج زبيد .

وفى سنة سبع وثلاثين فى محرم منها سار سيف الإسلام الحسن لمحاصرة تعز واستخلف صنوبه الحسين وأحمد لحصار صنعاء وكان الحسين بحدة وأحمد بالروضة وجعل الحسن بن القسم مقدمته إلى تعز الأمير عبد الرب فى ألفى رجل وواجه الحسن بن القسم كافة مشايخ اليمن الأسفل وشدد الحصار على تعز التى كان بها من أمراء الأتراك على باشا وأرسل الحسن أصحابه إلى جبل صَبْر فواجههم أهل صَبْر بالطاعة وقد أحكم الحسن حصار مدينة تعز ورتب حولها المحطات وفى خلال ذلك كاتب الحسن بن القاسم الأمير عبدالقادر بن محمد الخنفرى صاحب أبين الذى كان يتناول مرتبات من عدن أيام الأتراك وكان حيدر باشا قد قطعها أيام ولايته فلما عرف الأمير عبد القادر بظهور أمر الحسن ابن القاسم جمع طائفة من يافع وغيرها وسار بهم إلى لحج وعدن فاستولى عليهما وأرسل إلى الحسن بن القاسم ما كان فى حاجة إليه من المؤن فاستطاع الحسن بن القاسم محاصرة زبيد والمخا وفى سنة ثمان وثلاثين بدأت المفاوضات بين الإمام المؤيد والوالى حيدر باشا على تسليم الأتراك صنعاء إلى الإمام وانتقال الأتراك هم ومن أراد الخروج معهم منها

إلى زبيد على أن يقوم الإمام بإحضار الجمال اللازمة للنقل وإرسال ولده الأمير على بن المؤيد لمرافقة الباشا إلى تهامة وتمت الموافقة على ذلك ووفى الإمام بجميع تعهداته وأصدر أوامره إلى امرائه بتهامة بضيافة الباشا وإكرامه وبعد أن خرج حيدر باشا من مدينة صنعاء دخلها سيف الإسلام الحسين دخول الفاتحين واستقبله أهلها استقبالا عظيما وسكن ببستان السبحة وبعد ذلك تم فتح مدينة تعز التى استسلمت إلى سيف الإسلام الحسن ولم يبق بأيدى الأتراك سوى زبيد والمخا وقد اتفق الحسن بن القاسم مع الأتراك الموجودين فى زبيد والمخا على عقد هدنة بين الطرفين .

خروج الباشا قانصوه إلى تهامة

لما عقد الحسن بن الإمام الهدنة بينه وبين الأتراك الذين بالمخا وزبيد تآمروا على أن يكتبوا إلى مصر بصفة الحال ويطلبوا الغارة والنجدة وأرسلوا الأمير سليم لذلك ولما وصل مصر وجد الباشا قانصوه قد جمع وحشد جيشاً كثيفاً عن أمر السلطان وجمع من مال مصر ما قدر عليه وخرج إلى تهامة وانضم إليه من كان بمكة من عساكر الأتراك ووصل إلى نواحى صبيا فى ثلاثين ألف راجل وثلاثة آلاف فارس وأحمال وأثقال واسعة فهابه الناس وخالطهم الفزع فاستولى على التهائم وأرسل الإمام المؤيد بالله ولده يحيى بجيش من صعدة إلى أبى عريش وسلكوا من طريق جبل رازح وكتب الإمام عدة رسائل إلى الأشراف بنى قُطْب الدين من آل سليمان بن موسى وحثهم على قتال الأتراك وبعث إليهم أبياتاً أنشأها السيد البليغ صلاح بن عبد الخالق حجاف ومنها

أسنى التحية والسلام الأوفر ... وأجل رضوان المليك الأكبر
وصلاته ماصافحت ريحُ الصبا ... روضَ الخُزامى والأقاح الزهرى
فأتت بنشر عابقٍ أشهى إلى ... كل المعاطس من شميم العنبر
تهدى إلى من ضم حسن الذكر من ... بين الأنام إلى كريم العنصر
وتحدث الركبان أنّ ذمامهم ... وافٍ وصفو عهودهم لم تكدُر

وبصدقهم وثباتهم إذ لم تطش ... أحلامهم أبداً ولم تتغير
أعنى به القطبات أشجع مُعْمِل ... ظبة الحسام وخير مروى السمهرى
أهل الحفائظ من ذؤابة هاشم ... وأولى المفاخر من سلالة حيدر
من ينتمى يوم الفخار إلى أبى ... حسن وحمزة الهزبر وجعفر
إن كان يحيى بن الامام نزيلكم ... فى عسكر أكرم بهم من عسكر
فتآزروا وتظاهروا واستعصموا ... بالله من يلجأ إليه يظهر
كم من عدو نازح عن أرضكم ... غادرتموه لقاً بقاع قرقر
أمّا وقد قرب العدا منكم وقد ... دانوا دياركم دنو مغرر
فقد اعتدوا طوراً وحلوا حيث لم ... يحلله غير مدمر ومتبر

وتقدم الباشا قانصوه إلى زبيد وأرسل طائفة إلى المخا وكان الشريف هاشم بن حازم من أصحاب الامام فى مدينة بيت الفقيه وعنده قوة عظيمة مؤلفة من ألف راجل ومائتى فارس فخرج منها وكان الأمير سنبل وطائفة من أصحاب الإمام فى مدينة حيس فارتفعوا إلى الجبال وهال الناس عسكر الأتراك وما أجلبوه من الطعام وكان كالإكام وكانت محطتهم حول زبيد نحو ثلاثة أميال طولاً ومثلها عرضاً وكان يُضْرَب وقت العصر ثمان عشرة نَوْبَة لكل أمير فرقة نوبة .

وكان سيف الإسلام الحسن بن القاسم قد أحسن معاملة الأهالى وأذاقهم حلاوة العدل فأحبوه وحين تحقق من قوة الباشا قانصوه وعلم بتحركه للزحف على تعز درّب العساكر للقتال وضم إليه بعض اخوته وفاوضهم فى أمر الحرب وتقدم الأتراك نحو الجبال ! فدار بين الطرفين قتال عنيف وكانت المعركة الأولى فى محل يقال له نجد الدار وجاءت فى أثرها معركة أخرى فى محل يسمى تربة الشيخ عيسى وكانت هذه هى المعركة الفاصلة وكتب فيها النصر لأصحاب الحسن الذين استولوا على المحلة بأكملها وكان

فيها مايطول وصفه وخسر الأتراك الكثير من الرجال والأموال ثم حاصر الحسن ابن القاسم بعد ذلك مدينة زبيد مرة أخرى وحط بالحما خارج زبيد وقد حدثت خلال هذه المحاصرة عدة معارك بين العرب والأتراك وأقام الحسن بن القاسم سوقاً عظيمة بالحما ولما طال الحصار لزبيد تفشت الحمّى فى صفوف المحاصرين وتوفى يوسف بن الإمام القاسم بالحما كما مرض أخوه يحيى وطلع إلى ضوران ومات بها ومرض بها أيضاً الحسن ابن على بن القاسم وطلع إلى ضوران ومات بها وقد رثاهم القاضى البليغ محمد بن أحمد السلفى بهذه الأبيات :

سادة عوجلوا بكاس المنايا ... عجباً ما أمرّ كاس المنية
من فقيدين سيدين بصنعا ... وبضوران فبل نفس زكية
ثم من بالحما أجل فقيد ... يوسف ذو المحاسن اليوسفية
يالها أوجها غدت فى لحود ... كالنجوم التى تضىء بهية
مارعى الموت فى علاهم ذماما ... للمعالى وللخلال السنية
أودع القلب فقدها حر نار ... ضاعف الله أجرها من رزية

وقد قتل فى خلال هذه الحروب السيد الرئيس الهادى بن على الشامى أخو السيد العلامة أحمد بن على وبعد قتال طويل عقدت هدنة بين الحسن بن الإمام والباشا قانصوه وفى خلالها وصل الباشا قانصوه إلى الحسن بن القاسم خفية من العسكر فى جماعة من عبيده فأمّنه الحسن بن القاسم وأكرم مثواه وكان السبب فى خروجه إلى الحسن أن العسكر طالبوه بالأموال وأرادوا قتله ففر منهم وتلقاه الحسن بكل ترحاب ثم جهزه بجهاز عظيم وأعطاه أكثر مما طلب وأرسل معه جنوداً يرافقونه إلى جازان وبقى الأمير مصطفى بزبيد على رأس العساكر أياماً ثم طلب إلى الحسن أن يجمع له ما يحتاج إليه من الجمال للخروج من اليمن والعودة الى الأراضى المصرية مع من معه من الجنود فأجابه الحسن إلى ماطلب وانتقل من زبيد إلى المخا ثم تفاوض مع الحسن فى ترك أمر العساكر لأنفسهم فمن أحب أن

يسير معه يزوّد بما يكفيه ومن آثر البقاء باليمن يحتفظ له بمرتباته المعتادة ثم أبحر مصطفى باشا من المخا وصحبه بعض العساكر إلى مصر واختار البعض الآخر منهم الانضمام إلى جيش الحسن بن القاسم فأحسن إليهم وآنسهم ودخل الحسن بن الإمام زيد ونظم أحوالها ثم سار إلى المخا فولى عليها مملوكه سعيد ريحان وتفقد أحوال السوق وأمر بتعمير ما خرب كما أمر بتفقد المراكب وآلاتها وجعل هناك قوة من العساكر ورأس عليهم أميراً كما ولى على « مَوْزَع » الأمير هادى بن الشَّويع الحمزى وعلى « زبيد » الشريف هاشم بن حازم المكى وهو من أشراف مكة آل أبى نمى وكان قد جاء إلى اليمن لطلب العلم وأقام بشهارة وأرسله الإمام المؤيد بالله بعد نقض الصلح إلى تهامة . هذا وقد ولى الحسن بن الإمام على « اللَّحَيَّة » مولاه الأمير سعيد المَجْزَبى الذى تولى بعده جماعة من أهله كما أرسل الحسن طائفة من أصحابه إلى جزيرة كَمَران وأمر بتعمير مافيها من خلل وأرسل طائفة أخرى إلى جزيرة فرَسان وذلك بعد خروج الأتراك من الجزيرتين وعاد الحسن بعد هذه الأعمال الجليلة إلى جبل ضُوران وصحبه كثير من عساكر الأتراك وقد وزّع عليهم كثيراً من الأموال وقد امتدحه الشعراء بغرر القصائد وأشادوا بفتوحاته العظيمة ومناقبه وأخلاقه .

وفى سنة خمس وأربعين دخل اليمن فى دور جديد بعد خروج الأتراك منه وصار بأجمعه تحت ظل الدولة القاسمية واستقل استقلالا مطلقا .

وفى سنة ثمان وأربعين وألف توفى سيف الإسلام الحسن بن القاسم بضوران بالغا من العمر إحدى وخمسين سنة وصلى عليه أخوه الحسين ودفن إلى جنب الجامع الذى عمره بضوران ورثاه كبار الشعراء وحزن عليه الناس أجمعون فقد كان رحمه الله سمحا كريما باسلا خلف أولادا نجباء هم الأمير محمد بن الحسن والمهدى أحمد بن الحسن والحسين ابن الحسن وقد جعل الإمام المؤيد بالله جميع البلاد التى كانت تحت يد الحسن لأخيه الحسين .

وفى شهر ربيع الآخر من سنة خمسين وألف توفى الأمير سيف الإسلام الحسين ابن القاسم بمدينة ذمار ودفن بها وله كثير من المؤلفات النافعة منها « غاية السول » فى علم الأصول وشرحه «هداية العقول» وهو من أجل الكتب اليمنية فى أصول الفقه وفى « الغاية » يقول السيد العلامة البليغ عبد الله بن على الوزير :

لِلّهِ من غاية أعوّذها بالله من عين كل ذى حَسَد
كم كللت للفحول جوهرة وكم لها من يدٍ على العَضُد

وقد طبع المختصر وشرحه وما عليهما من التعليقات النافعة بمطبعة صنعاء وللحسين ابن الإمام مؤلف آخر فى « آداب العالم والمتعلم » ورسائل وأجوبة مفيدة وقد خلف أولادا منهم الأمير محمد بن الحسين والسيد الحافظ يحيى بن الحسين والحسن بن الحسين وأحمد بن الحسين وعبد الله وقد جعل الإمام المؤيد ما كان بيد الحسين من البلاد وتحت نظارته لابنى أخيه محمد بن الحسن وأحمد بن الحسن .

وفى سنة ثلاث وخمسين وألف طلع المولى اسماعيل بن الإمام القاسم من اليمن الأسفل إلى جبل ضوران وأقام به واستولى على ما حوله من البلاد وكان قد أقام مدة فى مدينة تعز وأخذ عن الشيخ المحدث محمد بن عبد العزيز الحُبَيْشى فى الحديث واستجاز منه .

وفى رجب سنة أربع وخمسين وألف توفى الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم بجبل شهارة ودفن إلى جنب والده الإمام القاسم وله آثار عظيمة ومآثر جليلة منها إصلاح مدرج شهارة من الجهة الجنوبية إلى وادى أقر ، وكان متمسكا بقانون الشرع لايحيد عنه وخلف من الأولاد الأمير على بن المؤيد والحسين بن المؤيد وأحمد والقاسم والحسن وسوف تأتى الإشارة إلى بعضهم

الفصل السادس

الأئمة الذين قاموا فى عهد استقلال اليمن

الإمام المتوكل على الله اسماعيل

فى سنة أربع وخمسين وألف قام الإمام المتوكل على الله اسماعيل بن القاسم بضوران وبايعه العلماء الذين كانوا بحضرته كما قام بنصرته أبناء أخوته ومنهم محمد بن الحسن وأحمد بن الحسن ومحمد بن الحسين وغيرهم وكان قد سبقه إلى الدعوة لنفسه أخوه أحمد ابن القاسم المكنى بأبى طالب والذى كان أكبر منه سنا ولكن درجته فى العلم والسياسة كانت تقل عن درجة أخيه المتوكل على الله وكادت الفتنة تنفث سمومها ولكن الله جلت قدرته وقى البلاد شرها واذعن أبو طالب وسلم الأمر لأخيه اسماعيل وسار إلى ضوران لمبايعته فولاه الإمام مدينة صعدة والبلاد المحيطة بها كما ولى الأمير محمد بن الحسن أعمال اليمن الأسفل وفوضه فيما يتولاه أخوه أحمد بن الحسن كما ولى محمد بن الحسين على بلاد الشرف لحُفاش وماحان وبلاد البستان .

فتح لحج وعدن

وفى هذا العام عزم الإمام المتوكل على الله على فتح لحج وعدن وكانتا إذ ذاك تحت يد الأمير الحسين بن عبد القادر بن محمد بن سليمان صاحب خَنفَر من أبين وقد سبقت الإشارة إلى أخذ والده الأمير عبد القادر للحج وعدن فى أواخر أيام الأتراك وموالاته للحسن ابن القاسم .

وفى العام التالى سار صفى الإسلام أحمد بن الحسن لفتحهما وجهزه أخوه محمد ابن الحسن بكل ما يلزم من المال والرجال والسلاح وتقدم إلى الرَّعارِع حيث تلقاه

أصحاب الحسين بن عبد القادر بالحرب وقاوموه ولكنهم هزموا شر هزيمة وتولى أحمد بن الحسن على لحج وعدن وأخذ فى إصلاحها وترتيب شئونهما وسار الأمير الحسين ابن عبد القادر إلى يافع وأقام بها فكاتبه الأمير محمد بن الحسن وطلب إليه العودة إلى أبين على أن تكون له عوائد آبائه من لحج وعدن وأقطعه بلاد أبين وأقره الإمام المتوكل على الله وهكذا صلحت الحال واستعمل صفى الإسلام أحمد بن الحسن مولاه ياقوت على عدن وعاد إلى صنعاء .

وفى سنة ست وخمسين اضطربت الأحوال فى صعدة على أثر قيام السيد العلامة ابراهيم بن محمد المؤيدى ولذلك وجه إليه الإمام ابن أخيه محمد بن الحسين فى جيش كبير العدد فظافر به وأوصله إلى صنعاء حيث تلقاه الإمام بالقصر وعاتبه على ما حدث منه ولكنه لاطف الإمام واعتذر اعتذاراً جميلا مما جعل الإمام يعفو عنه ويقبل عذره .

وفى سنة سبع وخمسين أرسل الإمام المتوكل على الله القاضى الحلاحل الحسن بن أحمد الحيمى إلى الحبشة مع خمسين رجلا من أصحابه بعد وصول كتاب من ملك الحبشة إلى الإمام طلب فيه أن يرسل له الإمام رجلا مرشداً وعالماً يعلمه القرآن وأصول الشريعة الإسلامية وشعائرها فطمع الإمام فى إسلامه واستمع إلى ظاهر كلامه وعندما وصل القاضى المذكور إلى بلاد الحبشة بعد مشاق عظيمة وبعد أن قطع مسافات طويلة ضاع ذلك الأمل وتبين أن الأمر لا يعدو مناورات سياسية وأغراض تجارية وقد ألف القاضى فى رحلته مؤلفاً لطيفاً لخصناه فى « التاريخ الكبير » ولم تكن المواصلات إذ ذاك سهلة كما هى فى الوقت الحاضر كما أنها لم تكن مأمونة العواقب لكثرة ما يعترضها من المخاوف والمصاعب وعاد القاضى الحسن بن أحمد الحيمى من رحلته هذه إلى الإمام بعد أحد وعشرين شهراً قضاها بالحبشة وكتب إلى الإمام المتوكل على الله أبياتاً يصف فيها أحوال الحبشة ومنها :

على كل سعى فى الصلاح ثواب ... وكل اجتهاد فى الرشاد صواب

وليس على الإنسان إدراك غاية ودون مداها للعيوب حجاب
ولو علم الساعون غاية أمرهم لما كان شخص بالشرور يصاب
فقل لأمير المؤمنين لقد دعا وحقّ له بعد الدعاء يُجاب
ولكن دعا قوماً يظنون أنهم رموا غرضاً في دينهم فأصابوا
ترآى لهم لمعٌ فهم يحسبونه شراباً فأضحى ذاك وهو سراب
يقولون ان الله جلّ جلاله هو الروح عيسى إن ذا لعجاب
وهذا ضلال بيّنٌ وجهالة تفطّر منها الصمُّ وهي صلاب
لقد ضاق ذرعي لاحتباسي بأرضهم وكدّر مني مطعم وشراب
وحبّب أوطاني إليّ بأنّ لي بها جيرةً طاب الزمان وطابوا
وللعدل والتوحيد فيها مسارح وربعٌ منيع شامخ وجناب
فهل لي إلى تلك المنازل عودةٌ وهل لي إليها مرجع ومآب
وهل أردن للشرع موردَه الذي تدل عليه سنة وكتاب
وهل أسمعن صوت المنادي لجمعةٍ ينادي بأعلى صوته فيُجاب
وهل أنظر الدار التي ضُربتْ لها مدارس علم حولها وقباب
وهل يُسعدن دهري إلى نيل مطلبي فمالي منه غير ذاك طلاب
فإن لم يكن يادهر عُتبي فطالما عُتِبتَ فلم ينفع لديك عتاب
وهي أكثر من هذا.

وفي سنة ثمان وخمسين وألف بدأ الإمام يرسل أميراً على رأس حجاج اليمن يصحبه جماعة من الجنود ويأخذ معه كمية من الأموال للصرف منها على المستحقين والمحتاجين في مكة المشرفة وقد سبقت الإشارة إلى أول من قام بمثل هذا العمل من ولاة الأتراك في اليمن وقد استمر العمل جارياً بهذه العادة أيام الدولة القاسمية إلا أنه كان يقوى مرة ويضعف مرة أخرى.

فتح بلاد البيضا ويافع

وفي سنة خمس وستين وألف جهز الإمام المتوكل على الله ابن أخيه صفي الإسلام أحمد بن الحسن بجيش كبير إلى بلاد البيضاء وبني أرض بعد أن كاتب السلطان حسين الرصاص وطلب إليه أن يفتح البلاد للجنود الأمامية الزاحفة على حضرموت وذلك لأن بلاد الرصاص هي أقرب الطرق إلى حضرموت ولكن السلطان حسين أبى ذلك وقال إذا كان الإمام يرغب في الدخول إلى حضرموت فما عليه إلا أن يسلك طريق السهول أي بلاد الجوف ثم يخرج إلى العوالق وسرعان ما حشد قبائل البلاد لمقاومة الإمام ومنع جنوده من اختراق بلاده وطلب النجدة ممن حوله من بلاد يافع والمضعبين وآل حميقان وبيجان والعوالق وغيرهم وجعل خط الحرب ونقطة المقاومة في نجد السلف وأما الإمام فقد اجتمع له نحو عشرة آلاف مقاتل وألف جواد وتقدم بهم أحمد بن الحسن من بلاد رداع التي أقام بها الأمير محمد بن الحسن للإستعداد وقد التقى الجمعان بنجد السلف ووقعت بين الطائفتين حرب ضروس وبعد معارك عنيفة انتصر أصحاب الإمام وهزم أهل الشرق هزيمة منكرة وقتل السلطان حسين الرصاص وعندئذ أذعن أهل الشرق وطلب كل من السلطان الفضلي والواحدي والعمودي مواجهة صفي الإسلام أحمد بن الحسن وبعد انتهاء هذه الحرب وفتح بلاد البيضاء تقدم أصحاب الإمام إلى يافع ودخلوا بلاد مرفد ثم الموسطة وقد سار إلى الإمام أعيان يافع من أمثال الشيخ عبدالله هرهره وغيره يقدمون له الطاعة ويظهرون له الإخلاص

وفي سنة ست وستين وألف توفي الأمير الكبير أحمد بن القاسم في مدينة صعدة وكان محباً للصدقات فكني بأبي طالب ومن مآثره الحسنة بناء جامع مدينة الروضة شمال مدينة صنعاء وفيه يقول بعضهم:

لجامع الروضة حسنٌ غدا يروق للناظر والسامع
لاتحسبوا الجامع في روضةٍ وإنما الروضة في الجامع

وخلف من الأولاد الأمير على بن أحمد ومحمد بن أحمد وقاسم وعبد الله والحسن والحسين وتولى بعضهم الإمارة وستأتى الإشارة إلى ذلك .

وفى سنة سبع وستين توفى الأمير الشهير محمد بن الحسين بن القسم وهو مؤلف « منتهى المرام فى شرح آيات الأحكام » وقد طبع بصنعاء .

فتح حضرموت (١)

وفى سنة تسع وستين وألف جهز الإمام المتوكل على الله ابن أخيه صفى الإسلام أحمد بن الحسن مع طائفة من الجنود للزحف على حضرموت لنصرة بدر بن عمر الكثيرى الذى كان قد طلب معونة الإمام والذى كان قد عارضه بعض أعيان حضرموت لما خطب للإمام وولوا بدلاً منه بدر بن عبدالله الكثيرى وعندما وصل بدر بن عمر إلى الإمام وطلب نجدته تقدم صفى الإسلام أحمد بن الحسن من وادى السَّر إلى خولان فقحوان ثم بعد ذلك إلى رَغوان ودخل بلاد مارب وبيحان ثم دخل حدود بلاد العوالق ثم وصل إلى وادى حَجْر ثم رَبْدَة بامَسْدوس حيث نشبت معركة عنيفة بين أصحابه وأصحاب السلطان بدر بن عبد الله الكثيرى وبعد هذه المعركة تقدم رجال الإمام إلى قرية الهَجرين ثم إلى هَيْنَن حيث نشبت بها معركة أخرى هزم فيها أصحاب السلطان الكثيرى هزيمة منكرة ودخلها صفى الإسلام أحمد بن الحسن وأرسل منها أصحابه إلى سَيْون وشبام وتَرِيس وفد كاتبه السلطان بدر بن عبد الله الكثيرى بعد انهزامه وتقدم إليه وطلب إليه الوصول إلى الإمام فاستقبله صفى الإسلام أحسن استقبال وأكرمه هو وأصحابه

(١) تقدم فى الباب الأول ذكر جغرافية حضرموت وبعض أخبارها وأما تاريخها السياسى فامتدت إليها قبل الإسلام أيدى السبائين وملوك كندة وبعد ظهور الإسلام تناولتها أيدى الخلفاء الراشدين ثم خلفاء الدولتين الأموية والعباسية وبعد أن استقل محمد بن زياد بزبيد امتدت يده إلى بلاد حضرموت ثم خلف آل زياد بنو معن ملوك عدن ثم عادت لآل رشيد بطن من كنده وعارضهم عثمان الزنجارى من قبل بنى أيوب ثم امتدت إليها يد السلطان المظفر عمر بن على بن رسول فمن بعده وجرت عليها إمارة آل الصبرات وآل يمان وآل راصع ثم غلبت عليها إمارة آل كثير وعارضهم غيرهم

الذين كانوا يبلغون نحو السبعين راجلاً وعشرين فارساً وكان طريقهم إلى الإمام من شَبْوَة فواسط فبيجان ووَدِيد وقطعوا الطريق إلى ضوران التى كان بها مقام الإمام فى سبع عشرة مرحلة وقد أحسن الإمام استقبالهم وأكرم مثواهم وكان عندما وصل السلطان بدر بن عبدالله الكثيرى إلى مقام صفى الإسلام أحمد بن الحسن بحضرموت قد أنشأ الأديب الشهير حيدر أغا فى ذلك أبياتاً منها :

أَلْسُنُ النصر أعلنت بالهناء ... وعلى مالكى بحسن الثناء
أحمد الوصف أحسن الناس أصلا ... ليث حرب إن كرَّ فى الهَيْجاء
مَنْ رقى فى العلا بإصداقه السيـ ... ـف مَحَلاً أربى على الجوزاء
فتح الخافقين شرقاً وغرباً ... بسيوف معروفة وقناء
كل قلب من الأعادى منه ... أبداً خافقٌ له كاللواء

ومنها :

إن بَدْرًا مُذْ جاء مستغفرا نحـ ... ـوك ياخير من مشى فى الثراء
صح بدر الكمال لا شك فيه ... صادع النور فى سماء العُلاء
وهو إنسان عين آل كثير ... وقليل كمثله فى الملاء
ومليك فى الابتدا فارفعوه ... رفعه واجب على الابتداء
لست أوصيك فيه مَنْ حَلَّ رِبْعًا ... لك مولاى فاز بالسراء

وقد ولى صفى الإسلام أحمد بن الحسن القضاة فى مدن حضرموت بأمر الإمام المتوكل على الله وبعث الفقيه محمد بن على جَمِيل السِّيْزانى فى ستمائة جندى إلى مدينة الشحر فدخلها وجعل أمرها بيد على بن بدر بن عمر الكثيرى وعندما عاد والده من لدن الإمام جمع له صفى الإسلام أحمد بن الحسن سلاطين آل كثير واستحلفهم وقرره على ملك حضرموت وعاد إلى صنعاء وقبض على كل من عرف فساده .

فتح مدينة ظفار الحبُوظى (١)

وفى سنة ثلاث وسبعين وألف انتزع السلطان بدر بن عمر الكثيرى مدينة ظفار الحَبُوظى من يد الأمير خَلَف الذى كان والياً عليها من قبل سلطان عُمان وقد كان الأمير خَلَف قد دخل بدعوة من السلطان جعفر بن عبدالله الكثيرى ولما انهزم الأمير خلف من ظفار ترك مدفعين واستولى عليهما أصحاب الإمام المتوكل على الله وقد كتب ملك عمان السلطان نبهان إلى الإمام المتوكل على الله كتاباً فى شأنهما وأجاب عليه الإمام بجواب أثبتناه مع الأصل فى التاريخ الكبير.

وفى سنة خمس وسبعين نهب بعض قبائل الجوف هدية كان أرسلها السلطان بدر ابن عبدالله الكثيرى للإمام المتوكل على الله فسار صفى الإسلام أحمد بن الحسن لتأديبهم وطاف مدن الجوف الخاربة وشاهد مآثر حمير ووصله إلى مَيْن القاضى الأديب الحسن

---

(١) قال ابن بطوطة فى رحلته مدينة ظفار الحبوظى على ساحل البحر الهندى ومنها تحمل الخيل العتاق إلى الهند وبين ظفار وعدن فى البر مسيرة شهر فى صحراء وبينها وبين حضرموت ستة عشر يوماً وبينها وبين عمان عشرون يوماً ومدينة ظفار فى صحراء منقطعة لا قرية بها ولا عمالة وسوقها خارج المدينة برض يعرف بالحربا وزرع أهلها الذرة وهم يسقونها من آبار بعيدة الماء والأرز يجلب اليهم من الهند وهو أكثر طعامهم ودراهمهم من النحاس والقصدير ولباسهم القطن وهم أهل تواضع وحسن أخلاق وفضيلة ومحبوت الغرباء ويشدون الفوط فى أوساطهم وأكثر أهلها رؤوسهم مكشوفة ويصنع بها ثياب من الحرير والقطن والكتان وفيها مساجد كثيرة وفى كل دار من دورهم سجادة الحوص معلقة بالبيت يصلى عليها صاحب البيت وعلى مسيرة نصف يوم من هذه المدينة الاحقاف وهى منازل عاد وهناك زاوية ومسجد على ساحل البحر وحوله قرية لصائدى السمك وفى الزاوية قبر مكتوب عليه هذا قبر النبى هود عليه الصلاة والسلام وبهذه المدينة بساتين فيها حوز كثير كبير الجرم وزنت بمحضرى حبة منه فكان وزنها اثنى عشرة أوقية وهو طيب الطعم شديد الحلاوة وبها التنبور والنارجيل المعروف بجوز الهند قال والتنبور شجر يغرس كالعنب ويؤكل ورقه وله منافع طبية اهـ. وظفار هذه اختطها أحمد بن محمد الحبوظى سنة ٦٠٠ ستمائة وتداولها جماعة من أهله. وابن بطوطة هو أبو عبدالله محمد بن عبدالله اللوانى ثم الطنجى رحالة مشهور وصل اليمن ودخل تعز أيام الملك المجاهد على بن المؤيد بن الملك المظفر المتوفى سنة ٧٦٤

ابن على بن جابر الحبل ومدحه بأبيات منها:

تنبّه حظى بعد طول منامى ... بخير مليك وابن خير إمام
وردت النَّمِيرَ العَذْبَ من سَوْحِ أحمد ... على ظمإ منى له وأوام
فرمت به رمح السماك مساعدًا ... وطنّبتُ فوق الفَرْقَدَين خيامى
ورُحْتُ بعينٍ بالأمانى قريرة ... ولاقيت منه الحادثات بلام
أمِنْتُ مرامى الحادثات بظِلّه ... ونلت من الرمى البعيد مرامى
وطُلْتُ به من كان قِدْمًا مطاولى ... وساميت فى العلياء كل مُسَامى
وأصبحت والشانى الحسود يقول لى ... ليَهْنِك مَرْقى فى السعادة سامى
وأضحى به عامى الطويل كلحظة ... وكم لحظةٍ مرّت علىّ كعام

وهى أكثر من هذا وله ديوان من أجود الشعر.

وفى سنة سبع وسبعين وألف نكث يهود صنعاء وغيرها من بلاد اليمن العهد وتكاتبوا فى جميع جهات اليمن مُدَّعين بأن المسيح الدجال قد ظهر وأنهم أصبحوا من أعوانه وأنصاره وقالوا إن عهد المسلمين قد انقضى وبدأوا ببيع ممتلكاتهم وظهرت منهم بوادر وأعمال منكره فأسرع الإمام بحبس جماعة من أعيانهم كما سجن كبيرهم النَّقَّاش فى كمران وقد قاموا فى صنعاء بعمل آخر إذ اجتمعوا حول رجل منهم اسمه سليمان الأَقْطَع فزيّنوه ودجّجوه بالسلاح وساروا حوله قاصدين أمير قصر صنعاء على ابن المؤيد ولكنهم تخلوا عنه فى الطريق فلم يصل إلى أمير القصر إلا بمفرده ولما دخل عليه قال بلغة لم يفهمها إلا بعض الحاضرين قم من مقعدك فقد دالت دولتكم وانقضى عهدكم ولذلك أمر الأمير بفحص قواه العقلية وفكر فى أنه قد يكون مصاباً بالجنون أو بعقله خَبَل أو أنه مخمور ولكن عندما اتضح أنه عاقل وأنه محتفظ بكامل قواه العقلية حبسه ولما رفع أمره إلى الإمام أمر بقتله وصلبه وقد قال فيه الأديب أحمد بن محمد الينُبُعى:

يابنى البنة عودوا ودعوا الأمر المحالا
ولقد ذاق سليما ن نكالاً ووبالا

هذا وقد قال جار الله الزمخشرى فى كشافه عند تفسير قوله تعالى إن فى صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه كانت اليهود تقول يخرج المسيح يريدون المسيح الدجال ويبلغ سلطانه البر والبحر وتسير معه الأنهار وأنه آية من آيات الله فيرجع إلينا الملك فسمى الله ذلك كبراً ونفى أن يبلغوا أمنيتهم .

وفى شهر ربيع الأول من سنة تسع وسبعين وألف توفى الأمير الشهير محمد بن الحسن بن القاسم بروضة حاتم ودفن إلى جنب بستانه بها وقد شيدت فوق قبره قبة وترك أولاداً منهم اسماعيل بن محمد بن الحسن مؤلف كتاب « سمط اللؤلؤ فى شعراء الآل » ويحيى بن محمد وأحمد بن محمد والعلامة الشهير زيد بن محمد بن الحسن .

وفى سنة إحدى وثمانين وألف وصلت طائفة كبيرة من نصارى البرتغال إلى باب المخا وأعلنوا حاكمها السيد الرئيس الحسن بن مطهر الجرموزى بأنهم يقصدون إعلان الحرب عليه لأنه لم يدفع عنهم أهل عمان فى العام الماضى حتى أوقعوا بهم وفعلا تقدمت جماعة من البرتغاليين من قلعة فضلى المتهدمة الآن ولكن قابلتها القوة من حول المخافر فتراجع البرتغاليون إلى سفنهم واضطروا إلى العودة إلى بلادهم مرغمين وقد بدأت إذ ذاك الزمان عمارة قلاع المخا وقاية للمدينة من وقوع مثل هذا الحادث فى المستقبل .

وفى هذه السنة سار عز الإسلام محمد بن أحمد بن الحسن بن القاسم إلى عيان وطالب مشايخ برط برد ما أخذوه وما سلبوه من المارين بالطريق وأراد دخول برط وتقدم إلى المراشى وهو باب برط وفى خلال ذلك سار والده صفى الإسلام أحمد بن الحسن من الجوف فى جيش عظيم المدد وطلع جبل برط ودخل بلاد ذى حسين قهراً واستقر فى حوزه كما تقدم ابنه محمد بن أحمد نحو بلاد ذى محمد وهدم بيتاً هناك كان لجماعة من المفسدين ودخل العنان .

وفى سنة ثلاث وثمانين وألف رجع حجاج اليمن من الطريق عندما بلغهم مجىء قوة كبيرة من الأتراك إلى مكة واشتعلت نار الحرب بينها وبين الشريف سعد بن زيد وفى هذه الأثناء قال الشيخ ابراهيم بن صالح المهتدى الهندى الشاعر البليغ قصيدة حرض فيها الإمام على قتال الأتراك مطلعها :

أظلماً عن البيت الحرام نذاد — على مثلها الخيل العتاق تقاد
وخسفاً يسام الهاشميون إنها — لفادحة فيها الحتوف عتاد
فلا نامت الأجفان يا آل قاسم — وكيف وفيهن السيوف حداد
ولا حملتكم من نتائج داحس — شوازب أن لم يستشب زناد
إذا لم يصن عرض الخلافة فيكم — فمن أين مجد طارف وتلاد
تدافعت البيد الوامى بقومكم — تدافع ذل فى صماه صماد(١)
وردوا حيارى خائبين بصفقة — ينال بها ربح الردا ويقاد
وقد شارفوا أرجاء مكة فانثنوا — بفاقرة تفرى الأديم وعادوا

ومنها

لأية معنى هذه الخيل تدعى — وبيض المواضى والرماح صعاد
وفيم يجر الجيش وهو عرمرم — لهام به غصت ربى ووهاد
أغايته يوم الغدير لزينة — وغاية جرد الخيل منه طراد
فيا أيها المولى الخليفة عزمة — فقد شاب فؤد واستشب فؤاد
فلا تبرأ قلاماً سوى من لهاذم — لها من دماء المارقين مداد
ولا كتب إلا الكتائب والظبا — ولا رسل إلا قنى وجياد

وهى أكثر من هذا :

وفى سنة أربع وثمانين وألف توفى السيد المحقق مفخرة اليمن الحسن بن أحمد الجلال عن اثنتين وسبعين سنة ومولده بهجرة رغافة من بلاد صعدة فى سنة ١٠١٣

(١) قوله صماه بكسر الصاد المهملة أى فى رميه والصماد بكسر الصاد أيضا التعب .

ثلاث عشرة وألف وله مؤلفات كثيرة ورسائل مفيدة ومن أشهر مؤلفاته «ضو النهار الشرق على صفحات الأزهار» وكان الإمام المتوكل على الله يعظمه ويُجلّه وله شرف الذّروة العليا .

وفى سنة سبع وثمانين وألف قام خلاف بين أمير بلاد صعدة على بن أحمد بن القاسم وبين الأمير الحسن بن الإمام المتوكل على الله والسّبب فى ذلك أن الإمام كان قد أرسل ولده الحسن إلى صعدة وأمره بالبقاء بها وعندئذ لم يبق للأمير على بن أحمد أمر ولا نهى فى بلاد صعدة وكان القائم بأمر بلاد صعدة بعد والده فاستعد للحرب وجمع من يعتمد عليه من قبائل سَحَار وآل عَمَّار وغيرهما وذكرهم بحسن سيرته وبما يقاسونه من الحسن ابن الإمام وبما صارت إليه حالة الإمام من الضعف والأمراض الطارئة وطالبهم بمناصرته فأجابوه إلى ماطلب وأعلن نفسه إماما وتلقب بالمنصور بالله وعندئذ أمر الإمام المتوكل على الله ابن أخيه صفى الإسلام أحمد بن الحسن بأن يجهز جيشاً لكى يزحف على أمير صعدة وأصدر أمره بفرض تموين هذا الجيش من جميع الجهات وخرج أحمد بن الحسن من الفِراس إلى بعض المحلات القريبة لجمع العساكر وبينما هو قائم بالاستعداد جاءه خبر وفاة الإمام المتوكل على الله وكتاب من الحسين بن المتوكل من جبل ضوران يخبره فيه بأن الإمام رضى الله عنه قد توفى فى ليلة الجمعة الخامس من جمادى الآخرة ودفن بجبل ضوران إلى جانب الجامع الذى بناه هنالك. وكان مولد الإمام المتوكل على الله فى شعبان سنة ثمانى عشرة وألف وكان عالما محققاً فى الفقه وله أنظار وآراء ثاقبة وكان محباً للعلماء معظما لهم ولقد وقف كثير من أكابرهم موقف الدرس عليه وكان واسع الحظ بعيد الصيت كاتب أشراف مكة وكانت بينه وبينهم مودة وصداقة وقد أعاد محمل الحج اليمنى إلى مكة بعد انقطاعه من أواخر أيام الأتراك وله أولاد أكبرهم المؤيد بالله محمد بن المتوكل وعلى والحسن والحسين وابراهيم وأحمد وقاسم وزيد ومحسن وموسى وعبد الله ولأكثرهم ذرية باليمن .

الإمام المهدى لدين الله احمد بن الحسن

قام بعد الإمام المتوكل على الله ابن أخيه المولى صفى الإسلام أحمد بن الحسن وتلقب بالمهدى لدين الله وبايعه جماعة من أهل العلم والفضل وعارضه القاسم بن المؤيد بالله محمد ابن القاسم وقام بشهارة وتلقب بالمنصور بالله فجهز عليه المهدى جيشاً حاصره بشهارة وانتهى أمره بالتسليم .

وفى سنة ثمان وثمانين وألف سار الإمام المهدى إلى مدينة صعدة فتلقاه أهلها وعلى رأسهم الأمير على بن أحمد بن القاسم فى محل العيون ثم تقدم إلى رحبان ودخل مدينة صعدة دخول الفاتحين واستقبله فيها أهلها بمنتهى الحفاوة والتعظيم وأقبلت عليه قبائل تلك الجهات وأذعنوا له بالطاعة .

وفى سنة تسعين وألف أمر الإمام المهدى بإجلاء اليهود عن مدينة صنعاء إلى المحل الذى أعده لهم بقاع صنعاء فباعو اما نفق من بيوتهم وخربوا مالم ينفق وخربت الكنيسة المعبد الذى كان لهم هناك وشيد الإمام مكانها المسجد المعروف الآن باسم مسجد الجلا ثم أمر الإمام بترحيل اليهود وإخراجهم من اليمن عملا بحديث «اخرجوا اليهود من جزيرة العرب» فأخرجوا إلى «موزع» فى تهامة ثم أعيدوا عندما لم يتمكن الإمام من إبلاغهم مأمنهم وقد قال القاضى العلامة الأديب محمد بن ابراهيم السحولى مؤرخا عمارة مسجد الجلا بصنعاء هذه الأبيات :

إمامنا المهدى شمس الهُدَى ... أحمد نجل القائم القاسم
له كرامات سَمَتْ لم تكن ... لهادوى قبل أو قاسم
لو لم يكن منها سوى نفيه ... يَهُودَ صنعاء أخبث العالم
وجعله بينهم مسجدا ... لساجد لله أو قائم
قد فاز بالأمر به غانما ... واتقى النار [illegible]

وفى سنة اثنتين وتسعين وألف وصل إلى الإمام المهدى وهو بحصن الغراس أمير القافلة التى كانت تسير بين صنعاء وصعدة وتمر من بلاد سفيان وشكا إلى الإمام اعتداء قبائل سفيان على قافلته واستمرارهم على نهبها فوعده الإمام بالنظر فى شأنه وإرجاع ما أخذ منه ولكن حدث بعد ذلك أن تكرر اعتداء سفيان على القافلة وأهلها الذين اضطروا إلى الدفاع عن أنفسهم حتى قتل بعضهم وقطعت يد ابن أمير القافلة فعاد بها الأمير إلى الإمام من فوره ولما وصل إلى الإمام ألقاها بين يديه وهو فى نزهته وقال له « هل هذا أمانك ؟ » فنهض الإمام من فوره غاضباً ولم يعد إلى منزله بل سار وهو يقول : الجهاد . الجهاد وأمر عساكره باللحاق به وفاجأ قبائل سفيان فى ساعة مبكرة من الصباح فى ديارها وخربها وشتت شمل رجالها وبدد أمتعتهم بل وقتل جماعة منهم وساق البعض فى السلاسل والأغلال الحديدية واسترجع منهم ما أخذوه أولاً وآخراً من القافلة وعاد إلى محل إقامته فى حصن الغراس مؤيداً منصوراً وبعد عودته من سفيان وافته المنية بهذا الحصن فى ليلة الأربعاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وتسعين وألف ويقال إنه أصيب برصاصة وهو بسفيان فى فخذه الأيمن ولكنه كتم أمرها ولم يخبر أحداً بإصابته وعندما عاد إلى الغراس كان قد انتهى الأجل ورزق الشهادة ومن آثاره عمارة مسجد الغراس وإصلاح جامع عدن وقد ترك أولاداً نجباء منهم محمد والحسين وإبراهيم واسحق وأبو طالب وعبدالله ومحسن وسوف تأتى الإشارة إلى بعضهم وقد أشار القاضى على بن صالح بن أبى الرجال إلى الأيام التى ظهر فيها الإمام المهدى قبل خلافته وبعدها وضمن بعض أبيات معلقة امرؤ القيس فقال :

لقد حلَّ فى هذا الضَّريح برَغْمنا ... إمامٌ به ليل الغواية ينجلى
إمام الهدى المهدى أفضل قائم ... وخير إمام عالم متبتِّل
ومن لم يزل يحمى الذمار بعزمه ... ويكشف عن سكانها كل مشكل
وصمر أقطار البلاد بسيفه ... ومهَّدها للقائم المتوكل

وحاصر (صنعاء) عند ذاك بجحفل ... تظلله فيه عجاجة قسطل
وسار إلى (لحج) وأطلال (خنفر) ... بكل فتىً ماضى العزيمة فيصل
فأسلحها ثم انثنى نحو صعدة ... فزحزح عنها مشكلا أى مشكل
وأمَّ بلاد (الجوف) والخوف قد طمى ... فصارت عن الخوف الشديد بمعزل
وسلَّ على الرصاص فى (النجد) صارماً ... جوانبه مصقولة كالسجنجل
فغادره يوم اللقا تحت خِدره ... كبير أناس فى بجاد مزمَّل
وفى (يافع) لم يبق للقوم نافع ... من السيف فى يوم أغرَّ محجَّل
وفى (آل فضل) لم يدع من كماتهم ... سوى هالك تحت القنا أو مغلغل
وفى (حضرموت) فلَّ حدَّ جيوشهم ... وحكَّم بيض الهند فى كل مقتل
وقاد إلى أطلال (حجَّة) إذ دعا ... بكفِّ الأيادى جحفلا بعد جحفل
ومال إلى (ذى بين) عند فسادها ... فزقهم بالسيف فى كل منهل
وفى (لأبرق) الفرد الذى شاع ذكره ... سقى القوم فى الهيجا عصارة حنظل
و (سفيان) أفناها بسوء فعالها ... بسُمْر دقاقٍ من قنى الخطِّ ذُبَّل
فما إن ترى منهم على الأرض ساعيا ... سوى موثق فى أسره أو مجندل
فأضحت مغانيهم رسوماً دوارسا ... فهل عند رسمٍ دارسٍ من معوَّل
فلما دعاه الله بالفوز بالذى ... أعدَّ له فى سعيه المتقبَّل
أجاب إلى جنات عدن مبادراً ... وفاز بقرب المصطفى خير مرسل
فان رمت ياذا الفضل تاريخ موته ... ففى الخلد للمهدى أبهج منزل

الإمام المؤيد بالله محمد بن المتوكل على الله

وبعد وفاة المهدى دعا الإمام المؤيد بالله محمد بن المتوكل على الله اسماعيل وبايعه كثيرون من أهل العلم كما دعا آخرون من آل الإمام القاسم ومنهم الحسين بن [illegible]

والقاسم بن المؤيد بشهارة وعلى بن أحمد بن القاسم بصعدة ومحمد بن أحمد بن الحسن بن المنصورة وقد انتهى الأمر بالجميع إلى العدول عن دعوتهم ومبايعة المؤيد بالله محمد بن المتوكل الذى اختار الإقامة أولاً فى صنعاء ثم سكن ضوران واختط مدينة معبر بجهران وقصده الناس فيها وكان رجلاً صالحاً سليم القلب عظيم الورع ولذلك تجرأ عليه كثيرون من آل القاسم كما انتقض عليه أهل الشرق وأخرجت قبائل يافع عامله من بلادهم ولذلك جهز عليهم الجيوش مرة بعد مرة ولكنهم لم يذعنوا وقد قتل فى بعض الوقائع فى يافع السيد الحلاحل أحمد بن محمد بن الحسين بن القاسم الملقب بحجر وانهزم جيش الإمام واضطر إلى التقهقر إلى رداع فى أسوأ حال ومات أمير ذلك الجيش المنهزم الحسين بن المهدى بتعز فقال السيد البليغ الحسين بن عبدالقادر بن الناصر موريًا ومضمناً :

وددت مصرع مولانا الحسين ولا ... الرجوع فى سلك قوم بعدما كُسِروا
فصرت أنشد من حزن ومن أسف ... (ما أطيب العيش لو أن الفتى حَجَرُ)

وفى سنة سبع وتسعين وألف فى ليلة الجمعة ثالث جمادى الآخرة توفى الإمام المؤيد بالله محمد بن المتوكل على الله اسماعيل بحمام عَلِى الشهير من بلاد آنس عن ثلاث وخمسين سنة وحمل جثمانه إلى جبل ضوران حيث دفن إلى جانب والده وكان هذا الإمام مثالاً فى الزهد والورع وكان لا يهتم بمطعمه وملبسه وبعد وفاته دعا جماعة من آل القاسم وهم الأمير على بن أحمد بن القاسم بصعدة والحسين بن الحسن بن القاسم برداع والحسن بن المتوكل باللحية ويوسف بن المتوكل بضوران والحسين بن عبد القادر ابن الناصر بن عبد الرب بن على بن شمس الدين بن الإمام شرف الدين بكوكبان والحسين بن محمد بن أحمد بن القاسم بخمر وقد أشار إليهم السيد البليغ عبدالله بن على الوزير فى ذيل البسامة بقوله :

ثم استطار شجارٌ للخلافة إذ ... سرى الخلاف كسَرْىِ النار فى الشجر
بصعدةٍ ورداعٍ واللحيةِ بل ... وكوكبانٍ وضوران وفى خَمرِ

الناصر محمد بن المهدى

وقد دعا محمد بن أحمد بن الحسن بن القاسم من المنصورة فى بلاد الحجرية وتلقب أولا بالناصر ثم بالهادى ثم بالمهدى وجمع كثيرا من المال وصال على الدعاة من آل القاسم الذين لم يظفروا بسوى الألقاب ومديده إلى أطراف البلاد اليمنية ولكن أمراء آل القاسم تألبوا عليه وجمعوا جموعاً كثيرة وحاصروه بالمنصورة وكان منهم الأمير يوسف بن المتوكل واسحق بن المهدى والأمير عبد الله بن الناصر وكان من أنصار والده أولاً ثم انضم إلى الجماعة وقد قال الفقيه سعيد بن محمد السَّمْحى فى ذلك :

يقول وقد ضاق الخناق محمد ... وحل به داعى الرَّدى والحوادث
أخ وابن صُلْب وابن عم تحالفوا ... فما تُتَّقى منهم رماح عوابث
ولو كان رمحا واحدا لاتقيته ... ولكنه رمح وثان وثالث

وكادت المنصورة أن تؤخذ عنوة بعد أن نفد الماء لدى أصحاب الناصر ودار الحديث والمفاوضة فى التسليم ولكن شاء الله أن ينهمر المطر الغزير فملأ المناهل والبقاع ولذلك رفض الناصر التسليم وخرج فى عدد يسير من أصحابه وقبض على الأمراء جميعاً وكانوا مجتمعين فى بعض الخيام وأودعهم السجون ولذلك ذاع صيته وزادت هيبته ووزع الأموال على الجيوش ووردت إليه البيعة من كل مكان .

وفى سنة ثمان وتسعين وألف خرج الناصر من بلاد الحجرية قاصدا إلى ذمار حيث حط مضاربه وعمر حصن هران واستدعى يوسف بن المتوكل وكان بضوران — فى جيش عظيم فلما وصل إلى الناصر خاطبه فى ضرورة ترك ماحدثته به نفسه من القيام بالإمامة وأمره بالرحيل إلى صنعاء فلم يجد بدا من الامتثال والخضوع للأمر وطلب الناصر زيدا ابن على الجُلُولى وكان من أصحاب الحسين بن المتوكل ومن أعوانه أيام إمارته بصنعاء فتجنى عليه الناصر وقتله وكان زيد بن على الجُلُولى مشهوراً بتبحره فى علم الفلك

والنجوم وملاحظة أحكامها فنال السيد البليغ عبدالله بن على الوزير موريا باسم الياف وكان يسمى سعدا .

من بعد ما عاينت زيدا لم أجد قول المنجم غير زور فاضح
مسراه فى سعد السعود فلم غدا من شؤمه فى كف سعد الذابح

وبعد قتله خاف من الناصر كثير من آل القاسم وغيرهم وهرب منه الحسين بن المتوكل إلى صعدة وتبعه الأمير الحسين بن عبد القادر فى آخرين وحاولوا تحريض أمير صعدة على بن أحمد بن القاسم على أن يقوم بمحاربة الناصر ولكنه لم يلب نداءهم ولم يستمع لهم فساروا إلى مكة وقامت بين الناصر وعمه الأمير الحسين بن الحسن حروب وكوارث انتهت بالقبض على عمه الحسين من بلاد رداع وإيداعه السجن فى كوكبان كما أن الناصر قبض أيضاً على يوسف ابن المتوكل بعد أن همّ بالدعوة مرة ثانية .

وفى سنة إحدى ومائة وألف أعاد الناصر تجهيز حملة على يافع وجعل قيادة الجيوش لجابر بن خليل كبير همدان الذى سار إلى العِرّ من بلاد يافع فانهزمت يافع فى أول الأمر ثم واتاها الحظ فانهزم أصحاب الناصر وعاد ابن خليل إلى بلاده ولما خاف عتاب الناصر أظهر الخلاف والعصيان فهزمته جنود الناصر وقبض الناصر عليه وقتله وفى هذا العام وصل إلى الناصر الشريف أحمد بن غالب وكان من أمراء مكة المشرفة جاء إلى اليمن غاضبا من بعض أمراء مكة فولاه الناصر تهامة الشامية ولما وصل إلى اللاحية خاف الحسن بن المتوكل عاملها أن يكون الناصر قد قصد بإرسال الشريف أحمد بن غالب القبض عليه ففر بأهله إلى مكة وقد قال الفقيه سعيد السَّمْحى فى ذلك :

قد أوحش اليمنُ الأنيسَ وما بقى فى أهله أنسٌ ولا سَلْوان
وقد شجتنا غربة الحسن التى طارت به وبأهله الغِرْبان(١)

وفى سنة ثلاث ومائة وألف اغتنم أمير صعدة على بن أحمد بن القاسم فرصة اشتغال الناصر ببلاد يافع فجمع قبائل بلاد صعدة وسار بهم إلى صنعاء لحرب الناصر فهزمه

(١) كانت بعض المراكب البحرية تسمى بالأغربة .

أصحاب الناصر شر هزيمة ثم قصده الناصر بعد أن ولى أولاده قيادة الجنود وتقدموا إلى صعدة فخرج منها الأمير على بن أحمد ولجأ إلى حصن أم ليلى فى بنى جماعة ولسان حاله يقول :

حمانا حمى ليلى فمن يأته يمتْ وإلا فلا كان الحما ولا كنا

وقد تولى أمراء الناصر أياماً على بلاد صعدة حتى سئم أهل البلاد من شدة الوطأة الناصرية فثاروا على أولاد الناصر وأخرجوهم من بلاد صعدة وكان من بين هذه الكوارث قتل الأمير إسماعيل بن الناصر بمحل العيون فى جنوب مدينة صعدة وقد قال فيه القاضى البليغ على بن محمد العنسى موريا :

راح قتيلا بالعيون الضيا وذاق فيه الموت ريب المنون
لهفى له من مُغْرَم بالعلا يامُغْرَماً صار قتيل العيون

فتح جزيرة زَيْلَع

وفى سنة سبع ومائة وألف تلقب الناصر بالهادى وفيها أيضاً جهز إبراهيم باشا من المخا لفتح جزيرة زيلع الكائنة فى بحر العرب فى الجنوب الغربى لعدن فدخلها وشيد فيها قلعة عظمية ومسجداً وبنى حولها سوراً وقد حمل الهادى إليها أربعة مدافع فصارت بندراً يقصده التجار وكان يجلب منه الرقيق إلى المخا .

وفى سنة تسع ومائة وألف غيّر الإمام لقبه الجديد بلقب المهدى وعين وزيراً له الشيخ صالح الحُرَيْبى صاحب الحجرية بعد أن نحى عنها الشيخ أحمد راجح الكينعى وكان الحريبى هذا ممن آزروا المهدى فى حرب المنصورة فحفظ له المهدى هذا الجميل .

وكان المهدى قد اختط مدينة الخضراء وهى على مسافة ميل من مدينة رداع فبنيت بها الدور والقصور وأنشئت بها المساجد والأسواق والحمامات وكثرت فيها الصناعات التى كان يعمل فيها العرب والهنود والأتراك وقد سكنها المهدى أياماً ثم عرض له مرض

بها فتركها وعمر مدينة المواهب إلى الشرق من مدينة ذمار وعلى ثلاثة أميال منها وكان موقعها حسناً تحيط به الأنهار والآبار وقد شيدت بها دور عظيمة وانتقل إليها المهدى حتى أقفرت مدينة الحضراء وتهدمت منازلها .

إخماد فتنة الساحر المَحَطُورى

وفى سنة إحدى عشرة ومائة وألف فى شهر رجب حدثت أولى فتن الساحر المحطورى واسمه ابراهيم بن على بن حسن المَدْوَمى من ذرية الإمام القاسم بن على اليمانى وقد ظهر الرجل من قرية مَحَطُور من بلاد الشرف وكان قد أفنى حياته فى حفظ الرواتب وعمل التمائم والطلاسم حتى اعتقدت فيه العامة وصدقت خزعبلاته وتابعته فعمل كثيراً من الجرائم وقتل أصحابه القاضى العالم الحسين بن ناصر المهلا وكان بمحل النُّجْعة من الشرف كما وصل بعض أصحابه إلى ثلا وآخرون منهم إلى بندر الصَّلَبة وإلى وادى مور وانتشر أمره انتشاراً عظيماً ودب الرعب والهلع فى نفوس الناس الذين كانوا يعتقدون بأن رصاص البنادق لا تؤثر فى أجسام أصحابه وقد أشفق أصحاب المهدى من أخبار الإمام بشىء من هذه الأخبار خوفاً عليه بالنسبة لمرضه ولكن لما استفحل أمر هذا الساحر وأصبح من الخطر بمكان اضطروا إلى إخباره فقام وقعد لهذا الحادث وأمر بحشد الجنود وولى أولاده قيادتها وبذل كل ما استطاعه من جهد ومال لإخماد هذه الفتنة وكان أول نصر أحرزه الإمام أن إمرأة بثلا أسقطت شرفة من شرفات بيتها على بعض أصحاب الساحر فقتلتهم وعندئذ أدرك الناس خطأ اعتقادهم وعرفوا أن الحجارة تؤثر فى رجال الساحر فأخذوا يرمونهم بها ولما توالت على الساحر وأصحابه الهزائم فرَّ هارباً إلى صعدة حيث قبض عليه الأمير على بن أحمد بن القاسم فى شوال وأمر العلماء ببذل النصح له ولكنه لم يصغ لكلامهم فحكموا باستحلال دمه وقتل فى ذى القعدة من السنة نفسها ولقد اشتهر أمر هذه الفتنة وطار صيتها فى الأقطار وقيلت فيها أشعار كثيرة من ذلك مقالة السيد البليغ عبدالله بن على الوزير :

فى رجب داعٍ دعا ... إلى فساد وتلف
يابئس ما قدمه ... من القبيح واقترف
وفتكه بالعلماء ... وكل من له شرف
ووصفه قد جاء فى ... تاريخه شر الشرف

وفى سنة ثلاث عشرة ومائة وألف وفد إلى المهدى الشاه حسين بن سليمان رسولا من قبل الشاه عباس ملك إيران فى حاشية كبيرة وكان المهدى قد أمر قبل وصوله بتزيين المدائن وألزم العمال باستقبال الوفد الفارسى بالأعلام والطبول وعندما اقترب الوفد من مدينة المواهب صُفَّت الخيول فى ميدان المواهب وفرشت أرضية الميدان بالمفارش ووقف إلى جانب كل حصان فارس من العبيد واستعد المهدى لاستقبال الوفد فى ديوان داره ولبس الملابس البيضاء كما عقد مجلسا حضره العلماء والأدباء وعظماء رجال الدولة وعند وصول الوفد أنشد شاعر الحضرة السيد أحمد بن أحمد الآنسى المعروف بالزَّنمة قصيدة مطلعها :

نعم هذه نُعْمٌ وذا السفح نَعْمان ... لِيَهْنِ كليم الشوق حسنٌ وإحسان
سقى الله أياما تقضت لنا به ... وللهو أوطار تقضى وأوطان

وقد جاء فيها فى مدح المهدى :

وتركك لبس التاج زهدا وعفةً ... إذا افتخرت بالتاج كسرى وخاقان
وما زانت(١) البدرَ الثريا بتاجها ... ولكن به تزداد نورا وتزدان
وأنت الذى تُوِّجت بالمجد لا بما ... تتوجه من قبل دارا وساسان
عليك من الفضل المعمم عمامةٌ ... تخر لها من آل ساسان تيجان

قال مؤلف «طيب أهل الكساء» ما معناه أن الآنسى عندما أنشد هذا البيت نكس العجم تيجانهم إعظاما للمهدى وأن المهدى خلع عليه خلعة سنية بعد أن فرغ من إنشاد قصيدته واعترف له زعامة الأدباء وقد قدم الوفد للمهدى هدية عظيمة من ملك

(١) أى ما غلبته فى الزينة وفاعل للمغالبة .

العجم وبقى فى ضيافة المهدى فى بُستان المواهب أياماً وعند عودة . الوفد أرسل المهدى معه هدية فاخرة للشاه عباس منها سبعون فرسا مسرجة وعاد الوفد من طريق المخا .

وفى سنة أربع عشرة ومائة وألف أوفد سليمان باشا صاحب جدة أخاه أحمد أغا إلى المهدى فوصل فى حاشية كبيرة ومعه هدية سنية من الخيول والأسلحة فأكرم المهدى وفادته وأعطاه نفائس التحف ومبالغة فى إكرامه تبارز معه فى الميدان وأهداه بعد المبارزة خنجراً مرصعاً بالجواهر الكريمة وهو مما أهداه له الشاه وبعد انقضاء مدة الزيارة أظهر أحمد أغا رغبته فى دخول مدينة صنعاء فأجابه المهدى إلى ما طلب وكتب إلى عامله بصنعاء الأمير يوسف بن الحسين بن المهدى أحمد بن الحسن طالبا منه أن يقوم بما يلزم لإكرامه فأنزله العامل فى داره بصنعاء ودعاه إلى مجلس حضره العلماء والأدباء وأنشد فيه السيد البليغ عبد الله بن على الوزير قصيدة مطلعها :

شرفتمونا يا بنى يافث ... لله هذا الموقف الأشرف
صنعاء لكم مصر القديم الذى ... سمى به التخت الذى يوصف
وانعطفت عن غيركم جدة ... ولان منها لكم المعطف
فأوقفتنا من ذراكم على ... أكابر يزهو بها الموقف
قد أتحفوا حضرة مهدينا ... من تحف الملك بما أتحفوا
فصادفوا من سَرْحه جَنَّةً ... آن جناها ودنا القِطْف
عند إمام تاجه بُرْدَةٌ ... يُزْمى لديها التاج والمِطْرف
شرفتموا صنعاء وأحسنتم ... ونلتم من كل ما يَشْرف
صنعاء فى القطر اليمانى غدت ... مصر وهذا مَلِكُها يوسف

إلى آخر القصيدة وهى من غرر الشعر .

وفى سنة عشرين ومائة وألف بعد أن توالت هزائم جيش آل القاسم فى بلاد يافع خرج عمر بن صالح بن هَرْهَرَة بقبائل المشرق إلى مدينة إب قاصداً النكاية للفقيه محسن

الحبيشى وزير المهدى وكان ساكنا بها وكان يقابل كتب ابن هَرْهَرة بالتسفيه فعاثت قبائل المشرق بمدينة إب ولما بلغ المهدى هذه الأخبار شن الغارات على قبائل يافع وجهز عليهم جنوده وأنزل عقابه الصارم بالفقيه محسن الحبيشى الذى نهبت أمواله وكانت جسيمة تشتمل على الكثير من النفائس وقد عزل المهدى وزيره الشيخ صالح الحِرَيْبى بعد ما اتهمه بمخالفة أوامره فى سياسة قبائل همدان حتى انخذلوا فى حرب يافع وساروا إلى بلادهم وأرسل المهدى ابن أخيه الأمير الجليل القاسم بن حسين إلى مدينة خمر لتأديب قبائل همدان لانهزامهم فى يافع فكانت بينه وبين رئيس قبائل بكيل صالح ابن هادى حُبَيْش خلاف أدى إلى قتل ابن حبيش فى دار القاسم بن حسين بخمر وقد قال فى ذلك السيد البليغ عبد الله بن على الوزير أبياتاً منها :

قَسَمٌ أكده لام القسم ... ما العلا إلا حظوظ وقِسَم
قسم الله بتقدير ولا ... يظلم الله فيما قد قسم
هاجت النوغا بما همت به ... من أمور قَصُرت عنها الهمم
حرمت أطماع قوم نصبوا ... أمرهم فى نظم شمل ما انتظم
فانتظى فى خمر سيف القضا ... نحو رأس قَطَّه مثل القلم
أسد المهدى حامى سَرْحه ... ركنه تيَّار علياه الخِضَم

المنصور بالله الحسين بن القاسم بن المؤيد

وفى سنة سبع وعشرين ومائة وألف دعا المنصور بالله الحسين بن القاسم بن المؤيد بالله محمد بن القاسم من جبل شهارة لما كثرت تخبطات المهدى وأصر أصحابه على جمع الأموال بغير قانون الشرع وأجابت المنصور بعض القبائل اليمنية كما ناصره أمير البلاد الكوكبانية محمد بن الحسين بن عبد القادر والأمير عز الدين القُطْبى صاحب أبى عَرِيش

وأمير بلاد سعدة الحسين بن على بن أحمد بن القاسم ولذلك بعث المهدى جنوده وأمراءه لمحاربة المذكورين واستطاعوا القبض على الشريف القُطبى بعد حصاره وعندما أوصلوه إلى المهدى أمر بقتله فقتل بالمواهب وكان الذى تولى قتله هو الأمير بَخِيْت الذى عوقب وقتل فيما بعد وقد قال الأديب أحمد بن الحسين الرُّقَيْحى فى ذلك :

سرى بَخِيْتٌ إلى ذرى مِدَع فجاذبته بهـا يد العطب
دارت رحى مكره عليه كما أدارها سالفا على « القُطبى »

وما زال أمر المهدى بعد قتل الشريف القطبى فى انحطاط وتدهور حتى صارت أكثر البلاد اليمنية فى يد المنصور وكان المهدى قد حبس ابن أخيه القاسم بن حسين فأشار وزراء المهدى عليه بإطلاق سراحه وتقديمه لمعارضيه وكان محمود النقيبة منزل المهدى عند رأيهم وأخرجه من سجنه وتلطف معه وأحسن له القول وقال له إنك أنت المُعَدّ للمهام الجسام ولا عذر لك عن التوجه لسد هذه الفتوق فأجاب المهدى على شروط منها استدعاء ابراهيم بن المهدى من صنعاء وكان واليا عليها من قبل أبيه وأن يعطى من الخيل والسلاح مطلبه وبعد تقدمه وخروجه من لدن المهدى رأى بعض الوزراء النصح للمهدى بعدم الاعتماد عليه ونصحوه بضرورة ارجاعه فسمع المهدى لنصحهم وطلب رجوع القاسم بن حسين ولكن هذا أبى وبدت الوحشة بين المهدى وابن أخيه القاسم بن حسين فبايع القاسم بن حسين المنصور بالله الحسين بن القاسم بن المؤيد كما أخذ له البيعة من كثير من العلماء وصارت صنعاء وعمران وحجة وغيرها من المدن تحت يده فولى الولايات وأمر بسك النقود فى صنعاء باسم المنصور ولذلك تعطل دخل المواهب من الضرائب وقد بايع المنصور السيد العلامة محمد بن إسحاق وإخوته وزاد الشر بين القاسم بن حسين وعمه المهدى فجهز القاسم بن حسين الجنود وزحف بها على المواهب وحاصرها وكان مقدمة الجيش أمير البلاد الكوكبانية محمد بن الحسين ولذلك اضطر المهدى إلى طلب الصلح وبايع المنصور بالله .

المتوكل على الله القاسم بن حسين

وفى سنة ثمان وعشرين ومائة وألف دعا القاسم بن حسين إلى لنفسه فى مدينة صنعاء وتلقب بالمتوكل على الله وبايعه كثير من العلماء والرؤساء فضعف أمر المنصور بالله الحسين وتحرك المهدى من المواهب لحرب ابن أخيه القاسم بن حسين فجمع القاسم القبائل وحاصر بهم المواهب مرة ثانية ودام الحصار حتى توفى المهدى فى شهر رمضان سنة ثلاثين ومائة وألف بالمواهب وقيل فى تاريخ وفاته .

أرى رب المواهب بعد غَلْب وعظم مصائب وهوان بخس
يقول خـلافتى زالت وإنى بعام أرخـوه قتلت نفسى

وكان مولده فى جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وألف وكان مشهوراً بحبه لجمع الأموال وبالتحول والتقلب كما كان سخياً محظوظاً سريع البطش بكل من حدثته نفسه بمناواته وقد سبقت الإشارة إلى بعض آثاره وخلف من الأولاد يوسف بن المهدى والصادق وابراهيم وعبد الرحمن وعبد الكريم واسحق والمطهر وبعد وفاته انتقل كثير من أعوانه وخدمه إلى خدمة المتوكل على الله القاسم بن حسين .

وفى سنة إحدى وثلاثين ومائة وألف توفى المنصور بالله الحسين بن القاسم بن المؤيد ودفن بشهارة وبايع العلماء بشهارة أخاه الحسن بن القاسم الذى تلقب بالهادى ورجع عن دعوته بعد أن صالحه المتوكل على الله القاسم بن حسين .

الإمام الناصر محمد بن اسحق

وفى سنة خمس وثلاثين ومائة وألف دعا الإمام محمد بن اسحق بن المهدى أحمد بن الحسن بن القاسم فى بلاد أرحب وتلقب بالناصر وسار إلى شاطب من بلاد سفيان حيث بايعته بعض القبائل ثم تم التوفيق بينه وبين المتوكل على الله بمساعى السيد

العلامة البدر محمد بن اسماعيل الأمير والسيد العلامة أحمد بن عبد الرحمن الشامى وبعد الصلح رجع الناصر عن دعوته وبايع المتوكل على الله القاسم بن حسين .

وفى سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف أكثر رجال قبائل ذيبان من أرحب من الاعتداء والسلب والنهب فى الطرقات وكانت منهم جماعة بصنعاء قد اتفقت على احداث فتنة فى المدينة ونهب سوقها فى يوم الجمعة سابع شوال من هذه السنة وبعد أن فرغ الإمام من صلاة الجمعة وعرض الجنود فى ميدان القصر أطلق رجال أرحب رصاص بنادقهم نحو باب القصر فأمر الإمام بقتلهم وبرز هو بنفسه بين الصفوف وحملت عليهم الفرسان كما ضربت القوة التى كانت بالقصر رصاص بنادقها إلى ظهورهم وأمر الإمام بحراسة شوارع المدينة وطرقاتها وإغلاق المنازل واستمر القتال إلى الليل حيث صارت الفئة الباغية المتمردة بين قتيل وأسير وسقط بعض أفرادها من سور المدينة وقال القاضى البليغ على بن محمد العنسى فى ذلك هذه الأبيات :

ألا هكذا فليحفظ الملك حافظ ... ألا هكذا فليحرس الدين حازم
ثعالب حبّار تداعت لحتفها ... لها الويل حتى مزقتها الضراغم
سروا يستحثون الركاب ليغنموا ... فأمسوا وهم للمرهفات غنائم
فجاؤك يبغون الحبا فحبوتهم ... وكانت على قدر الكرام المكارم
مطارف أما لونها فموردٌ ... تشاركها فيه الخدود النواعم
ولكن تولت نسجها وطرازها ... طوال العوالى والحداد الصوارم
نثرت دنانير الوجوه على الثرى ... كما نثرت فوق العروس الدراهم
أبو غانم أعطيته الأمن بعدما ... تغنمه الجيش الأجش المصادم
فسُر بما أعطيت لا عن جهالة ... ولكن مغنوما نجا منك غانم
أعدت أزالاً طِنْلَةً حلوة اللمى ... وقد طال منها عمرها المتقادم
خشيت عليها البين حين تركتها ... ومن جثث القتلى عليها تمائم

وقد خفيت منهم عن السيف فرقة ... وخان الخواف فى الفرار القوادم
فشاجرت البيضُ السلاسلَ فيهم ... فأصلحت والإصلاح للشر حاسم
قسمت لها الباقى وللسيف ما مضى ... بعدلٍ لهـــذا قيل انك قاسم
وقوفك ما بين الخميسين باسماً ... وموج المنايا والردى متلاطم
أقرّ من الدين الحنيفى عينه ... فلله هادٍ منك للبغى هادم
ألا فاتبع الرأس الذى جُثّ عنقه ... لهم ذنباً فالله بالقتل حاكم
بسفك الدماء حقن الدما فدع الظنا ... تردها حياضاً والأنوف رواغم
لصوص سعت فى الأرض تبغى لسعيها ... فسادا وأعيا شرها المتفاقم
ورُبَّ جهول القلب لا يعرف الهدى ... ومعناه إلا والسيوف التراجم
ولست مليكا هازماً لنضيره ... ولكنك التوحيد للشرك هازم

وفى سنة تسع وثلاثين ومائة وألف طلبت قبائل أرحب إلى حاشد وبكيل الانضمام إليها لأخذ الثار ومحو العار الذى لحقها فأجابتها القبائل وسار على بن قاسم الأحمر رئيس حاشد وناصر بن جزيلان رئيس بكيل إلى عمران واجتمعا بالحسين بن الإمام وحسّنا له الانضمام إليهما ونزلت قبائل أرحب بالروضة وعاثت فى الأرض فساداً وتقدم آخرون إلى غربى صنعاء ؟ فجهز الإمام عليهم جيوشه وخرج إلى باب المَنْجَل غربى صنعاء بعساكره لقتالهم ثم توسط السيد العلامة البدر محمد بن اسماعيل الأمير فى الصلح وعاد الحسين بن الإمام مع القبائل إلى عمران .

الإمام المنصور بالله الحسين بن القاسم

وفى شهر شعبان من هذا العام توفى الإمام المتوكل على الله القاسم بن حسين بصنعاء ودفن فى قبة باب السَّبَحَة ومن آثاره زيادته فى جبّانة مدينة صنعاء وعمارة جامع حدّة جنوب صنعاء وقد قام بعده ابنه الحسين بن القاسم وتلقب بالمنصور بالله ـ كما دعا أيضاً

المولى محمد بن اسحق من ظفار وتلقب بالناصر وانضم إلى آل اسحق الأمير أحمد بن المتوكل وكان واليا على تعز من أيام أبيه .

وفى سنة أربعين ومائة وألف تجمعت قبائل همدان من حاشد وبكيل بقيادة على بن قاسم الأحمر وناصر بن جزيلان ونزلت فى محل عصر غربى مدينة صنعاء وأظهرت مناصرتها وتأييدها للناصر محمد بن اسحق وكتب على بن قاسم الأحمر إلى المنصور بالله الحسين كتابا أغلظ فيه القول وطلب مقابلة المنصور فأضمر المنصور الفتك به وأمر بعض مماليكه بالاستعداد لذلك وكان منهم الأمير ذو الفقار وخرج إليهم وقد لبس الدرع من تحت الثياب ولما استقر بخيمته جاء إليه على بن قاسم الأحمر وابن جزيلان ولم يتم تنفيذ التدبير فى اليوم الأول وفى اليوم الثانى جاء على الأحمر إلى خيمة الإمام ومعه أحمد بن محمد حُبَيْش فنهض الإمام للعب بالخيل ولما أراد على بن قاسم الأحمر الخروج من الخيمة فتك به ذو الفقار وحز بعض المماليك رأسه فتناوله الإمام المنصور وجعله على الحربة ومضى به نحو مدينة صنعاء فى جماعته على ظهور الخيل ولكن أصحاب على الأحمر أمطروهم وابلا من الرصاص فقتل من أصحاب الإمام وزيره القاضى حسين بن أحمد الحيمى فحمله أولاده إلى صنعاء وتلقى أهل صنعاء الإمام بأعظم مظاهر الحفاوة والإكرام وعاد ابن جزيلان وسائر القبائل إلى بلادهم مقهورين .

وفى سنة أربع وأربعين ومائة وألف غدر الفضل بن على العبدلى بعامل الإمام فى لحج فقتله فى جماعة من أصحابه ودخلت قبائل يافع إلى قَعْطَبَة بمخادعة بعض أهلها ولذلك جهز الإمام قبائل همدان من حاشد وبكيل على العبدلى فدخلوا مدينة لحج وخرج منها العبدلى ولكنه لجأ إلى سيف بن قحطان بن مَعُوضة بن العفيف صاحب يافع وطلب إليه أن يمده بالرجال لمقاتلة أصحاب الإمام وإخراجهم من لحج وعدن ومازل يعمل على ذلك بكافة الوسائل حتى استطاع إخراجهم من لحج وعدن وتداولت العبادلة إمارة لحج من ذلك التاريخ قال لطف الله جحاف فى تاريخ الحوادث « إن العبدلى لم يتظاهر بخلع

طاعة الإمام ولا ترك الدعاء له فى صلاة الجمعة » .

وفى سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف وقع خلاف بين المنصور بالله الحسين وأخيه الأمير أحمد بن المتوكل صاحب تعز وتفاقم الشر بينهما وكان من أثر ذلك انقطاع المواصلات حتى قال الفقيه أحمد بن الحسين الرقيحى موريا :

صنوان قد سُقِيا بماء واحد ... والفضل خال عن كلا الأخوين
جرحا قلوب المؤمنين فما لها ... من مرهم إلا دم الأخوين

ثم كان الصلح بينهما بوساطة السيد العلامة البدر محمد بن اسماعيل الأمير الذى سار إلى تعز وأقام بها ثلاثة أشهر وأصلح أيضا بين المنصور وآل اسحق ودخل المولى محمد بن اسحق مدينة صنعاء وأقام بها ثم كان التخفيف عن إخوته والإفراج عنهم بعد أن كان المنصور قد أسرهم وحبسهم .

الإمام المهدى لدين الله العباس

وفى سنة إحدى وستين ومائة وألف فى شهر ربيع الأول توفى الإمام المنصور بالله الحسين بصنعاء ودفن بجوار مسجد الأبْهَر وكان مولده فى محرم سنة سبع ومائة وألف ومن آثاره ما أدخله من الزيادة فى مسجد الأبهر وخلف بضع عشرة من البنين . وقد دعا بعده ابنه العباس وتلقب بالمهدى لدين الله فبايعه العلماء والأعيان كما لبى دعوته أهالى الجبال والتهائم وأرسل عمه الأمير محمد بن على بن الحسين بن المهدى فى طائفة من الجنود إلى بلاد تعز لإخراج قبائل بكيل من اليمن الأسفل فنزلوا على حكمه وأرسل السيد العلامه محمد بن اسماعيل الأمير السالف الذكر إلى تعز للإصلاح بينه وبين عمه الأمير أحمد بن المتوكل فنجح فى مهمته وتم له ما أراد وقد حدث فى أوائل خلافة الإمام المهدى أن اختلف معه أمير البلاد الكوكبانية السيد العلامة أحمد بن محمد بن الحسن

ابن عبد القادر ثم تم الصلح بينهما بواسطة شيخ الإسلام القاضى يحيى بن صالح السحولى .

فتنة الساحر المسكنى بأبى علامة

وفى سنة أربع وستين ومائة وألف ظهر الساحر أحمد الحسنى المسكنى بأبى علامة من الشرف واتبعته جماعة من العامة وعظم أمره وكان يدعى معرفة الطلاسم وسرعان ما انتشر أصحابه فى جميع البلاد وخربوا الكثير من الحصون التى كانت بأيدى مشايخ حاشد وبكيل وأخرجوا من كان بها من الجنود والحراس ودخلوا فى بلاد الإمام المهدى فجهز عليهم جنوده كما أرسل السيد العلامة عبد القادر بن أحمد إلى الشرف للاطلاع على حقيقة الأحوال ولمعرفة أمر الساحر المذكور وإرشاد الناس وتحذيرهم منه ثم خرجت إلى الساحر قوة كبيرة من قبائل قحطان من عسير وقاموا بنصرته أولا ثم تآمروا على قتله فقتله واحد منهم وأرسلوا برأسه إلى الإمام المهدى .

وفى سنة سبع وستين ومائة وألف توفى المولى محمد بن اسحق بن المهدى أحمد ابن الحسن بن القاسم وكان من كبار أهل العلم والأدب وله ديوان شعر مشهور ومن لطيف ذلك البيتان المشهوران فى القول بالموجب وهما :

رأيت الزُّمام فقلت المرام ... تأتى سينقاد هذا الأبى
فقالت به أنت تنقاد لى ... وتم الكلام ولم تكذب

وقد شرحهما المولى العلامة عبد القادر بن أحمد فى رسالة سماها « دُرَر النظام ببيتى الزُّمام » وذكر ما فى البيتين من النكات البيانية والبديعية وقد خلف أولادا نجبا منهم السيد العلامة اسماعيل بن محمد مؤلف كتاب « الفواصل » فى أصول الفقه ومنهم أحمد بن محمد وابراهيم بن محمد وقد ازدان القرن الثانى عشر وما بعده بالعلماء والأدباء من آل اسحق وقد ألم مؤلف كتاب « نفحات العنبر » بذكر الكثيرين منهم .

وفى سنة ١١٦٩ سار السيد العلامة عبد القادر بن أحمد بن عبد القادر بن الناصر بن عبد الرب بن على بن شمس الدين بن الإمام شرف الدين إلى جبل برط مناضبا للمهدى عباس لما أحس بالتبعة من أجل الديون التى لزمته أيام مهاجرته بمكة وكان يظن أن المهدى يقضى ذلك عنه من بيت مال المسلمين لأنه أنفق الأموال فى وجوه البر فلم يفعل وكتب إلى المهدى هذه الأبيات الحماسية

إن نسل الجديل قد ملأ الأر ... ض كذا نسل شدقم فى العنيس
فعلام المقام والظلم قد عمّ ... جميع الدُّنا بلا تلبيس
ثكلتنى أمُّ الفضائل إن لم ... أنصر الحق بالكُماة الشُّوس
اجعل السَّبع بالقتام ثمانا ... وأزيد الأرضين أرض رؤوس
بشعوب تفنى شعوبا إلى أن ... يصبحوا مثل طَسْم أو كجديس
فكأنى بالرؤوس قد آن أن تحصـ ... ـد إذ اينعت بيوم وطيس
يوم حرب ينسى نه كل يوم ... مثل يومى حليمة والبَسُوس
فهى عادات طار فى وتليدى ... وجدودى سادات كل رئيس
وبنيهم أسْد الوغى من كفتهم ... سُمْرُهم عن عَرِينهم والخميس
المقيمى قناة دين رسول الله ... بالكسر للقنا فى الرؤوس
بصباح الصفاح ينزاح عنها ... ظلم الظلم لا بحَيْس الحَيْس

ثم جنح إلى المسالمة وأخيرا طلبه المهدى وأكرمه وتصدر للإفتاء والتدريس ونشر السنة وكان إمام عصره فى العلوم .

وفى سنة اثنتين وسبعين ومائة وألف خرجت طائفة كبيرة من برط من قبائل ذى غيلان بقصد السلب ونهب أموال الرعية باليمن الأسفل ولما وصلت إلى بلاد جهران فى الجنوب من مدينة صنعاء وعلى نحو مرحلة منها اهتم الخليفة الإمام المهدى العباس بالأمر وجهز جيشا بقيادة الأمير الماس المهدى لمحاربتها وأدركها فى محل المَدارة من جهران

فتكل بأفرادها وقتل منهم جماعة وأسر جماعة أخرى من رؤسائها وقطع نحو ستين رأساً من رؤسا قتلام ووصل بها إلى صنعاء بعد صلاة الجمعة فكان ذلك نصراً للدين وردعا للباغين والمفسدين وقد قال السيد البدر محمد بن اسماعيل الأمير بعد أن قص هذه الحادثة فى بعض مجموعاته : وكنت قلت هذه الأبيات تهنئة للإمام لعلمى بأنه جهاد فى سبيل الله باتفاق الأنام :

هل أهنيك أم أهنى المعالى ... أم أهنى أيامنا والليالى
أم أهنى الأكوان فهى جميعا ... فى سرور ولذة واختيال
شمس نصر قد أطلق الله فى أفـ ... ـق المعالى فنورها مثلالى
الإمام العظيم ذى الأمر والنهى ... قرين الإسعاد والإقبال
من بنى حصن مجده بسيوف ... وخيول وبالرماح العوالى
وتسامى لنيل مالم ينله ... غيره قط فى القرون الخوالى
برطٌ ما أتى بها من قتيل ... أو أسير فى عمرنا المتوالى
حسبوا أن مجدهم سور ياجوج ... وماجوج مانه من زوال
فأتاه الإمام بالماس حتى ... خرق السور فهو مثل الرمال
إنما الماس خاتمٌ فى يد الملك ... وسيف عند التحام القتال
سخر الله للإمام أناسا ... يصدمون الأبطال بالأبطال
وإذا سخر الإله سعيداً ... لسعيد بنال أعلى منال
هكذا هكذا السعادة تأتى ... بالذى لايمرّ يوماً ببال
من يظن الأسود من برط يأ ... تون أسرى يمشون فى الأغلال
ورءوس الرءوس طى شبيك ... حملوها على ظهور الجمال
كم أباحوا من كل ماحرم الله ... وكم أيتموا من الأطفال
كم وكم من محارم هتكوها ... واستباحوا النفوس بالأموال

ولهم يعبثون بالناس دهراً ... بقبيح الأفعال والأعمال
هى عندى ستون عاماً تباعاً ... ولهم جُنّة من الإمهال
هتك الله بعد ذا جُنّة الامم ... ال عنهم لما طغوا فى الفعال
هكذا عادة الإله على الخلق ... بطيل الامهال لا الاهمال
فإذا لم يكن رجوع إليه ... بخضوع وذلة وابتهال
جرعتهم يد القادير كاساً ... من عذاب وذلة ووبال
فأرى الذل قد تدلى عليهم ... من إلهى ذى العزة المتعالى
فأذقهم كاس الحِمام وزدهم ... ذلة بعد هذه فى نكال
ولك النصر قد توالى من الله ... تعالى فاشكره فى كل حال
وعلى المصطفى تدوم صلاة ... وسلام وآله خير آل

وفى سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف سول الشيطان للقضاة من بنى العنسى الساكنين بجبل برط أن يكتبوا إلى العلماء بحوث وكوكبان وذمار وغيرها كتبا ورسائل ساقطة تدل على جهلهم وغباوتهم وطيش أحلامهم وطلبوا من المرسل إليهم الانضمام إلى حزبهم وحرضوهم على الخروج على الدولة القاسمية لأن أهل صنعاء أصبحوا يخالفون مذهب أهل البيت ويغيرون فيه بما أدخلوه عليه من البدع وقالوا فى هذه الرسائل إن السيد محمد بن إسماعيل الأمير هو الذى غير مذهب أهل البيت حيث أخذ بعض أتباعه يرفعون أيديهم ويضمونها فى الصلاة كما طلبوا إخراجه من صنعاء فرد عليهم علماء حوث وكوكبان وذمار وأوضحوا لهم سفه عقولهم وأنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه وفيما اعتقدوا أنه بدعة من ضم الأيدى ورفعها والتأمين وقالوا لهم إن ذلك هو مذهب كثير من علماء أهل البيت ومنهم الإمام زيد بن على وحفيده الإمام أحمد بن عيسى بن زيد وغيرهما وأكدوا لهم أن ذلك ثابت من السنة النبوية وأن السيد محمد بن اسماعيل الأمير مجتهد وكل مجتهد مصيب ولما بلغ السيد محمد بن اسماعيل الأمير خبرهم رد عليهم بقصيدة طنانة أبطل فيها

مزاعمهم وذكر فيها مشايخه وإصلاحاته الدينية وهذا مطلعها :

بحمدك يارب الخلائق أبتدى ... بحمد جزيل مَرْمدىّ مؤبّد
وشكر كثير للإله مصليا ... على أحمد المختار والآل عن يد
رأيت كتابا فيه كل عجيبة ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود
وسوّد فيه كاتبوه مقالة ... يُسَوّ منه وجه كل مُسَوّد
جهول بأولاد البتول وحيدر ... يقول ومن ذا ابن الأمير محمد
أنا الشمس فى جو السماء منيرة ... بها يهتدى من شاء ربى ويقتدى
أنا هاشمى فاطمى ونسبتى ... إلى حسن سبط الرسول محمد
ومذهبى التوحيد والعدل لا سوى ... وهذا لعمرى دين كل مُوَحِّد
فنحن بنى الزهراء وأبناء حيدر ... ورثنا العلا عن كل عال مُمَجَّد
لجدى خير الرسل أحمد من به ... البراق سرى ليلاً إلى خير مقعد
ووالدى المولى الأمير ابن حمزة ... عماد الهدى حتف على كل معتدى
إمام جهاد دوّخ الأرض كلها ... وصب دم الأعداء فى كل فدفد
وقد فتحت صنعاء بأسياف جدنا ... وأهلك فيها كل باغ ومفسد
سل المهجم المعروف من ذا أباحه ... وأخرب فيه كل قصر مشيد
ومع صنوه المنصور أفضل قائم ... من الآل واسأل كل هادٍ ومهتدى
أمام الهدى عبد الإله بن حمزة ... ومن فى ظفار فاز فى خير مشهد
هو الجبل البحر الذى بعلومه ... جميع الورى ما بين مفتٍ ومنتدى
وفى سفح كُحْلانٍ غدا قبر جدنا ... وزواره فيه تروح وتغتدى
أولئك آبائى إذا كنت جاهلاً ... ونحن بنوهم سيداً بعد سيد
ورثناهم علماً وزهداً وسؤدداً ... وسل من تشا ياجاهلاً أصل محتدى
ورثت علوم الآل طرًّا وبعدها ... حفظت بحمد الله سنة أحمد

ودرّست فى العلمين أعلام عصرنا ... فكلٌّ تلاميذى فَسَلْ وتَفَقَّد

ومنها قوله :

وألفت فى كل العلوم مؤلفاً ... به يهتدى من شاء ربى ويقتدى
وسارت مسير الشمس فى كل بلدة ... ويجهل هذا كل فَدْم مُبَلَّد

ومنها أيضاً :

وأصلحت ما بين الأئمة ماجرى ... واطفأت ناراً شبها كل مفسد
ثلاثة إصلاح ورابعها الذى ... جرى بين مولانا الإمام وأحمد
رجوت بها لطف الإله ورحمة ... أفوز بها فى يوم حشرى فى غد
ولم أرد الدنيا الدنية أو أرد ... عمارة قصر فى أزال مُشَيَّد
ولا قُطْعَةً أقطعتها أو ولاية ... كما هو دأب الناس فى كل مورد
ولا كيلة لى من زكاة ولم أذق ... لها حبة يوماً ولا لمست يدى

وهى قصيدة طويلة جيدة قالها ناظمها وهو فى عقد التسعين من عمره وفى شعبان من هذه السنة كانت وفاته رضى الله عنه بمدينة صنعاء ودفن غربى منارة المدرسة وكان مولده فى ليلة الجمعة لخمس عشرة خلت من جمادى الآخرة سنة ألف وتسع وتسعين بمدينة كحلان تاج الدين ثم انتقل إلى صنعاء لطلب العلم وأخذ عن علمائها وفاق الأقران بل الشيوخ وألف المؤلفات النافعة التى من أهمها مؤلفه «سبل السلام شرح بلوغ المرام» الذى كانت له شهرة عظيمة والذى سار مسير الشمس كما قال مؤلفه فى قصيدته السالفة الذكر وقد أعيد طبعه مرات بمصر كما طبع أيضاً فى مدينة حيدر أباد وله رسائل وأجوبة كثيرة لا حصر لها وله ديوان شعر مشهور وقد أنجب أولاداً علماء وأدباء هم إبراهيم وعبدالله وقاسم .

الإمام المنصور بالله على بن المهدى

وفى رجب سنة تسع وثمانين ومائة وألف توفى الإمام المهدى لدين الله العباس عن تسع وخمسين عاماً بمدينة صنعاء ودفن بجوار مسجد القبة التى عمرها بمدينة صنعاء وكان هذا الإمام رجلاً ذكياً فطناً يعرف كيف يختار عماله ويدقق فى البحث عن سيرتهم وأحوالهم كما كان حسن التدبير عالى الهمة محباً للخير ميالاً إلى الأدباء وأهل العلم مطلعاً على أحوال الرعية وكانت له هيبة فى صدور الخاصة وترك آثاراً كثيرة منها إخراج النهر الذى يدخل صنعاء المشهور باسم النيل الأسود وكان مطموراً من عهد بعيد كما أنه عمر بمدينة صنعاء مساجد مشهورة وأمر بحفر بركة عظيمة بمحل العر من بلاد الحيمة وبركة أخرى فى سوق حجة وغير ذلك وقد قام بعده ابنه على بن المهدى العباس الذى تلقب بالمنصور وبايعه العلماء والأعيان وقد أعطى الجنود أموالاً كثيرة وجهز فى أيام حكمه جيشاً كبيراً أرسله لمحاربة أهل الفساد فى خولان والحدا ودك حصونهم كما ناط كثيراً من الأعمال الشرعية والدولية بقاضى القضاة شيخ الإسلام يحيى بن صالح السُحُولى وكان هذا القاضى من أفاضل الرجال عظيم الحفظ كيساً حسن السياسة تولى منصب القضاء الأكبر أيام المهدى العباس ثم عزل وأعاده إلى منصبه ولده المنصور بالله وتوفى سنة تسع ومائتين وألف بصنعاء ونصب الإمام مكانه القاضى العلامة شيخ الإسلام محمد بن على الشوكانى فقام بأعمال القضاء الأكبر وغيره أحسن قيام .

وفى محرم سنة أربع عشرة ومائتين وألف وصل إلى الإمام المنصور «القبطان ولسون الإنجليزى» فأنزله الإمام بدار الصافية بير المغرب وكان السبب فى مجيئه عند الإمام أن فرنسا عند ما دخلت مصر فى السنة الأولى بقيادة «الجنرال نابليون بونابرت» طمع الإنجليز فى سواحل اليمن ولكن لم يتم لهم ما أرادوا ومع ذلك فقد وضعوا يدهم فى ذلك التاريخ على جزيرة مَيُّون المسماة بتريم فى البحر الأحمر فى مضيق باب المندب والتى تقسم البحر إلى نصفين .

إمارة الشريف حمود بن محمد بتهامة

وفى سنة خمس عشرة ومائتين وألف تقلص ظل الدولة القاسمية من تهامة بدخول السيد أحمد الفَلَقى من أهل مدينة صبيا فى مذهب أهل نجد واستمراره على الدعوة بين أهل محله بوادى بيش من السادة الجعافرة فى نبذ عقيدتهم فيما يختص بتعظيم القبور وكانت بينه وبين أمير مدينة صبيا الشريف منصور بن ناصر بن محمد بن أحمد بن خيرات ضغائن وحروب ثم تفاقم الشر فسار الفَلَقى إلى الدرعية واستنجد بالملك عبد العزيز بن محمد بن سعود وعاد من الدرعية بجيش كبير العدد وأخذ فى بث الدعاية بين الناس لأهل نجد فولى الاشراف عليهم الشريف الماجد حمود بن محمد ووقعت بينه وبين أمراء نجد معارك ووقائع عظيمة وكانت الغلبة فى أول الأمر للنجود ورئيسهم أبو نُقْطَة عبدالوهاب ابن عامر الرُّفَيْدى واستولى أبو نقطة على أبى عريش سنة ١٢١٧ واستسلم الشريف حمود للنجود ثم خرج من جهتهم على البلاد الأمامية واستولى على اللَّحَيَّة والحُدَيْدَة وزَبِيد وحَيْس وما يرجع إلى هذه المدن وكانت ولاية الأشراف فى المخلاف السليمانى مستفادة من أئمة اليمن ثم فسد الأمر بين الشريف حمود والنجود وتقدم عليه أبو نُقْطَة عبد الوهاب بن عامر فى جيش كثيف من نجد وعسير وجمع الشريف نحو سبعة عشر ألفا من يام وبكيل وتهامة وكانت بين الفريقين ملحمة عظيمة قتل فيها أبو نقطة عبدالوهاب ابن عامر سنة ١٢٢٤ وكان الشريف حمود مشهوراً بالشجاعة والكرم ومدحه القاضى البليغ عبد الرحمن بن يحيى الآنسى بقصيدة مستهلها .

لعمرك ما الليث الذى هوّلوا به ولكنما الليث الهَصُور حمود

وقد استبد بالتولية على تهامة وجهز عليه الإمام المنصور جيشاً والتقت الطائفتان فى مختارة من تهامة وانهزم جيش المنصور ولم ينجح

وفى سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف وقع خلاف بين المولى سيف الخلافة أحمد

الإمام المنصور بالله على بن المهدى

وفى رجب سنة تسع وثمانين ومائة وألف توفى الإمام المهدى لدين الله العباس عن تسع وخمسين عاماً بمدينة صنعاء ودفن بجوار مسجد القبة التى عمرها بمدينة صنعاء وكان هذا الإمام رجلاً ذكياً فطناً يعرف كيف يختار عماله ويدقق فى البحث عن سيرتهم وأحوالهم كما كان حسن التدبير عالى الهمة محباً للخير ميالاً إلى الأدباء وأهل العلم مطلعاً على أحوال الرعية وكانت له هيبة فى صدور الخاصة وترك آثاراً كثيرة منها إخراج النهر الذى يدخل صنعاء المشهور باسم النيل الأسود وكان مطموراً من عهد بعيد كما أنه عمر بمدينة صنعاء مساجد مشهورة وأمر بحفر بركة عظيمة بمحل العر من بلاد الحيمة وبركة أخرى فى سوق حجة وغير ذلك وقد قام بعده ابنه على بن المهدى العباس الذى تلقب بالمنصور وبايعه العلماء والأعيان وقد أعطى الجنود أموالاً كثيرة وجهز فى أيام حكمه جيشاً كبيراً أرسله لمحاربة أهل الفساد فى خولان والحدا ودك حصونهم كما ناط كثيراً من الأعمال الشرعية والدولية بقاضى القضاة شيخ الإسلام يحيى بن صالح السُحُولى وكان هذا القاضى من أفاضل الرجال عظيم الحفظ كيساً حسن السياسة تولى منصب القضاء الأكبر أيام المهدى العباس ثم عزل وأعاده إلى منصبه ولده المنصور بالله وتوفى سنة تسع ومائتين وألف بصنعاء ونصب الإمام مكانه القاضى العلامة شيخ الإسلام محمد بن على الشوكانى فقام بأعمال القضاء الأكبر وغيره أحسن قيام .

وفى محرم سنة أربع عشرة ومائتين وألف وصل إلى الإمام المنصور «القبطان ولسون الإنجليزى» فأنزله الإمام بدار الصافية ببير المغرب وكان السبب فى مجيئه عند الإمام أن فرنسا عند ما دخلت مصر فى السنة الأولى بقيادة «الجنرال نابليون بونابرت» طمع الإنجليز فى سواحل اليمن ولكن لم يتم لهم ما أرادوا ومع ذلك فقد وضعوا يدهم فى ذلك التاريخ على جزيرة مَيُّون المسماة بتريم فى البحر الأحمر فى مضيق باب المندب والتى تقسم البحر إلى نصفين .

إمارة الشريف حمود بن محمد بتهامة

وفى سنة خمس عشرة ومائتين وألف تقلص ظل الدولة القاسمية من تهامة بدخول السيد أحمد الفَلَقى من أهل مدينة صبيا فى مذهب أهل نجد واستمراره على الدعوة بين أهل محله بوادى بيش من السادة الجعافرة فى نبذ عقيدتهم فيما يختص بتعظيم القبور وكانت بينه وبين أمير مدينة صبيا الشريف منصور بن ناصر بن محمد بن أحمد بن خيرات ضغائن وحروب ثم تفاقم الشر فسار الفَلَقى إلى الدرعية واستنجد بالملك عبد العزيز بن محمد بن سعود وعاد من الدرعية بجيش كبير العدد وأخذ فى بث الدعاية بين الناس لأهل نجد فولى الاشراف عليهم الشريف الماجد حمود بن محمد ووقعت بينه وبين أمراء نجد معارك ووقائع عظيمة وكانت الغلبة فى أول الأمر للنجود ورئيسهم أبو نُقْطَة عبد الوهاب ابن عامر الرُّفَيْدى واستولى أبو نقطة على أبى عريش سنة ١٢١٧ واستسلم الشريف حمود للنجود ثم خرج من جهتهم على البلاد الأمامية واستولى على اللَّحَيَّة والحُدَيْدَة وزَبيد وحَيْس وما يرجع إلى هذه المدن وكانت ولاية الأشراف فى المخلاف السليمانى مستفادة من أئمة اليمن ثم فسد الأمر بين الشريف حمود والنجود وتقدم عليه أبو نُقْطَة عبد الوهاب بن عامر فى جيش كثيف من نجد وعسير وجمع الشريف نحو سبعة عشر ألفا من يام وبكيل وتهامة وكانت بين الفريقين ملحمة عظيمة قتل فيها أبو نقطة عبد الوهاب ابن عامر سنة ١٢٢٤ وكان الشريف حمود مشهوراً بالشجاعة والكرم ومدحه القاضى البليغ عبد الرحمن بن يحيى الآنسى بقصيدة مستهلها .

لعمرك ما الليث الذى هوّلوا به ... ولكنما الليث الهَصُور حمود

وقد استبد بالتولية على تهامة وجهز عليه الإمام المنصور جيشاً والتقت الطائفتان فى مختارة من تهامة وانهزم جيش المنصور ولم ينجح

وفى سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف وقع خلاف بين المولى سيف الخلافة أحمد

ابن الإمام وبين وزير والده الفقيه حسن بن حسن عثمان المُلقى حتى سرى الخلاف بعد ذلك بين الإمام المنصور وولده وقد سعى فى الصلح بينهما القاضى شيخ الإسلام محمد بن على الشوكانى . وفى سنة ثلاث وعشرين خرج القاضى عبد الله ابن حسن العنسى البرطى فى طائفة من قبائل برط ونزلوا فى وادى ضهر وأخذوا يتخطفون المسافرين ويقطعون الطرق وكان السبب فى ذلك أن الإمام المنصور أمر بقتل ولد القاضى عبد الله بن حسن البرطى وجماعة من أصحابه لإحداثهم فتنة فى دار الخلافة وجنايتهم على وزيره الفقيه حسن بن حسن عثمان وقد ذكر هذا الحادث مفصلا فى « درر نحور الحور العين فى سيرة الإمام المنصور وأعلام دولته » ولما شعر الناس بالضيق بسبب هذا الحصار ثمر سيف الخلافة أحمد بن المنصور لفك الحصار عن المدينة وقبض على وزير والده وبعض أقاربه وأودعهم الحبس وأخذ يكاتب القبائل ويعدهم الوعود ويمنيهم الأمانى فتنحوا عن الحصار وقام بأمر الدولة سيف الخلافة أحمد بدون أن يغير الخطبة والسكة وإنما كان لوالده بمثابة الوزير الناصح وكان ذلك بناء على مشورة جماعة من علماء عصره .

الإمام المتوكل على الله أحمد

وفى سنة أربع وعشرين ومائتين توفى الإمام المنصور بالله على بن المهدى العباس بصنعاء ودفن فى بستان المسك بباب السَّبَحَة وله آثار حسنة منها عمارة جامع قرية القابل ومسجد المحاهد ومسجد البهمة ببير المعزب وتوسيعه مسجد الطواشى ومسجد أزدمر باشا بصنعاء كما عمر أيضاً كثيرا من الدور والقصور وكان سمحا سخيا وخلف أولادا منهم سيف الخلافة أحمد الذى دعا بعد وفاة والده وبايعه العلماء والأعيان وتلقب بالمتوكل على الله وكاتب الشريف حمود بن محمد وعقد معه صلحا يقضى بإرجاع بعض البلاد التهامية .

وفى سنة خمس وعشرين خرج المتوكل على اليمانيتين من خولان لفتحهما الطريق لسالم شِدَيق وبنى ظبيان حتى نهبوا وزيره قبل الدعوة الفقيه عثمان فارع فسلموا له وأظهروا الخضوع ونفذ إلى الحدا وأقام فى زراحه وضبط الثائرين القوسى والبخيتى وأمن الطريق ثم سار إلى ضوران وقبض على الأشرار وأمر بقتل ناصر وازع الذى كان يعيث فى الأرض فسادا وسار بعد ذلك إلى ذمار ورداع وحارب أهل قيفة وقبض على أشرارهم.

وفى سنة سبع وعشرين أرسل المتوكل قبائل بكيل إلى تهامة فوصلوا إلى مختاره التى عمرها الشريف حمود وتعاهدوا على رد تهامة للمتوكل ثم قبضوا من الشريف حمود أموالا وعادوا إلى ديارهم .

وفى سنة ثمان وعشرين توفى الملك سعود بن عبد العزيز . وفى سنة تسع وعشرين سار المتوكل إلى كوكبان وأراد محاصرته فنزل آل شرف الدين على حكمه إلى شبام وسار بهم إلى صنعاء.

وفى سنة ثلاثين وصلت إلى الإمام رسائل وكتب من سلطان آل عثمان السلطان محمود ومن محمد على باشا والى مصر ومعهما بعض الهدايا العجيبة التى كان من بينها فيل كبير كان يعرض مع الخيل ويطوف به السائس فى الأسواق وكان المتوكل قد أرسل للسلطان محمود والباشا محمد على هدايا من العقيق وطلب النجدة لإرجاع تهامة وقد وصلت النجدة فى أيام ولده المهدى كما يأتى.

الإمام المهدى عبد الله

وفى سنة إحدى وثلاثين ومائتين وألف توفى الإمام المتوكل على الله أحمد بن المنصور وكان مولده فى محرم من سنة سبعين ومائة وألف وكان على جانب عظيم من الذكاء والفطنة كما كانت له خبرة عظيمة بأحوال الخاصة والعامة وله يد بيضاء فى تأمين الطرق

وقد قام بعده ولده عبد الله بن المتوكل وتلقب بالمهدى لدين الله فبايعه العلماء والرؤساء وأعيان البلاد وقد وزع الأموال على الفقراء والأرامل والمعسرين وكسا الجنود وكانت أيامه أيام راحة ورخاء أقيمت فيها الشريعة فى البلاد عدة سنين وكان باسلا مقداما غزا قبائل أرْحَب فى بلادهم وأسر أعيانهم وأتى بهم مكبلين بالأغلال عندما اعتدوا على الطرق . وكذلك سار إلى حراز لإخراج قبائل يام من المحلات التى دخلوها ونزل إلى اليمن الأسفل للطواف بالبلاد وأهدر قبائل ذى غَيْلان بصنعاء وقتل رئيسها النقيب على ابن عبدالله الشايف وذلك عندما خالفوا أوامره وامتنعوا من نزول تهامة بعد أن طلبهم إلى صنعاء وأعطاهم مقرراتهم . وكان قد عزم على استرجاع تهامة .

وفى سنة ثلاث وثلاثين توفى الشريف الماجد حمود بن محمد صاحب أبى عريش وقام بالإمارة بعده ابنه الشريف أحمد بن حمود وفى هذه السنة أيضاً خرج المهدى إلى كوكبان وأقام بشبام وطلعت العساكر إلى الضَّلَع وعندما امتنع أشراف كوكبان عن مواجهته أمر بالزحف على كوكبان ولكن عندما ظهر له أنه لا موجب لذلك صالحهم وعاد إلى صنعاء وفى هذه السنة أيضاً تألبت قبائل بكيل ومن انضم إليها وأمّروا عليهم النقيب حسين بن عبدالله الشايف وخرجوا من بلادهم قاصدين صنعاء لمحو العار الذى لحقهم لحصن الإمام القصر والروضة وخرجت الجنود للقائهم فى الطريق ولكنهم خالفوا الطريق التى سلكها رجال المهدى وقصدوا بير العزب فعاثوا فيها فساداً واستولوا على كل ما وجدوه بها وسفكوا الدماء وهتكوا الأعراض ثم تمّ الصلح بعد ذلك على خروجهم من بير العزب وعادوا إلى بلادهم ولقد كان ما أخذوه سبباً فى هلاكهم وضياع كل ما جمعوه من قديم الزمان إذ لم تمض عليهم أيام حتى أصيبوا بقحط شديد .

وفى سنة أربع وثلاثين خرج إلى تهامة خليل باشا موفداً من قِبَل عزيز مصر محمد على باشا وبمجرد وصوله قبض على الشريف أحمد بن حمود وأرسله إلى مصر وأعاد تهامة إلى المهدى عبد الله بن المتوكل وسلمت جميع البنادر إلى عُمّاله وبهذا قويت شوكة

الدولة القاسمية وتولى الشريف على بن حيدر صاحب أبى عريش على شطر من تهامة الشامية من قِبَل المهدى .

الإمام الهادى أحمد بن على السَّراجى

وفى سنة سبع وأربعين دعا الإمام الهادى أحمد بن على بن حسين بن على بن محمد ابن على بن عامر بن الحسن بن على بن صالح بن أحمد بن يحيى بن داود بن على بن أحمد ابن على بن أحمد بن الإمام يحيى بن محمد السراجى سالف الذكر والتفت حوله طائفة من أهل العلم كما أجابت دعوته بعض القبائل وكان السبب فى قيامه بالدعوة إلى نفسه ما ظهر من تخبط المهدى فى السيرة وقتله الشيخ العلامة محمد صالح السماوى عندما نَدَّدَ بحكومته وانتقد بعض تصرفاتها ولكن لم يتم أمر الهادى وتفرقت القبائل التى كانت حول صنعاء عندما أرسلت الأموال لرؤسائها وعاد العلماء إلى صنعاء .

وفى سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف زحف على تهامة تركى بِلْماز بالموحدة والزاى وكان أميراً من أمراء الترك بالحجاز فأثار أهلها وتابعته طائفة من الأتراك الذين خرج بهم إلى تهامة وتغلب عليها وبقى بها أياماً حتى زحف عليه الأمير على بن مُجَثِّل بقبائل عسير وحاصره بالمخا كما أرسل محمد على باشا قوة حاصرته من البحر حتى اضطر إلى التسلل منها هو وبعض أصحابه على ظهور بعض القوارب إلى بلاد الهند وعاد على بن مُجَثِّل إلى عسير ومات بها فخلفه على إمارة عسير عايض بن مِرْعِى .

وفى سنة خمسين ومائتين وألف توفى شيخ الإسلام القاضى العلامة محمد بن على الشوكانى صاحب المؤلفات العظيمة التى منها «نيل الأوطار» و «فتح القدير» وغيرهما وكان مولده فى شهر ذى القعدة سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف وقد كان مفخرة من مفاخر حكومة اليمن التى اعتزت به وبعلمه وفضله وتشهد مؤلفاته على تحقيقه وتضلعه فى العلوم والمعارف .

الإمام المنصور بالله على بن المهدى

وفى سنة إحدى وخمسين ومائتين توفى الإمام المهدى لدين الله عبد الله بن المتوكل وقام بعده ابنه على بن المهدى الذى تلقب بالمنصور بالله وكان أقل كفاية وحزما من والده الذى يمكن اعتباره آخر أئمة الدولة القاسمية أهل الصولة والرياسة الكاملة إذ أنه بعد وفاته وقيام ولده انتشرت الفوضى فى البلاد وأخذت الأمور تسير من سيء إلى أسوأ وفى أول عهده نزل بالحديدة إبراهيم باشا على رأس طائفة من الأتراك واستولى على تهامة وحكمها باسم عزيز مصر محمد على باشا وقد امتد نفوذ ابراهيم باشا فى البلاد حتى شمل بلاد تعز .

الإمام الناصر لدين الله عبد الله بن الحسن

وفى سنة اثنتين وخمسين قام الإمام الناصر لدين الله عبد الله بن الحسن بن أحمد ابن المهدى لدين الله العباس فبايعته بعض القبائل وسرعان ما عظم أمره وقبض على المنصور على بن المهدى وأودعه السجن وبذل كل ما استطاعه من جهد فى إزالة الفساد وكان يعظ الناس ويتولى الخطابة بنفسه والإمامة فى صلاة الجمعة وكان شديداً على أهل اللهو والفساد لاتأخذه فى الحق لومة لائم .

وفى سنة ثلاث وخمسين نزل إلى اليمن الأسفل وحاول إخراج ذى غيلان من الحصون التى تحتلها ولكنه لم يتمكن من ذلك وعاد إلى صنعاء .

احتلال الإنكليز عدن

وفى سنة خمس وخمسين احتل الإنكليز مدينة عدن بعد أن تدخلوا أولا فى سنة خمس وأربعين ونزلوا فيه بحجة إنزال الفحم إلى صيرة لتموين السفن الهندية ثم تعللوا بانكسار بعض سفنهم فى خليج عدن ونهب أهل عدن لها ثم مدوا شبكة حمايتهم

على النواحى التسع[1] المجاورة لعدن ولم يقفوا عند هذا الحد بل أن كل قطعة تستدعى ماوراءها كما هو دأب الاستعمار البريطانى .

وفى سنة ست وخمسين قتل الإمام الناصر بوادى ضهر على يد جماعة من قبائل همدان ويام كنت له بالقرب من دار الحجر بوادى ضهر عند خروجه منها فى طريقه إلى صنعاء وأطلقوا عليه وعلى أصحابه الذين كانوا معه رصاص بنادقهم فأصابته بعض مقذوفاتهم وعاد جريحاً إلى دار الحَجَر ولكن جماعة من هؤلاء تسلقوا الدار وقتلوه هو وجماعة من أصحابه منهم القاضى العلامة اسماعيل بن حسين جَنْهان وفرّ بعض أصحابه إلى صنعاء وسار البعض الآخر إلى بلاد أرحب وألّبوا القبائل على القَتَلَة للأخذ بالثار وكان ممن ساروا إلى بلاد أرحب السيد الحُلاحِل يحيى بن محمد حميد الدين جد مولانا الإمام الناصر لدين الله أحمد كما انضمت إلى قبائل أرحب جماعة من خولان ونهم وحاشد الذين شنوا الغارة على همدان وقتلوا جماعة من رجالها .

الإمام الهادى محمد بن المتوكل أحمد

وفى هذه السنة قام بعد استشهاد الإمام الناصر الإمام الهادى محمد بن المتوكل على الله أحمد بن المنصور وكان فى حبس الناصر مع ابن أخيه على بن المهدى .

فتنة الفيقه سعيد بن صالح ياسين العَنْسى الصُّوفى

وفى هذه الأيام نجم باليمن الأسفل الفقيه سعيد بن صالح ياسين العنسى الصوفى من متصوفة بلدشار وتحصن بالدُّنْوَه من بلاد اب ومازال حاله ينمو حتى استطاع أن يخرج قبائل ذى غيلان من الحصون وكان يعمل الأوفاق والطلاسم وضرب السكة باسمه من الفضة الخالصة وتكنى بإمام الشرع المطهر المهدى المنتظر ونصب الولاة على بعض البلاد

---

(١) وهى لحج ، أبين ، الحواشب ، الصبيحة ، القطيب ، الضالع ، يافع العليا والسفلى ، العوالق ، حضرموت .

اليمنية وجهز الأجناد من أهل الشرق وغيرهم لقتال الهادى محمد بن المتوكل وألقوا عليه الحصار بمدينة يريم ثم كانت الكرة عليهم وانهزموا هزيمة فاضحة وتوالت الهزائم على أصحاب الفقيه سعيد حتى حاصره الهادى بحصن الدُّنُوة ثم كان القبض عليه والاستيلاء على الحصن وكان الحكم عليه بالإعدام فضربت عنقه بمدينة اب فى سنة ١٢٥٧ وعاد الهادى من بلاد اب وطلع جبل ضوران وحصن الدامغ وهنالك أمر بضرب عنق النقيب حسين بن سعيد أبو حليقة من روساء قبائل خولان وكان داعية للفساد ثم سار إلى صنعاء بعد إصلاح كثير من البلاد وفى ذلك يقول القاضى البليغ أحمد بن لطف البارى الزبيرى الصنعانى هذه القصيدة :

هـذا هو الشرف الرفيع الأعظم ... والفخر والحسب الصميم الأفخم
هـذا هو المجد الذى من دونه ... ضربت سرادقها عليها الأنجم
فلقد تكاملت السعادة عن يدٍ ... وتنبّهت منهـا العيون النُّوَّم
وبدت شموس النصر من أفق العلا ... فانجاب معترك الفساد المظلم
فليهن أركان الخلافة إنه ... قد شادها الهادى الإمام الأعظم
وأعادها بِكراً وعاد جمالها ... غَضًّا وقد كادت تشيب وتهرم
فبه غدا حـرم الخلافة آمناً ... وعلى سـواه من الأنام مُحَرَّم
وليهن صنعا عوده فلقـد غدت ... تختـال من فرح به وتبسّم
وتَهَنَّ يا مولى الأنام سعادة ... تسمو على هام السماك وتعظم
فلقـد بنيت بحد سيفك مَعْقِلًا ... للملك لا يَبْلَى ولا يتهـدّم
وهدمت ما عمرَ الشقى بسحره ... ونقضت ما عقـد البغاة وأبرموا
وأذقتهم كأس الحتـوف فكلهم ... خضعوا لأمرك صاغرين وسلموا
وبعثت نحو النـار كل معاند ... حتى لقد شكرت نَداك جهنم
أصلحتها بالسيف بعـد فسادها ... والسيف بُرْءٌ للفساد ومَرْهَم

ونشرت ثوب العدل فى ساحاتها ... فالآن ليس بسوحها مُتَظلّم
وختمتها بالدامغ الحصن الذى ... عنه تقاعست الملوك وأحجموا
ودمغت أدمغة العـدى بسعوده ... فالنـار فى أحشائهم تتضرم
فليهنك الفخر الذى ما ناله ... مَلِك ولا الإسكندر المتقدم
تلك أضاء العـدل فى عرصاته ... أمراسه بعرى النبـوة تعصم
هذى لعمرى معجزات محمـد ... ظهرت فضوء شموسها لا يكتم
وإليك يا شمس الملوك قصيـدةً ... شاب الوليد[1] لها وأذعن مُسْلِم

وفى هـذه السنة كفت يد محمد على باشا والى مصر عن اليمن والحجاز على أثر الوقائع التى حدثت بينه وبين الدولة العثمانية وقد توسطت الدول الأوروبيـة وكان من نتيجة توسطها منح محمد على باشا لقب الخديوى ويكون له ولورثته من بعده ولاية مصر وقد ناط السلطان عبد المجيد بن محمود أمور تهامة بالشريف الحسين بن على ابن حيدر .

وفى سنة تسع وخمسين ومائتين وألف توفى الإمام الهادى محمد بن المتوكل .

الإمام المتوكل محمد بن يحيى

بعـد وفاة الهادى نصب رجال الدولة إماماً على اليمن علىّ بن المهدى الذى تلقب بالمهدى وفى سنة ستين فتح الشريف الحسين بن على بن حيدر بلاد تعز وفى خلال ذلك وصـل إليه محمد بن يحيى بن المنصور بالله على بن المهدى العباس بعـد عودته من مصر وكان قد أقام فى تهامة مع والده أيام المهدى عبدالله بن المتوكل ثم سافر إلى مصر ليطلب من محمد على باشا المعونة على تملك اليمن ولـكنه لم ينجح فيما أراد وعند عودته من مصر عرّج على الشريف الحسين بن على بن حيدر فمكّنه من الولاية على بلاد رَيْمَة التى تقدم منها إلى بلاد الجبال حتى وصل إلى ضوران حيث دعا لنفسه وتلقب بالمتوكل على الله فخرج

(١) الوليد هو البحترى ومسلم هو ابن الوليد وكلاهما شاعر مشهور .

على بن المهدى من صنعاء لقتاله على رأس جيش كبير وقد التقى الجيشان بقرية القيل بالقرب من جهران فانهزم أصحاب على بن المهدى وسلم الأمر للمتوكل ودخلا معا مدينة صنعاء وكان بعض أهل الفساد قد تغلب على حصن إرْيان من بلاد يرم فسار إليهم المتوكل وحاربهم واستولى على الحصن وقال السيد البليغ محسن بن عبد الكريم بن اسحاق يغريه بالتقدم على بلاد وصاب على أثر ذلك :

أمن بعد إرْيانٍ يَعِزّ وُصَاب ... ويحميه عن سوء العِقاب عُقاب
لقد كان فى إريان للناس عبرة ... تخاف دواهى شرها وتُهاب
عل بأكناف السحاب معلق ... من الشم لا يرقى إليه غراب
أحاط به جيش أجش مؤيدٌ ... بعزم أمير المؤمنين مهاب
فأمطرهم من بأسه ثوب عارض ... هَمَا برصاص ما عليه حجاب
صواعقه صوت المدافع إن رمت ... فكل بناء عندهن خراب
وإن أمير المؤمنين وفعله ... لكالدهر لا يلقى عليه عتاب
فما هو إلا رحمة لوليه ... وما هو إلا للعدو عقاب
فلا برحت أرماحه وسيوفه ... لها من دماء القاسطين خضاب
ولا برحت يمناه تقذف بالندى ... كما جاد بالدر النفيس عُباب

وفى سنة أربع وستين وقع خلاف بين المتوكل محمد بن يحيى والشريف الحسين بن على بن حيدر الذى طلب إليه المتوكل أن يرجع إليه بعض البنادر ولكن الشريف لم يقبل وجهز كل منهما جيشه واجتمع الجيشان حول قرية القُطَيْع بتهامة وبعد معركة عنيفة انهزم أصحاب الشريف ووقع هو أسيراً بين أيدى أصحاب المتوكل ونهبت متاجر القطيع ثم خرجت قبائل يام لنصرة الشريف وخلصوه من رجال المتوكل ودخلوا مدينة زبيد بعد أن هزموا المتوكل وقد قتل فى خلال ذلك القاضى العلامة محمد بن على

العمرانى الذى كان مقيماً بزبيد وعاد المتوكل إلى صنعاء وكان عند مروره بمدينة ذمار قد أمر بقتل النقيب أحمد بن صالح ثوابه من أكابر ذى غيلان أهل جبل برط وكان قد تمادى فى عصيانه وقال فى ذلك القاضى البليغ أحمد بن لطف البارى الزبيرى أبياتاً منها:

رفع الحقُّ شامخات قِبابه ... وتخلت قشوره عن لُبابه
ومحا الله آية الجور لمَّا ... زال عن شمسه كثيف سحابه
وهوى البغى بعد طول تمادٍ ... ديه صريعاً وانزاح لمع سرابه
وانجلى عِثْيَر الضلالة لما ... شهر المَلِكُ سيفَه من قِرابه
وقضى الله أمره فى ذوى الزيـ ... ـغ وأمضى عقابه فى ثوابه

وهى أكثر من هذا .

وكان من أنصار المتوكل فى غزوته إلى تهامة الأمير حسين بن المتوكل أحمد بن المنصور وقد دعا إلى نفسه فى بعض الأيام وتلقب بالهادى .

الإمام المنصور بالله أحمد بن هاشم

وفى هذه السنة دعا من بلاد صعدة الإمام المنصور بالله أحمد بن هاشم بن محسن ابن قاسم بن اسماعيل بن الحسين بن عز الدين بن المهدى بن الناصر بن محارس بن الناصر بن عبدالله بن أحمد بن حمزة بن أبى القاسم بن محمد بن جعفر بن محمد بن حسن ابن جعفر بن الحسين بن أحمد بن يحيى بن عبدالله بن يحيى بن الناصر أحمد بن الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين وكانت نشأته بقرية وَيْس من بلاد كوكبان، ودَرَس بصنعاء ثم هاجر منها إلى مدينة صعدة فى جماعة من أهل العلم منهم القاضى العلامة عبدالله بن على الغالبى .

خروج الأتراك إلى الحديدة

وفى سنة خمس وستين ومائتين وألف نزل بالحديدة توفيق باشا وأمير مكة الشريف محمد بن عون فى قوة عظيمة من الجنود الأتراك بأمر من السلطان عبدالمجيد بن محمود عندما رفعت إلى مسامعه حادثة القُطَيْع ونهب متاجرها وعندما علم المتوكل على الله محمد بن يحيى بوصولهم إلى الحديدة كاتب توفيق باشا والشريف محمد بن عون وطلب إليهما إرسال طائفة من الجنود إلى صنعاء لكى يستعين بهم على تنفيذ أوامره ثم بعد ذلك نزل المتوكل بنفسه من صنعاء إلى الحديدة وتفاوض مع الشريف محمد بن عون والباشا فى أن يطلع توفيق باشا على رأس قوة من الجنود إلى صنعاء وقد سبقهم هو إليها وتلقاهم بها وسلم إليهم القصر ولكن أهل صنعاء كرهوا ذلك واستهجنوا هذا الفعل فاجتمعت طائفة من العامة وتآمرت على قتل الأتراك فى الطرق والأزقة وقد تم ذلك ثانى يوم وصولهم إلى صنعاء حتى اضطروا إلى الالتجاء إلى القصر الذى حاصرهم به أهالى صنعاء أياماً حتى خرجوا منه صلحاً على أن يعودوا إلى الحديدة ويبقوا فى تهامة .

الفصل السابع

فى ذكر الأئمة الذين عاصروا الأتراك

وفى أثناء بقاء الأتراك بمدينة صنعاء ثار أهلها وقبضوا على المتوكل محمد بن يحيى ونصبوا مكانه على بن المهدى إماماً وقد قتل المتوكل محمد بن يحيى ظلماً بحجة استدعائه الأتراك إلى صنعاء وكان المتوكل من كَمَلَة الرجال ولكن لم يساعده القدر .

وفى هذه السنة خرج المنصور بالله أحمد بن هاشم من بلاد صعدة وجمع بعض رجال القبائل ووصل بهم إلى مدينة عمران فخرج على بن المهدى لقتاله من صنعاء ولكنه انهزم شر هزيمة واضطر إلى العودة إلى صنعاء وتقدم أصحاب المنصور إلى حضور .

المؤيد بالله العباس[1] بن عبد الرحمن

وفى سنة ست وستين أقام أهل صنعاء المؤيد بالله العباس بن عبد الرحمن بن محمد ابن الحسين بن القاسم بن أحمد بن المتوكل على الله إسماعيل بن الإمام القاسم وذلك لما اشتهر عنه من العلم والفضل والاجتهاد وقد قصدوا بذلك دفع المنصور بالله أحمد بن هاشم ولكن لم يغن ذلك شيئاً ودخل المنصور بالله مدينة صنعاء وسلم له المؤيد الأمر ثم حدثت أمور مستنكرة للمؤيد بالله وأصحابه من المنصور بالله وأصحابه فخرج على بن المهدى من صنعاء وجمع بعض رجال من قبائل همدان وانضم إليهم غيرهم وحاصروا صنعاء فخرج منها المنصور بالله أحمد بن هاشم إلى دار أَعْلى من بلاد أَرْحَب وصحبه القاضى أحمد ابن إسماعيل العُلفى .

الإمام الهادى غالب بن محمد

وفى سنة سبع وستين دعا من محل سناع الإمام غالب بن محمد بن يحيى بن المنصور وتلقب بالهادى وسار إلى برط والتفت حوله طائفة من ذى غيلان وسار بها إلى وادى ضهر حيث حاصر على بن المهدى بدار الحجر وأراد أخذ الثأر لوالده ولكن تم الصلح بينهما وصفح الإمام غالب عن قاتل والده وكان من أنصاره السيد أحمد أبو طالب الملقب شوع الليل .

---

(١) هو جد السيد العلامة يحيى بن محمد بن عباس رئيس محكمة الاستئناف بصنعاء عند التحرير

الإمام محمد بن عبد الله الوزير

وفى سنة تسع وستين ومائتين وألف دعا بوادى السَّر الإمام محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن محمد بن الهادى بن صلاح بن الهادى بن عبد القدوس بن محمد بن يحيى ابن أحمد بن ابراهيم بن محمد بن عبد الله بن الهادى بن ابراهيم بن على بن المرتضى بن مفضل بن منصور بن محمد العفيف المشهور بالوزير بن مفضل بن الحجاج بن على بن يحيى بن القاسم بن الإمام الداعى يوسف بن الإمام المنصور بالله يحيى بن الإمام الناصر أحمد بن الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين وتلقب بالمنصور بالله وقد دخل صنعاء وأقام بها أياما ثم سار إلى بلاد الحيمة لإخراج قبائل أرحب منها ثم عاد بعد ذلك إلى موطنه السر فأقام به وكان يقصده الناس للفصل فيما بينهم من الخصومات إلى أن أدركته الوفاة ١٢٠٧.

الإمام المتوكل على الله محسن بن أحمد

وفى سنة إحدى وسبعين دعا الإمام المتوكل على الله محسن بن أحمد بن محمد بن الحسن بن الحسين بن صلاح بن عبد الرحيم بن عبد الباقى بن نهشل بن المطهر بن أحمد ابن عبد الله بن عز الدين بن محمد بن ابراهيم بن الإمام المتوكل على الله المطهر بن يحيى بن المرتضى بن القاسم بن المطهر بن محمد بن الإمام الناصر أحمد بن الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين فبايعته جماعة من العلماء الذين بايعوا المنصور بالله محمد بن عبد الله الوزير فيما سبق وفضلوه نظراً لهمته ومقدرته وكياسته .

الإمام المنصور حسين بن محمد الهادى

وفى سنة خمس وسبعين دعا من حصن القرانع بالطويلة السيد حسين بن محمد الهادى وتلقب بالمنصور بالله وأذيعت أخبار بأنه تمكن من اكتشاف الكنوز كما قيل ان الجن تخدمه فأقبل عليه الناس من جميع الجهات وراسله أهل صنعاء وكانوا قد ولوا عليهم الشيخ احمد بن أحمد الحيمى السُّوَيْدى وخضعوا له من سنة تسع وستين رغما من

أنه لم يكن من أهل العلم والمعرفة وإنما ساعده الحظ وخدمته الظروف وفى هذه السنة سئم الناس حكمه وهموا بالفتك به ولكنه أسرع بالخروج من صنعاء وسار إلى الحَبْت قاصداً الوصول إلى الحديدة لحث الأتراك على الزحف على صنعاء والاستيلاء عليها فعرفته بعض القبائل وكشفت أمره وألقت القبض عليه وسارت به إلى المنصور حسين بن محمد الهادى الذى قدم به إلى صنعاء وحبسه بها .

وفى سنة ست وسبعين ولى أهالى صنعاء عليهم الشيخ محسن بن على معيض الذى بقى أميرا عليها حتى وصلها الأتراك .

وفى سنة سبع وسبعين استولت جماعة المكارمة الذين كانوا بحراز على بعض بلاد الحيمة فجهز عليهم الإمام المتوكل على الله المحسن بن أحمد جيشا ضخما كثير العدد وجعل قيادته لسيف الخلافة محمد بن يحيى حميد الدين جد مولانا أمير المؤمنين خليفة العصر الإمام الناصر لدين الله ودامت الحرب بينهما طويلا حتى سئمت القبائل وعادت إلى بلادها ورجع الإمام المتوكل إلى محل سناع فى جنوب مدينة صنعاء .

وفى سنة سبع وثمانين هاجم محمد بن عائض صاحب عسير مدينة الحديدة وكانت فيها قوة من الأتراك مع الباشا على الحلبى السالف الذكر فصدت القوة التركية قبائل عسير ورموها بالمدافع حتى هزموها وردوها على أعقابها ولما علم السلطان عبد العزيز ابن محمود بما كان من اعتداء محمد بن عايض وغدره رغما من إحسان الدولة العلية إليه جهز عليه جيشاً كبيراً تحت قيادة رديف باشا وزحف هذا الجيش على بلاد عسير وضرب حصون محمد بن عايض وقبض عليه وقتله رديف باشا غيلة ولكن السلطان عبد العزيز لم يرتض قتله وعزل رديف باشا ونقل القيادة إلى أحمد مختار باشا

وفى سنة ثمان وثمانين سار أحمد مختار باشا بعد تنظيم بلاد عسير إلى الحديدة وكتب إليه أهل صنعاء وغيرهم وطلبوا إليه الوصول إلى صنعاء بعد أن سئموا من

الفوضى التى كانت سائدة فيها وتسلط رجال القبائل وقطع الطرق وعدم استتباب الأمن فيها فزحف الأتراك من تهامة إلى الجبال وقضوا على دولة المكارمة بحراز وقد سلفت الإشارة إلى ذلك .

دخول الأتراك مدينة صنعاء

وفى سنة تسع وثمانين ومائتين وألف فى شهر صفر دخل الأتراك مدينة صنعاء ونظموا الحكومة وأذعنت لهم القبائل المجاورة للمدينة ولكن تخلف عن الخضوع لهم على بن حسين الدّفعى وجماعة من أصحابه وكان مقيما بمحل شعوب إلى الشمال من صنعاء وقد قَطَع الطريق وأكثر من القتل والسلب فوجه الأتراك إليه قوة هدمت بيته بالمدافع وألقت القبض عليه وعلى جماعته وأراحت الناس من شره وبعد ذلك زحف الأتراك على بلاد أرحب وخولان والحدا وغيرها وأذلوا القبائل ونزلت قوة من الأتراك إلى اليمن الأسفل فاستولت عليه وذعرت منها قبائل ذى غيلان كما زحفت قوة أخرى من صنعاء لحصار حصن كوكبان وكان به الأمير الحلاحل أحمد بن محمد شرف الدين وبعد حصار دام ستة أشهر تم الصلح بين الفريقين على تسليم الحصن للأتراك ودخول أمير كوكبان إلى صنعاء كما أسلفنا ذكره وكان الإمام المتوكل على الله المحسن بن أحمد عند وصول الأتراك مقيما بمحل سناع فانتقل قبل دخولهم صنعاء إلى بلاد حاشد وسكن بها حتى توفاه الله سنة خمس وتسعين ومائتين وألف بمدينة حوث ودفن بها وخلف أولاداً منهم سيف الإسلام محمد بن المتوكل وعبد الله بن المتوكل اللذين لايزال لهما عقب بمدينة السودة وبمدينة صنعاء .

الإمام الهادى لدين الله شرف الدين بن محمد

وفى سنة ست وتسعين ومائتين وألف فى شهر صفر دعا الإمام الهادى لدين الله شرف الدين بن محمد بن عبد الرحمن بن الحسن بن أحمد بن الحسن بن محمد بن عبد الله

ابن محمد بن ابراهيم بن على بن عبد الله بن محمد بن الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة من ظفير حجة ثم انتقل إلى جبل الأهنوم وسار إلى مدينة صعدة فأصلح أحوال بلادها وبايعته قبائلها وغزا الأتراك إلى ظفير حجة فى أيام الوالى محمد عزت باشا ولم يزل على أحسن حال حتى توفى فى شوال سنة سبع وثلثمائة وألف بحصن السنارة جنوب مدينة صعدة ونقل جثمانه إلى محل المدان من جبل الأهنوم ودفن به وكان عالماً فاضلا خلف أولاداً منهم السيد العلامة سيف الإسلام محمد بن الهادى والقاسم والمطهر وغيرهم .

الامام المنصور بالله محمد بن يحيى حميد الدين

هو الإمام المجتهد المجدد المنصور بالله محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن محمد بن اسماعيل بن محمد بن الحسين بن الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد عليه السلام كانت ولادته بمدينة صنعاء فى سنة ١٣٥٥ وقد نشأ نشأة السابقين من آبائه آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر قرأ على أكابر علماء عصره وعندما ظهر نبوغه أخذ عنه كثير من أهل العلم وكان فارساً شجاعاً قاد الجيوش إلى الحيمة لإخراج المكارمة منها وحبس فى الحديدة فى أيام الوالى مصطفى عاصم باشا مع من حبس من العلماء لانتمائهم إلى الإمام المتوكل وكان محمود السيرة مهيب الجانب محبوباً حازماً ولذلك فإنه لما مات الإمام شرف الدين أجمع العلماء الذين كانوا بحضرته على مبايعة الإمام المنصور بالله الذى كان يؤمئذ بصنعاء لأنهم لم يجدوا من يصلح للإمامة غيره وسرعان ما أرسلوا إليه الرسل يحثونه على المبادرة بالحضور لمبايعته فاعتذر لهم ولكنهم لم يقبلوا عذره وألحوا عليه إلحاحاً شديداً وذكروا له أن أمر بيعته قد اشتهر ويخشى عليه من الأتراك ولذلك خرج من صنعاء وتبعه ولده (الإمام يحيى بن محمد حميد الدين) ولم يزل يتنقل من بلدة إلى أخرى ومن مكان إلى مكان حتى وصل إلى مدينة صعدة وقد تبعه عدد كبير من رجال القبائل وكان قد خرج من صنعاء دون أن يأخذ شيئاً من أمواله بل ترك بها كل ما كان

واستطاع محبوه من أهالى صنعاء أخذ منقولاته فى الليل واحتفظوا له بها وعند وصوله إلى صعدة اجتمع به العلماء والأعيان وأهل الرأى فى البلاد وبايعوه وتلقب بالمنصور بالله ووضع يده على ما كان قد جمعه الإمام الهادى شرف الدين لبيت مال المسلمين وفى شهر محرم سنة ١٣٠٨ انتقل إلى الدان من جبل الأهنوم ومنها أخذ يرسل رجاله وأتباعه إلى جميع الأقطار اليمنية لبث الدعوة له ودعا القبائل لحرب الأتراك فأجابته إلى ما طلب وقد وقع خروجه من صنعاء وقع الصاعقة على رجال الدولة وذلك نظراً لما كان له من الهيبة والنفوذ فى رجال القبائل الذين كان الأتراك يخشون بأسهم رغم ما كان لديهم من الرجال والأموال وكانت قبائل اليمن قد سئمت ضغط الأتراك ولذلك سرعان ما التفت حول الإمام المنصور بالله وبذل رجالها أموالهم ونفوسهم فى سبيل نصرته .

وفيها أيضاً اجتمع مشايخ الشرف مع كبيرهم السَّنَيْدار وساروا إلى الإمام المنصور بالله إلى الدان وطلبوا منه المعونة لشن الغارة على الأتراك الموجودين بقُفْل شَمْر التابع لقضاء حَجُور فأمدهم بالسلاح والمؤن واجتمعوا فى الشاهل وكان الأتراك الذين فى قفل شمر قد كتبوا إلى القائد محمد عارف وكان فى حجة فأسرع فى بلوكين من الجنود ولكن جماعة من العرب كمنت له فى الطريق وقتلته هو وبعض أصحابه وأسرت الباقين وعندما علم الوالى بذلك استدعى الجنود الموجودين فى آنس وذمار وتعز وأرسل بهم لإمداد القوات الموجودة فى قفل شمر كما أبرق إلى السلطنة يطلب إمدادات منها وجاءه الرد بتجهيز خمسة عشر طابوراً من الجنود وستة مدافع .

وفى هذه السنة أيضاً أعلنت قبائل أَرْحَبْ الانضمام إلى الإمام وأرسلوا رهائنهم إليه كما تقدم جمع من قبائل حاشد نحو حصن الظفير واستولوا عليه وكما استولى غيرهم على أمكنة أخرى من قضاء حجة وحاصروا مركز القضاء .

وفى هذه السنة أيضاً عزل الوالى اسماعيل حافظ باشا وعين مكانه حسن أديب باشا الذى وصل إلى اليمن ومعه الأمير الاى أحمد رشدى بك على رأس قوة عسكرية قوامها

٦٠٠ جندى مسلحين بسبعة مدافع تقدموا إلى حجة لفك الحصار عن القوات الموجودة بها وفيها أيضاً ثارت قبائل عيال سَرِيْح وأَرْحَب وبعض بنى الحرث وهمدان وناصروا الإمام وأخذوا يهاجمون المحلات القريبة من صنعاء ، ولم يصل الوالى حسن أديب باشا ومعاونه احمد رُشْدى بك ومن معه من الجنود إلى حَجَّة إلا بعد قتال عنيف وخسائر فادحة .

وفى هذه السنة أيضاً سار السيد أحمد الشَّرْعى فى جمع كبير إلى بلاد البُسْتان واستولوا على بعض القرى وقد أراد الأتراك الذين كانوا بصنعاء الغارة على حجة وقامت قوة منهم مؤلفة من ثلاثة طوابير بقيادة على باشا ومصطفى نافذ ، ولكن عندما بلغهم احتشاد عدد عظيم من رجال القبائل رجعوا وساروا إلى شبام ولكنهم لم يستطيعوا التقدم فرجعوا إلى عمران ووقعت بينهم وبين العرب معارك طاحنة وعندما دخلوا مدينة عمران حاصرهم رجال القبائل فيها .

وفى سنة ١٣٠٩ توفى إسماعيل حافظ باشا وتتابع تمرد قبائل اليمن على الأتراك وأجمعت على محاصرة صنعاء فكثر الخوف واشتد الخطب وعندما وصلت البوستة من استنبول إلى الحديدة وكانت فى طريقها إلى يازل من بلاد البستان هاجمتها القبائل واستولت عليها وأسرت حراسها وأخذت منهم أسلحتهم وخيولهم وأرسلت بها إلى الإمام وعندما أرسل وكيل الوالى قوة من الجنود لتأديب رجال القبائل الذين استولوا على البوستة اجتمعت عليها القبائل من بلاد البستان وغيرها وبعد معركة حامية الوطيس تقهقر الأتراك إلى مدينة صنعاء بعد أن أصيبوا بخسائر فادحة فى الأرواح وبعد ذلك دخل رجال القبائل بقيادة سيف الإسلام محمد بن محسن فى الروضة وقطعوا طريق صنعاء وعندما وصلت النجدات التركية من الحَيْمَة لفك الحصار عن العاصمة هاجمها العرب واستولوا على ما كان لديهم من الأسلحة وأسروا قوادهم وأرسلوهم إلى الإمام ثم نشبت

معركة عنيفة بين القوات التركية بقيادة مصطفى نافذ فى قرية الجَرْداء جنوب صنعاء وكان فيها سيف الإسلام محمد بن محسن وجماعة من أصحابه واضطر الأتراك بعدها إلى العودة إلى صنعاء فى أسوأ حال وبعد هذه المعركة اشتد الحصار وزادت أسعار الحبوب فى صنعاء زيادة عظيمة واضطر الكثيرون من الأهالى إلى هجر المدينة والخروج منها ولكنهم لاقوا كثيراً من المتاعب من رجال القبائل فى الطُرقات وقد انتشرت الحروب فى بلاد اليمن وسقطت هيبة الحكومة التركية فى كل مكان واحتل رجال القبائل الكثير من دور الحكومة وقبضت على الكثيرين من المديرين وكبار الموظفين وأرسلوهم أسرى إلى الإمام وإزاء هذه الحالة لم تر الدولة العلية مفراً من إعادة الوالى أحمد فيضى باشا إلى اليمن وكان قد عُيّن والياً على الحجاز فعاد إلى اليمن فى وظيفة « مأمور إصلاحات وقومندان العساكر باليمن » ووصل إلى الحديدة ومعه سبعة آلاف جندى من عساكر الرديف وقد استطاع هذا الوالى تفريق جموع القبائل وتشتيت شملهم بعد مواقع دامية استمرت مدة بين الفريقين وهكذا استطاع فك الحصار عن صنعاء وخرجت العساكر الذين كانوا بصنعاء للقائه ودخل الوالى حسن أديب والقومندان أحمد رشدى بك إلى صنعاء واستقر أحمد فيضى باشا فى بيت عذران حتى نقل الكثير من الحبوب منها إلى صنعاء ثم انتقل إلى جهات الروضة والجراف وأخذ يضربهما بقنابل المدافع ففر الكثيرون من أهاليهما ودخل فيضى باشا فى الروضة بعد أن أمن أهلها وبعد ذلك أرسل فيضى باشا قوة من عساكر الرديف بقيادة على باشا إلى قريتى جَدِر فأخربوهما بالمدافع ودخلوهما وأحرقوهما ثم دخل فيضى باشا صنعاء وحضر تلاوة فرمان الولاية لحسن أديب وترك قوة من الجنود فى الروضة وقد وصل إليه رؤساء القبائل المجاورين لصنعاء ثم تقدم فيضى باشا إلى همدان وقامت الحرب بين الأتراك وهمدان فى قرية الحاورى ودخلتها الأتراك وأذعنت همدان للطاعة وأخضعت الأتراك قبائل عيال مِرَيْح واحتلت مدينة عمران وخرجت الأتراك من صنعاء إلى غَيْمان وأقبلت إلى فيضى مشايخ خولان

معلنةً بالطاعة فانتقل إلى جهران ثم إلى زمام ويريم ثم عاد إلى صنعاء وبعد هذه الجهود التى قدمها أحمد فيضى باشا قدرته الدولة وعزلت الوالى حسن أديب وعينت فيضى باشا والياً على اليمن للمرة الثانية .

وفى هذه السنة غزت قبائل بنى أسْعَد من بلاد أنس الأتراك وأخذت فى قطع الطرق ونهبت قافلة كانت قادمة من الحديدة وكان يرأس هذه الحملة الشيخ على القداد ولما تم للوالى أحمد فيضى إرجاع المراكز التى كانت بيد الأتراك عزم على غزو الإمام المنصور بالله إلى بلاد حاشد وخرج من صنعاء فى قوة كبيرة من الجنود والسلاح ولما وصل بلاد بنى عبد كانت هنالك حرب انهزم فيها بنو عبد ودخلت الأتراك بلادهم ثم ساروا إلى خمر وتوغلوا فى بلاد حاشد حتى وصلوا القفلة وانتقل الإمام المنصور بالله إلى جبل كوكب وسار ولده سيف الإسلام يحيى إلى جبل برط ومعه بعض أسرى الأتراك والمأمورين وقد أراد فيضى تعقبه لإطلاق سراح الأسرى وفعلا استطاع بما فعله من الرشوة لقبائل ذى محمد أهل جبل برط إخلاء سبيلهم ثم توجه إلى صعدة فأظهر أهلها استعدادهم لإرسال من عندهم من أسرى الأتراك إلى متصرف عسير وساء الإمام المنصور بالله ذلك .

وفى سنة ١٣١٠ رجع فيضى باشا إلى صنعاء واستقر الإمام المنصور فى بلاد الأهنوم وأخذ فى إصلاح أمور البلاد وأنشأ عدة مساكن لأهل العلم واستقدم لها كثيراً من العلماء .

وفى هذه السنة أرسلت السلطنة أحد رجالها وهو نامق بك لاستطلاع حقيقة الأحوال فى اليمن وقامت بينه وبين فيضى باشا الوحشة بسبب شكايات من الوالى تقدم بها بعض أهل اليمن إلى نامق بك .

وكان من نتيجة ذلك اعتقال كثير من اليمنيين ومنهم القضاة بنو الحرازى وفضيلة العلامة محمد بن حسن دلال وإرسالهم إلى جزيرة رودس وزاد ضغط فيضى باشا على اليمنيين

بعد سفر نامق بك إلى الآستانة مما أدى إلى إثارة الخواطر ضد الدولة العثمانية .

ولما شاع أمر الإمام المنصور بالله فى الأقطار العربية وعرف جهاده فى سبيل استقلال اليمن، وصلته كتب من زعماء العرب ومنها قصيدة من نظم شاعر العراق السيد جعفر الحِلّى النَّجَفى التى يقول فى مطلعها :

مُرْ وانهَ واحكم فأنت اليوم ممتثل ... والأمر أمرك لا ما تحكم الدُّوَل
عنك الملوك انثنوا عجزاً وماعلموا ... أأنت زدت علوًّا أم هو سفلوا
خلاص ذى التاج أن يعطيك طاعته ... لأمّه إن عصاك الوَيْل والهَبَل
ياسيداً لم يخف عزلًا لمنصبه ... والعزل منه بحذف اللام متصل
من كان فى دينه لله منتصراً ... فلا تقابله الأنصار والحول
هذا سبيل رسول الله أنت به ... أعطاكه أولياء الله والرسل
الدولة اليوم فى ابنا فاطمة ... بشرى فقد رجعت أيامنا الأُوَل
مُحَمَّدٌ اليوم قد أحيا بنى حَسَن ... كأنهم قط ما ماتوا وما قتلوا
سيوفكم لم تزل يا آل فاطمة ... منها نجيع الطلا المحمر ينهمل
الله أعلاكم قدراً وشرفكم ... وإنكم لهداة الناس لو عقلوا
والكل منكم شريف القدر ذو كرم ... يزينه خصلتان : العلم والعمل
فمن رآك رأى الهادى وعترته ... وفيك منه صفات ليس تنفصل
يمناك قد خصها البارى بأربعة ... لها العطا والدعا والسيف والقَبَل
أقلامك السُّمْر فى الأعداء قد فعلت ... ما ليس تفعله العَسَّالة الذُّبُل
لولاك ذلت بنو الأشراف قاطبة ... كما تذل إلى جَرَّارها الإبل

وقد أجاب عليها الإمام المنصور بالله بأبيات بليغة مطلعها :

بِيضُ الظُّبا وصدور الخيل والأَسَلُ ... يصلحن ما أفسد النوغاء والسَّفَل
[illegible] ... حنَّت لها صافنات الخيل والإبل

يا ناظما من بنى الزهر هَيَّج من ... شوق إلى نصر ما جاءت به الرسل

وقد جرت عدة مكاتبات بين الإمام المنصور بالله والوالى أحمد فيضى باشا وظهر الإمام فى كتبه بالحجة على مقدرة اليمن على حكم نفسها وأظهر استياء اليمنيين من أعمال موظفى الدولة ومقابلتهم الشعب بالسفه كما دافع الوالى عن حُسن نية السلطنة نحو اليمن وأكد أن الدولة العثمانية لا تضمر أى سوء للبلاد اليمنية ولكنها تريد المحافظة على استقلالها وعدم وقوعها فى أيدى الدول الأوروبية المستعمرة الواقفة للبلاد العربية بالمرصاد .

وفى سنة ١٣١٥ ثارت بلاد الشَّرَف على الأتراك واستولى أهلوها على كثير من سلاح الأتراك وفيها بعض المدافع كما أسروا بعض الموظفين وحاصروا الحامية التركية فى قُفْل شَمْر كما قامت اضطرابات شديدة فى بلاد آنس وكان يتزعمها الشيخ على المقداد أحد مشايخ آنس وقامت اضطرابات أخرى فى عدة أماكن من اليمن مما جعل الدولة العثمانية تبادر بعزل الوالى أحمد فيضى باشا فى أواخر سنة ١٣١٦ وترسل بدلا منه حسين حلمى باشا الذى استبشر الناس وبعض رجال الحكومة بمقدمه وحمدوا للدولة اهتمامها بنقل فيضى باشا وإبعاده عن ولاية اليمن بعد ما كان من تصرفاته التى لم ترض عنه أهل البلاد . ولقد أرسلت السلطنة برفقة حسين حلمى باشا واليها الجديد هيئة من المستشارين على رأسها حُسْنى بك الذى كان رجلا عالماً محبًّا لجمع الكتب العلمية وأهل العلم وكان أول عمل قام به الوالى الجديد أن جمع العلماء اليمنيين وأعيان البلاد من صنعاء وغيرها من المدن اليمنية ووعدهم بأنه سيسير فى ولاية البلاد بالعدل وأمر بعزل من أساء التصرف أو بدرت منه خيانة من موظفى الدولة كما حذر الموظفين من سوء معاملة الأهالى أو أخذ الرشوة منهم وعاقب من نسب إليه شىء من ذلك ولقد أسس إدارة المعارف ودار المعلمين ومكتب الصنائع وألزم الأهالى بإدخال أولادهم بالمدارس التى افتتح عدداً كبيراً منها وفى هذه الأثناء اقتصر عمل فيضى باشا على قيادة

عساكر الأتراك الموجودين فى اليمن ولم يبق بهذه الوظيفة طويلا إذ عزلته الدولة وعين قائداً للجنود التركية فى بغداد وقام على رأس القوة التركية فى اليمن المشير عبدالله باشا.

وفى هذه السنة زحف المشير عبدالله باشا بقوة من الجنود الأتراك على بلاد حاشد ودخل السُّودَة وكتب إلى الإمام المنصور يطلب منه إعادة الدفع الذى استولى عليه أهالى الشَّرَف ثم سار إلى وادِعَة ومنها إلى القَفْلة مما دعا المنصور إلى الانتقال إلى جبل كوكب وعادت القوة التركية إلى صنعاء دون أن تنال منه مأرباً .

وفى سنة ١٣١٨ وقع اعتداء على الوالى حسين حلمى باشا من بعض الموظفين الذين سبق عزلهم بسبب سوء تصرفاتهم فى أيام الوالى أحمد فيضى باشا ، ولكنه شفى من الرصاص الذى أصابه .

وفى سنة ١٣١٩ خرجت قوة من الجنود الأتراك إلى بلاد السُّودَة عندما علمت بدخول رجال الإمام فى قرية الخَدَرَة من بلاد عيال سِرَيْح وقد وقعت معركة عنيفة بين الأتراك ورجال الإمام كان النصر فيها حليف رجال الإمام واضطر الأتراك إلى التقهقر إلى مدينة عمران .

ولما رأت الدولة تصميم الإمام على مقاتلة جنودها أرسلت السيد حسن أبا الهُدى والفريق حسن باشا لاستطلاع الأحوال فى بلاد اليمن والسعى لإبرام الصلح بين الإمام والدولة العثمانية وقد استمرت المفاوضات بين المندوبين والإمام مدة من الزمن وانتهت إلى وضع شروط للصلح أرسلت إلى السلطنة لعرضها على الوزارة ولكن هذه الشروط لم تتم الموافقة عليها وعزلت الدولة حسين حلمى باشا وعين بدلا منه عبد الله باشا الذى جمع بين الولاية وقيادة الجيوش التركية الموجودة فى بلاد اليمن .

وفى سنة ١٣٢١ سار سيف الإسلام يحيى نجل الإمام إلى مدينة حَبُور ورافقه بعض أهل الرأى وعند ما وصل إليها وصلت إليه الوفود من جميع الجهات تقدم له الطاعة والخضوع وتعرض عليه استعدادها لقتال الأتراك إلى جانبه فجهز منهم جيشاً زحف

على بلاد نَيْسا وعَفَّار فتلقاه أهل البلاد بالطاعة والترحيب وقد خرج الأتراك من حجة لشد أزر بعض القبائل التى استنجدت بهم على رجال الإمام وقد وقعت الحرب بين الأتراك وأصحاب الإمام وانضم إلى رجال الإمام كثير من قبائل حاشد وبكيل وفى هذه الأثناء كتب سيف الإسلام يحيى إلى والده الإمام المنصور أبياتاً من الشعر يعبر فيها عن شوقه إلى دراسة العلم ورؤية والده وهذا مطلعها :

من لمن شاقه الحِمَا والمُصَلَّى ... وليالى العُذَيْب حالًا وقبلا

وتخلص من نسيبها إلى مدح والده الإمام المنصور فقال :

لست أسلو عن الصبابة إلا ... لديحي لأكرم الناس فعلا
من تردى بالمكرمات فأردى ... كل قِرْنٍ قد ساء فعلا وقولا
وله فى العلوم أوفر حظ ... كم لمعنى يدق يفتح قفلا
وهو باكورة الزمان سخاء ... وهو ناظورة الأئمة نُبْلا
وهو فى البأس حيدرى وفى الحلم ... إذا صلى الأحنف جَلَّى
سيد الناس أسلم الناس خير النا ... س للناس أحسن الناس قولا
ماجدٌ زاهد كريم همام ... عالم عامل إذا صال جلَّى

ومنها :

فليكف اليراع من ودق المدح ... وليُبْد ما بقلبى استقلا
طال مثواى فى حَبُور إلى أن ... مَلَّنى مجلسى وصبرى تولى
لست فى حَلْبَة الجهاد فأرضى ... بأمرّ الأشياء حولا فحولا
وكذا لم يكن جليسى أسفا ... رٌ من العلم تُلْهِنى أن أملا
يا أبا المجد والمكارم والسُّؤ ... دد والعلم زادك الله فضلا
يا إمام الأنام يا واحد الأيام ... لا زلت للعلا مستظلا
فلقد ضاق بالبقاء مقامى ... وسئمت القام والدهن كَلًّا

ومنها:

وإذا كنتم ترون صلاحا بالبقا فيه فالتردد أولى

وقد أجاب والده الإمام المنصور بالله عن هذه الأبيات بقصيدة بليغة مطلعها:

أيها النازلون أهلاً وسهلا فلكم فى الفؤاد أعلى محلا
من رعى فى الوداد عهداً قديماً ورعى فى الفؤاد عهد المُصلّى
يا رعى الله سالفات الليالى ولها بالصدود صرعى وقتلى
سَلَّ سيف الغرام بالصدّ لما صار صدّه الفؤاد يَفعمد نصلا

وتخلص من النسيب إلى مدح نجله سيف الإسلام فقال:

من لوصلى بمنيتى وسرورى وحُبُورى وفى حَبُور استهلا
قر الكون غرة الدهر من سا د جميع الأنام فرعا وأصلا
بحر علم وطود مجد وحلم من نشأ فى طاعة الله طفلا
سيف مولاه فى البريّة يُحْيى من يواليه قاصماً من تَوَلّى
حكّم البيض فى الطواغيت حتى حكّم الشرع شحرها والمُكلّا
نظّم الأمر فى الجماهير نظم الدر سمطاً ليحتليه المُحلّى

ومنها:

قل ليحى بسعيك الدين يحى ويصير الفساد عِهْناً ورملا
دمت للناظرين قرة عينٍ فى نعيم وسؤدد ليس يَبْلى

وفى هذه السنة اشتد القحط والغلاء فى البلاد اليمنية وقل الطعام ولم يبق بصنعاء إلا ما كان يجلب إليها من الدقيق من الحديدة الذى ارتفع سعره ارتفاعاً عظيماً. وكان السبب فى ذلك قلة الأمطار.

وفى صفر من سنة ١٣٢٢ اشتد المرض بالإمام المنصور وتولى أكثر أعماله القاضى

على بن عبد الله الإريانى وفى شهر ربيع الأول من هذه السنة توفى الإمام إلى رحمة الله بقفلة عِذَر فكتب ولده سيف الإسلام يحيى إلى العلماء يستدعيهم فحضروا ونعى إليهم والده الإمام وطلب إليهم أن يختاروا من يقوم بالأمر بعده فاتفقت كلمتهم جميعاً على أن لا يقوم مقام الإمام أحد مثل ولده وبايعوه بالإمامة وتلقب بالمتوكل على الله.

ومما تجب الإشارة إليه أن الإمام المنصور قد أحيا مجد آل القاسم بعد اندثاره وأعاد للخلافة معناها وغضارتها وقابل عظائم الأمور بعزم أمضى من القضاء.

وأفعال الرجال وإن تناهت إلى التاريخ خير الحاكمينا

كما أنه أحيا كثيراً من الأراضى التى كانت مملوكة لبيت المال وجعلها صالحة للزراعة بعد أن قضى عليها الإهمال كما أنشأ كثيراً من المدارس العلمية بشهارة والأهنوم وغيرهما من البلاد.

الباب السادس

فى دولة الإمام المتوكل على الله يحيى بن محمد حميد الدين

مؤسس الدولة المتوكلية

وفى شهر ربيع الأول من سنة ١٣٢٢ توفى الإمام المنصور بالله محمد بن يحيى حميد الدين بقفلة عِذَر من بلاد حاشد ونقل جثمانه إلى مدينة حوث حيث دفن بها ولقد كان الإمام المنصور من أجلة العلماء المحققين وكان حازما قويا فى أمر الله قابل الكثير من الحوادث الجسام فى أيام ولايته بعزم صادق وقد أنفق الكثير من الأموال فى نشر العلوم وإنشاء المدارس العلمية بالبلاد الشمالية وأحسن إلى أهل العلم وكان شديد الوطأة على الطغاة والظلمة ولم يترك أولاداً سوى ولده (الإمام) يحيى الذى أجمع العلماء على مبايعته

نظراً لما عرفوه فيه من الشجاعة وعلو الهمة وكرم الخلال ورجاحة العقل وقد تلقب بالإمام المتوكل على الله وكان مولده فى سنة ١٢٨٦ ونشأ فى مدينة صنعاء وأخذ عن والده وعلماء عصره وفاق الأقران حتى صدق فيه قول القائل :

لكل زمان واحد يقتدى به وهذا زمان أنت لاشك واحده

وقد تولى أيام والده الكثير من الأعمال وسكن أياماً فى مدينة حَجُور ولما طال به المقام واشتاق إلى رؤية والده أرسل إليه القصيدة العصماء التى سبق ذكرها .

وبعد وفاة المنصور بالله رثاه ابنه الإمام يحيى بأبيات بليغة منها قوله :

وقل للذى يبقى النوائل للهدى رويدك إنى للغواة نذير
ولابد لى ماعشت من شن غارة على إثر أخرى للعدو تبير

ولقد نهض الإمام يحيى نهضة صادقة بالبلاد وبث رسله فى كافة الأقطار اليمنية فاجتمعت إليه الوفود من بلاد حاشد وحَجُور والأهنوم وشهارة وسُفيان وغيرها كما لبى دعوته كثير من الزعماء وأهل الرأى والعلماء وفى مقدمتهم السيد عبدالله بن إبراهيم الذى كان من أنجب آل القاسم وكذلك السيد العلامة حمود بن محمد شرف الدين من سادات كوكبان وكان من أنجب آل شرف الدين وقد ساول الإمام يحيى الأتراك وحاصر صنعاء وغيرها من المراكز التى كانوا يحتلونها وقد عارضه فى أول الأمر السيد حسن بن يحيى القاسمى الذى دعا لنفسه فى قرية فَلَلَةَ من بلاد صعدة ولكنه فشل ولم تنجح حركته بعد حروب ومعارك دامية .

حصار صنعاء وفتحها للإمام يحيى

وفى سنة ١٣٢٣ عظم القحط واشتد الغلاء فى البلاد اليمنية وقلّ الطعام حتى إن الدقيق الذى كان يصل إلى صنعاء من الحديدة كان يباع الصاعان منه بريال وقلّ نزول الأمطار حتى هلكت الدواب وبيع الغالى من العروض بأرخص الأثمان وقد تفاقمت

الأحوال وزادت سوءاً بعد حصار صنعاء واستعرت نيران الحروب بين الإمام يحيى والأتراك وسقطت مدينة عمران وحَجَّة وثلا وغيرها فى يد أصحاب الإمام وانتقل الإمام من قَفْلة عِذَر إلى حُوث ثم إلى خَمِر ثم إلى عمران ثم بعد ذلك طلع جبل كوكبان وفى هذه الأثناء وصلت للأتراك إمدادات كثيرة جمعت من مختلف المراكز ولذلك أرادوا فك الحصار عن صنعاء ولكنهم لم يفلحوا وبعد ذلك وصلت قوة هائلة من الجنود الأتراك بقيادة رضا باشا إلى الحديدة واتجهت إلى صنعاء فى عدة كاملة وانضمت إليها طائفة من رجال قبائل يام فتلقاهم أصحاب الإمام فى الحَيْمة وبلاد البُسْتان ونهبوا ما كان معهم من زاد وسلاح واستسلمت قبائل يام وقدمت الطاعة لأصحاب الإمام الذين ساقوهم إلى كوكبان ولما وصلوا إلى الإمام أمرهم أن يطرحوا السلاح إبقاء على أرواحهم وقد وصلت القوات التركية إلى صنعاء فى حالة يرثى لها وكان من جراء ذلك أن زادت الشدة على من فى صنعاء فكتبوا إلى الإمام وأرسلوا إليه من يعتمدونه فى طلب الصلح وقد تم الصلح فعلا على خروج الأتراك من صنعاء إلى حراز على أن يتركوا للإمام كل ما للحكومة من مال وسلاح وعلى أن يقوم الإمام بإحضار الجمال لنقل أمتعتهم وتأمين الطريق فوفى لهم الإمام بما وعد وخرج الأتراك من صنعاء ولم تلبث أكثر البلدان اليمنية أن أعلنت الطاعة للإمام الذى سرعان ما استولى على صنعاء ووضع يده على جميع ما تركه الأتراك فى جميع المراكز ولم يبق بأيدى الأتراك سوى مدينتى تعز وإب وبلاد حراز والتهائم وقفل شَمْر فى الشرف طبق شروط الهدنة وقد دامت الحال على ذلك عدة أشهر .

دخول الأتراك صنعاء وخروج الإمام منها

بينما شرعت حكومة الإمام يحيى فى إصلاح البلاد وإدخال التحسينات اللازمة والعمل على استتباب الأمن وإعادة الرخاء والطمأنينة على قلوب الشعب أرسلت الدولة

العثمانية قوة هائلة من الجنود كاملة العدة بقيادة الوالى أحمد فيضى باشا وقد وصلت هذه القوة إلى الحديدة وبمجرد وصولها انضمت إليها القوات التركية التى كانت فى حراز واتجهت هذه القوات الكبيرة إلى صنعاء وهزمت القبائل التى لم تستطع المقاومة واضطر الإمام إلى إخلاء صنعاء وانتقل إلى بلاد حاشد ودخل الأتراك عاصمة اليمن فى غرة رجب من تلك السنة واسترد الوالى أحمد فيضى باشا جميع البلاد التى كان الإمام قد استولى عليها منها شبام وكوكبان وعمران وحجة وغيرها من البلدان .

زحف الأتراك على شهارة وهزيمتهم

اغتر الوالى أحمد فيضى بما ناله من النصر وبدخول صنعاء فعزم على الزحف على شهارة لاسترداد جميع ما وقع فى يد الإمام من المدافع والأسلحة والأسرى فخرج من صنعاء فى قوة كبيرة مسلحة بالمدافع والأسلحة الحديثة ودخل بلاد حاشد ولم يجد سوى مقاومة بسيطة كما سار يوسف باشا إلى شهارة من طريق حجور وعندئذ جمع الإمام أصحابه فى شهارة وعلى رأسهم السيد عبد الله أبو مُنَصر واتفق رأيهم على الدفاع عنها وقد طلع الأتراك جبل العَيَازِرة المحاذى لجبل شهارة من الغرب وكانت مطارح أصحاب الإمام خارج أبواب شهارة وعندما وصل الأتراك إلى الأبواب وقعت بينهم وبين أصحاب الإمام معارك حامية الوطيس انهزم فيها الأتراك شر هزيمة وتردى بعضهم من الجبل وألقيت عليهم الأحجار فتقهقر الوالى أحمد فيضى من جبل العيازرة وعندئذ اشتد ساعد القبائل اليمنية وخرجوا من الكهوف وأخذوا فى مطاردة الأتراك الذين فروا إلى الأودية تاركين كثيراً من المدافع والأسلحة وآلات الحرب التى غنمها العرب وقد امتلأت البقاع حول شهارة بأشلاء الأتراك وحاصر العرب قوات رضا باشا فى غُرْبان وحالوا بينه وبين الاتصال بأحمد فيضى باشا بعد هزيمته فى شهارة وقضوا على تلك القوة التى كان فيضى باشا قد تركها لحماية ظهره .

وفى أثناء حصار شهارة قام أصحاب الإمام بغزو الأتراك الذين كانوا بسوق الدَّوْمَة

ونهبوا كميات كثيرة من المؤن كانت مرسلة إلى الأتراك وهذا الأمر كان سبباً فى زلزلة أقدام أحمد فيضى باشا وهزيمته فى شهارة ، وقد قال الشعراء فى وصف هذه الحروب قصائد كثيرة منها قصيدة للقاضى البليغ حسين بن أحمد العرشى التى مطلعها :

بذا خبِّرى فلينقل النظم راقه ... وللمجد فليرو العلا من ينادمه
وعن مَعْشر قد لازموا العز عنوة ... وللعز من يُعْنى به ويلازمه
بأيدى رجال لا يرى العجز عندهم ... يقيم ولا منهم مقيم يساله
رجال من الأحرار أمست شهارة ... لهم حرما لا تستباح محارمه

ومنها قوله :

وذو سَطْوَة أمسى أسيراً وآخر ... يعفره عند الصدام مصارمه
من السَّرْو باب النصر نادى بصوته ... الا نحو هذا المجد فليدن عادمه
فيالك من يوم هناك ومعقل ... ومعترك ما سالم العجم ساله
ومن معقل قد علقوا بجبينه ... حجاباً رءوس الأعجمين تمائمه

إلى آخرها .

وقال السيد البليغ محمد إبراهيم الشامى هذه الأبيات :

ومُخبرة بالصدق والصدق مقبول ... وقائلة والحق بالنصر موصول
ألا هاكم أخبار من فى شهارة ... أسود الشَّرى والأكرمون البهاليل

ومنها :

ولله خولان الطِّيَال فإنهم ... سهام لها فى الأعجمين أفاعيل
ومن أرْحَب الشُّم الكرام وحاشد ... رجال لهم فى المجد سبح وتأصيل
ولله در الحارثية فى الوغى ... عليهم من المجد الأثيل سرابيل
ومن آنس والحَيْمتين أولى النهى ... طلائع حرب للسرايا مراسيل

وللمجد فى الأيوم مأوى ومسرح ... وكم فيهم بالعز والمجد مشمول
ولما التقى الجمان باب شهارة ... ولله تكبير لدينا وتهليل
وثار دخان الحرب حتى كأنه ... سحاب لها فيهم وبال وتنكيل
وأمطر فيهم مزنتنا الموفى الفنا ... كما قد رمت فى الجيش طير أبابيل
ودارت رحى الحرب فوق رؤوسهم ... وما فيهم إلا جريح ومقتول
فأرواحهم السيف نهب ومالهم ... غنيمتنا واللحم للطير مأكول
سروا نحو باب السر ليلا فأصبحوا ... وقد نحروا بالنحر والنصر مأمول
وصلت إلى باب الصلال رؤوسهم ... بحد سيوف ليس فيهن مفلول
وأضحت نساء الروم بين حزينة ... وأرملة والأمهات مثاكيل
وألف قتيل قدروهم وإنما ... أقول بأن القول بالألف تقليل

إلى آخرها .

وفى سنة ١٢٢٥ أرسل السلطان عبد الحميد جماعة من علماء مكة من بينهم عبدالله ابن عباس إلى اليمن لينصحوا الإمام وليحثوه على عقد الصلح وإصلاح ذات البين وعندما وصلوا إلى صنعاء كتبوا إلى الإمام بذلك فأجاب عليهم الإمام بجواب بليغ كامل الأطراف موضحا الأسباب الداعية لقيام أئمة اليمن ضد الأتراك .

وفى سنة ١٣٢٧ تم خلع السلطان عبد الحميد وقيام أخيه السلطان محمد رشاد .

وفى سنة ١٣٢٨ عين والياً على اليمن محمد على باشا وكان من أركان حزب الاتحاد والترقى الذين قاموا بخلع السلطان عبد الحميد ولما وصل هذا الوالى الجديد إلى صنعاء اعتقد أنه لايصلح الناس إلا القسوة وأراد معاملة الناس بالغلظة ولذلك شمر الإمام يحيى واستعد لحربه وحاصر صنعاء واحتل بعض مراكز الاتراك عنوة .

وفى سنة ١٣٢٩ وصل إلى اليمن الوالى أحمد عزت باشا على رأس قوة كبيرة ففك الحصار عن صنعاء وسعى فى عقد الصلح بين الإمام والدولة العثمانية فتم ذلك

وصلحت الأمور واجتمع الإمام يحيى بالوالى أحمد عزت باشا بمحل دعان لإتمام الصلح وكان عزت باشا قد أرسل القاضى العلامة الحسين بن على العمرى والسيد العلامة قاسم ابن حسين العزى أبوطالب إلى الإمام للمفاوضة فى شأن الصلح وأرسل معهما القاضى فخر الإسلام عبدالله بن حسين العمرى لمعاونتهما. وقد سبقت الإشارة إلى هذا الصلح وشروطه وما كان له من أثر فى الباب السابق وبعد ذلك سافر عزت باشا إلى الاستانة وحل محله الوالى محمود نديم .

حركة السيد محمد بن على الإدريسى بتهامة

كان السيد أحمد بن محمد الإدريسى جد السيد محمد بن على بن محمد بن أحمد بن محمد من أهل النسك والصلاح والتقوى وقد خرج من المغرب الأقصى إلى صبيا من بلاد تهامة اليمن وأقام بها حتى توفى فى سنة ١٢٥٣ وقد أقام السيد أحمد الإدريسى أثناء إقامته بتهامة سيادة روحية وصار أبناؤه يسامون أشراف أبى عريش وقد خلف السيد أحمد الإدريسى ولده محمد الذى تزوج من جارية سودانية ولدت له السيد على بن محمد وتزوج السيد على بفتاة هندية هى والدة السيد محمد بن على فأنجب منها ونبغ وكانت ولادته بصبيا وسار وهو شاب إلى مصر فالتحق بالجامع الأزهر ودرس به وكانت الأسفار قد زادت من مطامعه ووسعت مداركه وجعلته يبرز فى عالم السياسة فعاد إلى صبيا والفوضى ضاربة فيها أطنابها واستطاع أن يضم جماعة كبيرة إلى حزبه وهكذا بدأ ظهوره فى سنة ١٣٢٧ واهتم رجال الدولة العثمانية به فى أول الأمر فخدعهم وأظهر الانتماء إليهم وما زال يعمل فى الخفاء ويثير القبائل على الدولة العثمانية ويستولى على بعض البلاد وأرسل عمه السيد مصطفى سنة ١٣٢٨ لمحاصرة أبها فاستنجدت الدولة العثمانية بشريف مكة الحسين بن على فخرج من مكة فى شهر ربيع الثانى سنة ١٣٢٩ وفك الحصار عن أبها واعتصم الإدريسى بجبال فيفا .

وفى سنة ١٣٢٩ أعلنت إيطاليا الحرب على الدولة العثمانية وأخذت فى احتلال طرابلس الغرب ثم حولت نظرها إلى البحر الأحمر وحاصرت ولاية اليمن وأطلقت مدافعها على أغلب موانىء اليمن ووقف الأسطول الإيطالى بجازان ولما بلغ الإدريسى ذلك نزل من جبال فَيْفا إلى صبيا وتخابر مع إيطاليا وأبدى استعداده لمساعدتها فأنزلت إليه كمية من الدافع والبنادق واستأنف هو الحرب مع الدولة العثمانية من جديد ولما بلغه عقد الصلح بين الدولة العثمانية وبين إمام اليمن المتوكل على الله يحيى ازداد حنقه ومد مخالبه إلى البلدان الأمامية كحجور ورازح وما جاورها ولذلك رأى الإمام يحيى والوالى محمود نديم إرسال هيئة مشكّلة من ممثلى الدولة وبعض رجال الإمام لعرض النصيحة على السيد محمد بن على الإدريسى بانضمامه إلى الدولة العثمانية والانفصال عن الأجانب وفى سنة ١٣٢٩ سار الوالى محمود نديم ورئيس التدقيق حسن كامل والسيد العلامة قاسم بن حسين العزى أبوطالب وكاتب الوالى وقتئذ القاضى عبدالكريم ابن أحمد مطهر إلى الحديدة ومنها إلى اللحية وانضم إلى هذا الوفد نائب الإمام فى بلاد حَجُور السيد العلامة أحمد بن يحيى عامر ثم سار الوفد مع الوالى على ظهر الباخرة الحميدية إلى جازان وانضم إلى أعضائه السيد عبدالبارى الأهدل ومتصرف الحديدة وتم الاجتماع بالإدريسى فى عدة أماكن ولكن الوفد لم يستطع الاتفاق معه ولم تصل المفاوضة معه إلى نتيجة فعاد الوفد إلى صنعاء واشتعلت نار الحرب بين أصحاب الإمام والأدارسة فى بلاد حَجُور وخولان الشام ورازح وغيرها .

وفى سنة ١٣٣٢ نشبت الحرب العالمية الأولى وانضمت الدولة العثمانية إلى ألمانيا وفى سنة ١٣٣٣ سار من صنعاء القائد الكبير على سعيد باشا للاستيلاء على لحج وعدن ولإقلاق راحة الإنكليز ولكى يشغل الدولة البريطانية بقدر الإمكان وقد انضم إلى الأتراك كثير من العرب من قبائل القاهرة وتعز وجبل صَبْر والمُدَين وجِبْلَة وإب والحجرية والحواشب وهاجموا مدينة لحج ونهبوها واستمرت المناوشات والمعارك

بين قوة الأتراك بلحج وحكومة عدن حتى نهاية الحرب العالمية وفوز الحلفاء بالنصر فيها واستسلمت قوة سعيد باشا إلى حكومة عدن سنة ١٣٣٧ . وقد ضرب الإنجليز مدينة الحديدة بالمدافع من البحر وأنزلوا بها بعض جيوشهم ورتبوها وطلبوا تسليم الأتراك الذين باليمن حسب شروط الهدنة التى فرضتها دولة بريطانيا ولكن القومندان أحمد توفيق أمر بتسليم الأسلحة والمدافع ومابقى من أدوات الحرب إلى مولانا الإمام مقابل ما كان له من ديون عليهم وكتب إلى رؤساء العساكر بأن يسيروا من جميع الجهات المتفرقة إلى الحديدة وهناك حملهم الإنجليز إلى عدن كأسرى فمكثوا بها أياما ثم حملهم الإنجليز إلى جزيرة مالطة ثم إلى الأناضول وكان تسليم الأتراك نزولا على الأوامر التى وصلتهم من الآستانة ولكن الوالى محمود نديم وبعض الموظفين الآخرين آثروا البقاء فى اليمن تحت ظل حكومة الإمام المتوكل على الله فأقاموا فى البلاد فى أحسن حال وأجرى لهم الإمام المرتبات والمعاشات اللازمة وعيّن بعضاً منهم لشغل بعض المناصب الحكومية .

دخول الإمام صنعاء وإعلان استقلال اليمن

بعد أن هُزِمت الدولة العثمانيـة وخضعت لشروط الصلح الثقيلة التى كانت تقضى بتسليم الجنود الباقين باليمن والمدينة المنورة وعسير مع معداتهم وأسلحتهم إلى الإنجليز ألزم الصدر الأعظم قائد الجيوش التركية باليمن بتنفيذ شروط الهدنة واستصوب الوالى محمود نديم والقومندان أحمد توفيق دخول الإمام إلى صنعاء عاصمة اليمن واستلام قصر غُمْدان وما فيه من المعدات فأرسل الإمام مندوبيه لاستلام القصر وأمر بترتيبه وحصر مافيه وأرسل السيد على بن عبدالله الوزير على رأس جماعة من الجنود إلى حراز لتسلم حصونها وترتيبها ودخلت جماعة الاسماعيلية فى الطاعة .

وفى صفر سنة ١٣٣٧ دخل الإمام يحيى صنعاء فى احتفال عظيم وقصد جامعها لأداء صلاة العصر فاستقبله العلماء والأعيان ورجال الدولة أحسن استقبال وسكن بئر العزب (١) وعند ما استقرت الأمور مد يده إلى أطراف اليمن وتهامة وغيرها وولى العمال والقضاة فى البلاد وأمّن السُّبُل وأخمد الثورات التى قام بها رجال القبائل وقبض على البلاد بيد من حديد ووسّع دائرتى البرق والبريد واستخدم بعض أطباء الأتراك وكثيراً من ضباطهم وأمر بتدريب الجيش اليمنى الظفر فكان لذلك أعظم الأثر فى استتباب الأمن العام وإخماد الثورات العدائية وفتح المدارس الابتدائية والمدرسة العلمية التوكلية ثم أخذ فى توسيع دائرة المعارف ولاسيما بعد أن أناطها بنجله صاحب السمو الملكى الأمير سيف الإسلام عبد الله وفتح الكثير من المدارس الابتدائية فى جميع بلاد اليمن وفتح المدارس العلمية فى صعدة وحوث وزبيد وتعز وفتح مدرسة ثانوية ومتوسطة بصنعاء وأسس مدرسة خاصة للأيتام . وقد وفدت على الإمام الوفود من جميع بلاد اليمن لتظهر إخلاصها للدولة المتوكلية وأقر الإمام كثيراً من أصحاب الوظائف الذين كانوا قد عينوا فى أيام الدولة العثمانية وأبقاهم فيها ونصب رئيساً لكتاب الديوان بمقامه: القاضى العلامة عبد الكريم بن أحمد مطهر وعيّن رئيساً للوزارة القاضى عبدالله ابن الحسين العمرى وناط رئاسة الاستئناف بالقاضى الحسين بن على العمرى وأرسل السيد على بن عبد الله الوزير لإصلاح بلاد تعز وتهدئة الأحوال بها كما أرسل السيد عبد الله بن أحمد الوزير لفتح وصابين وبلاد زبيد وغيرها .

وفى آخر تلك السنة سلم الإنجليز مدينة الحديدة إلى الإدريسى الذى زعم أنه دخلها لإجلاء الأتراك عنها وعن بلاد اليمن ولما دخلت الأدارسة مدينة الحديدة صارت حدود البلاد التى دخلوها متصلة بحدود بلاد الإمام فاشتعلت نار الحرب فى تهامة وأطراف حراز وغيرها وطلع أصحاب الإدريسى إلى جبل بُرَع وأطراف رَيْمَة ولم تزل الحروب

(١) نزهة فى غربى مدينة صنعا ذات حدائق جميلة وفيها يقول القاضى على العنسى :

وبغربى أزال نزهة ... جوها يسترقص القلب طرب
طلق الهم بها ساكنها ... ولهذا سميت بئر العزب

متصلة ومستمرة حتى انقشعت تلك السحاب بموت السيد محمد بن على الإدريسى سنة ١٣٤١ فخضعت تهامة وجبل بُرَع للإمام المتوكل على الله ولقد كان من جراء دخول الأدارسة فى مدينة الحديدة بمساعدة الإنجليز أن فتح الإمام المتوكل على الله بلاد الضالع وبلاد الشُّعَيْب ومِرَيْس وبلاد الأجْعُود وغيرها من النواحى المجاورة لعدن .

وفى سنة أربعين بعث ملك الحجاز الشريف الحسين بن على مندوباً إلى الإمام المتوكل على الله الشريف محمد بن على السَّقاف الحضرمى وكان رئيس الأشراف بمكة فنزل ضيفاً على الإمام ولما أزمع على الرحيل رأى الإمام أن يوفد معه بعض أصحابه ردًّا للزيارة فعين فضيلة السيد محمد بن محمد زبارة الحسينى وأصحبه قصيدة غراء أنشأها السيد العلامة الأديب يحيى بن علىّ الذارى وهى تحث على الوفاق بين الأمة العربية ومستهلها :

مُغْلَغَلَةٌ منشورة فى المحافل ... تهيم وتذرى الدمع تهيام ثاكل

وأجاب عنها الشيخ فؤاد الخطيب بقصيدة بليغة ونشرتهما يومئذ جريدة القبلة بمكة.

وصول الأديب الرَّيْحانى إلى اليمن

وفيها وصل إلى صنعاء وافداً على الإمام الأديب الرحالة أمين الريحانى ورفيقه الشاعر البليغ قسطنطين وكلاهما مسيحى لبنانى وكانت مهمة الريحانى الوئام بين ملوك العرب وقد ألمّ كتابه ملوك العرب بذكر مقاصده ورحلته فى البلاد العربية وكان رفيقه قسطنطين قد أنشأ أشعاراً فى اليمن وأحسن ماسمع من شعره قصيدته التى ارتجلها بين يدى مولانا الإمام ومنها قوله :

أَخْفِضِ الطرف رهبةً واحتراما ... وتكلم إذا استطعت الكلاما
وتقدم للعرش واجثوا لديه ... لتُحَيِّى عن الحجاز الإماما
سيّدٌ إنْ يستنفر القوم لَبُّوا ... أو يقل كان قوله إلهاما
باسمه يخضعون كل [illegible] ... فاسمه [illegible]

يطلبون اللهات فى الحرب لكن تبصر الموت عنهم يتعامى
يتمنون أن يعيشوا كراما مستقلين أو يموتوا كراما
هكذا علّم الإمام رعايا ه فكانوا لعرشه خُدّاما
وَطّأ الملك بالعدالة والملك ى العدل إن أقيم استقاما
قد وعى العلم والبراعة فى حكمته والدهاء والإقداما
دقّ فوق السماك للعُرْبِ مجدا مُشْمَخِرًّا يطاول الأجراما

وهى أكثر من هذا .

وقد اقترح أمين الريحانى على رفيقه قسطنطين أيام إقامتهما بصنعاء أن يقول قصيدة فى هجو القات: الشجرة التى يمضغ أوراقها أهل اليمن. فقال :

القات فيه عُجَاب كما يقول الصحاب
دَرَت به الشاة لما أن طاردتها الذئاب
ذاقته فاستعذبته وسال منها اللُّعاب
أمسى يجمع منه حتى تملّى الجُراب
مشى يحدث عنه وفى الحديث الصواب
فصدقوه وذاقو ه مثله واستطابوا
ما نفعه أنبئونى هل عنه شخص جواب
جربته واختبارى يجدى به الإسهاب
تنتاب جسم الفتى قُشْ عَرِيرَةٌ والتهاب
وفيه يفعل ما لا يقوى عليه الشراب
والصدر فيه من الوَخْـ ـز والعذاب حِراب
والنّسل يضعف منه ما فى كلامى ارتياب
لا نفع فى القات لكن فيه الشقا والعذاب

وتزهق النفس منه والقلب والأعصاب
والجَفْنُ يَذْبل حتى يغشى العيون سحاب
وسوء هضم وقبض منه يغيب الصواب
والرأس يثقل وطئا وبالدُّوار يصاب
ويعترى بعد هذا المفاصل الاضطراب
بالبُنّ عنه استعيضوا فالبُنُّ منه اكتساب
وسوقه رابح فى الدنـ ـيا له طُلّاب
هذى نتيجة خُبْرى ما فى كلامى ارتياب
ستدركون بيانى متى أميط النقاب
فى تركه آل ودى أجرٌ لكم وثواب
لم يبق أرخت ريباً القات للقتل باب

قال الريحانى ما معناه وأرسلنا بالقصيدة إلى مولانا الإمام وبعد بضعة أيام جاءنا من المُخَيَّم المنصور من الإمام نفسه كتاب فى غلاف مختوم ففضضناه فإذا فيه قصيدة من نظمه وبخطه الشريف وفى القصيدة خلال الدفاع عن القات من الغزل والدّماثة والاتضاع تلك الروح الشاعر الحقيق ما يزيد الناظم رفعةً ومجداً ويزيد المعجبين به حبًّا وإعجاباً وما أجمل العذر والتواضع فى الكلمة التى ذيل القصيدة بها الزعيم قسطنطين صدر ما يشبه الجواب ومهما رأيتم قصوراً فلا عتاب مع كثرة الأشغال وتبلبل البال قال فى مطلع القصيدة نفعنا الله بمزاياه الحميدة ان للقات مزايا لا يحصاها الإسهاب فنذكر عشراً منها فقط .

القات ليس يُعَاب يا أيُّها الأصحاب
لأن فيه مزايا لم يُحْصِها الإسهاب
فللعيون جلاء للضعف منه ذهاب

وللثغور صباغ زمردى يذاب
أخين بثغر مليح له المذاب رضاب
ياما أحيلاه ظلما تشق به الأحباب
وللنفوس مريح وللنشاط انجذاب
ويشحذ الفكر حتى يخاف منه التهاب
ويطرد النوم عمن له الجليس كتاب
أما الذى قاله قسطنطين فهو سراب
أليس من جاوز الحد أكله والشراب
يكون عرضة خير ويعتريه اكتئاب
والأكل والشرب مالا به الكرام تعاب
وإنما العيب إسرا ف منه يبدو العجاب
هذا الملفق يا قسـ طنطين منا جواب
يهدى إليك عليه من الحياء نقاب
لأنه ليس كفؤاً للدر وهو تراب
فاستر مافق يحيى فالستر فيه ثواب

قال الريحانى إن فى الأبيات الأخيرة من الدماثة والخفة والتواضع ما يستحب فى أصغر الشعراء وأكبرهم فكيف به فى أحد كبار الحكام والأمراء وقد أجاب على أبيات قسطنطين جماعة من الأدباء وخمس جواب مولانا الإمام يحيى نجله مولانا الإمام الناصر لدين الله أحمد .

وفى سنة إحدى وأربعين وثلثمائة وألف أكمل الإمام يحيى عمارة دار السعادة بصنعاء وانتقل إليها وهى دار فخمة وحولها البستان المشهور من قديم الزمان وقد عمر فيه سابقا المتوكل على الله قاسم بن حسين دارا عظيمة هناه بعمارتها القاضى البليغ على بن محمد العنسى

وقد بنى على منوال قصيدته المولى سيف الإسلام البدر محمد بن الإمام يحيى قصيدة بليغة هنأ بها والده بعمارة دار السعادة فقال :

تلاعب فى روض المسرة غزلان وماست به بالتيه للسعد أغصان
وتم لأهل الحب ما يطلبونه فما منهم إلا طروب ونشوان
وعطر أرجاء البسيطة نشره وضم به بدر السعادة كيوان
ألم تنظروا شمس البشائر أقبلت تهادى وبالشهب المنيرة تردان
وقد صبغت من حندس الليل حاجبا يزيدك حسنا وهو أسود فينان

ومنها :

وتبسم عن بنيان در وأرضه عقيق وياقوت وتبر ومرجان
وفى ذلك البنيان من سلسبيلها الر حيق حياة للذى هو ولهان
يراح به حلم المشوق وتارة يروح إليه وهو روح وريحان
نعم فاعجبوا فى ثغر مصلية الورى جحيم الهوى الفردوس والطرف رضوان
على جيد ماس قلدته جواهر ببيت لها بدر الدجى وهو حيران
إذا رد الرائى إليه لحاظه أصابته من نور القلد نيران
وإن جال طرفا حوله ضل عقله لطلسم قرط فيه بالسحر إعلان
يجيل على بيض السوالف حينما يلاعب فيه عقرب الصدغ ثعبان
وفى سطرها سطر من السحر صدره فواكه أما الجزم منه فرمان

ومنها :

أتتنا وحيت بالسلام فماد من حوى الفضل فينا وهو بالحب تملان
فقلنا لها أهلا وسهلا ومرحبا فقى نحن خدام لديك وغلمان
فقى تجدى يا شمس ما تطلبينه وإن عز ما فينا لذلك تعبان
فقالت نعم لولا حبيبى فإننى سأهدى إليه حيث لى وله شان

فقلنا ومن هـــذا الحبيب فإنه ... رئيس على أهل الغرام وسلطان
فقالت هو الدين الحنيف فإننى ... أرَفُّ إليه وهو نشوان جذلان
فقد عاد بعد السخط فى قالب الرضى ... ولم يبق حتى لحظةً وهو غضبان
وقد عاد فى ثوب الرفاهة رافلا ... وقد عُطِّرت من ذلك الثوب أردان
وقد عاد فى عيش خصيب وراحة ... يلوح له من طالع السَّعد سَعْدان
وقد سكن الدار التى شادها له ... إمام الهدى من لا يساويه إنسان
إمام الورى المحيى لدين محمد ... وقد نسجت للدين من قبل أكفان
إمام البرايا من أقرت بفضله الأ ... عادى وهل للنور فى الشمس كفران
إمام ذوى التقوى ونور ظلامهم ... فلولاه ان الطالب البر عميان
هو البحر علماً بل هو البر رأفةً ... هو الغيث جوداً كم لكفيه أمزان

ومنها :

فكم لأمير المؤمنين محامدٌ ... تحلى بها فوق السماكين عدنان
بَنَى للهُدَى والمجد والعز منزلاً ... وللفضل فيه والمكارم أفنان
وشاد قصوراً للمفاخر والعلا ... يرى بعده فى قصر فارس نقصان

ومنها :

بناها لإحياء الهدى ولنشره ... إذا ما ابتنى للملك والفخر بنيان

ومنها :

وشاد بها الشرع الشريف فقد غدا ... ومسكنه عرش وصرح وإيوان
إمامَ الهدى هُنِّيتَ داراً بَنَيْتَها ... تشاد بها للدين والمجد أركان
وعُمِّرت فيها لابساً ثوب عزَّة ... ونصر وعز ما ترادف أزمان
وهاك نظاماً قلته عن مودة ... وما لى فى نظم الدرارى عِرفان
ولا عارفاً بالشعر لكن تشوقاً ... لمدحك ما هى عروض وأوزان
لأنك مختار الإله لدينه ... وها أنا فى قول القصائد حسَّان

لئن كنت أدعى بالفهامة باقلا ... فإنى لمدحى فى الخليفة سَحْبان
وصلى عليك الله بعد محمد ... وعترته مادار فى الحرب فرسان
وسلم ما مُزْنُ السحاب همى وما ... تلاعب فى روض المسرة غِزلان

وفى هذه السنة هاجمت النجود حجاج اليمن فى وادى تَنُومة وقتلتهم حتى لم يسلم منهم إلا من استطاع الفرار وكانت فاقرة عظيمةً فى الدين واعتذر رؤساء النجود بأنهم ظنوا الحجاج العزل نجدةً للشريف الحسين بن على ملك الحجاز .

وفى سنة ١٣٤٢ أرسل الإمام المتوكل على الله السيد عبد الله بن أحمد الوزير إلى المشرق ففتح بلاد البيضا ورتب أعمالها .

وفى سنة ١٣٤٣ أخمدت ثورة قبائل حاشد وتم قهرهم وإجبارهم على الخضوع لأمر أحكام الشريعة وتوريث النساء وفيها تم فتح بلاد الجوفين وأخذ رهائن الطاعة والإخلاص .

وصول وفد تهامة إلى صنعاء مع ولى عهد المملكة اليمنية

لما مات السيد محمد بن على الإدريسى سنة ١٣٤١ اختل نظام الأدارسة ولم يكن ولده على بن محمد قادراً على تحمل الأعباء التى كان يتحملها والده بل أقصى رؤساء الحكومة التى أسسها والده فكاتبوا أولاد الإمام وسار السيد عبد الله بن أحمد الوزير والسيد على بن حمود إلى تهامة على رأس قوة كبيرة من الجنود وهزموا من كان بها من عساكر الأدارسة .

وفى رجب سنة ١٣٤٥ قدم سيف الإسلام أحمد ولى العهد إذ ذاك إلى صنعاء ومعه جمع وافر من رؤساء عشائر تهامة كالواعضات وعبس وبنى نَشَر وحَجُور وبنى قيس والخَمِيسَين وبنى مروان والمسارحة منهم السيد عبده هَيْج والشيخ محمد طاهر رضوان والشيخ على محمد الخميسى وانضم إليهم السيد محمد بن حيدر النعمى وقد أمر الإمام بحسن

استقبالهم وإكرامهم وأنزلهم فى ضيافته وقد قدم هذا الوفد فروض الطاعة باسم البلاد التهامية وبهذه المناسبة نظم القاضى عبد الكريم بن أحمد مطهر هذه القصيدة فى مدح سيف الإسلام أحمد ولى العهد وفى التنويه بمقدرته وكفايته :

نَشَدتك ياذُكى البشرى أعيدى ... حديث سنى الهناء لنا وزيدى
وجودى باللطائف من أمانى ... قلوب من رجاها أن تجودى
وهبى كالنسيم على ضلوع ... براها للقا شوقُ العميد
ويا فكرى وأنت رفيق نفسى ... وما حق الرفيق سوى الأكيد
أقم حفلات أنسك واغتنمها ... مسرات تعزُّ على الوجود
واسمع ما عليها صوت مدح ... يلين للطفه قلب الكنود
وأرسلها بيوتاً عامرات ... لها فى السمع رنات النقود
تمرُّ بها الدهور ولا تراها ... أتت فى غير ملبسها الجديد
وهات ثنا المدائح وهو غصن ... كما بَلَّ الندى مخضر عود
وفاء فالوفاء أجلّ شىء ... يدين به فتى الرأى السديد
بحق قدوم مَلْك أىّ مَلْك ... يلوح بوجهه سعد السعود
وننتسب المعالى والموالى ... إليه نُسْبَة الملك الوحيد
وتهواه المناقب ساعيات ... إليه سعى ذى العطش الشديد
وتفتخر المواكب إذ تراه ... تَميسُ عليه خافقة البُنُود
وتخدمه الفتوح وترتضيه ... لها مولى وهى من العبيد
وتلثم كفه الأملاك علما ... بما فى اللثم من شرف عتيد
إلى ما شئت من أوصاف مجد ... بجيد الدهر كالعقد الفريد
حواها شخصه العالى وضاقت ... بها الأرجاء من عظم مشيد
ولاحت فى فم الدنيا ابتساماً ... وحلياً فوق لبّات وجيد

وطاولت الكواكب فى سماها ... فحازت دونها سبق الصعود
وقال البدر ما إن من سبيل ... إلى هذا العلو لمستزيد
وما سيف الخلافة سيف عمرو ... ولكن سيف ذى العرش المجيد
فما السيف الصقيل أشد منه ... مضاء فى التهائم والنجود
ولا أسد الشرى يحكيه بأسا ... وأدنى بأسه مغنى الأسود
ولم تكن القوافى والمعانى ... وإن نظمت صفوفاً كالجنود
وسيقت زُمْرَةً بأجلّ مما ... به ظفرت عيون عن شهود
من الكف الندى على مزايا ... براها الله من كرم وجود
مزايا لو ذكرن على مريض ... لأدرك رَوْح عافية السعيد
ولو كُسيت بها سود الليالى ... لعادت وهى بيضاء البُرُود
وهاك حديث أحمد عن سجايا ... معاليه عن السعى الحميد
فسند أحمد فينا صحيح ... ومروىُّ الجدود مع الحفيد
معارف كالفطمطم زاخرات ... وأخلاق من الروض المجود
وذهن يستشف الغيب حدسا ... ورأياً لم يكن غير الرشيد
وقلب بالمكارم ذو ولوع ... وبالإنصاف فى جهد جهيد
وجملة ما أقول وإن عجزنا ... ولم يدن المراد من المريد
تبارك من براه من المعالى ... وجاء به على هذا الوجود
وأتحفنا بمقدمه المُفَدَّى ... على وفق الفخامة والمزيد
ولو انا وصفنا منه جزءا ... لأنفذ كل مقدور المجيد
ومن بهرت مناقبه وجلت ... فوصف قدومه فوق الجهود
ومن طابت أرومته بطهٰ ... وطالت بالأئمة والجدود
وكان أبوه أى إمام حق ... فقدر علاه فوق ثنا القصيد

إمام الحق يا غوث البرايا ... وعصمة ربنا البدى المدد
ومن دانت لهيبته معدٌّ ... وقحطان على وفر العدد
أعوذ فى بنيك الغرُّ صيدا ... تذوب لبأسهم زُبَر الحديد
ويبتسم الزمان بما أضافوا ... إلى المجد الطريف مع التليد
وكل مناقب الأبناء تعزى ... إلى الآباء فى المثل الشرود
ولاسيما الأمير أبو العطايا ... صفىّ الدين غطريف الجنود
فكم فتحت به أقفال قطر ... وماد بعزمه منصوب طود
وكم لك من يد عظمى ونُعمى ... تقلدها القريب مع البعيد
وآثار مخلدة ومَنٍّ ... وأعمال مشرفة الخدود
وهاكم مِدحةً وهناء ودٍّ ... يفوح به شَذى القلب الودود
ويتلو من دعاء النصر حزباً ... يُردد سرده أهل السُّجود
بقيتم للديار وساكنيها ... ودين الله والفضل المديد
ولا زالت مناقبكم عقودا ... على الأيام كالدر النضيد
وأيد ملككم ما اخضرَّ دَوْحٌ ... ودام زمانكم أيام عيد

وفى اليوم الثالث من شهر ذى الحجة من هذه السنة وفد إلى صنعاء من قِبَل جلالة الملك عبد العزيز بن سعود الأمير سعيد بن عبد العزيز بن مُشَيط وعبد الوهاب ابن محمد أبو مَلحة وتركى بن ماضى ونزلوا فى ضيافة الإمام وكان القصد من هذه الوفادة تقرير الحدود بين بلاد الإمام ومابقى بيد الأدارسة عند دخولهم فى حماية الملك عبد العزيز ابن سعود ورأى الإمام يحيى أن بلاد عسير إنما هى جزء لايتجزأ من بلاد اليمن وأن الأدارسة لم يكونوا إلا غاصبين للبلاد التى اقتطعوها من الأراضى اليمنية عند ما كانت تحت حكم الأتراك وقد أيد أقواله بكتب التاريخ التى تشهد بأن المخلاف السليمانى كان دائما تحت نفوذ أئمة اليمن قبل مجىء الأتراك وأثبت أن أشراف أبى عريش كانوا

يستمدون أمارتهم من أئمة اليمن وبعد هذه المفاوضات طلب الوفد السعودى العودة فكتب الإمام المتوكل على الله معه إلى الملك عبد العزيز ذاكراً أن تأجيل المفاوضات التى يراد بها التوفيق لن يكون سبباً فى أى خلاف . وفى هذه السنة وصل إلى صنعاء معتمد دولة إيطاليا فى مستعمرة الإرتيرية السنيور قاسباريني وأخذ فى المفاوضة فى عقد معاهدة تجارية بين حكومتى اليمن وإيطاليا لمدة عشر سنوات .

وفى سنة ست وأربعين سار سيف الإسلام ولى العهد من حجة إلى قَفْلة عِذَر وجمع جيشاً من حجور، وبنى عبد، وجبل عيال يزيد، وبنى صُريم، وغيرهم وطالب قبائل المُصَيات من حاشد بتسليم رهائن الطاعة فامتنعوا فحاربهم حتى أذعنوا وسلموا الرهائن.

وفى هذا العام أكمل الإمام المتوكل على الله عمارة جامع القبة الذى بجوار دار السعادة بصنعاء وهو جامع عظيم متصل بقبة المتوكل على الله القاسم بن حسين .

وفيها وفد إلى صنعاء من قِبَل الملك عبد العزيز آل سعود الأمير محمد بن دُلَيم أبو لِعْنَة صاحب قحطان وتركى بن ماضى وعين الإمام المتوكل على الله للمفاوضة معهما رئيس الوزراء القاضى عبدالله بن الحسين العمرى ورئيس الديوان القاضى عبدالكريم ابن أحمد مطهر ولما لم تنته المفاوضة إلى مايحسن اعتماده فى شأن الحدود بعث الإمام مع الوفد السيد العلامة قاسم بن حسين أبوطالب وفضيلة السيد محمد بن محمد زبارة وعرجوا فى طريقهم على سيف الإسلام ولى العهد وكان بالقَفْلة فضم إليهم السيد العلامة عباس ابن أحمد بن إبراهيم وكان الإمام المتوكل على الله قد أصحب وفده قصيدة غراء من نظمه تُعبِّر عن نواياه فى حب الوئام واجتماع كلمة العرب ومطلعها:

صدرت للوئام زفرة محرور ... تؤم الرياض تشفى صداها
تقطع السَّهل والحَزُون وتطوى البيد طىَّ السِّجل فى يمناها
توضح الحالة التى نحن فيها ... معشر المسلمين عند انتهاها
مزقتنا أيدى العداة فصرنا ... فِرَقاً لا تطيق تحمى حماها

ومنها :

وفتات نبأ لها من فتات سبحت فى شتاتها أشباها
هى مثل الحمى عديداً ولكن آثرت من حظوظها أدناها
واستخفت بنفسها وتعامت عن هداها فهال منها عماها
فقدت واز الهداية حتى لم تميز صباحها من مساها
وطمى جهلها الهول فكانت فى مقام الحفاظ أمثال شاها
أى داء أشد داء من الجهل وأقوى هدماً لقصر بناها
ولهذا عز الشفاء وظلت حالة السلفيين تشكو شجاها

ومنها :

وعلينا من الإله مواثيق تدك الجبال إن خنّاها
هى تدعو الى الوفاق وتستنـ ـصر منا حمية تهواها
وتنادى يا الشهامة والغيرة أين الحفاظ أين نهاها
أحكموا رأيكم سداداً وشدوا عضد الدين وادفعوا ضراها
وانسجوا منكم دروع اتحاد ووئام يطول فيكم غناها
ما الذى يمنع التآزر من إخوا ن دين يرضى الإله إخاها
والذى يدفع المخاوف عنها ليس إلا وفاقها ووفاها
واقتناع النفوس عن طلب التو سيع للملك فى نصيب سواها
وإذا كان للنفوس جماح كان بالعقل ردها وهداها
وبناها من وحدة الرأى سداً وحصوناً أمام من ناواها
وضح الأمر محض الحق نادت السنن الصدق هذه رجواها
ولتحقيق ظننا كان منا بعث وفد الرياض من آل طه
حملوا هذه الأمانة عنا ومناهم تقبلها وحباها

لملك متوج من نزار أنجبته ربيعة فى ذراها
ورأته شيبانها علم الإجلال بسطامها وقطب رحاها
ملك مفرد سرى همام قلدته سعوده بحلاها

ومنها :

ومن العدل وهو خير الزايا أثراً للنهى ونظم علاها
أن ترى عنده مكان اعتبار موصلا للمرام من مسراها

إلى آخرها وهى أكثر من هذا .

وفى سنة ١٣٤٧ على أثر التجاء بعض أمراء قبائل النواحى الواقعة بجوار عدن إلى حكومة الإنجليز فراراً من أداء بعض الواجبات الزكوية ومنهم أمير الضالع نصر ابن شائف الحالمى وبعض آل قطيب أرسلت حكومة عدن طائراتها التى ألقت قنابلها على بعض مدن اليمن واضطرت الجيش اليمنى إلى الخروج من الضالع والشعيب وغيرها وقد أصابت الطائرات الإنجليزية بعض سكان اليمن بخسائر فادحة وبذرت الخوف والرعب فى النفوس وقال القاضى العلامة البليغ يحيى بن محمد الأريانى فى ذلك قصيدة بليغة استهلها بقوله :

يا بريطانيا رويدا رويدا إن بطش الإله كان شديدا
إن بطش الإله أهلك فرعو ن وعاداً من قبلكم وثمودا
إن هذا الفساد فى الأرض والهدم لهذه البيوت ليس سديدا
لا تظنوا هدم المدائن يوهى عزمنا أو يلين بأساً صلودا

ومنها :

إن هذا هو التوحش إذ جئـ ـتم بما ليس عندنا موجودا
فالنزال النزال إن كنتم مـ من لدى الحرب لا يهاب الجنودا

لتروا من يبيت منا ومنكم موثقاً عند خصمه مصفودا
إنكم لو نزلتمو رأيتم كل ذى شدة تذيب الحديدا
ورأيتم منا بكم فتكات صادقات عظمى تشيب الوليدا

إلى آخرها .

إخماد ثورة الزَّرانيق بتهامة

وفى هذه السنة ندب الإمام يحيى ولى عهده سيف الإسلام أحمد لإخماد ثورة الزرانيق وكانوا قد قطعوا السبل بين الحديدة وبيت الفقيه وأغاروا على بعض المراكز الامامية فسار إليهم فى جمع وافر من قبائل حاشد وغيرهم بعد أن أمر الإمام المتوكل على الله العمال المحيطين ببلاد الزرانيق بتجهيز بعض القوات عليهم فتقدم عامل ريمة إلى جهة الصعيد وتقدم عامل زبيد إلى الحسينية واستمرت الحرب أياما لوعورة البلاد وحصن أهلها بالغابات والقصرتين الشمالية والجنوبية ولأهلها طرق معروفة وجاءت طريق سيف الإسلام ولى العهد من الساحل فأخذ مينى غُلَيْفقة واستولى على السفن الشراعية التى كانت تمد قبائل الزرانيق ثم انتقل إلى وادى الجاح وتم له تأمين الساحل وحال بين الثائرين والأيدى الأجنبية التى كانت تساعدهم وبعد حصار قبائل الزرانيق من جميع الجهات قلَّم الجيش الأمامى أظفارها حتى خضعت ودخل سيف الإسلام ولى العهد مدينة بيت الفقيه فى شهر ربيع الآخر من السنة التالية واستقر الأمن بها وانتظمت أحوالها وعاد إليها سكانها الذين كانوا قد هجروها .

وفى سنة ١٣٤٨ تم فتح بلاد الجُوبَة وحَرِيب بيحان من مشارق اليمن وسار إليهما الشريف عبدالله الضمين الحمزى الذى رتب أحوالها وقد وظف الإمام بها العمال والحكام وتقع الجُوبة على نحو أربعة أيام شرقا من صنعاء وأما حريب بيحان فتقع جنوب الجوبة وبينهما نحو يوم واحد .

وفى سنة ١٣٥٠ سار السيد عبد الله الوزير والشريف عبدالله الضمين وعدد كبير من رجال الجيش النظامى افتتح مارب فدخلوا من بلاد خولان وكانت طريقهم من صُرْواح وقد استولى الجيش المظفر على مارب بعد معارك دامية اشتبك فيها الجيش اليمنى مع قبائل عبيدة بوادى ذِنَة وقد احتل الجيش الأمامى المراكز الرئيسية وتقع مارب بحذاء صنعاء شرقا ومن مخاليفها جبل اللاح وهو ليس بجبل مرتفع ولكنه بالأرض يحفر ويعمن فى الأرض وتبقى أساطين تحمل ما استقل من تلك المحافر * وفى هذه السنة توفى شيخ الإسلام القاضى العلامة على بن على اليمانى وكان من ذوى الاجتهاد والتحقيق وفى ذى الحجة منها توفى سيف الإسلام البدر محمد بن الإمام المتوكل على الله يحيى شهيداً إذ غرق فى مياه البحر الأحمر عندما أراد إنقاذ بعض رفقائه وقد أشرف على الغرق من تكاثف الأمواج وكان يسبح فى محل الكثيب وللأمير الشهيد مناقب كثيرة وقد حزن على فقده القريب والبعيد ورثاه كثير من الأدباء ومنهم أمير الشعراء أحمد شوقى بك ونشرت قصيدته جريدة الإيمان وغيرها وكان سيف الإسلام يومئذ أميراً للواء الحديدة وحمد الناس سيرته ومكارمه وعلو همته وكان أديباً شاعراً له شعر جيد منه قوله :

وماهذه الدنيا سوى كسب مغنم لأجر جزيل أو لذكر مُجَمَّل
فمن جاد منها لم يكن خاسراً بها ولا ناقصاً والفضل للمتقبل

مسير سيف الإسلام ولى العهد إلى حرف سفيان فمدينة صعدة ودخول الجيش الأمامى جبل برط فنجران

وفى سنة ١٣٥١ سار سيف الإسلام أحمد ولى العهد فى قوة عظيمة إلى حرف سفيان لتأديب قبائل دُهْمة الذين لم يدخلوا فيما دخل فيه قبائل اليمن من تسليم رهائن الزرانيق ولا أمنت بلادهم من طغيان أهل الفساد ولا وصلا إلى الحما الأسود الذى تدفق ...

أرض قفر تمتد حتى الجوف ويحصل فيها السلب والنهب أمر ببناء ثكنات للجنود يقيمون فيها لحفظ الأمن ولضمان استقرار الحالة ومنع أرباب الفساد من ارتكاب الإجرام وقد قال فى ذلك مؤلف رحلته السيد محمد بن عبد الرحمن شرف الدين ما يأتى :

مراتب جُنْدٍ بناها الذى ... معاليه تعلو على الفرقدَ
صفى الهدى ابن إمام الورى ... أجل بنى المصطفى أحمد
مراتب ماهى إلا البروج ... على قِمَّة الجبل الأسود
وسكانها كالنجوم الرجوم ... تنقض تُحْرِق من يعتدى
إذا ما رُدُّ النهبِ وافى إلى ... رُباها يريد فساداً رُدى

وقد نصب خيام جيشه فى مَدَقَّة وسرعان ما وصل إليه أشراف الجوف ورؤساء ذى حسين وغيرهم فأخبرهم أن الغاية والغرض من مجيئه ماهو إلا إصلاح أهل البلاد وتأمين الطرقات وإقامة الشريعة المطهرة وطلب منهم الرهائن المختارة فأذعنوا لما طلب ثم ظهر الخلاف من ذى محمد أهل جبل بَرَط فزحف عليهم الجيش التوكلى وهزمهم شر هزيمة ودخل جبل الخراب وهو أول شِعب النِّيل على نحو خمس ساعات من الحَرْف شرقاً ثم تقدم الجيش إلى جبل برط وفتح مدينة العِنَان ثم أرسل سيف الإسلام ولى العهد أخاه الحسن إلى جبل برط وأمره بتوزيع قوات الجيش على أخماس ذى محمد وقد بلغ ولى العهد أن فى بعض بيوت كبراء ذى محمد أبواباً مزخرفة أخذها أسلافهم من بئر العزب من دار المهدى عبد الله بن المتوكل فى وسط القرن الثالث عشر فأمر أخاه سيف الإسلام الحسن بالبحث عنها واقتلاعها وإرسالها إلى مُخَيَّمَة المنصور وبالفعل وجدت فى بيوت آل مَضْمون وآل دُمَيْنة وبيوت البُحُور آل ذى زيد وغيرهم وقد أخذ بعضها إلى بئر العزب وقد مثل بين يدى ولى العهد أكابر ذى نوف وحُوش الخلاء لهم عمل إلا غزو قبائل المشرق كالكُرَب والصَّيْعر وقد تمتد غزواتهم ولم يقدم لهم إلى نجد ولهم فى ذلك حكايات غريبة . وتقدم عامل برط إلى وادى خَبّ

وبلغت الرهائن من ذى محمد وذى حسين وبنى نوف نحو ٣٠٠ شخص وأرسل ولى العهد بعض من يثق بهم من أفراد الجيش لحصر عدد المواشى والنخيل فلم يعترضهم أحد وأثنوا على كرم البدو وقصُّوا عنهم أعجب الأخبار من المجد العربى وأمنت السبل حتى إن السائر من الجوف إلى مارب لايحتاج إلى رفيق والمسافة بينهما نحو ستة أيام وكان لا يقطعها قبلا إلا الجماعات الوافرة العدد .

وفى ذى القعدة من هذه السنة بلغ سيف الإسلام ولى العهد أن شرذمة من وائلة التابعين لذى محمد لم يسلكوا مسلك الطاعة فأمر عامل بَرَط السيد إسماعيل المَدانى بالزحف عليهم فتقدم على رأس قوة من قبائل سحار وغيرهم إلى محل الفَرْع فاستنجدوا بقبائل يام وخرجوا إلى أطراف الفَرْع واشتعلت نار الحرب بين الفريقين وواصل ولى العهد إرسال الإمدادات فانهزمت يام وفر رجالها ولم يقفوا إلا فى نجران ثم أعد سيف الإسلام ولى العهد الجيوش الجرارة وأمر بالزحف على وادى نجران . وفى محرم ١٣٥٢ تقدم الجيش التوكلى على نجران ودخلها عنوة وفرت قبائل يام منها لاتلوى على شىء واستولى الجيش اليمنى على جبل رعُوم المشرف على رأس نجران وزَوْر وادعة والمَوْفَجة وغيرها وغنم الجيش كثيراً من أموال المكارمة وتقدم سيف الإسلام الحسن إلى كِتاف وتابع المدد إلى بلاد يام وأخذ الجيش الأمامى الحَضَن وحيوه وفيهما قلعة داعى المكارمة وهى قلعة عظيمة اشتملت على دور وبساتين وفيها كل أنواع الثمار ويحيط بها سور عظيم يضم عدداً من الأبراج والحارس القوية المنظمة .

وفى اليوم العاشر من صفر انتقل سيف الإسلام ولى العهد من الحرف إلى مدينة صعدة فى طائفة من الجيش النظامى وذلك لكى يكون قريباً من ميدان القتال فتلقاه أهل صعدة وعلماؤها ورؤساء القبائل من سحار وغيرها واستقبلوه أحسن استقبال وفى خلال ذلك وصل إلى ولى العهد الشيخ حسن بن زيد من كبار زعماء نجران

وأهل الرأى فيها وقدم الطاعة كما أرسل بعض أهل نجران رهائنهم ضمانا لإخلاصهم وطاعتهم .

وفى شهر جمادى الأولى أرسل ولى العهد بعض فرق الجيش المتوكلى إلى وادى نشور ثم أصدر أمره إليها بالزحف على مدينة بدر ففر منها داعى المكارمة على بن محسن وعامله الفقيه حسن بن أحمد إلى أبها ودخل الجيش مدينة بدر فوسع ذوو الأغراض هوة الخلاف بين حكومتى اليمن ونجد وكان ما كان من إرسال البعوث من طرف كل من عاهلى الجزيرة العربية إلى الحدود حتى تفاقم الشر وبدأت الحرب بين الحكومتين العربيتين فى تهامة وجبال عسير ونجران ثم كان التوفيق بينهما وعقد معاهدة الطائف فى شهر صفر سنة ١٣٥٣ وعادت المياه إلى مجاريها وتم الاتفاق على أن يكون لكل من العاهلين ما كان تحت يده قبل الحرب وناب عن حكومة اليمن فى عقد هذا الصلح السيد عبد الله بن أحمد الوزير وعن حكومة نجد والحجاز الأمير خالد بن عبد العزيز ووصل وفد الإصلاح والتوفيق المؤلف من مفتى فلسطين السيد محمد أمين الحسينى وأمير البيان شكيب أرسلان والرئيس هاشم الأتاسى إلى الملك عبدالعزيز ثم إلى الإمام يحيى ملك اليمن وقد قال بعض أدباء اليمن فى شكر هذا الوفد أبياتاً منها :

يا وافدين إلى الجزيرة مرحبا ... فبمثل ذا تتخلد الأقوام
فيكم عرفنا للفضيلة موئلا ... وبسعيكم فليفخر الإسلام
إن الجزيرة ليس تنسى ذكركم ... وجميل صنع مارَسَتْ أعلام
دمتم حماة للفضيلة إنكم ... وَزَرٌ وكهف نافع وسلام

وفى المدة التى أقامها سيف الإسلام بمدينة صعدة قام بالكثير من أعمال الإصلاح فأمر بترميم سور المدينة وعمارة حمامها وإصلاح بعض طرقها ومساجدها وفتح فيها مدرسة علمية وقطع دابر الفتن التى كانت قائمة بين القبائل ثم عاد إلى صنعاء وأقام بها أياما .

« الحلف العربى »

وفى سنة ١٣٥٦ وفد على الإمام المتوكل على الله من قِبَل حكومة العراق صاحب الدولة جميل بك المدفعى وغيره من كبار الشخصيات وكان الغرض من ذلك انضمام الإمام يحيى إلى الحكومات العربية فى عقد معاهدة الحلف العربى وغايته التعاون والتعاضد على مصالح البلاد العربية فتقبل الإمام هذا الأمر قبولاً حسناً وانضمت اليمن إلى الحكومات العربية فى هذا الحلف الذى نشرت نصه جريدة الإيمان فى عددها الصادر فى ذلك التاريخ .

طيافة سيف الإسلام ولى العهد مدن تهامة

ثم مسيره إلى تعز وإشرافه على أعمال اللواء

وفى سنة سبع وخمسين سار سيف الإسلام ولى العهد من «صنعاء»(١) فى حاشية كبيرة من الأعيان والرؤساء لطيافة مدن تهامة ثم الإشراف على أعمال لواء تعز وكانت طريقه من مدينة « مَعْبَر »(٢) فوادى الحَمَّام بآنس فوادى صَيْحان بريمة فسايلة جُمَيْرة فوادى سهام فمُبال فالبُحَيْح من تهامة فمدينة «باجل»(٣) فمدينة «الحديدة»(٤)

(١) صنعاء(*) عاصمة اليمن وهى فى الوسط منه وهى محاطة بأسوار حصينة وتعلو تسعة آلاف قدم عن البحر وسكانها نحو خمسين ألفا .

(٢) تقع مدينة معبر جنوب صنعاء فى وسط قاع جهران والمسافة بينه وبين صنعاء نحو خمسة وثلاثين ميلا وفى غربيه جبال آنس وآنس من أحسن المقاطعات التى يزرع فيها البن .

(٣) باجل مدينة تهامية تبعد عن الحديدة عشر ساعات لها قلعة قديمة ومسجدان ودار حكومة وترتفع عن مستوى البحر ٦٠٠ قدم وينمو فيها الدخن والسمسم .

(٤) الحديدة أكبر مدن تهامة الآن وأشهر موانيها على البحر الأحمر ويقدر عدد سكانها بثلاثين ألفا جميعهم عرب مسلمون منهم قليل من الهنود البانيان والبهرة والحديدة محاطة بسور وله خمسة أبواب وعدة أبراج ودورها حجرية جميلة بيضاء وبعضها ذو طبقتين وثلاث وفيها حركة بيع وشراء واستدار واستيراد وفيها عدة مبان حكومية ومساجد وحرها شديد تزداد وطأته عند شدة =

(*) نذكر هنا تعليقا لطيفا عن بعض المدن اليمنية مما كتبه السيد الأديب حسين بن على الويسى فى رحلة مولانا الإمام الناصر أيام ولايته للعهد .

وسكن بها مدة قصيرة ثم سار إلى مدينة « الزَّهْرة »[1] فى شمال وادى مَوْر ثم سار إلى مدينة « اللَّحَيَّة »[2] ثم إلى مدينة « مِيْدى »[3] ثم سار إلى « جبل الملح »[4] فى جنوب اللحية ثم طاف مينى ابن عبَّاس وهو فى قرية ساحليَّة تقع بين اللَّحَيَّة والحُدَيْدَة وطاف مدينتى « المُنِيرة »[5] و « الزَّيْدية »[6] وشبه جزيرة « الصَّلِيف »[7].

= الرطوبة وفى الجانب الشرقى من المدينة الحالى وهو محل يغترف من مائه ماء عذب وقد أجرى له مولانا ولى العهد أنابيب إلى المدينة وتمت فى أيام خلافته وعلى بعد عشرة أميال فى شمال الحديدة رأس أو ... ان يتقدم فى البحر يسمونه رأس الكثيب .

(١) مدينة الزهرة تقع شمال وادى مور وتبعد عن البحر عشرين ميلا ودورها مبنية بالأخشاب والآجر والحكومة بها قلعة كبيرة فى جنوبها .

(٢) هى فرضة على البحر الأحمر تقع شمال الحديدة على بعد أربع وعشرين ساعة منها وهى محاطة بآكام مرتفعة عليها قلاع حربية وفى الجهة الغربية منها على بعد ميلين عدة جزر صغيرة منها ثكنات للجيش المرابط لحفر السواحل .

(٣) مدينة ميدى واسعة مبنية بالأحجار وهى مركز مهم للتجارة وبينها وبين الحديدة مائة ميل وتبعد عن البحر بميلين .

(٤) جبل الملح يقع جنوب اللحية ويبعد عنها بستة أميال كما أن بعده عن البحر كذلك ويبلغ ارتفاعه نحو مائتى متر ومساحته نحو ميلين وفى أعلاه ثكنات عسكرية .

(٥) المنيرة مدينة واسعة كثيرة السكان تقع بالشرق من ابن عباس وتبعد عنه باثنى عشر ميلا .

(٦) مدينة الزيدية تبعد عن الحديدة بنحو اثنى عشرة ساعة ينسج فيها الحصير وأكثر بيوتها عرائش من القش وفيها دار الحكومة وهى خمس طبقات وإلى جانبها مسجد عمره الإمام المتوكل على الله يحيى وولده الإمام الناصر وأسست بها مدرسة علمية .

(٧) الصليف جزيرة فى البحر تبعد عن ابن عباس بثمانية أميال يقابلها من الغرب جزيرة كران وتبعد عنها بأربعة أميال وفى جزيرة الصليف قرية تسمى باسمها وفى الجهة الغربية رصيف لنقل الملح وعمارات وبها آلات ميكانيكية لاستخراجه وسكك حديدية تجر فيها العربات التى تحمل الملح إلى الموانئ وأملاح هذه الجزيرة من أحسن الملح وأجوده .

ثم عاد إلى الحديدة ومنها خرج لطيافة مدينتى « الدُّرَيْهمى »[1] و « المراوعة »[2] وعاد إلى الحديدة ثم سار إلى مدينة « بيت الفقيه »[3] ابن عُجَيْل وأقام بها أياماً وزار فى خلالها « قرية الصعيد »[4] و « وادى الجاح »[5] و « مدينة الحُسَينية »[6] ثم سار إلى « مدينة زبيد »[7] وأقام بها أياماً .

وانتقل منها إلى مدينة « حيس »[8] ومنها سار إلى مدينة « الخُوخَة »[9]

---

(١) مدينة الدريهمى قريبة من المراوعة وتقع فى جنوب الحديدة وأهلها ينسجون اللحف ونحوها .

(٢) مدينة المراوعة تقع فى جنوب الحديدة وهى مدينة عامرة وفيها مساجد ومصانع للنسيج وفيها معاصر للسمسم ويزرع حولها النيلة وبها أشجار القطن والبطيخ .

(٣) مدينة بيت الفقيه فى جنوبى الحديدة وهى على بعد اثنى عشرة ساعة من الحديدة وهى مبنية على تل مرتفع وهواؤها وماؤها أجود ما فى مدن تهامة ودورها من الآجر وفيها أسواق ومساجد متعددة واشتهرت بمنسوجاتها من الحرير والقطن وسكانها نحو خمسة عشر ألفا ومنهم العلماء والأدباء وفيها دار للحكومة بناها مولانا ولى العهد بعد قضائه على ثورة الزرانيق وقد أنشأ بها مدرسة علمية ومكتبة جمع فيها كثيراً من الكتب فى مختلف الفنون .

(٤) قرية الصعيد تقع فى الجهة الشرقية لمدينة بيت الفقيه وتبعد عنها بنحو ستة أميال .

(٥) وادى الجاح فى الجنوب الغربى من مدينة بيت الفقيه ويبعد عنها بنحو عشرين ميلا وهو واد جميل مترامى الأطراف كثير النخيل .

(٦) مدينة الحسينية فى الوسط بين زبيد وبيت الفقيه .

(٧) مدينة زبيد تقع جنوب مدينة بيت الفقيه على بعد ست ساعات منها وقد بنيت فى واد خصيب كثير النخل وأحيطت بسور شيد من الآجر وفيه أبراج كثيرة وأربعة أبواب وهى مشهورة بأهل العلم والفضل وقد خرج منها كثير من العلماء وفيها المساجد والمدارس وفى شرقيها على مسافة نصف يوم الجبال كما أن فى غربيها على مسافة نصف يوم أيضا البحر الأحمر .

(٨) مدينة حيس تقع فى الجنوب الشرقى لمدينة زبيد على نحو ست ساعات وهواؤها لطيف وفيها مصانع الأوانى التى تصنع من الخزف ومصانع النيلة وأبنيتها من الآجر .

(٩) مدينة الخوخة على ساحل البحر الأحمر وعلى بعد عشرين ميلا من مدينة حيس وهى كثيرة الأشجار جميلة المنظر مبنية بالآجر وتليها من الجنوب مدينة المخا .

ومنها إلى مدينة « المخا »[1] ثم قصد مدينة « تعز »[2] وزار قلعة « القاهرة »[3] و« مسجد الجَنَد »[4] وفى بعض الأيام سار لطيافة « نَهْر وَرَزَان »[5] و« باب المندب »[6] و« منطقة الشيخ سعيد »[7] وغير هذه المحلات .

---

(١) مدينة المخا واسعة كبيرة وكانت شهرتها فى الماضى أكثر منها اليوم وكانت تدخلها سفن الهند والحبشة والزنج وكان بها نحو سبعة آلاف دار وعشرات الخانات والمستودعات التى تزال أطلالها قائمة وظل هذا العز والعمران فى المخا حتى طم البحر مرفأها بالرمال وكان البن اليمنى الناتج فى لوماتعز وغيره يصدر منها ويعرفه الأفرنج باسم بن مخا .

(٢) مدينة تعز هى فى سفح المنحدر الشمالى لجبل صبر الذى يبلغ ارتفاعه ٩٨٦٣ قدما وكانت مقراً لملوك بنى رسول ولهم فيها آثار خالدة منها جامع المظفر والمدرسة الأشرفية والمعتبيه وغير الجميع فن معمارى قديم وأشكال هندسية لها روعتها وبهجتها كما أن بها معاهد علمية وسكانها نحو ستة أو سبعة آلاف نسمة وفى أعلاها فى سفح الجبل متنزه ثعبات وهى ذات بساتين كثيرة تسقيها أنهار نازلة من جبل صبر وبها من أشجار الفواكه العنب والتين كما أن متنزه عصيفرة فى الجهة الشمالية وبسقيها أيضا نهر ينزل من جبل صبر .

(٣) القاهرة حصن يطل على مدينة تعز وفيه جامع بناه الملك الأشرف وفيها آثار مدرسة قد جددها مولانا ولى العهد .

(٤) جامع الجند من المساجد المشهورة باليمن ومن آثاره العظيمة ويعرف بمسجد معاذ لأنه اختطه فى السنة التاسعة من الهجرة حينما استعمله النبى صلى الله عليه وآله وسلم على اليمن وصل إليه الماء من نهر عظيم من جنوب جبل القاعدة على بعد ستة أميال وقد رمم ما خرب منه مولانا ولى العهد وهو فى الشرق الشمالى من مدينة تعز .

(٥) نهر ورزان من أعظم الأنهار فى لواء تعز وكان يسقى فى الماضى أرض الراهدة ووادى خدير وكان له سدين جبلين فى شمالى الصلو وكان له جداول تجرى فيها المياه إلى الأودية البعيدة ثم أتى عليها الإهمال وقضى الزمان باجتياح ذلك السد .

(٦) باب المندب مضيق يوصل البحر الأحمر بالمحيط الهندى وله أهمية كبرى وهو تحت الحكومة اليمنية وقد أنشئت حوله ثكنات للجند المرابط هنالك ودار مؤلفة من ثلاث طبقات ينزلها الموظفون .

(٧) منطقة الشيخ سعيد جبل له مكانته العسكرية ويسمى جبل طارق الجديد وقد بنى الأتراك فيه حصنا يسيطر على ميون ويوجد فيه قرية وقد أمر مولانا ولى العهد يومئذ بتشييد قلاع قوية [illegible] إمداداً [illegible] .

ثم عاد إلى مدينة تعز وأمر بإجراء ما يلزم من الإصلاحات .

وفى شعبان من السنة أمر بإصلاح طرق السيارات فى أعالى جبل التعكر وشرعة بين مدينتى إب وتعز ، وقال فى ذلك الشيخ الأديب أحمد بن منصور :

سماء غدا التعكر المعتلى ... يفاخر أطوادَ قطر اليمن
لأن كواكبه قد غدت ... مواتر سيف الهدى والوطن
فطوراً عروجاً بأكنافه ... وطوراً هبوطاً إذا الليل جن
وذلك من بعد أن دكدكت ... روابى شواهقه والقُنَن

إلى آخر الأبيات .

وفى سنة ١٣٥٨ انتدب الإمام ولى عهده سيف الإسلام لتحصين منطقة الشيخ سعيد وباب المندب بقلاع وأسلحة من الطراز الحديث وقد قام بهذه المهمة ولبث هنالك مدة طويلة وقال فى بعض الأيام هذه الأبيات :

إنَّ فأل السعد رجَّع ... صوته فينا وأسمع
قال للظالم مهلا ... ورويداً قبل تُصْرع
لا تخض أمواج بحر ... ليس فيه اليوم مطمع
واقطع الآمال منا ... فبحدٍّ سوف تقطع
اترك المندب من قبل ... انتداب ليس ينفع
إن فى الباب منايا ... ك فلا تأمن وتطمع
وانتظر سوط عذاب ... ليس عنه اليوم مَهْيَع
فلنا الله تعالى ... ناصرٌ والحق أرفع
وسيوف للمعالى ... سلها كل سَمَيْدع
همُّه رَوْع الأعادى ... ليس منه اليوم مدفع

فهو قد وافا بيت صار للتاريخ أجمع
سارت النـدب كُنهاً من عقاب الجوّ أمنع

شَبْوة والعَبْر (١)

وفى هذه السنة دخل بعض ضباط عدن متنكرين إلى مدينة شَبْوة ودخل آخرون إلى محل العَبْر وأغروا مشايخ البلاد بالانتماء إلى حكومة عدن وتوعدوا أهل البلاد بالطائرات ثم شفلوا بالقوة موقع العَبْر الذى فيه آبار ينتفع بها المارُّون والأهلون واحتج الإمام المتوكل على الله يحيى بن محمد حميد الدين على الدولة البريطانية ببلاغ رسمى جاء فيه ما هذا نصه :

(١) شبوة من بلاد الكرب(*) والكرب قسم من بالعبيد والعبر من بلاد الصيعر وبالعبيد أرض يحدها من الغرب عبيدة ودهم ومن الشرق نهد ومن الجنوب بالعمان وجردان آل جناب وآل نفر وآل سريم والنبين أهل مهخة بن جردان وربعة ومن الشمال الصيعر مساحتها من الشرق إلى الغرب ١٥٠ كيلومتر تقريبا ومن الشمال إلى الجنوب ٩٠ كيلومتر ونفوس بالعبيد تقريباً ٦٢٠٠ ونوع بلادهم جبال ورمال وأشهر قراها شبوه ومعادنها الملح فى أربعة مواضع وهى مملاح مقاه ومملاح شبوه ومملاح خروه ومملاح عياذ وزراعتها الصيفى الذرة وصادراتها الملح والجلود وقليل من الماشية ووارداتها الحبوب من مارب والجوف وخب والعنان ووائلة والسكر والبز من حضرموت ويوجد فى شبوه بئران إحداها أجاج وتسمى ذيبانة والأخرى الحسوه وهى عذبة .

وتقسم بالعبيد إلى قسمين الأول فى الشمال ويقال له الكرب والآخر فى الجنوب ويقال له سلم.

وقسم صغير يقال له بادخن وأهل الكرب يقطنون فى السهول وأهل سلم يقطنون فى جبلهم (جبل سلم) والكرب أرض رملية وجبلية وبلاد مراعى واسعة إذا حصل فيها المطر فمن الثنية إلى شبوه آكام من الرمال ينبت فيها الزهر زهر الإبل والعلقا والثمام وغيره وسكانها أشداء أقوياء وفى حرب دائم مع بعضهم وبعض آخر والفوضى ضاربة عندهم والديانة ضعيفة لفقدان المرشدين .

وتنقسم الكرب إلى ستة أقسام كبيرة منها آل عوير وآل سفر وآل عمر والمسامة وبادخن وصغيرة منها آل جميول والقعطة والمطاحلة والحولان ومن أقسام الكرب آل بريك المشايخ وهم فى حكم الهجرة . =

(*) نذكر هنا تعليقاً لطيفا عن مشارق اليمن ملخصا من رحلة البكباشى محمد افندى البيراوى اليمنى فى مشارق اليمن .

بكل استغراب وتحيّر عظيم ألقى إلى مسامع الحكومة اليمنية ما أذاعته محطة الراديو

(أما بلاد الصيعر) فهى واقعة فى شمال الكرب ويحدها من الشمال الربع الخالى ومن الجنوب الكرب ونهد وحضرموت ومن الشرق العوامر من أم شقاس ومن الغرب دهم وعبيدة والحد الفاصل بين الكرب والصيعر عرف الرماد وأرض الصيعر جبال ورمال والغالب قسم الجبال ومساحتها طولا من الشرق إلى الغرب ٢٧٦ كيلومتر تقريبا وعرضا من الشمال إلى الجنوب ١٤٠ نفوسها ٦٠٠٠ تقريباً ، المشهور من قراها الريدة وزراعتها الصيفى الذرة وبعض التمر ، وارداتها الحبوب من مارب والجوف وخب والعنان ووائلة والبن والسكر ونحوها من حضرموت والسمك من ساحل أم شقاس.

وأرض الصيعر قليلة المياه وسكانها متوغلون فى الهمجية ومتحملون لشظف العيش ومتاعب الحياة وجلهم رحل فى البلاد وهم أشداء قلّ أن يوجد فيهم من لا يحمل السلاح .

وتنقسم الصيعر إلى قسمين كبيرين (آل حاتم) و (آل على أبى الليث) ولكل قسم عدة أقسام ونسب الصيعر فى كندة .

(وبلاد أم شقاس) ويقال المشقاس هى بادية ساحل حضرموت يحدها من الغرب الصيعر وحضرموت ومن الشرق البحر العربى والمحيط الهندى وجبال عمان ومن الجنوب البحر العربى والمحيط الهندى ومن الشمال الربع الخالى .

نوع أرضها رمال وجبال والغالب قسم الرمال كرملة آل كثير والحراسيس ورملة مقشن وفيها ماء ونخل ، نفوسها ٤٧٠٠٠ نسمة تقريبا وإذا استثنينا المهرة والمناهيل فهم أحط حالا وأصعب مراسا من الصيعر وفى أرضها قبر هود عليه السلام وبئر برهوت وتبلغ مساحتها من الشمال إلى الجنوب ٣٨٠ كيلومتر تقريبا ومن الشرق إلى الغرب ٤٨٨ ، وارداتها الحبوب والسكر ونحوه والبز من سواحلها ومن حضرموت ، صادراتها الماشية والجلود والعزف .

وينقسم سكانها إلى ثمانية أقسام هى العوامر والمناهيل والمهرة وآل كثير وآل محرم وآل شريف والحراسيس والمناصير .

ومن سواحل أم شقاس المشهورة سيحوت ومرباط والزلالة وظفار .

أما الربع الخالى أو رملة يبرين أو الصحراء العربية الكبرى فيحده شمالا الدهناء ونجد وصحراء يبرين ورأس المسندم على خليج البحرين وجنوبا أم شقاس والصيعر ودهم وشرقا جبال عمان وغربا واحة نجران ووادى الدواسر والأفلاج والكرب والصيعر وحضرموت ويبتدئ خط الربع الخالى من بلدة سلوى على خليج البحرين ماراً بواحة يبرين والأفلاج إلى وادى الدواسر ثم واحة نجران الكبرى ماراً بدهم والصيعر ثم حدود أم شقاس ويترك جبال عمان شرقا ويتجه عند سفح رأس

فهو قد وافا بيت صار للتاريخ أجمع
صارت للعدب كنها من عقاب الجو أمنع

شبوة والعبر (١)

وفى هذه السنة دخل بعض ضباط عدن متنكرين إلى مدينة شبوة ودخل آخرون إلى محل العبر وأقروا مشايخ البلاد بالانتماء إلى حكومة عدن وتوعدوا أهل البلاد بالطائرات ثم شنوا بالقوة موقع العبر الذى فيه آبار ينتفع بها المارون والأهالى واحتج الإمام المتوكل على الله يحيى بن محمد حميد الدين على الدولة البريطانية ببلاغ رسمى جاء فيه ما هذا نصه :

(١) شبوة من بلاد السكرب (*) والسكرب قسم من بالعبيد والعبر من بلاد الصيعر وبالعبيد أرض يحدها من الغرب عبيدة ودهم ومن الشرق نهد ومن الجنوب بالعمان وجردان آل جناب وآل فشر وآل سريع والنصين أهل مهخة بن جردان وربعة ومن الشمال الصيعر مساحتها من الشرق إلى الغرب ١٥٠ كيلومتر تقريبا ومن الشمال إلى الجنوب ٩٠ كيلومتر ونفوس بالعبيد تقريباً ٦٢٠٠ ونوع بلادهم جبال ورمال وأشهر قراها شبوه ومعادنها الملح فى أربعة مواضع وهى مملاح مفاه ومملاح شبوه ومملاح خروه ومملاح عياذ وزراعتها الصيفى الذرة وصادراتها الملح والجلود وقليل من الماشية ووارداتها الحبوب من مارب والجوف وخب والعنان ووائلة والسكر والبز من حضرموت ويوجد فى شبوه بئران إحداهما أجاج وتسمى ذيبانة والأخرى الحسوه وهى عذبة .

وتقسم بالعبيد إلى قسمين الأول فى الشمال ويقال له السكرب والآخر فى الجنوب ويقال له سلم.

وقسم صغير يقال له بادخن وأهل السكرب يقطنون فى السهول وأهل سلم يقطنون فى جبلهم (جبل سلم) والسكرب أرض رملية وجبلية وبلاد مراعى واسعة إذا حصل فيها المطر فمن الثنية إلى شبوه آكام من الرمال ينبت فيها الرهص زهص الإبل والعلقا والثمام وغيره وسكانها أعداء أقوياء وفى حرب دائم مع بعضهم وبعض آخر والفوضى ضاربة عندهم والديانة ضعيفة لفقدان المرشدين .

وتقسم السكرب إلى ستة أقسام كبيرة منها آل عوير وآل سفر وآل عمر والمسامة وبادخن وصغيرة منها آل جميول والقطة والمطاحلة والحولان ومن أقسام السكرب آل بريك المشايخ وهم فى حكم المهجرة . =

(*) نذكرهنا تعليقاً لطيفا عن مشارق اليمن ملخصا من رحلة البكباشى محمد افندى البيراوى اليمنى فى مشارق اليمن .

بكل استغراب وتحير عظيم ألقى إلى مسامع الحكومة اليمنية ما أذاعته محطة الراديو

(أما بلاد الصيعر) فهى واقعة فى شمال السكرب ويحدها من الشمال الربع الخالى ومن الجنوب السكرب ونهد وحضرموت ومن الشرق العوامر من أم شقاس ومن الغرب دهم وعبيدة والحد الفاصل بين السكرب والصيعر عرف الرماد وأرض الصيعر جبال ورمال والغالب قسم الجبال ومساحتها طولا من الشرق إلى الغرب ٢٧٦ كيلومتر تقريبا وعرضا من الشمال إلى الجنوب ١٤٠ نفوسها ٦٠٠٠ تقريباً ، المشهور من قراها الريدة وزراعتها الصيفى الذرة وبعض التمر ، وارداتها الحبوب من مارب والجوف وخب والعنان ووائلة والبن والسكر ونحوها من حضرموت والسمك من ساحل أم شقاس.

وأرض الصيعر قليلة المياه وسكانها متوغلون فى الهمجية ومتحملون لشظف العيش ومتاعب الحياة وجلهم رحل فى البلاد وهم أشداء قلّ أن يوجد فيهم من لا يحمل السلاح .

وتقسم الصيعر إلى قسمين كبيرين (آل حاتم) و (آل على أبى الليث) ولكل قسم عدة أقسام ونسب الصيعر فى كندة .

(وبلاد أم شقاس) ويقال المشقاس هى بادية ساحل حضرموت يحدها من الغرب الصيعر وحضرموت ومن الشرق البحر العربى والمحيط الهندى وجبال عمان ومن الجنوب البحر العربى والمحيط الهندى ومن الشمال الربع الخالى .

نوع أرضها رمال وجبال والغالب قسم الرمال كرملة آل كثير والحراسيس ورملة مقشن وفيها ماء ونخل ، نفوسها ٤٧٠٠٠ نسمة تقريبا وإذا استثنينا المهرة والمناهيل فهم أحط حالا وأصعب مراسا من الصيعر وفى أرضها قبر هود عليه السلام وبئر برهوت وتبلغ مساحتها من الشمال إلى الجنوب ٣٨٠ كيلومتر تقريبا ومن الشرق إلى الغرب ٤٨٨ ، وارداتها الحبوب والسكر ونحوه والبز من سواحلها ومن حضرموت ، صادراتها الماشية والجلود والعزف .

وينقسم سكانها إلى ثمانية أقسام هى العوامر والمناهيل والمهرة وآل كثير وآل محرم وآل شريف والحراسيس والمناصير .

ومن سواحل أم شقاس المشهورة سيحوت ومرباط والزلالة وظفار .

أما الربع الخالى أو رملة يبرين أو الصحراء العربية الكبرى فيحده شمالا الدهناء ونجد وصحراء يبرين ورأس المسندم على خليج البحرين وجنوبا أم شقاس والصيعر ودهم وشرقا جبال عمان وغربا واحة نجران ووادى الدواسر والأفلاج والسكرب والصيعر وحضرموت ويبتدئ خط الربع الخالى من بلدة سلوى على خليج البحرين ماراً بواحة يبرين والأفلاج إلى وادى الدواسر ثم واحة نجران الكبرى ماراً بدهم والصيعر ثم حدود أم شقاس ويترك جبال عمان شرقا وينتهى عند سفح رأس

بلندن فى يوم الاثنين ٢٤ شهر ربيع الثانى سنة ١٣٥٨ الموافق ١٢ حزيران سنة ١٩٣٩

المستدم على الخليج الفارسى ، مساحته ٢٥٠٠٠٠ من الأميال المربعة ، سكانه آل مرة والعوامر وآل كثير والثلاث القبائل من أم شقاص والصيعر .

ومياه الربع الخالى على ثلاثة أقسام ماء المطر المتجمع فى المجارى والميزان وماء الآبار العميقة وهو الذى يمكن شربه كبئر مغينمة التى يبلغ عمقها ١٧١ قدما وبئر فاضل البالغ عمقها ١٢٥ قدما أما الآبار القليلة العمق فهو أجاج لايمكن شربه وفى الجهة الشرقية من الربع الخالى وفى جنوبه يوجد الماء من جميع أنواعه المذكورة وهى خالية من السكان وجديرة بأن يطلق عليها الربع الخالى .

وينقسم الربع الخالى الى قسمين الأول الى الجنوب والشرق وهو عبارة عن هضاب سهلة يمكن اجتيازها ويقدر بثلث مساحة الربع الخالى والقسم الثانى الجهة التى الى الغرب والشمال وهى عبارة عن أكثبة من الرمال الكثيفة ذات لون أحمر وأبيض ويقدر بثلثى مساحة الربع الخالى وطرق الربع الخالى مجهولة اندثرها بالرمال التى تنقلها الرياح ومحلات الطرق أربع : (الأولى) من ظفار على ساحل البحر العربى ماراً بسلسلة جبال القارة الى شبصور ومن شبصور الى شبه جزيرة قطر والمسافة من شبصور الى شبه الجزيرة المذكورة ثلاثون يوما على سير الإبل وفى هذه الطريق يوجد الماء الضارب الى الملوحة وهذه الطريق من الجنوب الى الشمال . (الثانيـة) من الشمال الى الجنوب وهى من الخفوف الأحساء الى سلوى حيث يبتدئ الربع الخالى ماراً بواحة بيرين ثم الأفلاج فجاءة الفرشا فأبو بحرة فشقة الحوايا ومنها الى بئر نيفا وسط الربع الخالى والمسافة من بئر نيفا الى سليل بعد الاتجاه غربا ٢٥٠ ميلا وسليل هذه منتهى وادى الدواسر وهذه المنطقة لا يوجد فيها الماء من جميع أنواعه وهذه الطريق يربط جنوب الجزيرة بشمالها . (الثالثة) من الجنوب الى الشمال من حضرموت الى الصيعر ثم شقة الحوايا وتمر مابين بئر فاضل ومغينمة الى بيرين وهى طريق القوافل التجارية ودرست بعد اكتشاف الطريق البحرية . (الرابعة) طريق مارة من عمان الى شمال بئر فاضل ثم مغينمة ثم المرباخ الى وادى الدواسر .

وأما ما يعرف بالبحر السافى فهو عبارة عن رمال رقيقة تبتلع الأجسام والأثقال التى تعلوها وهى فى أطراف الربع الخالى وفى وسطه فى منطقة شاسعة تدعى بأم العميم .

أما المسافات فيما بين المواقع المهمة على سير الإبل فمن صنعاء الى مارب إحدى وثلاثون ساعة وخمسون دقيقة ومن مارب الى العبر وهى تأخذ شرقا الى الجنوب ست وأربعون ساعة وأربعون دقيقة ومن مارب الى شبوه وهى آخذة جنوبا الى الشرق خمس وأربعون ساعة ومن شبوه الى العبر وهى من الجنوب الى الشرق الشمالى سبع عشرة ساعة وخمسون دقيقة ومن شبوه الى مدينة شبام حضرموت ثمانى وثلاثون ساعة ومن العبر الى مدينة شبام إحدى وأربعون ساعة . انتهى ما أردنا تلخيصه من رحلة الكابتن محمد [illegible] فى [illegible] .

عن واقعة شبوة وموقع البئر وملحقاتهما التى يتألف من مجموعها جانب من البلاد الشرقية الشمالية والتى مازالت يمنية محضة منذ آلاف السنين لم تمسها أيدى غير اليمنيين إلى آخر ذلك وانتهى الأخذ والرد على أن تكون منطقة حرام ، وفى خلال ذلك بعث الإمام المتوكل على الله الشيخ على القردعى فى جماعة من أصحابه إلى مدينة شبوة الخاربة فجاءتهم طائرات انكليزية أجبرتهم على الخروج منها وقد ذكر شبوة الهمدانى فى صفة الجزيرة فقال وفيما بين بيحان وحضرموت شبوة مدينة لحمير وأحد جبلى اللحج بها والآخر لأهل مارب قال ولما اخربت حمير ومذحج خرج أهل شبوة من شبوة فسكنوا حضرموت وبه سميت شبام وكان الأصل فى ذلك شباه فأبدلت الميم من الهاء انتهى وهى بلاد يمنية وأهلها يمنيون ولا يمترى فى ذلك أحد وقد امتدت إليها أيدى أئمة اليمن كما لا يجهله التاريخ ، وهى داخلة فى جغرافية اليمن الطبيعيـة .

وفى سنة ١٣٥٩ وصل صنعاء لزيارة الإمام المتوكل على الله سمو الأمير محمد بن الملك عبد العزيز بن سعود فى حاشية كبيرة وكانت طريقه من تهامة على ظهور السيارات وكان يرافقه فى هـذه الرحلة الشيخ بشير السعداوى مستشار الملك عبد العزيز وطاهر رضوان من كبار موظفى وزارة الخارجية المملكة السعودية .

وقد استقبل رجال الحكومة اليمنية هذا الوفد أحسن استقبال وكان الغرض من هـذه الزيارة تقوية روابط الصداقة والأخوة بين الحكومتين العربيتين والعاهلين العظيمين .

وقد عاد هذا الوفد بعد القيام بهذه الزيارة عن طريق عدن ولقد كان لهذه الزيارة شأن عظيم إذ دلت على ما يشعر به العاهلان العربيان من ضرورة التضامن والتفاهم ولاسيما فى هذه الأوقات .

وفى شهر ذى الحجة من هذه السنة حدثت زلازل شديدة فى أكثر بلاد القطر اليمنى وكان لها أعظم أثر فى بلاد صعدة حيث خربت كثيراً من الدور وأوقعت التلف

والحسارة بكثير من الناس وعلى الأخص فى قرية الطلح وجبل رازح وهجرة فلله وقد بعث الإمام يحيى بأحد المفتشين إلى بلاد صعدة لمعرفة ما وقع من الخسارة للفقراء وتعويضهم وإصلاح حالهم ، وقد قال فى ذلك الفقيه الأديب أحمد بن عبد الله السالمى هذه الأبيات :

أنوم بعد زلزلة الوجود ... ورجته لإيقاظ الرقود
بأمر الواحد الأحد الذى لا ... إله سواه ذو العرش المجيد
هو الجبار خالق كل شىء ... تعالى صاحب البطش الشديد
تأمل كيف رج الأرض حتى ... كأن خفوقها خفق البنود
فدكت والجبال الشم خرت ... وقد عادت صعيدا فى الصعود
فقل هذا هو البأس الذى لا ... يدافع لا قنابل من حديد
وقم مستفتيا وابعث سؤالا ... لأصحاب الطبيعة والجحود
إذا نقل الطبيعة كان هذا ... فمن طبع الطبيعة والوجود

ثورة الدباغ بالبيضا

وفى هذه السنة أرسل الإمام يحيى أمير الجيش الشريف عبد الله الضمين الحزى إلى بلاد البيضا على رأس قوة من الجند لإخماد الثورة التى قام بها السيد محمد الدباغ الحجازى وكان ينتمى إلى الحزب الهاشمى بالعراق الذى يعمل لإعادة سلطة الأشراف بالحجاز وقد وصل السيد محمد الدباغ قبل ذلك إلى صبيا وأثار الأدارسة على الملك عبد العزيز ابن سعود ثم قدم إلى صنعاء فلم يجد من يساعده أو يعينه على أغراضه فسار إلى عدن ومكث بها أياما ثم اتجه إلى بلاد يافع وأخذ ينشر فيها دعوته واستطاع أن يجمع طائفة من رجال يافع ودخل بهم قرية الجديدة وماحولها من قرى بلاد البيضا ولكنه لم ينجح وذهبت جهوده سدى بعد وصول الجيش المتوكلى وقد سلب أصحابه الرايات والطبول

طلوع أمير لواء الحديدة سيف الإسلام عبد الله إلى صنعاء ومعه أعيان تهامة

وفى شعبان من هذه السنة وصل إلى صنعاء لزيارة الإمام المتوكل على الله وفد كبير يضم أعيان تهامة وذوى الرأى فيها ويرافقهم سيف الإسلام عبد الله وكان إذ ذاك أمير لواء الحديدة وقد نزل الوفد بدار الضيافة وكان لهذه الزيارة مغزى عظيم فى تأكيد روابط الأخوة بين قسمى الجبال والتهائم اليمنية وكان من بين أفراد هذا الوفد السيد يحيى بن أحمد البحر والسيد قاسم الأهدل عن المنيرة والزيدية والسيد عيدروس علوى عن بيت الفقيه والسيد محمد الأهدل عن الحديدة والسيد عمر مقبول الأهدل عن الدريهمى والسيد هادى هيج عامل قضاء اللحية والسيد عبدة هيج من مشايخ الواعظات والشريف الحسن بن على بن أحمد بن الشريف حمود بن محمد صاحب أبى عريش وقد بقى الوفد مدة فى صنعاء ثم عاد إلى تهامة مكرما .

مسير الإمام المتوكل على الله إلى حمام دمت[1]

وفى سنة ١٣٦١ اشتد مرض التهاب المفاصل على الإمام المتوكل على الله ونصح له الأطباء بالاستحمام بمياه حمام دمت من بلاد رداع وهو حمام طبيعى به عيون فوارة فسار فى موكب كبير إلى حمام دمت ورافقه فى هذه الرحلة القاضى محمد راغب وزير الخارجية والسيد عبدالله بن أحمد الوزير وعامل صنعاء السيد الحسين بن على بن عبدالقادر شرف الدين والقاضى عبد الكريم بن أحمد مطهر وغيرهم وعاد إلى صنعاء وقد تحسنت صحته . وفى شوال من هذه السنة توفى شيخنا القاضى الحجة الحسين بن على العمرى عن خمس وتسعين عاما .

(١) مدينة دمت تبعد عن مدينة صنعاء على مسافة أربع مراحل وهى فى الجنوب الشرقى منها وفى أودبتها براكين ومياه حارة ومن أعجبها الحرضة بالحاء المهملة والراء ثم ضاد معجمة وهى قوة

« تأسيس الجامعة العربية »

وفى سنة ١٣٦٤ بدأت المفاوضات بين الدول العربية لتأسيس الجامعة العربية وبعد الأخذ والرد والمشاورات تم الاتفاق على إنشاء الجامعة العربية على أن يكون مقرها فى مدينة القاهرة والغرض منها توثيق الروابط بين البلاد العربية واحترام استقلالها وتوجيهها إلى مافيه خيرها وصلاحها وتأمين مستقبلها وقد تم عقد الميثاق بين سبع دول عربية هى سوريا وشرق الأردن والعراق والمملكة العربية السعودية ولبنان ومصر واليمن ، وقد حضر مندوبون عن كل الحكومات العربية إلى القاهرة وانضموا إلى أمين الجامعة عبد الرحمن عزام باشا وكان يمثل الحكومة اليمنية صاحب السمو الأمير سيف الإسلام عبد الله بصفته رئيساً للوفد اليمنى الذى كان يضم أصحاب السادة السيد على بن إسماعيل المؤيد والسيد حسن بن إبراهيم والقاضى محمد بن عبدالله العمرى.

وفى سنة ١٣٦٦ تم عقد الشركة التجارية اليمنية التى منحها الإمام المتوكل الله امتيازاً لاستيراد الغاز والسكر وقد جمعت الأموال من تجار اليمن وغيرهم ممن أرادوا المساهمة فيها وقد اشترط الإمام حسن السلوك فى المساهمين .

وفى هذه السنة افتتحت محطة الإذاعة اللاسلكية فى مدينة صنعاء .

دخول اليمن عضوا فى منظمة هيئة الأمم

وفى سنة ١٣٦٧ انضمت حكومة اليمن إلى هيئة الأمم المتحدة وتم قبولها فى هذه المؤسسة الدولية العظيمة وكان سرور الدول العربية عظيما بهذا الأمر الذى ضم للعرب صوتا جديدا كما سُرَّت أيضاً الجالية اليمنية بنيويورك عندما رأت العَلَم اليمنى يرفرف على مكان الاجتماع إلى جانب أعلام الدول الأخرى .

مقتل الإمام المتوكل على الله يحيى بن محمد حميد الدين ملك اليمن

مما سبق يعرف القارئ الكريم الإصلاحات العظيمة التى أدخلها الإمام المتوكل على الله يحيى بن محمد حميد الدين فى اليمن وجهاده فى سبيل استقلال بلاده ونضاله السنوات الطوال وسياسته الحكيمة التى سار عليها فى إدارة البلاد وما اتصف به من علو الهمة والحنكة والمهارة السياسية مما جعل البلاد اليمنية تحصل على استقلالها قبل الدول العربية الأخرى كاملا غير منقوص وكان يحرص على الاستقلال ويحتفظ به متيقظاً لما تتربص له الدول الأوروبية من مطامع الاستعمار ، وبالرغم من جهود هذا الإمام العظيم ومحبته لشعبه ووطنه فقد قامت دعاية مغرضة بمدينة عدن ضد هذا الملك العظيم الذى أوجد اليمن والذى كان أول زعيم عربى طالب باستقلال العرب وتظاهر ناشرو هذه الدعاية ضد الإمام وطريقة حكمه للبلاد باسم الإصلاح وقد بدأ بنشر هذه الدعاية جماعة من اليمنيين المقيمين بعدن الذين سموا أنفسهم حزب الأحرار وانضم إليهم آخرون وأنشأوا لهم جريدة سموها « صوت اليمن » وأعانتهم فى دعايتهم هذه جريدة كانت تنشر فى مصر اسمها جريدة «الصداقة» وقد أخذت كلتا الجريدتين فى نشر كل مايُشَوِّه سمعة اليمن وسياسة الحكومة اليمنية المتوكلية وغَرُّوا بما زخرفوه من الأقوال كثيراً من الناس الذين اعتقدوا أنهم يطالبون حقيقة بالإصلاح ، وقد تبين فيما بعد أن السيد عبد الله بن أحمد الوزير كان طامعاً فى الخلافة فى اليمن وكان يعاون هؤلاء ويؤيدهم من وراء ستار ولم يزل هذا شأنهم حتى تمخضت هذه الفكرة عن أقبح نتيجة وكان لها أوخم العواقب إذ فوجىء الناس فى مدينة صنعاء فى يوم الثلاثاء ٧ ربيع الثانى سنة ١٧١٧ ب بنبأ مقتل جلالة الإمام يحيى (١)

---

(١) أما مولد الإمام يحيى ففى شهر ربيع الأول سنة ١٢٨٦ ونشأ بمدينة صنعاء وأخذ العلم عن والده الإمام المنصور بالله محمد بن يحيى والقاضى العلامة محمد بن عبدالملك الآنسى ومفتى الزيدية =

فى سواد حزيز جنوب مدينة صنعاء وعلى بعد ستة أميال منها وهو عائد من نزهته وكانت هذه الجريمة الشنعاء نتيجة مؤامرة دنيئة دبرت فى الخفاء وأبرمت بليل وقد استشهد مع الإمام يحيى وزيره الكبير القاضى عبد الله بن الحسين العمرى الذى تولى الوزارة أكثر من عشرين عاما وكان ساعد الإمام يحيى الأيمن يمده بآرائه الصائبة وبجهوده الموفقة فى سبيل خدمة البلاد وأبنائها وكذلك قتل معه فى هذه الحادثة الفظيعة حفيد الإمام الحسين بن الحسن وهو طفل لم يبلغ الحلم وبعض الخدم وقد اضطرب الناس لهذه الجريمة التى لم يكن أحد ينتظر وقوعها ودب الرعب فى قلوبهم وقد دفن الشهداء فى اليوم الثانى إلى جوار مسجد الرحمة المشهور ببئر العزب فى الساحة التى كان قد تم إعدادها للإمام من قبل وكان قتل الإمام المتوكل على الله بهذه الطريقة المنكرة خيانة للدين والوطن .

= القاضى محمد بن أحمد العراسى والقاضى شيخ الإسلام على بن على اليمانى والفقيه الفاضل إسماعيل ابن على الرعى وغيرهم وأحرز قصب السبق فى ميدان الأدب وطارح مشايخه وأقرانه بأنواع الآداب الشعرية ولما هاجر مع والده من صنعاء أيام الأتراك أخذ عن القاضى العلامة عبدالله بن أحمد المجاهد والعلامة أحمد بن عبد الله الجندارى والعلامة لطف الله بن محمد شاكر وغيرهم وأخذ بالإجازة عن القاضى العلامة على بن حسين المغربى والمولى الحجة الحسين بن على العمرى واستجاز منه وكاتبه كثير من علماء الأقطار .

وكان من مزاياه وشمائله المحافظة على مبادئه التى نهض بها من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتوظيف أوقاته ومواصلة الأعمال وكف أيدى أهل الشرور وتأمين السبل ولين الجانب وتسهيل الحجاب والمحافظة على إقامة الجمعة والجماعة وإجراء الحدود التى حدها الله على أهل الجرائم .

أما أنظاره الثاقبة فكثيرة واختياراته فى مسائل العاملات مشهورة مدونة وقد نظمها بعض أدباء العصر كما نظمها سابقاً القاضى عبد الرحمن الحداد من علماء الشافعية .

كيفية تدبير المؤامرة وأسبابها

أما كيفية تدبير هذه المؤامرة الدنيئة التى كشفتها الأيام واعترف بها بعض الجناة فإنها تتلخص فى أنه لما طعن الإمام يحيى فى السن وناف على الثمانين وانتابته الأمراض وزادت فى آلامه كان السيد عبد الله الوزير مهتما بهذا الأمر ويترقب موت الإمام بفارغ الصبر ، وكان هو وحزبه لا يفكرون فى قتل الإمام ولكنهم كانوا ينتظرون موته فى فراشه وكان المرض الذى أصاب الإمام فى شهر ربيع الأول من السنة أخطر ما نزل به من أمراض ، ولكن الحزب فوجىء بأمرين أولهما شفاء الإمام سريعا وثانيهما أن أفراد الحزب المقيمين بعدن سارعوا بنشر نبأ وفاة الإمام يحيى وقيام السيد عبد الله الوزير ولذلك أسرع البعض بتهنئته على الخلافة كما نشرت بعض الصحف المصرية نبأ وفاة الإمام وقيام السيد عبد الله الوزير وتشكيل الوزارة الجديدة وما إلى ذلك ولهذا خشى المتآمرون على أنفسهم ولاسيما حين شرع الإمام فى اتخاذ التدابير اللازمة للقضاء عليهم ومن ضمنها طلبه اولى العهد بالحضور من تعز إلى صنعاء فعقدت طائفة منهم بصنعاء مجلساً فى دار السيد على بن عبدالله الوزير حضره الفضيل الورتلانى المغربى الجزائرى وكان قد وصل اليمن ودخلها باسم العمل فى إدارة الشركة التجارية اليمنية وكذلك الرئيس جمال جميل العراقى وكان موظفاً باليمن لتدريب جيش الدفاع اليمنى — وقرروا قتل الإمام غيلة عند خروجه إلى مزارعه وندبوا لتنفيذ هذه الجريمة فى نظير شىء من المال — الشيخ على ناصر القردعى من حريب وخمسة عشر رجلا من بنى الحرث وبنى حشيش وأعطوهم خمسة عشر بندقية ومدفعين من الدافع الرشاشة وقد خرجت سيارة هؤلاء المتآمرين خلف سيارة الإمام وترصدوا له فى الطريق عند رجوعه من نزهته وأطلقوا عليه رصاص بنادقهم فى المحل السالف ذكره فأصيب الإمام بعدة رصاصات

الرئيس جمال جميل بعد الفتك بالإمام بالمحافظة على الأمن فى العاصمة ، وقبل أن يحمل جثمان الإمام من مكان مصرعه سارع السيد عبد الله الوزير بالدخول فى قصر صنعاء وترتيبه ووضع يده عليه ووصل الرئيس جمال فى ثلة من رجال الجيش إلى باب دار الإمام المسماة بدار السعادة وأراد الوقوف هناك فزجره سيف الإسلام الحسين بن الإمام يحيى وكان الى جنبه شقيقاه سيف الإسلام محسن وسيف الإسلام يحيى فما كان من الرئيس جمال إلا أن أطلق رصاص مسدسه على أولاد الإمام وأمر الجنود بإطلاق رصاصهم فقتل فى الحال سيف الإسلام الحسين وسيف الإسلام محسن وألقى سيف الإسلام يحيى بنفسه على الأرض وبذلك سلم من الموت . وفى اليوم التالى لمقتل الإمام يحيى دعا السيد عبدالله بن أحمد الوزير لنفسه وتلقب أولا بالداعى ثم بالهادى ، وطلب إلى الناس مبايعته إماماً وكتب إلى الحكام والعمال باليمن مخبراً بوفاة الإمام يحيى بسكتة قلبية وبقيامه بالأمر ، كما كتب إلى رؤساء الحكومات العربية وملوكها وإلى أمين الجامعة العربية بذلك ذاكراً أن الأمة اليمنية قد اختارته إماماً لها .

الباب الثامن

فى دولة الإمام الناصر لدين الله أحمد بن يحيى بن محمد حميد الدين

كان سيف الإسلام أحمد ولى عهد المملكة اليمنية وأكبر أنجال الإمام الشهيد يحيى عند استشهاد أبيه فى مدينة تعز فأبرق إليه بعض أوليائه ومحبيه بصنعاء بما حدث لوالده فخرج من حينه فى عدة سيارات ومعه عدد من رجال الجيش وكثير من المال فوصل مدينة حَيْس ورتب أمورها ثم سار إلى الحُدَيدة وبلغته وهو بمدينة باجل دعوة السيد عبد الله الوزير لنفسه واغتصابه عرش المملكة اليمنية بالرغم من أنه كان ممن

وواصل سيره حتى بلغ جبل حجة ومن هناك بعث رسله ورسائله إلى القبائل اليمنية ورؤساء العشائر وأمراء الجيش النظامى وأخبرهم بحقيقة الأمر وأمرهم بالزحف على صنعاء وأخذ الثأر للإمام يحيى وإعادة العرش إلى أهله فتحفزت القبائل اليمنية لذلك ورفع الإمام الناصر الحقيقة إلى جامعة الدول العربية بواسطة اللاسلكى من جازان فاستاء الناس لهذه الجريمة الشنيعة واشتغلت الصحف المصرية وغيرها بنشر أنباء هذا الحادث المروّع .

أما السيد عبد الله الوزير فإنه بعد قتل الإمام يحيى وولديه الحسين والمحسن أمر بحبس أولاد الإمام الذين كانوا بصنعاء وهم سيف الإسلام يحيى والقاسم وعلىّ وإسماعيل وأخذ فى توزيع الأموال والسلاح بغير حساب ولا نظام وأهمل البحث عن الذين قتلوا الإمام يحيى وأظهر أنه لا يعلم شيئاً من المؤامرة ولا يعرف أحداً من الجناة الذين ارتكبوا الجريمة ولكن الأيام كشفت الأسرار فيما بعد . وقد خرج من تعز على أثر خروج الإمام أحمد منها طائفة من أنصار الحزب إلى الحديدة واجتمعوا بالحادم غالب من أهل زبيد وتجارها فكان القبض عليهم وأرسلوا إلى حجة ، كما خرج من عدن إلى تعز ثم إلى صنعاء طائفة من الحزب منهم الأستاذ أحمد البراق والقاضى محمد بن محمود الزبيرى وعينوا فى المناصب الرفيعة فى الحكومة الجديدة وكانت طائرات عدن تروح وتغدو بين صنعاء وعدن ونقلت إلى صنعاء جماعة من الغوغاء الذين أطلقوا على أنفسهم اسم الفدائيين كما وصلت إلى ذمار طائفة من رجال الحزب قادمة من تعز من بينهم الشيخ أحمد محمد نعمان فألقى القبض عليهم جميعاً وأرسلوا إلى حجة وكما تم القبض على آخرين ممن كانوا ينتمون لهذا الحزب فى مدينة إبّ وغيرها وحبسوا فى حجة .

استعدادات السيد عبد الله الوزير وحصار صنعاء

بعد أن عرف السيد عبدالله بن أحمد الوزير نجاح الإمام أحمد فى الوصول إلى حجة عزم على محاربته فأرسل جيشاً مؤلفاً من ٤٠٠ مقاتل من قبائل نهم إلى شبام كوكبان ورأس عليهم السيد محمد بن محمد الوزير وأرسل معهم أربعة مدافع وكمية من السلاح فدخلوا شبام وأرادوا تحصين جبل كوكبان ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك ثم غزاهم أبو مُنَصَّر من ثلاثة معه قبائل عمران وغيرهم واستسلمت قبائل نهم ونُهِبَت مدينة شبام وألقى القبض على السيد محمد بن محمد الوزير وأرسل إلى حجة . وبعث السيد عبد الله الوزير ابن عمه السيد محمد بن على الوزير إلى عمران فى طائفة من رجال الجيش النظامى على عدة سيارات ، لكنهم صُدُّوا عن مدينة عمران وعادوا إلى ضَرَوان من بلاد همدان حيث ثارت عليهم القبائل وتبعهم رجال قبائل عمران فنهبوهم وحطموا بعض سياراتهم فعاد السيد محمد بن على إلى صنعاء فوق إحدى السيارات ومعه بعض الجرحى وقد تركه أكثر أصحابه من رجال الجيش النظامى وساروا إلى حجة بسلاحهم لمناصرة الإمام أحمد لذلك أرسل السيد عبد الله الوزير فرقة من جنود الجيوش النظامى للمحافظة على طريق اليمن الأسفل فى نقيل جهران فغزاهم بعض رجال قبائل آنس ونهبوهم واستولوا على كل ما كان معهم ورفضت قبيلة أرحب قبول الأموال والأسلحة التى أرسلها إليهم السيد عبد الله الوزير وقالوا له لابد أولا من معرفة قَتَلَة الإمام يحيى ، ولما فشلت حركة السيد عبد الله الوزير وتضعضعت أحواله وتوالت الهزائم على أصحابه طلع السيد محمد بن على الوزير بعد هزيمته من عمران إلى جبل نقم المطل على صنعاء ومعه بعض العساكر وعلى ناصر القردعى للمحافظة على الحصن . وعند مقتل الإمام يحيى كان نجله سيف الإسلام الحسن فى بلاد حاشد وكان صنوه سيف الإسلام العباس بوادى السر

القبائل وسار بهم إلى عمران وكاتب الإمام أحمد إلى حجة وأخذ فى إثارة القبائل على السيد عبد الله الوزير وتبعته جماعة منهم فتقدم بهم إلى قرية القابل ودخلت قبائل جَدِر الروضة وعلى رأسهم السيد عبد الرحمن بن أحمد حميد الدين وبدءوا فى محاصرة مدينة صنعاء وتجمع رجال القبائل حول صنعاء ونهبوا بيوت الروضة والجراف ووادى ضهر وتقدم السيد على[1] بن حمود شرف الدين بقبائل الطويلة وكوكبان إلى حَدَّة بنى شَهاب فى الجنوب الغربى من صنعاء كما وصلت قبائل الحدا ومشايخهم من بنى القَوْسى وبنى البَخِيْنى إلى الصافية المدنية جنوب العاصمة فضيقوا الخناق عليها ولم يبق بيد السيد عبد الله الوزير وأصحابه إلا إلقاء القنابل من القصر وأسوار المدينة وجاء أصحاب الإمام أحمد بمدفع من السودة وصعدوا به إلى أحد جوانب جبل نقم وصَوَّبوا قنابله إلى القصر .

وفى خلال هذا الحصار أرسل السيد عبدالله الوزير إلى ملوك ورؤساء الدول العربية هذه البرقية :

« صنعاء عاصمة اليمن فى خطر عظيم من القبائل المتوحشة الثائرة وهم غير تابعين لأحد ، هدفهم السلب والنهب والقتل ، عقيدتهم إن صنعاء كنز ذهبى . فباسم الأطفال والنساء والشيوخ ندعوكم لإنقاذهم بأى وسيلة وبكل سرعة » .

كما أرسل برقية أخرى إلى الجامعة العربية والحكومات العربية هذا نصها :

« لقد حكمنا الجامعة العربية فصارت مسئولة عن الحالة فى اليمن ونحن الآن لا نطلب من الجامعة ولا من الحكومات العربية مساعدتنا ولا تأييدنا ولكننا نطلب إنقاذ عشرات الآلاف حتى يستطيع القائمون بالأمر فى صنعاء المحافظة على النفوس والأموال والذخائر إلى أن يصل وفد الجامعة وتقرير مصير اليمن ولا يستطيع أحد من المسئولين وقف هذه العصابات الثائرة لأن مبدأها السلب والنهب فلم يبق إلا أن توقفوا أنتم بأنفسكم هجمات القبائل حتى يجرى التحكيم فى جو هادئ » .

وهكذا عرف أن الحزب الثائر على حكومة الإمام يحيى لم يكن قيامه عن رغبة الشعب اليمنى بل لقد أخذ يستغيث من الشعب اليمنى بالدول الشقيقة وكان أمين الجامعة العربيـة عبد الرحمن عزام باشا قد أرسل بعثة استطلاعية إلى اليمن لتعرف الأحوال ومن بين أفرادها بعض مندوبى الصحف المصرية والسيد يحيى بن إسماعيـل الوادعى من موظفى الجامعة فوصلت البعثة إلى صنعاء قبل أن يضيق الخناق عليها ونشرت كل من جريدتى « الأهرام » و « المصرى » بعض التفاصيل عن الحالة فى اليمن مما تلقتاه من مندوبيهما .

وبعد ذلك سافر عزام باشا أمين الجامعة وبعض موظفى الجامعة العربية وسعادة الشيخ يوسف يس وسعادة السيد حسن بن إبراهيم وركبوا على باخرة مصرية من مينى السويس قاصدين اليمن وعندما وصلوا إلى جِدَّة طلبهم الملك عبد العزيز بن سعود إلى الرياض . وفى خلال ذلك أرسل السيد عبد الله الوزير وفداً من جهته إلى الرياض مؤلفاً من السيد عبد الله بن على الوزير والقاضى محمد محمود الزبيرى والفُضَيْل الورتلانى وهناك ألقى الفُضَيْل الورتلانى اللائمة على الجامعة العربية لتريثها وتباطئها عن نصرة السيد عبد الله الوزير وقال إن أعضاء الجامعة لصوص فزجره الملك عبد العزيز وقال له إنما أنتم اللصوص أنتم الذين قتلتم الإمام يحيى ولم تحترموا شيخوخته وكبر سنه وبينما كان الوفد اليمنى ومندوبو الجامعة العربية بالرياض فُتِحت صنعاء وألقى القبض على السيد عبـد الله الوزير فى يوم السبت ثالث جمادى الأولى فباء وفد ابن الوزير بالفَشَل وتفرق أعضاؤه وعاد مندوبو الجامعة إلى مصر .

وفى أثناء حصار صنعاء أرسلت الحكومة المصرية طائرتين إلى اليمن لترحيـل المدرسين المصريين المنتدبين للتدريس بمدارس صنعاء فلم تستطيعا الهبوط بمطارها نظراً لأن وصولهما كان يوم فتح صنعاء بعد تخريب المطار فعادتا إلى جدة وبهما بعض آثار [illegible] الإمام الناصر لدين الله أحمد

قد أبرق إلى مندوبه بمصر سعادة السيد على بن إسماعيل المؤيد لإبلاغ الجهات المختصة بمصر بعدم مسئوليته عن خروج أى طائرة مصرية إلى اليمن فى وقت الحرب .

فتح صنعاء والقبض على السيد عبد الله الوزير

كانت القبائل اليمنية قد تجمعت حول صنعاء وجاءت من كل فج عميق تريد أخذ الثأر للإمام الشهيد وفى يوم الجمعـة ٨ جمادى الأولى هاجمت حصن نقم وقبضت على السيد محمد بن على الوزير وبعض أصحابه وساقتهم إلى حجة وفرَّ الشيخ على ناصر القَرْدعى واتجه إلى بلاده ولكن بعض رجال القبائل أحدقوا به فقاتلهم حتى قتل وكان الحراس الذين عينهم السيد عبـد الله الوزير للمحافظة على أولاد الإمام فى حبس صنعاء يميلون إليهم فوعدوهم بنصرتهم وفى ليـلة السبت ٣ جمادى الأولى فتحوا لهم أبواب السجن ومكّنوهم من السلاح فطلع سيف الإسلام على بن الإمام الشهيد إلى محل المدفعية بالقصر وساعده المدفعى على رمى الدار التى كان بها السيد عبد الله الوزير وعندئذ أدرك السيد عبد الله الوزير بأن أمره قد انتهى وأنه لا حيلة له بعد ذلك فاستسلم وقبض عليه وأودع السجن بصنعاء ثم أرسل بعد ذلك إلى حجة وأشعلت النيران بصنعاء احتفالا بانتصار الإمام الناصر لدين الله أحمد وقام العسكر المعينون لحراسة أبواب المدينة بفتحها للقبائل التى دهم رجالها المدينة وأخذوا فى السلب والنهب وانتهاك الحرمات وقتلوا من قاومهم ولم يستمعوا إلى أوامر رؤسائهم فأخذوا أموال التجار ونهبوا المتاجر وخربوا الأسواق وفعلوا مالم يسبق مثله فى التاريخ وعادوا إلى بلادهم مثقلين بالمال الحرام ثم عاد الأمن إلى نصابه وفى هذه الأثناء تم القبض على الرئيس جمال جميل وغيره ممَّن ناصر العهد الجديد أو من وجهت إليه تهمة المؤامرة وأرسلو إلى حجة كما حبس آخرون بصنعاء .

وفى يوم ٢٨ جمادى الأولى نفذ حكم الإعدام فى السيد عبـد الله بن أحمد الوزير بحجة بعـد عودة الإمام الناصر إلى تعز وتهدئة الأحوال بها ثم نفذ حكم الإعدام فى

آخرين أما الذين قاموا بقتل الإمام يحيى والذين ضمتهم السيارة التى تصدت لسيارة الإمام فلم يفلت منهم أحد.

اعتراف دول الجامعة العربية بالإمام أحمد ملكا على اليمن

ولقد كان سيف الإسلام عبدالله عند استشهاد والده الإمام يحيى مقيما بمدينة باريس عاصمة فرنسا فعاد إلى مصر وأقام بالقاهرة أياماً احتفل فيها بمرور أربعين يوماً على وفاة الإمام الشهيد بدار الشبان المسلمين وكان الاحتفال رائعا حضره كثير من علماء مصر وعظمائها وذوى الرأى فيها معبرين عن شعورهم وألمهم لهذا الحادث الأسيف ومنهم شيخ الجامع الأزهر ومفتى الديار المصرية وكثير من الأمراء والكتاب والشعراء والصحفيين وبعد تلاوة آى الذكر الحكيم على روح الفقيد العظيم قام كثير من الخطباء فألقوا كلمات رائعة أشادوا فيها بمآثر الإمام يحيى وذكروا محاسنه وما تم على يديه من المحافظة على استقلال اليمن ورد التيار الأجنبى عنه . وقد أقام سمو الأمير سيف الاسلام عبد الله حفلة أخرى حضرها أعضاء نقابة الصحفيين وكثير من الكبراء والعظماء وألقى سموه فيها كلمة عن المؤامرة التى دبرت لاغتيال والده الإمام الشهيد وألقى على كاهل الصحفيين واجب ذكر الحقائق عن هذا الحادث كما تكلم فى أثره نقيب الصحافة المصرية الأستاذ فكرى أباظه وأشار إلى ما تقدمه الصحف المصرية من الخدمات لنصرة العدالة وخدمة العروبة وتكلم الفريق عزيز المصرى باشا وهو أحد قواد الجيش التركى الذين ذهبوا إلى اليمن فيما مضى بصحبة عزت باشا عند عقد الصلح بين الإمام يحيى والدولة العثمانية فذكر مشاهداته وما يعرفه عن الامام الراحل وأثنى عليه أطيب الثناء .

وبعد فتح صنعاء وانتصار الامام أحمد عقد مجلس الجامعة العربية بلبنان فحضره [illegible]

اعتراف دول الجامعة بالإمام الناصر لدين الله أحمد ملكا على اليمن فاعترفت دول الجامعة بذلك وكتب أمين الجامعة عبدالرحمن عزام باشا إلى الإمام أحمد ملك اليمن كتاباً هذا نصه :

« عرضت على اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية أثناء اجتماعها فى بيروت ما تجمع لدىّ من المعلومات عن اليمن وعن تبوئكم مقام الإمامة فيه وانتهاء النزاع على ذلك فقررت اللجنة توصية الدول العربية بالاعتراف بجلالتكم إماماً على اليمن .

وإنى أكتب إلى جلالتكم مهنئاً بالمقام الجليل واثقاً من بداية عهد سعيد على يديكم تكونون فيه مثلا للتسامح والرفق عمن نازعكم والغفران لمن أساء إليكم والصلاح فى وطنكم والأخذ بأيدى أهل اليمن نحو الرقى والعمران والحياة الكريمة السعيدة ليكون اليمن درّة عزيزة فى قلادة الأمة العربية وجامعتها وليحتل مقاما لائقاً بعدده وثروته وذكاء أهله بين الشعوب العربية . وقد كلفتنى اللجنة أن أبلغ جلالتكم أن جامعة الدول العربية التى تشترك فيها اليمن عضواً نافعاً فعالا على أتم الاستعداد لتقديم كل ما تملك من مساعدات فنية وغيرها لمساعدة الحكومة اليمنية فى خطواتها الموفقة نحو الإصلاح والرقى فى ظل عهدكم السعيد إن شاء الله . أدعو الله أن يوفقكم وأن يعينكم على المسئوليات التى يلقيها عليكم الشرع والمروءة وأن يجعل عهدكم عهد يمن وبركة على الأمة العربية الإسلامية » .

ولقد كان من الامام الناصر لدين الله أحمد بعد فتح مدينة صنعاء وتسكين ثورة القبائل اليمنية أن أمر بتوزيع كثير من المال لتعويض من أصابهم ضرر أو من نهبت أموالهم وممتلكاتهم بصنعاء كما قدم قرضاً لكثير من التجار لاستئناف تجارتهم وأمر بإصلاح الأسواق ، وهكذا عادت المياه إلى مجاريها وعاد الأمن إلى نصابه بفضل حنكة الامام وحزمه وقوة إرادته . ولله در ابن المبارك إذ يقول :

الله يدفع بالسلطان مُعْضِلَةً عن دينِنا كرماً منه ورضوانا

وفى شعبان من السنة وصل إلى حضرة الامام بتعز عن طريق جدة و[illegible] المملكة العربية السعودية برياسة سعادة الأمير إبراهيم بن معمر مندوباً عن جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود وكان الغرض من هذه الزيارة توثيق أواصر الأخاء والوداد بين المملكتين.

وفى ذى الحجة من السنة وصل إلى الامام وفد أمبراطورية الحبشة من قبل الملك هيلاسلاسى عن طريق عدن ونزل الوفد ضيفاً على الحكومة اليمنية وبجانب الوفد من حاكم منطقة عدوة ومفتش معارف منطقة هرر وأقيمت للوفد عدة مآدب حضرها الامام الناصر تكريماً للوفد وانتهز جلالة الامام الناصر الفرصة للإعراب عن أمله فى أن يرى حسن معاملة المسلمين فى الحبشة ورفع مايشكون منه من ضغط و[illegible] رئيس الوفد شاكراً لجلالته نصائحه الغالية واهتمامه فى حسن معاملة مسلمى الحبشة وأكد الوفد لجلالته بأن معاملة المسلمين فى الحبشة حسنة وأنه لا فرق بين المسلم والمسيحى وأنهم جميعاً أبناء وطن واحد.

وكانت المفاوضة فى عدة اجتماعات على عقد معاهدة صداقة بين اليمن والحبشة.

وفى سنة ثمانى وستين وثلثمائة وألف فى صفر منها بعث الامام الناصر نجله سمو الأمير سيف الاسلام محمد وصنوه سمو الأمير سيف الاسلام يحيى إلى مصر وشرق الأردن من أجل فلسطين وإنقاذها من الخطر.

وفى هذه السنة أرسل الإمام معالى القاضى محمد بن عبد الله العمرى إلى ذاهى عاصمة الهند للمشاركة فى مؤتمر الدول الآسيوية التسع عشرة وكان أهم القضايا يومئذ قضية اعتداء هولندة على دولة أندونوسيا وقدمت التوصيات الذى اتخذها المؤتمر إلى مجلس الأمن ومن أهمها تخلية سبيل وزير أندونوسيا ورفع القوات الهولندية من العاصمة

وفيها كان الأمر من الإمام بتعبيد طرق السيارات فى عدة جهات من اليمن وأهمها فتح طريق جديدة بين صنعاء والحديدة عن طريق حراز وستكون أقصر من الطريق الأولى التى عن طريق آنس بنحو نصف المسافة. وفيها أمر الإمام بإتمام المحطة الأثرية الخالدة وهى إجراء المياه من بستان مسجد الحمدى بمدينة صنعاء إلى الحاضرة [illegible]

بواسطة أنابيب بالأرض وعمارة سقاية عامة.

وفى هذا العام تعالى اليهود باليمن على سفرهم أجمع إلى فلسطين فباعوا أملاكهم وبيوتهم وسافروا إلى عدن ومنها إلى فلسطين بقضهم وقضيضهم.

بلاغ من الديوان الملكى

وفى جمادى الثانية من هذا العام صدر الأمر من جلالة الإمام الناصر بتأليف الوزارة اليمنية للحكومة المتوكلية.

وكان تعيين صاحب السمو الملكى سيف الإسلام الحسن رئيساً للوزراء ووزيراً للداخلية، وسيف الإسلام عبد الله وزيرا للخارجية، وسيف الإسلام القاسم وزيراً للمواصلات، وسيف الإسلام اسمعيل وزيرا للمعارف وسيف الإسلام يحى وزيرا للصحة، وسيف الاسلام البدر محمد بن الإمام أميراً عاماً على الجيش المظفر وجيش الدفاع، والسيد حسن بن على بن ابراهيم وزير دولة، والسيد العلامة محمد[1] بن حسن الوادعى وكيلا لوزارة العدل ضما على رياسة الاستئناف، والقاضى محمد بن عبد الله العمرى وكيلا لوزارة الخارجية، والسيد محمد بن محمد زبارة وكيلا لرياسة هيئة الوقف، والسيد محسن بن على ابن اسحق لإدارة الأوقاف الخارجية، والسيد العلامة قاسم بن حسين العزى أبوطالب لإدارة الأوقاف الداخلية، والسيد يحى بن حسين شرف الدين لإدارة الزراعة العمومية، والسيد أحمد بن عبدالرحمن الشامى لإدارة إصلاح الطرق العمومية، والقاضى محمد بن أحمد الحجرى رئيساً لعموم المحاسبة، ورئيس الديوان الإمامى القاضى شرف الاسلام الحسين بن على الحلالى، ومن أعضائه السيد العلامة أحمد بن محمد زبارة.

---

(١) توفى رحمه الله فى ذى القعدة سنة تسع وستين وعين بدلا عنه لرياسة الاستئناف السيد العلامة يحى بن محمد بن الإمام المؤيد بالله العباس بن عبد الرحمن ومن أعضائه سعادة القاضى صفى الإسلام أحمد بن أحمد الجرافى والسيد العلامة عبد القادر بن عبدالله شرف الدين والقاضى العلامة أحمد بن الحسين العمرى والقاضى العلامة عبدالله بن محمد السرحى والقاضى العلامة لطف الله بن محمد الحمزى والقاضى [illegible]

وفيها كان من حكومة عدن إرسال طائراتها إلى بيحان وألقت قنابلها على ما عمره أصحاب الامام الناصر بنجد مراد التابع لمنطقة شبوة وقد قدم الامام احتجاجه الشديد إلى حكومة بريطانيا وطلبت حكومة الانكليز إرسال مندوبين عن الإمام إلى لندن للمفاوضة في ذلك بعد أن أعاد الاحتجاج في ذلك معالي القاضي محمد بن عبد الله العمري بلندن عند عودته من أمريكا بعد حضور مجلس هيئة الأمم وبعد أن عاد معالي القاضي محمد ابن عبد الله العمري إلى اليمن عينه الإمام رئيساً للوفد المرسل إلى لندن وتمت المفاوضة ببعض المطالب ولن تنتهي مشاكل الاستعمار إلا بالجلاء التام واعادة الحقوق إلى أهلها غير منقوصة والله المستعان .

وفي سنة سبعين وثلاثمائة وألف كان تبادل التمثيل السياسي بين حكومتي اليمن ومصر وتعين سعادة السيد جمال الاسلام علي بن اسمعيل المؤيد الوزير المفوض بمصر عن حكومة اليمن وسعادة غالب رشدي بك الوزير المفوض عن حكومة مصر باليمن. وفي هذا العام كان الاحتفال بصنعاء وتعز وغيرها من مدن اليمن بعيد النصر وذلك في اليوم الذي أعيد فيه عرش المملكة اليمنية إلى نصابه ونختم ما اقتطفناه من تاريخ اليمن. بالقصيدة الفذة التي أنشأها في ذلك الشيخ محمد البيحاني اليمني في ٢٠ جمادى الأولى من السنة الماضية وكان قد وصل إلى الامام الناصر إلى مدينة تعز مع جماعة من اليمنيين الذين وقعوا في سبيل العاصفة ثم رجعوا إلى الطاعة وقد استشفع لآخرين ونعم ما صنع قال :

ما العيد إلا مثل هذا العيد ... من حضرموت إلى مشارق ميدى
عيد الجلوس على السرير وهكذا ... وابن الأئمة والملوك الصيد
يحيي أبوك وجاك المنصوريا ... لله در أبوة وجدود
والنصر والتأييد هذا يومه ... ه الشهود يا للنصر والتأييد
فاشكر لربك نعمة أولاكها ... وهي الخلافة بعد خير شهيد
ما كان للأموي في سلطانه ... بالشام من ذكر ولا تمجيد

كلا ولا احتفل العراق وأهله ... يوماً بمعتصم ولا برشيد
والاحتفال بطلعة الملك المعز ... الفاطمي وسادة الإخشيد
ما كان إلا دون يوم النصر في اليمـ ... ـن السعيد لناصر التوحيد
فالشمس من وجه الأمام مطلة ... والبدر وجه محمد المحمود
والمجد بحر والإمام سفينة ... تجري عليه وفي تعز الجودي
ملك يسير بشعبه وبلاده ... بالدين لا بالزيغ والتقليد
لو كان بين الفرقدين مراده ... أو في السماك لكان غير بعيد
بطل شجاع لا يفل حديده ... وحصانه في الحرب كالعربيد
(سل عنه وهو مدجج بسلاحه ... يوم الكريهة في شمال زبيد)
وبعلمه وبحلمه وبعزمه ... يعفو ويضرب رأس كل عنيد
ضلت عقول الناس في آرائها ... وأصاب في الإطلاق والتقييد
مولاي من للناس بعد الله إلا ... أنت عند الحادثات السود
خضعت لك الدنيا وهان أشدها ... وعلى يديك يلين كل شديد
من للعروبة وهي في أوطانها ... تغزى بكل مشرد وطريد
حرب الصليبيين ما تركت لهم ... عيناً ولا أثراً فقام يهودي

منها

ملكوا الضمائر بالنقود وطالما ... بيع الضمير سفاهة بنقود
وغزوا فلسطين العزيزة بالسيا ... سة والسلاح لحظها المنكود
والآن يقتطعون محياتهم ... من أصلها لمغفل وبليد
ويقول قائلهم بكل وقاحة ... علم الصليب ولا حكومة سيدي
فبعزمة علوية من أحمد ... تملى الكهوف بهارب وشريد
وبهمة قدسية من هاهنا ... تقضى الحوائج في صباح العيد

فى فكّ مسجون وردّ مهاجر ... ترك البلاد وعاش بين هنود
وزيد تعليم ورزقاً واسعاً ... وسلامة من غاصب وحسود
فالعلم يرفع للبلاد منارها ... حتى تُبدّل نهضة بقعود
وارفع لنا عَلَما يُدرّب تحته ... من شئتَ للتدريس والتجنيد
واجعل مساجدنا كأرجاء السما ... تضجُّ بالتسبيح والتحميد
حرّك منابرها بكل مُفوّه ... يفجر لك الينبوع من جُلمود
والرزق تفتح بابه بزراعةٍ ... وتجارة وعمارة المهدود
من قبر هودٍ فى أقاصى حضرم ... وت إلى حدود صديقك ابن سعود
وابن المدارس والمعاهد وافتح ... المستشفيات وداو بالتضميد
وادع الرعيّةَ لاحتلال مكانها ... بتجارة التصدير والتوريد
وامدد لشعبك ظل عرشك وارفا ... حتى يعيش بظلك الممدود
واسمح لعبدك أن يكرر وصفه ... ذا اليوم فى عدن لكل جحود
من حاسد ومعارض ومكذب ... من آل مروان وآل يزيد
لايعرف الكرم العريض الهاشمى ... ولا يدين لسيّدٍ ومسود
طوّقت أعناق الرجال بأنعُم ... ملكت قلوب شوافع وزيود
لكن هناك بقية يرجى لها ... عفو الأمام وأنت بحر الجود
والله لو بشرتنى بفكاكهم ... لرأيتَ للرحمن طول سجودى
وأنا الخطيب مُبشّراً ومُنفّراً ... ولديك يامولاى بعض شهودى
قلمى وقرطاسى وحسن عبارتى ... لله والتاريخ والتخليد
قلبى يرى فى المهرجان جلالةً ... والطير عاكفة على داود
داود أنت وفى زبورك حكمة ... تبدى إلى المقصود والمنشود

انتهت القصيدة الفريدة وإلى هنا ينتهى المقتطف من تاريخ اليمن وهو مع لطفه وصغر حجمه كافل ببغية المُريد والمؤلف يرجو من القارىء الكريم أن ينظر إليه بعين الرضا وأن يدفع بالتى هى أحسن فالانسان محل النسيان .

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها ... كفى المرء نُبلاً أن تُعدّ معائبه

وسبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم

فهرس الموضوعات

صفحة

٣ الخطبة

٥ الباب الأول فى معلومات أولية

— الفصل الأول حدود اليمن وأقسامها

— القسم الأول تهامة ودياتها ومدنها

٧ القسم الثانى منطقة الجبال

٨ مدنها الشهيرة

١٠ القسم الثالث حضرموت

١١ القسم الرابع عمان

— القسم الخامس الربع الخالى

١٣ الفصل الثانى الآثار اليمنية

١٤ الجبال المشهورة

— معادن اليمن ومناجمها

١٦ الحاصلات الزراعية

— الثروة الحيوانية

١٨ الفصل الثالث القبائل اليمنية

٢٤ أشراف اليمن

٢٧ الباب الثانى اليمن قبل الإسلام

٢٨ الفصل الأول دولتا سبأ وحمير

٣٢ حضارة حمير

صفحة

٣٤ الفصل الثانى غزو الأحباش اليمن

٣٧ الفصل الثالث دخول الفرس اليمن

٣٨ الباب الثالث اليمن بعد الفتح الإسلامى والعصر الأموى والعباسى

٣٩ الفصل الأول إسلام أهل اليمن

٤١ الفصل الثانى عمال النبى على اليمن

٤٣ الفصل الثالث اليمن فى عهد الخلفاء الراشدين

٤٥ عمال اليمن أيام الخلفاء الراشدين

٤٦ الفصل الرابع اليمن فى عهد بنى أمية

٤٧ الفصل الخامس عمال بنى أمية على اليمن

٤٩ الفصل السادس اليمن فى عهد بنى العباس

٥٤ الباب الرابع فيمن ولى اليمن من الملوك والسلاطين

— الفصل الأول دولة بنى زياد بزبيد

٥٦ الفصل الثانى دولة بنى يعفر

٥٨ الفصل الثالث خروج الإمام

صفحة

٥٩ الفصل الرابع فتنة على بن الفضل القرمطى ومنصور بن حسن باليمن

٦٢ الفصل الخامس دولة آل نجاح بزبيد

٦٤ الفصل السادس دولة بنى الصليحى

٦٩ الفصل السابع دولة بنى ذُرَيع بعدن

٧١ الفصل الثامن دولة بنى حاتم

٧٣ الفصل التاسع دولة بنى أيوب باليمن وخروج توران شاه اليمن

٧٥ السلطان طغتكين بن أيوب

٧٦ الملك العزيز إسماعيل بن طغتكين

— الملك سليمان بن سعد الدين

— الملك المسعود

٧٧ الفصل العاشر دولة بنى رسول واستقلال الملك المنصور عمر بن على

٧٨ الملك المظفر يوسف بن عمر بن على

٧٩ الملك الأشرف عمر بن يوسف

— الملك المؤيد داود بن يوسف

— الملك المجاهد على بن المؤيد

٨٠ الملك الأفضل العباس بن المجاهد

صفحة

٨٠ الملك الناصر أحمد بن الأشرف

٨١ الملك المنصور عبدالله بن الناصر

— الملك الأشرف إسماعيل بن المنصور

— الملك الطاهر يحيى بن إسماعيل

— الملك الأشرف بن إسماعيل بن الطاهر

٨٢ الفصل الحادى عشر فى دولة بنى طاهر

— السلطان عامر بن طاهر

٨٣ الملك المجاهد على بن طاهر

— الملك المنصور عبد الوهاب بن داود

— السلطان عامر بن عبد الوهاب

٨٥ الفصل الثانى عشر فى دولة الجراكسة باليمن

٨٨ الفصل الثالث عشر الدولة العثمانية باليمن المرة الأولى

٩٤ الفصل الرابع عشر الدولة العثمانية باليمن المرة الثانية

١٠٢ الباب الخامس فى الدولة الهاشمية

١٠٣ الفصل الأول فى الكلام على الأئمة الذين عاصروا دولة بنى زياد وبنى يعفر وآل الضحاك

صفحة

١٠٤ ابن الحسين وسيرته باليمن
١٠٧ الإمام المرتضى محمد بن الهادى
— الإمام الناصر أحمد بن الهادى
— وقعة نقاش بينه وبين القرامطة
١٠٨ الإمام المنصور بالله يحيى بن الناصر وصنوه المختار بن الناصر
— الإمام المنتصر محمد بن القاسم
— الإمام الداعى إلى الله يوسف
١٠٩ الإمام المنصور بالله القاسم بن على العياني
— الإمام المهدى الحسين بن القسم
١١٠ الشريف محمد بن القسم الزيدى
— الأمير جعفر بن القسم
— الإمام أبو هاشم الحسن بن عبد الرحمن
١١١ الفصل الثانى الأئمة الذين عاصروا دولتى بنى الصليحى وبنى نجاح
— الإمام أبو الفتح الديلمى
١١٢ الشريف الفاضل وصنوه الأمير ذو الشرفين : الأمير جعفر بن محمد ذى الشرفين

صفحة

١١٣ الإمام أبو طالب الصغير
— الأمير الحسن بن الحسن
١١٤ الأمير على بن زيد
— الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان
١١٦ الفصل الثالث فى الأئمة الذين عاصروا دولة بنى أيوب
— الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة
١١٩ الأمير محمد بن المنصور
١٢٠ الإمام المعتضد بالله يحيى بن الحسين
الفصل الرابع فى الأئمة الذين عاصروا دولة بنى رسول
١٢١ الإمام المهدى أحمد بن الحسين
١٢٢ الأمير الحسن بن وهاس
١٢٣ الإمام محمد بن يحيى السراجى
— الإمام المنصور بالله يحيى بن بدر الدين
١٢٤ الإمام المهدى إبراهيم بن تاج الدين وأسره وما قال فى ذلك من الشعر
١٢٦ الإمام المتوكل على الله المطهر بن يحيى
— الإمام المهدى محمد بن المطهر
١٢٧ الإمام [illegible] بن حمزة

صفحة

١٢٨ الإمام المهدى على بن صلاح
— الإمام أحمد بن على الفتحى
— الإمام المهدى على بن محمد
١٢٩ الإمام الناصر صلاح الدين
— الإمام المنصور بالله على بن صلاح الدين
— الإمام المهدى أحمد بن يحيى
١٣٠ الإمام الهادى لدين الله على بن المؤيد
١٣١ الفصل الخامس الأئمة الذين عاصروا دول بنى طاهر والجراكسة والأتراك
— الإمام المطهر بن محمد الحزى
— الإمام المهدى صلاح بن على
١٣٢ الإمام المنصور بالله الناصر بن محمد
— الإمام المؤيد بالله محمد بن الناصر وصنوه أحمد بن الناصر
١٣٣ الإمام عز الدين بن الحسن
١٣٤ الإمام الناصر الحسن بن عز الدين
— الإمام محمد بن على الوشلى
— الإمام المتوكل على الله شرف الدين

صفحة

١٣٥ دخول الإمام صنعاء وما قيل فى ذلك من الشعر
١٣٧ فتح الإمام شرف الدين بلاد صعدة ونجران
١٣٨ الإمام مجد الدين بن الحسن
١٣٩ خروج الأتراك اليمن
١٤٠ الإمام المطهر بن شرف الدين
١٤١ الإمام الحسن بن على بن داود
— القبض على الإمام الحسن وأولاد المطهر وحبسهم بالأستانة
— الأمير أحمد بن شمس الدين
— الإمام المنصور بالله القسم بن محمد
١٤٣ فتح شهارة للإمام القسم
١٤٤ عقد الصلح بين الإمام القسم والأتراك
١٤٥ الإمام المؤيد بالله محمد بن القسم
— خروج الحسن بن القسم من حبس الأتراك
١٤٦ فتح فيفا وبنى مالك وما قيل فى ذلك من الشعر
— [illegible] الإمامة الأتراك

صفحة

١٥١ خروج الإشاقانصوه إلى تهامة

١٥٢ انتصارات الحسن بن القسم على الأتراك

١٥٣ حصار زبيد وموت جماعة من آل الامام القسم

— استسلام الاشاقانصوه للحسن ابن القاسم

١٥٤ دخول الحسن بن القاسم زبيد والمخا وإصلاحهما

— إرسال طائفة من أصحاب الحسن ابن القسم الى جزيرتى كمران وفرسان وإصلاحهما

— وفاة الحسن بن القسم

١٥٥ وفاة الحسين بن القسم

— وفاة المؤيد بالله محمد بن القسم

١٥٦ الفصل السادس الأئمة الذين قاموا فى عهد استقلال اليمن

— الإمام المتوكل على الله إسماعيل فتح لحج وعدن

١٥٧ رحلة القاضى حسن الحيمى إلى الحبشة وماقال فى ذلك من الشعر

صفحة

١٦٠ فتح حضرموت

١٦٢ فتح مدينة ظفار الحبوشى

١٦٥ رجوع حجاج اليمن من الطريق وما قيل فى ذلك

١٦٧ الإمام المهدى أحمد بن الحسن

١٦٩ الإمام المؤيد بالله محمد بن المتوكل على الله

١٧١ الناصر محمد بن المهدى

١٧٣ فتح جزيرة زيلع

١٧٤ إخماد فتنة الساحر المحطورى

١٧٥ وصول وفد الهند إلى المهدى صاحب المواهب وماقيل فى ذلك من الشعر

١٧٦ وصول وفد جدة إلى المهدى وما قيل فى ذلك من الشعر

١٧٧ الإمام المنصور بالله الحسين بن القسم بن المؤيد

١٧٩ المتوكل على قاسم بن حسين

— الإمام الناصر محمد بن إسحق

١٨٠ إخماد ثورة قبيلة أرحب بصنعاء وما قيل فى ذلك من الشعر

١٨١ الامام المنصور بالله الحسين بن

صفحة

١٨٣ الإمام المهدى العباس

١٨٤ فتنة الساحر المكنى بأبى علامة

١٨٥ مسير السيد العلامة عبد القادر ابن أحمد إلى برط وماقال من الشعر

١٨٦ فتك المهدى بقبائل برط وماقاله السيد البدر محمد بن إسماعيل الأمير فى ذلك من الشعر

١٨٧ خروج قبائل برط على دولة المهدى لزاعم كاذبة فندها السيد البدر محمد بن إسماعيل الأمير بأبيات من الشعر

١٩٠ الإمام المنصور على بن المهدى

١٩١ إمارة الشريف حمود بن محمد بتهامة

١٩٢ المتوكل على الله أحمد

١٩٣ الإمام المهدى عبد الله

١٩٤ إهدار قبائل ذى غيلان بصنعاء نائب القبائل وغزوهم بئر العزب ونهبها

١٩٥ الإمام الهادى على بن محمد السراجى

— زحف تركى بلماز على تهامة

— [illegible]

صفحة

١٩٦ المنصور على بن المهدى

— الإمام الناصر عبدالله بن الحسن

— استعمار الانكليز عدن

١٩٧ قتل الإمام الناصر عبدالله بن الحسن

— الإمام الهادى محمد بن المتوكل

— فتنة الفقيه سعيد بن صالح يسن وإخمادها وماقيل فى ذلك من الشعر

١٩٩ الإمام المتوكل محمد بن يحيى

٢٠١ الإمام المنصور بالله أحمد بن هاشم

٢٠٢ خروج الأتراك إلى الحديدة

— الفصل السابع فى ذكر الأئمة الذين عاصروا الأتراك

٢٠٣ المؤيد بالله العباس بن عبدالرحمن

— الإمام الهادى غالب بن محمد

٢٠٤ الإمام محمد بن عبد الله الوزير

الإمام المتوكل على الله محسن ابن أحمد

— المنصور حسين بن محمد الهادى

٢٠٥ مهاجمة محمد بن عايض الحديدة وخروج الأتراك إلى أبها

[illegible]

صفحة

٢٠٧ الإمام المنصور بالله محمد بن يحيى حميد الدين

٢٠٩ حصار صنعاء

٢١٥ تولى سيف الإسلام يحيى بن المنصور بالله على بلاد حبور وما كتبه إلى والده الإمام

٢١٧ الباب السادس فى دولة الإمام المتوكل على الله يحيى

٢١٨ حصار صنعاء

٢١٩ دخول الأتراك صنعاء

٢٢٠ زحف الأتراك إلى شهارة وهزيمتهم وما قيل فى ذلك من الشعر

٢٢٣ حركة السيد محمد بن على الادريسى بتهامة اليمن

٢٢٥ دخول الإمام يحيى صنعاء واستقلال اليمن

٢٢٧ وصول الأديب الريحانى لزيارة الإمام وما دار من الآداب بين رفيقه قسطنطين ومولانا الإمام

٢٣٠ عمارة دار السعادة وماقاله سيف الاسلام البدر من التهنئة للإمام

٢٣٢ وصول وفد تهامة إلى صنعاء

صفحة

وما قاله القاضى عبد الكريم مطهر فى مدح مولانا ولى العهد

٢٣٧ مسير الوفد اليمنى إلى الملك عبدالعزيز وماقاله الامام المتوكل على الله فى ذلك من الشعر

٢٣٩ خروج الطائرات الانكليزية على جنوب اليمن من عدن وما قاله القاضى يحيى بن محمد الأريانى فى ذلك

٢٤١ مسير سيف الاسلام ولى العهد إلى حرف سفيان فمدينة صعدة ودخول الجيش إلى برط فنجران

٢٤٤ ذكر عهد الطائف بعد نشوب الحرب بين حكومتى اليمن ونجد

٢٤٥ الحلف العربى

٢٤٥ طيافة سيف الاسلام ولى العهد مدن تهامة ثم مسيره إلى تعز

٢٥٠ الكلام على شبوه والعبر من مشارق اليمن

٢٥٣ وصول الأمير محمد بن عبدالعزيز لزيارة الامام

— ثورة الدباغ بالبيضا

صفحة

٢٥٥ طلوع أمير لواء الحديدة سيف الإسلام عبدالله إلى صنعاء ومعه أعيان تهامة لزيارة الإمام

— مسير الإمام إلى حمام دمت للتداوى

٢٥٦ تأسيس الجامعة العربية

— دخول اليمن عضواً فى مجلس هيئة الأمم

٢٥٧ مقتل الإمام المتوكل على الله

٢٥٩ كيفية تدبير المؤامرة

صفحة

٢٦٠ الباب السابع فى دولة الإمام الناصر لدين الله أحمد

٢٦٢ حصار صنعاء

٢٦٥ فتح صنعاء للإمام أحمد

٢٦٦ اعتراف دول الجامعة بالإمام أحمد ملكا على اليمن

٢٦٩ بلاغ من الديوان الملكى فى تشكيل الوزارات

٢٧٠ القصيدة الفذة فى عيد النصر

﴿ انتهى فهرس المواضيع ، ويليه فهرس الأعلام ﴾

فهرست الأعلام

(ا)

إبراهيم بن الجَدَّوية ١٠٦
إبراهيم بن محمد بن يَعْفر ٥٦ ، ٩
إبراهيم النخعى ٤٤
إبراهيم بن سليمان بن عقبة الباهلى ٥١
الإمام إبراهيم بن تاج الدين ١٢٤
إبراهيم بن عبدالله بن طلحة الحَجَبى ٥٢
إبراهيم بن موسى العلوى ٥٣
إبراهيم الإفريقى الشيبانى ٥٣
إبراهيم بن محمد بن زياد ٥٤
إبراهيم بن عبدالحميد صاحب مسور ٦١
إبراهيم باشا ٩٢ ، ١٤٣
إبراهيم بن الحسن العلوى ١٠٧
صارم الدين إبراهيم بن محمد الوزير ١٣٠
السيد إبراهيم بن محمد المؤيدى ١٥٧
الشيخ إبراهيم المندى ١٦٥
إبراهيم المطورى الساحر ١٧٣
أبرَهَة الحبشى ٣٤
أبيض بن حمّال المأربى ٤٠ ، ٥٥
الشريف أحمد بن خيرات صاحب

السيد أحمد بن محمد الإدريسى صاحب صبيا ٢٥
السيد أحمد بن عيسى المهاجر جد آل باعلوى ٢٥
الإمام أحمد بن حنبل ٤٥
أحمد بن محمد الضحاك ٤٦ ، ٦٤ ، ١٠٧
أحمد بن إسماعيل الهاشمى ٥١
السيد أحمد بن يحيى عامر ٢٢٤
المكرم أحمد بن على الصليحى ٦٦
الإمام أحمد بن سليمان ٧١ ، ١١٤
القاضى أحمد بن القاضى الرشيد ٧٢
الأمير أحمد بن المنصور ٧٨
الناصر أحمد بن الأشرف ٨٠
الأمير أحمد بن الناصر ٨٣
الأمير أحمد الناخوذة الجركسى ٨٧ ، ٨٨
الشيخ أحمد البعدانى ٩٠
أحمد باشا ٩٥
الأمير أحمد بن محمد شرف الدين ٩٦
أحمد أيوب باشا ٩٦
[illegible]

أحمد فيضى باشا ٩٩ ، ٢١٠
أحمد رشدى باشا ٩٧
أحمد عزت باشا ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٢٢
سيف الإسلام أحمد بن قاسم حميد الدين ١٠١
الإمام المؤيد بالله أحمد بن الحسين الهارونى ١٠٢
الشيخ أحمد بن منصور ٢٤٩
الإمام الناصر أحمد بن الهادى ١٠٧
الناصر أحمد بن الحسن صاحب بغداد ١١٧
المهدى أحمد بن الحسين ١٧١
الإمام أحمد بن على الفتحى ١٢٤
الإمام المهدى أحمد بن يحيى بن المرتضى ١٢٩
الأمير أحمد بن الناصر ١٣٢
الأمير شمس الدين أحمد بن عز الدين ١٣٧
الأمير أحمد بن شمس الدين بن الإمام شرف الدين ١٤١
السيد أحمد الشرعى ٢٠٩
الحاج أحمد الأسدى الشاطبى ١٤٢

القاضى أحمد بن على بن أبى الرجال ١٤٧
المهدى أحمد بن الحسن ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٦٧
الأمير أحمد بن محمد بن الحسين الملقب حَجَر ١٧٠
الشيخ أحمد راجح الكينمى ١٧٣
السيد أحمد الزنمة الشاعر ١٧٥
الأديب أحمد بن الحسين الرُّقيحى ١٧٨
الأمير أحمد بن محمد بن الحسين بن عبد القادر ١٨٣
المتوكل على الله أحمد بن المنصور ١٩٢
الهادى أحمد بن على السراجى ١٩٥
القاضى أحمد بن لطف البارى الزبيرى ١٩٨ ، ٢٠١
الشيخ أحمد بن أحمد الحيمى ٢٠٤
الأمير أحمد بن محمد الحَبُوظى صاحب ظفار ١٦٢
النقيب أحمد بن محمد حبيش ١٨٨
الباشا أحمد توفيق ٢٢٥
سيف الإسلام ولى العهد أحمد بن الإمام يحيى ٢٢٣ ، ٢٣٧ ، ٢٤١
[illegible]

القاضي أحمد بن عبدالله الجنداري ٢٥٨
الأستاذ أحمد البراق ٢٦١
الشيخ أحمد بن محمد نعمان ٢٦١
السيد أحمد بن عبدالرحمن الشامي ٢٦٩
السيد أحمد بن محمد زبارة ٢٦٩
القاضي أحمد بن أحمد الجراق ٢٦٩
القاضي أحمد بن الحسين العمري ٢٦٩
الأمير إدريس بن علي الحمزي ١٢٤
إرْباط الحَبَشي ٣٤
السيدة أرْوى بنت أحمد الصليحي ٦٨
أزْدُمُر باشا ٨٨ ، ١٣٩
الأسْود العَنْسي ٤٣
أبو إسحق السَّبيعي ٤٤
إسحق بن موسى ٥٢
أبو الجيش إسحق بن إبراهيم ٥٣
أسعد بن أبي يعفر الحوالي ٦٠ ، ٦٢
أسعد بن عبد الله بن قحطان ٦٢
أسعد بن شهاب ٦٦
أسعد تبع الحميري ٣٠
الملك الأشرف إسماعيل ٨٠ ، ٨١
إسماعيل حافظ باشا ٩٧ ، ٩٨
القسم ١٦٢
الأمير إسماعيل بن الناصر ١٧٣
السيد إسماعيل بن محمد بن إسحق بن المهدي ١٨٤
الإمام المتوكل على الله إسماعيل ١٥٥ ، ١٥٦
القاضي إسماعيل بن حسين جنمان ٢٠٤
السيد إسماعيل المدائي ٢٢٣
الفقيه إسماعيل بن علي الريمي
سيف الإسلام إسماعيل بن الإمام يحيي ٢٩٩
الأشعث بن قيس الكندي ٤٠
أمين الريحاني صاحب كتاب ملوك العرب ٢٢٧
أويس باشا ٨٨
أيوب بن جعفر بن سليمان العباس ٥١
أيوب بن محمد الثقفي ٤٧

(ب)

باذان الفارسي ٣٨
بحير بن رَيْشان ٤٧
السلطان [illegible] الله الكـ[illegible] ١٦١

السلطان برقوق ٨٥
الأمير بَرْسَباي الجركسي ٨٦
بُسْر بن أرطاة العامري ٤٦
بِشْر بن أبي كبار الهمداني ٩
بشير السَّعْداوي ٢٥٣
بشير بن سفيان الأعرج ٤٧
ابن بطوطة الرحالة ١٦٢
بكر بن مرداس ٩
الخليفة أبو بكر الصديق ٤٧
الملكة بلقيس بنت الهِدْهاد ٢٩

(ت)

تركي بِلْماز ٩٤
تركي بن ماضي ٢٣٧
السلطان توران شاه ٧٤ ـ ٦٤
توفيق باشا ٩٩
توفيق باشا ٢٠٢
التِّيجَان بن المَرْزُبان ٣٨

(ج)

جابر بن خليل الهمداني ١٧٢
[illegible] عبد الله البجا ٤١
الأمير جعفر بن محمد ذو المُثْلة المناخي ٢٢ ، ٦٠ ، ٥٦
جعفر مولى أبي الجيش بن زياد ٥٤
جعفر بن دينار الخياط ٥٦
الأمير جعفر بن القاسم العياني ٦٥ ، ١١٠
الأمير جعفر بن العباس العلوي ٥
القاضي جعفر بن أحمد بن عبد السلام ١١٥
جعفر باشا ٩١ ، ١٤٣
الأمير جعفر بن محمد ذو الشرفين ١١٢
السلطان جعفر بن عبد الله الكثيري ١٦٢
السيد جعفر الحلي ٢١٢
جعفر بن عمرو الغساني ٣٣ ، ٧٧
الأمير جُفْتُم بن الحسن ٥٧ ، ١٠٤
جُماعة البارقي ٣٣
جمال جميل العراقي ٢٥٩
جميل المدفعي وزير العراق ٢٤٥
أبو الدر جوهر المعظمي
أبو جُنْدة المنجم

(ح)

الحاكم العبيدى ٦٦
الحرث بن عبد كُلال ٣٩
السلطان حاتم بن الغشم الهمدانى ٧١
السلطان حاتم بن أحمد اليامى ٧١
الحافظ ابن حجر العسقلانى ١٠٣
الحجاج بن منصور ٥٠
الحجاج بن يوسف الثقفى ٤٧
حسان بن أسعد تبع الحميرى ٣٠
الحسن بن على بن أبى طالب ٤٧
حسن بن عبد الله الفقيه ٤٧
حسن بَهْلَوان ٨٩
حسن باشا ٩٠
الإمام الحسن بن على بن داود ٩١ ، ١٤١
الحسن بن الإمام القاسم ٩٢، ١٤٣ ، ١٥٤
الفريق حسن أديب ٩٨ ، ٢٠٨
حسن تحسين باشا ١٠٠
السيد حسن الإدريسى ١٠٢
الأمير الحسن بن وَهَّاس ١٢١
بدر الدين ١٢٣
بن جابر الهبل
حسن كامل ٢٢٤
القاضى الحسن بن أحمد الحيمى ١٥٧
السيد حسن أبو الهدى ٢١٤
السيد الحسن بن أحمد الجلال ١٦٥
الحسن بن أحمد الهمدانى مؤلف الإكليل ٤
سيف الإسلام الحسن بن الإمام يحيى ٢٤٢ ، ٢٦٩
السيد الحسن بن أحمد بن الشريف حمود بن محمد ٢٥٥
السيد حسن بن على بن إبراهيم وزير الدولة ٢٥٦
القاضى حسين بن على الحلالى ٢٦٩
السيد حسين بن على بن عبد القادر ٢٥٥
الحسين بن سلامة ٥٥ ، ٦٢ ، ٦٩
الحسين بن القِمّ الشاعر ٦٨
الأمير حسين الجركسى ٨٥
الشريف الحسين بن على بن حيدر ٩٤ ، ١٩٩
حسين حلمى باشا ٩٩ ، ٢١٣
القاضى الحسين بن على العمرى ١٠٠ ، ٢٢٦ ، ٢٥٥
[illegible]

حسين بن محمد النسّاخ ١١٨
الفقيه حسين العِلمانى ١٤٦
الحسين بن القسم ١٥٤
سيف الإسلام الحسين بن الإمام يحيى ٢٦٠
الحسين بن المؤيد ١٥٥
الحسين بن عبد القادر ١٧٠
الحسين بن المتوكل ١٧٢
القاضى حسين بن ناصر المُهَلاّ ١٧٤
حسين بن المتوكل ٢٠١
المنصور حسين بن محمد الهادى ٢٠٤
القاضى حسين العرشى ٢٢١
القاضى حسين بن محمد الحيمى ٢٨٢
السيد حسين بن على الوَيْسى ٢٤٥
الحسين بن الحسن بن الإمام يحيى ٢٥٨
الحُصْن بن المنهال ٥٣
حَمْدَوَيه بن عيسى بن ماهان ٥٣
حمّاد البَرْبَرِى ٥٢
الأمير حمزة بن أبى هاشم ٢٤ ، ٦٦ ، ١١٣
الشريف حمود بن محمد ٢٥ ، ١٩١ ، ١٩٤
حَمّاس بن القُبَيْب ٧١
السيد حمود بن محمد شرف الدين ٢١٨
حيدر باشا ٩٣ ، ١٤٦

(خ)

الأمير خالد بن الملك عبد العزيز ٢٤٤
خالد بن سعيد بن العاص ٤١
خالد بن عبد الله القسرى ٤٨
خالد بن الوليد ٤٠ ، ٤١
خرخَسْرو بن التيجان ٣٨

(د)

الأمير داود بن على ٤٩
المؤيد داود بن المظفر ٧٩
دَرْدَان ٩
الدعام بن إبراهيم الأرحبى ٥٧

(ذ)

ذو رعين ٣٠
ذو الكلاع الحميرى ٥٦
ذو نواس ٣٢ ، ٣٤

(ر)

رجا بن حَيْوة الجُذامى ٥٠
[illegible] ٩٦ ، ١٠١

الأمير زائدة بن معن ٥٠
زياد بن لبيد الأنصارى ٤١
الفقيه زيد بن على الجُمُلُولى ١٧١
القاضى زيد بن على السورى

(س)

الداعى سبأ بن أحمد الصُّلَيحى ٦٨
سبأ بن أبى السُّعُود ٧٠
سعيد بن نجاح الأحول ٦٣ ، ٦٧
الفقيه سعيد بسين الصوفى ١٩٧
سعيد ريحان ١٥٤
سليمان بن طَرَف صاحب الخلاف ٥٥
سليمان بن عبد الله الزواحى ٦٢
السلطان سليمان بن سليم ٨٨
الباشا سليمان
سليمان بك ٩٥
أبو السَّمط الفيروزى ٩
أبو سفيان بن الحرث ٤١
الوزير سنان ٩٠
الأتابك سَنقر ١١٧
الأمير سَنجَر الشَّعبى ١٢٣
سنان باشا ١٤٨
سيف بن ذى يَزَن ٣٧
سيف بن قحطان ١٨٢

(ش)

الملك شداد بن عاد ٢٩
شَمَّر يرعش ٣٠
شِهر بن بادام ٤١
الأمير شكيب أرسلان ٢٤٤

(ص)

الوزير صالح الحربى ١٧٣
الأمير صفر مملوك جعفر باشا ٩٢
السيد صلاح المؤيدى ١٤٩
السلطان صلاح الدين بن أيوب ٧٣
السيد صلاح بن عبد الخالق جحاف ١٤٦
الإمام صلاح الدين محمد بن على ١٢٩
الصلت بن يوسف بن عمر ٤٨

(ض)

الضحاك بن فيروز الديلمى ٤٧
الضحاك بن واصل السَّكسكى ٤٨
ضماد الأزدى ٣٩

(ط)

طاهر رضوان ٢٥٣
الطاهر بن أبى هَالَة ٤١

طاووس بن كيسان اليمانى ٤٥
طاهر بن الحسين الخُزاعى ٥٢
السلطان طغتكين بن أيوب ٧٥
الطفيل بن عمرو الدَّوْسى ٣٩

(ع)

ابن عاصم ٩
عامر بن داود الطاهرى ٨٥
عامر بن شهر ٤١
القاضى عامر الشَّعبى ٤٤
عامر بن سليمان الزُّواحى ١١٣
السلطان عامر بن طاهر ٨٢
السلطان عامر بن عبد الوهاب ٨٣
العباس بن علىّ بن أبى طالب ٢٥
السيد عباس بن أحمد بن إبراهيم ٢٣٧
المؤيد بالله العباس بن عبدالرحمن ٢٠٣
عباس بن المكرم الجُشمى الهمدانى ٦٩
المهدى العباس بن المنصور ١٨٣
عباس بن محمد الهاشمى ٥١
عَبَّاد الرعينى ٤٨
عبّاد بن محمد الشهابى ٥١
السيد عبد الرب الأهدل ٢٢٤
عبد الرب بن علىّ بن شمس الدين ١٤٨
السلطان عبد الحميد ٩٧
عبد الحميد بن محمد السورى ١٠٧
عبد الخالق بن أبى الطَّلح الشهابى ٩
عبد الخالق بن محمد الشَّيبانى ٥٠
عبد الرزاق الصنعانى ٩ ـ ٤٥
عبد الرحمن بن داود ١٤٨
عبد الرحمن بن مِشكم ٢٢
عبد الرحمن الغافقى ٤٤
عبد الرحمن بن عبد الله بن العباس ٤٦
القاضى عبد الرحمن الدَّيْبع ٨٤
القاضى عبد الرحمن الآنسى ١٩١
عبدالرحمن عزام باشا أمين الجامعة ٢٥٦
السيد عبد الرحمن بن أحمد بن قاسم حميد الدين ٢٦٣
القاضى عبدالرحمن بن علىّ الحداد ٢٥٨
الفقيه عبدالرحيم بن أبى القبائل صاحب الخارقة ١١٧
عبد الرحيم بن إبراهيم الحوالى ٥٦
الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود ٢٣٦

السلطان عبد العزيز بن محمود ٢٠٥
الأمير عبد القادر الخنفرى ١٥٠
السيد عبد القادر بن أحمد ١٨٤
السيد عبدالقادر بن عبدالله شرف الدين ٢٦٩
القاضى عبد الكريم مطهر ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٥٥
القاضى عبدالله بن محمد السَّرْحى ٢٦٩
السيد الأديب عبد الله بن على الوزير ١٥ ، ١٥١ ، ١٧٠ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧
الأمير عبدالله بن يوسف الشَّراحى ٢١
عبد الله بن الحسين ٢٤
عبد الله بن طاووس ٤٥
عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى ٤٥
عبد الله بن العباس ٤٥
عبد الله بن الزبير ٤٧
عبد الله بن عبدالرحمن بن خالد المخزومى ٤٧
القاضى عبد الله بن أحمد المجاهد ٢٥٨
عبد الله بن عبد المطلب بن وادعة السهمى ٤٧
عبد الله بن يحيى طالب الحق الخارجى ٤٨
عبدالله بن محمد أبو العباس السفاح ٤٩
عبد الله بن مالك الحارثى ٤٩
عبد الله بن الربيع ٤٩
عبد الله بن سليمان العباسى ٥١
عبد الله بن سليمان النوفلى ٥١
عبد الله بن محمد بن إبراهيم ٥١
عبدالله بن مصعب بن عبدالله بن الزبير ٥١
عبد الله بن قحطان بن أبى يعفر ٦١
عبد الله الشاورى ٦٢
القاضى عبد الله بن عبد الرحمن حُمَيد ٢٦٩
عبد الله بن محمد الصليحى ٦٧
عبد الله بن حاتم ٧١
عبد الله باشا ٩٨
القاضى عبد الله بن الحسين العمرى ١٠٠ ، ٢٢٦ ، ٢٥٨ ، ٢٣٧
السيد عبد الله بن إبراهيم ١٠١ ، ٢١٨
عبد الله بن عمر الخارفى ١٠٧
أبو العتاهية عبد الله بن بشر ١٠٤

سيف الإسلام عبدالله بن الإمام يحيى ٢ ، ٢٢٦ ، ٢٥٦
السيد عبد الله بن أحمد الوزير ٢٢٣ ، ٢٢١ ، ٢٤٤ ، ٢٥٥
الإمام عبد الله بن حمزة ١٢١
عبدالله بن حسن العنسى البرطى ١٩١
المهدى عبد الله بن المتوكل أحمد ١٩٣
الناصر عبد الله بن الحسن ١٩٦
القاضى عبد الله بن على الغالبى ٢٠١
السيد عبد الله أبو منصر ٢٢٠
عبد الله بن الثامر ١٣٩
الشريف عبد الله الضمين ٢٤١ ، ٢٥٤
عبد الملك بن مروان ٤٧
عبد الملك بن عبد الوهاب الطاهرى ٨٤
السلطان عبد المجيد بن محمود ٩٤
عبد النبى بن مهدى الحيرى ٦٤
الأمير عبد الوهاب بن عامر الرفيدى أبو نقطة ١٩١
السيد عبده هَيج ٢٢٣ ، ٢٥٥
عبيد الله المهدى ٥٩
عثمان بن عفان الثقفى ٤٧
عثمان باشا ٩٠
عثمان نورى ٩٧
عروة بن محمد السَّعْدى ٤٧
الشريف عز الدين بن دُرَيْب ٨٦
الإمام عز الدين بن الحسن ١٣٣
الأمير عز الدين القُطبى ١٧٧
عز الدين بن الإمام شرف الدين ١٣٩
عصمت باشا ١٠١
أبو عُصْمة ٩
العفيف بن منصور ٢٤
عكاشة بن ثَوْر ٤١
علقمة النخعى ٤٤
علقمة بن ذى جَدَن ٩
الإمام على بن أبى طالب ٤١ ، ٤٥
على بن الفضل القرمطى ٢١ ، ٥٩
الأمير على بن الربيع ٤٩
على بن سليمان بن العباس ٥٠
الملك المجاهد على بن المؤيد ٧٩
على بن مَعْن ٥٥ ، ٦٩
على بن محمد الصليحى ٥٦ ، ٦٢ ، ٦٤
على بن جعفر العباسى ٦٠
على بن مهدى الحيرى ٦٣

على بن زياد المازنى ٦٩
السلطان على بن حاتم ٧٢
الملك المجاهد على بن طاهر ٨٣
الأمير على بن الإمام القاسم ٩٢ ، ١٤٣
الأمير على بن مُجَثَّل ٩٤
الأمير على بن زيد ١١٤
القاضى على بن عبد الله الآنسى ٢٦٩
القاضى على بن حسين المغراى ٢٥٨
على باشا الحلبى ٩٥
على بن حسين الدفعى ٩٥ ، ٢٠٦
السيد على الجديرى ٩٧
شيخ الإسلام القاضى على بن على اليمانى ١٠١ ، ٢٤١
الشريف على بن أبى جعفر الدلوى ١٠٦
السيد على بن إسماعيل المؤيد الوزير المفوض بمصر ٢٥٦
على بن مهدى الحميرى ١١٤
الأمير على بن على الحزى ١٢٤
المهدى على بن صلاح ١٢٨
الشيخ على بن محمد الخَمِيسى ٢٢٣
الأمير على بن المؤيد ١٥١ ، ١٥٥
الأمير على بن أحمد بن القاسم ١٦٠ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٤
على بن بدر الكثيرى ١٦٢
القاضى على بن صالح بن أبى الرجال ١٦٨
القاضى على بن محمد المنسى ١٧٣ ، ١٨٠
المنصور على بن المهدى العباس ١٦٠
المنصور على بن المهدى عبد الله ١٩٦
على بن قاسم الأحمر ١٨٢
القاضى على بن عبد الله الأربانى ٢١٧
على سعيد باشا ٢٢٤
على ناصر القردعى ٢٥٩
السيد على بن حمود شرف الدين ٢٦٣
عماد الدين بن عثمان ٧٥
القاضى عمارة اليمنى ٢٢ ، ٥٥
عَمَّار بن ياسر ٢٠
السيد عمر المقبول الأهدل ٢٥٥
عمرو بن معدى كرب ١٩
عمرو بن أسعد تبع ٣٠
عمرو بن حزم ٤١

الملك المنصور عمر بن على بن رسول ٧١
الخليفة عمر بن الخطاب ٤٥
عمر بن عبد العزيز ٤٨
عمر بن عبد الحميد ٤٩
عمر بن إبراهيم بن واقد ٥٢
عمر بن صالح بن هَرْهَرة ١٧٦
عمران بن محمد بن سبأ ٦٩
الباشا عزيز المصرى ٢٦٦
القاضى عياض اليَحْصُبى ٤٤
السيد عيدروس علوى ٢٥٥
عيسى بن يزيد الجَلُودى ٥٣
السيد عيسى بن لطف الله بن المطهر ١٤٢

(غ)

الإمام غالب بن محمد بن يحيى ٢١٣
الشريف غانم بن يحيى بن حمزة ٧٣
الغِطريف بن الضحاك بن فيروز الديلمى ٤٨
الغِطريف خال هارون الرشيد ٥١

(ف)

الفائز العُبَيدى ٦٦
فاتك بن منصور ٦٣
فاتك بن محمد بن فاتك ٦٣
فاتك بن نجاح ١١٤
فروة بن مسيك المرادى ٢٠
أم فروة بنت أبى قحافة ٤٣
الفرات بن سالم العبسى ٥٠
فضلى باشا ٩٣
الفضل بن على العبدلى ١٨٢
الفضيل الورتلانى ٢٦٤
فكرى أباظة ٢٦٦

(ق)

القائم بأمر الله العُبيدى ٦٥
القاسم بن عمر الثقفى ٤٨
القاسم بن إسماعيل العباسى ٥٣
الشريف القاسم بن يحيى بن حمزة ٧٣
الإمام القسم بن محمد ٩١ ، ١٤١ ، ١٤٤
السيد قاسم الأهدل ٢٥٥
السيد قاسم بن حسين أبو طالب العزّى ١٠٠ ، ٢٢٤ ، ٢٦٩
سيف الإسلام القاسم بن الإمام يحيى ٢٦٩

الشريف القاسم الزيدى ١٠٩
الشريف الفاضل القاسم بن جعفر ١١٢
القاسم بن هُتَيمل شاعر الخلاف السليمانى ١٢٢
المتوكل على الله قاسم بن حسين ١٧٧ ، ١٧٩
السلطان قانصوه الغورى ٨٤ ، ٨٥
الباشا قانصوه ٩٣ ، ١٥١
الشريف قتادة بن إدريس ١١٧
قثم بن عبيد الله بن العباس ٤٦
الأمير قسطنطين الشاعر ٢٢٧
قيس بن المكشوح ٢٠

(ل)

القاضى لطف الله بن محمد شاكر ٢٥٨
القاضى لطف الله بن محمد الحيمى ٢٦٩

(م)

الإمام مالك بن أنس ٤٤
مالك بن نَمَط الهمدانى ٤٠
الخليفة المأمون ٥٣ ، ٥٤
سيف الإسلام الحسن بن الإمام يحيى ٢٦٠
[illegible]

الفقيه محسن الحُبَيْشى ١٧٦
السيد محسن بن على بن إسحق ٢٦٩
السيد محسن بن عبدالكريم بن إسحق ٢٠٠
الشيخ محسن مُعِيض ٢٠٥
المتوكل على المحسن بن أحمد ٢٠٦ ، ٩٧
سيف الإسلام محمد بن الإمام يحيى ٢٣١ ، ٢٤١
السيد محمد بن عبدالرحمن شرف الدين ٢٤٢
سيف الإسلام البدر محمد بن الإمام أحمد ٢٦٩
الشيخ محمد بن دُلَيْم ٢٣٧
السيد محمد بن إبراهيم الوزير مؤلف العواصم ٢٤
محمد بن يوسف الثقفى ٤٧
محمد بن يزيد بن عبد المدان الحارثى ٤٩
محمد بن إبراهيم الهاشمى ٥١
محمد بن خالد بن برمك ٥٢
محمد بن سعيد بن السَّرْح الكنانى ٥٢
محمد بن إبراهيم بن طباطبا ٥٣

السيد محمد أمين الحسينى مفتى فلسطين ٢٤٤
محمد بن محمد بن زيد ٥٣
محمد بن عبيد الله بن زياد ٥٣ ، ٥٤
محمد بن يَعْفر الحُوالى ٥٦
القاضى محمد بن محمود الزبيرى ٢٦١
الإمام المرتضى محمد بن الهادى ٦٠
السلطان محمد بن الضحاك ٦٤
السيد محمد الأهدل ٢٥٥
محمد بن مَعْن ٦٩
محمد بن سَبأ ٧٠
محمد بن عُنَيْن الشاعر ٧٥
الأمير محمد بن الناصر ٨٢ ، ٨٣
الإمام محمد بن على الوشلى ٨٣ ، ١٣٤
الأمير محمد البعدانى ٨٣
الأمير محمد بن الحسين الحمزى ٨٣
القاضى محمد بن عبدالملك الآنسى ٢٥٧
السيد محمد بن عبدالله شرف الدين ٩١
محمد باشا ٩٣
المؤيد بالله محمد بن القسم ٩٣
القاضى محمد بن أحمد العراسى ٢٥٨
[illegible]

الشريف محمد بن عون ٩٥ ، ٢٠٢
محمد سِرِّى باشا ٩٥
الأمير محمد بن عايض ٩٥ ، ٢٠٥
الشيخ محمد طاهر رضوان ٢٢٣
السيد محمد بن حيدر النعمى ٢٢٣
السيد محمد بن إسماعيل عشيش ٩٧
الأمير محمد بن الملك عبدالعزيز آل سعود ٢٥٣
المهدى محمد بن قاسم الحوثى ٢٥٣
السيد محمد المطاع ٢٥٣
المنصور بالله محمد بن يحيى حميدالدين ٩٩
السلطان محمد رشاد ١٠٠
محمد على باشا ١٠٠
سيف الإسلام محمد بن محسن ١٠١
السيد محمد بن على الإدريسى ١٠٢ ، ٢٢٣ ، ٢٣٣
المنتصر محمد بن القسم ١٠٨
الشريف محمد بن القسم الزيدى ١١٠
ذو الشرفين محمد بن جعفر ١١٢
محمد بن أسعد المرادى ١١٧
محمد بن قاسم بصير ١١٧
الأ[illegible] محمد [illegible] ١١٨

الأمير محمد بن منصور المشرق ١١٨
الإمام محمد بن يحيى السراجى ١٢٣
المهدى محمد بن المطهر ١٢٦
المؤيد بالله محمد بن الناصر ١٣٢
الأمير محمد بن على بن شمس الدين
محمد افندى البصراوى ٢٥٢
السيد محمد بن محمد زباره ١٦٦ ، ٢٧٢ ،
٢٧٣
القاضى محمد بن أحمد الشامى ١٥٣
الأمير محمد بن الحسن ١٥٤ ، ١٥٦ ،
١٦٤
الشيخ محمد بن عبدالعزيز الحبيشى ١٥٥
المؤيد بالله محمد بن القسم ١٥٥
الأمير محمد بن الحسين بن القسم ١٦٠
محمد بن على جميل الشبرانى ١٦١
الأمير محمد بن أحمد بن الحسن ١٦٤
القاضى محمد بن عبدالله العمرى ٢٥٦ ،
٢٦٨ ، ٢٦٩
القاضى محمد بن إبراهيم السحولى ١٦٧
المؤيد بالله محمد بن التوكل ١٦٦
الناصر محمد بن المهدى ١٧١
[illegible]

الناصر محمد بن إسحق ١٨٧ ، ١٧٩ ،
١٨٤
السيد محمد بن إسماعيل الأمير ١٨٣ ،
١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٩
القاضى شيخ الإسلام محمد بن على
الشوكانى ١٩١ ، ١٩٥
الخديوى محمد على باشا ١٩٣
القاضى محمد راغب ٢٥٥
الشيخ محمد بن صالح السماوى ١٩٥
الهادى محمد بن المتوكل ١٩٧
المتوكل محمد بن يحيى ١٩٩
السيد محمد بن حسن الوادعى ٢٦٩
القاضى محمد بن على العمرانى ٢٠٠
الشيخ محمد البَيْحانى ٢٧٠
القاضى محمد بن أحمد الحَجْرى ٢٦٩
الإمام محمد بن عبد الله الوزير ٢٠٤
الباشا محمد عزت ٢٠٧
سيف الإسلام محمد بن الهادى ٢٠٧
محمد عارف ٢٥٨
محمد بن حسن دلال ٢١١
السيد محمد بن إبراهيم الشامى
[illegible] ٢٢٧

محمود باشا ٩٥
محمود نديم ١٠١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥
السلطان محمود ١٩٣
المَرْزُبان بن وَهْرَز ٣٨
مروان بن محمد الثَّقَفى ٤٨
مروان بن محمد الجَعْدى ٤٨
مرجان مولى الحسين بن سلامة ٥٥
الباشا مراد ٩٠
مِرْطَل الشاعر ٩
مسروق بن إبْرَهَة ٣٦
مسروق الهمدانى ٤٤
مسيلمة الكذاب ٤٣
مسعود بن عوف الكلبى ٤٨
المستنصر العبيدى ٦٤
المستعلى ٦٤
الملك المسعود ٧٦ ، ٨٢
مصطفى باشا ٨٩
مصطفى عاصم ٩٧
مصطفى صبرى ٩٥
مصطفى باشا بونابرت ٩٥
مُطَرِّف بن مازن ٩
الإمام المطهر بن شرف الدين ٨٤ ، ٨٧ ،

الإمام المطهر بن يحيى ١٢٦
الواثق بالله المطهر بن محمد ١٢٧
المطهر بن يحيى الحزى ١٣١
معقل بن مُنَبِّه ٩
معاذ بن جبل ٤١
معاوية بن أبى سفيان ٤٦ ، ٤٧
مَعْن بن زائدة ٥٠
المعتصم بن هارون الرشيد ٥٦
المعز لدين الله العبيدى ٦٢
معن بن حاتم ٧١
الشيخ معوض بن تاج الدين ٨٠
المفضل بن أبى البركات ٦٩
الفقيه مقبول الأهدل الزيلعى ٨٦
أبو الملاحف القرمطى ٢١
ابن المُنَيْذر ٩
منصور بن أبى عامر المعافرى ٤٤
منصور بن يزيد الحميرى ٥١
منصور بن عبد الرحمن التنوخى ٥٦
منصور بن حسن الكوفى ٥٩ ،
٦١ ، ١٠٧
منصور بن فاتك ٦٣

نصور بن الفضل الحيرى ٦٩
قاضى موسى بن يحيى بهران ١٢٢
وسى الجون بن عبدالله بن الحسن ٢٥
لإمام موسى الكاظم ٢٥
وسى الهادى ٥١
لهاجر بن أبى أُمَيَّة ٤١
لهلب بن أبى صفرة ٤٤
هدى بن على الحيرى ٦٤

(ن)

اشر النعم الحيرى ٣٠
بو الفتح الناصر بن الحسين الديلمى ٢٥
لناصر بن أحمد المستفى ٧٣
اصر بن جزيلان ١٨٢
ابليون ١٩٠
امق بك ٢١١
لأمير نجاح مولى آل زياد ٥٥
لقاضى نشوان بن سعيد الحيرى ١١٤
لشيخ أبو نصر أستاذ الهمدانى ٢١
صر بن الأزد ٣٣
[illegible] ١٨٤ ، ٣٩

(و)

وائل بن حُجْر ٤٠
واقد بن مسلمة الثقفى ٤٧
الأمير وَرْدسان ١١٧
وضّاح اليمن ٩
الوليد بن عقبة ٤٩
وهب بن مُنَبِّه ٩ ، ٤٤ ، ٤٨
وَهْرَز الفارسى ٣٨
القبطان وُلْسُون الإنكليزى ١٩٠

(ه)

السيد هاشم بن حازم المكى ١٤٩ ، ١٥٤
الأمير هادى بن الشويع ١٥٤
هِزْعة بن الشِّير ٥٦
هشام بن يوسف الأبناوى ٩
هشام بن عبد الملك ٤٨
هشام بن القُبَيْب الهمدانى ٧١
همّام بن مُنَبِّه ٩ ، ٤٥
الهَيْصَم بن عبد المجيد صاحب مسور ٥١
الرئيس هاشم الأتامى ٢٤٤
السيد هادى هَيْج ٢٥٥

(ى)

سيد يحيى بن حسين شرف الدين ٢٦٩
سيف الإسلام يحيى بن الإمام المتوكل ٢٦٨ ، ٢٦٩
السيد يحيى بن محمد بن عباس ٢٦٩
السيد يحيى بن إسماعيل الوادعى ٢٦٤
الإمام المتوكل على الله يحيى بن محمد حميد الدين ٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢٥٤ ، ٢٣٠ ، ٢٥٥
الإمام أبو طالب الصغير يحيى بن أحمد ١١٣
الإمام يحيى بن حمزة ٢٤
الإمام يحيى شرف الدين ٢٤
القاضى يحيى بن صالح السُّحُولى ١٩٠
القاضى يحيى بن محمد الإريانى ٢٣٩
يحيى بن مَعِين ٤٨
السيد يحيى الدارى ٢٢٧
الإمام أبو طالب يحيى بن الحسين ١٠٥
السيد يحيى بن أحمد البحر ٢٥٥
يزيد بن عبد الملك ٤٨
يزيد بن الوليد الناقص ٤٨
يزيد بن منصور ٥٠
يزيد بن جرير بن خالد بن عبد الله القَسْرى ٥٢
يعفر بن عبد الرحيم الحُوالى ٥٦
يعلى بن أمية ٤١ ، ٤٥
يَكْسُوم بن أبرهة ٣٦
الملك المظفر يوسف بن عمر بن على ابن رسول ٧٨
الإمام الداعى إلى الله يوسف ١٠٨

(ا)

أم جحدم ٤
أنوه ١١
إرياب ١١
أبين ١٣٨
أملح ١٤٥
حصن ازيان ٢٠٠
أخور ٦٩
مدينة أبها ٩٥ ، ٢٤٤
مدينة إب ٩ ، ١٧٧
مدينة أبي عريش ١٩١
الأجمود ٢٢٧
الأناطول ٢٢٥
حصن أنود ٥٦
مخلاف آنس ٧
حصن أشيح ٦٨
جبل الأختوم ٢٠٧

(ب)

مدينة باعريش ٦
مدينة باجل ٦ ، ٢٤٥
مدينة بيت الفقيه ٥
براقش ١٣
بندر البقعة ٨٦
بيت بوس ٧١
بيحان ١٦١
باب المنجل ١٨١
بئر العزب ٢٢٦
باب المندب ٢٤٨
وادي بيش ٥
جبل برع ٢٢٧
جزيرة بريم ٦
جزيرة بربرة ٦
البيضا ٩ ، ١٣
وادي برهوت ١٠
حصن بينون ١١
جبل برط ١٤ ، ١٨٥ ، ١٤١ ، ٢١١
مدينة بدر بنجران ٢٤٤
قرية البحيح ٢٤٥
حصن بكر ١٤٨
مخلاف بني مروان ٢٣٣
مخلاف بني نشر ٢٣٣

(ت)

تبالة ١٠٩
تبرين ٤
تثليث ٤
وادي تنومه ٢٣٣
تريم ١٠
تريس ١٠
جبل التعكر ٢٤٩
حصن التعكر بعدن ٦٩ ، ٦٠
تربة الشيخ عيسى ١٥٢
مدينة تعز ٩ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٩٠

(ث)

مدينة ثلا ٩

(ج)

جرش ٤
وادي جازان ٥
مدينة جازان ٦ ، ١٤٠
مخلاف الجند ٧ ، ٤١ ، ٥٦ ، ٧٣
مخلاف جعفر ٦٢
وادي الجاح ٢٤٠ ، ٢٤٧
مدينة جدة ١٧١
جهران ١٨٥
مدينة جبلة ٩
الجوبة ٢٤٠
جبل الملح ٢٤٠
وادي جردان ٤٠
الجوف ٥٧
قرية الجوزة ١١٠
سائلة جعيرة ٥٤
قرية الجديدة ٢٥٤

(ح)

وادي حرض ٥
حجور ٢٢٠
مدينة الحديدة ٥ ، ٩٥ ، ٩٦
مدينة الحسينية ٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤٧
مدينة حيس ٦ ، ٢٤٧
مدينة حرض ٦
مخلاف الحواشب ٧
الحلقة ١٤٢
جبل حقات ٧٠
جبل حفاش ١٥٦

غلاف الحفا ٧
غلاف الحواشب ٧
حراز ٩٦
وادى حَجْر ١٦٠
حصن حَبّ ٥٥
مدينة حَبُور ٩
مدينة حُوث ٩ ، ٢١٧
حضرموت ٧٥
مدينة حَجّة ٩ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ٢٠٩
حريب ٢٤٠
حِزْيَز ٢٥٨
الحفا ١٤٨

(خ)

مدينة الخُوخَة ٢٤٧
مدينة الخضرا ١٧٣
مدينة خَمِر ٩ ، ٩٢ ، ٩٧ ، ١٧٧
حصن خَدِد ٦٦
خَيوان ١٠٦
قرية الخَدَرة ٢١٤

(د)

الدَّنوَة ١٩٧
حَمّام دمْت ٢٥٥
وادى دَوْعَن ١٠
حصن الدُّمْلُوَة ٦٤ ، ٦٦ ، ١٤١
دعّان ١٠١
مدينة الدُّرَيْهمى ٢٤٧
جزيرة دَهْلك ٦ ، ٦٧

(ذ)

مدينة ذَمَار ٩ ، ٦٠ ، ٧٤ ، ٩٠
الذِّراع ١٤٨
حصن ذى مَرْمَر ١٤ ، ٨٤ ، ١٤١
جبل ذَبَاب ١٤

(ر)

حصن الرَّبْعة ١٣٢
جزيرة رودس ٢٢١
رَوْثان ١١
وادى رَحْبان ٥٣

(ح)

الحدائق الوردية. لفقيه العالم حُمَيْد الشهيد فى تاريخ أئمة الزيدية إلى سنة ٦٥٦

(خ)

خلاصة العَسْجَد فى دولة الشريف محمد بن احمد صاحب أبى عريش . للقاضى عبد الرحمن بن الحسن البهكلى من سنة ١١٤١ إلى سنة ١١٨٤

(د)

الدرة المضيئة فى السيرة المنصورية. للسيد مطهر بن محمد الجرموزى ضمنها سيرة الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد وما كان بينه وبين الأتراك من الوقائع والحروب .

درر نحور الحور العين فى سيرة الإمام المنصور وأعلام دولته الميامين. للقاضى المؤرخ لطف الله بن احمد جحاف ضمنها سيرة المنصور بالله على بن المهدى العباس

(ذ)

الذهب المَسْبُوك فى سيرة خير الملوك للقاضى حسن بن احمد عاكش الضَّمَدى كتاب صغير فى سيرة الشريف الحسين ابن على بن حيدر من سنة ١٢٥٤ إلى سنة ١٢٦٤ مبنى على السجع .

(ر)

رَوْح الرُّوح. للسيد المؤرخ عيسى ابن لطف الله بن المطهر بن شرف الدين من أول القرن العاشر إلى سنة تسع وعشرين وألف بناه المؤلف على السجع المطبوع وألَمّ بما كان بين جده المطهر والأتراك من المعامع ثم ما كان بين الإمام القسم والأتراك .

رياض الرياحين فى أنباء الأولين والآخرين وسيرة أهل البيت الطاهرين ومن عاصرهم من الملوك والسلاطين. للقاضى محسن بن احمد بن إسماعيل الحرازى وقد وسع الكلام فى العصر الذى أدركه

(ت)

تاريخ صنعاء. لأبي العباس احمد بن عبدالله الصنعاني المعروف بالرازي المتوفى سنة ٤٦٠ ذكر المؤلف مشاهير علماء التابعين باليمن منهم وهب بن منبه وطاووس اليماني وبعض القراء وذكر أيضاً مآثر صنعاء القديمة كغمدان وغيرها وتوجد نسخة منه بمكتبة جامع صنعاء.

التاج الخُسْرَوَاني في أعيان المخلاف السُّليماني. للقاضي العلامة حسن بن احمد ماكش الضمدي من ١٢١٧ إلى ١٣٤

تحفة الأسماع والأبصار فيما تضمنته السيرة التوكلية من الأخبار. للسيد مطهر ابن محمد الجرموزي ضمنها المؤلف سيرة المتوكل على الله إسماعيل واستطرد بها رحلة القاضي حسن الحيمي إلى الحبشة.

التحفة. للسيد حسين بن عبدالرحمن الأهدل إلى سنة ٨٢٧ اقتطفها المؤلف من تاريخ السلوك في طبقات العلماء والملوك. للبهاء الجندي.

الأئمة. للسيد إبراهيم بن محمد الوزير.

تهذيب الزيادة في تتميم الإفادة في تاريخ الأئمة السادة. للقاضي علي بن محمد العابد والإفادة للإمام أبي طالب يحيى ابن الحسين الهاروني وانتهت الزيادة إلى سنة ١١٨٤ .

(ث)

ثَغْر عدن. للقاضي الطيب بن عبدالله ابن احمد بامخرمة الحضرمي رتبه المؤلف على الحروف ولخص فيه ماجاء في تاريخي الجندي والخزرجي وزمن المؤلف سنة ٩٢٨ فما قبلها .

(ج)

الجامع الوجيز في وفيات أولي التبريز. للعلامة احمد بن عبد الله الجنداري المتوفى سنة ١٣٣٧ جمع فيه المؤلف بين الحوادث والوفيات .

الجوهرة المنيرة للسيد مطهر بن محمد الجُرْموزي . ضمنها المؤلف سيرة

(س)

السُّلوك في طبقات العلماء والملوك. لبهاء الدين محمد بن يوسف الجندي في ثلاثة أجزاء ابتدأ فيه من أيام البعثة فذكر عمال النبي ﷺ على اليمن ثم عمال الخلفاء الراشدين وعمال الدولتين إلى سنة ثلثمائة ثم أفاض بذكر فقهاء اليمن فيذكر القرية ومن خرج منها من الأعلام وانتهى إلى سنة ٧٢٥ وعاد إلى ذكر تاريخ الملوك من أول المائة الرابعة إلى سنة ٧٢٥

سيرة الإمام الهادي إلى الحق يحيى ابن الحسين بن القسم مؤسس الدولة الهاشمية باليمن. للسيد علي بن أبي جعفر محمد بن عبيد الله العلوي توجد نسخة منها بمكتبة جامع صنعاء .

سيرة الإمام المهدي احمد بن الحسين المكنى أبو طَيْر توجد نسخة بمكتبة جامع صنعاء .

(ش)

شمس العلوم ودوا كلام العرب من الكُلُوم . للقاضي نشوان بن سعيد الحميري ضم إلى جانب اللغة كثيراً من البلدان اليمنية وأسماء الملوك والقبائل وقد انتخب عظيم الدين أحد ما يتعلق بأخبار اليمن وجاء في مختصر لطيف طبع بمطبعة ليدن .

(ص)

صفة جزيرة العرب. للحسن بن أحمد الهمداني طبع بمطبعة ليدن .

(ط)

طَبَقُ الحلوى وصحائف المن والسَّلْوى. للسيد العلامة الأديب عبدالله ابن علي الوزير من سنة ١٠٤٥ إلى سنة ١٠٩٠ بناه مؤلفه على السجع .

طِراز أعلام الزمن في طبقات أعيان اليمن جزءان مرتب على الحروف. لأ[illegible]

أحمد بن القسم لخص مؤلفه سير الأئمة من لدن الإمام القسم إلى أيام المهدى لدين الله العباس وبناه على السجع .

(ع)

العسجد المسبوك لأبى الحسن على بن الحسن الخزرجى إلى سنة ٨١٢ رتبه على الأبواب .

العقود اللؤلؤية فى الدولة الرسولية له جزءان طبع بمصر .

العقد المنتضد فيمن قام من الأئمة لا من قعد للقاضى إسماعيل بن حسين جحفان الشهيد مع الإمام الناصر عبدالله ابن الحسن سنة ١٢٥٦ .

العقد المفصل بالعجائب والغرائب فى دولة الشريف أحمد بن غالب للقاضى على بن عبدالرحمن البهكلى من سنة ١١٠١ إلى سنة ١١٠٥ والشريف أحمد بن غالب من أمراء مكة وفد على المهدى صاحب المواهب فولاه على تهامة الشامية

(ف)

فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن للشيخ العلامة عبدالواسع ابن يحيى الواسعى رتبه على قسمين الأول فى تاريخ الأئمة من أهل البيت والثانى فى جغرافية اليمن طبع بمصر .

(ق)

قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون. للقاضى عبد الرحمن الديبع رتبه على الأبواب وجعل لكل دولة باباً .

(ك)

كتيبة الحكمة فى سيرة الإمام المتوكل على الله يحيى بن محمد حميد الدين. للقاضى العلامة عبد الكريم بن أحمد مطهر من سنة ١٣٣٦ إلى سنة ١٣٣٩ طبع بصنعاء .

كريمة العناصر فى الذب عن سيرة الامام الناصر صلاح الدين محمد بن على.

(ل)

اللآلئ المضيئة . للسيد العلامة أحمد بن محمد الشرفى شرح منظومة البسامة للسيد إبراهيم بن محمد الوزير فى ثلاثة أجزاء .

اللطائف السنية فى الممالك اليمنية. للسيد المؤرخ محمد بن إسماعيل الكبسى المتوفى سنة ١٣٠٨ ابتداء من البعثة إلى سنة ١٢٩٠ .

(م)

مطلع البدور . للقاضى المؤرخ أحمد ابن صالح بن أبى الرجال رتبه على الحروف وذكر تراجم الزيدية ومن يعتزى إليهم وذكر منهم الصاحب إسماعيل بن عباد وسفيان الثورى .

المواهب السنية مما منّ الله به من الفواكه الجنية من الشجرة المتوكلية للسيد الحسن بن عبد الرحمن بن أحمد ابن محمد بن الحسن بن عبد القادر بن [illegible]

تولى الرياسة من أولاد الإمام المهدى أحمد بن يحيى بن المرتضى وبناه على السجع .

(ن)

نزهة الظريف فى حوادث أولاد الشريف . للقاضى عبدالرحمن البهكلى من سنة ١١٨٥ إلى سنة ١٢٠٨ جعلها المؤلف كالذيل لمؤلفه خلاصة العسجد فى دولة الشريف محمد بن أحمد صاحب أبى عريش .

نسمة السحر فيمن تشيع وشعر. للسيد يوسف بن يحيى بن الحسين بن المؤيد بالله محمد بن القسم ترجم لمن جمع بين الشرطين التشيع والشعر وعد منهم دعبل بن على الخزاعى وأبا نواس الحسن ابن هانى وغيرهما .

نفحات العنبر فى رجال القرن الثالث عشر . للسيد الأديب إبراهيم ابن عبد الله الحوثى فى ثلاثة أجزاء [illegible]

نفح العود فى دولة الشريف حمود. للقاضى عبد الرحمن بن حسن البهكلى الى سنة ١٢٢٥ وذيله القاضى حسن ابن أحمد كش الضمدى إلى سنة ١٢٣٣ وقد ألم المؤلف بالمامع التى كانت بين الشريف حمود والنجود فى القرن الثالث عشر بتهامة .

نيل الوطر فى رجال القرن الثالث عشر. للسيد المؤرخ محمد بن محمد زبارة الحسنى طبع بمصر .

(ه)

هدية الزمن فى أخبار لحج وعدن. للأمير أحمد العبدلى طبع بمصر .

ملحق فى نبذ تاريخية

نبذة كتبها الوالد الأديب جمال الإسلام على بن محمد الجرافى المولود سنة ١٢٦٤ المتوفى سنة ١٣٣٨ فى تاريخ اليمن من سنة ١٢٩٥ إلى سنة ١٣١٠ .

نبذة كتبها الوالد العلامة صفى الإسلام أحمد بن محمد الجرافى المولود فى سنة ١٢٨٠ المتوفى سنة ١٣١٦ فى تاريخ اليمن من سنة ١٣٠٧ إلى سنة ١٣١٦ .

نبذة للسيد الأديب حسين بن على الريسى فى رحلة الإمام الناصر لدين الله أحمد أيام ولايته للعهد فى مدن تهامة سنة ١٣٥٧ .

نبذة كتبها البكباشى محمد افندى البصراوى عن بلاد المشرق ورحلته فيها.

نبذة مختصرة فى تاريخ اليمن جمعها القاضى محمد بن أحمد الحجرى .

إلى غير ذلك مما عثرنا عليه من مصادر التاريخ العام ومعجم ياقوت وغيره

لماذا ... مؤسسة دار الكتاب الحديث ؟

مشروع ثقافي جديد ما زال يخطو خطواته الاولى ، وكلنا أمل ان تكون هـــذه الخطوات ثابتة وراسخة لا تتعثر ، وان تستمر واثقة من نفسها لا تحيد عن خطها .

إنه مشروع ثقـــافي يطمح بأن يقف في طليعة المؤسسات الثقافية الوطنية التقدمية في العالم العربي من دون أن يحصر نفسه في قوالب ضيقة محدودة وأن يتعامل مـــع الفكر العلمي البنّاء من أية جهة طـــالما حافظ على موضوعيته وعقلانيته .

ويأتي مشروعنا ليسد ثغرة في مجال الطباعـــة والنشر تركتها الاحداث المأساوية الأخيرة في لبنان والمشرق العربي وليساهم مـع باقي دور النشر والمؤسسات الثقافية ذات النفس التقدمي في لبنان والعالم العربي في النهوض بالحياة الثقافية العربية .

ومع بدايات مشروعنا الجديد لا يسعنا إلا أن نرحب بكل إنتـــاج جديد لا يخرج عن الخط الذي رسمناه لأنفسنا ويساهم في بناء الثقافة العربية القومية .

بيروت في ١٠ / ٨ / ١٩٨٣

اسماء الكتب الصادرة عن الدار

ل.ل.

١ – الشرق الإسلامي في العصر الوسيط . تأليف : نكيتيا إيليسيف ترجمة : منصور أبو الحسن . ٦٠

٢ – معنى الحياة . ألفريد أدلر – ترجمة : د. محمود هاشم الودرني ٣٠

٣ – طرق تأهيل المعلمين . كوبشيبايف – ترجمة : عيسى الزيدي د. رضوان القضماني ٣٠

٤ – أزمة الرأسمالية المعاصرة في المواد الأولية . مجموعة من الكتاب السوفيات – ترجمة : حسان إسحاق ٣٢

٥ – وحدة الثقافة والتاريخ . الدكتور أحمد محمد الحوفي ١٢

٦ – وحدة اللغة والوطن في الشعر الحديث . د. أحمد محمد الحوفي ١٨

٧ – الاشتراكية نمط جديد للحضارة . تأليف : م. ب. متشيدلوف ترجمة د. ابراهيم قندور ٤٠

٨ – فعالية توظيف رؤوس الأموال . ت. س. خاتشادروف ترجمة د. عبد الكريم أبا زيد ٥٠

٩ – يوميات المقاومة الوطنية اللبنانية ٢/١ . اعداد صالح عثمان صالح – حسين عبد الله – تقديم معن بشور ٦٠

ل.ل.

١٠ – التنظيم الفعال وإدارة المؤسسات الانتاجية . أغاروف وانيكن ترجمة عبد الغني صالحاني ٣٠

١١ – البعد الخامس . شعر : مصطفى البدوى ١٥

١٢ – مناخات . اندريه موروا – ترجمة د. محمود هاشم الودرني . ١٥

١٣ – تاريخ اليعقوبي – ج ٣/١ . تأليف : أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب المعروف بابن واضح الأخباري ١٠٠

١٤ – سهرة في بيت الكوكو . نجيب صالح ١٦

١٥ – المقتطف من تاريخ اليمن . القاضي عبدالله بن عبد الكريم الجرافي ٤٠

١٦ – وقفات مع علم اللسان . د. رضوان القضماني ١٥

١٧ – الطوائف في الدولة اللبنانية . بيير روندو ترجمة وتقديم الياس عبود ٢٠

١٨ – الغيظ اليهودي . الياس عبود ٥

١٩ – سقط الوعد وبكى الورد . شعر حلمي رزق ١٥

٢٠ – الثورة العربية الكبرى . صبحي ياسين ٣٠

٢١ – في الرواية الفلسطينية . فخري صالح ٢٠

٢٢ – بيروت من الحصار الى الانتفاضة : معن بشور ٢٠

٢٣ – الزواج والطلاق المدني في القرآن . تأليف د. محمد أبو زيد ١٢

٢٤ – المرأة بين الشرق والغرب . تأليف القاضي مصطفى صبري ٥

الدكتور أحمد قايد الصايدي

المادة التاريخية في كتابات «نيبور» عن اليمن

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

المادة التاريخية

في

كتابات «نيبور» عن اليمن

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

الكتاب ١١
الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ = ١٩٩٠ م
جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلاّ بإذن خطي من دار الفكر المعاصر

لبنان - بيروت - ساقية الجنزير، خلف الكارلتون، س. ت ٥١٤٩٧
ص. ب (١٣٦٠٦٤) هاتف (٨٦٠٧٣٩) تلكس: FIKR 44316 LE

إهداء

إلى الذين يقاومون موجات التردي والانهيار بسلوكهم القويم وعشقهم للحقيقة وتفانيهم في الواجب وتعففهم أمام المغريات وترفعهم عن السقوط وحبهم المنزه لتراب الوطن وإنسانه.

إليهم أهدي هذا الجهد المتواضع، تقرباً واعترافاً بوجودهم في عالم يبدو كما لو أنه لم يعد يتسع لقيمهم السوية.

مقدمة

منذ حركة الكشوف الجغرافية، في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، والتطلع الأوروبي إلى فتوحات جديدة لم ينقطع، سواءً تمثلت هذه الفتوحات في الكشف عن مناطق جديدة في الكرة الأرضية، لم تكن معروفة للأوروبيين من قبل، أو تمثلت في دراسة بلدان معروفة خارج أوروبا، دراسة جغرافية واجتماعية واقتصادية وسياسية.. إلخ.، تكشف عن جوانب غير معروفة عن هذا البلد أو ذاك.

ولقد كانت أوروبا في القرن الثامن عشر - وهو القرن الذي قدمت فيه البعثة العلمية الدينماركية إلى اليمن - مسرحاً لنشاط فكري وإبداعي في مختلف ميادين المعرفة الإنسانية. إنه القرن الذي شهد ما اصطلح على تسميته بعصر التنوير، عصر لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) ونيوتن (١٦٣٤ - ١٧٢٧) وبركلي (١٦٨٥ - ١٧٥٣) وهيوم (١٧١١ - ١٧٧٦) ومونتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥) وفولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨) وديدرو (١٧١٣ - ١٧٨٤) وروسو (١٧١٢ - ١٧٧٨) وكانت (١٧٢٤ - ١٨٠٤)، وغيرهم من قمم العلم والفلسفة والفن. وكما كانت أوروبا في القرن الثامن عشر مسرحاً للنشاط الفكري المستنير فقد شهدت حدثاً من أبرز أحداث التاريخ، حدثاً غير وجه العالم، وهو الثورة الصناعية، التي

بدأت في ستينات ذلك القرن في بريطانيا أولاً ثم امتدت إلى البلدان الأوروبية الأخرى ثم إلى العالم.

وكانت أوروبا في الوقت نفسه مسرحاً للصراع العسكري والتنافس السياسي بين القوى الأوروبية المتنافسة، داخل القارة وخارجها، حيث كانت تدور معارك سياسية وعسكرية ذات أطراف متعددة، منها بريطانيا وفرنسا والنمسا وبروسيا وروسيا وإسبانيا.. إلخ..

وفي هذا الإطار التاريخي السائد في أوروبا؛ وفي غمار الاهتمام بالعلم والعلماء والأدب والأدباء والفن والفنانين؛ وفي جو مفعم بالتنافس بين كثير من الحكام والأمراء، على احتضان العلم ورعايته، وتحقيق إنجازات علمية، يعزى تحقيقها إلى تشجيع هذا الحاكم أو ذاك، بزغت فكرة إرسال بعثة علمية إلى (العربية السعيدة)، لدراسة هذا البلد، دراسة تاريخية، لغوية، اجتماعية، اقتصادية، جغرافية، نباتية.. إلخ.. وكان الدافع العلمي وراء هذه الفكرة نابعاً من اهتمام عالم واحد، متخصص في اللغات وعلوم الدين، كان منهمكاً في دراسة التوراة وتفسيرها، والخروج عن حرفية النصوص، إلى فهم أعمق؛ وقد تراءى له أنه لن يستطيع أن يتعمق في فهم نصوص التوراة إلا إذا درسها من خلال فهم كاف للبيئة، التي كتبت فيها. وهداه تفكيره إلى اختيار اليمن، باعتبارها أقرب إلى بيئة التوراة من فلسطين نفسها، حيث كانت اليمن لا تزال محتفظة بنمط قديم من الحياة، لم تؤثر فيه المؤثرات الخارجية. ومع أن دائرة هذا الاهتمام الديني قد اتسعت، لتضم اهتمامات علمية أخرى متخصصة، لعلماء على امتداد القارة الأوروبية، إلا أن صاحب الفكرة قد نظر إلى جميع الاهتمامات على أنها تخدم هدفه وغايته في توضيح معاني التوراة. وانتقلت الفكرة إلى أيدي رجال السياسة، ليضيفوا إلى الاهتمامات العلمية اهتمامات سياسية. فقد وجدوا أن تبنيهم لمثل هذه البعثة العلمية سوف يضفي على السلطة مظهراً تحرص على الظهور به، كراعية للعلم، إضافة إلى أن التعرف

على الحياة الداخلية لبلد يقع في منطقة استراتيجية من العالم أمر يخدم المطامح السياسية والاقتصادية بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

وفي مطلع عام ١٧٦١م انطلقت البعثة العلمية الدينماركية من كوبنهاجن، عاصمة الدينمارك، قاصدة اليمن، مروراً ببحر الشمال فالبحر المتوسط، حيث توقفت لبعض الوقت في تركيا، ثم اتجهت إلى مصر ومنها عبر البحر الأحمر إلى اليمن مروراً بميناء جدة. وكان مقرراً أن تمكث في اليمن عامين إلى ثلاثة أعوام، ولكنها لم تمكث سوى سبعة أشهر، وغادرت ميناء المخا بعد أن فقدت اثنين من أعضائها، بسبب الملاريا، أحدهما دفن في المخا، والآخر في مدينة يريم. ثم مات أعضاء البعثة الآخرون تباعاً، بعد مغادرتها اليمن متأثرين بالملاريا، التي أصيبوا بها في سهول تهامة. ولم يبق منها حياً سوى نيبور، الذي عاد إلى الدينمارك واستطاع وحده بجده ودأبه أن يحقق جزءاً كبيراً من مهام البعثة؛ فسجل جوانب كثيرة من الحياة اليمنية، سياسية واقتصادية واجتماعية وجغرافية وتاريخية ولغوية.. إلخ.، ضمنها جميعاً يومياته، التي تم نشرها في ثلاثة مجلدات بعنوان:

Reisebeschreibung nach Arabien und den Umliegenden Ländern

(وصف رحلة إلى بلاد العرب والبلدان المجاورة) كما ضمن جزءاً هاماً من المعلومات التي جمعها، والتي جمعها زملاؤه، قبل وفاتهم، في كتاب نشره بعنوان: Beschreibung von Arabien (وصف بلاد العرب).

ولقد مثل مجيء البعثة الدينماركية إلى اليمن لحظة لقاء تاريخية بين إطارين ثقافيين متباينين. وقد قدم لنا نيبور في تعليقاته على موقف اليمنيين تجاه ما كانت البعثة تعرضه من أدوات، أو ما تقوم به من سلوك مغاير لما اعتاده اليمنيون، صورة معبرة عن هذا التباين. فإذا بنا أمام مجتمعين مختلفين في ثقافتهما وقيمهما ونظرتهما إلى الحياة، تختلف استجاباتهما تجاه موضوع معين

أو سلوك محدد، اختلافاً يعبر بصورة مكثفة عن خلفيتهما الاجتماعية والثقافية والتاريخية.

ولا أريد هنا أن أستبق الأمور، فأتحدث عن أهمية البعثة الدينماركية أو عما أنجزه نيبور، إذ إنني قد خصصت حيزاً في البحث لهذا الغرض. ولكني أود أن أشير إلى أن سر اهتمامي بما كتبه نيبور وما كتبه الرحالة الآخرون عن اليمن(*) يكمن في أن أولئك الرحالة قد حاولوا رصد وتسجيل كل شيء صادفوه أثناء تجوالهم. ومن نافلة القول أن نؤكد، أن العين الغريبة تلتقط تفاصيل ودقائق في حياة البلد الذي تزوره، لا تلتفت إليها عادة عين المؤرخ أو المواطن المحلي، وذلك لسبب بسيط، وهو أن هذه الأشياء تدخل ضمن ما هو مألوف في الحياة اليومية. والمألوف، عادة، لا يلفت الانتباه ولا يدعو إلى التوقف ولا يثير الاستغراب. ولذا قلما ينتبه أحد إلى أهمية تسجيله. ولكن كثيراً من الأشياء المألوفة والتي تشكل جزءاً من الحياة اليومية، فتبدو أشياء غير ذات بال، تصبح بعد زمن مادة تاريخية على درجة من الأهمية، قد يصعب رسم صورة للحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية لمجتمع ما في فترة ما من تأريخه، دون الإلمام بها. ومن هنا تنبع أهمية ما سجله الرحالة الأجانب من تفاصيل وجزئيات عن الحياة اليومية في اليمن، كانت بعيدة عن اهتمام المؤرخ اليمني.

وبما أن توجهي منذ البدء لم يكن يستهدف وضع تاريخ لرحلة البعثة الدينماركية أو إعادة تدوينها، وإنما كان هدفي هو التقاط المادة التاريخية، التي تضمنتها كتابات نيبور، والتي تسلط الضوء على فترة من تاريخنا الحديث. لهذا فإن جزءاً كبيراً من المادة العلمية التي وقفت عليها لدى نيبور، والتي تتناول، مثلاً، أنواع الطيور والنبات والحيوان إلخ.، لم تندرج ضمن دائرة اهتمامي في هذا البحث.

(*) سوف يتبع هذا البحث بحث آخر يضم بعض ما سجله الرحالة الأجانب عن اليمن، وخاصة الرحالة الألمان.

وقبل أن أُسلم القارىء إلى فصول هذا البحث أود أن أشير إلى أنني قد اعتمدت في تبويبه على المادة التاريخية المتناثرة، التي تضمنتها كتابات نيبور نفسه. فعمدت إلى استخلاصها من صفحات كتبه، وتجميعها وترتيبها، بحسب موضوعاتها، ثم تبويب البحث وفقاً لهذه الموضوعات.

ومع أن كتابات نيبور كانت هي مصادري الأساسية، فقد عملت على جمع وقراءة كلما تيسر لي العثور عليه، من كتابات حول رحلة نيبور وخاصة باللغة الألمانية، وهي لغة نيبور نفسه، وإلى جانب ذلك استعنت ببعض المراجع المتعلقة بتاريخ أوروبا الحديث أو بتاريخ اليمن الحديث، ولم أورد في هوامش البحث من هذه المراجع إلا ما تطلبه السياق أو اقتضاه الاستشهاد.

واستناداً إلى هذه المصادر والمراجع أمكن لهذا البحث أن يرسم صورة لعمل البعثة، منذ كانت مجرد فكرة، ثم أصبحت فريقاً علمياً في مرحلة الإعداد ثم مراحل سفرها ومعاناتها. إلخ.، ثم إنجازها وأهميته العلمية، ثم شخصية نيبور ومكانته وأهمية كتاباته، باعتبارها تمثل خلاصة ما أنجزته البعثة في رحلتها. كما أمكن لهذا البحث أن يحقق هدفه في تقديم فصول عن الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية في يمن القرن الثامن عشر، وأن يقدم وصفاً للمدن ونبذة تاريخية لأحداث قريبة العهد كانت لا تزال تروى من قبل معاصريها عند زيارة نيبور.

وقد تعمدنا الإيجاز في عرض موضوعنا وقصدنا الدقة والابتعاد عن التنظير والشروح والاستطرادات. إذ إن هدفنا هو استخراج المادة التاريخية وتقديمها للباحثين والدارسين، المهتمين بتاريخ اليمن الحديث، وهي مادة رصدت وسجلت ميدانياً من قبل باحث أجنبي، تميز بدقة في الملاحظة ومنهجية في البحث.

وربما يظن البعض أنه كان من الأسهل والأفضل لنا وللقارىء لو أننا قمنا بترجمة ما دونه نيبور عن هذا الموضوع أو ذاك، كالبن، أو الملابس أو العملة.

..إلخ، ترجمة مباشرة، بدلاً من عرض ما كتبه عرضاً يبدو كما لو كان تكراراً لما دونه نيبور مع إيراد بعض عباراته بين الحين والآخر، مترجمة وموضوعة بين أقواس. ولكن مثل هذا الظن المتعجل سيتبدد إذا عرف القارىء أن نيبور لم يتحدث عن اليمن مثلاً في فصل واحد أو في مجموعة صفحات متلاحقة؛ بل انتثرت معلوماته هنا وهناك. وكان لا بد من تجميعها جميعاً، ثم صياغتها تحت عنوان واحد. وفي هذه الحالة يصعب اعتماد الترجمة المباشرة. لأن الترجمة تقتضي منا، إذا أردنا أن نأتي على المعلومات التاريخية كلها، أن نعمد إلى ترجمة كل كتابات نيبور. ونحن إذا قمنا بذلك، فسيغدو من الصعب على القارىء أن يلملم المعلومات التاريخية المتناثرة وينسقها ويرتبها ضمن سياق واحد ووفق منهج واضح، يؤدي إلى رسم صورة للحياة اليمنية في القرن الثامن عشر، من شأنها أن تيسر دراسة وفهم تلك الفترة من تاريخ اليمن الحديث، وهو ما قصدنا إليه.

وسوف يلاحظ القارىء، في ما سيلاحظه، أنني قد أوردت بعض الأساطير، التي تضمنتها كتابات نيبور، كما سردها، رغم إدراكي أنها لا تمثل حقيقة تاريخية. فالأسطورة شيء آخر غير الحقيقة التاريخية. إنها قد تنطلق من واقعة تاريخية، ولكنها تعيد صياغتها بشكل أسطوري مما يؤدي إلى إمحائها تماماً، وسط ضباب الأسطورة؛ ويصبح أي جهد للتعرف من جديد على معالم الواقعة التاريخية ضمن غلافها الأسطوري جهداً ضائعاً. ومع ذلك فإنه يمكن للمؤرخ أن يفيد من الأسطورة، كمادة تاريخية من حيث الدلالات التي تقدمها عن المناخ الفكري للبيئة الاجتماعية، التي انبثقت منها تلك الأسطورة. كما يمكن للمؤرخ أن يفيد من الإشارات التي قد تتضمنها الأسطورة، إلى العلاقات الاجتماعية والعادات والتقاليد وأساليب الحياة.. إلخ[1]. ، وفي هذه الدلالات والإشارات تكمن القيمة التاريخية للأسطورة.

(١) قارن: كولنجوود، فكرة التاريخ، ص ١٤٠.

كما سيلاحظ القارىء أنني قد وضعت فقرة خاصة، أوردت فيها بعض انطباعات نيبور عن اليمن. وهي انطباعات أبرز فيها نيبور خصالاً تمثل بالنسبة لمجتمعنا قيماً تدعو إلى الاعتزاز. كالكرم والتسامح الديني ولطف التعامل. إلخ.، وهي قيم مارسها اليمنيون ولا زالوا يمارسونها؛ كما لا زال يتكرر ذكرها من قبل من يزورون اليمن من الأجانب حتى اليوم. ولكنها تمارس بتلقائية وعفوية، خارج حدود الوعي، إذا صح التعبير. مما يجعلنا نخشى أن تهمل وتترك مع مرور الزمن ومع نشوء قيم جديدة في المجتمع اليمني الحديث، بالتلقائية نفسها والعفوية التي مورست بها. ولذلك فإن إبرازها وإدخالها في إطار الوعي، كقيم تشكل جزءاً من هويتنا، وتجعل الآخرين ينظرون إلينا، ونحن نمارسها، بإكبار وإجلال، بل وتجعل تعاملنا مع بعضنا البعض تعاملاً راقياً مريحاً، هو أمر على درجة عالية من الأهمية. لأنه يجعلنا ندرك قيمتها ويحثنا على التمسك بها، وبالتالي التمسك بهويتنا، لا من منطلق التزمت والإحساس الفارغ بالتميز، كما هو الحال لدى من يعتقدون أنهم أفضل الفرق أو أفضل الأجناس، منطلقين من إحساس وهمي بالتميز المذهبي أو العرقي، وإنما من منطلق الإيمان الراسخ بأنه من خلال هويتنا فقط، يمكننا كشعب أن ندخل دائرة التفاعل الحضاري الإيجابي وأن نسهم بدور في إغناء التجربة الإنسانية.

ومن الملاحظات المنهجية، التي تجدر الإشارة إليها، أن نيبور قد حاول أن يصل إلى استنتاجات جغرافية ـ تاريخية، استناداً إلى بعض التشابه بين أسماء بعض المدن والقرى اليمنية وبين أسماء وردت في التوراة. فموزع مثلاً ربما تكون في تقديره هي مدينة Mesa، التي ذكرها موسى عليه السلام في كتابه العاشر(*). ومثل هذه الاستنتاجات المستندة إلى مجرد التشابه تقود غالباً إلى نتائج خاطئة.

وترتبط بمشكلة الأسماء وتشابهها صعوبة واجهتها في هذا البحث. فقد

(*) انظر: الكتاب المقدس، سفر التكوين، الإصحاح العاشر.

اعتمد نيبور في كتابته للأسماء على السماع(*). وهناك كثير من مخارج الحروف العربية تلتبس على الأذن الأجنبية. وهكذا نقرأ اسم رداع، لدى نيبور، على هذا النحو: Rodda، واسم الروضة: Rodda. ولولا السياق الذي ورد فيه كلا الاسمين، لما استطعت أن أفرق بينهما. وقد وجدت صعوبة شاقة في التعرف على بعض الأسماء، رغم استعانتي بالمعاجم والخرائط والأصدقاء.

ولا شك أن كتابة الأسماء العربية بالأحرف اللاتينية، أو كتابة الأسماء الأجنبية بالأحرف العربية يؤدي في كثير من الأحيان إلى تحويرها وتحريفها. فإذا أعيدت كتابتها من جديد بالأحرف الأصلية، استناداً إلى كتابتها بالأحرف اللاتينية، فإننا نحصل عند ذلك على أسماء مختلفة، بهذا القدر أو ذاك، عن أصلها، فمدينة عدن تصبح إيدن ورداع رودا وصعدة سادا... وهكذا. ولذا فقد أوردت الأسماء، التي راودني بعض الشك في صحة فهمي لها، بالأحرف العربية، على سبيل الترجيح، ووضعت أمامها الاسم نفسه بالأحرف اللاتينية، كما سجلها نيبور نفسه. أما الأسماء التي لم أصل إزاءها إلى أي ترجيح أطمئن إليه فقد أثبتها بالأحرف اللاتينية دون محاولة رسمها بالأحرف العربية. هذا بالنسبة للأسماء العربية وأما الأسماء الأجنبية فقد عمدت إلى كتابة الاسم بالأحرف اللاتينية مرة واحدة على الأقل، حتى يتمكن القارىء من التعرف على الاسم بصورته الحقيقية، تجنباً للمحذور السابق. فكتابة الاسم الأجنبي بالأحرف العربية فقط، يحدث غالباً تغييراً في صورة الاسم يجعل السامع أو القارىء عاجزاً عن التعرف على الاسم الحقيقي. فاسم شخص مثل Wilhelm، الذي يُنطق بالألمانية (فِلْهِلْمْ)، يصبح لدى بعض الكتاب العرب غليوم. وفي مثل هذه الحالة فإن القارىء، مهما بلغت حدة ذكائه، لا يمكن أن يتوصل إلى معرفة الاسم بصورته الحقيقية.

(*) أشار نيبور إلى أن السكان أنفسهم كانوا أحياناً ينطقون اسم منطقة أو مدينة بصور مختلفة. مما يدل على أنه كان مدركاً إشكالية كتابة الأسماء. انظر: Neibuhr, C. BVA, S. XXII.

وملاحظة منهجية أخرى وهي أن نيبور - في بعض الحالات - لم يتقيد بمنهج واحد فعند تحديده مثلاً لمواقع القرى والمدن، يذكر مرة الإسم ويشير إلى أنها قرية أو مدينة. ومرة يغفل الإشارة، فلا يعرف القارىء إن كانت قرية أو مدينة. ومرة يذكر الاتجاه والمسافة التي تفصل القرية أو المدينة عن سواها. ومرة يذكر الاتجاه فقط. ومرة يقدر المسافة بالأميال ومرة بالساعات أو الأيام... إلخ.

وما عدا هذه الهنات المنهجية البسيطة، فإن نيبور، على وجه الإجمال، قد سار في عمله الميداني وفق منهج يمكن التعرف عليه بوضوح؛ وسوف نتعرض له في سياق حديثنا عن نيبور وإنجازاته العلمية. كما أن ما وقفنا عليه من جوانب تتعلق بشخصية نيبور، ومن ملاحظات وانطباعات، سجلها في ثنايا كتاباته عن اليمن، إضافة إلى تقييمات العلماء والباحثين لإنجازه العلمي، تجعلنا نطمئن إلى صدقه وموضوعيته، في ما سجله من معلومات. ومع ذلك فإن اطمئناننا إلى صدقه وموضوعيته لا يعني أن نسلم بصحة هذه المعلومات دون نقاش. فمع أن صدق الكاتب وموضوعيته شرطان للوصول إلى المعلومات الصحيحة، إلا أنهما لا يعنيان بالضرورة صحة ما يورده هذا الكاتب من معلومات. فللحصول على معلومات صحيحة شروط أخرى، لا بد من توفرها، إضافة إلى صدق الكاتب وموضوعيته. فالكاتب الموضوعي الصادق يسجل بتجرد ما يعتقده صحيحاً. ولكن قد يتضح فيما بعد بطلان ما اعتقده صحيحاً. وهذا لا يجرح صدق الكاتب ولا يتعلق بموضوعيته ونزاهته. وإنما يتعلق بالظروف، التي أحاطت بوصول المعلومات إليه: مصدرها، طريقة وصولها إليه، بعدها أوقر بها الزمني والمكاني عن موضوعها، أي عن الحدث الذي تتعلق به. إلى آخر ذلك من الشروط، التي يعرفها المؤرخون. لهذا ومع اطمئناننا إلى صدق نيبور وموضوعيته، يجب ونحن نقف على المادة التاريخية، التي تضمنتها كتاباته، أن نضع في اعتبارنا مصدر هذه المعلومات. فالمعلومات التي سجلها بناءً على ملاحظاته المباشرة، مثلاً، يمكن الوثوق بها

أكثر من المعلومات التي رويت له، والمعلومات، التي تتصل بأحداث قريبة العهد، ورويت له من قبل شهود عيان، هي أكثر وثوقاً من معلومات رويت له عن أحداث بعيدة الزمن، رواها له رواة لم يعيشوها. كما أن المعلومات ذات الصلة بمجال تخصصه، قد تكون أكثر صحة من المعلومات، التي تتصل بمجالات معرفية بعيدة عن تخصصه.

وكلمة أخيرة أود قولها في نهاية هذه المقدمة، وهي أن هذه المادة، التي استخلصت من كتابات عالم رحالة، حاول أن يسجل بعينه الأجنبية الحساسة، وخلفيته العلمية المتميزة وموضوعيته الواضحة كل ما صادفه من مظاهر الحياة اليمنية، لن تفيد أولئك الذين ينظرون إلى التاريخ على أنه تسجيل للأحداث السياسية فحسب. أما أولئك الذين ينظرون إلى التاريخ على أنه تسجيل لحركة المجتمع، في فترة تاريخية معينة بكل ما يرافق هذه الحركة من مظاهر وتعبيرات سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية وروحية... إلخ، فإنهم لا شك سيجدون في ما احتواه هذا البحث مادة تاريخية مفيدة، تقربهم من صورة الحياة اليمنية في القرن الثامن عشر.

والله من وراء القصد.

الباب الأول

تمهيد

الفصل الأول(*)
خلفية تاريخية

١ـ أوروبا الحديثة:

عبر الفكر الأوروبي، في أواخر القرون الوسطى، عن بشائر تحولات عميقة في المجتمع الأوروبي، كانت لا تزال بداياتها تتفاعل وتتشكل ببطء. وكان الفكر أسرع في التعبير عن مغزى هذا التفاعل واتجاهاته من التحولات نفسها. ففي القرن الثالث عشر مثلاً كان روجر بيكون (١٢١٤ ـ ١٢٩٤) قد أخذ يتمرد على الطابع الديني، الذي طبع الفكر الأوروبي الوسيط، ويدعو إلى ملاحظة الطبيعة وإنكار القوى السحرية الغامضة، واعتماد التجربة كوسيلة للمعرفة[١]. وكان هذا التمرد يعبر عن تململ الجديد في قلب الإطار القديم، الذي كانت أبرز سماته، سيطرة الكنيسة على الحياة الوجدانية والعقلية، جنباً إلى جنب مع سيطرة الطبقة الإقطاعية على الحياة الإقتصادية والسياسية.

وفي عام ١٤٥٣ سقطت القسطنطينية في يد السلطان العثماني محمد الثاني (الفاتح)، وهاجر نتيجة لذلك عدد كبير من العلماء إلى إيطاليا. وكان لهجرتهم تأثير في الحياة الثقافية في إيطاليا، بلغ درجة لم يتردد عندها بعض المؤرخين في اعتبار سقوط القسطنطينية وهجرة العلماء منها بداية التاريخ

(١) العوا، التجربة الفلسفية، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢.

الحديث. وقد أدى تطور الحياة الثقافية في إيطاليا إلى دفع حركة التمرد على القديم خطوات إلى الأمام.

وفي هذا الوقت أي في حوالي منتصف القرن الخامس عشر ظهرت الطباعة في أوروبا. فقد استطاع الألماني يوهانس جوتنبيرج Johannes Gutenberg (١٣٩٨ - ١٤٦٨) أن يصنع أحرفاً معدنية وأن يطبع بها كتاباً لأول مرة عام ١٤٤٦[١]. وانتشرت المطابع بعد ذلك في أنحاء أوروبا، مسهمة في سرعة انتشار الأفكار الجديدة، التي عبرت بها حركة التمرد عن نفسها، سواءً على شكل تمرد ديني، مثله بصورة خاصة مارتن لوثر Martin Luther (١٤٨٣ - ١٥٤٦)، الذي دعا إلى الإنصراف عن سلطة البابا والرجوع إلى الوجدان الفردي في التدين، وإلى الإنصراف عن التقاليد الكاثوليكية والرجوع إلى الكتاب المقدس ذاته[٢]. أو على شكل تمرد فكري، حيث أخذ المفكرون والأدباء والفنانون يرجعون إلى التراث الكلاسيكي (تراث اليونان والرومان) مشغوفين به، ساعين إلى تقليده، نافرين من الفكر الكنيسي، الذي سيطر على الحياة الثقافية في العصور الوسطى. وأخذ الموقف من الطبيعة يتغير، ونزع المفكرون إلى إعادة الاعتبار لها، فلم تعد في نظرهم مبدأ الشر، كما كانت في الفكر المسيحي، بل رجعت إلى مكانتها الأولى، التي احتلتها عند الإغريق، كتعبير عن الخير والجمال. وعكس هذا الموقف حباً للطبيعة وإقبالاً على الحياة[٣].

وفي الوقت ذاته حدث تقدم كبير في مجال الكشف والعلوم. فمنذ العقد الأخير من القرن الخامس عشر نشطت حركة الكشوف الجغرافية، لتضع الإنسان الأوروبي أمام عوالم ومجتمعات وحضارات وأديان وتقاليد لا علم له بها، ولتغير

(١) قارن: الموسوعة، ص ٦٥٨ وكذا: NUL, Bd. 2, S. 745 - 746.
(٢) العوا، التجربة الفلسفية، ص ٢٧٧.
(٣) نفسه، ص ٢٧٧ وما بعدها - وكذا: ويدجيري، المذاهب، ص ١٨٠.

نظرته إلى العالم. كما أن الاكتشافات العلمية والنظريات الجديدة، كنظرية كوبرنيكوس Kopernikus (١٤٧٣ - ١٥٤٣)، التي أكد فيها أن الأرض كروية وأنها ليست مركز العالم بل هي واحدة من الكواكب التي تدور حول الأرض، قد غيرت من نظرة الإنسان إلى العالم[١].

لقد عبرت حركة التمرد، بمظاهرها الدينية والفكرية والعلمية، عن عناصر جديدة في الحياة الأوروبية. فقد أخذ دور المدن يتعاظم وظهرت طبقة جديدة من سكانها امتهنت التجارة والصناعة والصيرفة، وأخذت تزاحم طبقة الإقطاعيين، المدعومة برجال الكنيسة وفكرهم. وكانت هذه الطبقة الجديدة تتطلع إلى توسيع نطاق نشاطها التجاري؛ ولم يكن إطار الحياة، الذي تحميه الكنيسة وتحرص طبقة الإقطاع على ثباته واستمراره، يتسع لطموحات الطبقة الجديدة. فنشأ صراع بين القديم، بأفكاره ومصالحه ومؤسساته، والجديد، بمصالحه وطموحاته، مدعوماً بالنهضة الفكرية وبتقدم العلم، اللذين جاءا ليعززا مواقع الطبقة الجديدة ويلبيا حاجاتها.

واستفادت البرجوازية من العلم وشجعته، وأخذت تطبق نظرياته واكتشافاته واختراعاته، في ميادين الصناعة والتجارة والتوسع[٢]. كما أخذت تحارب الحواجز الجمركية بين المقاطعات، بالدعوة إلى التوحيد القومي. واستطاعت أن توسع أسواقها خارج نطاق بلدانها، مسببة بذلك سلسلة متصلة من الحروب داخل أوروبا وخارجها.

وبينما كانت الطبقة البرجوازية تنتزع، شيئاً فشيئاً، مواقع السيطرة والنفوذ، من أيدي الطبقة الإقطاعية، محدثة بذلك تحولات عميقة في المجتمع، كانت التحولات على المستوى الفكري تتبلور بصورة أسرع، وغدت

(١) NUL, Bd. 2, S. 1032.
(٢) قارن: توشار، تاريخ الفكر، ص ٢٩٩، ٣٠٣.

تطرح أفكاراً واضحة، تعبر عن طموحات المجتمع الجديد، في كافة النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والقانونية والفكرية. وقد تبلورت الأفكار الجديدة في تيار حمل لواءه مفكرو الطبقة البرجوازية، اصطلح على تسميته بحركة التنوير[1].

وكانت التحولات تسير في بريطانيا بوتائر أسرع مما في غيرها من البلدان الأوروبية، فقد أخذ الإنتاج الصناعي فيها - في القرن الثامن عشر - يتجاوز حدود الحرف اليدوية والإنتاج الصناعي المنزلي، كما يتجاوز حدود المينيفكتورة (المعامل الصغيرة)، التي منحتها السياسة الاقتصادية المركنتيلية(*) دعمها وحمايتها. فقد أدت قدرة السوق المحلية على استيعاب المنتجات الصناعية(**)، واتساع السوق العالمية وطموح أصحاب الصناعات والتجار، أدت جميعها إلى التعجيل في ظهور المصانع الحديثة[2]. ومنذ اكتشاف البخار، في ستينات القرن الثامن عشر، بدأ الإنتاج الآلي في بريطانيا. وبذلك تعزز موقف الطبقة البرجوازية، الاقتصادي والسياسي، وأخذت طبقة الإقطاعيين تتراجع عن مواقعها وتتهاوى. وقد حدثت مثل هذه التحولات، التي شهدتها بريطانيا، في البلدان الأوروبية الأخرى، ولكن بوتائر مختلفة.

ويعتبر الإنتاج الآلي، الذي ترتب على اكتشاف البخار، والذي عرف بالثورة الصناعية، أهم حدث في تاريخ البشرية، بعد استقرار الإنسان وزراعة الأرض[3]. وقد أسهم إسهاماً حاسماً في اكتمال التحولات الاقتصادية

---

(١)

(٢)

(٣) انظر: ديورانت، قصة الحضارة، ج ١، مج ٩، ص ٧٠ وما بعدها، وكذا EW, Bd.2, S. 485-486.

EW, Bd. 2, S. 486.

EW, Bd. 2, S. 485.

(*) تنطلق السياسة المركنتيلية من مبدأ أن ثروة البلد تقاس بمخزونها من الذهب والفضة وتتضمن تجميع الذهب والفضة من الخارج وتنمية الإنتاج القومي وحماية الصناعات الوطنية في وجه المزاحمة الخارجية. انظر: توشار، تاريخ الفكر، ص ٢٥٠ - ٢٥١.

(**) تزايدت القدرة الشرائية في أوربا نتيجة للحركة الاستعمارية وعمليات النهب المنظمة لثروات الشعوب المستعمرة (بفتح الميم).

والاجتماعية والسياسية، التي كانت عناصرها قد بدأت تتفاعل في أوروبا منذ قرون.

وسوف نسلط الضوء، في الفقرة التالية، تسليطاً سريعاً، على التحولات، التي شهدتها الدينمارك، وهي الموطن الذي انطلقت منه البعثة العلمية الدينماركية، وذلك منذ مطلع العصر الحديث وحتى زمن إرسال البعثة إلى اليمن.

٢ - الدينمارك:

تتمتع الدينمارك بموقع استراتيجي هام في منطقة بحر الشرق المعروف ببحر البلطيق، حيث تطل موانئها على بحري الشمال والبلطيق، وتتحكم في الممرات التي توصل بينهما. وقد حدد موقعها هذا مكانتها وعلاقاتها الدولية[1].

وقد نشأ صراع من أجل السيطرة على بحر البلطيق بين قوى عديدة، كالدينمارك والسويد وألمانيا وهولندا وبريطانيا وروسيا. إلخ.. وكان لهذا الصراع أثره الكبير في تحديد سياسات الدول الإسكندينافية في العصر الحديث. فابتداءً من عام ١٤٢٥ م فرضت الدينمارك ضريبة مرور على السفن المارة عبر مضايق بحر البلطيق. وقد شكلت تلك الضريبة مصدر دخل رئيسي للخزانة الدينماركية لوقت طويل. وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر استطاعت الدينمارك أن تصبح الدولة ذات النفوذ الأولى في منطقة بحر البلطيق[2].

وشهد القرنان السابع عشر والثامن عشر انتقال المجتمع الدينماركي من النظام الإقطاعي إلى النظام الرأسمالي. فقد أدت سيطرة الدينمارك على حركة التجارة في منطقة بحر البلطيق إلى ازدهار الاقتصاد الدينماركي. وإلى

---

(١) للمزيد انظر: Weltgeschichte, Bd.5, S. 686 FF.

(٢) للمزيد انظر: يحيى، العلاقات ص ٣٩٣ - ٣٩٤، ٣٩٧ - ٣٩٨.

جانب ذلك عاشت الدينمارك ازدهاراً ثقافياً لم تعرف من قبل مثيلاً له، سواء في مجال الفنون والآداب أو في مجال العلوم الطبيعية.

وقد أدى ارتفاع الأسعار، المعروف (بثورة الأسعار)[1]، أثناء المرحلة المركنتيلية، إضافة إلى البدايات الأولى للعلاقات الرأسمالية، أدى إلى حدوث تغيير في بنية الاقتصاد الدينماركي، وخاصة في قطاع الزراعة. حيث نما الاقتصاد الحيواني وزادت معدلات تصدير العجول زيادة كبيرة.

وفي عام ١٦١٦ م تم تأسيس (شركة الهند الشرقية الدينماركية)، التي استطاعت أن تبسط سلطانها عام ١٦٢٠ م على ترنكبار Trankbar في الساحل الجنوبي - الشرقي للهند، وعلى ترنكوملي Trinkomalee في سيلان. كما تم إنشاء (شركة الهند الغربية الدينماركية)، التي تمكنت عام ١٦٦١ م من بسط سلطانها على جزء من جزيرة يونجفرن Jungfern في منطقة الأرخبيل الأصغر، قرب أمريكا الوسطى[2].

ولكن مرحلة الازدهار هذه ما لبثت أن انتهت بدخول الدينمارك في حرب الثلاثين[*] عاماً ضد القيصر الألماني. وقد انتهت حرب الثلاثين عاماً في عام ١٦٤٨ م بصلح وستفاليا Westfalen، الذي كان من نتائجه سيادة السويد على بحر البلطيق، وضعف الدينمارك وتراجع دورها في شمال أوروبا[3]. ونظراً لسيطرة النبلاء الإقطاعيين على مقاليد الأمور في الدينمارك، وممارستهم الحكم فعلياً بواسطة البرلمان، وضعف الملوك، فقد واصلوا - أي النبلا - زج البلاد في حروب متلاحقة، ألحقت الدمار بها. وقد تمكنت السويد عبر ثلاثة حروب

---

(١)

(٢) قارن: بحمي، العلاقات، ص ٣٩٥، و KEW, Bd.1, S. 238.

(٣) انظر: صبحي، التاريخ الأوروبي، ص ١٨٢ ومابعدها. وكذا: البطريق، تاريخ أوروبا، ص ١٣٥ وما بعدها. KEW, Bd.1, S. 238 - 239. وكذا: Weltgeschichte, Bd.5, S.690.

(*) نشبت حرب الثلاثين عاماً في عام ١٦١٨ وانتهت في عام ١٦٤٨.

(١٦٤٣ - ١٦٤٥، ١٦٥٧ - ١٦٥٨، ١٦٥٨ - ١٦٦٠) أن تزيد من ضعف الدينمارك وتنتزع أجزاء من ممتلكاتها، ومنها بعض جزر بحر البلطيق.

وفي حوالي منتصف القرن السابع عشر قوي شأن الطبقة البرجوازية الدينماركية التي لم تكن الحروب قد أضعفتها كما أضعفت طبقة النبلاء الإقطاعيين. والتفت البرجوازية حول الملك فريدرك الثالث (١٦٠٩ - ١٦٧٠)، الذي عمل على تقليص دور النبلاء. وفي عام ١٦٦٥ م تم وضع دستور جديد للدولة، ليصبح بموجبه نظام الحكم نظاماً ملكياً وراثياً مطلقاً. وقد حرم النبلاء من ممارسة أي نفوذ على الحكومة. وتم توحيد إدارات الدولة، وتعززت مكانة الموظفين الرسميين. وأنشىء جيش محترف. كما جرت أول محاولة لإنشاء نظام تعليمي في البلاد.

وقد استطاعت الدينمارك أن تستعيد أجزاء من أراضيها التي خسرتها في حروبها ضد السويد من قبل، ومنها شليسفج وهولشتاين Schleswig - Holstein[*] وذلك عام ١٧٢٠ م، بعد أن خاضت حروباً ضد السويد بالتحالف مع روسيا.

وقد استمر نمو الاقتصاد الرأسمالي، رغم الصعوبات التي نجمت عن السياسة المركنتيلية. كما أن التناقضات أخذت تحتد، نتيجة للنمو السريع للقوى المنتجة في قطاع الزراعة، مع تمسك ملاك الأرض الإقطاعيون، في تعاملهم مع الفلاحين، بنمط العلاقات الإقطاعية، ومنها أعمال السخرة، التي ظلت تفرض على الفلاحين. وابتداءً من ظهور فكرة الاستبداد المستنير[**]، وخاصة خلال عهد لوزير بيرنشتورف Bernstorf[***]، الذي امتد من عام ١٧٥٠

(*) تقع في شمال ألمانيا وتتبع الآن ألمانيا الاتحادية.

(**) سادت فكرة الاستبداد المستنير النصف الثامن من القرن الثامن عشر وتتلخص في أن كل شيء للشعب ولا شيء بواسطة الشعب، ومن الملوك المستنيرين في ذلك العصر فريدرك الثاني ملك بروسيا وكاترين الثانية ملكة روسيا، وجوزف الثاني ملك النمسا... إلخ. انظر: توشار، تاريخ الفكر، ص ٣٠١، ٣٢٩.

(***) بيرنشتورف هو الوزير الذي أشرف على إعداد وتمويل البعثة العلمية الدينماركية.

إلى عام ١٧٧٠، وعهود الوزراء الذين أعقبوه، أدخل العديد من الإصلاحات، ذات الطابع البرجوازي، كتحرير الفلاحين والانتقال إلى الاقتصاد الفردي ليحل محل القرية التي كانت تمثل، وحدة اقتصادية، وتقليص امتيازات النبلاء ومنع تجارة العبيد في المستعمرات... إلخ[1].

٣. الاهتمام الأوروبي باليمن في العصر الحديث:

لم يكن اتصال أوروبا بالمنطقة العربية في العصر الحديث حدثاً جديداً. فقد اهتمت الحضارتان الأوروبيتان القديمتان، اليونانية والرومانية، بهذه المنطقة، واتخذ اهتمامها طابعاً ثقافياً آناً، استهدف الاستفادة مما أبدعته الحضارات التي نشأت فيها، وطابعاً توسعياً، آناً آخر، استهدف الإمساك بطرق التجارة الشرقية، واستنزاف خيرات هذه المنطقة. وفي العصور الوسطى نشأت عدة نقاط اتصال بين أوروبا والعالم العربي - الإسلامي، تمثلت بالأندلس وجنوب إيطاليا وبيزنطة، عبرت من خلالها علوم العرب وإسهاماتهم الحضارية إلى أوروبا، التي كانت تعيش نهباً لغزوات القبائل الهمجية، منذ سقوط روما وانحسار الحضارة الرومانية من أوروبا وانطواء بقاياها في بيزنطة. وقد أسهم هذا الإتصال، الذي تم بين الحضارة العربية - الإسلامية وبين أوروبا، في نشوء الحضارة الأوروبية الحديثة[2].

وفي العصر الحديث - أي منذ نهاية القرن الخامس عشر - حدثت تغيرات جذرية في الحياة الأوروبية، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً، أدت إلى تعاظم الدور الأوروبي في العالم بأسره، ومنه المنطقة العربية، التي أصبحت واحداً من أهم مسارح التنافس الدولي في العالم. ودخلت البلاد العربية في

(١) للمزيد انظر:

(٢) حول تأثير الحضارة العربية - الإسلامية في الحضارة الأوروبية الحديثة انظر: سزكين، محاضرات، ص ١١٥ وما بعدها، وكذا: اليافي، تمهيد، ص ١١٩ وما بعدها. KEW. Bd. 1, S. 238 - 239.

علاقات غير متكافئة، طرفاها: بلاد مختلفة بعد تحضر، تمتلك موقعاً تتقاطع عنده قارات العالم القديم، مشكلاً بذلك عقدة اتصال عالمية هامة، كما تمتلك ثروات طبيعية هائلة، وبلاد أخذت تتحضر بعد تخلف، وتملك من أسباب القوة والتنظيم والعلم والمطامع، ما لم يسبق له مثيل في التاريخ.

ورغم اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، في نهاية القرن الخامس عشر، وما نتج عن ذلك من تحول طريق التجارة الشرقية التاريخي عن البلاد العربية، واتصال أوروبا مباشرة بالهند وجنوب شرق آسيا، وضعف أهمية البحار العربية والبحر المتوسط وانتقال ثقل الحركة التجارية إلى بحر الشمال والبحر البلطيقي، رغم ذلك كله ظلت البلاد العربية مسرحاً للتنافس الدولي، بسبب موقعها الإستراتيجي. وكانت حملة نابليون بونبرت على مصر، عام ١٧٩٨ م، معلماً بارزاً في تاريخ العلاقات العربية - الأوروبية.

وقد شمل الاهتمام الأوروبي بالبلاد العربية اليمن كذلك. بل لقد احتلت اليمن مكاناً متميزاً في إطار الاهتمام الأوروبي، بسبب موقعها الجغرافي المتميز في مدخل البحر الأحمر وعلى المحيط الهندي.

وعادة ما يبدأ الحديث عن علاقة الأوروبيين باليمن في العصر الحديث بالنشاط البرتغالي، الذي شهدته الشواطىء العربية منذ مطلع القرن السادس عشر[1]. وكانت أبرز مظاهر ذلك النشاط احتلال جزيرة كمران ومهاجمة عدن عام ١٥١٣ م[2]. وقد لحق بالنشاط البرتغالي نشاط دول أوروبية استعمارية أخرى أهمها بريطانيا وهولندا وفرنسا[3]، فقد استطاعت بريطانيا أن تفرض وجودها في منطقة غرب المحيط الهندي على حساب الوجود البرتغالي، وسعت

(١) انظر: ماكرو، اليمن والغرب، ص ١٩ وما بعدها.

(٢) للمزيد انظر: لقمان، تاريخ الجزر، ص ٩. سالم، الفتح العثماني، ص ٧٢. طه، سياسة بريطانيا، ص ٢٢.

(٣) انظر: ماكرو، المصدر نفسه ص ٢٥ وما بعدها، ٦٩، ٣١ وما بعدها، ٣٦ وما بعدها، ٧٦.

إلى تأمين طرق المواصلات البحرية والتصدي لأي وجود أوروبي آخر يشكل تهديداً لمصالحها[1].

وابتداءً من عام ١٦١٢ م تمكن الأوروبيون، ومنهم البريطانيون، من المتاجرة مع الموانىء اليمنية. وفي عام ١٦١٨ م سمحت تركيا بإقامة وكالة إنجليزية في المخا، ولم تحاول بريطانيا احتلال مناطق يمنية حتى عام ١٨٣٩ م، عندما احتلت عدن، باستثناء احتلالها المؤقت لجزيرة بريم عام ١٧٩٩ م[2].

وأما الهولنديون فقد نشطوا تجارياً في الشواطىء اليمنية منذ عام ١٦١٤م، حيث أقاموا وكالة لهم في ميناء الشحر، ثم استطاعوا فيما بعد أن يوسعوا علاقاتهم التجارية وأن ينشئوا لهم وكالة تجارية في ميناء المخا[3].

وفي أوائل القرن الثامن عشر قدم الفرنسيون إلى موانىء اليمن، وتمكنوا من عقد اتفاقية تجارية مع الإمام المهدي(*)، صاحب المواهب، أُعطي لهم بموجبها الحق في ممارسة التجارة في ميناء المخا، وإقامة وكالة لهم فيه[3].

وقد مارس كل من الإنجليز والهولنديين والفرنسيين نشاطهم التجاري باسم شركات أطلق على كل منها (شركة الهند الشرقية) مع إضافة اسم البلد.

ويذكر فاروق أباظة أن الوكالات التجارية الهولندية والفرنسية قد غادرت

---

(١) أباظة، عدن، ص ٦٦.

(٢)

(٣) ماكرو، اليمن والغرب، ص ٣٢، براور، اليمن، ص ٢٢ وما بعدها.

Schmidt, Das Südwestliche Arabien, S. 58.

(٤) ماكرو، اليمن والغرب، ص ٣٩ - ٤٠.

(*) الإمام المهدي محمد بن أحمد بن الحسن المعروف بصاحب المواهب ولد عام ١٠٤٧ هـ/١٦٣٧ م، وتوفي عام ١١٣٠ هـ/١٧١٨ م، تولى الإمامة في الفترة من ١٠٩٧ هـ/١٦٨٦ م، وحتى ١١٢٩ هـ/١٧١٧ م، حيث اضطر إلى التنازل عنها. قارن: الزركلي، الأعلام، مج ٦، ص ١٢ - والحداد، تاريخ اليمن، ص ٣٣٠ - ٣٣٣. والشماحي، اليمن، ص ١٤٦.

اليمن عام ١٧٦٢[1]، أي في العام نفسه الذي وصلت فيه البعثة الدينماركية إلى اليمن، وانفرد البريطانيون بتجارة التصدير فيها. ولكن رغم إغلاق الوكالات التجارية الهولندية والفرنسية فقد ظل الفرنسيون - كما ذكر (نيبور) - يحتفظون بمباني وكالاتهم ويدفعون إيجاراتها بانتظام، رغم أن سفنهم قد انقطعت عن المجيء إلى المخا[2]. كما أشار ماكرو إلى أن الهولنديين أيضاً قد احتفظوا بمبنى وكالتهم التجارية في المخا طوال القرن الثامن عشر، رغم إغلاق الوكالة[3].

وإلى جانب الدول الأوروبية الثلاث، المذكورة، دخلت إيطاليا وأمريكا أيضاً ميدان المنافسة في منطقة البحر الأحمر، وإن كان ذلك لم يتم إلا ابتداءً من القرن التاسع عشر[4].

وإلى جانب تنافس هذه الدول في منطقة البحر الأحمر بشكل عام وعلى السواحل اليمنية بشكل خاص، كان هناك نشاط تجاري بسيط، لدول أوروبية أخرى، كالنمسا، التي مارست نشاطاً تجارياً مع المخا، في الفترة من ١٧١٩ م وحتى ١٧٢٧ م. كما قامت الدينمارك بنشاط تجاري متقطع مع المخا في القرن السابع عشر، والسويد في القرن الثامن عشر[5].

ضمن هذا الإطار التاريخي، المتميز بالصراع والتنافس، بين الدول الأوروبية، داخل أوروبا وخارجها، والمتميز في الوقت نفسه بالتحولات العميقة، التي مست كافة جوانب الحياة الأوروبية، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وفي غمرة النشاط العلمي، الذي كانت تمارسه

---

(١) أباظة، عدن، ص ٧٢.

(٢)

Niebuhr, C., RB, Bd.1, S. 444. U.BVA, S. 222.

(٣) ماكرو، اليمن والغرب، ص ٣٥.

(٤) انظر: المصدر نفسه، ص ٦٠ وما بعدها، ١٣٠ وما بعدها.

(٥) انظر: المصدر نفسه، ص ٤٢.

المؤسسات العلمية، وكان يمارسه العلماء المتخصصون ويشجعه الحكام، الذين حاولوا من خلال ذلك أن يضفوا على أنفسهم صفة رعاية العلم والعلماء. ضمن هذا الإطار، قدمت البعثة العلمية الدينماركية في نهاية عام ١٧٦٢ م إلى العربية السعيدة.

وكانت اليمن، عند قدوم البعثة إليها، تتمتع باستقلالها السياسي، منذ خروج الأتراك منها عام ١٦٣٥ م. وكان يحكمها حكام عديدون، كان أقواهم وأوسعهم رقعة هو الإمام المهدي عباس(*) بن الإمام المنصور. وقد كانت لليمن في تلك الفترة التاريخية علاقات تجارية بالعالم الخارجي، عبر نوافذها البحرية، وخاصة عبر مينائها الشهير المخا، الذي ارتبط باسمه اسم البن اليمني، فغدا اسم مكا رمزاً لأجود أصناف البن في العالم.

(*) الإمام المهدي عباس، ابن الإمام المنصور حسين، ولد عام ١١٣١ هـ/١٧١٩ م، وتوفي عام ١١٨٩/١٧٧٥ م، بويع بالإمامة بعد وفاة أبيه عام ١١٦١ هـ/١٧٤٨ م، واستمر في الحكم حتى وفاته.
انظر: العمري، مئة عام، ص ١١، ١٩ وما بعدها.

الفصل الثاني

البعثة الدينماركية إلى اليمن وكارستن نيبور

١. البعثة الدينماركية:

أ. فكرة البعثة:

ولدت فكرة إرسال بعثة إلى (العربية السعيدة) على يد البروفسور يوهان ميشائيلس (Johann Michaelis)، أستاذ اللاهوت في جامعة جوتنجن (Göttingen) الألمانية، الذي كان مهتماً بدراسة التوراة، وتفسير نصوصها. فقد خرج البروفسور ميشائيلس عن النظرة الدينية التقليدية إلى التوراة، تلك النظرة التي تعتبر التوراة كتاباً كل كلمة فيه، إنما هي صادرة عن الله، ولا يجوز أن تكون موضع دراسة أو تساؤل، وأراد أن يتعامل معها، أي مع التوراة، كنصوص، يمكن أن تكون موضوعاً للدراسة التاريخية واللغوية.

وبينما هو بصدد دراسة التوراة، رسخت في ذهنه فكرة، مؤداها، أن القيام برحلة إلى (العربية السعيدة)، يمكن أن يساعد في الإجابة على أسئلة كثيرة، تطرح نفسها على الباحث، حتى وهو يعالج النصوص، معالجة لغوية بحتة. فهناك نباتات وحيوانات، ورد ذكرها في التوراة، ويمكن لبعثة علمية إلى اليمن أن تقوم بدراستها، كما يمكن مثلاً القيام بدراسة جغرافية، وخاصة لموضوعات تتعلق بالتوراة، مثل حركة المد والجزر في البحر الأحمر، التي كان لها أهمية

كبيرة، بالنسبة لهروب بني إسرائيل من مصر[1].

وقد رأى ميشائيلس، أن دراسة (العربية السعيدة) هي أكثر أهمية بالنسبة لتفسير التوراة، حتى من دراسة فلسطين نفسها، وذلك لأنه من النادر وجود شعب في العالم، حافظ على أشكال الحياة وأساليب المعيشة وأنماط التفكير القديمة، كشعب (العربية السعيدة). لذا فإن الحياة في (العربية السعيدة)، هي أقرب إلى الحياة التي عرفها الإسرائيليون، من الحياة الحالية في فلسطين نفسها، إذ إن فلسطين قد خضعت عبر القرون لمؤثرات أجنبية كثيرة[2].

ومن جامعة جوتنجن (Göttingen)، انتقلت الفكرة إلى حكومة الدينمارك، عبر رسالة وجهها البروفسور ميشائيلس إلى بيرنشتورف (Bernstorf)، وزير خارجية الدينمارك، والمسؤول عن إدارة شؤون إمارة شليسفيج وهولشتاين (Schleswig und Holstein) الألمانية[3]، عرض له فيها أهمية القيام بمثل هذه الرحلة، حيث - كما ذكر - «إننا لا نعرف عن العربية السعيدة إلا النذر اليسير، وإن مثل هذه الرحلة، إذا قام بها رجل مطلع ومعد في مجال الجغرافيا وعلوم الطبيعة وعلم اللغة والتوراة، سوف تحقق الكثير»[4].

وتساءل ميشائيلس في رسالته عن إمكانية تبني ملك الدينمارك لهذه الفكرة، على أن لا توكل مهمة القيام بالرحلة إلى أحد المبشرين أو رجال الدين[5].

هكذا بدأت الفكرة بسيطة ومحدودة، إلا أنها تبلورت واتسعت بعد ذلك،

---

(1) Hansen, Reise, S. 12 - 13.

(2) وانظر أيضاً: الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر الخروج ص ١١٠ - ١١٢. وكذا القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية ٥٠، سورة الأعراف الآية ١٣٨، سورة يونس، الآية ٩٠، سورة طه، الآية ٧٧، سورة الشعراء، الآية ٦٣ - ٦٦.

(3)

(4) Hansen, Reise, S. 13.

(5) Lohmeier, Niebuhr, S. 10.

Lohmeier, Niebuhr, S. 55.

Lohmeier, Niebuhr, S. 55.

على يد بيرنشتورف[1]، لتأخذ شكلها النهائي، بالصورة التي نعرفها عنها اليوم.

ب - أهداف البعثة:

مثلما بدأت فكرة البعثة بسيطة ومحدودة ثم اتسعت، كذلك بدأت أهدافها العلمية منحصرة في جلب المعلومات اللغوية والطبيعية والجغرافية والاجتماعية، التي من شأنها أن تساعد على تفسير وفهم نصوص التوراة[2]، ثم اتسعت وتعددت وأصبحت ذات طابع شمولي، تجاوز حدود التوراة، لتخدم علوماً أخرى، ولترتبط باهتمامات علماء في مختلف الجامعات الأوروبية أخذوا يتابعون إعداد البعثة باهتمام، وكل منهم ينتظر أن تخدم نتائجها مجال تخصصه، وخاصة أن البعثة في شكلها الأخير قد ضمت في عضويتها متخصصين في اللغات والجغرافيا والفلك والرياضيات والطبيعة، وإذا حاولنا هنا أن نحدد أهدافها بصورتها النهائية، استناداً إلى المصادر الأصلية، وإلى بعض المصادر الثانوية، فإنه يمكننا أن نتبين أهدافاً متعددة، لبت مختلف الاهتمامات:

فبالنسبة لملك الدينمارك فريدرش أو فريدرك الخامس (Friederich V) وحكومته، أوجزت التعليمات الملكية، الموجهة إلى البعثة(*)، والصادرة بتاريخ ١٥ ديسمبر عام ١٧٦٠ م، في المادة الأولى، هدف الرحلة بصورة إجمالية، على النحو التالي: «على أعضاء الرحلة المذكورين أعلاه أن يتوجهوا معاً إلى العربية السعيدة وأن يضعوا جميعاً نصب أعينهم دائماً الهدف النهائي للرحلة المحدد من قبل جلالتنا، وهو القيام بأكبر قدر ممكن من الاكتشافات العلمية في هذا البلد»[3].

---

(1) Lohmeier, Niebuhr, S. 55.

(2) Lohmeier, Niebuhr, S. 10, 55.

(3) Lohmeier, Niebuhr, S. 60.

(*) التعليمات الملكية الموجهة إلى البعثة هي أشبه ما تكون بنظام داخلي مكون من ٤٣ مادة، ينظم عمل البعثة ويحدد أدوار ومهام أعضائها.. إلخ. وقد نشرها ميشائيلس في كتابه Fragen وأعاد نشرها Lohmeier في كتابه Niebuhr.

ويمكننا أيضاً من خلال الدعاية الواسعة، التي رافقت تجهيز الرحلة، أن نتلمس أهدافاً أخرى غير علمية، ترتبط برغبة الملك في أن يضفي على نفسه صفة تشجيع العلم ورعاية العلماء، وهي صفة حرص كثير من الحكام أن يتصفوا بها، وأن تصبح مدعاة لتفاخرهم، ودليلاً على تميزهم عن معاصريهم من الملوك والحكام(*). وتعبر إحدى الصحف الدينماركية، الصادرة في كوبنهاجن، بتاريخ ١٢ يناير عام ١٧٦١ م (Kiobenhavnske Danske Posttidende, 12. 1. 1761)، عن هذا الهدف الخفي، بعبارات واضحة الدلالة: «لما كان جلالته - رغم همومه السياسية الكبيرة في هذه الظروف الصعبة - يطمح، طموحاً لا يعرف الكلل، إلى التوسع في التعليم، ورعاية العلم، والارتفاع بمكانة شعبه، من خلال عمل مفيد وعظيم، فقد قام جلالته، قبل بضعة أيام، بإرسال مجموعة من العلماء إلى القسطنطينية، على ظهر الباخرة جرين لاند (Grönland) المتجهة إلى البحر المتوسط، حيث ستتجه هذه المجموعة من هناك إلى العربية السعيدة، عبر مصر...»(١).

ويمكن إلى جانب ذلك، أن نفترض وجود دوافع أخرى، سياسية واقتصادية، ترتبط بما نعرفه من طموحات الدول الأوروبية، إلى توسيع علاقاتها ومناطق نفوذها السياسي والاقتصادي، وهي طموحات ذات صلة مباشرة أحياناً، وغير مباشرة أحياناً أخرى، بمعظم الكشوف العلمية والجغرافية، التي تحققت على أيدي الأوروبيين خارج القارة الأوروبية منذ مطلع العصر الحديث(٢).

أما بالنسبة للعلماء، وأساتذة الجامعات، فقد تركزت أهداف البعثة في

(١)

(٢) Hansen, Reise, S. 10.

(*) نذكر هنا، على سبيل المثال، ملك بروسيا، فريدرك الثاني، المعروف بفريدريك الكبير، الذي حرص على استقطاب رجال الفكر والفلسفة والعلم والفن، من مختلف أرجاء أوروبا، إلى بلاطه، حتى أصبح بلاطه موئلاً للمعجبين عليهم من المفكرين الأوروبيين، فغدا في نظر معاصريه راعياً للعلم والفكر، وكان ذلك مصدراً لاعتزازه، ودليلاً على تفوقه. وقد كان فولتير واحداً ممن حظي برعايته.

Weiter, Georgraphie, S. 80.

جمع أكبر قدر من المعلومات، التي يتوقع كل منهم أن تخدم مجال تخصصه، وأبحاثه العلمية، فالبروفسور ميشائيلس، على سبيل المثال، وهو الأب الروحي لفكرة البعثة، كان هدفه أن يستفيد من نتائج الرحلة في دراسته التي كان يقوم بها للتوراة، وأن تجيب المعلومات، التي ستحصل عليها البعثة، على الكثير من التساؤلات التي تحتاج إلى إجابات. بل وأن تعزز نتائج الرحلة نظرته المتحررة إلى التوراة، باعتبارها نصوصاً يمكن دراستها لغوياً وتاريخياً، من خلال دراسات تاريخية ولغوية وجغرافية للبيئة التي وجدت التوراة فيها. ولأن هذه البيئة متعددة الجوانب، فإن دراستها دراسة شاملة تمثل أفضل السبل للوصول إلى معلومات تفيد في تفسير وفهم التوراة. لذا تضمنت الأسئلة التي صاغها والتي استوحاها من اهتماماته أولاً ومن اهتمامات العلماء المتصلين به ثانياً تغطية شاملة لمظاهر الحياة، من نبات وحيوان وأرض ومناخ وبشر... إلخ. ولعل هذه الأسئلة التي تضمنتها قائمة مكونة من مئة سؤال(١)، تعبر عن الأهداف العلمية للرحلة أوضح تعبير.

وإلى جانب هذه الأهداف الشمولية، التي عبرت عنها أسئلة ميشائيلس التفصيلية الدقيقة(*)، كانت هناك بعض الأهداف، أو لنقل بعض الاهتمامات الجزئية المحددة، لهذا العالم أو ذاك، مثل البروفسور ليني (Linné)، أستاذ فورسكال (Forskal)، الذي عبر عن هذا الاهتمام في طلبه إلى تلميذه، وهو يودعه، أن يبعث إليه بغصن من شجرة البلسم، التي تحدثت عنها التوراة، لعله

(١) انظر: Michaelis, Fragen, S. 1 FF.

(*) نشرت تلك الأسئلة فيما بعد في كتاب مكون من حوالي ٤٠٠ صفحة. وقد كانت الأسئلة طويلة ومفصلة، حرصاً من السائل على الحصول على أجوبة تفصيلية. فأسئلة، مثلاً، عن طبيعة الجراد وأنواعها وعن الأمراض التي تصيب النبات وعن سيل العرم... إلخ، استغرق كل منها ما يزيد على عشر صفحات. وأما السؤال المئة، وهو السؤال الأخير فقد استغرق خمسين صفحة. وهو سؤال عن أنواع مختلفة من الطيور، كالنسر والعقاب والبازي والنورس والحباري والقطا والشرقراق. إلخ.
انظر مثلاً: Michaelis, Fragen, S. 79 FF., 209 FF., 269 FF.

يستطيع أن يشاهدها ويدرسها ويحدد إلى أي فصيلة من فصائل النبات تنتمي، قبل أن يدركه الموت[1].

ج. تكوين البعثة:

تكونت البعثة من خمسة أعضاء من العلماء الشباب، اثنان منهم من الدينمارك، واثنان من ألمانيا، وواحد من السويد، تتراوح أعمارهم بين الثامنة والعشرين، والرابعة والثلاثين[2]، وينتمون إلى تخصصات علمية مختلفة: فالبروفسور فريدرش كرستيان فون هافن (Friedrich Christian Von Haven)، الدينماركي الجنسية، متخصص في علوم اللغة. والبروفسور بيتر فورسكال (Peter Forskal)، السويدي الجنسية، متخصص في علوم الطبيعة والنبات. والمهندس كارستن نيبور (Carsten Niebuhr)، الألماني الجنسية، متخصص في الرياضيات والفلك والجغرافيا. والدكتور كرستيان كارل كرامر (Christian Carl Cramer)، الدينماركي الجنسية، متخصص في الطب، والطبيعة أيضاً. وجيورج قلهلم باورنفايند، (Georg Wilhelm Baurenfeind) الألماني الجنسية، متخصص في الرسم[3]. وقد خضعت البعثة لإعداد علمي خاص، امتد عدة سنوات، كان الهدف منه استكمال جوانب النقص في تخصصات أعضائها. فنيبور مثلاً كان تخصصه الأصلي مسح الأراضي، ولذا فقد كان عليه أن يتعمق في دراسة الرياضيات والفلك والجغرافيا، حتى يصبح مؤهلاً للقيام بالمهمة الموكلة إليه. وإلى جانب هؤلاء الخمسة أُلحق بالبعثة خادم سويدي، هو برجّرين (Berggren).

وقد حددت التوجيهات الملكية المهام العلمية لأعضاء البعثة بدقة. أما المهام الإدارية، فقد كان من المفترض أن يتولى البروفسور الدينماركي فون

(١) Lohmeier, Niebuhr, S. 30. u. Hansen, Reise, S. 261.
(٢) Hansen, Reise, S. 9 - 10.
(٣) Lohmeier, Niebuhr, S. 59 - 60. U. Hansen, Reise, S. 11.

هافن رئاسة البعثة، إلا أن سلوكه خلال سنوات الإعداد قد أثار قلقاً لدى كل من البروفسور ميشائيلس والوزير بير نشتورف، وخشيا أن تؤدي طبيعته الميالة إلى الإهمال والتسويف واختلاق الأعذار إلى فشل البعثة. وخوفاً من أن يؤدي تعيين شخص آخر لرئاسة البعثة إلى خلق جو من التوتر والمشاحنات، حيث كان فون هافن قد هيأ نفسه لرئاستها، فقد أُلغيت فكرة تعيين رئيس للبعثة واكتفي بتعيين نيبور أميناً لماليتها، وأكدت المادة السادسة من التوجيهات الملكية أن أعضاء البعثة متساوون، ولا يملك أحد منهم سلطة على الآخرين، وأن قراراتهم المتعلقة بإدارة عمل البعثة، يجب أن تتخذ من خلال مناقشة جماعية، وبأغلبية الأصوات[1].

د. خط الرحلة:

كان من المفترض أن تتجه البعثة إلى اليمن، عن طريق الخط البحري الدائر حول إفريقيا، إلى مستعمرة ترنكبار (Trankebar) في الهند، ومنها إلى اليمن[2]. وكان هذا هو الخط الذي اقترحه البروفسور ميشائيلس في رسالته إلى الوزير بيرنشتورف، عندما طرح عليه فكرة البعثة، بشكلها الأولي البسيط، إلا أنه قد صرف النظر عن هذا الخط، أثناء فترة إعداد البعثة، باقتراح من الوزير بيرنشتورف نفسه، كما روى ذلك البروفسور ميشائيلس. وحدد خطاً جديداً، أكثر كلفة، ولكنه بحسب رأي بيرنشتورف وميشائيلس، أكثر فائدة علمية[3]، وقد تضمنت التعليمات الملكية (المادة ٣) تحديداً واضحاً لخط الرحلة الجديد، حيث تبدأ الرحلة من كوبنهاجن، عبر البحر إلى القسطنطينية، فالإسكندرية، ثم براً إلى القاهرة، ومنها إلى جبل سيناء، ثم من

(١) Lohmeier, Niebuhr, S. 58.
(٢) Lohmeier, Niebuhr, S. 61 - 63.
(٣) Lohmeier, Niebuhr, S. 58.

السويس عبر البحر الأحمر إلى اليمن، لتبقى في اليمن سنتين إلى ثلاث سنوات[1].

وحتى لا يبقى مجال للإلتباس، وخاصة أن البعثة قد أجرت أبحاثها في مصر وعلى امتداد خط الرحلة إلى اليمن، ثم واصل نيبور أبحاثه في طريق عودته إلى أوروبا عبر الهند وعمان وإيران والعراق وسورية وقبرص وفلسطين ولبنان وتركيا. إلخ.، لا بد أن نؤكد هنا، أن محور الرحلة قد تركز حول إجراء أبحاث في (العربية السعيدة)، فقد كانت منذ بدء الرحلة، وحتى انتهائها. هدف الرحلة، والمجال الرئيسي لأبحاثها.

انطلقت البعثة في رحلتها من كوبنهاجن في ٤ يناير ١٧٦١ م. ووصلت القسطنطينية في ٣٠ يوليه من العام نفسه، بعد أن توقفت في عدة موانىء أوروبية. وفي ١١ أغسطس غادرت البعثة القسطنطينية إلى الاسكندرية، لتصلها في ٢٦ من الشهر نفسه. ومن الإسكندرية إلى القاهرة، حيث وصلتها في ١٠ نوفمبر. وبعد أن مكثت في مصر حوالي عام، غادرت القاهرة في ٢٨ أغسطس ١٧٦٢ م باتجاه السويس، لتصلها في ٣١ أغسطس. ومن السويس قام بعض أعضائها فون هافن ونيبور برحلة إلى جبل سيناء. وفي ١٠ أكتوبر غادرت البعثة مدينة السويس بحراً باتجاه اليمن، ووصلت ميناء جدة في ٢٩ أكتوبر، وغادرته في ١٩ ديسمبر، ووصلت ميناء اللحية في ٢٩ ديسمبر. ومن ميناء اللحية بدأت البعثة أبحاثها في اليمن.

أما خط الرحلة، الذي سلكته داخل اليمن، فقد كان على النحو التالي:

غادرت البعثة اللحية في ٢٢ فبراير ١٧٦٣ م ووصلت بيت الفقيه في ٢٥ فبراير. ومن بيت الفقيه، قامت برحلات فرعية متفرقة، أهمها رحلات نيبور إلى غليفقة، والحديدة، وزبيد، ورحلته الجبلية المشتركة مع فورسكال، باتجاه

(١) Lohmeier, Niebuhr, S. 61.

العدين وجبلة وتعز ثم العودة إلى بيت الفقيه عن طريق (بلاد ابن عقلان) وحيس. وفي ٢٠ إبريل غادرت البعثة بيت الفقيه إلى المخا حيث وصلتها في ٢٣ إبريل. وفي ٩ يونيه غادرت المخا إلى تعز، بعد أن دفنت في المخا أول فقيد من أعضائها، وهو البروفسور فون هافن، الذي وافته المنية في ٢٥ مايو ١٧٦٣ م، متأثراً بالملاريا. وفي ١٣ يونيه وصلت البعثة إلى مدينة تعز، وغادرتها في ٢٨ يونيه باتجاه صنعاء، عبر مدينة إب وجبل سمارة، إلى يريم، التي وصلتها في ٥ يوليو، ودفنت فيها الفقيد الثاني من أعضائها، وهو البروفسور بيتر فورسكال، الذي توفي في ١١ يوليو ١٧٦٣ م، متأثراً بمرض الملاريا أيضاً. وفي ١٣ يوليو غادرت البعثة مدينة يريم، عن طريق ذمار، لتصل إلى صنعاء في ١٦ يوليو ١٧٦٣ م. وبعد إقامة قصيرة في صنعاء، قابلت البعثة فيها الإمام المهدي عباس، غادرتها في ٢٦ يوليو، باتجاه المخا، عن طريق مفحق وبيت الفقيه. وفي ٥ أغسطس وصلت المخا، لتغادرها باتجاه الهند في ٢٣ أغسطس من العام نفسه. وفي طريق العودة قضت الملاريا على أعضاء البعثة الآخرين، ما عدا نيبور فمات الرسام جيورج فلهلم وباور نفايند في ٢٩ أغسطس ١٧٦٣ م، قرب جزيرة سقطرة، ومات خادم البعثة برجّرين في ٣٠ أغسطس، أي في اليوم التالي لوفاة باور نفايند[1]، وقذف بجسديهما إلى البحر. أما الطبيب كرستيان كارل كرامر فقد توفي يوم ١٠ فبراير ١٧٦٤ م في مدينة بومبي بالهند[2]. وظل نيبور يواصل مهمة الرحلة منفرداً، ليتولى وحده في النهاية الإجابة على الأسئلة العلمية، التي كان على البعثة أن تجيب عليها مجتمعة، كل في مجال تخصصه، حيث عاد إلى الدينمارك في شهر نوفمبر عام ١٧٦٧ م.

هـ. المصاعب التي واجهتها البعثة في اليمن:

لا بد أن نقرر بداية أن المصاعب التي واجهتها البعثة في اليمن لم تترك

(١) Hasen, Reise, S. 336.

(٢) Baumhauer, Arabien, S. 72. U. Hansen, Reise, S. 345.

لدى نيبور انطباعاً سلبياً عن اليمن، ولم تعكس نفسها على أحكامه، التي ضمنها كتابيه، وصف بلاد العرب (Beschreibung Von Arabien) ووصف رحلة إلى بلاد العرب والبلدان المجاورة (Reisebeschreibung nach Arabien und den Umliegenden Ländern). فلقد كانت الجوانب الإيجابية، التي لمسها وعاشها خلال رحلته وتجواله في بلاد (العربية السعيدة)، أظهر من الجوانب السلبية، حتى بلغ تأثيرها في نفسه درجة، أخذ عندها يتلمس المبررات والأعذار الكفيلة بجعل تلك السلبيات مجرد ظواهر عرضية، لا تؤثر في الحكم العام على اليمن وأهله، وأخذ يعقد المقارنات، كلما وجد فرصة في سياق كتابه، بين أهل اليمن وعاداتهم وأخلاقهم ومعاملتهم للأجانب، وبين أهل مصر والأتراك، وهما البلدان اللذان كان قد مكث فيهما بعض الوقت، أثناء رحلته، قبل وصوله إلى اليمن. بل وفي مرار كثيرة، أخذ يقارن بين كرم وسماحة وترحاب أهل اليمن، وبين الأوروبيين في بلادهم. وتنتهي هذه المقارنات، عادة، لصالح سكان اليمن.

ولعل أبرز الصعوبات قد تولدت عن كون أعضاء البعثة قد وجدوا أنفسهم في بيئة مختلفة تماماً عن بيئتهم، ثقافياً واجتماعياً وجغرافياً ودينياً.. إلخ.. وكان مرض الملاريا هو أصعب الصعوبات، التي صادفت البعثة، وأجبرتها على تغيير خططها بصورة جذرية. فقد أصيب جميع أفراد البعثة، دون استثناء، بالملاريا في تهامة، وقضوا نحبهم الواحد تلو الآخر، بسبب هذا المرض. ولم تترك يد الموت سوى نيبور. ومع أن هذا المصير العجيب كان كفيلاً بأن يجعل نيبور يغير من نظرته إلى اليمن، وهو أمر متوقع ومفهوم، فبسببها فقد جميع رفاق الرحلة، وعلى رأسهم أهم أعضاء البعثة، صديقه فورسكال، إلا أن نظرة نيبور في الواقع لم تتأثر بهذا الأمر، على خلاف ما ذهب إليه بعض من كتبوا عن الرحلة، وحاولوا أن ينطقوا النصوص - نصوص كتابي نيبور - بما ليس فيها، فيزعمون، كما هو الحال بالنسبة لتوركلد هانزن Thorkild Hansen، أن نيبور، بسبب ما واجهه في اليمن، لم يعد يستخدم في كتاباته

اسم (العربية السعيدة)، واكتفى باسم (اليمن)، إذ إن هذه البلاد «لا يمكن بالنسبة له أن تبقى موطن السعادة على الأرض»[1]، أما نيبور نفسه فقد كان له رأي آخر. ولنقرأ معاً ما كتبه في مقدمة كتابه (وصف بلاد العرب) حول هذا الأمر:

«يخطىء المرء، إذا ظن أن رفاق رحلتي - نظراً لوفاتهم الواحد تلو الآخر - قد قضوا نحبهم بسبب وباء أصيبوا به. إني أعتقد، بالأحرى، أننا نحن أنفسنا كنا السبب فيما حصل، وأنه يمكن لغيرنا أن لا يقعوا فيما وقعنا فيه. لقد كانت مجموعتنا كبيرة، الأمر الذي لم يمكننا من التكيف سريعاً مع طبيعة الحياة في هذه البلاد. وفي أشهر كثيرة لم نكن نتمكن من الحصول على مشروبات كحولية قوية، كما نحن متعودون. وفي الوقت نفسه كنا باستمرار نتناول طعامنا المكون بصورة رئيسية من اللحم، وهو طعام يعتبر في البلدان الحارة غير صحي. وكنا نجد البرودة في الليل بعد نهار حار، ممتعة، بحيث كنا نعرض أنفسنا لها بارتياح. كما أننا لم نعط اعتباراً لاختلاف الحرارة بين الجبال والسهول، وهو أمر كان يجب أن نراعيه. لقد سلكنا طرقاً وعرة. وكانت رحلاتنا على تلك الطرق تتم بشكل سريع، ودون توقع كاف للراحة، وذلك من أجل أن نتمكن من التعرف على داخل البلاد. وكنا أحياناً نواجه مضايقات من الأهالي، ولكن لعل ذلك يرجع إلى أننا لم نكن قد عرفنا أهالي هذا البلد بما فيه الكفاية، الأمر الذي كان يجعلنا غالباً نعتقد، وبدون وجه حق، أن شكوانا لها ما يبررها، دون أن نضع في اعتبارنا، أنه حتى في أوروبا نفسها، لا يستطيع المرء دائماً أن يسافر دون مضايقات»[2].

وإلى جانب مرض الملاريا كأبرز الصعوبات التي واجهت البعثة وأثرت في عملها وفي نتائج رحلتها، واجهت البعثة صعوبات أخرى أقل حدة، فبعد

(١) Hansen, Reise, S. 341.

(٢) Niebuhr, C. BVA, S. IX - X.

إقامة مريحة في اللحية، كان أعضاء البعثة فيها موضع حفاوة وتكريم من قبل عامل اللحية وتجارها ومواطنيها غادرت إلى بيت الفقيه، لتتمتع هناك بإقامة مريحة أيضاً ولتنجز أهم الأعمال العلمية عبر رحلات قصيرة في مناطق تهامة، وفي مناطق الجبال القريبة. ومن بيت الفقيه غادرت إلى المخا. وفي المخا بدأت الصعوبات تتوالى، فعامل المخا يختلف عن مثيليه في كل من اللحية وبيت الفقيه. وموظفو الجمارك أقل لطفاً من موظفي جمركي اللحية وبيت الفقيه. ولذا فقد تم تفتيش أمتعة البعثة، التي كانت قد أرسلتها بحراً من اللحية، تفتيشاً دقيقاً، وفتحت الزجاجات التي وضع فيها فورسكال مجموعاته البحرية، فصدرت عنها روائح مزعجة، استاء منها كل من تجمع في مبنى الجمرك، من المواطنين والموظفين، وكان بين الحيوانات المحفوظة بعض الحيّات، فانطلقت الإشاعة سريعاً، بأن هؤلاء الأوروبيين يضمرون نوايا سيئة تجاه اليمنيين، وأنهم ينوون تسميمهم، بما سيستخلصونه من سم الحيّات. ونظراً لهذا الوضع، توقف الموظفون عن فحص الأمتعة، وامتنعوا عن تسليمها إلى أصحابها. وعاد أفراد البعثة، ليجدوا أن صاحب البيت، الذي كان قد قبل تأجيرهم إياه، قد أخرج أدواتهم منه، ورفض السماح لهم بالمبيت فيه، بتحريض من صديقهم صالح. وامتنع سكان مدينة المخا عن إيوائهم، حتى تدخل قاضي المدينة لدى أحد السكان. وبعد ذلك عانت البعثة من عامل المخا، الذي لم يلطف من معاملته إلا بعد أن تسلم هدية من البعثة مقدارها خمسين دوكاتن. وقد تطوع صديق البعثة واسمه صالح، وهو شاب كان قد رافق البعثة في رحلتها البحرية من ميناء جدة، وواصل الرحلة مع السفينة إلى المخا وتحملت البعثة عنه أجرة السفينة، لأنها وجدته شخصاً لطيفاً(*)، تطوع لمضايقة

(*) كانت البعثة قد وثقت بذلك الشاب إلى درجة أنها بعثت معه معظم أمتعتها إلى ميناء المخا بما فيها مجموعات فورسكال وذلك عندما قررت أن تنزل في ميناء اللحية وتواصل السفر براً إلى المخا.

البعثة متخلياً عن لطفه، بعد أن يئس هو ووالده من ابتزازها، وكان والد صالح هذا واحداً من تجار المخا.

وبعد أن دفنت البعثة أول فقيد من أعضائها، وهو فون هافن، أرادت أن تغادر المخا، باتجاه صنعاء، إلا أن عامل المخا رفض أن يسمح لها بذلك، إلا بعد وصول إذن من الإمام. وبعد جهد، ولاعتبارات صحية، سمح لها أن تغادر إلى تعز، لعل أفرادها، وخاصة نيبور وفورسكال اللذان كان المرض قد أدركهما، يجدون في مناخ تعز اللطيف، فرصة للاستشفاء؛ على أن تنتظر هناك حتى يصل إذن من الإمام بالتوجه إلى صنعاء.

ورافق البعثة، في رحلتها من المخا إلى تعز، خادم من خدم عامل المخا، ليكون عيناً للعامل عليها. وقد سبب ذلك الخادم للبعثة الكثير من المضايقات. وفي تعز بدا عاملها غير مكترث بوجود أعضاء البعثة، إلا أنه قد حظر عليهم الصعود إلى جبل صبر، بسبب المشاكل التي كانت ناشبة بينه وبين بعض قبائل الجبل. وفجأة طلب العامل منهم الرجوع إلى المخا، حيث وصلته رسالة من عامل المخا، يطلب فيها عودتهم. وبينما هم يحاولون إقناع عامل تعز بالبقاء لديه، حتى تصل أوامر الإمام، إذا برسالة تأتي من عامل المخا، تشعرهم أن الإمام قد سمح لهم بالسفر إلى صنعاء. ويتضح أمر الرسالة السابقة، فإذا هي رسالة مزورة، كان وراءها خادم عامل المخا.

وبدأ عامل تعز يناور ويمارس ضغوطه عليهم، بغية إبتزازهم، فمرة يسمح لهم بالسفر، ومرة يمنعهم. ولم يكف عن ذلك إلا بعد أن تدخل قاضي تعز وكتب له: «لا تكن طماعاً مع هؤلاء، فهم أناس أغراب»(١).

ومع بدء الرحلة إلى صنعاء وقع فورسكال مرة أخرى فريسة لمرض الملاريا، بعد أن كان قد تماثل للشفاء. فأصبحت الرحلة، بسبب مرضه، أكثر

(١) Niebuhr, C. RB, Bd.1, S. 391.

صعوبة. فقد بلغت حالته من السوء جداً كان لا بد عنده من حمله على نقاله، أو ربطه فوق أحد الجمال. ووقع نيبور بدوره فريسة للمرض أيضاً، إلا أنه استمر، رغم ذلك، متحاملاً على نفسه، يستفسر دون انقطاع، عن أسماء القرى ويقيس الارتفاعات، ويحدد الاتجاهات، ويحسب المسافات، ليحملها جميعاً في نهاية النهار على خارطته التي كان يعمل على وضعها لليمن.

ووصلت البعثة إلى يريم، بعد عناء شديد. وفي يريم صادفت أصعب المواقف، حيث عوملت من قبل الأهالي معاملة قاسية، فرجمت نوافذ الدار التي استأجرتها بالحجارة، وتوفي فورسكال، أكبر علماء البعثة، متأثراً بمرضه، ودفن جثمانه في ظروف قاسية، أثناء الليل، وعلى عجل، خوفاً من الأهالي، في قطعة أرض اشترتها البعثة لدفنه. وبعد دفنه أخرجت جثته من قبل اللصوص، ونزع الكفن عنها، ثم تركت خارج القبر، فأمر العامل أحد اليهود بإعادتها إلى القبر، وسمح له أن يأخذ الصندوق، الذي كانت قد وضعت فيه كأجر له على قيامه بدفنها.

واعتبر عامل يريم نفسه وريثاً شرعياً لفورسكال، وأصر على أخذ جزء من أدواته ومخلفاته. ولما لم تجد البعثة بداً من الإذعان لطلبه وافقت أن تسلمه ما يريد شريطة أن يحرر لها استلاماً مكتوباً بذلك. فإذا به يصرف النظر عن حقه الشرعي. وقد عبر نيبور عن اعتقاده أن العامل قد صرف نظره عن الإرث، لأنه كان يعرف أن البعثة ستواصل سفرها إلى صنعاء وخشي أن تطلع وزير الإمام على تصرفه[1].

هذه هي الصعوبات التي تستحق الذكر هنا. وإلى جانبها كان هناك الكثير من التسهيلات وحسن الإستقبال والمعاملة الطيبة، التي لقيتها البعثة، وتحدث عنها نيبور بإعجاب وارتياح. وسنأتي على ذكر بعضها في سياق حديثنا عن انطباعات نيبور عن اليمن.

---

(١) Niebuhr, RB, Bd.1, S. 404 - 405.

و. الأهمية العلمية للرحلة وأهم إنجازاتها:

تعتبر رحلة البعثة الملكية الدينماركية - أو رحلة نيبور كما عرفت فيما بعد - أول رحلة أوروبية إلى اليمن، خطط لها تخطيطاً علمياً منهجياً[1]، من ناحية، وأول رحلة ذات نتائج علمية حقيقية، من ناحية أخرى. فقد شملت حصيلتها مجالات عديدة، كالطبوغرافيا ورسم الخرائط والاثنولوجيا والطبيعة. . . إلخ[2] ورغم أن بعض نتائجها قد صححت أكثر من مرة، على امتداد ما يزيد على مئتي عام، إلا أنها ما زالت تتمتع بمكانة مرموقة، في نظر المهتمين بالدراسات اليمنية، ولا زالت تعتبر دليلاً ومرشداً، لا غنى عنه للرحالة، من العلماء والدارسين، ومصدراً استمدوا منه معلوماتهم الأولية، التي انطلقوا منها إلى مزيد من الاكتشافات العلمية[3]. ويذهب فون قيسمن Von Wissman، وهو واحد من العلماء الذين زاروا اليمن في الثلاثينات من هذا القرن (القرن العشرين) ونشروا دراسات وأبحاث عنها، يذهب إلى القول، أنه لا مثيل لهذه الرحلة، لا فيما سبقها من الرحلات ولا فيما تلاها. وأن هناك مناطق في اليمن، لم يتعرض للحديث عنها أحد من الرحالة بعد نيبور، وحتى الثلاثينات من هذا القرن[4].

لقد تكفلت جملة من الظروف والأسباب في جعل هذه الرحلة من أبرز الظواهر العلمية في عصرها، وإحلالها مكانة، لا زالت تتمتع بها حتى اليوم. فمن حيث الإعداد، لم تحظ رحلة علمية أخرى بما حظيت به هذه الرحلة، من إعداد علمي طويل، امتد أكثر من خمسة أعوام. ولم تشد رحلة أخرى أنظار العلماء الأوروبيين، وتثر اهتمامهم، كما فعلت هذه الرحلة. فقد تابعوا أخبارها

---

(١) Schlobies, Die Wissensch., S. 239.

(٢) انظر: Weber, Forschungsreisen, S. 4 - 5.

(٣) قارن: Baumhauer, Arabien, S. 73.

(٤) Baumhauer, Arabien, S. 20.

وبعثوا إليها من مختلف جامعاتهم بالاستفسارات العلمية، التي تمنوا أن تتمكن من الإجابة عليها[1].

ومن حيث النتائج، مثلت فتحاً علمياً كبيراً، إذ عرّفت العلماء الأوروبيين بالعربية السعيدة، التي لم يكونوا يعرفون عنها إلا القليل. وظلت حصيلتها، كما تقدم زاداً لا غنى عنه للمهتمين باليمن، من الرحالة والباحثين.

يضاف إلى ما تقدم المصير المأساوي لأعضاء البعثة، الذي لا شك أنه قد ولد تعاطفاً إنسانياً تجاههم، وجعل ما أنجزوه، ودفعوا حياتهم من أجله، موضع تقدير وإكبار. ويمكن لنا هنا أن نسوق مجرد مثل سريع لهذا الإكبار من مقالة تحدث فيها شفاين فورث Schwein Furth عن رحلته إلى اليمن عام ١٨٨٧ م:

«كان قد انقضى ١٢٨ عاماً على رحلة نيبور، التي كانت رحلة العصر، عندما وصلت في ٤ يناير من هذا العام إلى جبل برع، منطقة البن في اليمن، وبكل ما لدي من حب استطلاع، مفعم بالغرور، تمنيت أن يُنظر إلى رحلتي على أنها عمل لا بأس به، مقارنة بما أنجزه عالم النبات السويدي، الذي غدر به المناخ، فسقط هناك في اليمن،ولم يكد يبلغ السابعة والعشرين من عمره، بعد أن استطاع خلال رحلته، التي لم تتجاوز نصف عام واحد، أن يجمع كنزاً من المعلومات العلمية، التي نشرها نيبور بمساعدة العالم سويجا Soega ، في مجلد لا غنى عنه حتى اليوم، في التعرف على نباتات ذلك البلد، وسيبقى هذا المجلد، في جميع الأزمان، مثالاً يعبر عن الاجتهاد العجيب، وعن موهبة الملاحظة التي لا تضاهى لدى فورسكال الرائع»[2].

وعلى الرغم من هذه المكانة، التي احتلتها رحلة البعثة الملكية الديماركية إلى اليمن، في نظر العلماء والباحثين والرحالة، المهتمين باليمن،

(١) Hansen, Reise, S. 11.

(٢) Schweinfurth, Brifl. Mitteilungen, S. 299 - 300.

إلا أننا نعتقد استناداً إلى ما بأيدينا من مخلفاتها، أن وفاة أعضاء البعثة جميعهم، باستثناء نيبور، قد أثر تأثيراً حاسماً في نتائجها، وجعل إنجازاتها العلمية ـ على ضخامتها ـ أقل بكثير مما كان يمكن أن تنجزه، لو بقي أعضاؤها أحياء، يواصلون أبحاثهم على امتداد الرحلة، ويشتغلون بدراسة ما جمعوه من مواد ومعلومات بعد انتهاء الرحلة. وتأكيداً لما ذهبنا إليه يكفي أن نلقي نظرة سريعة على مصير المجموعات النباتية والحيوانية التي جمعها فورسكال:

أرسل فورسكال من القسطنطينية أول مجموعة من النباتات والحيوانات البحرية، التي كان قد جمعها أثناء رحلته البحرية من كوبنهاجن إلى القسطنطينية، ولكنها لم تصل إلى كوبنهاجن إلا بعد عامين، وكان الكحول الذي حفظت فيه قد تبخر وفسد الجزء الأعظم منها. ومن القاهرة أرسل ثلاثة طرود ومجموعة صناديق، مملوءة بالنباتات والحيوانات والطيور المحفوظة. ولكنها لم تصل إلا وقد عبثت بها الأيدي، ولحقت بها الأضرار. ومن مدينة السويس بعث بصندوق ضاع في الطريق. وفي ميناء المخا تم تحطيم جزء من الصناديق وفسدت محتويات الجزء الآخر منها، بسبب الحر الشديد، وطول الاحتجاز في الجمرك، وانتهى الأمر إلى رميها في البحر(*). ورغم ذلك فقد تمكن فورسكال أن يجمع، في اليمن قبل موته، ويحفظ من النباتات والحيوانات والبذور، قدر اثني عشر صندوقاً، حملها نيبور معه إلى الهند، ومن هناك أرسلها بحراً إلى كوبنهاجن، فتحطم بعضها في الطريق، ووصل بعضها الآخر بعد ثلاثة أعوام من وفاة فورسكال أي عام ١٧٦٦ م. لقد جمع فورسكال آلاف الأصناف من النباتات والحيوانات والطيور البرية والبحرية، وبلغ ما جمعه من البذور فقط، ما يزيد عن ألفي صنف، كما يستدل من القوائم التي أثبتت فيها أسماء تلك الأصناف، وقد بعث بجزء من البذور إلى بعض الجامعات

(*) كان فورسكال قد جمع محتويات تلك الصناديق قبل وصوله اليمن وأرسلها بحراً إلى المخا. انظر هامش ص ٤٢ من هذا البحث.

الأوروبية، في كوبنهاجن ولندن وباريس ولايدن وغيرها، ووصل معظمها سليماً.

وقد خلف فورسكال، إضافة إلى ما تقدم، وإضافة إلى يومياته العديد من الملاحظات المكتوبة، وتصنيفات المواد التي جمعها، وموضوعات حول العادات والتقاليد واللغة والتاريخ والدين والتربية والبضائع والأسعار والعملات والأوزان. إلخ.. وقد آلت جميعها إلى الإهمال، ولم يستطع ميشائيلس ولا أستاذ فورسكال - ليني - أن ينقذاها من قبضة الروتين والإهمال والصراعات والمنافسات، ولم ير النور منها إلا ما ضمنه نيبور في كتابيه، أو ما تم استنباته من بذور في الجامعات التي أرسلت إليها، أو ما تمكن نيبور من نشره باسم صديقه فورسكال، وكان هذا لا يمثل شيئاً، قياساً بما كان قد تم جمعه. وقد فقدت حتى يوميات فورسكال، ولم يتم العثور عليها إلا في عشرينات هذا القرن (أي القرن العشرين)، وتم طبعها في عام ١٩٥٠، أي بعد حوالي مئة وتسعين عاماً من موت فورسكال[١] وكأنما قد تنبأ فورسكال بالمصير الذي ستنتهي إليه جهوده، ففي رسالة كتبها إلى أستاذه ليني، وهو في بيت الفقيه، في ١٨ أبريل ١٧٦٣ م، أي قبل وفاته بأقل من ثلاثة أشهر، ليزف إليه بشرى اكتشافه شجرة البلسم، التي يسميها اليمنيون (أبو شم)[٢]، وردت العبارات التالية «... حقيقة إن هذا بلد يستحق أن تأتي إليه بعثة علمية متخصصة في علم النبات... ولكن إذا لم يقدر لي أن أعيش إلى ذلك اليوم الذي أتمكن فيه من أن أناقش ما جمعته مع السيد أرشياتر Archiater ، فإن خسارتي، وخسارة العلم ستكون أكبر مما يستطيع الإنسان وصفها»[٣].

ولم تقتصر خسارة العلم على عدم تمكن فورسكال من مناقشة ما جمعه

(١) Hansen, Reise, S. 306 Ff.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 352.

(٣) HAnsen, Reise, S. 261 - 262, 305.

بل إن موته قد حرم العلم من تسجيل أي ملاحظات جديدة حول النباتات والحيوانات وغيرها مما يدخل ضمن تخصص علماء الطبيعة[١].

ورغم الخسارة الفادحة، فإن ما بذله نيبور من جهد غير عادي بهدف تحقيق نوع من التعويض، قد أبقى هذه الرحلة معلماً هاماً في سياق الرحلات العلمية الاستكشافية، التي قدمت من أوروبا إلى المنطقة العربية، وجعلها تحتل مكانتها المتميزة كما تقدم.

ولعل أهم الإنجازات التي بين أيدينا، إضافة إلى ما تبقى من مجموعات فورسكال ويومياته، وإلى ما خلفه رسام البعثة بورنفايند من رسوم، سجل فيها معالم البيئة اليمنية، الاجتماعية والطبيعية، هي ما أنجزه نيبور، وتتمثل بالخارطة التي وضعها لليمن، وتعتبر أول خارطة لليمن تتصف بقدر كبير من الدقة والتفصيل، وبكتابيه الهامين: (وصف رحلة إلى بلاد العرب والبلاد المجاورة الأخرى)، في ثلاثة مجلدات. و (وصف بلاد العرب) في مجلد واحد. وسوف نتحدث عنهما فيما بعد.

ز. لماذا أسرعت البعثة في مغادرة اليمن:

قبل أن نختتم الحديث عن البعثة بإجمالها، نود هنا أن نسرد الأسباب التي جعلتها تسرع في مغادرة اليمن. فقد كان من المقرر، وفقاً للتوجيهات الملكية، أن تمكث البعثة عامين إلى ثلاثة أعوام[٢]. لكنها لم تبق سوى سبعة أشهر. وقد حرص نيبور على إيضاح هذه الأسباب في كتابه (وصف رحلة إلى بلاد العرب والبلدان المجاورة الأخرى) فقال:

«لقد عوملنا في صنعاء بلطف وترحاب، أكثر مما كنا نتوقع، حتى أن العديد من الأعيان، قد بذلوا جهدهم لإقناعنا، بأن نترك السفينة الإنجليزية[*]

(١) Niebuhr, C. RB, Bd. 2, Vorwort.

(٢) Lohmeier, Niebuhr, S. 61.

(*) كانت البعثة قد عقدت العزم، وهي في المخا أن ترحل مع سفينة إنجليزية، كانت راسية هناك، وتحدد رحيلها في أول سبتمبر ١٧٦٣ م.

ترحل، وأن نبقى عاماً آخر في اليمن. وعلى الأرجح فإنه كان يمكن أن نبقى عاماً آخر دون أن نصادف أية متاعب من قبل الأهالي. ولكن لأن البروفسورين(*) قد ماتا ولا يستطيع أحدنا أن يسجل أية ملاحظات جديدة حول اللغة والطبيعة. ولأنني كنت قد شاهدت معظم المدن الغربية، في هذه المملكة الصغيرة، ووضعت المخطط الأساسي لخارطة اليمن. ولأننا كنا قد سمعنا الكثير عن طبائع الإمام الحاكم الجشعة. ولأننا كنا قد دخلنا في شجار شديد مع كل من حاكم المخا وحاكم تعز، ولا زلنا نخشى أن نقع في إشكالات جديدة معهما. ولأن المتاعب المستمرة الناتجة عن اختلاف الطقس والمياه، بين السهل والجبل، جعلتنا غير قادرين على التكيف. لهذا كله قررنا أن نرحل إلى المخا، ومنها إلى الهند، حفاظاً على سلامتنا وسلامة أوراقنا»[1].

وهكذا وجدت البعثة أن بقاءها عاماً كاملاً في اليمن، بعد أن قضت حوالي سبعة أشهر، لن يحقق فوائد علمية، تقاس بالمتاعب الصحية والإدارية المحتملة. لهذا قررت الرحيل، قبل انقضاء المدة الزمنية، التي كان مقرراً أن تمكثها في اليمن، بعد أن عاشت أشهراً مليئة بالعمل والبحث والمشاق والمرض والموت في آن واحد.

٢ . كارستن نيبور Carsten Niebuhr :

أ . شخصية نيبور:

كما يصنع المحققون، عندما يريدون أن يتحققوا من صحة الرواية التاريخية، فيخضعونها لعملية نقد ظاهري وباطني، تبدأ بدراسة شخصية الراوي، لما لشخصيته من تأثير على مصداقية الرواية نفسها، نجدنا مسوقون هنا إلى التعرف على شخصية نيبور لنتلمس من خلال ذلك، مدى دقته

(1) Niebuhr, C. RB, Bd.1, S. 425.

(**) يقصد بالبروفسورين البروفسور فون هافن والبروفسور فورسكال، وكانا الوحيدين اللذين يحملان هذا اللقب العلمي من بين أعضاء البعثة.

وصدقه، في تسجيل ملاحظاته ومعلوماته.

ومن حسن الحظ أن المادة التي بين أيدينا تقدم لنا صورة واضحة عن نيبور ليس فقط من خلال معلومات عن طفولته ونشأته وتعليمه، وإنما أيضاً من خلال مواقف تدل على أخلاقه، ترتبط ارتباطاً مباشراً بالرحلة نفسها.

ولد نيبور في ١٧ مارس ١٧٣٣م في منطقة ريفية، قرب مدينة هامبورج، في شمال ألمانيا، من أسرة فلاحية، لا علاقة لها بالعلم، ولم تكن القراءة والكتابة أمراً هاماً بالنسبة لها. وتوفيت والدته وهو في الشهر السادس من العمر، وتولت مسؤولية تربيته زوجة أبيه، وبدأ يعمل في الحقل في سن مبكرة. ولم يسمح له والده بالالتحاق بالمدرسة، إلا بعد محاولات إقناع متكررة وجهد كبير. ولكنه ما إن بدأ يتعلم القراءة والكتابة، حتى مات والده، وتوقف عن الذهاب إلى المدرسة، بناءً على أوامر الوصي، الذي رأى في المدرسة ترفاً لا معنى له.

كانت الأرض التي خلفها له والده لا تكفي لأن يعيش منها مستقبلاً، لهذا فكر بنوع من التعليم يستطيع أن يعتمد عليه في حياته. على أن لا يشترط هذا النوع من التعليم دراسة مسبقة. وهكذا اتجه إلى دراسة الموسيقى، وبالذات إلى تعلم العزف على آلتي الكمان والناي. ولكنه اضطر بعد فترة وجيزة إلى التوقف عن دراسة الموسيقى، نزولاً عند رغبة الوصي، وأخذ يعمل كفلاح أجير، لدى الوصي نفسه، حتى بلغ سن الرشد، وانتهت فترة الوصاية، عندها عاوده التفكير في تعلم مهنة يعيش منها. وقد هداه تفكيره، وهو يلاحظ أنه كلما نشب خلاف حول حدود الأراضي الزراعية يضطر المزارعون إلى استقدام مساح للأراضي من مدينة هامبورج، أن يتعلم مهنة مسح الأراضي. ولكن تعلم هذه المهنة يتطلب بعض المعارف السابقة، لذا اتجه نيبور إلى مدينة هامبورج

(1) للمزيد حول حياة (نيبور) انظر: Niebuhr, B.G., Carsten Niebuhrs Leben, S. 2 FF.
وكذا: Hansen, Reise, S. 33 ff.

والتحق، وهو في الثانية والعشرين من عمره، في إحدى المدارس، ليتلقى في وقت قصير التعليم الابتدائي، الذي كان يفترض أن يتلقاه في طفولته. وقد استطاع بإصراره وجده أن يلتحق سريعاً بالثانوية العامة. وفي عام ١٧٥٧م استطاع، وهو في الرابعة والعشرين من عمره، أن يسجل في جامعة جوتنجن لدراسة الرياضيات. وسرعان ما لفت انتباه أستاذ الرياضيات، البروفسور كيستنر Kästner، الذي أخذ يوليه عنايته، وبذل جهداً لتأمين منحة دراسية له.

انكب نيبور على الدراسة بكل طموحه وبكل رغبته في التعلم، بعد حرمان طويل، وتركزت دراسته في البدء في الرياضيات وعلم الفلك. وفي يوم من أيام صيف ١٧٥٨م فاجأه أستاذه بسؤاله عما إذا كان يرغب في السفر إلى البلاد العربية. وكان رده بالإيجاب، فليس لديه ما يربطه بأحد في قريته، ولديه رغبة جامحة للتعرف على العالم الواسع. ولما أخبره أستاذه عن البعثة المزمع إرسالها، من قبل ملك الدينمارك أبدى تردده، إذ إن المشاركة في مثل هذه البعثة يتطلب درجة عالية من المعرفة. لكن أستاذه طمأنه وأكد له أن هناك سنوات إعداد علمي متخصص ستسبق إرسال البعثة.

وهكذا كان. أُعد نيبور علمياً، على أيدي أساتذة متخصصين، من أجل هدف محدد، وهو المشاركة في الرحلة إلى العربية السعيدة، في وقت كان فيه رفاق الرحلة على وشك إنهاء دراساتهم الأكاديمية المنتظمة.

بعد هذه اللمحة السريعة عن حياة نيبور، منذ طفولته، وحتى التحاقه كعضو في البعثة الملكية الدينماركية - وهي لمحة نستشف منها بعض خصائص نيبور الدالة على شخصيته الجادة، وعزيمته القوية، وقدرته على تحديد أهدافه، والسعي دون كلل لتحقيقها، وعلى قوته الداخلية، وقدرته على التكيف - سوف نستعرض بإيجاز، بعض المواقف، ذات العلاقة بالرحلة. وهي مواقف من شأنها أن تجعلنا نقترب أكثر من شخصية نيبور وأخلاقه.

كان فورسكال قد حصل على الدكتوراه، كما منح فون هافن فرصة

للحصول على الدكتوراه بشكل سريع في الفترة التي سبقت بدء الرحلة، كما كفل لهما مرتب تقاعدي في المستقبل ومنحا بناءً على طلبهما لقب بروفسور كمقابل للاشتراك في الرحلة. وعندما سأل بيرنشتورف نيبور فيما إذا كان يرغب هو أيضاً في أن يمنح هذا اللقب كزميليه رد بالرفض، لأنه لم يحصل بعد على درجة الماجستير، فعرض عليه أن يمنح لقب (كابتن) لكنه رفض أيضاً لأن مثل هذا اللقب لا يتناسب مع سنه. وقد برر رفضه قائلاً: «إنني كبروفسور أو كابتن لا بد أن أشعر بالخجل إذا تبين يوماً من الأيام إنني لم أتعمق بما فيه الكفاية في أبحاثي الرياضية»[١]. وبعد لحظة صمت، كان فيها بيرنشتورف ينظر إلى نيبور متفحصاً متعجباً، قرر أن يطلق عليه لقب انجنير لويتنانت [*]، وهو لقب - كما يذكر هانزن - يعني باللغة الألمانية لاند فرميسر Landvermesser أي مساح أراضي[٢].

وقد اتفق كل من بيرنشتورف والبروفسور ميشائيلس، على اختيار نيبور، ليكون مسؤولاً عن مالية البعثة، لما لاحظاه عليه من صدق وتواضع، وهما فضيلتان كفيلتان بجعل المرء يعرف حدوده ويلتزم بها.

وفي ميناء اللحية استقبلت البعثة استقبالاً كريماً، أثر في نفس نيبور تأثيراً عميقاً، ترك بصماته في صفحات كثيرة من كتابيه. فقد أعطيت للبعثة كل التسهيلات، وطلب عامل اللحية منها أن تنزل في ضيافته، وأكد لها أنها تستطيع

---

(١) Hansen, Reise, S. 39.

(٢) Hansen, Reise, S. 39.

(*) ولّد لقب انجنير لويتنانت Ingenieur-Lieutenant، الذي منح لنيبور التباساً فظن البعض أن لويتنانت هنا تعني لقباً عسكرياً ملازم فغدا نيبور لديهم ضابط البعثة. في حين أن اللقب يعني تقريباً مهندس مساح أراضي باللغة الألمانية، كما أشار هانزن. وتعني Lieu بالإنجليزية مكان أو بدل أو محل. كما أن من معاني Lieutenant بالإنجليزية موظف يحل محل أو مكان رئيسه عند غيابه. وهذه المعاني تشير بشكل أو بآخر إلى المكان أو قياس المكان، لذا فإن تفسير هانزن لهذا اللقب هو أقرب إلى الصحة.
Hansen, Reise, S. 39.
قارن:
وكذا: الرعدي، من كوبنهاجن، ص ٢٣، ٥٠.

أن تتحرك بكل حرية وأمان، وبعث إليها برأس من الغنم، احتفاءً بوصولها. وقدم لها أحد التجار أصنافاً فخمة من الطعام، لوجبة العشاء. وعرض كل من العامل والتاجر أن يدفع أجرة السفينة التي أقلتها من ميناء جدة. وهنا يرفض نيبور هذا العرض، ويقوم بدفع أجرة السفينة، باعتباره المسؤول عن مالية البعثة. وقد عبر عن إحساسه تجاه هذه المعاملة الكريمة، بقوله: «إنه من غير المحتمل أن تلقى بعثة عربية في أوروبا، من قبل الأوروبيين مثل هذه المعاملة الكريمة»[1]. وعندما تجهزت البعثة لمغادرة اللحية، أراد عامل اللحية أن يدفع أجرة الجمال والحمير التي استؤجرت لنقل البعثة إلى بيت الفقيه، ولكن نيبور رفض ذلك بإصرار، قائلاً: «إننا لا نستطيع أن نقبل ذلك، فلم نأت إلى بلاد العرب لنعيش على حساب أهلها»[2]. ويكرر نيبور مضمون هذا القول، وهو يتحدث عن إقامة البعثة في صنعاء، وما لاقته من حفاوة وتكريم، فيقول: «إننا لا نريد أن نعيش على حساب اليمنيين»[3].

وأثناء عودة البعثة من صنعاء باتجاه المخا، كان الإمام قد زودها بأوامر إلى العمال، على امتداد الطريق، بأن يتولوا استضافتها، استضافة كاملة، أثناء مرورها في مناطقهم، إلا أن نيبور - مخالفاً بذلك رغبة مرافقي البعثة من اليمنيين الذين كانوا يرغبون في أن يتمتعوا بكرم الضيافة، ويضفوا على أنفسهم نوعاً من الأهمية والمهابة، وهم يحلون ضيوفاً على العمال - كان يصر على أخذ ما هو ضروري لمتابعة الرحلة فقط، وفي الحدود الدنيا[4]. وفي هذا الصدد يذكر هانزن، أن البعثة، عندما رحلت من اللحية إلى بيت الفقيه، حمل مرافقوها اليمنيون أوامر من عامل اللحية، إلى المواطنين في القرى والمراكز التابعة إدارياً للحية، والواقعة على خط الرحلة باستضافة البعثة. وقد نفذ

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 297.
(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, 310.
(٣) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, 416.
(٤) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, 436.

المواطنون تلك الأوامر، فكانوا يذبحون شاة كل مساء، لإستضافة البعثة، إلا أن نيبور كان يتسلسل بهدوء في كل مرة، ويدفع ثمن الشاة لأصحابها. ويعلق هانزن على تصرف نيبور هذا بقوله: «لقد رحل نيبور بعيداً في هذا العالم، ولكن ليس بعيداً إلى الحد الذي ينسى عنده ما تعنيه شاة، بالنسبة لأسرة فلاحية في ريف شمال ألمانيا»[1]. ولم أجد في كتابات نيبور ما يؤكد رواية هانزن هذه. ولعل هانزن قد انساق إليها تحت تأثير أسلوبه الأدبي القائم على تزيين العبارات وتوظيف الخيال، وقد قاده توظيف الخيال مراراً كثيرة إلى تجاوز رواية نيبور نفسه. أما رواية نيبور في هذا الصدد فتتلخص بالآتي:

اقتضت أوامر عامل اللحية أن يقدم المواطنون شاة، لاستضافة البعثة، على امتداد الطريق، من اللحية إلى بيت الفقيه. وفي اليوم الأول وصلوا إلى إحدى المدن(*)، في وقت متأخر من الليل، ولذا لم يطلبوا من المواطنين تقديم شاة لهم. ولكنهم في اليوم التالي عرفوا أن أحد مرافقيهم، من خدم عامل اللحية، قد استغل الموقف، واستخلص من المواطنين ثمن الشاة، وتقاسمه مع حامية المدينة، لذا كما يقول نيبور: «لما رأينا أن الفلاحين لا بد أن يدفعوا في جميع الأحوال فقد قبلنا بعد ذلك في مدينة الضحي، كل ما كان على الفلاحين أن يقدموه لنا، بموجب أوامر عاملهم في اللحية»[2].

وتكتمل الصورة لدينا عن شخصية نيبور إذا وضعنا في اعتبارنا طريقة حياته أثناء الرحلة، وتفانيه في عمله، وحرصه على إنجاز مهمته، حتى وهو يصارع المرض. ولا يوازي هذا الحرص، إلا توخيه الدقة، عند تسجيل ملاحظاته، وعدم أخذ المعلومات، من الأفراد، وتدوينها، إلا بعد أن يبذل جهداً، في التأكد من صحتها، وذلك بعرضها على أكثر من فرد. وعندما كان

(١) قارن: Hansen, Reise, S. 250 وكذا Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 315.
(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 315.
(*) أورد نيبور اسم المدينة هكذا: Dsjälia

لا يستطيع أن يصل في تثبته، من صحة معلومة ما، إلى درجة الاطمئنان، ويجد مع ذلك ضرورة وفائدة في تسجيلها، فإنه كان يقوم بتسجيلها مع إشارات واضحة، إلى أنه لم يتمكن من التأكد من صحتها، وأنه لا يطمئن إليها كثيراً. وسنرى في الفقرة التالية طريقة عمله، ومدى الجهد الذي بذله، في توخي الدقة.

ب . حياة نيبور اليومية وطريقة عمله:

لكي نتعرف على جزء من حياة نيبور اليومية في اليمن، ليس أفضل من أن ننقل إلى العربية، فقرات من مذكراته اليومية، التي حرص على تسجيلها، يوماً يوماً، خلال رحلته. وهو هنا يتحدث عن استعداداته للسفر في رحلة قصيرة، من بيت الفقيه، إلى غليفقة والحديدة: «لم أقم بتحضيرات كبيرة لهذه الرحلة. استأجرت حماراً يحملني ويحمل معي كيساً، فيه بعض الملابس والكتب، وكانت ملابس الرحلة تتكون من عمامة ومعطف دون أكمام وقميص عربي فضفاض ومقطب عريض وزوج من النعال. ورغم أنه لا يخشى في تهامة من اللصوص، إلا أن المرء يسافر عادة مسلحاً. كنت أحمل سيفاً وأضع مسدساً في حزامي. وكان صاحب الحمار، الذي عمل خادماً ودليلاً لي في هذه الرحلة، يسير خلفي، مسلحاً بسيف ودرع، إضافة إلى الجنبية. ويتسلح الآخرون من الفقراء العرب برمح وفأس، بدلاً عن السيف. وقد اصطحبت معي مفرشة رديئة، تخدم عدة أغراض: كغطاء للسرج عند الركوب وكمقعد وطاولة عند الجلوس، وكفراش عند النوم. واصطحبت معي مخدة، أضعها في النهار على السرج، وفي الليل تحت رأسي. وأما قطعة القماش الكبيرة، التي يضعها اليمنيون خلال النهار على أكتافهم، ويستخدمونها لحمايتهم من الشمس والأمطار. فقد كانت غطائي في الليل. وكان وعاء الماء أمراً لازماً. وقد ربطته وتركته معلقاً إلى السرج. ويصطحب المسافر اليمني معه عادة غليوناً، وسط كيس من المجلد. ولم أكن محتاجاً إلى هذا العبء الإضافي، لأن عادة التدخين لم تكن مسيطرة علي إلى درجة عدم القدرة على الاستغناء عن الغليون

أثناء الرحلة. لقد وطنت نفسي منذ بعض الوقت على أن أعيش الحياة اليمنية بصورة مرضية. ولذا لم أعد بحاجة إلى الملعقة والشوكة والسكين. إن من يجد نفسه قادراً على السفر بهذه الصورة، وهو مرتاح، ولا يفارقه الإحساس بالرضى، حينما لا يجد في أحد النُزل شيئاً غير خبز رديء، سوف يشعر بمتعة السفر في اليمن كما شعرت بها تماماً. إن وجهاء اليمنيين يسافرون على نحو مختلف يتسم بالفخفخة، إلا أن مثل هذه الطريقة، لا تتطلب فقط إنفاقاً كبيراً، ولكن أيضاً يكون السفر بها غير مريح، عندما يصطحب المسافر معه عدداً كبيراً من الخدم، وأكثر من ذلك لا يستطيع الإنسان الثري أن يسافر في جميع الأوقات، على هذا النحو، وهو متمتع بالدرجة الكبيرة من الأمان نفسها التي يتمتع بها شخص يسافر دون أن يوحي مظهره بأن لديه الكثير»[1].

وإذا كان نيبور قد وطن نفسه على أن يعيش، ويلبس ويأكل وينام، ويتنقل، كاليمنيين العاديين، لاعتقاده أن هذه هي الطريقة المثلى للسفر دون مضايقات، من ناحية، وللتعرف على الحياة بشكلها البسيط والحقيقي، وهذه هي مهمته، من ناحية أخرى، فما هي الطريقة التي عمل بها؟

كان على نيبور أولاً أن يحسب سرعة الحمار. إذ أن الحمار في اليمن ـ كما يقول ـ سيكون هو وسيلة التنقل «ليس لأن الركوب على الخيل بالنسبة للمسيحيين ممنوع، كما هو الحال في القاهرة، بل لأن المرء في هذه البلاد لا يستطيع أن يجد بسهولة خيولاً للاستئجار»[2]. وقد اكتشف نيبور ميزات في الحمار، تناسب طريقته في العمل تماماً. فهو مريح في سيره، ومنتظم في خطواته؛ إذ يخطو ١٧٥٠ خطوة مزدوجة في كل نصف ساعة. وقام أيضاً بحساب سرعة الجمل ـ رغم أن استخدامه للجمل كان نادراً ـ فوجد أن هناك نوعان من الجمال: صغير وكبير، فأما الصغير، فإنه يخطو ١٠٥٠ خطوة مزدوجة

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 222.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 311.

في كل نصف ساعة، وأما الكبير فيخطو في الزمن نفسه ٩٧٥ خطوة مزدوجة. أما الإنسان، فيخطو ١٥٠٠ خطوة مزدوجة، في الزمن نفسه. فإذا أصبحت السرعة معروفة، سهل بعد ذلك حساب المسافات، إذ يكفي، كما يقول نيبور: «أن ألاحظ فقط الزمن، الذي قطعنا فيه المسافة، من منطقة إلى منطقة أخرى، ثم أقوم بتحويل الزمن إلى خطوات مزدوجة، وهذه إلى أميال»[١]. وكان الحساب يتم وفقاً للسرعة القصوى، فإذا سار حمار وبجانبه إنسان، تحسب سرعة الحمار، لأن الإنسان، في هذه الحالة، سيضطر لكي يواصل السير مع الحمار، أن يزيد من عدد خطواته. وقد استخدم نيبور بوصلة جيب صغيرة، وبعض الأدوات الفلكية، لتحديد الاتجاهات، ولحساب ارتفاع الشمس والنجوم، حتى يستطيع أن يحدد موقع كل منطقة، أو مدينة أو قرية، بدقة، قبل تحميلها على الخارطة. وعادة ما كان يجري حساباته، وتحميلاته، في مساء كل يوم. وكان يدخل التصحيحات على ضوء المعطيات الجديدة، عند الإنتهاء من كل رحلة[٢]. وحرص نيبور أن يحمل على خارطته أسماء القرى والمدن، التي مر بها، كما حرص أن يحمل أيضاً قرى ومدن لم يرها بل استقى معلوماته عنها من الأهالي العارفين. وقد حمل على خارطته حتى ما نسميها بالمقاهي (نُزل المسافرين) المنفردة المتناثرة على امتداد الطرق الرئيسية، ورأى ذلك ضرورياً، ليستطيع الإنسان وهو يطالع الخارطة، أن يأخذ فكرة على درجة من الصحة، عن التوزع السكاني في اليمن، وهو أمر لم يهتم به «الرحالة الآخرون الذين يكتفون بملاحظة المناطق التي يمرون بها فقط»[٣].

وفي سياق عرض نيبور لطريقة عمله، وبتواضع العالم، وبإحساسه بالقصور البشري، يعتذر عما يمكن أن يوجد في خارطته من نقص، بالعبارات التالية: «لا يستطيع المرء أن يتوقع أن تكون خارطتي، التي وضعتها لليمن،

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 311-312.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S.312. U.BVA, S. XXIII-XXIV.

(٣) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S.313.

على الدرجة نفسها من الدقة، التي يستطيع إحرازها أولئك، الذين يقومون بين الحين والآخر، بوضع خرائط لمناطق أوروبية، مستخدمين في قياساتهم أدق الأجهزة»[١]. ويضيف في مكان آخر «إن أولئك الذين يدركون كم هو صعب وخطر، بالنسبة لرجل غريب، أن يقوم بأعمال مسح، ويجمع معلومات جغرافية، في بلد غريب سيكونون - كما أعتقد - راضين بما عملته»[٢]. وقد حرص نيبور على وصف المدن التي مر بها، وصفاً دقيقاً. ولذا تجول فيها، وطاف حول أسوارها، وقاس مساحاتها، وسجل أبرز معالمها، ووضع تقديرات، لعدد سكانها استناداً إلى عدد منازلها.

وتحدث عن طريقته في وصف الأرض، وتحديد الأسماء، فأشار إلى أنه لم يكن قد أطلع على مراجع عربية تعينه على تحديد أسماء المواقع المختلفة، لأن لغته العربية لم تكن بالمستوى الذي يمكنه من أن يقرأ كتباً عربية(*)، ولذا لم يصطحب معه في رحلته سوى الكتاب الجغرافي، المعروف في أوروبا منذ وقت طويل، لأبي الفداء(**). وأما الكتب الجغرافية اليونانية، فإن الأسماء فيها غير سليمة، إلى درجة أنه يصعب التعرف عليها. لهذا فقد اعتمد على مشاهداته الشخصية، وعلى ما سمعه من الأهالي. ومن الطبيعي أن ما توصل إليه لا يمثل معلومات جغرافية كاملة، فهناك أسماء قرى ومدن أوردها أبو الفداء والشريف الإدريسي(***) لم يعثر عليها، مع أنه لم يشك في وجودها. وقد تمكن من

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 312.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, BVA, S. XXIV-XXV.

(*) بدأ نيبور دراسة اللغة العربية في جامعة جوتنجن لكنه انصرف عنها لصعوبتها وعكف على مواد تخصصه ثم عاود دراستها أثناء إقامته بالقاهرة.

(**) الكتاب المشار إليه هنا هو تقويم البلدان الذي ترجم إلى الفرنسية على يد المستشرق رينو. انظر: الأعلام ١/٣١٩.

(***) استشهد نيبور مراراً بالإدريسي وهذا قد يبدو متعارضاً مع قوله إنه لم يكن قد اطلع عند زيارته لليمن إلا على كتاب أبي الفداء إلا أن أبا الفداء نفسه قد أورد استشهادات ومقارنات استند فيها إلى كتاب الإدريسي كما يمكن أن يكون نيبور قد اطلع على كتاب الإدريسي بعد رجوعه إلى أوروبا وقبل نشر كتابيه.

الحصول على معلومات عن مدن قديمة، وإمارات صغيرة في اليمن، لم تكن معروفة للأوروبيين حتى عصره[1]. ولم يستحسن ـ كما أشار ـ الرجوع إلى الكتب الجغرافية المعروفة، لاستكمال المعلومات عن المناطق التي لم يرها أو لم يتمكن من جمع معلومات عنها بنفسه[2].

وقد بذل نيبور جهده للتحقق من المعلومات الجغرافية المتعلقة بالمناطق التي لم يشاهدها. إذ كان يستفسر عنها ويعيد الاستفسار لدى أكثر من شخص. ولم يكن الأمر سهلاً فالأهالي «ليسوا على درجة واحدة من المعرفة ببلادهم، وقد لا تتوفر لديهم الرغبة، في أن يقدموا معلومات عن بلادهم للأجانب»[3]. أما كتابة أسماء المدن والقرى والجبال والوديان. . . إلخ. فقد واجه صعوبة فيها، بسبب اختلاف نطق الأهالي لها، وهذا أمر طبيعي ـ كما يقول ـ حتى في البلدان الأوروبية. وقد كتبها بحسب السمع. وحاول قدر الإمكان أن يستكتبها من قبل أحد الأهالي، باللغة العربية[4].

وقد حاول نيبور أن يجيب على الأسئلة التي كان يفترض أن يجيب عليها زميلاه المتوفيان، فون هافن وفورسكال. ولأن هذه الأسئلة بعيدة عن مجال تخصصه، فقد حاول جهده أن يجيب عليها، مستخدماً ما توفر له من معلومات، استقاها من الأهالي، أو اقتبسها من ملاحظات وإجابات متناثرة، في يوميات وأوراق فورسكال[*]. وقد اعتذر عن التقصير بقوله: «لا يستطيع المرء

(١) Niebuhr, C. RB, Bd. 1, S. XX.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. XXI.

(٣) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. XXI.

(٤) Niebuhr, C., BVA, S. XXI-XXII.

(*) في حالة الاقتباس من فورسكال، أو إيراد ما كتبه جواباً على أحد الأسئلة كان نيبور يضع في الهامش اسم فورسكال على خلاف ما يصنعه اليوم بعض الباحثين، الذين يتجاهلون قواعد الاقتباس

أن يطلب مني إجابات كاملة على هذه الأسئلة بالصورة التي كان يمكن أن يجيب بها رفيقا رحلتي»[1].

ولجأ في تفسير بعض الكلمات العبرية إلى بعض اليهود، ولأنه لم يكن يعرف التخاطب بالعبرية فقد كان يشير بإبهامه إلى الكلمات. ولما كان اليهود لا يعرفون لغة أوروبية، بل يحاولون شرح المعنى باللغة العربية، فإن نيبور لم يستطع في بعض الأحيان أن يفهم شرحهم. ويفسر عدم فهمه بأنه، وإن كان يستطيع أن يتفاهم باللغة العربية في حياته اليومية، فإنه لا يستطيع بالدرجة نفسها أن يستخدمها في حوار علمي[2].

ولقراءة الخط الكوفي، الذي تمكن من نقله في بعض المساجد والقبور، استعان بالمستشرق الدكتور رايسكه Reiske ، من مدينة لايبزج الألمانية، باعتباره كما يقول «يعرف قراءة الخط العربي القديم أفضل مما يعرفه العلماء العرب المعاصرين»[3]. وقد وافاه الدكتور رايسكه بتفسير لبعض الخطوط، واعتذر عن عدم تمكنه من قراءة البعض الآخر.

وللحصول على إجابات معينة، كان عليه أن يتوجه بالسؤال إلى بعض الأهالي، وقد تطلب منه ذلك جهداً كبيراً ـ كما يقول ـ وذلك لأنه يصعب على الرحالة، الذي يمكث فترة قصيرة في منطقة ما، أن يقيم علاقات بالعلماء المحليين، وإذا استطاع، فإنه غالباً لا يتمكن من الحصول على إجابات واضحة، فهناك عادة تحفظ واضح تجاه أسئلة الأجانب. ولذا يجد المرء نفسه مضطراً إلى أن يسأل بصورة غير مباشرة، وأن يطرح أسئلته في سياق الحديث وبشكل غير محسوس. وهذا يتطلب صبراً كبيراً ووقتاً طويلاً. وبعد ذلك كله، لا يستطيع الإنسان أن يثق، كل الثقة، بصحة الإجابات التي حصل عليها «لأن

(١) Niebuhr, C., BVA, S. XVII«XVIII.

(٢) Niebuhr, C., BVA, S. XVIII.

(٣) Niebuhr, C., BVA, S. XXV.

المرء يصادف في بلاد الشرق أناساً لا يقولون الحقيقة، إما قصداً حتى لا يطلعوا الغرباء على كل ما يريدون معرفته، أو أنهم جاهلون، ورغم ذلك يعطون إجابات ليظهروا بمظهر من يعرف كل شيء»[1]. ولم يتوقف نيبور عن استفساراته، بعد مغادرته اليمن، بل استمر يحاول استيفاء الإجابات، على الأسئلة التي بين يديه، أثناء تجواله في البلاد العربية، وهو في طريق عودته إلى أوروبا. ورغم أنه كان يفحص كل إجابة يحصل عليها، بالاستفسار لدى أناس آخرين، مراراً عديدة، إلا أنه مع ذلك ظل يعبر عن شكه في أن يكون قد تلقى إجابات صحيحة[2].

أما بالنسبة لجمع المعلومات المتعلقة بتاريخ اليمن، فقد اعتمد نيبور على ما رواه له رجل هولندي، أحب فتاة في مدينة المخا، وأراد أن يتزوجها، إلا أن مسيحيته حالت دون ذلك. فأسلم وأشهر إسلامه، وكان والد الفتاة ينتظر منه أكثر من مجرد إشهار إسلامه. ولما كانت حالة الهولندي المادية لا تسمح بإرضاء والد الفتاة. فقد امتنع الوالد عن تزويجها به، فغادر المخا. وعاش - كما يقول نيبور - في منطقة حاشد وبكيل(*)، واختلط بالعلماء، وتفقه، ودرس التاريخ. وقد نقل نيبور ما سمعه منه، بعد أن سعى إلى التأكد من صحته، عن طريق طرح أسئلة تاريخية محددة، على علماء يمنيين، صادفهم أثناء رحلته[3]. ولم يتوقف عن طرح الأسئلة التاريخية، حتى بعد مغادرته اليمن، ففي الهند استطاع أن يحصل على معلومات عن القضاء في اليمن، من عالم هندي، كان قد قضى سنوات في أكاديمية زبيد(**) [4]، كما استطاع في مسقط أن

(1) Niebuhr, C., BVA, S. XVIII.

(2) Niebuhr, C., BVA, S. XVIII.

(3) Niebuhr, C., BVA, S. 191 FF.

(4) Niebuhr, C., BVA, S. 205.

(*) قرن نيبور اسم حاشد ببكيل في جميع كتاباته وأطلق عليهما تسمية اتحاد حاشد وبكيل وقد قام هذا الاتحاد على نوع من التحالف العسكري الذي كان هدفه الوقوف في وجه الإمام وصد أي عمليات عسكرية قد يوجهها ضد القبيلتين. انظر: Niebuhr, C., BVA, S. 258 FF.

(**) هكذا يسميها نيبور في كتاباته.

يحصل على تفسير لمعنى أهل الكسا، من عالم هندي، قضى كذلك سنوات في زبيد[1]. وقد دون روايات عن أحداث تاريخية معاصرة، حصل عليها من شهود عيان، بعد أن تأكد من صحتها بطريقته الآنفة الذكر.

وإلى جانب ذلك كله أخذ نيبور يرصد عادات وتقاليد وملابس ومعاملات وطبائع السكان، ويدون يومياً وصفه لها، وملاحظاته عنها.

جـ. إنجازات نيبور وقيمتها العلمية:

سجل نيبور نتائج رحلته في عملين كبيرين:

أولهما:

كتاب بعنوان (Beschreibung von Arabien) وترجمته الحرفية (وصف العربية) وقد فضلنا أن نسميه (وصف بلاد العرب) والمقصود بالعربية أو ببلاد العرب الجزيرة العربية.

صدر هذا الكتاب في مدينة كوبنهاجن عام ١٧٧٢ م، أي بعد عودة نيبور من رحلته بحوالي خمس سنوات، ويتكون من ٤٩٠ صفحة. ويتضمن إضافة إلى المقدمات والرسوم والخرائط والجداول، موضوعات محددة، كتبها نيبور بصورة منهجية مرتبة، في محاولة منه للإجابة على الأسئلة، التي وجهها ميشائيلس والعلماء الآخرون إلى البعثة، ومنها أسئلة كثيرة، لا تدخل الإجابة عليها ضمن تخصصه، كما سبقت الإشارة. وقد قسم نيبور كتابه هذا إلى الأقسام الرئيسية التالية:

١ - **قسم عام:** أورد فيه معلومات عامة عن العرب، تناولت جوانب كثيرة من حياتهم، كالدين، بمذاهبه المختلفة، والعادات الاجتماعية والنظافة والطبائع الخلقية والطعام والشراب والمساكن والملابس واللغة وتعدد الزوجات والعلم والزراعة والحيوانات.. إلخ.

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 10 - 11.

٢ـ قسم خاص باليمن: تحدث فيه عن جوانب من تاريخ اليمن وجغرافيته وحياته السياسية والاجتماعية... إلخ.

٣ـ أقسام أخرى: خصص كل قسم منها لبلد من البلدان المحيطة باليمن: الحجاز والإحساء ونجد وعمان والإمارات المستقلة في الخليج وسيناء والإمارات اليمنية المستقلة وبعض القبائل البدوية المستقلة. وقد أفرد قسماً خاصاً بحضرموت. ولكنه أثناء حديثه عنها لم يميز بينها وبين مناطق اليمن الأخرى، فجاء حديثه، عن مملكة الإمام والإمارات اليمنية المستقلة وحضرموت، متداخلاً، كما لو أنه لم يفصلها تحت ثلاثة عناوين مختلفة. ولقد كان في حديثه المتداخل غير مختار فقد فرضت وحدة اليمن التاريخية والجغرافية عليه أن يتناولها ككيان تاريخي وجغرافي وبشري واحد، رغم وجود أكثر من كيان سياسي[1].

وقد اختتم نيبور كتابه بالحديث عن حركة المد والجزر في السواحل العربية على البحر الأحمر وبملاحظات عن انحراف الإبرة المغناطيسية. كما ضمن كتابه هذا رسوماً لعملات وأدوات ونقوش... إلخ[*].

وثانيهما:

كتاب بعنوان (وصف رحلة إلى بلاد العرب والبلدان المجاورة Reisebeschreibung nach Arabien und den umliegenden Landern) وهو عبارة عن يومياته التي سجلها خلال رحلته، منذ إقلاعه من ميناء كوبنهاجن وحتى عودته. ويقع في ثلاثة مجلدات:

المجلد الأول: صدر في كوبنهاجن عام ١٧٧٤ م، ويتكون من ٥٤٤ صفحة. ويتضمن، إضافة إلى المقدمات، وصفاً للرحلة من كوبنهاجن إلى

(١) انظر: Niebuhr, C., BVA, S. 181 FF. S. 283 FF.

(*) انظر الملحق.

القسطنطينية، إلى الإسكندرية والقاهرة ودمياط ورشيد، فالقاهرة مرة أخرى والسويس وسيناء، ثم إلى جدة ومنها إلى اللحية. وبوصول نيبور ورفاقه إلى اللحية يبدأ الجزء الخاص باليمن فيصف فيه إقامته وتجواله في اللحية، ثم رحلته إلى بيت الفقيه، وقيامه من بيت الفقيه برحلات فرعية إلى غليفقة والحديدة وزبيد ومناطق الجبال (العدين وجبلة وتعز والعودة عن طريق حيس إلى بيت الفقيه). ثم رحلته من بيت الفقيه إلى المخا، ومنها إلى تعز وإب ويريم وذمار وصنعاء، ثم عودته من صنعاء إلى المخا، عن طريق مفحق وبيت الفقيه. وقد تناول بالوصف كل ما صادفه في طريقه، فقدم وصفاً للمدن والقرى والعادات والتقاليد والملابس والحقول والأسواق والسفر والبشر والطعام والشراب. إلخ... وأورد نيبور في نهاية هذا المجلد وصفاً للطرق التي تربط المناطق المختلفة في اليمن، نقلاً عن أحد الرحالة الهولنديين، ثم ملاحظات وجداول عن الطقس، في كل من القسطنطينية والقاهرة واليمن وبومبي في الهند.

وقد ضمن مجلده هذا مجموعة من الرسوم التوضيحية لمدن وموانىء ومزارع وأدوات وكتابات عربية قديمة، بعضها رسمها بيده وبعضها رسمها رفيق رحلته الرسام بورنفايند، وكلها تغطي رحلته من كوبنهاجن وحتى مغادرته اليمن[*]. كما ضم نيبور إلى هذا المجلد الخارطة التي وضعها لليمن، والتي كانت تمثل مهمته الأولى في هذه الرحلة.

المجلد الثاني: صدر في كوبنهاجن عام ١٧٧٨ م، ويتكون من ٤٩٥ صفحة. وقد تضمن وصفاً للرحلة في الهند وعمان وإيران والعراق وبلاد الشام. ولا يختلف في طريقته وترتيبه عن المجلد الأول، فقد احتوى على وصف للأرض والناس، وضمت إليه خرائط ورسوم، لآثار ومعالم تاريخية ونقوش... إلخ.

(*) انظر الملحق.

المجلد الثالث: أصدره في كوبنهاجن عام ١٨٣٧ كل من جلوير Gloyer و أولدس هاوزن Oldeshausen ، ويتكون من ٤٣٠ صفحة، ولا يختلف في ترتيبه عن المجلدين الأول والثاني، إذ يواصل فيه نيبور وصف رحلته، من سورية إلى قبرص، ومنها إلى فلسطين وتركيا وبلغاريا وبولونيا وألمانيا، حتى وصوله الدينمارك. وشأنه شأن المجلدين السابقين إذ يتضمن خرائط جزئيه، ورسوماً للمدن، ولبعض المعالم التاريخية. ورغم أن نيبور كان قد جهز هذا المجلد للنشر، إلا أن صعوبات قد اعترضت طباعته، ولم يتم طبعه إلا بعد وفاته[1]. وقد أضيفت إلى هذا المجلد بعض الملاحظات التي وضعها (أولدس هاوزن)، كما أضيفت إليه ستة ملاحق، وهي عبارة عن موضوعات متفرقة، كان قد كتبها نيبور، ورأى الناشر فائدة في إضافتها كملاحق لهذا المجلد. ومنها موضوع عن الحبشة يتضمن معلومات جمعها نيبور أثناء رحلته، وخاصة أثناء وجوده في اليمن. وقد تأكدت صحة معظمها «وكانت ملاحظاته وأحكامه حول ذلك البلد صحيحة بصورة ملفتة للنظر»[2].

وإضافة إلى كتابيه الكبيرين، وضع نيبور خارطة لليمن، اعتبرت في حينها، أول خارطة لليمن، يتوفر فيها قدر كبير من الدقة. وقد أرفق بكتابه (وصف رحلة إلى بلاد العرب)، المجلد الأول، خارطة جزئية لليمن تمثل المنطقة التي كان يحكمها الإمام المهدي عباس، وتمتد من المخا والحجرية جنوباً، إلى شمال اللحية وعفار وبيت أدهم شمالاً، ومن البحر الأحمر غرباً، إلى شرق ذيبان وذمار وبريم وإب شرقاً، وهي المنطقة التي أطلق عليها في كتاباته اسم مملكة الإمام. وهناك مناطق ضمتها هذه الخارطة، مثل كوكبان، لم تكن تحت سيطرة الإمام. وهناك خارطة أخرى، أكبر مساحة وأقل تفصيلاً، أرفقها بكتابه (وصف بلاد العرب) بين فيها امتداد اليمن على النحو التالي: في

(١) Niebuhr, C., RB, BD. 3, S. XI.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 3, S. XVIII.

الجنوب تمتد إلى بريم وعدن والسواحل المطلة على المحيط الهندي، وفي الشمال تمتد إلى شمال أبو عريش(*)، في خط أفقي إلى الربع الخالي، وفي الغرب إلى البحر الأحمر، وفي الشرق إلى نهاية بلاد الجوف وحضرموت. وعدا عن ذلك وضع نيبور خارطة للبحر الأحمر كان لها دور كبير في تنشيط الملاحة، فيه كما سنرى.

فإذا كانت إنجازات نيبور قد تمثلت بما تضمنته كتاباته الآنفة الذكر وخارطته، فما هي القيمة العلمية لهذه الإنجازات؟

إنه ليصعب الفصل بين الإنجازات العلمية للبعثة الملكية الدينماركية بإجمالها، وبين الإنجازات العلمية لنيبور نفسه. إذ أن الفضل يرجع إلى نيبور في معظم ما عرف من إنجازات البعثة، إلى درجة أنه قد غلب اسم نيبور على اسم البعثة الملكية الدينماركية وأصبحت تسمى بعثة نيبور. لذا فإن حديثنا عن القيمة العلمية لإنجازات نيبور قد تحمل نوعاً من التكرار لما سبق من حديث عن القيمة العلمية لإنجازات البعثة بكاملها. وحتى نتجنب التكرار، قدر إمكاننا، سنقتصر هنا على إيراد بعض آراء العلماء، من المهتمين بالدراسات اليمنية، التي تناولت الأعمال العلمية لنيبور بالتحديد.

كان نيبور - كما مر معنا - وهو يتحدث عن خارطته، قد أعطى تقييماً متواضعاً لعمله، وأشار إلى أن أحداً لا يجب أن ينتظر منه وضع خارطة تتصف بالدرجة نفسها من الدقة، التي يستطيع بها وضعو الخرائط في أوروبا وضع خرائطهم، مستخدمين في قياساتهم أدق الأجهزة[1]. فإذا كنا سنأخذ من رأيه الأولي هذا مؤشراً لتقييمه العام لعمله، وخاصة أن مثل هذا الرأي الدال على التواضع والحصافة في آن معاً، قد تكرر في كتاباته في أكثر من موضع: وهو

(١) انظر ص ٥٧ - ٦٠ من هذا البحث.

(*) فضلنا تثبيت أسماء الأماكن على صورتها المتداولة بين الناس، دون مراعاة لما تقتضيه قواعد اللغة من تغيير.

يتحدث مثلاً عن محاولاته شرح بعض الكلمات العبرية، أو وهو يتطرق إلى الحديث عن تاريخ اليمن والمذاهب الإسلامية، أو وهو يعرض طريقته في جمع المعلومات من الأهالي عن موضوعات لم يشاهدها، فما هو رأي العلماء الذين درسوا أعماله فيما بعد، وعلى امتداد القرنين الماضيين وحتى اليوم.

يرى بعض الباحثين أن الإعداد الطويل للبعثة الملكية الدينماركية، والإنفاق السخي عليها، كان شرطاً أساسياً لنجاحها، إلا أن ما تحقق من إنجاز علمي للبعثة، ما كان يمكن أن يتحقق، بعد أن مات أعضاؤها جميعاً، ما عدا نيبور، لولا جهد نيبور وتفانيه ودقته في عمله[1]. ومع أن نتائج رحلة نيبور قد صححت مراراً، وزادت معارف الأوروبيين عن البلاد العربية، خلال القرنين الماضيين، إلا أن أعمال نيبور «لا زالت حتى اليوم، تمثل أكبر وأهم الأعمال التي أجريت لوصف البلاد العربية. وإلى جانب ذلك فإن نيبور يعتبر رائداً لسلسلة من الرحالة الذين قدموا إلى البلاد العربية والشرق، ومنهم (سيتزن Seetzen) على سبيل المثال. وهكذا فإن قصة الرحلات الاستكشافية في البلاد العربية مرتبطة ارتباطاً قوياً باسم نيبور، أعظم الرحالة إلى البلاد العربية في العصر الحديث»[2].

ويرى البعض أن المعرفة العلمية في أوروبا، بالبلاد العربية، قد بدأت مع نيبور[3]. فقد شملت أعماله حقولاً معرفية شتى، كالآثار والتاريخ والجغرافيا والاجتماع... إلخ مما جعل نيبور «يحتل مكانة بارزة في إطار الدراسات العربية الحديثة»[4].

ويعتبر الكثيرون أن أهم إنجازات نيبور هي خارطته، التي وضعها

(١) Weiter, Geographie, S. 46..
(٢) وقارن أيضاً:
(٣) Baumhauer, Arabien, S. 73.
(٤) Weber, Forschungsreisen , S. 4 - 5.
Henze, in BVA, S. III.
Schlobies, Die Wissensch., S. 240.

لليمن والبحر الأحمر. فقد كانت القياسات، التي أخذها للسواحل الغربية للجزيرة العربية، الأولى من نوعها في الدقة. ولذا فقد فتحت خارطته البحر الأحمر أمام الملاحة الأوروبية، واستطاع الإنجليز، بالاعتماد عليها، أن يبحروا عام ١٧٧٢ م من جدة إلى السويس[5]. وقد استفادت القوى الاستعمارية المتنافسة من خارطة نيبور وهي تسعى إلى السيطرة على منطقة المحيط الهندي والسواحل العربية[6]. وظلت هذه الخارطة ولأكثر من مئة عام بعد وضعها الأساس لكل الأبحاث الجغرافية التي تمت عن اليمن[7].

إن العمل العلمي لنيبور يتسم «بالموقف النقدي الحصيف تجاه المعلومات التي أعطيت له، كما يتسم بالدقة والعناية بالتفاصيل، تجاه الموضوعات التي شاهدها مباشرة»[4].

هكذا يقيم العلماء والباحثون أعمال نيبور، ويضعونها في المكان الريادي الذي تستحقه، وهو مكان لعل نيبور - بتواضعه - لم يكن يطمح إليه.

د. بعض انطباعات نيبور عن اليمن:

تقدم لنا انطباعات نيبور عن اليمن مادة تاريخية ذات وجهين:

فهي من ناحية، تبرز التباين بين أوروبا واليمن، في أساليب الحياة، وفي العلاقات الاجتماعية، وفي أنظمة القيم، وفي المستوى الحضاري، بشكل عام، وهو تباين، لا يمكن أن يفهم إلا من خلال التسليم بوجود إطارين ثقافيين متباينين، ومستويين حضاريين مختلفين، ولكن هذا التباين أو الاختلاف ليس قضية مطلقة، بل ظاهرة تاريخية، مرتبطة بالتطور التاريخي المتباين، لمجتمعين

(١) Henze, in BVA, S. VI.
(٢) Weiter, Geographie, S. 56.
(٣) Lohmeier, Niuhr, S. 29.
(٤) Lohmeier, Niebuhr, S. 50.

بشريين مختلفين، ويجب أن تفهم هذه الظاهرة ضمن إطارها التاريخي، وضمن حدود العصر الذي سجلت فيه.

وأما من الناحية الأخرى، فإن انطباعات نيبور هذه تعكس تأثير الإطار الثقافي والمستوى الحضاري، الذي ينتمي إليه نيبور، في ملاحظاته وتقييماته وفي نظرته إلى الناس والأشياء، بل إنها تعكس حتى نوعية الاختيار، أي اختيار نيبور لموضوعاته.

وكلا الوجهين يقدمان في النهاية، نظرة باحث أوروبي، ينتمي إلى ألمانيا في القرن الثامن عشر، إلى اليمن في الفترة الزمنية نفسها.

وبما أننا سنتطرق بالتفصيل، في الفصول التالية، إلى الموضوعات التي تمثل بالنسبة لنا مادة تاريخية، والتي تناولها نيبور في كتاباته، فإننا سنكتفي هنا بالحديث عن بعض الانطباعات العامة لنيبور عن اليمن:

- الكرم:

كانت وجهة الرحلة ميناء المخا، إذ أن اللحية والحديدة كمينائين آخرين في منطقة الإمام، لم تكونا - كما يذكر نيبور - اسمين معروفين للبعثة. وقد كانت البعثة على علم بأن الإنجليز يأتون إلى المخا من شرق الهند، وكانت تأمل أن تجد لديهم المساعدة من أجل أن تتمكن من التوغل داخل اليمن. ولكن البعثة نصحت، وهي في جدة، أن تنزل في اللحية، أو في الحديدة، وتتابع السفر براً إلى المخا، وذلك لأن السفر في البحر يكون بطيئاً في ذلك الوقت من السنة، بسبب الرياح المعاكسة[1].

ورغم أن البعض قد أكد لها، أنها تستطيع أن تسافر براً، بكل اطمئنان في مملكة الإمام، إلا أنه كان يساور أعضاءها الخوف؛ فالفكرة التي كانت لديهم

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 286.

عن اليمن، لم تكن تختلف عن فكرتهم عن «العرب المتنقلين في مصر والحجاز»[1](*).

ولكن هذه الفكرة ما لبثت أن تغيرت، بمجرد وصول البعثة إلى اللحية. وبدأت تتكون لدى نيبور جملة من الانطباعات، التي وردت في كتاباته بصورة متناثرة، متضمنة الكثير من المقارنات، بين سلوك اليمنيين من ناحية، وبين سلوك الأتراك والمصريين والأوروبيين من ناحية أخرى.

وأول ما لفت انتباه نيبور، عند نزول البعثة إلى البر اليمني، هو ظاهرة الكرم. فقد استقبلت البعثة بحفاوة بالغة، لم تكن تتوقعها[2]. وعرض كل من عامل اللحية وأحد التجار أن يدفع أجرة السفينة التي أقلتها من جدة. وتم تحضير عشاء فاخر لها، وقدم لها العامل بعض الهدايا. وعند مغادرة البعثة اللحية متوجهة إلى بيت الفقيه، حاول العامل أن يدفع أجرة الحمير والجمال التي أقلتها، وكلف بعض خدمه بمرافقتها، وحملهم رسائل إلى المسؤولين على امتداد طريق السفر، يطلب منهم استضافتها مجاناً[3].

وتحدث نيبور بارتياح، عن الاستقبال الذي حظيت به البعثة في صنعاء، وكيف استضيفت، وأطعمت، وقدمت لها الهدايا من قبل الإمام، مع مبلغ من المال (٢٠٠ ريال) ووجهت الأوامر لاستضافتها طوال طريق عودتها إلى المخا، وكيف حاول أعيان صنعاء إقناع البعثة أن تقيم عندهم مدة عام، إلى أن تعود السفن، التي كانت لا تزال راسية في المخا، مرة أخرى في العام التالي[4].

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 286.
(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 298 FF.
(٣) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 315.
(٤) Niebuhr, C., RB, BD. 1, S. 411 FF.
(*) كان العرب الرحل في نظر أعضاء البعثة أناس يعيشون على قطع الطرق ونهب المسافرين، وقد تأكدت هذه الفكرة لديهم من خلال تجربتهم، فقد هوجم بعض أعضاء البعثة في سيناء وسلبت بعض أمتعتهم.

واكثر ما لفت نظر نيبور هو تلك المضافات المنتشرة على طول الطريق في تهامة، حيث كان المسافرون ينزلون فيها عدة أيام، يأكلون ويشربون وينامون مجاناً، وقد نزل نيبور نفسه في تلك المضافات أثناء تنقله في تهامة[1]، ولقي فيها من كرم الضيافة، ما جعله يؤكد «أن المرء يستطيع، من خلال الطريقة التي استقبلت بها في تلك المضافات، أن يجزم أن العرب لا يزالون كرماء، وأن كرمهم تجاه المسيحيين، لا يقل عن كرمهم تجاه أبناء دينهم»[2].

ويلاحظ في كتابات نيبور أنه كثيراً ما استخدم اسم العرب كمرادف لاسم اليمنيين، وهذا أمر مفهوم، إذا وضعنا في اعتبارنا، أن اسم اليمن مرادف لاسم (العربية السعيدة). ولذا فإننا عند الاقتباس النصي سنبقي اسم العرب، ويجب أن يفهم من ذلك أن المقصود وفقاً للسياق هم اليمنيون. فعند حديثه العام عن الكرم عند العرب ساق كل أمثلته من اليمن.

لقد أُخذ نيبور بما شاهده في اليمن من ممارسات يومية لفضيلة الكرم، والتي لا تقتصر ممارستها على الأفراد الميسورين، بل هي فضيلة عامة، يتمسك بها السكان جميعاً. وكان قد تعرف قبل وصوله إلى اليمن على كل من تركيا ومصر، ثم مر بتركيا مرة أخرى، في طريق عودته إلى أوروبا، لذا وجد فرصاً كثيرة، لمقارنة سلوك اليمنيين وعاداتهم بسلوك الأتراك والمصريين. وتقدم لنا الفقرة التالية وصفاً حياً للكرم اليمني ينتهي بمقارنة طريفة: «يصر العرب على كل من يأتي إليهم أثناء الطعام أن يشاركهم طعامهم، وسيان أكان مسيحياً أومسلماً، فقيراً أوغنياً. وقد أكلت معهم شخصياً وبكل ارتياح أثناء سفري. وحتى مرافقي الذي كان يعتني بالحمار كان عليه أن يأكل معهم. ورغم أن الكثيرين يعتذرون بلطف عن تناول الطعام، إلا أنهم في النهاية يستجيبون، ويشاركون، حتى ولوفي قليل من الخبز والتمر. ولذلك فقد كان موضع

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 315.

(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 47.

استغرابي ما شاهدته بعد ذلك في تركيا، فقد وجدت العديد من الأغنياء الأتراك عندما يتناولون طعامهم يتوارون في إحدى الزوايا، حتى لا يأتي إليهم أحد فيضطرون إلى تقديم شيء من طعامهم إليه»[1].

- التسامح الديني:

لاحظ نيبور أن الشعب اليمني شعب متدين، وأن اليمنيين يمارسون تدينهم بتلقائية، ودون تزمت أو تصنع، وقد أشار باستغراب إلى أن صاحبة نزل (مقهاية) طلبت من أعضاء البعثة، وهي تودعهم - وكانت تظنهم مسلمين -، أن يدعو الله من أجلها[2]. وأورد مقارنة بين تدين أهل مصر، وتدين أهل اليمن، من خلال صيام شهر رمضان فقال: «ولأن رمضان سيبدأ في ١٦ مارس(*)، فقد خشيت أن يكون المسلمون في تهامة متزمتين كالمصريين. فالمصريون الذين سافر معهم فورسكال في شهر رمضان(**)، من القاهرة إلى الإسكندرية، كانوا متشددين، يصومون طوال النهار، ويبدون انزعاجهم عندما يلاحظون أن فورسكال يتناول طعاماً أو شراباً، كما يبدون ضيقهم وتبرمهم، إذا طالت الرحلة اليومية. مثل هؤلاء الناس لا يمكن أن أرتاح للسفر معهم. أما اليمنيون فليسوا متزمتين، فهم يصومون أياماً أخرى مقابل الأيام التي أفطروا فيها أثناء سفرهم»[3].

وسجل نيبور انطباعاً رائعاً عن تسامح اليمنيين، فقد عكس عدم تزمتهم نفسه على سلوكهم وقناعاتهم تجاه الفرق الدينية الإسلامية المختلفة وتجاه الأديان الأخرى. وقد سجل انطباعه هذا عبر العديد من المقارنات، فالشيعة والسنة، في كل من إيران وتركيا، لا يطيق بعضهم بعضاً، ولا يصلي أتباع

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 47-48.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 345-345.

(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 332.

(*) عام ١٧٦٣م.

(**) ١٧٦٢م.

مذهب في مساجد المذهب الآخر. أما اليمنيون فلم يؤثر اختلاف المذاهب في علاقاتهم، وليس هذا وحسب، بل إن اليمنيين لا يكرهون أتباع الأديان الأخرى[1].

وقد لاحظ نيبور أن اليمنيين يتقيدون بالقرآن، تقيداً كبيراً، فيوفرون الحماية لمن يلتحق بالإسلام. ففي المخا كان العامل يجري لمن أسلم من بحارة السفن، وقرر البقاء في المدينة، مبلغاً شهرياً من المال، يعينه على الحياة. ولم يكن اليمنيون يظهرون تشدداً مع من أسلم، فلم يمنعوا من أسلم من المسيحيين مثلاً «أن يتصل بالمسيحيين أو أن يغادر البلاد إذا أراد»[2].

- التعامل مع الأجانب:

خطّأ (نيبور) الصورة التي يصوّر بها العرب عادة، بقوله: «لا يجب أن يدع أحد الصورة التي تعطى عادة عن العرب، على أنهم غير مهذبين ولصوص وطماعون، تمنعه من السفر إلى البلاد العربية، فقد وجدت بنفسي أن هؤلاء القوم ليسوا سيئين كما يصورون. إننا نحن الأوروبيين نستعجل في إطلاق الأحكام على الأمم الأخرى قبل أن نتعرف عليها بشكل صحيح»[3]. ويستطرد في عرض انطباعاته وقناعاته، بالنسبة لتعامل الناس في البلاد العربية مع الأجانب، مبرزاً الأسباب التي يعتقد أنها تكمن وراء ما يعتبره بعض الرحالة تعاملاً سيئاً، ويرجع هذه الأسباب إلى سلوك الرحالة أنفسهم، الذين لا يستطيعون أن يتكيفوا مع حياة الناس، ويتعاملوا معها ببساطة[4]. وينتهي إلى أن الرحالة الأوروبي الذي يرغب بالسفر في البلاد العربية، ويوطن نفسه على الحياة، بحسب عادات وتقاليد العرب «يمكنه أن يتجول في كل البلاد العربية

(١)
(٢)
(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 23.
(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 24.
Niebuhr, C., BVA, S. X.
Niebuhr, C., BVA, S. IX FF.

- باستثناء الحجاز - بارتياح. ولكن ليس هناك منطقة يمكن أن يشعر فيها بالأمن والاطمئنان، مثلما يشعر وهو في اليمن. إن سكان هذا البلد يتصفون باللطف تجاه الأجانب، ويستطيع المرء - على الأقل في منطقة الإمام(*) - أن يتنقل بحرية وأمان تماماً كما يتنقل في أوربا»[1]. إن أحداً لا يعترض الرحالة ولا يمنعه من التجول حيث شاء، وخاصة إذا استطاع الرحالة أن يكسب ود السكان، عن طريق إيصال علمه ومعرفته إليهم «فهؤلاء العرب لا يخجلون - كما يخجل الأتراك - من أن يتعلموا شيئاً من الأوروبيين»[2]، ولكن على الرحالة أن لا يبدي تأففه واستهجانه تجاه الأشياء التي لا تعجبه، وهذا لا يعني أن يحاول كسب ود السكان عن طريق تملقهم والتزلف إليهم وإظهار ارتياحه لأشياء لا تعجبه، فهؤلاء «يحبون الصدق ويعرفون أن لديهم أخطاء ونواقص كثيرة، ولكنهم كغيرهم من الأمم، لا يحبون أن يلفت أحد نظرهم إلى أخطائهم بنوع من السخرية»[3].

لقد أخذ نيبور ببساطة الناس وتلقائيتهم، وشعر بالارتياح للتعامل معهم، منذ وطئت قدمه اللحية، حيث يقول: «لقد سعدنا بأن نجد عادات المسلمين أفضل كلما ابتعدنا عن مصر، خاصة وأن سكان اليمن، وهو البلد الذي تمثل الرحلة فيه أساس مهمتنا، قد استقبلونا منذ اللحظة الأولى استقبالاً لطيفاً للغاية»[4]. وقد عبر عن هذا الارتياح في أكثر من مناسبة وفي أكثر من موضع في يومياته. فحول المشاعر المتبادلة مع المواطنين اليمنيين في اللحية مثلاً يقول: «لقد كان السكان يشعرون بالسعادة لوجودنا في مدينتهم، وكنا نشعر

(١) Niebuhr, C., BVA, S. XII.
(٢) Niebuhr, C., BVA, S. XII.
(٣) Niebuhr, C., BVA, S. XII.
(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 297.
(*) لم يزر نيبور غير المنطقة التي كان يحكمها الإمام، ولذا حرص هنا على أن يستدرك ويقصر انطباعه على هذه المنطقة التي زارها.

أيضاً بالسعادة لوجودنا مع سكان هذا البلد طيبي القلوب»[1].

ولم يكن نيبور وحده من شعر بالارتياح تجاه معاملة اليمنيين ولطفهم، بل لقد كان هذا هو شعور أعضاء البعثة جميعاً، وسادت بينهم، نتيجة لذلك، روح جديدة وانسجام، لم يعرفوه منذ غادروا كوبنهاجن، فأخذوا يتسامرون، ويعزفون بآلاتهم الموسيقية كل مساء. وقضوا أسعد وأمتع أيامهم بين سكان مدينة اللحية البسطاء. وحتى أكثر أعضاء البعثة تشاؤماً ونفوراً من الآخرين، وهو فون هافن، عبر عن ارتياحه في رسالة بعث بها إلى بيرنشتورف: «... لقد عرفنا الآن مدى اللطف والود والتهذيب الذي يستقبل به الأوروبيون في العربية السعيدة، وكذا كيف يخلق هذا الشعب البسيط حوله إحساساً بالسكينة والرضى، والبعد عن كل أنواع الهمجية»[2].

وخلال تنقل نيبور لفتت انتباهه خاصية، يتصف بها اليمنيون، وهي حب التعرف على الغريب وبلده ووجهته إلخ.. فسجل في يومياته: «إن العرب في اليمن، وخاصة في مناطق الجبال، يستوقفون المسافرين في قارعة الطريق، ويسألونهم عن اسم بلدهم، ومن أي قرية بدؤوا رحلتهم هذا اليوم، وأين ينوون أن يبيتوا ليلتهم. إلخ. ولا تكمن وراء هذه الأسئلة أية نوايا سيئة. إنه فقط نوع من حب الاستطلاع، ومن غير اللائق أن لا يجيب المرء على أسئلتهم»[3].

ويهتم اليمنيون بالغريب ـ كما لاحظ نيبور ـ اهتماماً عفوياً، خال من التكلف والمصلحة. وتعبر أسئلتهم واستفساراتهم ونصائحهم وإبداء الرغبة في تقديم المساعدة، عن هذا الاهتمام. فعندما يمارس نيبور أو فورسكال، أوغيرهما من أعضاء البعثة، عمله، تنهال الأسئلة عليه، عن كيفية العمل والغرض منه وتبدر بعض المقترحات العفوية، التي ليس لها غرض سوى راحة

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 300.
(2) Hansen, Reise, S. 247.
(3) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 345.

الغريب. ومثال على ذلك اهتمام الأهالي في بيت الفقيه بأعضاء البعثة وأسئلتهم حول عمل فورسكال وماذا يريد من جمع النباتات. ونصحهم أعضاء البعثة بعدم تعريض أنفسهم للشمس طوال النهار، وأن يحافظوا على صحتهم، خاصة وأن أمامهم رحلة طويلة، سوف يرهقون فيها، قبل أن يعودوا إلى بلادهم[1].

ورغم أن الرحلة لم تسر بالسهولة نفسها واليسر، كما سارت في تهامة، فقد واجهتها صعوبات، وعوملت البعثة من قبل موظفي جمارك المخا، ومن قبل عمال المخا وتعز ويريم، معاملة مختلفة عن تلك التي عوملت بها في اللحية وبيت الفقيه ثم في صنعاء، وقذفت نوافذ الدار، التي استأجرتها في يريم، بالحجارة، إلا أن الانطباع العام لنيبور ظل انطباعاً طيباً، مقارنة بانطباعه عن تعامل السكان في كل من تركيا ومصر. بل لقد حاول ـ كما مر معنا ـ أن يبرر ما واجهته البعثة من صعوبات، بإرجاع سبب ذلك إلى أعضاء البعثة أنفسهم، وإلى كونهم لم يكونوا قد عرفوا أهل اليمن معرفة كافية، مما جعلهم يعتقدون «وبدون وجه حق»[2]، أن شكواهم لها ما يبررها. ومعنى هذا أن هناك تصرفات من قبل الأهالي، كان يفهمها أعضاء البعثة على غير حقيقتها، وينزعجون منها، بناءً على فهم غير صحيح لها، مع أنهم ـ بحسب رأي نيبور ـ لو كانوا قد عرفوا أهل اليمن معرفة كافية، لما وجدوا في تلك التصرفات، ما يدعو إلى الشكوى والانزعاج. ومع ذلك ورغم تبرير نيبور فإن قذف نوافذ منزل البعثة في يريم بالحجارة، من قبل بعض الأهالي، لا يحتمل إلا فهماً واحداً. ولا يمكن أن يكون نيبور قد فهمه فهماً آخر. كما أنه لا يمكن أن يكون قد فهم محاولة ابتزاز البعثة من قبل عامل المخا وعامل تعز ثم عامل يريم، الذي اعتبر نفسه وريثاً شرعياً لفورسكال، فهماً خاطئاً، إلا أن نيبور، كما هو واضح، قد وجد أن سلوك اليمنيين عموماً، وتعاملهم الطيب مع الأجانب، يغلب على السلوك السيء،

(1) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 332.
(2) Niebuhr, C., BVA, S. IX-X.

الذي قد يصدر عن بعضهم، والذي يمكن اعتباره مجرد حالات استثنائية، يصادفها الإنسان في جميع بلاد العالم، بما فيها أوروبا[1].

- الأمن:

استطاع نيبور أن يتجول، وأعضاء البعثة، بحرية واطمئنان في كل المناطق التي مر بها، حتى في بريم نفسها، رغم مظاهر الاستقبال غير الودية، التي قوبلت بها البعثة في يومها الأول. وتحوي كتاباته إشارات، تصور لنا، ليس فقط انطباعاته عن حالة الأمن في اليمن، بل أيضاً إحساسه بالأمن، وتمتعه به. وقد أشرنا سابقاً إلى رأي نيبور في أن المرء في البلاد العربية - باستثناء الحجاز - يستطيع أن يتنقل بحرية وأمن، وتأكيده أن اليمن من هذه الناحية تفوق كافة البلاد العربية[2]. وقد تكرر تعبير نيبور عن هذا الانطباع في كتاباته بصور شتى، وبمناسبات مختلفة. ففي حديثه عن الثأر - مثلاً - يؤكد أن هذه الظاهرة ليست منتشرة بصورة كبيرة في تهامة، وإلا لكانت قد أثرت في الوضع الأمني، ولما استطاع أعضاء البعثة أن يتجولوا متمتعين بمثل ذلك الأمن، الذي تمتعوا به فعلاً[3]. وعند حديثه عن الحروب الداخلية أشار إلى أن الحروب إذا نشبت لا تدوم طويلاً، إذ سرعان ما يعود الأمن إلى حالته الأولى من جديد، وإلا لما استطاعت البعثة أن تتنقل في مناطق اليمن خلال فترة قصيرة[4].

لقد تبددت كل مخاوف البعثة، التي كانت تساورها قبل وصولها إلى اللحية، بمجرد وصولها،حيث أكد لها، أنها تستطيع أن تتجول في اليمن بكل أمان[5]. وسمعت مثل هذا التأكيد في المناطق الأخرى، وثبت لها بالفعل أنها

---

(١) قارن:

(٢) انظر ص ٧٤ من هذا البحث.

(٣) Niebuhr, C., BVA, S. IX-X, 28-29.

(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 34-35.

(٥) Niebuhr, C., BVA, S. 204.

Niebuhr, C., BVA, S. 297.

تستطيع أن تتجول تحت إحساس كامل بالأمان، وأن السكان اليمنيين على درجة من التهذيب، بحيث أن البعثة قد شعرت «أنه لا ضرورة لوجود حرس مرافق»[1]. لقد بلغ الإحساس بالأمن لدى نيبور حداً جعله يكرر التعبير عنه كلما سمح له السياق بذلك. فقد تأكد من استتباب الأمن، وشعر به، من خلال تجربته المباشرة «لقد أدركت الآن أكثر من ذي قبل، ومن خلال التجربة، أن المرء في اليمن يستطيع أن يتنقل بحرية، وبقدر كبير من الأمان، كما في أوروبا»[2].

ويسجل نيبور بنوع من الاستغراب أن الرحالة يستطيع أن يتجول في أنحاء اليمن دون أن يعترضه أحد، وأن المسافر الأجنبي لا يُسأل عن جواز سفره، سواءً في ميناء الوصول، أو في داخل البلاد[3].

- خصائص أخرى للإنسان اليمني:

إضافة إلى ما ورد آنفاً، عن حب الاستطلاع لدى الإنسان اليمني، واهتمامه بالغريب وكرمه.. الخ، تضمنت إشارات نيبور المتفرقة، انطباعات عن بعض الخصائص الأخرى للإنسان اليمني، ومنها:

ميل الإنسان اليمني إلى الحياة الاجتماعية:

لاحظ نيبور أن العرب يميلون إلى الحياة الاجتماعية ميلاً شديداً، وخاصة سكان اليمن، الذين تشكل الأسواق، بالنسبة لهم، فرصاً للتجمع. فقلما توجد قرية كبيرة في اليمن، إلا ويعقد فيها سوق أسبوعي، يلتقي الناس فيه، يبيعون ويشترون، ويتحادثون. كما يلتقون في المقاهي باستمرار، وفي المناسبات، كالأعياد وزيارات الأولياء. ويستمتعون بلقاءاتهم هذه كل الاستمتاع[4].

---

(١) Niebuhr, C., RB, BD. 1, S. 321.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 332. U.vrgl.S. 313, 322, 326, 352.

(٣) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 359-360, 346.

(٤) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 27-28.

حب الموسيقى:

وجد نيبور أن اليمنيين لا ينظرون إلى الموسيقيين والفنانين نظرة احترام، ومع ذلك فهم يستمتعون كثيراً بالموسيقى والغناء. فعندما كان نيبور ورسام البعثة بورنفايند يروحان عن نفسيهما في المساء - في مدينة اللحية - بالعزف على آلات بسيطة، كان الأهالي يتجمعون، ويستمعون ويطربون للعزف، رغم أن الأنغام الأوروبية كانت غريبة على أسماعهم. ويبلغ حب الموسيقى بأحد التجار المسنين حداً لا يستطيع عنده الاصطبار فيطلب من خدمه أن يركبوه على حماره وأن يتوجهوا به إلى مقر البعثة، حيث ظل فوق حماره، ينصت بشغف، حتى انتهى العزف. ثم حاول أن ينفح كلاً من نيبور وبورنفايند بعض النقود، لكنهما اعتذرا عن قبولها[1].

الحيوية والمرح:

لاحظ نيبور أن اليمنيين أكثر حيوية وحركة ومرحاً في لقاءاتهم ومناسباتهم، من الحجازيين «وأكثر بكثير من الأتراك»[2]. وقد وصف تجمعاً حول قبر أحد الأولياء في تهامة، حيث أخذ بعض المحتشدين يرقص ملوحاً بجنبيه، وآخرون بسيوفهم، وآخرون يتبارون بقذف عصي الجريد. إلخ.. وعلى محياهم جميعاً تبدو أمارات الانبساط والمرح والاستمتاع، وهذا المشهد يختلف - كما أشار - عما شاهده في مصر، فالمصريون يتجمعون أيضاً حول أضرحة الأولياء، ولكن دون أن يرقصوا ويمرحوا كاليمنيين[3].

قلة استخدام عبارات التفخيم والتبجيل:

لاحظ نيبور أن اليمنيين - والعرب عموماً - لا تنتشر بينهم أسماء وعبارات التفخيم والتبجيل، بل إن اللغة العربية نفسها فقيرة من هذه الأسماء

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 302-303.

(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 27.

(٣) Niebuhr, BVA, S. 27-28.

والعبارات، مقارنة بغيرها من اللغات، إلى حد أن اسماً واحداً يمكن أن يطلق على أشخاص مختلفين، ووظائف متباينة، فالشيخ مثلاً لقب يطلق على شيخ القبيلة، وعلى عاقل القرية، وعلى رجل العلم، وعلى الرجل المسن، وعلى إمام المسجد، وعلى الولي «وحتى على رئيس اليهود في مدينة صنعاء»[1].

هـ. عودة نيبور إلى أوروبا:

يستحق نيبور منا، في نهاية هذا الفصل، أن نكرس بضع فقرات، لعرض رحلة عودته إلى الدينمارك، والمناخ السياسي والعلمي الذي وجده هناك، ثم حياته حتى مماته.

غادر نيبور المخا، مع من بقي حياً من أعضاء البعثة، في ٢٣ أغسطس ١٧٦٣م، كما أسلفنا، ووصل بومبي في الهند في ١١ سبتمبر ١٧٦٣م[2] وبعد أن قضى في الهند خمسة عشر شهراً تقريباً، غادر بومبي عائداً إلى كوبنهاجن(*)، عن طريق مسقط وإيران والعراق وسورية والإسكندرية وقبرص وفلسطين ولبنان، ثم سورية مرة أخرى، وتركيا وبلغاريا ورومانيا وبولندا وألمانيا، ليصل إلى كوبنهاجن في ٢٠ نوفمبر ١٧٦٧م[3]، بعد أن قام بدراسات وجمع الكثير من المعلومات عن البلدان التي مر بها وخاصة إيران والعراق وسورية وفلسطين.

ولم تكن كوبنهاجن عند عودته هي المدينة نفسها التي تركها منذ حوالي سبع سنوات، قد تغيرت كثيراً: كان الملك فريدرك الخامس قد توفي(**)،

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 14.

(٢) Hansen, Reise, S. 344.

(٣) حول رحلة العودة وحياة نيبور حتى مماته انظر: Niebuhr, B.G., Niebuhrs Leben, S. 28 FF. وكذا: Hansen, Reise, S. 350 FF. وترجمته العربية: الرعدي، من كوبنهاجن، ص ٣٣١ وما بعدها.

(*) كان نيبور عند عودته من بومبي قد فقد كل رفاق رحلته. انظر ص ٣٧ - ٤٠ من هذا البحث.

(**) توفي الملك فريدريك الخامس في يناير ١٧٦٦ م.

واعتلى العرش ابنه كرستيان Kristian . وهو في السابعة عشر من العمر، فانغمس في اللهو والمجون، وأخذت مكانة الوزير بيرنشتورف تضعف، حتى انتهى به الأمر إلى أن يعزل من منصبه ويبعد من الدينمارك. ولم يكترث أحد لعودة نيبور ، ولم يهتم أحد بنتائج الرحلة، وإن كان قد حصل على دعم رسمي لنشر أول أعماله، وهو كتاب (وصف بلاد العرب)، الذي نشره عام ١٧٧٢م. ولما لم يحظ ذلك الكتاب بالاهتمام الذي يستحقه، عزم نيبور على ترجمته إلى اللغة الفرنسية، إلا أن ترجمته كانت رديئة، مما حدا بنيبور إلى التخلص من نسخه إثر طباعتها.

وفي عام ١٧٧٤م نشر المجلد الأول من يومياته، بعنوان (وصف رحلة إلى بلاد العرب والبلدان المجاورة). ثم ألحقه بكتاب، ضم أعمال صديقه، رفيق الرحلة بعنوان (نبات مصر والجزيرة العربية)، ثم أصدر كتاباً ضم فيه رسوم رفيق الرحلة الرسام بورنفايند . وفي عام ١٧٧٨م نشر المجلد الثاني من يومياته.

وباستثناء كتابه الأول (وصف بلاد العرب) فإن نيبور قد أنفق على نشر أعماله وأعمال رفيقيه المتوفيين من ماله الخاص، حتى نفذ ما بيده. وقد غادر نيبور مدينة كوبنهاجن عام ١٧٧٠م إلى ألمانيا وتزوج عام ١٧٧٣م وبحث لنفسه عن وظيفة متواضعة، فحصل على وظيفة كاتب في مجلس إحدى المدن الألمانية، في منطقة معزولة، بشمال ألمانيا، قضى فيها بقية عمره.

ومع أن الأنظار بدأت تلتفت إليه، وبدأت كثير من الدوائر العلمية، وخاصة في فرنسا، تقدر إنجازاته، وتبدي اهتماماً بنتائج الرحلة، وتدعوه لزيارتها، وتكرمه، وتعرض عليه العمل لديها، إلا أنه ظل يرفض ترك وظيفته، وتغيير نمط حياته. وبينما كانت الدوائر العلمية تناقش أعماله، وكبار الجغرافيين يعترفون بدقة خرائطه وقياساته الجغرافية، كان نيبور ينصرف إلى حياته اليومية البسيطة، ويروي لزوجته وأطفاله ذكرياته في بلاد الشرق. وقد شدته أشواق وهو في السادسة والستين من العمر إلى حياته الريفية الأولى، فاشترى قطعة

أرض، أخذ يفلحها، وشعر بسعادة عظيمة وهو يعمل عليها، كما كان حاله في مطلع شبابه. وفي عام ١٨٠٧م فقد زوجته، وكان بصره قد أخذ يضعف، مما أجبره على الاستعانة بمساعد متخصص بالجغرافيا، يعينه على قراءة الخرائط، ويساعده في الكتابة وتدوين مذكراته. وكان حظ هذا المساعد أن يتولى نشر المجلد الثالث من يوميات نيبور وذلك عام ١٨٣٧م.

وقد اعتمى نيبور وضعف جسده، وسقط ذات يوم فانكسر عظم فخذه، ليقضي ما تبقى من عمره على كرسي متنقل. وفي ٢٦ إبريل عام ١٨١٥م توفي وهو في الثانية والثمانين من العمر، ذلك الرجل الذي لولاه لما أمكننا أن نعرف عن البعثة وإنجازاتها العلمية ما نعرفه اليوم.

المادة التاريخية في كتابات نيبور عن اليمن

الفصل الأول
الحياة السياسية

عندما يتحدث نيبور عن اليمن، فإنه يتحدث عنها بمفهومين، استخدمهما معاً، جنباً إلى جنب: المفهوم الضيق، وهو مرادف لمفهوم مملكة الإمام، والمفهوم الواسع، الذي قصد به اليمن من مدينة حلي Hâli، الواقعة قرب رأس حلي، إلى عدن. إذ تمثل حلي - كما ذكر نيبور - حدود الحجاز، فكل ما هو جنوبها فهو منطقة يمنية «كما كان الحال عليه في زمن أبي الفداء»[1]. وتضم اليمن بمفهومها الأخير هذا «أبو عريش»[*]، والمنطقة الواسعة، الواقعة بين أبو عريش والحجاز، ومنطقة نجران ومنطقة قحطان والجوف. وجنوباً إلى عدن والشحر، التي كانت تتبع منطقة يافع، وعندما يتحدث نيبور عن اليمن السعيد، أو العربية السعيدة، فإن اليمن عند ذلك تضم، إضافة إلى ما تقدم، حضرموت إلى ظفار[2].

وسوف نتناول في هذا الفصل الحياة السياسية في اليمن بمفهومها الواسع، أي بمفهومها الذي يتجاوز الحدود الضيقة لمملكة الإمام، ليمتد إلى

---

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 291

(٢) قارن: Niebuhr, C. BVA, S. 181 - 182.

(*) انظر هامش ص ٦٧ من هذا البحث.

سائر المناطق اليمنية الأخرى، متدرجين من مملكة الإمام، إلى المناطق اليمنية، التي كانت تحكم من قبل سلاطينها وأمرائها ومشايخها، حكماً مستقلاً عن سلطة الإمام.

١. نظام الحكم والهيكل الإداري لدولة الإمام:

عندما يتحدث نيبور عن مسائل ذات خلفية تاريخية ودينية، فإن حظه من التوفيق يكون قليلاً، كما سنرى في أكثر من موضع. ولنيبور عذره في ذلك، فمثل هذه المسائل كانت بعيدة عن مجال تخصصه، كما أن الفترة التي قضاها في اليمن لم تكن كافية لدراسة التاريخ اليمني. وللتعمق في فهم الأسس النظرية التي تقوم عليها الحياة السياسية والدينية. لهذا لم يكن بمقدوره، مثلاً، أن يقدم لقرائه فكرة واضحة عن نظام الحكم في مملكة الإمام. ولعله قد أدرك عدم قدرته، ولذلك اكتفى عند حديثه عن نظام الحكم بالعبارات القليلة التالية: «عرش اليمن وراثي، وعندما يكون جميع الأمراء متساوين في صفاتهم فإن الرعية يفضلون عادة الأمير الأكبر سناً، والذي أمه زوجة شرعية للإمام ليكون حاكماً عليهم»[١].. هنا يعبر نيبور عن الواقع العملي، فقد عملت الإمامة في اليمن على جعل نظام الحكم وراثياً، رغم أن هذا يخالف النظرية السياسية الزيدية، التي كان نظام الحكم يستند إليها. ولكي لا يبدو نظام الحكم مخالفاً لقواعد النظرية السياسية المرتكز عليها، فقد حرص الأئمة على تأكيد انسجامهم ظاهرياً مع النظرية السياسية الزيدية، وذلك بتوريث السلطة استناداً، لا إلى حق وراثي، بل إلى ادعاء توفر صفات الإمام في أبنائهم. وقد أشار نيبور إشارة سريعة إلى هذه الصفات، دون أن يتوقف عندها لتوضيحها. وأما الرعية فلم يكن لهم دور في هذا الأمر، إلا إذا اعتبرنا شيوخ القبائل، ورجال الأسر الحاكمة، وبعض العلماء، ذوي النفوذ والتأثير، هم الرعية المقصودون بعبارات نيبور.

---

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 205.

وكان الإمام - كما ذكر نيبور - حاكماً مستقلاً، لا يتلقى أوامر من أي قوة خارجية، سواء في المسائل الدينية، أو الدنيوية، وكان يسمي نفسه (خليفة) أو (إماماً). ولم يكن الحكم الاستبدادي يدوم طويلاً في اليمن «فعندما أصبح الإمام الحالي(*) مكروهاً، بسبب جشعه ووحشيته، وضعت خطة لإبعاده عن العرش، ورغم أن تلك الخطة قد أخفقت إلا أن هناك أمثلة أخرى، لتمردات ضد الأئمة، انتهت بعزلهم»[١]. وقد لاحظ نيبور أن اليمنيين لا يعرفون الألقاب الكبيرة (فوزير الدولة، واسمه أحمد النهمي، من منطقة نهم، لا يحمل أكثر من لقب فقيه، وهو لقب ليس له أهمية، حتى أن موظفي سكرتارية الوزير يحملونه، بل إن أي شخص عادي في اليمن، يظن أنه يمتلك شيئاً من العلم، يمكن أن يسمى فقيهاً»[٢]. ويسمي اليمنيون حاكم المنطقة الإدارية (دولة) أو (أمير)[٣]. كما يمكن أن يسمى أيضاً والي، «ولكن يبدو أن لقب والي لا يطلق إلا على من ينحدرون من أسر كبيرة، مثل ابن الإمام، الذي يحكم صنعاء. وشيخ العدين، الذي ينتمي إلى أسرة حاكمة كبيرة. ويمكن أن يلاحظ المرء من خلال طريقة اليمنيين في التخاطب أن لقب والي ليس لقباً شائعاً»[٤].

وإذا أردنا أن نستخلص من كتابات نيبور صورة للهيكل الإداري للدولة فإنه يمكن تصوره على النحو التالي[٥]:

- الإمام هو رأس الدولة، ويتمتع بسلطات دينية ودنيوية.
- وللإمام وزير هو الفقيه أحمد النهمي.

---

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 205.

(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 206.

(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 206. U.RB, Bd. 1, S. 295.

(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 206 - 207.

(٥) انظر: Niebuhr, C., BVA, S. 206 - 208.

(*) يقصد الإمام المهدي عباس

- ويعمل في صنعاء عدد من كبار موظفي الدولة، كل واحد منهم مسؤول عن مجال إداري محدد. وقد ذكر نيبور بعض هذه المجالات وأغفل ذكر البعض الآخر. وهؤلاء الموظفون هم:

- القاضي حسين الأنسي Hossein el Anesi. لم يذكر نيبور وظيفته.
- الفقيه عبد الله بن محي الدين العراسي Abdulla ibn Mehey eddine el Arasie، والي الوقف.
- السيد أحمد الحفاشي Ahmed el Hofaschi. لم يذكر وظيفته.
- الفقيه علي بن حسن الأكوع Ali ibn Hassan el Lokwa، السكرتير «السري» للإمام. ولعل نيبور يقصد السكرتير الشخصي للإمام.
- الفقيه علي العمري Ali el Amri، المشرف على الجمارك ومباني ومزارع الإمام.
- الفقيه أحمد الأكوع Ahmed el Akwa، المسؤول الأول عن مكتب شؤون الحرب.
- الفقيه أحمد حنش Ahmed Hanasch، مدير العملة.

وتنقسم مملكة الإمام إلى مناطق إدارية، على رأس كل واحدة منها (دولة) أو (أمير). والدولة في منطقته أشبه ما يكون - كما أشار نيبور - بالباشا في تركيا. إذ يتولى قيادة جنود الإمام في منطقته، وتحصيل الضرائب، والإشراف المباشر على الجمارك(*) وعليه أن يقدم حساباً سنوياً دقيقاً إلى الإمام. ولا يبقى

(*) هذه الوظائف كان يقوم بها عادة العمال ولكن نيبور لم يستخدم اسم (عامل) إلا نادراً وبدلاً عن ذلك استخدم اسم (دولة)، كما استخدم مرات قليلة اسم (أمير) خاصة عند حديثه عن عامل اللحية، الأمير فرحان. ولعل استخدام نيبور اسم الدولة بصورة متكررة يدل على شيوعه في اليمن في ذلك الحين، ويمكن أن نستدل على شيوعه أيضاً من الأغاني الشعبية القديمة التي اقترن فيها اسم الدولة بالعسكر. فالدولة يقصد به العامل ولا يقصد به الدولة بمعنى مجموع السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية. ولتجنب الالتباس سوف نستخدم اسم عامل بدلاً عن اسم دولة في جميع فصول هذا البحث، باستثناء في هذه الفقرة الخاصة بنظام الحكم والهيكل الإداري.

الدولة في وظيفته عادة أكثر من عامين إلى ثلاثة أعوام، وذلك خشية أن يجمع ثروة، وتساوره نفسه في الاستقلال عن مملكة الإمام. ولا يقتصر شغل هذه الوظيفة على اليمنيين، بل يمكن أن يشغلها عبيد سابقون، يتمتعون بقدرات وكفاءات، تؤهلهم لذلك. وإذا لم يستطع الدولة أن يدير منطقته، بالشكل الذي يرضى عنه الإمام، فإنه يصبح عرضة للسجن والمصادرة والعزل «ولكن هذا نادراً ما يحدث، إذ غالباً ما يعين الدولة المغضوب عليه في منطقة أخرى، بعد أن يكون قد قضى بعض الوقت دون عمل»[١].

وإذا ما ضمت المنطقة الإدارية مناطق هامة، فإن الدولة يعين فيها نواباً له، يسمى الواحد منهم (نائب دولة)، ويرافقه عدد من الجنود، قد لا يزيد أحياناً عن خمسة إلى ستة أفراد. وإذا لم يكن نائب الدولة مصحوباً بعدد من الجنود، فإنه يسمى شيخ. ويضيف نيبور، إن نائب الدولة إذا كان «في قرية صغيرة فإنه يسمى حاكم»[٢]. وهذه الإضافة تبدو غريبة مقارنة بالنظام الإداري المعروف في عهد المملكة المتوكلية اليمنية (١٩١٨ - ١٩٦٢). وعدا عن ذلك فإنه يوجد «في كل منطقة إدارية، وعلى الأقل في المناطق الكبيرة، موظف يسمى باش كاتب أو مراقب»[٣]. ويرتبط هذا الموظف بالإمام مباشرة لا بالدولة، ويجلس إلى جانب الدولة في الجمارك، ويراقب كل شؤون المنطقة، ويرفع عنها تقارير إلى الإمام، ويعتبر بلاءً مستديماً، بالنسبة للدولة، وقد يحظى بدوره، نظراً لخدماته، بمنصب (دولة)، ولكنه ما أن يعين، حتى يوضع بجانبه باش كاتب، يشرب على يديه نفس الكأس الذي سقاه لغيره.

وفي كل منطقة إدارية يوجد قاض «ربما يرتبط بكبير القضاة في صنعاء، كما هو الحال في تركيا، حيث يرتبط القضاة بالمفتي في القسطنطينية»[٤].

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 207.
(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 207.
(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 207.
(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 208.

وإضافة إلى الوظائف السابقة، يتبع الدولة مجموعة من الموظفين وهم[1]:

- أمير البحر في الموانئ، ومهمته الإشراف على السفن والقوارب، فلا يسمح بإبحار أي قارب أو سفينة، دون إذن منه، كما أنه يقوم بتفقد البضائع، التي تحملها السفن، من الميناء وإليه، للتأكد من أن الضرائب المستحقة عليها قد تم تسديدها، على الوجه المطلوب[2].

- أمير باب المدينة، وهو مسؤول عن أبواب أسوار المدينة، ومراقبة كل ما يمر من وإلى المدينة، والكشف عليه.

- أمير السوق، وهو مسؤول عن المقاييس والموازين ونوعية البضائع، الموجودة في السوق.

- شيخ البلد Schech el Belled، وهو مسؤول عن توزيع ما تصرفه الدولة للمواطنين في المدينة. ولم يوضح نيبور فيما إذا كان المقصود بهذه المصروفات أموال الزكاة، أم أن هناك مخصصات أخرى تصرف بواسطة شيخ البلد هذا.

- رئيس الحرس الليلي.

- مدير السجن.

٢. المناطق الإدارية التابعة لمملكة الإمام[3]:

استعرض نيبور المناطق الإدارية المختلفة، ضمن مملكة الإمام، مميزاً بين المناطق التهامية، والمناطق الجبلية. وسنوردها هنا في تسلسل واحد:

---

(١)

(٢)

(٣) انظر

Niebuhr, C., BVA, S. 208

Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 300.

Niebuhr, C., BVA, S. 221 FF.

منطقة المخا:

يحدها البحر وإمارة عدن وبلاد ابن عقلان ووصاب الأسفل. ومن أهم المدن والقرى في هذه المنطقة(*):

- المخا: وهي مركز منطقة المخا ومقر العامل. وتعتبر أهم مدينة في مملكة الإمام، وذلك بسبب النشاط التجاري الكبير فيها. ويسكنها تجار أغنياء من اليمنيين والهنود. كما يزورها تجار أوروبيون، يأتون على ظهور السفن.

- يختل Jachtillo: وهي قرية كبيرة تبعد عن المخا بمقدار ميلين ألمانيين(**) نحو الشمال.

- موزع: وهي قرية فيها قلعة صغيرة ونائب للعامل. وتبعد عن المخا بمقدار أربعة أميال ونصف نحو الشرق. وذكر نيبور أنه «ربما تقع هنا مدينة ميسا Mesa، التي ورد ذكرها في كتاب موسى الأول، الفصل العاشر»(***).

- سوق الجمعة: وهي قرية يقام فيها سوق أسبوعي، في كل يوم جمعة، وتتبع موزع.

- الوازعية: وهي عبارة عن قلعة صغيرة، في منطقة جبلية، بجنوب موزع.

- ذباب: وهي قرية تبعد عن المخا بمقدار رحلة يومين، نحو الجنوب.

- ذكار وبعض الجزر الصغيرة.

- باب المندب.

- بريم.

(*) استطاع نيبور أن يستكتب أسماء بعض القرى، أما البعض الآخر فقد اكتفى بكتابه أسمائها بالأحرف اللاتينية وبحسب السماع. ولذا فسوف أثبت هنا الأسماء باللاتينية بالنسبة للقرى التي لم يورد أسماءها بالأحرف العربية، مع كتابة الاسم بالعربية بالصورة التي أظنها سليمة.

(**) الميل الألماني كان يساوي ٧٥٣٢ متراً، ولم يعد مستخدماً الآن.

(***) يشير نيبور بذلك إلى ما ورد في سفر التكوين الإصحاح العاشر بصدد تحديد مواطن أبناء سام بن نوح فبنو قحطان أو يقطان «كان مسكنهم من ميسا حينما تجيء نحو ظفار جبل المشرق». انظر الكتاب المقدس ص ١٧.

- زبلع: وهي مدينة تقع على الساحل الإفريقي «وحاكمها ينم تعيينه من قبل العامل في المخا، وهذا يعني أن هذه المدينة تتبع الإمام في صنعاء»[1].

منطقة وصاب الأسفل[2]:

تحدها منطقة المخا، وبلاد ابن عقلان، ومنطقة وصاب الأعلى، ومنطقة زبيد، ويطل جزء صغير منها على البحر الأحمر، أو بحسب التسمية التي استخدمها نيبور الساحل العربي. وليست هذه المنطقة منطقة واسعة، كما أنها ليست منطقة غنية. ومن أهم مدنها وقراها:

- مدينة حبيس: وهي مركز منطقة وصاب الأسفل. وهي عبارة عن مدينة غير مسورة، فيها قلعة، يسكنها العامل. وتمد هذه المدينة اليمن بالأوعية الفخارية.

- موشج Maushj أو موشد Maushid[3]: وهي قرية كبيرة، فيها نائب للعامل، وتقع على مقربة من البحر، بين المخا وزبيد. ويدفع المسافرون فيها ضريبة على ما تحمله جمالهم. وقد اعتقد نيبور أن اسم هذه القرية يشبه اسم ميناء موسى Muza، الذي حدد بطليموس موقعه بصورة تبدو متطابقة مع موقع هذه القرية، ولذا «يمكن أن يبحث عن موقع ميناء موسى في هذه المنطقة»[3].

ويذهب دخل هذه المنطقة إلى عائلة إسحاق.

منطقة زبيد:

تحدها منطقة وصاب الأسفل، ومنطقة وصاب الأعلى، ومنطقة بيت

(1)
(2) Niebuhr, C., BVA, S. 224.
(3) Niebuhr, C., BVA, S. 224.
(*) يسميها اليمنيون وصاب السافل. كما يسمون وصاب الأعلى وصاب العالي. Niebuhr, C., BVA, S. 225.

الفقيه، والبحر الأحمر. ومن أهم مدنها وقراها:

- مدينة زبيد: وهي مركز هذه المنطقة. وقد كانت أهم مركز تجاري، ضمن المنطقة التي يحكمها الإمام، وذلك عندما كان ميناء غليفقة ميناء مزدهراً. وكانت تعتبر عاصمة تهامة كلها وتوجد فيها أكاديمية زبيد، التي تمد تهامة، والمناطق الجبلية الجنوبية، بالعلماء كما توجد فيها قلعة صغيرة، يسكنها العامل.

- قرية التحيتة أو التحيتا[1]: وتقع على بعد ميلين وربع إلى الغرب من زبيد، ويبدو من مقابرها أنه كان لها ماضي مزدهر، على خلاف ما هي عليه الآن.

- قرية التريبة Toreiba أو التريهة Traha[*]: وهي قرية هامة تقع شرق زبيد.

- قرية الشرجة: وهي قرية كبيرة تقع على بعد ثلاثة أميال ونصف من زبيد، باتجاه المخا. وفيها نائب للعامل، مع عدد من الجنود.

منطقة بيت الفقيه:

تحدها منطقة اللحية ومنطقة زبيد. ومن أهم مدنها وقراها:

- مدينة بيت الفقيه: وهي مدينة كبيرة غير مسورة، بدأت تأخذ مكانتها الهامة، بعد أن أصبح ميناء غليفقة غير صالح للاستعمال، وانصرف التجار شيئاً فشيئاً عن زبيد. وتعتبر هذه المدينة أهم مركز للبن في اليمن «بل وفي العالم كله»[2]. ويجتمع فيها تجار من مختلف أنحاء العالم: من تونس والمغرب والعراق وسورية وعمان وإيران وأوروبا.. إلخ.

(1) قارن: الويسي، اليمن الكبرى، ص ٨٩.
(2) Niebuhr, C., BVA, S. 225.
(*) رغم أن نيبور قد استكتب أسماء بعض القرى والمدن، إلا أنه، كما يبدو، وبسبب اعتماده على السماع بصورة أساسية، لم يكن واثقاً من صحة بعض الأسماء، التي كتبت له بالعربية، لذا فإنه كثيراً ما ورد الاسم بصورتين مختلفتين. أما الاسم الصحيح لهذه القرية فهو التريبة.

- قرية المحط: وهي قرية كبيرة تقع في وادي المحط، على الطريق الموصل بين بيت الفقيه وزبيد.
- قرية الدريهمي: وهي قرية كبيرة.
- قرية غنمية أو الغانمية(*) Gannemie: وهي قرية كبيرة «تقع على الطريق بين بيت الفقيه واللحية»[1]. وفيها نائب للعامل مع عدد من الجنود.
- غليفقة: كانت مدينة مشهورة، وأصبحت قرية صغيرة لا أهمية لها. إلا أن توفر الملح فيها بكثرة، قد جعل العامل يضع فيها موظفاً سماه نيبور «حاكم أو كاتب»[2]، وذلك لقبض ما يدفعه تجار الملح، من مبالغ زهيدة، مقابل كل حمل جمل، يأخذونه من هناك.
- وتضم منطقة بيت الفقيه أيضاً قرى هامة، كالقطيع والمنصورية والمراوعة.

منطقة الحديدة:

لا تكاد حدود هذه المنطقة تتجاوز حدود مدينة الحديدة نفسها. ومع ذلك فإن دخل الجمارك في هذه المنطقة مرتفع جداً، إذ يستقبل ميناء الحديدة السفن التجارية، خاصة السفن القادمة من جدة ومسقط. ويمكن اعتبار ميناء الحديدة، ميناءً لبيت الفقيه. ويسكن العامل في قلعة مطلة على البحر.

منطقة اللحية:

يحدها البحر الأحمر، ومنطقة أبو عريش المستقلة عن دولة الإمام، ومنطقة بيت الفقيه، وبعض المشيخات التابعة لاتحاد حاشد وبكيل. ومن أهم المدن والقرى في هذه المنطقة:

---

(١)

(٢)

(*) تقع الغانمية بين بيت الفقيه وزبيد وليس بين بيت الفقيه واللحية. ولعل نيبور قد أخطأ في تحديد موقعها أو أنه قد قصد بذلك قرية أخرى مشابهة في الاسم، لم أتمكن من العثور عليها في الخارطة.

Niebuhr, C., BVA, S. 227.

Niebuhr, C., BVA, S. 227.

- مدينة اللحية: وهي مركز المنطقة ومقر العامل.
- جويرة أورموك Urmuk(*): وهي جزيرة صغيرة؛ قريبة من اللحية، وتعتبر جزءاً منها، إذ يستخدمها أهالي اللحية كملجأ لهم، ولأموالهم، إذا داهمتهم القبائل من الجبال.
- ماربيه Marabea(**): كانت فيما مضى مدينة وميناءً ومركزاً للمنطقة[1] يقيم فيها العامل، لكنها فقدت أهميتها، ولم يعد ميناؤها صالحاً لرسو السفن. وتقع إلى الشمال من اللحية.
- مور: هو عبارة عن سوق يبعد عن اللحية بمقدار ٤ إلى ٥ ساعات سفر(***)، ويقيم فيه نائب للعامل وبعض الجنود.
- عدر Adir: قرية تبعد بمسافة ساعة واحدة عن مور، ودخلها يعود إلى قاضي اللحية.
- المنيرة: قرية كبيرة، تقع في الطريق بين اللحية وبيت الفقيه.
- الضحي: قرية كبيرة، تقع في منتصف الطريق بين اللحية وبيت الفقيه، وفيها نائب للعامل مع بعض الجنود.
- مخلاف: مدينة صغيرة، تقع في وادي سردد، ويسكنها شيخ وادي سردد.
- الهجم: كانت في الماضي مدينة مشهورة، ولكن لم يبق منها «الآن»(****) ما يستحق الذكر سوى مسجد قديم، رممه الأمير فرحان، أمير اللحية عام ١٧٦٢ م.

---

(١) Niebuhr, C., RB, Bd, 1, S. 304 - 305.

(*) لعل نيبور يقصد جزيرة المرك الواقعة إلى الجنوب الغربي من اللحية.

(**) لم أعثر عليها في الخارطة ولا في المعاجم.

(***) لم يتقيد نيبور بمنهج محدد عند حساب المسافات، فأحياناً كان يحسب الأميال وأحياناً كان يكتفي بحساب الساعات التي يستغرقها المسافر، وأحياناً لا يذكر أكثر من اتجاه موقع القرية أو المدينة أو المنطقة بالنسبة لقرية أو مدينة أو منطقة أخرى.

(****) أي عند زيارة نيبور لليمن.

- الزيدية: عبارة عن سوق كبير، فيه نائب للعامل وبعض الجنود.
- جزيرة كمران: جزيرة خصبة، يقيم فيها نائب للعامل وبعض الجنود.
- جزيرة فران Firân: وهي جزيرة يجمع فيها أهالي اللحية اللؤلؤ.

منطقة سنحان:

تحدها همدان وذيبان Daibân وخولان وبلاد آنس والحيمة. ومن أهم مدنها وقراها:

- صنعاء: وهي مدينة قديمة مشهورة، يقيم فيها الإمام وهي عاصمة مملكته.
- بير العزب: هي أقرب القرى إلى صنعاء، بل تعتبر ضاحية من ضواحي صنعاء.
- عصر: «قرية كبيرة بل يمكن اعتبارها مدينة صغيرة، ويسكنها اليهود فقط، ولذلك تسمى عادة بقاع اليهود»[1]. وقد حاول نيبور أن يجد تشابهاً[*] بين اسم هذه القرية، الذي كتبه هكذا: عسر Osér، واسم أزال Usal، وهو الاسم القديم لصنعاء.
- الروضة Rodda: هي مدينة صغيرة، تقع على السائلة نفسها المارة بصنعاء، وعلى بعد أربع ساعات نحو الشمال من صنعاء. وللإمام وأعيان صنعاء فيها بيوت وبساتين.
- سعوان Zauân: منطقة صغيرة، تقع شمال شرق صنعاء.
- طيبة Taibe: قرية، تقع شمال غرب صنعاء.
- حدة Hodde: قرية، تقع على بعد ميل وربع من صنعاء نحو الجنوب، وللإمام بساتين فيها.
- رماع ابن حميد Rema ibn Homeid: قرية، فيها سمسرة كبيرة، ومحطة

(1) يبدو أن نيبور قد خلط بين عصر وقاع اليهود.

(*) كثيراً ما حاول نيبور إيجاد تشابه بين الأسماء اعتماداً على السمع ولم يكن موفقاً في ذلك. Niebuhr, C., BVA, S. 231.

للقوافل، وتقع على بعد بضعة أميال من صنعاء، نحو الجنوب، على طريق ذمار، وتسمى عادة رماع فقط.

هذه المدن والقرى آنفة الذكر، وكثير غيرها، تتبع والي صنعاء وهو الأمير علي، أخو الإمام المهدي. وإلى جانبها كانت هناك قرى يمتلكها أو يعود دخلها إلى بعض أفراد أسرة الإمام، أو الأسر الكبير الأخرى. ومنها:

- سيان Sejiân: قرية تبعد عن صنعاء بمقدار ثلاثة أميال نحو الجنوب.
- زراجة Suradsje: قرية كبيرة تبعد سبعة أميال ونصف من صنعاء، على طريق ذمار.
- سوق العفص Suk el AFS وفيلان Weilân[*]: قريتان كبيرتان في جبل الروس، تمتلكهما أسرة إسحاق، أمراء وصاب.

منطقة بلاد آنس Anes[**]:

تحدها ريمة وعتمة ومغارب عنس. ومن أهم مدنها وقراها:

- ضوران: مدينة قديمة. وهي مركز العامل. وكانت عاصمة للإمام المتوكل إسماعيل[***]، الذي دفن وأخوه حسن فيها.
- معبر: قرية تقع بين مدينتي ضوران وذمار[****].
- عبيد[*****]: مدينة صغيرة في وادي ريمة.

(*) لم أجدهما في الخارطة ولعلهما العبس ووعلان.

(**) كتب نيبور اسم آنس تماماً كاسم عنس والروضة كاسم رداع وقد وقع في أخطاء من هذا النوع لاعتماده على السماع والتباس مخارج بعض الأحرف العربية عليه.

(***) الإمام المتوكل إسماعيل بن القاسم تولى الإمامة في الفترة من ١٠٥٣ هـ ١٦٤٣ م إلى وفاته عام ١٠٨٧ هـ ١٦٧٦ م.

(****) أخطأ نيبور بعض الشيء في تحديد موقع معبر فهي تقع شمال ذمار وشمال شرق ضوران.

(*****) لعلها مدينة العبيد.

- سوق الجمعة: قرية كبيرة، تقع بالقرب من مدينة عبيد.

منطقة رداع:

تحدها حولان ويافع. وأهم مدنها مدينة رداع، مركز المنطقة ومقر العامل، وهي مدينة صغيرة فيها قلعة حصينة.

ولم يذكر نيبور أية معلومات أخرى عن هذه المنطقة، إذ لم يتمكن من الحصول على معلومات عن مدنها وقراها[1].

منطقة مغارب عنس:

تحدها منطقة صنعاء وبلاد آنس ويريم. ومن أهم المدن والقرى فيها:

- ذمار: وهي مدينة كبيرة غير مسورة، يقيم فيها العامل، وتبعد عن صنعاء بمقدار اثني عشر ميلاً ونصف. وفيها أكاديمية «يدرس فيها غالباً الزيديون»[2]. كما توجد فيها قلعة كبيرة.

- المواهب: هي مدينة صغيرة، لا تبعد كثيراً عن ذمار، وفيها قلعة. وقد كانت عاصمة للإمام المهدي محمد بن أحمد(*)، الذي قبر فيها.

- جبل هران: يقع إلى الشمال الغربي من مدينة ذمار، ويوجد فيه العقيق اليماني.

- جبل الكبريت أو الأسي: يقع إلى المشرق من ذمار.

منطقة عتمة:

تحدها بلاد آنس وريمة ووصاب ومغارب عنس. ولم يستطع نيبور - كما ذكر - أن يحصل على معلومات عنها أكثر من أن مدينة عتمة هي مركز منطقة

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 235.

(2) Niebuhr, C., BVA, S. 235.

(*) هو الإمام المهدي، صاحب المواهب، انظر هامش ص ٢٨ من هذا البحث.

عتمة، ومقر العامل، وأنه يوجد سوق، يسمى سوق الربوع، وفيه قلعة. وأضاف نيبور قائلاً «وقد أخبرني شخص آخر أن العامل يسكن في سوق الربوع. وهذا ربما يعني أنها لا توجد مدينة اسمها عتمة بل إن هذا الاسم هو اسم المنطقة فقط»[1].

منطقة يريم(*):

تقع بين مغارب عنس وجبل سمارة. ومن أهم مدنها وقراها:

- يريم: وهي مدينة صغيرة، سيئة البناء، يقيم فيها العامل. وتبعد عن ذمار بمقدار أربعة أميال نحو الجنوب.

- ظفار: عبارة عن خرائب لمدينة كانت لها أهميتها الكبيرة، تحت حكم الملوك الحميريين. وتبعد عن مدينة يريم بمسافة يوم واحد، نحو الجنوب الغربي.

وقد أشار نيبور إلى أنه لم يستطع أن يحصل على أكثر من هذه المعلومات عن منطقة يريم، إضافة إلى مجرد بعض أسماء لعدد من القرى.

المخادر:

هي منطقة صغيرة وخصبة. قال عنها نيبور إنها «أعطيت لإبراهيم ابن الإمام المهدي محمد، وعندما توفي عام ١٧٦٢ م آلت إلى ابنه إسماعيل. ولا أعلم علم اليقين فيما إذا كانت تحكم من قبل إسماعيل نفسه حكماً مستقلاً عن سلطة الإمام، ولكني أرجح أنه يحصل على دخلها، في حين يتولى حكمها دولة معين من قبل الإمام»[2]. ومن أهم المدن والقرى في هذه المنطقة:

- المخادر: وهي مدينة صغيرة، تقع فوق جبل، وتوجد فيها قلعة. وتبعد عن

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 235 - 236.

(2) Niebuhr, C., BVA, S. 237.

(*) حاول نيبور أن يجد تشابهاً بين اسمي يريم وإرم، التي ورد ذكرها في القرآن الكريم. انظر: Niebuhr, C., BVA, S. 236.

مدينة إب بمسافة ميلين و٥/٨ الميل، نحو الشمال، وعن مدينة يريم بمسافة أربعة أميال ونصف، نحو الجنوب الغربي.

- قرى Dolme و Tullûb و Schomên.

وهناك مناطق وقرى تقع قريبة من المخادر، لم يستطع (نيبور) أن يتحقق، مما إذا كانت تتبع إدارياً منطقة المخادر أم لا. وهي:

- سمارة أو جبل سمارة.
- المنزل: وهي قرية، تقع في جبل سمارة، وفيها محطة للقوافل.
- Robô el Haüa: وهو عبارة عن حصن يمتلكه النقيب محمد بن عبد الله الوادعي.
- حصن بني حسن: وهو عبارة عن قلعة، في قمة جبل سمارة، هدمت منذ سنوات قليلة، وأجبر بنو حسن على الاعتراف بسلطة الإمام.
- بلاد خبان: تقع إلى الشمال من المخادر، ويعود دخلها إلى السيد إسماعيل بن إبراهيم، الأنف الذكر.
- حبيش: مدينة تقع على مرتفع، بين المخادر وعتمة، وتتبعها منطقة حبيش «وربما أن لها شيخها»[1].

منطقة اليمن الأعلى(*):

تحدها العدين والمخادر وتعز، وتسمى مخزن غلال اليمن لخصوبتها، وهي كثيفة السكان. ومن أهم مدنها وقراها:

- جبلة: وهي أهم مدن هذه المنطقة ومركزها ومقر العامل.
- إب: ثاني مدينة من حيث الأهمية، بعد مدينة جبلة، ويقيم فيها نائب للعامل.

---

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 238.

(*) هكذا يسميها نيبور.

- السويق: قرية تقع بين إب والمخادر.
- Diksera: قرية تمتلكها أسرة إسحاق.
- محرس: قرية، محطة قوافل، والطريق إليها مرصوفة.

منطقة قعطبة(*):

تقع في الحدود الجنوبية لمملكة الإمام. ومن أهم المدن والقرى فيها:

- مدينة قعطبة: وهي مركز المنطقة ومقر العامل.
- خيران Cheirân: وهي مدينة جبلية صغيرة.
- Ghurefie: قرية كبيرة.

منطقة تعز:

تحدها منطقة اليمن الأعلى والعدين وبني عقلان والحجرية. ومن أهم مدنها وقراها:

- مدينة تعز: وهي مركز المنطقة ومقر العامل «وتبعد عن مدينة عدن بمسافة خمسة أيام: يوماً من تعز إلى خدير، ويوماً من خدير إلى حروة، ونصف يوم من حروة إلى نقيل الحمار، ويوماً ونصف من نقيل الحمار إلى لحج، ويوماً من لحج إلى عدن»[1].
- جبل صبر: وهو عبارة عن سلسلة من الجبال، كل جبل منها يحمل اسماً خاصاً به وأعلاها جبل حصن العروس. ولخصوبة جبل صبر يعتقد اليمنيون أنه يحتوي على جميع أنواع النباتات الموجودة في العالم، كما يعتقدون أنه يوجد فيه الكهف، الذي ورد ذكره في القرآن[2].
- مدينة عدينة: مدينة قديمة، تقع بالقرب من قاهرة تعز، ولم يبق منها إلا

---

(١) Neüebuhr, C. BVA, S. 241.

(٢) Niebuhr, C. BVA, S. 241.

(*) حاول نيبور أن يجد تشابهاً بين اسمي قعطبة وقتبان، ليخلص إلى القول: «إنه من لمحتمل جداً أن قعطبة هي نفسها قتبان». أنظر Niebuhr, C., BVA, S. 241.

أطلالها. وقد اعتقد نيبور خطأً، أنها ربما تكون بقايا مدينة عدن لاعة(*).

- الجند: مدينة كانت مشهورة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكنها الآن أصبحت قرية صغيرة، ويقع فيها مسجد معاذ بن جبل.

- الضباب: منطقة جميلة تقع في طريق تعز - يفرس.

ومن القرى والمناطق التابعة لتعز أيضاً: شرمان والقاعدة وذي السفال وشرعب.. إلخ.

بلاد الحجرية:

تحدها مناطق تعز وقعطبة وبني عقلان والمخا ويافع وعدن. وقد حكمها الشيخ عبد الرب مستقلاً عن مملكة الإمام، ثم ضمت بعد ذلك إلى مملكة الإمام، وأصبحت تتبع إدارياً العامل في تعز. وأهم مدنها وقراها:

- الدملوة: مدينة صغيرة، تبعد مسافة يوم وربع إلى الجنوب الشرقي من تعز.

- Galla : كانت مقراً للشيخ عبد الرب.

- المقاطرة: هي عبارة عن قلعة منيعة للغاية. وقد كانت أيضاً، ولبعض الوقت، مقراً للشيخ عبد الرب.

- يفرس: مدينة، كان الإمام يعين فيها أحياناً عاملاً. ويوجد فيها قبر الولي ابن علوان(**).

- منصورة: قرية كبيرة، تدل خرائب مساجدها على أنه كان لها ماضي زاهر.

- فلس: قرية كبيرة.

- العزاعز: قرية على حدود منطقة عدن.

(*) لقد وهم نيبور فعدن لاعة تقع في منطقة حجة وقد كانت عاصمة منصور اليمن: انظر: الحموي، معجم البلدان، مج ٤، ص ٨٩، ٩٠، والحجري، بلدان اليمن، مج ٢، ص ٥٨٢، واليمني، تاريخ اليمن، ص ٣٨ - ٣٩.

(**) أحمد بن علوان، صوفي يمني مشهور توفي عام ٦٦٥ هـ/١٢٦٧ م. انظر: الزركلي، الأعلام، مج ١، ص ١٧٠.

بلاد ابن عقلان أو بني عقلان(*):

كان يحكم هذه المنطقة إلى عهد قريب شيخ مستقل عن سلطة الإمام، من سلالة عقلان(**). ومن أهم المدن والقرى التابعة لها:

- الدريبات Dorebât: وهي مدينة صغيرة، تقع على جبل، وتبعد أحد عشر ميلاً عن المخا. وهي مركز المنطقة ويقيم فيها الشيخ ابن عقلان، وإلى جانبه موظف حكومي وبعض الجنود. وفيها سجن محفور في الصخر، هو أفظع سجن يمكن تصوره(١).

- القماعرة: عبارة عن مرتفعات جبلية، يحكم المشايخ جزءاً كبيراً منها، مستقلين عن مملكة الإمام.

ومن القرى التابعة لهذه المنطقة: Aqhûs، وشمير Schamir، والأهمول Ahmûl.

منطقة العدين(***):

لهذه المنطقة شيخ يحكمها حكماً مستقلاً عن مملكة الإمام. ومن أهم مدنها وقراها:

---

(١) انظر Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 375.

(*) لم يشر نيبور إلى حدود هذه المنطقة ولكن من خلال ورود ذكرها في حدود مناطق أخرى ومن خلال حديثه عنها في يومياته يتضح أنها تقع مجاورة لمناطق تعز والحجرية والمخا ووصاب السافل.

(**) أشار نيبور إلى أن الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن أمير الدين من سلالة عقلان لا يزال شيخاً على منطقته رغم أن الإمام قد استطاع إخضاعها وضمها إلى مملكته. وقد استمر ابن عقلان يحكمها ويدفع ضرائب محددة للإمام، كما أن الإمام قد عين موظفاً مع عدد من الجنود التابعين له إلى جانب الشيخ ولم يشر نيبور إلى نوع العلاقة بين موظف الإمام والشيخ عبد الله بن عقلان. انظر: Niebuhr, C. BVA, S. 244.
وكذا: Niebuhr, C. RB, Bd. 1, S. 375.

(***) لم يلتزم نيبور بطريقة موحدة عند حديثه عن المناطق الإدارية المختلفة فمرة يذكر جميع المناطق المحادة لها ومرة يكتفي بإيراد اسم منطقة واحدة محادة فقط وأحياناً لا يذكر اسم أي منطقة محادة.

- العدين: وهي مدينة غير مسورة، تقع على جبل بالقرب من الوادي الذي يسمى بالى زبيد. وتبعد مسافة خمسة عشر ميلاً عن مدينة بيت الفقيه.
- Machna: قرية تبعد خمسة أميال عن مدينة العدين، على طريق العدين بيت الفقيه. ويقيم فيها نائب للعامل.

ومن قرى هذه المنطقة أيضاً قريتا بني عواض والمليكي.

منطقة وصاب الأعلى:

تحدها تهامة. وقد ذكر نيبور أنه غير متأكد مما إذا كانت هذه المنطقة تحكم من قبل عامل من عمال الإمام أم لا[1]. ومن أهم المدن والقرى التابعة لهذه المنطقة:

- الدن Denn: وهي مدينة صغيرة، توجد فيها قلعة كبيرة، وسوق أسبوعي.
- روضة وصاب Rodde 'Osâb: وهي عبارة عن حصن منيع.
- قرية Had.

منطقة كسمة:

تقع في شرق منطقة بيت الفقيه، وهي منطقة واسعة، تضم مناطق عديدة، تسكنها عشائر كثيرة، لكل منها شيخها، الذي يحكمها مستقلاً من الناحية العملية، مع الإعتراف بسلطة الإمام. ومركزها هو مدينة كسمة، وهي مدينة صغيرة، يقيم فيها العامل. ومن المناطق التابعة لكسمة:

- منطقة بني الطلبي وتقع فيها مدينة كسمة.
- منطقة مسور.
- منطقة بني بكال.
- منطقة بني أحمد.

(1) Niebuhr, C. BVA, S. 245.

- منطقة بني القحوي. وفيها تقع قرية الحدية، التي تعتبر من أهم أسواق البن في اليمن.
- منطقة بني سعد.
- منطقة بني وقيد. وفيها قرية علوجة، التي تعتبر أيضاً من أسواق البن الهامة.
- منطقة بني ضبيبي.

منطقة الجبي:

تقع هذه المنطقة في شمال منطقة كسمة. ويطلق اليمنيون على كلا المنطقتين الجبي وكسمة اسماً واحداً هو ريمة. ومثلما هو الحال بالنسبة لمنطقة كسمة، تتوزع الجبي عشائر، لكل منها شيخها ومنطقتها. ومن مناطق الجبي:

- منطقة بني حمران Bani H'ommerân. وفيها تقع مدينة الجبي، مركز منطقة الجبي ومقر العامل.
- منطقة بني هندوان Bani Hindewân.
- منطقة بني حسين.
- منطقة Hadedda(*).

وقد ذكر نيبور أنه لم يشاهد بنفسه المناطق التي تتبع الجبي جميعها، إذ أنه قد مر بمنطقة الجبي مروراً سريعاً، وهو في طريق عودته من صنعاء إلى بيت الفقيه باتجاه المخا. لهذا فلم يكن متأكداً من مواقع هذه المناطق، وقد حمّلها على خارطته، مستنداً إلى ما تلقاه من معلومات شفوية من المواطنين[1].

(1) Niebuhr, C. BVA, S. 249.

(*) لعلها الحدادة أو الحديدية وكلاهما عزلتان في بلاد ريمة. انظر: الحجري، بلدان اليمن، مج 1، ص ٢٥٠ - ٢٥١.

منطقة حفاش:

تحدها مناطق اللحية والجبي وحراز وكوكبان. ومن أهم مدنها وقراها:

- مدينة صفقين Sefekin، وهي مدينة مسورة وفيها مقر العامل.
- قرية Beit el Nashih(*).
- جبل ملحان.

منطقة حراز:

وأهم مدنها مدينة مناخة، وهي مركز منطقة حراز ومقر عاملها. ومن مناطقها:

- منطقة بني إسماعيل.
- منطقة بني محمد.
- منطقة بني سعد.
- منطقة بني حسن.

منطقة الحيمة السفلى(**) Heime el Asfal:

تحدها حراز والحيمة العليا وبلاد آنس. وتمر منها طريق صنعاء ـ بيت الفقيه. ويعود دخلها إلى أحد أفراد أسرة الإمام. ومن أهم مدنها وقراها:

- مفحق: مدينة صغيرة فيها قلعة وفيها مقر العامل.
- قرية سهام Sehâm.
- سوق الخميس.

منطقة الحيمة العليا(***) Heime el âla:

تحدها مناطق سنحان والحيمة السفلى وحراز وكوكبان. وذكر نيبور، أنه

(*) لعلها بيت الشريفي أو نزيله.
(**) يسميها اليمنيون الحيمة الخارجية.
(***) يسميها اليمنيون الحيمة الداخلية. انظر: الويسي، اليمن الكبرى، ص ٧٩.

يظن، انه قد سمع أن دخل هذه المنطقة يعود إلى أحد أفراد أسرة الإمام[1].

ولم يذكر نيبور اسم أي مدينة أو قرية من مدن وقرى هذه المنطقة باستثناء مدينة العر، وهي مدينة صغيرة يقيم فيها العامل.

منطقة ثلا(*):

سميت باسم مدينة ثلا، وهي مدينة حصينة، يقيم فيها العامل. ومن مدن وقرى ومناطق ثلا:

- مدينة كحلان.
- منطقة بني عفار.
- بلاد حجة، وتملكها أسرة شمسان Schemsân وتقع فيها مدينة الظفير Doffir، وهي مدينة كبيرة. وفيها أيضاً قرية ذي النوب ويملكها النقيب صالح بن نصر.
- مدينة حبور.
- بلاد السودة.

ويوجد في منطقة ثلا جبل شهارة، وهو جبل كبير فيه حوالي ثلاث مئة قرية.

منطقة همدان:

تقع في شمال غرب صنعاء، وهي من مناطق اتحاد حاشد وبكيل ولكنها تتبع مملكة الإمام، وتقدر مساحتها بمسافة يومين طولاً، ويوماً واحداً عرضاً. وفيها عامل معين من قبل الإمام، وهو نفسه شيخها، وهو الشيخ صالح بن خليل، ويشغل ـ إضافة إلى كونه شيخ المنطقة وعاملها ـ منصباً كبيراً في جيش الإمام. ومن أهم مدن وقرى هذه المنطقة:

(1) Niebuhr, C., BVA. S. 251.

(*) أشار نيبور إلى أن مناطق ثلا وهمدان وعمران وخمر، وهي مناطق تقع إلى الشمال من صنعاء، تدخل ضمن مملكة الإمام إلا أنها لا تدفع شيئاً له، ويمكن اعتبارها من الناحية العملية مستقلة. ومع ذلك فقد ذكر أنه كان عليها عمال من قبل الإمام. انظر: Niebuhr, C., BVA. S. 253 - 254.

- Medem(*)، وهي مدينة صغيرة.
- قرية بيت النوم.
- قرية لولوة.
- منطقة المنكب Mnakeb(**)، التي يحفر سكانها منازلهم في الصخور.

منطقة عمران:

وهي أيضاً جزء من مناطق اتحاد حاشد وبكيل، وتتبع مملكة الإمام. وتقع فيها مدينة عمران، وهي مدينة صغيرة مسورة، ومدينة الجند وهي أيضاً مدينة صغيرة مسورة «وهي غير الجند الواقعة قرب مدينة تعز»[1].

منطقة خمر:

وهي منطقة صغيرة، لا تتجاوز حدودها حدود مدينة خمر نفسها. وهي جزء من منطقة اتحاد حاشد وبكيل، وتقع ضمن منطقة بني صريم. ويضطر الإمام للإبقاء على منطقة خمر ضمن مملكته إلى بذل «جهد كبير وأموال طائلة»[2].

٣ . المناطق المستقلة عن مملكة الإمام:

إضافة إلى المناطق الإدارية السابقة والتي تقع ضمن مملكة الإمام تحدث نيبور عن المناطق اليمنية المستقلة عن حكم الإمام معتمداً في ذلك اعتماداً كلياً على ما تلقاه من معلومات، إذ لم يقم بزيارتها ومشاهدتها بنفسه.

وهذه المناطق هي:

إمارة عدن:

وهي إمارة صغيرة، يحدها من الجنوب البحر ومن الشمال مملكة الإمام ومن الشرق يافع وبعض الإمارات المستقلة الأخرى. وكانت تتبع مملكة الإمام،

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 254.
(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 254.
(*) لعلها مدام
(**) هكذا كتبها نيبور بالأحرف العربية وبالأحرف اللاتينية. ولعلها المنقّب.

إلى ان انفصلت عنها في الثلاثينات من القرن الثامن عشر(*). وعاصمة هذه الإمارة هي مدينة عدن، وهي مدينة قديمة، ورغم أنها تعتبر ميناءً هاماً، إلا ان عدم تنظيم علاقة حاكمها بجيرانه، قد أفقدتها أهميتها كميناء، إلى حد كبير. وتدخل ضمن حدود هذه الإمارة منطقتي لحج والفضلي.

ولاعتماد نيبور على مجرد السماع، فإن معلوماته، عن هذه الإمارة وعن حكامها، معلومات مشوشة. وقد اعتذر عند إيراده أسماء بعض المناطق بأنه ربما يكون قد سمعها بصورة غير دقيقة.

إمارة كوكبان:

تقع بين مملكة الإمام وبين بلاد اتحاد حاشد وبكيل. ومن أهم المدن والقرى والمناطق التابعة لها:

- مدينة كوكبان: وهي مقر حكام الإمارة، ويسميها اليمنيون الحصن، لوقوعها على جبل منيع(**).
- مدينة شبام(***).
- مدينة الطويلة.
- مدينة المحويت.
- وادي لاعة: ويملكه السيد إبراهيم، أخو أمير كوكبان.

(*) تختلف المصادر في تحديد السنة التي استقلت فيها عدن عن مملكة الإمام فقد ذكرت مثلاً السنوات ١٧٢٨م و١٧٢٩م و١١٤٥هـ (١٧٣٢م). قارن: يعقوب، ملوك شبه الجزيرة، ص٢٢. والحبيشي، اليمن الجنوبي، ص٩. والعبدلي، هدية الزمن، ص١٢٢، ١٣٣.

(**) ذكر نيبور أن اليمنيين يطلقون أسماء أخرى على بعض مدنهم، إلى جانب أسمائها الأصلية، مأخوذة من موقع المدينة أو من النشاط البارز الذي يمارسه سكانها. فصنعاء تسمى المدينة، وتعز البستان، وذمار الحصان (لاشتهارها بتربية الخيول)، وزبيد المدرسة، وكوكبان الحصن، انظر: Niebuhr, C., BVA, 257.

(***) أشار نيبور إلى أن الجغرافيين العرب ربما قد خلطوا بين شبام كوكبان وشبام حضرموت، فالوصف الذي قدمه أبو الفداء، وكذا الإدريسي، لشبام حضرموت، يبدو قريباً من الوصف الذي سمعه، أي نيبور، عن شبام كوكبان. انظر Niebuhr, C., BVA, S. 257.

بلاد القبل أو منطقة حاشد وبكيل:

هي منطقة واسعة، تحدها الصحراء شمالاً (صحراء Amasia)(*) ومملكة الإمام وكوكبان جنوباً، والجوف شرقاً، وأبو عريش غرباً.

ويحكم هذه المنطقة مشايخ كثيرون، كل منهم مستقل بحكم منطقته، ولم تدخل منها ضمن مملكة الإمام سوى همدان وعمران وخمر. ولأن هذا الوضع الممزق يؤثر على القدرة القتالية لحاشد وبكيل، فقد عقدت القبيلتان اتحاداً عسكرياً بينهما، يتضمن تشكيل قوة مقاتلة واحدة في أيام الحرب، يقودها نقباء مختارون من كلا القبيلتين.

ويذكر نيبور أنه قد اعتمد، اعتماداً كبيراً، في معرفة أسماء حكام (مشايخ) هذه المنطقة، على ما كان قد استقاه من معلومات، من الهولندي، الذي عاش سنوات، متنقلاً فيها، وتعرف خلال ذلك على جميع مشايخها ونقبائها تقريباً[1]. نفس الأسماء التي سنوردها عند حديثنا عن جيش حاشد وبكيل[2].

ومن المناطق والمدن والقرى التي تضمها منطقة حاشد وبكيل:

- منطقة الغراس Charres: تقع شمال صنعاء، وفيها مدينة الغراس Charess(**)، التي كانت مقراً للإمام المهدي أحمد بن حسن، وفيها قبره(***).

---

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 259.

(2) انظر ص ١٢١ - ١٢٣ من هذا البحث.

(*) هكذا كتب اسمها نيبور ولعلها المنطقة الصخرية المعروفة بالعمشية: انظر: الويسي، اليمن الكبرى، ص ٢٤.

(**) هكذا كتب نيبور الاسمين، ولعله يقصد بالاسم الأول منطقة بني الحارث، التي تقع فيها الغراس. وقد تشابهت عليه كثير من الأسماء لاعتماده في كتابتها على السمع. انظر: المقدمة، ص ١٣ - ١٤ من هذا البحث.

(***) تولى الإمامة عام ١٠٨٧ هـ/١٦٧٦ م بعد وفاة عمه الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم، وتوفي في حصن الغراس عام ١٠٩٢ هـ/١٦٨١ م انظر: الجرافي، المقتطف، ص ١٧٩ وما بعدها.

- منطقة ذيفان Deifân: وفيها مدينة ذيفان، وقرية الحطبة El Hâttba.
- منطقة بني علي.
- منطقة بني حشيش.
- منطقة بني السري.
- منطقة بني جبر Beni Dsûbbâr: وفيها تقع مدينة ذي بين، وهي مدينة صغيرة غير مسورة، قبر فيها الإمام المهدي أحمد بن حسين(*)، الذي لقبه اليمنيون أبو طير[1].
- منطقة غولة ابن حسين Ghula ibn Hossein
- منطقة بني قيس: ومن قراها ضمد وصبيا Sabbia.
- منطقة ذو محمد.
- منطقة سفيان: وفيها سوق الحرف وقرية بركان، وإلى هذه القرية يمكن السفر دون خوف، أما بعدها فلا يمكن السفر إلا في قوافل.
- منطقة بني عصيمات.
- منطقة وادعة: وفيها سوق وادعة.
- منطقة بني صريم: وهي منطقة كبيرة، حتى ليقال أنها تستطيع أن تحشد تسعة آلاف مقاتل. وأهم مدنها مدينة خمر، وهذه المدينة تتبع مملكة الإمام.
- قاع البون.

منطقة أبو عريش:

تقع هذه المنطقة في تهامة، وتمتد من حدود اللحية جنوباً، إلى الطوي

---

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 262.

(*) تولى الإمامة عام ٦٤٦ هـ/١٢٤٨ م واستمر فيها حتى وفاته عام ٦٥٥ هـ/١٢٥٧ م. انظر: الجرافي المقتطف، ص ١٣٣ - ١٣٤.

Attaie شمالاً، أي بين خطي العرض ١٥,٥٠ و ١٧,٤٠. وكانت إلى عهد قريب تتبع مملكة الإمام. ومن أهم مناطقها ومدنها وقراها:

- مدينة أبو عريش: وهي العاصمة وباسمها سميت المنطقة، وفيها مقر الشريف، حاكم أبوعريش، وتبعد عن جيزان بمسافة يوم واحد.
- مدينة جيزان: تقع على البحر الأحمر، وفيها ميناء(*).
- قرى حرض وبحيص وصبيا. وتشتهر صبيا بحميرها الجيدة(**).
- منطقة خبت البقر: وتسكنها عشائر فقيرة عرف عنها «أنها تحب أن تخفف عن المسافرين عبء ملابسهم»[1].

وتتبع أبوعريش بعض الجزر الصغيرة. وقد كانت علاقة شريف أبو عريش بالإمام علاقة سيئة. فقد أشار (نيبور) إلى أن الشريف لم يكن يقابل الأجانب مقابلة جيدة، وخاصة رعايا الإمام[2].

المنطقة الفاصلة بين أبو عريش والحجاز:

في المنطقة الواقعة بين حدود أبوعريش وحدود الحجاز، أي بين خطي العرض ١٧,٤٠ و ١٨,٣٠، تعيش عشائر بدوية تحكم من قبل مشايخها.

منطقة خولان:

ذكر نيبور أن الشريف الإدريسي قد حدد هذه المنطقة، بأنها تقع على بعد أربعة أيام من خلّي، في منتصف الطريق بين مكة وصنعاء. وأنه، أي نيبور، لم يتلق معلومات عنها، أكثر من أنها تقع شرق صعدة، وأنها لا زالت

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 268.

(2) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 294.

(*) ذكر نيبور ان سكان الساحل الإفريقي الشرقي يسمون شريف أبو عريش بشريف جيزان، تماماً مثلما يسمى الأوروبيون إمام اليمن إمام المخا وإمام عمان إمام مسقط، وذلك لأنهم لا يعرفون من هذه البلدان سوى موانئها المذكورة. انظر: Niebuhr, C., BVA, S. 268.

(**) لعل نيبور يشير بذلك إلى الحمير الصبيانية، وهي حمير مشهورة في اليمن.

تسمى خولان. وتشتمل على مناطق وقرى، منها حيدان وسوق الجمعة وعقبة مسلم.

منطقة Sahan(*):

هي منطقة جبلية واسعة، تقع بين بلاد حاشد وبكيل وبين الحجاز. واهم مدنها صعدة، وهي مقر السيد حسن بن يوسف بن حسين، من أنسال الإمام الهادي، ويسمي نفسه إماماً، ولكنه لا يحكم سوى رقعة صغيرة، بينما يحكم المشايخ معظم أجزائها. ومن أهم المناطق التابعة لها:

- منطقة أم ليلة وصحراء Amasia، وبركة سويدان، وكدّاد.

إمارة نجران:

تبعد إمارة نجران عن صنعاء بمسافة ثلاثة أيام، وهي إمارة مستقلة يحكمها الشيخ المكرمي. وأهم مدنها مدينة نجران وهي العاصمة، وللوصول إليها من صنعاء يمر المسافر بالمناطق التالية: ذيفان وغولة وحوث وسوق الحرف و Neseif و Amasia وصعدة ويام و Minneschid.

إمارة قحطان:

لم يستطع نيبور أن يعرف عن إمارة قحطان، أكثر من أنها تقع على مسافة ثلاثة أيام من نجران، وأنه يحكمها شيخ مستقل، وأنها كذلك تشتهر بتربية الخيول.

منطقة الجوف:

تحدها إمارة نجران ومنطقة حاشد وبكيل وحضرموت وعمان. ومعظمها سهول رملية. وتنقسم إلى ثلاثة أقسام: بلاد البدو، وبلاد السلاطين، وبلاد الشريف. ومن أهم مناطقها ومدنها وقراها:

(***) ربما يقصد نيبور سحار، ويبدو أنه قد أخطأ في معرفة الاسم كما أخطأ في تحديد موقع هذه المنطقة.

- مدينة مأرب: وهي المدينة القديمة، التي كانت ذات يوم عاصمة السبئيين. وقد سماها اليونان مريبة أو مريابة. ولا زالت تعتبر أهم مدن الجوف.

- مدينة حريب.
- منطقة بيحان.
- منطقة نصاب.
- منطقة مرخة.
- منطقة عبر.
- منطقة مراد.

منطقة نهم:

هي منطقة صغيرة يحكمها شيخها «الذي يقال عنه أنه رجل مقاتل شديد البأس»[1] مما يجعل الإمام حريصاً، باستمرار، على كسب صداقته.

منطقة خولان:

تقع هذه المنطقة على بعد أميال قليلة جنوب شرق صنعاء، وهي غير منطقة خولان السالفة الذكر. ويعمل شيخها في جيش الإمام برتبة نقيب، ولذا فإن معظم إقامته في صنعاء(*) ومن مناطق ومدن وقرى خولان:

- مدينة تنعم(**).
- منطقة بيت الكبسي Beit el Kibsi.
- بعض القرى، التي أصبحت تتبع مملكة الإمام، وكانت من قبل تتبع خولان، مثل زراجة وسيان.

---

(1)

(*) يبدو أن معلومات نيبور عن خولان وامتدادها كانت ناقصة فهو يصورها منطقة صغيرة يحكمها شيخ واحد وظفه الإمام في جيشه.

(**) حاول نيبور أن يجد تشابهاً بين اسم تنعم واسم تمنة عاصمة القتبانيين.

Niebuhr, C., BVA, S. 280.

منطقة يافع:

تحدها مناطق عدن والحجرية وقعطبة ورداع وحضرموت. وقد كانت تتبع مملكة الإمام ولكنها انفصلت منذ حوالي ثمانين عاماً(*). وهي مقسمة إلى ثلاث مناطق، كل منطقة منها يحكمها سلطان:

- السلطان البياض El Beiâd وعاصمته مدينة Medsjeibe، الواقعة إلى الجنوب من مدينة رداع.
- السلطان علي بن قحطان، وعاصمته مدينة الموسطة Mosâka، الواقعة إلى الجنوب من مدينة قعطبة.
- السلطان علي بن سيف، وعاصمته مدينة القارة، وتتبعه مدينة البيضاء.

وقد امتدت حدود يافع إلى بعض مناطق حضرموت، كمنطقة الشحر.

منطقة حضرموت:

أفرد نيبور لحضرموت فصلاً خاصاً في كتابه (وصف بلاد العرب) BVA. ومع ذلك فقد أكد أن حضرموت، كانت جزءاً من بلاد العربية السعيدة، وأخذ يتحدث عنها كجزء من اليمن، ولم يميز بينها وبين اليمن، باستثناء وضعها تحت عنوان منفصل، سواءً من الناحية التاريخية، أو الجغرافية، أو الاقتصادية، وقد أشار أيضاً إلى أن المهرة هي جزء من حضرموت.

وتنقسم حضرموت إلى قسمين رئيسيين: القسم الأول، هو بلاد البدو، الذين يعيشون في الخيام حياة البداوة، والقسم الثاني، هو بلاد القبائل، التي تعيش في المناطق الجبلية، وتحكم من قبل العديد من المشايخ والسلاطين، المستقل كل منهم عن الآخر. ويعتبر شيخ مدينة شبام واحداً من أقوى المشايخ. وقد ذكر نيبور أنه لم يسمع عن شبام من المعلومات، أكثر من أن المسافر

(*) بالنسبة إلى عام ١٧٦٣ م، وهو العام الذي زار فيه نيبور اليمن.

يستغرق في سفره ثمانية أيام، من صنعاء إلى مأرب، ثم عشرة أيام، من مأرب إلى شبام. وتضم حضرموت إلى جانب شبام مدناً كثيرة منها:

- مدينة دوعن. وتبعد عن صنعاء بمسافة خمسة وعشرين يوماً. وشيخها اسمه سعيد بن عيسى العمودي.

- مدينة قيدون.

- مدينة ظفار: وهي مدينة مشهورة وميناء هام، ويحكمها شيخ مستقل.

- مدينة قشن: وهي ميناء أيضاً. وشيخها يحكم جزيرة سقطرة. وتبعية هذه الجزيرة لحضرموت قديمة جداً، فقد أشار إلى ذلك المؤرخ (أريانوس Arrianus)(*).

- موانىء لم يستطع نيبور أن يعرف عنها أكثر من أسمائها، مثل: ريفوت وفرتك.

- مدينة (عينات Ainâd): وقد ذكر نيبور أن أحد سكان حضرموت قد أخبره في مسقط أن مدينة عينات والمنطقة التابعة لها تحكم من قبل شيخ مستقل. ولكنه (أي نيبور) قد استنتج، من خلال إجابات الرجل نفسه، على أسئلة أخرى، وجهها إليه، أن هذه المدينة، والمنطقة التابعة لها تتبعان أحد سلاطين يافع. ويوجد في القرب من عينات قبر النبي هود. وتقام زيارة سنوية لهذا القبر، في شهر شعبان، يحضرها الناس من مختلف مناطق حضرموت. ويعتقد نيبور أنه «ربما يقام في هذا الوقت من السنة سوق كبير، إذ إن الحج إلى هذا القبر قد يكون بغرض البيع والشراء أكثر مما هو بغرض إحياء ذكرى، مرت عليها آلاف السنين»[1].

---

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 288.

(*) أريانوس هو مواطن من بيثينيا، وهي إقليم قديم في الشمال الغربي لآسيا الصغرى، وتعتبر الآن جزء من تركيا. عاش في القرن الثاني الميلادي، وله كتابات تاريخية أشهرها «تاريخ الإسكندر». انظر الموسوعة، ص ١٢٦، ٤٥٧.

وأورد نيبور أسماء العديد من المدن، التي ذكر أنه غير متأكد من صحتها، ولا يعرف إن كانت تتبع حضرموت أم لا؛ وقد أوردها كما سمعها من المواطن الحضرمي المشار إليه آنفاً، وترك للرحالة، الذين يمكن أن يأتوا بعده إلى اليمن، مهمة التأكد من صحتها. ومنها: تريم وسيئون.

وقد لاحظ نيبور أن هناك تشابهاً بين أسماء مدن يمنية، يعتقد اليمنيون أنها حميرية الأصل، وبين الأسماء، التي ذكرها موسى في التوراة، عندما تحدث عن بلاد يقطان، أو قحطان، الممتدة من مدينة Mesa(*) الواقعة على البحر الأحمر، في الشرق، إلى مدينة Dofar(*)، الواقعة على المحيط الهندي، في الغرب. وقد عبر نيبور عن اعتقاده أن Mesa هي موزع الحالية، وأن Dofar هي مدينة ظفار «ومن هنا يبدو أن مملكة يقطان كانت تمتد من تهامة إلى المهرة»[1].

٤. الجيش:

إضافة إلى ما تعرفه عن استخدام الأئمة لرجال القبائل في العمليات الحربية، تحدث نيبور عن وجود جيش عامل لدى الإمام المهدي عباس. كما تحدث عن وجود جيش قبلي يتبع اتحاد حاشد وبكيل.

أ. جيش الإمام:

لدى الإمام جيش عامل ولكنه ليس مقسماً إلى كتائب كما في أوروبا، لذا يصعب على الرحالة أن يحصل على معلومات وافية عنه. ويقدر البعض عدد أفراد المشاة في هذا الجيش، أيام السلم، بأربعة آلاف جندي، الجزء الأكبر منهم من حاشد وبكيل، وعدد الفرسان بألف فارس. ويتولى القيادة عدد من المشايخ والسادة. منهم:

---

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 211.

(*) انظر: هامش ص ٩٣، من هذا البحث.

١ ـ الشيخ صالح بن خليل، شيخ همدان. وهو كما يلقبه نيبور الجنرال الأول في الجيش. وفي موضع آخر يوضح نيبور أن الجنرال يسمى في اليمن نقيب. ويذكر نيبور أن الشيخ صالح هو أحد رعايا الإمام، لتمييزه عن بعض المشايخ، الذين ينتمون إلى مناطق لا تخضع لحكم الإمام.

٢ ـ الشيخ حميد الوادعي، وهو أحد مشايخ وادعة، أي من منطقة حاشد وبكيل، فهو إذن ـ كما يقول نيبور ـ «غريب»[١]، أي ليس من رعايا الإمام.

٣ ـ الشيخ أحمد بن حبيش Hobeisch، وهو من سفيان «فهو أيضاً أجنبي»[٢]، حسب تعبير نيبور.

٤ ـ الشيخ راجح الخولاني، شيخ وحاكم خولان، وهو أيضاً ليس من رعايا الإمام.

ويتولى قيادة الفرسان النقيب خير الله، الذي كان عبداً من عبيد الإمام ثم أعتق. وهناك أفراد آخرون كانوا من قبل عبيداً ثم أصبحوا نقباء في الجيش. منهم: النقيب سالم، والنقيب ريحان، والنقيب يعقوب.

ويسمى كل قادة الجيش نقباء، فليس هناك لقب عسكري أعلا من هذا اللقب. وتلي رتبة النقيب رتبة البيرقدار، أي حامل العلم، ثم رتبة الشاووش، وهو الذي يتولى عملية التدريب. وهناك أيضاً «الصراف». الذي يتولى تزويد الجنود بالبنادق والرصاص والبارود[٣]. ويذكر نيبور أنه لم يسمع عن رتب عسكرية أخرى في جيش الإمام.

ويبدو من حديث نيبور كما لو أن الجندي في سلاح الفرسان ليس له عمل عسكري في أيام السلم إلا امتطاء صهوة حصانة، الذي يحضره له السائس

(١) Niebhur, C., BVA, S. 211.
(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 211.
(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 211.

من اسطبل الدولة، ومرافقة الإمام أو العامل إلى المسجد في أيام الجمع والأعياد[١].

وما عدا ذلك فإنه يمارس أعمالاً مدنية عادية، فيذهب للعمل في الحقل مثلاً. وليس له لباس رسمي موحد، بل يرتدي ما يتوفر لديه من ملابس[٢]. ولكن الجنود بشكل عام يكلفون بمهام الحراسة لدى الحكام أو في القلاع والأبراج[٣].

وقد لفت نظر نيبور سلوك الجنود، وهم يرافقون الحكام إلى المسجد، إذ كانوا يسيرون صفوفاً متتالية، كل صف يتكون من ستة إلى سبعة جنود، يرفع كل منهم جنبيته أو بندقيته عالياً، وينشدون معاً، ويثبون وثبات ذات اليمين وذات الشمال بصورة «تجعل المرء يعتقد أنهم إما مهووسون أو سكارى، ولكن ربما أن هذه الأناشيد والحركات عادة قديمة، الهدف منها إثارة الحماس في نفوس المقاتلين»[٤]. وعندما يوصلون الحاكم إلى داره، يطلقون أمام الدار عيارات نارية، إلى الهواء، بصورة عشوائية.

ب. جيش حاشد وبكيل:

تحدث نيبور عن حاشد وبكيل تحت اسم (اتحاد حاشد وبكيل). وكانت منطقة حاشد وبكيل منطقة مستقلة عن مملكة الإمام يحكمها مشايخ عديدون ولا تخضع منها لسلطة الإمام سوى همدان وعمران. ولأن حاشد وبكيل كانت لا تستطيع أن تقف في وجه الإمام وهي مجزأة، فقد اتفق مشايخها على أن يتحدوا في حربهم ويكونوا جيشاً واحداً لهم. واختاروا عدداً منهم ليتولوا قيادة عملياتهم العسكرية، ولقب كل من هؤلاء القادة العسكريين بلقب نقيب.

(١) Niebhur, C., BVA, S. 211.
(٢) Niebuhr, CS., BVA, S. 212, 213.
(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 213.
(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 214.

ولما كان نيبور غير قادر على الحصول على معلومات مباشرة عن هذا الجانب العسكري، فقد اعتمد على رواية الرجل الهولندي، الذي كان قد عاش سنوات متنقلاً في منطقة حاشد وبكيل، وأورد بعض أسماء قادة جيش حاشد وبكيل. ومنهم[1]:

١ـ النقيب قاسم بن علي الأحمر(*). من منطقة بني عصيمات.
٢ـ النقيب ناجي بن ناصر بن غيلان. من منطقة برط.
٣ـ القاضي حسن. من منطقة برط.
٤ـ النقيب حسن المراني. من جنوب منطقة برط.
٥ـ النقيب أحمد بن صالح بن حبيش. من منطقة سفيان.
٦ـ النقيب هادي بن علي بن حبيش. من منطقة سفيان.
٧ـ النقيب صالح بن ناصر. من منطقة بني خيار.
٨ـ النقيب أحمد بن قاسم. من منطقة وادعة.

ويشتهر رجال حاشد وبكيل بأنهم مقاتلون شجعان. ويعمل كثير منهم ضمن قوات الإمام، وكذا ضمن قوات شريف مكة[2]. ويخشى الإمام منهم كثيراً، إذا هوجمت منطقته من قبل مشايخ حاشد وبكيل، إذ سرعان ما يعلن جنوده، المنتمون إلى حاشد وبكيل، تمردهم وانضمامهم إلى قبائلهم.

ويعمد بعض اليمنيين، لإظهار شجاعتهم في الحرب، إلى ثني أحدى الساقين وربطها إلى الفخذ، ثم يستمرون، وهم في هذا الوضع، في إطلاق النار على العدو حتى ينسحب أو يقتلون[3]. وقد سمع نيبور عن هذا السلوك

(١) انظر:
(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 285.
(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 259.
(*) كان أخوه النقيب أحمد قائداً بارزاً في جيش الإمام المهدي عباس، ثم أعدمه الإمام: Niebuhr, C., BVA, S. 214 - 215.
انظر: وكذا: ص ٢٤٣ وما بعدها من هذا البحث. Niebuhr, C., BVA, S. 197 FF.

عندما كان لا يزال في مدينة اللحية، وظن ذلك نوعاً من المبالغات. لكنه سمع عن ذلك بصورة متكررة أثناء رحلته. وقد أشار إلى أن هذا السلوك قد حدث في حروب قريبة العهد، كالحرب التي شنها جنود الإمام على تهامة قبل سنوات قليلة، وكالحرب التي نشبت بين الشيخ المكرمي، حاكم نجران، وبين شريف أبو عريش[1].

جـ. التسليح:

يستنتج المرء، من كتابات نيبور، أن الشعب اليمني شعب مسالم، وغير خطر، وأنه مع ذلك شعب مسلح بشكل عام. ويقدم لنا صورة عن السلاح الفردي للمواطن اليمني في تهامة، من خلال حديثه عن سلاح مرافقه، الذي كان يرافقه أثناء تجواله في تهامة. فقد كان متسلحاً، إضافة إلى الجنبية، بالسيف والترس. أما الأفراد، الذين لا يستطيعون أن يمتلكوا سيفاً، فإنهم يحملون عادة رمحاً صغيراً أو فأساً. كما يتسلح البعض بالمسدس والبندقية، ذات الفتيل[2]. وهذا السلاح هو نفسه موجود في الجوف. ويضاف إليه بالنسبة للمواطن في الجوف ملابس خاصة بالحرب، وهي عبارة عن قميص أو صدرية، مصنوعة من أسلاك الحديد الدقيقة، وخوذة مع رداء، مصنوع من أسلاك الحديد أيضاً، إذا زررت غطت الوجه تماماً، ما عدا العينين[3]. ورغم أن نيبور لم يذهب إلى الجوف، فقد قدم وصفاً لهذه الملابس، من خلال رؤيته لها مع رجل، كان قادماً من الجوف. وذكر أن جنود الإمام لا يستعملون هذه الملابس.

ولا يختلف تسليح الجيش عن تسليح المواطن العادي، اختلافاً كبيراً، فسلاح الجندي الفارس يتكون من رمح، يحمله عادة السائس، ومن سيف

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 214 - 215.
(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 322.
(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 276.

وترس وجنبية، وبعض الجنود لديهم مسدسات[1]. أما الجندي العادي، أي جندي المشاة، فيتكون سلاحه من السيف والترس والرمح، ويحمل سلاحه هذا أثناء السفر، وحتى عند ذهابه للعمل في الحقل.

وعند حديث نيبور عن الجندي في الحرب، يذكر أن الجندي يحمل بندقية[2]. كما أشار أيضاً إلى أن اليمنيين قد بدؤوا، منذ سنوات، يصنعون البنادق، إلا أنها لا زالت رديئة النوعية[3]. ولم يشاهد نيبور لدى المواطنين أو الجنود وجوداً للقوس أو المقلاع[4]. ونستخلص من ذلك كله أن تسليح الجيش كان يتكون من السيوف والرماح والتروس والمسدسات والبنادق. أما المدافع فلم تكن آلة حرب أساسية، إذ أن الجيش لا يصطحبها معه[5]. ويكتفي الجنود، وهم متجهون إلى المعارك، بحمل البندقية، التي لا تثقل كواهلهم كثيراً. وما عدا ذلك فإن الجندي يسير بملابس غاية في البساط، إلى درجة يبدو معها كما لو كان عارياً. أما المواد الغذائية والمستلزمات الضرورية، فتحمل على ظهور الجمال[6].

فآلة الحرب الأساسية إذن هي البندقية، إضافة إلى الأدوات التقليدية البسيطة كالسيف والرمح.. إلخ.. ولكن هذا لا يعني عدم وجود المدافع في اليمن، فقد تحدث نيبور عنها مراراً، حيث صادفها في بعض بوابات المدن وفي القلاع، وهي قليلة على أي حال، وتستعمل عادة في الأعياد والمناسبات، حيث يتم تشغيلها من قبل أفراد من جنسيات مختلفة: أتراك وهنود وأوروبيون[7]. وقد قدم نيبور وصفاً لحظيرة المدافع، أو جربة المدافع،

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 212.
(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 273.
(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 217.
(٤) انظر.
(٥) Niebuhr, C., 214.
(٦) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 318, 382 - 383.
(٧) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 273.
Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 215. U. RB, Bd. 1, S. 387.

كما سماها، وهي موجودة داخل قلعة صنعاء، حيث قال: «وهنا رأيت شيئاً، في الحقيقة غير متوقع، وهو مدفع ألماني قديم مصنوع من معدن الميتال، مكتوب عليه Iorg. Selos. Gos. Mich. 1513. وعليه أيضاً بضعة أسطر بالخط المسمى خط الرهبان، ولكنها قد انطمست مع مرور الزمن. كما رأيت ستة إلى سبعة مدافع مصنوعة من الحديد وقد ترك معظمها مرمي على الرمال، وما تبقى منها كان موضوعاً فوق قواعد محطمة»[1]. وإلى جانب هذه المدافع كان يوجد مدفعان على كل بوابة من أبواب صنعاء، الرئيسية الثلاثة: باب اليمن وباب شعوب وباب السبح، تستخدم في الأعياد والمناسبات. ويصف نيبور هذه المدافع التي رآها في صنعاء بقوله: «وهذه جميعها مدافع رديئة، وهي كل ما يمكن أن يجده المرء في عاصمة مملكة الإمام»[2]. أما السلاح البحري فلم يكن له وجود، إذ إن الإمام لم يكن يخشى شيئاً من جهة البحر، ولم يسمع نيبور عن وجود قراصنة في سواحل الجزيرة العربية، لهذا لم يكن هناك ما يدفع الإمام إلى امتلاك سفن حربية[3].

وقبل أن نختتم حديثنا عن التسليح، نود أن نشير في هذا السياق، إلى أن نيبور قد ذكر، أن اليهود والهنود، لم يكن يسمح لهم بحمل السلاح، في حين كان يسمح بذلك للأوروبيين[4]، ويمكننا أن نفترض أن ذلك يرجع إلى أن اليهود والهنود كانوا يعاملون كمواطنين ذميين، لا علاقة لهم بالحرب والقتال. أما الأوروبيون فلم يكونوا مواطنين، بل كانوا يأتون كزوار عابرين، إما كرحالة أو كتجار، لا يلبثون أن يغادروا البلاد.

د. النظام الدفاعي:

يمكننا أن نستخلص من مشاهدات نيبور، أن النظام الدفاعي في اليمن

(١) Niebuhr, C. RB, Bd. 1, S. 421.
(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 421.
(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 215.
(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 67.

كان يتكون من القلاع والحصون وأسوار المدن. ولم تكن الخنادق جزءاً من هذا النظام، فلم يذكر نيبور سوى خندق صغير شاهده في مدينة اللحية.

وتقدم لنا بعض عباراته، التي ترد ضمن سياق وصفه للمدن، فكرة واضحة إلى حد ما عن النظام الدفاعي حول المدن.

ففي اللحية شاهد حول المدينة اثني عشر برجاً «تشبه أبراج المراصد في ألمانيا، إلى حد كبير»[1]، يقف الحراس في أعلاها، ولها أبواب عالية، لا يمكن الوصول إليها إلا باستخدام السلم المتحرك. ومعظم هذه الأبراج تصلح للدفاع ضد البنادق فقط. وهي غير مزودة بمدافع، باستثناء برجين منها. وأمام اثنين من أبراجها حفر خندق صغير لا أهمية له. وهذا النظام الدفاعي حول مدينة اللحية، نظام - في رأي نيبور - ضعيف إلى درجة أن مقاتلي حاشد وبكيل قد تمكنوا، قبل سنوات، من إقتحامه بسهولة[2].

وفي حديثه عن مدينة المخا، ذكر أن المدينة محاطة بسور. وأن هناك بعض الأبراج «التي تسمى هنا قلاعاً»[3]، منتشرة بين المدينة وبين بير البليلي، الواقعة على طريق قرية موزع. وهناك قلعتان على جانبي الميناء، زودتا بمدافع، وتسمى إحداهما - وهي أكبرهما - (قلعة طيار)، نسبة إلى الولي المقبور بجانبها. أما الأخرى فتسمى قلعة عبد الرب، وعبد الرب هذا هو ابن الشيخ الشاذلي، ويوجد قبره داخل القلعة[4].

وفي مدينة تعز شاهد نيبور حصن القاهرة، الواقع على مرتفع صخري شديد الانحدار، يبلغ ارتفاعه، كما قدره بالعين المجردة، حوالي ٤٠٠ قدم. ويحيط بالحصن سور مبني في بعض أجزائه من جدارين. وتشكل مدينة تعز

(١) Niebuhr, C., RB, Bd., 1, S. 306.
(٢) Niebuhr, RB, Bd.1, S. 306 - 307.
(٣) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 438.
(٤) Niebuhr, C. RB, Bd.1, S. 438.

وحصن القاهرة امتداداً دفاعياً واحداً، حيث يصل سور المدينة إلى حافة الحصن. وفي سور تعز عدد من الأبراج، زود برجان منها فقط بالمدفعية، وهما يطلان على بابي المدينة الرئيسيين: باب الشيخ موسى والباب الكبير. ولا توجد مدافع في تعز إلا في هذين البرجين وفي حصن القاهرة[1].

أما صنعاء، العاصمة، فهي محاطة بسور وأبراج. وقد جهزت ثلاثة أبواب من أبوابها بالمدفعية - كما أسلفنا - ويفترض أن تلعب قلعة صنعاء دوراً دفاعياً، وإن كان وصف نيبور لسلاح المدفعية فيها، يجعلنا نشك في القدرة الدفاعية لهذه القلعة. وقد ساور نيبور الشك نفسه في فعالية هذا النظام الدفاعي في اليمن بمجمله، وهو يشاهد الأبراج والقلاع، التي قال عنها: «إنها تعتبر قوية في هذا البلد، حيث لا يصطحب الجيش مدافع معه، وإلا فإنها في الواقع لا قيمة لها»[2].

هـ. التدريب:

لا نستطيع أن نتحدث عن نوعية التدريب العسكري، فلم يكن هناك، كما يبدو، شكلاً من أشكال التدريب الحقيقي، رغم بعض الإشارات من نيبور، في سياق حديثه عن الرتب العسكرية حيث ذكر أن (الشاووش) يباشر أعمال التدريب. إلا أن نيبور نفسه، يترك لدينا، وهو يصف عمليات التدريب، انطباعاً بعدم وجود تدريب عسكري حقيقي، إذ يقول: «عندما يرجع الجنود - الفرسان من المسجد ويصلون إلى ساحة كبيرة، يجدها المرء في كل المدن تقريباً، وهي تقع عادة أمام منزل العامل، يمسك بعضهم برماحهم عالياً ويعدون بأحصنتهم، بعضهم وراء بعض. ويمثل هذا كل تدريباتهم العسكرية»[3].

(١) Niebuhr, CS., RB, Bd. 1, S. 378.
(٢) Niebuhr, C. RB, Bd. 1, S. 318.
(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 212.

وقد شاهد نيبور هذه التدريبات مراراً، ولكن أفضل ما رآه كان في مدينة اللحية. حيث كان ضمن المشاركين في التدريب عامل اللحية، الأمير فرحان وقاضي اللحية وبعض المشايخ[1].

و. المرتبات:

كان الجندي يتقاضى مرتباً شهرياً، مقداره ريالين ونصف[2]. وقد اعتذر الإمام المهدي عباس للبعثة الدينماركية، عند وصولها صنعاء، بأنه لن يستطيع مقابلتها خلال الأيام التالية، لانشغاله بدفع مرتبات الجنود، من قبائل حاشد وبكيل[3].

أما في المدن الأخرى، حيث يوجد عمال، فإن مرتبات الجنود تصرف من دخل المناطق التي يحكمونها، كل في منطقته[4].

٥. القضاء:

كانت تجربة نيبور مع القضاة في اليمن تجربة إيجابية، لذا فقد تحدث عنهم بنبرة إعجاب واضحة، ففي المخا، وبعد أن كانت البعثة قد وصلت إلى حالة من الإرهاق واليأس، بسبب ما تعرضت له من معاملة قاسية، في جمرك الميناء، وطردت من المنزل الذي كانت قد استأجرته، ولم يتجرأ أحد من الأهالي أن يؤجرها منزله، تدخل القاضي لمساعدتها. ولنقرأ كلمات نيبور عن تجربته الأولى هذه مع القضاة: «إن معظم القضاة في تركيا، في نظر الناس، انتهازيون. أما القضاة اليمنيون فقد سمعنا عنهم أشياء كثيرة. وكان قاضي المخا إلى جانب ذلك حسن الحديث. وقد جئنا بصاحب المنزل إليه، وتحدث معه، وأكد له أنه يستطيع أن يؤجر لنا منزله دون أن يخشى شيئاً»[5].

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 387. U. BVA, S. 212.
(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 213.
(٣) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 412.
(٤) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 210.
(٥) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 365.

كما تحدث نيبور بإعجاب عن قاضي تعز، الذي كان «طيباً ورجلاً شجاعاً»[1]، وكيف تدخل لمساعدة البعثة، وإيقاف محاولة الإبتزاز التي مارسها العامل تجاهها. فقد كان سلوك العامل غريباً، فمرة يوافق على سفر البعثة إلى صنعاء، بناءً على أوامر الإمام، ومرة يرجع عن موافقته، ويرفض السماح لها بالسفر. كل ذلك في محاولة للضغط عليها، وإجبارها على تقديم بعض الهدايا أو النقود له. وهنا يلمح أحد المواطنين للبعثة، إلى أن القاضي يستطيع أن يساعدها. فتتجه البعثة إليه، وتطلب منه مساعدتها. فيتدخل فعلاً، ويطلب من العامل، أن ينفذ أوامرالإمام بالسماح للبعثة أن تغادر تعز إلى صنعاء، وأن لا يكون طماعاً. ويكرر نيبور هنا أيضاً تأكيده، بأنهم (أي أعضاء البعثة) قد سمعوا «أشياء طيبة كثيرة» عن القضاة اليمنيين[2]. ويواصل القاضي الوقوف إلى جانبهم، فيزودهم بمرافق أمين، بناء على طلبهم، أصبح موضع ثقتهم، وظل معهم حتى عادوا إلى المخا[3]. وعند مغادرة البعثة مدينة تعز، حملها القاضي رسالة إلى وزير الإمام، الفقيه أحمد النهمي، قال نيبور أنها قد «تضمنت فيما تضمنته: لا تصدق إذا أخبرك أحد بأشياء سيئة عن هؤلاء الفرنج»[4]. ويختتم نيبور حديثه عن تجربة البعثة مع قاضي تعز بالعبارات التالية: «لقد أعجبنا إعجاباً كبيراً بعدالة القضاة المسلمين وتعاونهم، وكنا قد قررنا أن نهدي له ساعة، كما أهدينا صديقنا الأمير فرحان في اللحية. ولكن حتى الخادم، الذي كلفه القاضي بمرافقتنا، أكد لنا أن القاضي لن يقبل منا الهدية، وذلك حتى لا يبدو وكأنه لم يكن عادلاً في تعامله معنا، إلا لمصلحته الشخصية. بل وأكد أيضاً أن القاضي سوف يأخذ الأمر بمأخذ سيء، إذا نحن قدمنا هدية له. وهنا لم يبق لنا ما نقدمه لذلك الرجل الطيب إلا عبارات الشكر والامتنان. أما أنا،

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 385.
(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 391.
(٣) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 392.
(٤) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 393.

على وجه الخصوص، وباعتباري الشخص الوحيد الذي قدر له أن يعود حياً إلى أوروبا، فإني أجد نفسي ملزماً أدبياً، أن أتخذ منه مثلاً، للتدليل على أنه ليس كل القضاة العرب مستغلين بالصورة نفسها المعروفة عن القضاة الأتراك المستغلين، وهي صورة قد لا تكون بعيدة عن الحقيقة»[1]. وإلى جانب ما نقله نيبور عن تجربته المباشرة مع القضاة، تحدث عن جانب من نظام القضاء في اليمن. فهناك قاض في كل مركز من مراكز المناطق الإدارية، وربما أن هؤلاء القضاة يتبعون المحكمة العليا في صنعاء، كما هو الحال في تركيا، حيث يعمل جميع القضاة تحت إشراف المفتي في القسطنطينية. والقضاة في اليمن، كما في تركيا، يحكمون في المسائل الدينية والدنيوية، ولا يملك العامل نقض أحكامهم، تماماً كما لا يملك الباشا في تركيا أن ينقض حكم القاضي. ويحتفظ القاضي في اليمن، عادة، بوظيفته طوال حياته. أما في تركيا فكثيراً ما يعزل القضاة من وظائفهم[2].

وإلى جانب القضاة الذين يمارسون أعمالهم في مراكز المناطق الإدارية، كاللحية وبيت الفقيه وتعز وبريم. إلخ..، هناك محكمة عليا في صنعاء(*)، مشكلة من سبعة قضاة، ويرأسها السيد يحيى بن محمد، وأبرز أعضائها: القاضي محمد ملحان Mohammed Melhân ، والقاضي عبد الله، والقاضي محمد حطبة Mohammed Hattaba[3]. ويتبع رعايا الإمام السنيون من الناحية القضائية مفتي زبيد ، وهذا يتبع المحكمة العليا في صنعاء، التي تعمل تحت سلطة الإمام مباشرة. ولا يحق للإمام أن يصدر حكماً بإعدام أحد، فأحكام

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 393.

(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 208.

(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 205.

(*) استقى نيبور المعلومات المذكورة عن المحكمة من عالم هندي قابله في الهند، كان قد أمضى سنوات في أكاديمية زبيد. وكان نيبور أثناء وجوده في اليمن قد سمع أن المحكمة العليا تضم أكثر من عشرين قاضياً يرأسهم الإمام. انظر: Niebuhr, C., BVA, S. 205 - 206.

الإعدام تصدرها المحكمة العليا. ومع ذلك فإن الإمام - إذا كان مستبداً - لا تعوزه الحيلة في تنفيذ إرادته. فليس هناك إلا قلة من القضاة يمتلكون الجرأة في الوقوف ضد مشيئة الإمام. لهذا فإن الإمام يستطيع أن يمرر الحكم القضائي الذي يريده، إذا ضمن الشخصيات الرئيسية من القضاة، وخاصة أن من صلاحياته تغيير القضاة وموظفيهم، مما يجعلهم في موقف ضعيف ويجبرهم على النطق بالأحكام التي يطلبها منهم[1].

٦. الفساد الإداري:

لم يتحدث نيبور عن الفساد الإداري. ولا شك أن ظاهرة الفساد الإداري تبدو أكثر وضوحاً، كلما أصبح الجهاز الإداري أكثر تعقيداً، وزاد تعامل المواطنين معه، وهو أمر لم يكن متحققاً عند زيارة نيبور لليمن؛ فقد كانت البلاد تدار بواسطة الإمام وممثليه، بأسلوب بسيط ومباشر. ومع ذلك فهناك بعض الإشارات، التي وردت في سياق يومياته، تجعلنا نتلمس صوراً من الفساد الإداري، يتمثل في سلوك حكام المناطق وبعض الموظفين:

ففي المخا يقف العامل من البعثة موقفاً غير ودي. ولا يغير من موقفه إلا بعد أن تنفحه البعثة مبلغاً من المال قدره (٥٠ دوكاتن)(*)، على سبيل الهدية[2].

وعندما حل عيد الأضحى، أثناء إقامة البعثة في تعز، لاحظ نيبور أن المواطنين يقدمون للعامل ولأعيان آخرين في المدينة «أعداداً كبيرة من الأغنام وهدايا أخرى»[3] بمناسبة العيد. ومثل هذه الهدايا، التي يقدمها المواطن

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 206.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 366 - 367.

(٣) Niebuhr, C., RB, Bd. 1; S. 386.

(*) عملة ذهبية كانت تأتي من البندقية. وكان الدوكاتن الواحد يساوي ١٦ ريالاً. انظر: ص ١٧٤ وما بعدها من هذا البحث.

للحاكم، لا يمكن أن تكون تعبيراً عن الحب والولاء، وإنما بالأحرى تكمن ورائها أسباب أخرى، ليست بعيدة عن مفهوم الفساد الإداري. وقد لاحظ نيبور أيضاً، أثناء وجوده في تعز، أن عملية تأجير الجمال للمسافرين عملية منظمة يقف على رأسها العامل نفسه[1]. كما أن نيبور قد أشار إلى مناورات حاكم تعز، ومحاولته عرقلة سفر البعثة إلى صنعاء، كنوع من الضغط للحصول على مزيد من الهدايا[*].

ويقدم نيبور صورة أخرى من سلوك العمال، عند حديثه عن موت رفيق رحلته، فورسكال، في مدينة يريم. فبعد موت فورسكال طلب العامل واحداً من أعضاء البعثة ليتحدث إليه. وذهب إليه نيبور ودار بينهما حوار سجل مضمونه في يومياته على النحو التالي: «قال لي إنه دائماً إذا مامات أحد المسافرين، من اليهود أو البينيان، في منطقته، فإنه، بصفته عامل المنطقة، يكون وريث المتوفي. وقد أجبته بأن الميت ليس يهودياً ولا بينياناً، بل أوروبياً، وأن العامل في المخا لم يطلب أن يرث عضو البعثة، الذي توفي هناك. وهنا بادر ابن العامل لشرح وجهة نظر أبيه: إن والده يتوقع أن يحصل على هدية قيمة، ليس إلا. وعندما قلت له أن الأوروبيين لا يدفعون أي شيء، دون أن يأخذوا وصل استلام بذلك. وأن عليه أن يحدد لنا خطياً، ما يطلبه منا مقابل موت أحد رفاق الرحلة في منطقته، توقف عن طلب أي شيء. فقد كان يعلم أننا متجهون إلى صنعاء وخشي أن نشكوه إلى وزير الإمام»[2].

ويتحدث نيبور عن سلوك سكرتير وزير الإمام، فيذكر أنه (أي السكرتير) كان يعرف أن الإمام قد تكفل بدفع أجرة الجمال والحمير، التي ستنقل البعثة من صنعاء إلى المخا، ومع ذلك فقد أوهم أعضاء البعثة، بأن

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 390.

(٢) Niebuhr, CS., RB, Bd. 1, S. 404 - 405.

(*) كانت البعثة قد قدمت له هدية عند وصولها إلى مدينة تعز. انظر: Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 390 FF.

عليهم أن يدفعوا أجرة الحمير، أما أجرة الجمال فسوف يدفعها الإمام. وهكذا استحوذ على مبلغ من المال بهذه الحيلة، كما استحوذ على جزء من الهدايا، التي قدمها الإمام للبعثة، عندما كلف بإيصالها إلى البعثة، ولكنه لم يسلم البعثة إلا جزءاً منها[1].

٧. علاقة الإمام بالمشايخ:

يبدو من خلال بعض الملاحظات العابرة، التي سجلها نيبور، أن علاقة المشايخ بسلطة الإمام قد تباينت من شيخ إلى آخر، ومن منطقة إلى أخرى. فمشايخ المناطق المستقلة لم يكونوا ملزمين بدفع أي ضرائب للإمام، بل على العكس من ذلك، فقد كان الإمام يقدم لهم العطايا حرصاً منه على إقامة علاقات سلام معهم[2]، وللإستعانة بهم في حروبه. وكان منهم من يعمل في جيشه[3]. وقد أورد نيبور مثالاً لاستعانة الإمام بالمشايخ المستقلين في حروبه، فذكر أن حاشد وبكيل قد شنتا حرباً لحساب الإمام ضد شريف أبو عريش، في محاولة لإخضاعه لسلطة الإمام، إلا أنهما لم تكونا جادتين في تلك الحرب[4]. وعدا عن ذلك فقد كان مشايخ هذه المناطق يحكمون مناطقهم باستقلال كامل عن سلطة الإمام.

أما في المناطق التابعة لمملكة الإمام، فقد وظف الإمام بعض مشايخها في وظائف مختلفة. ويمكننا أن نكوِّن، من خلال حديث نيبور عن عامل تعز، فكرة عن أنواع هذه الوظائف. فقبل تعيينه عاملاً على تعز، كان قد عمل نقيباً في جيش الإمام، ثم أميراً على باب الشاذلي، وهو أحد أبواب مدينة المخا، ثم

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 428 - 429.

(٢) قارن: Niebuhr, C., BVA, S. 280.

(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 259 - 260.

(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 267.

أصبح بعد ذلك عاملاً على تعز[1]. كما عين الإمام بعض المشايخ نواباً للعمال في بعض المدن والمراكز الصغيرة. وقد أشار نيبور في سياق وصفه لرحلته، إلى العديد من هؤلاء النواب[2].

وهناك مناطق، استطاع الإمام إخضاع مشايخها بطرق سلمية، أو عن طريق الحرب، وظل مشايخها بعد ذلك يحكمونها، معترفين بسلطة الإمام، ويدفعون الضرائب المقررة عليهم للدولة. ومن خلال وصف نيبور لرحلته، نصادف أمثلة لذلك، أبرزها:

- الشيخ ابن عقلان: كانت أسرته تتوارث حكم المنطقة التي أطلق عليها نيبور اسم بلاد (ابن عقلان)[3]. وقد استطاع الإمام أن يضم المنطقة إليه، بعد حرب طاحنة. وظل الشيخ ابن عقلان بعد ذلك يحكم منطقته، ويدفع الضرائب المقررة. وقد وضع الامام بعض الجنود إضافة إلى موظف حكومي، في مدينة الدريبات، التي كانت مركز المنطقة ومقر شيخها. ولم يحدد نيبور طبيعة العلاقة بين جنود الإمام وموظفه، وبين الشيخ ابن عقلان، وفيما إذا كانوا قد عملوا تحت إمرة الشيخ مباشرة، أم أنهم كانوا يأتمرون بأمر قائد لهم، مستقل عن سلطة الشيخ. وهل كان ابن عقلان يحكم المنطقة كشيخ فحسب، أم أنه أصبح، إلى جانب ذلك، يتمتع بالصفة الرسمية كعامل للإمام. مثل هذه التساؤلات لم نجد لها إجابات لدى نيبور.

- شيخ العدين: لم يسجل لنا نيبور صورة دقيقة عن وضع العدين. ولكن في قوله «أعتقد أن الإمام لم يبعث عاملاً إلى هذه المنطقة، بل إن الحكم فيها بيد أسرة شيخ، يسكن في قصر، على جبل مرتفع خارج المدينة. ويبدو أن الشيخ الحاكم هنا يعترف بسلطة الإمام»[4]، ما يجعلنا نستنتج أن شيخ

(1) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 384.

(2) انظر مثلاً:

(3) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 339, 356 - 357.

(4) انظر ص ١٠٥ من هذا البحث.

Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 343.

العدين كان مستقلاً من الناحية الفعلية. بحكم منطقة العدين، مع اعترافه بسلطة الإمام. ولعل هذا الاعتراف كان يتم من خلال دفع ضرائب محددة.

وهناك إشارات في كتابات نيبور، تدل على وجود مشايخ ضمن المناطق الإدارية، التي يحكمها عمال الإمام، تتراوح علاقتهم بسلطة الإمام، بين الاستقلال الكامل عن سلطة الإمام، والاستقلال الفعلي بحكم مناطقهم مع دفع ضرائب للإمام. ففي جبل صبر مثلاً، وهو تابع لمنطقة تعز، ذكر نيبور أنه كان يوجد فيه أكثر من مئة شيخ، لا يرتبط منهم بالدولة إلا القليل. أما أكثرهم فيحكمون مناطقهم بشكل مستقل ويورثون حكمها لأبنائهم. ولا يدفعون للإمام أي ضرائب[1].

وفي منطقة كسمة، يعيش كثير من المشايخ في قلاعهم، ويحكمون مناطقهم، دون أن يربطهم رابط بسلطة الإمام، باستثناء ما يدفعونه من ضرائب على محصول البن الذي يصدر من مناطقهم[2]. والوضع نفسه ينطبق على مناطق أخرى كمنطقة حراز[3] ومنطقة الجبي[4].

وقد قدم لنا نيبور من خلال حديثه عن الشيخ عبد الرب وصراعه مع الإمام صورة من صور تعامل الإمام مع المشايخ، سنقف عليها فيما بعد[5].

٨. علاقة الإمام بالأقليات السكانية:

أ. اليهود:

لاحظ نيبور أن اليهود يسكنون في قرى منفصلة، وأنهم يشكلون أهم الفئات الحرفية في اليمن. ورغم أن اليمنيين ينظرون إليهم نظرة احتقار، تماماً

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 241.

(2) Niebuhr, C., BVA, S. 246.

(3) Niebuhr, C., BVA, S. 250.

(4) Niebuhr, C., BVA, S. 248.

(5) انظر ص ٢٤١ وما بعدها، من هذا البحث.

كما ينظر إليهم الأوروبيون في أوروبا[1]، إلا أن منهم تجاراً، لهم مكانتهم الكبيرة. كما أن لبعضهم علاقات قوية بالسلطة. فأحدهم، واسمه (العراقي Ora'ki)، كان قد حظي بثقة إمامين متعاقبين، وتقلد منصباً كبيراً في الدولة، فكان المشرف الأول على جميع الجمارك وعلى مباني ومزارع الإمام. وتعد هذه الوظيفة واحدة من أهم الوظائف في اليمن. ولكنه نكب قبل وصول البعثة إلى اليمن بعامين، فقد وضع في السجن وغرم خمسين ألف ريال، حسب ما سمعه نيبور من اليهود أنفسهم. ثم أفرج عنه الإمام قبل وصول البعثة إلى صنعاء بأسبوعين فقط، وأهداه الإمام خمس مئة ريال.

وذكر نيبور أن اليهود في صنعاء قد اضطهدوا، من قبل الإمام، في هذه الفترة، إذ أمر بهدم اثني عشر معبداً من معابدهم، ولم يترك لهم سوى معبدين. وكانت منازلهم جميلة، تضاهي منازل أغنياء المسلمين، فأمر بهدم ما زاد ارتفاعه منها عن طابق واحد[2].

ب. الهنود:

رغم أن الهنود لم يكونوا مواطنين يمنيين، بحيث يصح اعتبارهم أقلية سكانية، فقد كانوا مجرد مهاجرين، يأتون إلى اليمن ليعملوا، ويوفروا بعض المال، ثم يعودون إلى بلادهم. إلا أن بقاء معظمهم زمناً طويلاً في اليمن، وتعامل الدولة معهم، باعتبارهم جماعة متميزة ومستقرة نوعاً ما، يجعلنا أكثر ميلاً إلى تناولهم كأقلية سكانية، بدلاً من تناولهم كأجانب. وذلك لتمييزهم عن الأجانب، الذين يأتون إلى اليمن على سبيل الزيارة، أو لبيع بضائعهم، أو شراء بضائع، من الموانىء والمدن اليمنية، ثم لا يلبثون أن يغادروا اليمن.

وقد أطلق نيبور على الهنود اسم البينيان، وهو الاسم الذي يطلقه

(1) قارن.
(2)

Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 361, 422 - 423.
Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 422 - 423.

اليمنيون، عادة، على الهنود غير المسلمين. وكانوا عند زيارة نيبور لليمن منتشرين في المدن اليمنية الرئيسية، وخاصة في المخا وبيت الفقيه وتعز وصنعاء. وكان كثير منهم يمارسون التجارة، كتجار أو كوكلاء لشركات وبيوت تجارية أجنبية. وقد ذكر نيبور أنه كان يوجد منهم في صنعاء وحدها، عند زيارته، مئة وخمسة وعشرون هندياً. وكانوا يدفعون للإمام مبلغ ثلاث مئة ريال شهرياً، في حين كان قاع اليهود بكامله، وهو القرية التي كانت تضم يهود صنعاء، يدفع مبلغ مئة وخمسة وعشرين ريالاً فقط. «وإذا توفي أحد الهنود في صنعاء، فإن ورثته يدفعون للإمام مبلغاً يتراوح بين عشرة إلى خمسين ريالاً. وإذا لم يكن للمتوفي وريثاً في اليمن فإن إرثه كله يؤول إلى الإمام»[1].

٩. تعامل الإمام مع الأجانب:

أشار نيبور في أكثر من موضع، إلى أن الأجانب، الذين يأتون إلى اليمن، هم من التجار. لذا فقد كان وضع البعثة، منذ وصلت إلى اللحية، موضع استغراب المواطنين هناك. فهي تتجول أو تنفق المال، دون أن تمارس البيع والشراء، وهذا أمر لم يعتد عليه المواطنون[2]. ويبدو أن التجار كانوا يمارسون نشاطهم، ضمن الموانىء، أو في مراكز تجميع البن، كبيت الفقيه، بصورة روتينية، لا يحتاجون معها إلا أن يتصلوا بسلطات الجمارك في المدن التهامية وبكبار التجار، وربما بالعامل أو القاضي، إذا نشبت إشكالات تتطلب تدخلهما. ومن خلال انطباعات نيبور عن معاملة اليمنيين للأجانب بشكل عام[3]، نستطيع أن نفترض، أن أمور هؤلاء التجار، في تعاملهم مع المواطنين، كانت تسير بصورة مرضية. كما أنهم كانوا يحظون بمعاملة متميزة، لدى سلطات

(1)
(2)
(3) انظر ص ٧٤ - ٧٨ من هذا البحث.

Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 423.
Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 299, 303.

الجمارك، إلى درجة أنهم كانوا يعاملون أفضل من المسلمين أنفسهم، كما يؤكد ذلك نيبور[1].

أما بالنسبة لتعامل الإمام وموظفيه مع الأجانب الزائرين لليمن، من غير التجار، فيمكننا أن نعتبر تجربة البعثة العلمية الدينماركية مثالاً لذلك:

لقد استقبلت البعثة من قبل السلطات المحلية، بدءًا باللحية وانتهاءً بدمار، باهتمام واضح. واعتبر وجودها حدثاً غير عادي. وإذا استثنينا العامل في بيت الفقيه، الذي لم يكترث كثيراً بالبعثة، ولم يولها اهتمامه، لا سلباً ولا إيجاباً، فإن السلطات المحلية، في جميع مراكز المناطق الإدارية، التي مرت بها البعثة، قد اهتمت بوجودها. فمن العمال من أكرمها إكراماً غير عادي، كعامل اللحية، ومنهم من حاول ابتزازها، كعامل المخا. وكان القضاة كما رأينا إلى جانب البعثة، طوال رحلتها، يمدون لها يد المساعدة، كلما احتاجت إليها.

ولكي يسمح للبعثة بالسفر إلى صنعاء كان لا بد من إذن شخصي من الإمام نفسه[2]. وبناءً على ورود هذا الإذن اتجهت البعثة إلى صنعاء، عاصمة مملكة الإمام. ومن خلال وصف نيبور لإقامة البعثة في صنعاء، وهي إقامة قصيرة، لم تتجاوز عشرة أيام(*)، نقف على صورة واضحة إلى حد كبير، لتعامل الإمام مع الأجانب[3]. فقد استقبلت البعثة في مشارف صنعاء وأسكنت في بيت للضيافة في حي بير العزب ووفرت لها المواد الغذائية اللازمة (دقيق، رز، لحوم، سمن.. إلخ.) كما وفر لها الحطب[4]. ليس هذا فحسب، بل وأرسل الإمام لها مبلغاً من المال، يتكون من قطع نقدية صغيرة، لأنه لم يكن

(1) انظر ص ١٨٥ من هذا البحث.

(2)

(3) انظر:

(4)

(*) وصلت البعثة إلى صنعاء في ١٦ يوليو ١٧٦٣ م وغادرتها في ٢٦ من الشهر نفسه.

Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 371.

Niebuhr, C., RB, BD. 1, S. 411 FF.

Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 412.

من السهل صرف القطع النقدية الكبيرة[1]. وقد نُبهت البعثة، إلى أنه يجب عليها أن لا تتصل بأحد، وأن لا تغادر مسكنها، قبل أن تمثل بين يدي الإمام. ولم تتمكن من مقابلة الإمام إلا بعد بضعة أيام، وذلك بسبب انشغاله، بصرف مرتبات الجنود، كما تقدم.

ولم يكن استقبال الإمام للبعثة استقبالاً عادياً. ولعل من الأفضل أن نترك نيبور نفسه، يصف لنا بعباراته حفل الاستقبال(*):

«في صباح يوم ١٩ يوليو طلب منا أن نذهب لمقابلة الإمام. وقادنا سكرتير الفقيه أحمد إلى قصر الإمام، في بستان المتوكل. ولأننا لم نكن نتوقع أن يحضر مقابلتنا مع الإمام أكثر من بعض كبار موظفيه، فإن دهشتنا كانت كبيرة، عندما شاهدنا مظاهر حفل كبير. كانت ساحة القصر مكتظة بالخيول والخدم والمواطنين، إلى درجة أننا ما كنا سنتمكن من شق طريقنا بينهم إلا بصعوبة، لولا أن النقيب خير الله، الذي كان في السابق عبداً وأصبح الآن مديراً لاسطبلات الإمام(**)، قد جاء إلينا، وبيده عصى طويلة، وأفسح لنا الطريق.

كانت قاعة الاستقبال عبارة عن مبنى مربع كبير، في سقفه فتحة ذات شكل مقعر، وفي منتصفه بركة ماء، في وسطها نوافير تقذف بالماء إلى علو أربعة عشر قدماً تقريباً(***). وخلف البركة منصة تتصدر القاعة، علوها حوالي

(1) Niebuhr, CS., RB, Bd. 1, S. 415 - 416.

(*) قارن: الرعدي، من كوبنهاجن، ص ٣١٠ - ٣١١. والعمري، مئة عام، ص ٢٩ - ٣٠. سيلاحظ القارىء اختلافات طفيفة بين هذه الفقرات المترجمة عن النص الألماني مباشرة، وهو النص الذي كتبه نيبور بلغته، وبين الفقرات التي ترجمت عن نص إنجليزي. ومع ذلك فإن المضمون بشكل عام واحد.

(**) في مكان آخر ذكر نيبور أن النقيب خير الله كان قائداً لسلاح الفرسان. انظر ص ٨٤ من هذا البحث.

(***) وضح نيبور طريقة عمل هذه النوافير في سياق وصفه لحديقة بيت الفقيه أحمد النهمي، ويُفهم من توضيحه أن الماء يرفع من بئر بجانب البيت إلى العلو المطلوب بواسطة المسنى، وينساب منحدراً في قناة تنتهي في أسفل الناقورة حيث يصعد في الناقورة مندفعاً إلى الأعلى حتى يصل إلى فوهتها وينساب على جوانبها. انظر: Niebuhr, C., RB, Bd.1, S. 417.

قدم ونصف، وعرضها حوالي أربعة إلى خمسة أقدام. وعلى هذه المنصة - في الخلف - منصة أخرى صغيرة، عليها عرش الإمام. كانت الصالة جميعها مغطاة بالمفارش الإيرانية. وأما العرش نفسه فلم أشاهد أكثر من منصة مربعة، مكسوة بقماش من الحرير، وعليها، في الخلف وفي الجانبين، وسائد كبيرة مغطاة بأكياس من القماش الثمين. وكان الإمام يجلس على العرش، بين الوسائد، وساقاه مثنيتان، على الطريقة الشرقية. وكان مرتدياً قميصاً ذا لون أخضر فاتح، بأكمام طويلة واسعة، وعلى صدره في كلا الجهتين، اليمنى واليسرى، أنشوطة ذهبية كبيرة، كتلك التي يضعها الوجهاء الأتراك أحياناً على معاطفهم. وعلى رأسه عمامة بيضاء كبيرة. وكان يقف عن يمينه أبناؤه وعن يساره إخوته، وأمامه وزيره، الفقيه أحمد، ونحن نقف على المنصة الأولى، أي أدنى من الفقيه. وعلى امتداد القاعة، بدءاً من جانب أبناء الإمام وإخوته، وانتهاءً بباب القاعة، وقف أعيان العرب متلاصقين في صفين مستقيمين. وقد أخذنا إلى الإمام، لتقبيل ظاهر وباطن كفه الأيمن وقماش ثوبه، عند الركبة. ويسمح الأمراء المسلمون، عادة بسهولة، بتقبيل ظاهر الكف وقماش الثوب، عند الركبة، أما تقبيل باطن الكف، فإنه يعتبر مظهراً من مظاهر العطف غير العادية، إذا سمح به للأجنبي. كان يسود القاعة صمت مطبق، ولكن ما أن يلامس أحدنا كف الإمام، حتى يهتف المنادي ببعض الكلمات، التي تعني: الله يحفظ الإمام. إلخ.. وما أن يتوقف المنادي، حتى يردد نداءه كل الحاضرين في القاعة، بصوت واحد، بدى لي أنهم يطلقونه بكل ما لديهم من قوة. وبما أنني كنت أول المتقدمين إلى الإمام، وكنت مركزاً كل تفكيري في أن أنطق كلمات المجاملة باللغة العربية نطقاً سليماً قدر الإمكان، وفي ملاحظة مظاهر الأبهة التي لم يسبق لي أن شاهدتها في بلاد العرب، فإنني لا أنكر أنني قد أصبت بالذهول، عندما فوجئت بالضجيج الهائل، وخاصة أنهم بدؤوا يصرخون في اللحظة التي لمست فيها كف الإمام. ولكني لم ألبث أن تمالكت نفسي. ولما تكرر الهتاف في كل مرة لامس فيها زملائي كف الإمام، أدركت أنه في هذه المراسم يحدث ما يشبه

ذلك الذي يحدث، عندما يهتف الطلاب، في الجامعات الألمانية بحياة شخص، ثلاث مرات متتالية.

ولأن لغة البلاط في صنعاء مختلفة عن اللهجة الدارجة في مناطق الجبال، ومختلفة أكثر عن لهجة تهامة، وكنا لا نفهم إلا لهجة تهامة، ونتحدثها مع ذلك بصورة رديئة، فقد تولى خادمنا، الذي قدم معنا من المخا، وكان قد تعود على نطقنا، تولى عملية الترجمة لنا، وتولى في الوقت نفسه الفقيه أحمد، الذي كان قد عاش فترة طويلة في تهامة، وتعود على لهجتها، عملية الترجمة للإمام. وعندما كان الفقيه يتحدث إلى الإمام فإنني بالكاد، كنت أفهم كلمة واحدة من كل أربع كلمات. وحتى الخادم، الذي ولد وعاش حياته في مملكة الإمام، أكد لي بأنه نادراً ما كان يستطيع أن يفهم ما يقوله الإمام. ونظراً لوجود هذا الجمع، ولأننا لم نكن نتحدث إلا عبر مترجمين، فقد كان حوارنا مع الإمام قصيراً»[1].

وقد انتهت المقابلة بتقبيل يد الإمام وركبته، وبتعبير الإمام عن ترحيبه بالبعثة، وبأنها تستطيع أن تتجول وتقيم كما تشاء، بكل حرية وأمن. ويشير نيبور إلى أن السلطان في تركيا لا يستقبل أحداً، إلا بعد أن يكون هذا قد استقبل من قبل الوزير. أما في اليمن فيحدث العكس: الإمام أولاً ثم الوزير[2]. وهكذا بعد مقابلة الإمام «استدعانا الفقيه أحمد إلى منزله في بير العزب»[3]. وقد استقبلهم كما يؤكد نيبور، استقبالاً بشوشاً، وتحادث معهم، ووجه إليهم أسئلة، تدل على اهتماماته العلمية[4].

ولم يطل المقام بالبعثة في صنعاء، رغم كرم الإمام وحفاوته، ورغم أنها

---

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 413 - 415.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 416.

(٣) Niebuhr, C. RB, Bd. 1, S. 416.

(٤) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 416.

كانت تتجول بحرية، محاطة باهتمام السلطة والأعيان، إلا أنها كانت تريد أن تلحق بالباخرة الإنجليزية، التي كان مقرراً أن تغادر المخافي أول شهر سبتمبر في العام نفسه (١٧٦٣ م). وقد سمعت البعثة أثناء إقامتها في صنعاء عن طبيعة الإمام وبطشه ما جعل نيبور، وهو يتحدث عن أسباب الإسراع في مغادرة اليمن، يضع ما سمعته البعثة ضمن هذه أسباب[١].

وقد استأذنت البعثة الإمام بالسفر، وذهبت لوداعه، وتلقت منه هدايا، تتكون من ملابس، لكل واحد من أفرادها، إضافة إلى مبلغ من المال، قدره مئتي ريال كمصروف للسفر. كما أصدر أمره باستئجار جمال وحمير، لنقلهم وأمتعتهم، وزودهم برسائل إلى العمال، في المناطق التي سيمرون بها، لاستضافتهم وتغيير حيوانات النقل، كل ذلك على حساب بيت المال[٢].

١٠. معلومات عن أسر وشخصيات سياسية كبيرة:

أ. الإمام المهدي عباس وأسرته:

تحدث نيبور عن الإمام المهدي عباس، وانتمائه إلى الأسرة القاسمية، وتاريخ هذه الأسرة. وهو حديث منقول عن روايات تاريخية مكتوبة. ولا يختلف في مضمونه عما نعرفه عن هذه الأسرة. وبما أنه يهمنا هنا ما سجله نيبور من معلومات، وقف عليها بنفسه، أو رويت له، عن أحداث قريبة العهد، من قبل معاصرين لها. فإننا سنقتصر هنا على ما سجل من ملاحظات ومعلومات متفرقة، عن الإمام المهدي عباس وأسرته أبنائه وأقاربه، دون التعرض لتاريخ الأسرة القاسمية.

ذكر نيبور أنه عند قدوم البعثة إلى اليمن كان قد مر على وجود الإمام المهدي في الحكم سبعة عشر عاماً. وكان عمره حينذاك خمسة وأربعين عاماً.

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 425.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 425 FF.

«وكان منظره جميلاً جداً. ولكنه لم يكن أبيض البشرة، كأسلافه من جهة الأب، بل كان أسمراً كأمه»[١]. فقد كانت أمه جارية حبشية[٢]. وكان له خمسة عشر إلى عشرين أخاً. وقد رأى نيبور بعضهم. وكانت لهم أنوف مفلطحة، وشفاه غليظة، وبشرة سمراء، كالأفارقة. وقد أورد أسماء ثلاثة منهم، وهم: محمد، وهو أخ شقيق للإمام، وأحمد وحسين، وهما أخوان للإمام من الأب. أما زوجة الإمام فقد كانت ابنة «سيدي علي بن سيدي أحمد، عامل تعز. وربما كانت له زوجات أخرى، كما كانت له كثير من الجواري، ولكن، بالتأكيد، أقل مما كان لوالده المنصور، الذي - كما يقال - كان يمتلك أكثر من مئتي جارية»[٣]. وكان للإمام المهدي حوالي اثني عشر ولداً، كانوا لا يزالون أطفالاً، إلا أربعة منهم كانوا قد أصبحوا كباراً، وهم عبد الله وعلي وقاسم ومحمد، وكان علي «والياً أو عاملاً»[٤] على منطقة سنحان، التي تعتبر صنعاء تابعة لها. أما الثلاثة الآخرون فلم يكونوا قد تقلدوا وظائف رسمية.

وأورد نيبور أسماء عدد من أقارب الإمام، الذين كان معظمهم مقيماً في صنعاء، كعميه، عبد الرحمن وإبراهيم، وأقارب آخرين(*)، مثل «سيدي إسماعيل صاحب(**) المخادر وسيدي علي صاحب وصاب»[٥]. وكان الإمام يسكن في المدينة - أي في مدينة صنعاء -، بينما كان عدد من أقاربه يسكنون في قلعة صنعاء[٦]. وكان دخل بعض المناطق والقرى يعود إلى بعض أفراد أسرة الإمام وأقاربه، مثل قريتا سيان وزراجة ومنطقة الحيمة[٧].

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 204.

(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 197.

(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 204.

(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 204.

(٥) Niebuhr, C., BVA, S. 204.

(٦) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 421.

(٧) انظر: Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 410, 431.

(*) لم يحدد نيبور درجة القرابة.

(**) استعمل نيبور هنا لقب Herr ويعني سيد، أي سيد المخادر.

ب. وزير الإمام:

كان وزير الإمام، ويسميه نيبور أيضاً وزير الدولة، هو الفقيه أحمد النهمي[1]، ويؤكد نيبور أنه لم يكن يخاطب إلا بلقب فقيه. إذ إن اليمنيين لا يعرفون الألقاب الكبيرة، كما أن الألقاب التي يستخدمونها محدودة[2]. ويمتدح نيبور سعة اطلاع الفقيه أحمد، ومعرفته بالبلدان الأوروبية، ومواقعها وأحوالها، رغم أنه لم يغادر اليمن أبداً. ولكنه، على أي حال، كان على اتصال بالتجار الأوروبيين، بصورة خاصة، والأجانب بصورة عامة، الذين يأتون إلى اليمن[3].

ج. عامل اللحية:

أمير اللحية، أو دولة اللحية، أو عامل اللحية، أو حاكم اللحية، كلها ألقاب أطلقها نيبور على المنصب نفسه. وكان عامل اللحية، عند مجيء نيبور إلى اليمن، هو الأمير فرحان. وقد حرص نيبور على إعطائه قدراً من الاهتمام في كتاباته، أكثر مما أعطاه لغيره. ولعل ذلك يرجع إلى كرمه وحسن استقباله للبعثة. وقد سجل نيبور عنه معلومات مفيدة، تساعدنا، ليس فقط في معرفة شخصيته، بل أيضاً في الوقوف على جوانب من الحياة السياسية والاجتماعية، في يمن القرن الثامن عشر: كوضع عمال المناطق، ومجال سلطاتهم، ومواقعهم في الهرم الإداري للدولة، وكوضع العبيد الاجتماعي، ودورهم السياسي. إلخ..

فقد كان الأمير فرحان أفريقياً شديد السواد، جيء به صبياً من إفريقية، وبيع إلى رجل من الأعيان اسمه الماس (*)، كان لسنوات عديدة عاملاً للإمام

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 206.

(2) انظر ص ٨٠ - ٨١ من هذا البحث.

(3) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 416 - 417.

(*) ربما يكون هو نفسه النقيب الماس، الذي ذكر نيبور أنه واحد من كبار قادة جيوش الإمام. انظر ص ٢٤٤ - ٢٤٥ من هذا البحث.

على بيت الفقيه، «ثم أصبح من أهم وزراء الإمام»[1]. وقد حرص الماس على تنشئة فرحان تنشئة طيبة. ثم أخذ يكلفه ببعض الأعمال والمهام البسيطة. وأصبح هذا العبد، شيئاً فشيئاً، معروفاً في البلاط بخدماته، واكتسب سمعة طيبة. وسرعان ما تقلد منصباً رسمياً، كعامل على إحدى المناطق. ثم استقر أخيراً في وظيفته، كعامل على اللحية. وكان مستقيماً، ولطيفاً في تعامله، وخاصة مع الأغراب[2].

د. أسرة الوادعي وأسرة إسحاق:

أشار نيبور إلى هاتين الأسرتين، إشارات عابرة، في أكثر من موضع، خلال وصفه لرحلته، وعند حديثه عن المناطق الإدارية المختلفة في اليمن. ولكنه لم يقدم معلومات تفصيلية عنهما، أكثر من أن أسرة الوادعي، وعلى رأسها النقيب محمد بن عبد الله صاحب Robò el Hawà الواقع قرب المخادر، تنتمي أصلاً إلى منطقة حاشد وبكيل، ولكنها استقرت في منطقة المخادر منذ سنوات طويلة. وأنها تمتلك أراضي وقرى عديدة، في الجهة الغربية من جبل سمارة[3].

وأما أسرة إسحاق، فهي تنتمي إلى الإمام المؤيد محمد بن القاسم(*). وتقيم في منطقة وصاب السافل، وإليها يعود دخل هذه المنطقة[4].

(1) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 295.

(2) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 295 - 296.

(3) Niebuhr, C., BVA, S. 238.

(4) Niebuhr, C., BVA, S. 224.

(*) الإمام المؤيد محمد بن القاسم تولى الإمامة بعد وفاة والده القاسم عام ١٠٢٩ هـ/١٦٢٠م، واستمر فيها حتى وفاته عام ١٠٥٤ هـ/١٦٤٤م.

الفصل الثاني

الحياة الاقتصادية

١. الصناعة:

أورد نيبور إشارات متفرقة، إلى بعض الحرف والصناعات، التي شاهدها أثناء تجواله في اليمن، وهي بمجملها صناعات، كانت تلبي حاجة السوق المحلية. وباستثناء صناعة الحديد، فإن ما أورده نيبور بصورة متناثرة في كتاباته، قد اقتصر على حرف وصناعات، شاهدها بنفسه، في المناطق التي تجول فيها، مما يبقى الاحتمال قائماً بوجود صناعات، في المناطق التي لم يزرها، بل وبوجود صناعات أخرى، في المناطق التي زارها، لم يتمكن من مشاهدتها، وبالتالي لم يأت على ذكرها في كتاباته.

أما الصناعات التي شاهدها وضمّن كتاباته إشارات إليها، فهي:

أ. صناعة الأواني الفخارية:

شاهد نيبور صناعة الأواني الفخارية في قرى ومدن مختلفة، كمدينة حيس، التي أشار إلى أنها تمد جزءاً كبيراً من اليمن بهذه الأواني[١]، وذكر أنه شاهد فيها معامل كثيرة، لصناعة الأواني الفخارية، وخاصة فناجين القشر[٢]،

---

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 352 U. BVA, S. 224..

(٢) Niebuhr, C. RB, Bd. 1, S. 352.

التي يستخدمها اليمنيون بشكل عام، أما الفناجين المعروفة بالصينية(*) فقد كان استخدامها مقتصراً على الأعيان[1].

وعدا عن مدينة حيس، فقد شاهد نيبور هذه الصناعة في قرية المحط Maha'd، الواقعة على طريق بيت الفقيه - زبيد[2]، وفي قرية الضحي[3]. ومن الملاحظ أن إشاراته كلها بالنسبة لصناعة الفخار، قد اقتصرت على المناطق التهامية. ويبدو أنه لم يشاهد أي معامل للفخار في المناطق الجبلية.

ب. صناعة الأقمشة:

أكد نيبور وجود معامل كثيرة لصناعة الأقمشة، وأورد اسم إحدى المناطق التي تصنع فيها الأقمشة، وهي بني ضبيبي Beni Dobejbi، في منطقة كسمة Kùsumma. إلا أنه أشار إلى أن الأقمشة اليمنية متوسطة الجودة وخشنة، ولذا، فإن الأقمشة الناعمة تستورد من الهند. كما يستورد نوع أقل جودة من مصر[4]. وفي قرية الدريهمي Drehemi، التابعة لمنطقة بيت الفقيه كانت توجد معامل كثيرة لصناعة اللحف(**)[5].

ج. صناعة النيلة:

أشار نيبور إشارات متكررة إلى نبات الأنديجو Indigo المنتشر في تهامة وهو النبات الذي تستخرج منه النيلة الزرقاء اللون، التي كانت إلى عهد قريب

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 56.

(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 227.

(٣) Niebuhr, C., RB, bd.1, S. 315.

(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 217, 248.

(٥) Niebuhr, CS., BVA, S. 227.

(*) الصينية والحبسي اسمان معروفان، الأول يطلق على الفناجين المستوردة من الصين. وكانت قليلة الاستعمال، حتى عام ١٩٦٢ م. والثاني يطلق على الفناجين المصنوعة محلياً في مدينة حيس، وفي أماكن أخرى إلا إن اسم حيس غلب على هذا النوع من الفناجين باعتبارها أهم مكان لصناعته.

(**) اللحفة قطعة قماش مستطيلة توضع على الكتف.

تصبغ بها الملابس وتدهن النساء بها أجسامهن. فقد كانت تقوم مقام الأصباغ المستوردة الآن. وقد شاهد نيبور في أماكن عديدة قدوراً ضخمة، تحضر فيها مادة النيلة، فإلى جانب أفران حرق الفخار خارج مدينة الضحي، كان يوجد عدد كبير من هذه القدور مملوء بالنيلة[1]. وفي القرب من قرية تحيتة Tahâta الواقعة على بعد ميلين وربع «حوالي ١٧ كيلومتراً»(*)، غرب زبيد، تمكن نيبور من إحصاء ما يزيد على ست مئة قدر ضخم، مخصصة لتحضير النيلة[2].

د. صناعة الأسلحة:

رغم شهرة السيف اليماني في بلاد العرب، إلا أن صناعة السيوف كان قد عفا عليها الزمن، عند زيارة نيبور، كما عفا على الكثير من مهارات اليمنيين وإبداعاتهم. ومع أن نيبور قد أكد أن السيوف لم تعد تصنع في اليمن، إلا أنه قد أشار إلى أن اليمنيين يصنعون أسلحة أخرى، كالجنابي والسكاكين، وأنهم «بدؤوا منذ سنوات قليلة يصنعون بنادق بأنفسهم، ولكن نوعيتها لا تزال رديئة»[3].

هـ. صناعة الحديد:

ذكر نيبور أن اليمنيين يستخرجون الحديد، من مناجم الحديد، الموجودة في منطقة سهام، ولكنه حديد غالي الثمن، ورديء النوعية(**). ويرجع نيبور سبب رداءة الحديد اليمني إلى «نقص الأخشاب وجهل اليمنيين

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 315.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 331.

(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 217.

(*) قدر نيبور المسافات بالميل الألماني القديم وهو يساوي ٧٥٣٢ متراً.

(**) ازدهرت صناعة الحديد في اليمن قبل الإسلام ازدهاراً تدل عليه شهرة السيوف والدروع وغيرها من آلات الحرب اليمنية. ولكن من الواضح أن هذه الصناعة قد تدهورت خلال العصر الوسيط.

بهذا النوع من الصناعة»[1]. فهذه الصناعة تحتاج إلى جانب المهارة قدراً كبيراً من الوقود اللازم لصهر الحديد.

و. صناعات أخرى:

إلى جانب الصناعات الآنفة الذكر، أشار نيبور إشارات متفرقة إلى صناعات أخرى عديدة، شاهدها أثناء رحلته في اليمن. فقد شاهد في مدينة جبلة «معامل كثيرة لصناعة الصابون»[2]. كما شاهد في تهامة معصرة للزيت، تدار بواسطة ثور[3]. وذكر أنه قد أنشىء مصنع للزجاج في مدينة المخا «منذ سنوات»[4]. وأشار إلى أن اليمنيين يصنعون الحبال من نباتات برية تسمى السلعب[*] Sallab والدنجة Dennedje[5]. وفي القرب من مدينة اللحية شاهد عملية استخراج الصدف، حيث كانت تجلب الأحجار المرجانية من البحر وتحطم، وتحرق في محارق منتشرة في العراء، ويستخرج منها الصدف[6]. وفي منطقة المملاح شاهد، وهو في طريقه من بيت الفقيه إلى المخا، حفراً كبيرة، تملأ بماء البحر، بواسطة قنوات، ثم تترك ليتبخر الماء بفعل حرارة الشمس، ويبقى الملح مترسباً في الحفر[7]. وكان يصنع في اليمن أيضاً النبيذ[**] الذي تخصص في صناعته اليهود، وخاصة يهود صنعاء، حيث كانوا

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 271.
(2) Niebuhr, C., BVA, S. 239.
(3) Niebuhr, C., BVA, S. 217.
(4) Niebuhr, C. BVA, S. 217.
(5) Niebuhr, C., BVA, S. 150.
(6) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 308.
(7) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 359.

(*) تسمى في المنطقة الوسطى (السلعف).
(**) ذكر نيبور أن طبيب البعثة كرامر قد وجد أدوات لصناعة النبيذ في بيت أحد أعيان اللحية، وأن الذين يشربون المشروبات الكحولية من اليمنيين يكتمون، ولا يشربونها إلا مساء في بيوتهم. انظر:
Niebuhr, C. BVA, S. 56.

يتجون منه كميات تفيض عن حاجتهم، يبيعونها للمسلمين بحذر شديد[1]. وفي منطقة قرب قرية الضحي شاهد نيبور معملاً، ينتج كميات كبيرة من الجلود المدبوغة[2]. هذا عدا عن بعض الصناعات الحرفية الدقيقة، التي كانت تمارس غالباً من قبل اليهود، وأبرزها صياغة الذهب والفضة[3]، التي أكد نيبور أنها كانت تمارس «بصورة متقنة»[4]، وكان الهنود البينيان يشاركون اليهود في إتقان واحتراف الصياغة.

ويبدو أنه لم يكن هناك حرفيون، يتقنون الحرف المتصلة بالصناعات الحديثة، فقد أكد نيبور مثلاً، أنه «لم يكن يوجد في كل اليمن شخص واحد يستطيع أن يصلح ساعة»[5].

٢. الزراعة:

تضمنت كتابات نيبور إشارات، وملاحظات كثيرة، حول الزراعة في اليمن، وسوف نحاول فيما يلي أن نرتبها، بطريقة تمكننا من رسم صورة متكاملة وواضحة، قدر الإمكان، للمناطق الزراعية وأنواع المحاصيل وتوزعها وأدوات الزراعة وأنظمة الري، في القرن الثامن عشر.

لم يسجل نيبور ملاحظات كثيرة حول الزراعة في تهامة، واكتفى بالتأكيد على أن سكان تهامة لا يكادون يزرعون شيئاً آخر غير الذرة، وأن الذرة تكاد تكون الغذاء الوحيد لعامة الناس[6]. كما أنه قد لاحظ، وهو متجه من تهامة نحو العدين، أن الزراعة تكثر كلما ابتعد عن المناطق التهامية، وتوغل في

(1) Niebuhr, C., RB. Bd. 1, S. 420 - 421, 298.
(2) Niebuhr, C., BVA, S. 229.
(3) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 422.
(4) Niebuhr, C., BVA, S. 216.
(5) Niebuhr, C., BVA, S. 216.
(6) Niebuhr, C., BVA, S. 226.

الجبال[1]، وعندما مر بتعز في طريقه إلى بيت الفقيه عائداً من العدين، لاحظ أن الزراعة تقل، كلما ابتعد عن تعز[2]. أما المناطق الجبلية فقد أشار إلى خصوبتها وأنواع المزروعات فيها وأنظمة الري. إلخ . . . وقد وجد أن أخصب المناطق الزراعية هي تلك الواقعة في جبل صبر والعدين وجبلة وكسمة ويافع ونجران، وهي المناطق اليمنية، التي لا زالت تتركز فيها أخصب الأراضي حتى الآن. وسيتضح توزع الزراعة ومناطقها، من خلال استعراضنا لأهم المحاصيل الزراعية، وخاصة المحاصيل ذات الأهمية التجارية.

أ. المحاصيل الزراعية:

ـ البن:

كان البن يحتل المرتبة الأولى، على رأس المحاصيل الزراعية في اليمن، وكان يشغل معظم الأراضي الخصبة في المرتفعات الجبلية. وسنقف هنا على ما سجله نيبور عنه في حدود كونه محصولاً زراعياً، تاركين الحديث عن أهميته كسلعة تجارية إلى الجزء الخاص بالتجارة.

أشار نيبور إلى أن البن كان يزرع بصورة خاصة في الجهة الغربية من المرتفعات الجبلية، الممتدة في وسط اليمن، من الشمال إلى الجنوب، وأن زراعته تكثر أيضاً في بلاد حاشد وبكيل وقعطبة ويافع، ولكن أفضله كان يزرع في مناطق العدين وكسمة والجبي. ومن هذه المناطق كان يأتي معظم البن وأجوده[3]. وكان بن العدين أجود أنواع البن في اليمن، وبالتالي ـ كما أكد نيبور ـ في العالم كله[4]. وكانت أشجار البن تزرع في مدرجات، تمتد حتى قمم الجبال، بعضها يروى بمياه الأمطار، وبعضها يروى من بركة في أعلى

(1) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 343.
(2) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 350.
(3) Niebuhr, C., BVA, S. 143-145.
(4) Niebuhr, C., BVA, S. 245.

المدرج، تمتد منها قنوات، لتصل إلى جميع أشجار الحقل «ويقال أن الأشجار، التي تروى بهذه الطريقة، تعطي محصولين في العام، إلا أن المحصول الثاني ليس بجودة المحصول الأول»[1].

وقد أشار نيبور إلى أنه لم يشاهد حقول البن منذ شهر مارس ١٧٦٣(*)، أي منذ قيامه من بيت الفقيه بزيارة لمنطقة العدين، وحتى عودته من صنعاء، باتجاه المخا، في أغسطس من العام نفسه(**)، حيث شاهدها مرة أخرى قرب مقهى أطلق عليها اسم الدورة(***) Eddora)[2]. ولعل هذا يدل على أن البن لم يكن يزرع في المناطق التي مر بها بعد شهر مارس في طريقه من بيت الفقيه إلى المخا فتعز فإب فيريم وذمار إلى صنعاء.

وذكر نيبور أن اليمنيين، كانوا يوقعون عقوبات صارمة، على من يحاول أن ينقل شجرة البن إلى الخارج. وأن الهولنديين والفرنسيين والإنجليز قد تمكنوا، رغم ذلك، من تهريبها وزرعها في مستعمراتهم، إلا أن البن اليمني قد ظل أفضل أنواع البن في العالم. ويرجع نيبور سبب جودة البن اليمني إلى أن المناخ وارتفاع الحقول الجبلية قد وفر للبن شروطاً ممتازة، لم تتوفر له في تلك المستعمرات. ويؤكد اليمنيون ـ كما أشار ـ أنهم قد جلبوا شجرة البن من الحبشة، وأن هذه الشجرة لا زالت موجودة بكثرة في بلاد الحبشة ولا تقل بعض أصنافها جودة عن البن اليمني[3].

(1) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 335.
(2) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 433.
(3) Niebuhr, BVA, S. 143-145.

(*) وصلت البعثة إلى اليمن في نهاية شهر ديسمبر ١٧٦٣م وغادرت اليمن في شهر أغسطس من العام نفسه.

(**) كان خط رحلة البعثة في اليمن على النحو التالي: اللحية ـ بيت الفقيه ومنها قام نيبور برحلات جانبية إلى زبيد وغليفقة والحديدة والعدين وجبلة وتعز وحيس) ـ المخا ـ تعز ـ إب ـ يريم ـ ذمار ـ صنعاء، ثم العودة من صنعاء إلى المخا عن طريق مفحق وبيت الفقيه.

(***) يبدو من وصف نيبور ومن خارطته أن تلك المقهى تقع في منطقة حراز.

- القات:

على الرغم من أن زراعة القات، في القرن الثامن عشر، لم تكن تمثل أهمية كبيرة، قياساً بأنواع المزروعات الأخرى، وهو ما نلحظه من خلال كتابات نيبور، إلا أن الأهمية التي اكتسبتها هذه الشجيرة، عبر أكثر من مئتي عام، أي منذ زيارة نيبور وحتى الآن، حيث أصبحت اليوم تمثل نوعاً من الزراعة لا ينافس ولا يقاوم إغراؤه، وذوت أمام جبروته شجرة البن الثمينة رمز اليمن ونافذته إلى عالم العصر الحديث، تجعلنا على غير رضى نسرد هنا ما سجله نيبور حوله:

لقد سجل نيبور أول ملاحظة عن القات، عند حديثه عن وصول البعثة إلى تعز، فخلال الأشهر التي قضاها متجولاً في تهامة، لم يتطرق إلى ذكره، وحتى أثناء رحلته الفرعية، من بيت الفقيه إلى العدين وجبلة، ثم إلى حيس ماراً بالقرب من مدينة تعز دون أن يدخلها، ثم إلى بيت الفقيه، لم يسجل أي ملاحظة تتعلق بالقات. وعندما غادرت البعثة بيت الفقيه إلى المخا ومن المخا إلى تعز، في طريقها إلى صنعاء، استقرت بضعة أيام في تعز، وذهبت لزيارة عامل تعز، وفي مجلسه شاهد نيبور القات، وسجل عنه في يومياته العبارات التالية: «إنه عبارة عن أغصان رطبة من شجرة معينة، يستعملها اليمنيون، لتمضية الوقت، مثلما نستعمل نحن النشوق(*) ومثلما يستعمل الهنود التنبل. ولكننا لم نستسغ طعمه، مع أن اليمنيين يجدون طعمه لذيذاً»(١). ويأتي نيبور على ذكر القات مرة أخرى، في سياق حديثه عن استعدادات اليمنيين في تعز، لاستقبال العيد، حيث جهز المواطنون أنفسهم بمحتاجات العيد وبالقات(٢). ويروي نيبور أنه شاهد رُبَط القات بعد ذلك في المناطق الجبلية، لدى

(١) Niebuhr, C., RB. Bd. 1, S. 376.

(٢) Niebuhr, C., RB. Bd. 1, S. 376.

(*) يسمى في اليمن البردقان.

الأعيان، وأن الولع به يعتبر من مكملات الشخصية المحترمة، وأن صحاح الأسنان يمضغونه مباشرة، وهو في نفس الحالة، التي يقطف فيها من الأشجار، أما الذين ليست لهم أسنان سليمة، فإنهم يلجؤون إلى دقه في مدق الهون، قبل وضعه في أفواههم(١).

وكما هو الحال بالنسبة لشجرة البن، فإن القات قد جلب من الحبشة أيضاً، إلا أن القات - كما لاحظ نيبور - لا يحقق إيراداً لليمنيين من العملات الأجنبية(٢).

- البخور:

ذكر نيبور أنه كان للبخور اليمني شهرة كبيرة في التاريخ القديم، رغم أن البخور الذي كان يصدر من اليمن لم يكن جميعه يزرع في اليمن نفسها، بل كان يستورد جزء كبير منه ويعاد تصديره، أما الآن - أي عند زيارة نيبور - فقد تراجعت أهميته، ومع ذلك فلا زال يزرع في الجنوب الشرقي من ظفار، وفي قشن ومرباط Merbât وحاسك Hâsek والشحر، في جنوب اليمن. وهناك أنواع من البخور مستوردة من الحبشة وسمطرة وسيام وجاوة، ومن بين تلك الأنواع نوع يعرف بالجاوي. وقد لاحظ نيبور أن اليمنيين يقرون بعدم جودة البخور اليمني، ولذا فإن الأعيان يستعملون البخور الهندي، كما يستعملون المستكى بكميات كبيرة(٣).

- محاصيل زراعية أخرى:

ذكر نيبور أن الذرة كانت تزرع في معظم مناطق اليمن التهامية والجبلية، وأنها تكاد تكون الغذاء الوحيد لعامة الناس. وإلى جانب الذرة، كان يزرع القمح والشعير والفاصولياء والعدس وقصب السكر والتبغ والقطن والورس

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 58.

(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 145.

(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 143-144.

والنيلة، وكثير من الأشجار المثمرة. ولم يلاحظ نيبور أن اليمنيين يزرعون الأرز، وقد استغرب لذلك، حيث كان الفرنسيون «الذين زاروا مدينة المواهب» عام ١٧١٢م قد زعموا أنهم رأوا مزارع الأرز في طريقهم إلى المواهب»[١].

وقد حدد نيبور أنواع المزروعات ومناطقها على النحو التالي:

ففي منطقة (اليمن الأعلى)[**]، وعاصمتها جبلة، تزدهر زراعة القمح والذرة وأنواع كثيرة من الفواكه، إلى حد أن هذه المنطقة قد سميت «مخزن حبوب اليمن»[٢]، كما يزرع فيها نبات الورس الأصفر اللون، الذي تصدر منه كميات كبيرة إلى مسقط[٣]. وفي العدين تزرع مختلف المحاصيل، وخاصة البن، ويوجد فيها كثير من أشجار الفواكه[٤]، ويزرع فيها كذلك قصب السكر إلا أن نوعيته رديئة[٥]. وفي منطقة سنحان، وعاصمتها صنعاء، تكثر الأشجار المثمرة، كالتين والمشمش والفرسك والعنبروت واللوز والعنب، الذي يوجد منه أكثر من عشرين صنفاً[٦]. وفي منطقة مغرب عنس، وعاصمتها ذمار، تكثر غلال الحبوب بأنواعه[٧]. وفي منطقة نجران، وهي منطقة وفيرة المياه، تزرع أنواع الحبوب بكميات كبيرة، وفيها أنواع شتى من الأشجار المثمرة، وخاصة النخيل، كما توجد فيها مراع ممتازة[٨]. وتنمو أشجار النيلة بكثرة في بعض الوديان،

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 150-151.
(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 238.
(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 238.
(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 245.
(٥) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 344.
(٦) Niebuhr, C., BVA, S. 230.
(٧) Niebuhr, C., BVA, S. 235.
(٨) Niebuhr, C., BVA, S. 272.

(*) زار طيب إحدى السفن الفرنسية الراسية في المخا واسمه باربير الإمام المهدي محمد بن أحمد في عاصمته المواهب لمعالجته ورافقه في الرحلة الرائد دي لاجريلو دير. انظر: ماكرو، اليمن، ص ٣٩ ـ ٤٠.

(**) هكذا سمى نيبور هذه المنطقة، إلا أن اسمها وفقاً لموقعها هو: اليمن الأوسط، وليس الأعلى.

كوادي المحط Wadi el-Mahâd، ووادي زبيد[١]. ويزرع التبغ بصورة خاصة في منطقة وصاب العالي، وهو أجود أنواع التبغ في اليمن[٢]. وتوجد في اليمن شجرة البلسم، وقد ذكر نيبور أن اليمنيين يسمونها شجرة (أبوشم) لرائحتها الزكية، ولكنهم لا يعرفون أنها شجرة البلسم، ولهذا فإن بعض التجار في الحديدة يرسلون أوعية إلى (المدينة)، في الحجاز لملئها بالبلسم، حيث يجمع هناك، ويرسل دون أن يغش، أما البلسم الذي يباع في جدة فإنه مغشوش[٣]. ويوجد في اليمن كذلك شجر الأراك، الذي تستخدم أعواده لتنظيف الأسنان، وتصدر منه كميات كبيرة إلى المدن العربية، مثل البصرة وحلب[٤].

وإلى جانب ذلك أشار نيبور إلى خصوبة بعض المناطق، دون أن يذكر أنواع الزراعة فيها، مثل جبل صبر، الذي أشار إلى أنه خصب جداً، إلى درجة أن اليمنيين يعتقدون، أنه يحوي كل أنواع النبات في العالم[٥]، وحضرموت التي تحتوي على وديان خصبة[٦].

ب. المياه وأنظمة الري:

أشار نيبور إلى اعتماد اليمن في زراعتها على مياه الأمطار، وقد لاحظ هطول الأمطار في الصيف بانتظام، كل يوم تقريباً، في فترة بعد الظهر، وخاصة في المنطقة الواقعة بين جبلي صبر وسمارة[٧]. وعندما وصلت البعثة إلى يريم، كانت يريم تعاني من عدم هطول الأمطار، ولذا قرر الأهالي أن يصلوا صلاة الاستسقاء[٨]. وترتبط باعتماد اليمنيين على مياه الأمطار ظاهرتان، تكررت

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 327. U. RB, Bd. 1, S. 331, 326.
(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 245.
(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 245.
(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 149.
(٥) Niebuhr, C., BVA, S. 241, U. RB, Bd. 1, S. 385.
(٦) Niebuhr, C., BVA, S. 283.
(٧) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 377,401.
(٨) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 401-402.

إشارة نيبور إليهما، الأولى كثرة الآبار الجوفية، والثانية كثرة السدود[1]. وقد ذكر نيبور أن المياه ترفع من الآبار الجوفية، بطريقة (المسنى) وأنه شاهد آباراً ترفع منها المياه بواسطة ست بكرات، تنتصب عند فوهتها، فإذا رويت الأرض بمياه الآبار بهذه الطريقة، فإن الزراعة تصبح مكلفة جداً، كما أن طريقة الري هذه طريقة بطيئة ومرهقة «على خلاف طرق الري التي يشاهدها المرء في بلدان أخرى من الشرق»[2].

وقد لاحظ نيبور وجود نوعين من السدود، النوع الأول، يحفر في الأرض، وتحفظ فيه مياه الأمطار، لشرب الإنسان والحيوان ولري الحقول. والنوع الثاني، عبارة عن سدود مؤقتة، تقام في مجاري السيول، لرفع المياه وتوجيه جزء منها إلى الحقول، على جانبي المجرى، ففي هجير Hadsjîr، بمنطقة الجبي مثلاً، شاهد سدين، سماهما خزانين(*)، أحدهما لشرب المواشي، والآخر لشرب الناس[3]. وفي الطريق من مفحق إلى سهام Sehân شاهد ستة خزانات، قال عنها إنها «تصبح في أوقات معينة من السنة سيئة جداً، ربما لأنها لا تنظف، كما أنها تترك مكشوفة»[4]، وفي وادي زبيد شاهد في مجرى السيل، السدود الترابية التي تعترض المجرى وترفع منسوب الماء إلى مستوى الحقل[5]. ويتم ري الحقول وفق نظام محدد، «فكل فلاح يقيم سداً من التراب في مجرى الماء، ليرفع بذلك منسوب الماء، ويدخله إلى حقله، ويروي حقله، ضمن وقت محدد، يترك بعده الماء ينساب إلى حقل جاره»[6].

(1) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 315, 320, 323, 350.
(2) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 410, 396-397.
(3) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 434.
(4) Niebuhr, C., RB, BD. 1, S. 432.
(5) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, 437.
(6) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 356.

(*) المقصود هنا بالخزانات والسدود البرك المنتشرة في قرى اليمن ومدنها ويطلق في بعض المناطق اسم السد على خزان الماء ذي الشكل المستدير، أما الخزان ذو الشكل المستطيل فيطلق عليه اسم البركة أو البرك.

وقد سبقت الإشارة إلى طريقة ري بعض حقول البن في المدرجات الجبلية، عن طريق برك في أعلى الحقل، متصلة بقنوات، ينساب فيها الماء ليصل إلى جميع أشجار البن في الحقل.

وتحدث نيبور عن سد مأرب، وأهميته التاريخية، وقدم وصفاً له، معتمداً في ذلك على السماع، إذ إنه لم يزر منطقة مأرب. وقد أكد، في سياق حديثه عن سد مأرب، أنها توجد في اليمن سدود كثيرة، أقامها الإنسان اليمني، لحجز وحفظ مياه الأمطار، التي لا تهطل إلا في أوقات معينة من السنة. إلا أن تلك السدود صغيرة الأحجام، ولا تقاس بضخامة سد مأرب. واختتم حديثه عن سد مأرب بالعبارات التالية: «إنه من الممكن، ومن المفيد للسكان اليوم، نظراً للخصائص الطبيعية لمنطقة مأرب، إعادة بناء السد، تماماً مثلما كان بناؤه ممكناً ومفيداً في الماضي. ولكن مأرب كانت في الماضي عاصمة لملك، كان حكمه يشمل جزءاً كبيراً من اليمن وحضرموت، في حين أنها الآن مقر لشريف فقير، لا يمتد حكمه خارجها إلا إلى عدد محدود من القرى، يكاد يعجز أن يدافع عنها في وجه جيرانها، وهو أعجز من ذلك بكثير في أن يفكر بإعادة بناء سد كبير كهذا»[1].

وإلى جانب إشاراته عن الآبار والسدود، لفتت نظره الطريقة التي يتم بها توصيل المياه إلى مدينة إب وبيوتها، وكذا الطريقة التي يتم بها تزويد المسافرين بمياه الشرب.

ففي شرق مدينة إب يقع جبل بعدان، الذي ينساب منه الماء في قناة، فوق جدار طوله ١٥٠ خطوة مزدوجة(*) إلى جامع كبير، ومنه إلى المنازل، وإلى المساجد الأخرى. ولأن الجامع الكبير يقع في مكان منخفض، فإنه يتم رفع المياه من خزان الجامع إلى خزان آخر مرتفع، بطريقة المسنى. ومن الخزان

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 277-279.

(*) حوالي ٢٥٠ متراً.

المرتفع ينساب الماء إلى المدينة[1].

وفي المناطق الجبلية صادف نيبور، بصورة متكررة، على امتداد طرق المسافرين، ما سماه ماجل Madsjil، ويعرف حتى اليوم في بعض جهات المنطقة الوسطى، أي منطقة محافظة إب، بالسقاية، وقد وصفه على النحو التالي:

«في هذا الجبل(*) وجدنا ثلاثة مواجل، أو بيوت ماء صغيرة، وهي تملأ باستمرار بماء صاف عذب، وذلك ليجد المسافرون ماءً طيباً يجددون به نشاطهم. وخزانات المياه هذه عبارة عن بناء مربع مساحته حوالي ٢½ قدم وارتفاعه ٥ إلى ٧ أقدام وسطحه من الأعلى إما مدور أو مخروطي الشكل، وله في إحدى جهاته فتحة صغيرة، يُصب منها الماء إلى داخله. ويجد المسافر عند هذه المواجل وعاءً صغيراً، إما من القرع أو من الخشب»[2].

وقد أكد نيبور أنه خلال تجواله في اليمن، لم يشاهد طواحين هوائية أو مائية[3].

جـ. الأدوات الزراعية:

تحدث نيبور عن الأدوات المستخدمة في الحقول، وطرق استخدامها، وضمن كتابه (وصف بلاد العرب) رسوماً لها(**)، وهي بمجملها أدوات وطرق لا زالت تشاهد في الحقول اليمنية حتى اليوم. فقد أشار إلى المفرس (***)، والمحر اليدوي، الذي يستخدم بواسطة فلاحين متواجهين، أحدهما يسحبه نحوه، بواسطة حبلين مشدودين إليه، والآخر يضغطه في الوقت نفسه إلى

(١)
(٢) Niebuhr, C., RB, BD. 1, S. 396.
(٣) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 344, 396, 410, 431.
(*) جبل المسعد el Masa'ad.
Niebuhr, ., BVA, S. 217.
(**) انظر الملحق.
(***) استخدمنا هنا التسميات المعروفة في المنطقة الوسطى (محافظة إب).

الأسفل، بواسطة مقبض خشبي، لينغرس في التربة، ويجرفها معه. كما أشار إلى المحر، الذي يسحب بواسطة الثيران، ويعمل عليه فلاح واحد، يتولى ضغطه إلى الأسفل، في حين تسحبه الثيران إلى الإمام، جارفاً معه التربة، وإلى المحراث وحجر درس القمح (المدوم) والمنشار[1].

ولاحظ نيبور عدا عن ذلك، أن الفلاحين في مناطق الجبال يستحدثون لهم مقاعد فوق الأشجار، يراقبون منها حقولهم. أما في تهامة فينصبون لهم مصطبة عالية، فوق أربعة أعمدة خشبية، يعلوها سقف[2].

٢. الثروة الحيوانية:

يستشف من إشارات نيبور أن الثروة الحيوانية في اليمن كانت تتكون من المواشي وحيوانات النقل (الحمير والجمال والخيول). ففي يافع[3]، كما في (اليمن الأعلى)(*)، وعاصمته جبلة[4]، تكثر الحيوانات ذات القرون، أي الأغنام والأبقار، كما يشاهد المرء «في قاع جهران أغناماً جميلة وبأعداد كبيرة»[5]. وفي نجران تكثر المراعي الممتازة، مما يساعد على تربية الخيول والجمال، التي تُطلب في جميع أنحاء اليمن[6]. وتشتهر الجوف بتربية الخيول والجمال أيضاً، وتباع منها سنوياً أعداد كبيرة في مملكة الإمام[7]. أما في مملكة الإمام فإن المنطقة الوحيدة، التي تربى فيها الخيول، هي منطقة مغارب عنس، وعاصمتها ذمار[8]. وللخيول الذمارية شهرة ممتازة[9]. وتباع الخيول اليمنية في

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 217.
(٢) Niebuhr, C., Bd. 1, S. 435.
(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 282.
(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 238.
(٥) Niebuhr, C., BVA, S. 233.
(٦) Niebuhr, C., BVA, S. 272.
(٧) Niebuhr, C., BVA, 276.
(٨) Niebuhr, C., BVA, S. 235.
(٩) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 407.
(*) انظر هامش ص ١٥٦ من هذا البحث.

المخاء، بمبلغ يتراوح بين ثمان مئة إلى ألف ريال للخيل الواحد. وقد أكد أحد التجار الإنجليز لنيبور «أن أحد مواطنيه اشترى في العام الماضي(*) واحداً من هذه الخيول، وأنه قد عرض له فيه في البنجال ضعف المبلغ الذي اشتراه به، ولكنه فضل أن يرسله إلى بريطانيا، على أمل أن يحصل على أربعة أضعاف ثمنه الأصلي»[1].

وذكر نيبور أنه يوجد في اليمن نوعان من الجمال، نوع متوسط الحجم، لونه بني فاتح، ويكثر في مملكة الإمام، ونوع ضخم الحجم، لونه بني داكن، يُجلب من نجران إلى مناطق اليمن الأخرى. كما يوجد في اليمن نوعان من الحمير، نوع صغير، ونوع ضخم الحجم، وجده نيبور أثناء سفره «مريحاً أكثر من الحصان»[2]. وتُجلب أفضل الحمير من صبيا(**) في أبو عريش[3] إلى مناطق اليمن الأخرى.

وإلى جانب إشارات نيبور عن المواشي وحيوانات النقل، تحدث عن الجراد، ومع أن الجراد لا تدخل ضمن مفهوم الثروة الحيوانية، وإنما هي بالأحرى من الآفات الزراعية المهلكة، إلا أن إمكانية تحولها من آفة زراعية إلى مصدر غذائي، جعلنا نميل إلى ذكر إشارات نيبور عنها ضمن هذا السياق.

شاهد نيبور الجراد لأول مرة في اليمن في منطقة تهامة، وذلك في شهر مايو عام ١٧٦٣ م عند بداية نضج البلح. فقد جاءت أسراب هائلة من الجراد، قادمة من الغرب والجنوب، لتستقر بعض الوقت في تهامة، ثم تعود من حيث أتت، أو تواصل رحلتها نحو المناطق الجبلية في الشرق. وقد شاهد أسراباً قدمت من الجنوب، واتجهت رأساً نحو الشمال، ثم شاهد بعد أيام أسراباً قادمة

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 164.
(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 164.
(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 268.

(*) أي عام ١٧٦٢ م.
(**) لعل هذا هو سبب تسمية هذه الحمير بالحمير الصبيانية وهي تسمية معروفة في اليمن حتى اليوم.

من الشمال نحو الجنوب، ربما أنها - كما أشار - كانت هي الأسراب التي جاءت قبل أيام من الجنوب نفسها. كما شاهد كميات كبيرة من الجراد طافية فوق مياه البحر، لعلها - كما ذكر - تعبت، ولم تستطع أن تعبر البحر من الساحل الإفريقي المقابل، فسقطت، وطفت ميتة فوق مياه البحر. وفي شهر يوليه شاهد أسراباً هائلة، في جبل سمارة ويريم ومفحق[1]. كما شاهد عملية حماية الحقول من هذه الأسراب، في جبل سمارة فبمجرد أن رأى المزارعون أسراب الجراد، قادمة في السماء، أخذوا يصرخون، ويهرعون إلى حقولهم، ويربطون أقمشة على أعواد طويلة، يمشون بها فوق مزروعاتهم، ليمنعوا الجراد، أن تحط عليها[2].

وتتحول عملية الدفاع عادة إلى هجوم. فقد شاهد نيبور في جبل سمارة أيضاً رجلاً.. يحمل فوق ظهره كيساً كبيراً مملوءاً بالجراد. وتباع الجراد في جميع المدن العربية من المخا وحتى البصرة[3]. ولا تشكل الجراد طعاماً لذيذاً للمسلمين وحدهم، بل إن اليهود أيضاً يأكلونها ويزعمون أن الطير الذي أرسله الله لبني إسرائيل في الصحراء ليس سوى الجراد[4].

٤. الثروات الطبيعية:

ذكر نيبور أن اليونانيين قد أكدوا وجود ذهب وحديد في اليمن، بكميات كبيرة. ولكنه يعتقد أن وجود الذهب أمر غير أكيد. فلو كان الذهب متوفراً لما لجأ - في رأيه - الإمام المهدي عباس، عندما فكر في سك عملة ذهبية محلية، إلى إذابة العملة الذهبية الآتية من البندقية، وسكها من جديد. أما الحديد فقد أكد نيبور وجوده في منطقة صعدة، حتى عصره - أي عصر نيبور - ويحتمل كما أشار أن يكون موجوداً في مناطق أخرى من اليمن[5].

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 169.
(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 174.
(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 171.
(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 172.
(٥) Niebuhr, C., BVA, S. 141 - 142.

وعدا عن الحديد أشار نيبور إلى وجود الأحجار الكريمة، المعروفة بالعقيق اليماني، في جبل هران Hirrân، قرب مدينة ذمار[1]، وفي الجبال الواقعة بين تعز وسمارة[2]. وفي السواحل التهامية شاهد كميات كبيرة من الملح، كما في منطقة المملاح وغليفقة واللحية. . . إلخ[3] وذكر وجود الملح أيضاً في منطقة مأرب[4].

وفي جزيرة فران Firân ذكر أنها تستخرج كميات كبيرة من اللؤلؤ[5]. كما أشار إلى عملية استخراج الصدف، قرب مدينة اللحية[6]، وإلى وجود الأسماك بكثرة، في السواحل اليمنية[7]، غير أن اليمنيين - كما أشار - يمارسون الصيد بقوارب بسيطة، لعلها أبسط وأقدم قوارب صيد في العالم[8].

٥. التجارة:

كانت المدن والأسواق الأسبوعية هي الأماكن التي تمارس فيها التجارة، فحتى التجارة الخارجية لم تكن تمارس عن طريق وكلاء لليمن في الخارج، بل كان التجار العرب والأجانب يأتون لشراء السلع اليمنية، في الأسواق اليمنية نفسها، ثم يدفعون ضرائبها المقررة، ويشحنونها في السفن بأنفسهم.

والأسواق اليمنية نوعان، أسواق دائمة في المدن الرئيسية، وأسواق أسبوعية، كثرت إشارات نيبور إليها أثناء تجواله في اليمن، مما يدل على انتشارها في جميع المناطق، وضمن مسافات متقاربة[9]. حتى أن نيبور ليؤكد

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 235. U. RB, Bd. 1, S. 408.
(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 142 - 143.
(٣) انظر مثلاً: Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 323, 359. u. BVA, S. 227, 229.
(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 276.
(٥) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 294.
(٦) انظر ص ١٥٠ من هذا البحث.
(٧) Niebuhr, C., BVA, S. 168.
(٨) Niebuhr, C., BVA, S. 215.
(٩) انظر مثلاً: Niebuhr, C., BVA, S. 239, u. RB, Bd. 1, S. 339, 431.

بأنه «ربما لا يجد المرء بلداً تكثر فيه الأسواق كما تكثر في اليمن»[1]. فإذا حاولنا أن نتبين محتويات السوق اليمنية، في ذلك الحين، فإن أفضل ما يقدمه نيبور لنا هو وصفه لسوق صنعاء:

«في سوق صنعاء، كما في المدن التجارية الأخرى في الشرق، توجد مطارح كبيرة للقوافل، وسمسرة Simsera(*) لمبيت التجار والمسافرين، وأماكن تباع فيها الأخشاب والحطب والحديد والعنب(**) والحبوب والزبدة والملح والخبز. ويكثر وجود النساء في سوق الخبز. ويوجد في صنعاء أيضاً سوق، يستطيع فيها المرء أن يستبدل ملابسه القديمة، بملابس جديده. كما يوجد تجار يبيعون بضائع هندية وفارسية وتركية، وغيرها من البضائع الأجنبية. كما تباع البهارات والأدوية والقات وأنواع الفواكه المجففة والطازجة، التي تتوفر بكميات كبيرة، مثل العنبروت والمشمش والفرسك والتين، وغيرها من الفواكه. كما يشاهد المرء في سوق صنعاء النجارين والحدادين والإسكافيين والسراجين(***) وخياطي الملابس وخياطي الطاقيات والبنائين والصاغة والحلاقين والطهاة ومجلدي الكتب والكتبة، الذين يكتبون العرائض(****)، لرفعها إلى الإمام، أوإلى غيره من الحكام، مقابل مبلغ زهيد من المال، كما يقومون إلى جانب ذلك بتدريس الأطفال ونسخ الكتب، ويجلسون طوال النهار في أماكنهم في مواضع معينة من المدينة. وتعتبر أخشاب البناء ثمينة جداً في اليمن. كما أن الحطب في سوق صنعاء غال، لأن الجبال في منطقة صنعاء صخرية، ولا تنبت فيها الأشجار؛ لذا فإن الحطب يجلب من مسافة يومين إلى ثلاثة أيام، ويباع

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 28.
(*) السُمْسَرة بفتح السين الأولى وتشديدها وسكون الميم وفتح السين الثانية هي النزل الذي يبيت فيه المسافرون
(**) أشار نيبور إلى أن هناك ما يزيد على عشرين صنفاً من أصناف العنب، معروضة للبيع في سوق صنعاء. انظر: Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 420.
(***) صانعو سروج الخيل.
(****) العريضة هي عبارة عن شكوى مكتوبة يرفعها المواطن إلى أحد الحكام.

حمل الجمل الواحد بريالين. وقد أكد لي أحدهم أنه يُستخدم في صنعاء أيضاً الفحم الحجري، بسبب نقص الحطب»[1].

ومن الملاحظ أن نيبور لم يذكر البن ضمن السلع المعروضة في سوق صنعاء، ولعله لم يكن من السلع الهامة في هذه السوق، فقد كان استخدامه المحلي نادراً، كما يستشف من يوميات نيبور، حيث لم يذكر أنه قدم له خلال رحلته مشروب آخر سوى القشر.

وقد تركزت أسواق البن في تهامة، وفي بعض الأسواق الجبلية، القريبة من تهامة، كقرية الحدية Hadie، الواقعة في جنوب غرب كسمة، والتي كانت تعتبر سوقاً هامة للبن، إذ يجلب إليها ويعبأ وتدفع الضرائب عليه، في القرية نفسها، ثم ينقل إلى بيت الفقيه، أو إلى الحديدة مباشرة. وقد ذكر نيبور أن هذه القرية تكاد تكون معروفة لجميع التجار الأجانب، الذين يأتون إلى بيت الفقيه[2]. وكقرية علوجة في منطقة كسمة أيضاً، وهي سوق هامة للبن، ومنها ينقل مباشرة إلى الحديدة[3]. ولكن بيت الفقيه هي أهم سوق للبن في اليمن، بل وفي العالم كله، حيث يباع فيها البن الآتي من المناطق الجبلية المجاورة ثم ينقل إلى الحديدة والمخا[4]، وفيها يتجمع تجار من بلدان عديدة «من الحجاز ومصر وسورية والقسطنطينية وبلاد البربر وفاس ومراكش والحبشة والسواحل الشرقية للجزيرة العربية وإيران والهند، وأحياناً من أوروبا»[5].

ولقد ازدهرت التجارة الخارجية عبر الموانىء اليمنية، ازدهاراً كبيراً، حتى أصبحت الضرائب، التي كانت تدفع على السلع اليمنية المصدرة، تشكل أهم مصدر من مصادر إيرادات الإمام، كما سنرى.

---

(1) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 420.

(2) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 339. U. BVA. 247 - 248.

(3) Niebuhr, C., BVA, S. 248.

(4) Niebuhr, C., BVA, S. 226 - 227.

(5) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 319.

أ. أهم الصادرات:

البن(*):

كان البن أهم سلعة يمنية تصدر إلى الخارج. وكان يتم تصدير أفضل أنواعه، وهو البن الآتي من العدين والجبي وكسمة عبر مينائي المخا والحديدة. وكان ميناء الحديدة يعتبر ميناء بيت الفقيه، فمنه يصدر البن الآتي من سوق بيت الفقيه، على ظهر السفن إلى جدة. كما كانت السفن العمانية تنقله إلى مسقط والبصرة وموانىء الخليج[1].

وكان يصدر من ميناء اللحية البن الآتي من المناطق الجبلية القريبة، وهو أقل جودة من البن الذي كان يصدر من المخا والحديدة. إلا أن رخص أسعاره وقرب اللحية من ميناء جدة، كان يقلل من تكاليف شرائه ونقله، مما جعل الكثيرين يفضلون شراءه من اللحية وشحنه إلى جدة. ولهذا فقد كان هناك تجار - خاصة من مصر - يقيمون في اللحية ويتولون شراء البن وتصديره إلى جدة ومنها إلى مصر وتركيا. وإلى جانب التجار الأجانب المقيمين كان هناك تجار يأتون سنوياً لشراء البن بأنفسهم[2].

وكان البن الآتي من بلاد حاشد وبكيل يصدر من ميناء جيزان إلى جدة ثم إلى السويس فالقاهرة[3]. ومن ميناء عدن كان يصدر بعض البن «ولعله يأتي من منطقتي يافع وقعطبة»[4].

---

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 228, 226 - 227.

(2) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 305 - 306.

(3) Niebuhr, C., BVA, S. 267.

(4) Niebuhr, C., BVA, S. 254 - 255.

(*) قبل أن يعرف الأوروبيون البن كان الهولنديون، ابتداءً من القرن السادس عشر، يقومون بشرائه من اليمن وبيعه في بعض البلدان الآسيوية بكميات قليلة، ولم يصبح سلعة تجارية ذات أهمية إلا حوالي عام ١٧٠٠، عندما بدأ طلب الأوروبيين له. وقد أدت زيادة الطلب عليه وارتفاع أسعار شرائه في اليمن إلى قيام الهولنديين والفرنسيين والإنجليز بزراعته في مستعمراتهم. إلا أن نوعيته كانت أقل جودة من البن اليمني. قارن: فان دام، هولندا والعالم العربي ص ٣١.

- سلع أخرى:

مع أن اليمنيين قد استعاضوا - كما ذكر نيبور - عن تجارة البخور والصبر، التي ازدهرت في تاريخهم القديم، بتجارة البن؛ إلا أن بعض الصبر لا زال - أي في عصر نيبور - يصدر من ميناء المخا، ولا زال صبر سقطرة مطلوباً عالمياً[1]. كما يصدر الصبر والبخور من ميناء الشحر[2] ومن موانئ مرباط وحاسك وظفار. ويعتبر بخور ظفار أجود من بخور مرباط وحاسك، وهذا أجود من بخور الشحر[3]. ويصدر من الموانئ الحضرمية أيضاً المرودم التنين Drachenblut خاصة إلى مسقط والهند[4].

ومن السلع اليمنية الأخرى التي تصدر إلى الخارج أعواد الأراك التي تستخدم لتنظيف الأسنان، حيث تصدر بكميات كبيرة، إلى المدن العربية كالبصرة وحلب[5]. كما تصدر كميات كبيرة من الزبيب[6]، لم يشر نيبور إلى الجهات التي كانت تصدر إليها. وفي ميناء جيزان ازدهرت تجارة أوراق السنا Senesblattern، ذات النوعية الممتازة التي كانت تنمو في منطقة جيزان[7]. ويصدر الورس بكميات كبيرة إلى عمان[8]. وفي سياق حديث نيبور عن الأسعار، أورد أسماء سلع أخرى، يمنية كالصدف، وغير يمنية، تستجلب من بلدان أخرى، ويعاد تصديرها من ميناء المخا[9]، كما سنرى.

ب. أهم الواردات:

كانت أهم السلع المستوردة تأتي إلى اليمن من الهند. وقد سبقت الإشارة

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 284.
(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 282.
(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 287.
(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 283.
(٥) Niebuhr, C., BVA, S. 149.
(٦) Niebuhr, C., BVA, S. 147 - 148.
(٧) Niebuhr, C., BVA, S. 267.
(٨) Niebuhr, C., BVA, S. 238.
(٩) Niebuhr, C., BVA, S. 220 - 221.

إلى الأقمشة الهندية. وقد ذكر نيبور أن الأقمشة الأقل جودة من الأقمشة الهندية كانت تستورد من مصر[1]. وفي حديثه عن سوق صنعاء أشار إلى وجود بضائع هندية وتركية وإيرانية. ولكنه لم يبين أنواعها. أما السلع الأوروبية فقد ذكر أن اليمنيين لا يحتاجون إليها كثيراً. لهذا «فإن معظم ما يجلبه الأوروبيون إلى المخا هو سلع هندية. والسلعة الأوروبية الوحيدة، المطلوبة كثيراً، هي الحديد، الذي يشتريه الإنجليز من الدينمارك، ويأتون به إلى ميناء المخا»[2].

وعند حديث نيبور عن الأسعار - كما سنرى - ذكر أسماء سلع كانت تستورد إلى اليمن، وهي الفولاذ ومواسير البنادق والمسدسات ومادة الرصاص والقصدير والسيوف والمرايا والسكاكين والكاسات والشموع[3].

وقد سجل نيبور ملاحظة، تشير إلى شكل من أشكال الحركة التجارية الداخلية في اليمن، بين موانئ حضرموت، وموانئ تهامة، وعدن، حيث كان التجار الحضارمة يجلبون الأقمشة والمفارش والجنابي إلى موانئ مملكة الإمام[4].

وتحدث نيبور عن نظام تسديد أثمان البضائع الأجنبية المستوردة، فذكر أن أثمان هذه البضائع تسدد في ثلاث فترات، كل فترة منها مدتها مئة يوم تقريباً:

- الفترة الأولى تمتد من ١٧ سبتمبر وحتى ٢٢ ديسمبر.
- الفترة الثانية تمتد من ٢٣ ديسمبر وحتى ٢ أبريل من العام التالي.
- الفترة الثالثة تمتد من ٣ أبريل وحتى ١٠ يوليه.

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 217 - 248.
(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 446 - 447.
(٣) Niebuhr, C. BVA, S. 220 - 221.
(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 283.

وكل بضاعة تسلم ضمن إحدى هذه الفترات، لا بد أن يسدد ثمنها قبل انقضاء الفترة نفسها[1].

ويبدو من خلال ما سجله نيبور، أثناء رحلته في يومياته، أن التجار، في المراكز التجارية والموانىء المختلفة، كانت تربطهم ببعضهم علاقات وثيقة. ونستدل على ذلك من خلال التوصيات، التي حملتها البعثة معها، من تجار عرب وهنود في جدة إلى تجار في اللحية والمخا. ومن تجار في اللحية إلى زملائهم في بيت الفقيه. ومن بيت الفقيه إلى المخا. ومن المخا إلى تعز وصنعاء[2]. بل إنها كانت تتم تحويلات مالية، على الأقل بين التجار الهنود. فقد ذكر نيبور أن اليمنيين «لا يتعاملون بالتحويلات المالية بل يحملون النقود معهم. فيكونون بذلك عرضة للسرقة. ولكن المسافر يستطيع أن يتعامل مع الهنود، فهم أناس أمناء. وبواسطتهم يمكنه أن يحصل على تحويل مالي، كما يمكنه أن يحصل على توصيات إلى زملائهم، في الموانىء والمدن المختلفة، لتقديم المساعدة اللازمة له»[3].

جـ . الأسعار والأوزان[4]:

في تسجيل نيبور للأسعار اعتمد على ما دونه زميله فورسكال في أوراقه، التي خلفها، من أسعار للبضائع، التي كانت قد جلبتها سفينتان هولنديتان إلى ميناء المخا، وللبضائع، التي حملتها السفينتان معهما من المخا. وكان فورسكال قد دون هذه الأسعار معتمداً على معلومات استقاها من الوكيل التجاري للباخرتين. وقد أبدى نيبور بعض التحفظ على دقة هذه الأسعار، وذلك بسبب ما لمسه في الوكيل التجاري من طبيعة استغلالية. ومع ذلك ورغم

(١) انظر هامش:
Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 445 - 446.
(٢)
Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 296, 317, 360, 373, 377.
(٣)
Niebuhr, C., BVA, S. 289.
(٤) انظر:
Niebuhr, C., BVA, S. 219 - 221.

تحفظ نيبور يمكن لهذه الأسعار، وبعد مضي أكثر من مئتي عام على تسجيلها، أن تعطينا ولو صورة تقريبية للأسعار المتداولة في السوق في ذلك الزمن، سواء بالنسبة للبضائع المستوردة، أو بالنسبة للبضائع المصدرة.

. أسعار بعض البضائع المستوردة إلى ميناء المخا:

حام الحديد	٣٠ ريالاً للبهار الواحد.
الفولاذ	٤٠ ـ ٥٠ ريالاً للبهار الواحد.
ماسورة البندقية	١٠ ـ ١٢ ريالاً للقطعة الواحدة(*).
مادة الرصاص	ريالين للفراسلة.
	ولم يكن يحق لغير العامل أن يشتري مادة الرصاص.
التصدير	٥ ريالات للفراسلة.

ولم يورد نيبور أسعار المرايا والسكاكين والسيوف والكاسات والشموع التي جاءت بها السفينتان المذكورتان. أما المسدسات فلم تتمكن السفينتان من بيع شيء منها.

. أسعار البضائع المصدرة:

. البن/٥٥ ريالاً للبهار الواحد. ويتم دفع ريال واحد إضافة إلى السعر، مقابل عملية الوزن، ونصف ريال كبقشيش. وذلك عن كل بهار من البن. وإضافة إلى ذلك يتم دفع ٣٪ من القيمة، كضريبة جمركية(**)، وهذا ينطبق على جميع أنواع البضائع المصدرة.

(*) كان اليمنيون يستوردون ماسورة البندقية فقط أما خشب البندقية وأجزاؤها الأخرى فكانوا يصنعونها، ويركبونها محلياً، وكانت بنادقهم تعمل بواسطة الفتيل.
انظر:
Niebuhr, C., BVA, S. 220.

(**) ذكر نيبور في موضع آخر أن الإمام كان يحصل على ربع قيمة البن المصدر. وليس واضحاً في كتابات نيبور فيما إذا كانت الضريبة المذكورة (٣٪) تدخل ضمن الربع أم أن هذه الضريبة يدفعها المشتري الأجنبي في حين يدفع الربع من قبل التاجر المحلي أو المزارع. انظر:
Niebuhr, C., BVA, S. 210.

- الصبر الطبي/ ٢٠ ريالاً للبهار الواحد.
- المر/ ٥ ½ ريال للفراسلة. وأفضل أنواعه تجلب من الحبشة ويعاد تصديرها.
- البخور/١٢ - ١٥ ريالاً للبهار الواحد.
- السنا/٥ ريالات للبهار الواحد.
- خواتم ذهبية، حبشية المنشأ/ ٢٠ ـ ٢٢ للوقية (الوقية تساوي $\frac{1}{15}$ رطل هولندي).
- العاج، حبشي المنشأ/ ١٠٠ ريال للبهار الواحد.
- الصدف/ ريال واحد للمئة قطعة.
- النحاس/٧ - ١٠ ريالات للفراسلة، ويجلب من الحجاز وسورية ثم يعاد تصديره.

هذا وقد أشرنا سابقاً إلى أثمان الخيول التي كانت تتراوح بين ٨٠٠ـ١٠٠٠ ريال للخيل الواحد.

أما الأوزان فقد اعتمد نيبور في إيرادها على معلومات استقاها من تاجر انجليزي، زار بيت الفقيه والمخا عدة مرات، ودرس بعناية ـ كما يذكر نيبور ـ الأوزان المختلفة، التي كان يجري التعامل بها، في كل من بيت الفقيه والمخا. ويبدو أن الأوزان لم تكن جميعها موحدة. فهناك أوزان في بيت الفقيه، تختلف في مقاديرها، عنها في المخا. ولعل ذلك كان حال الأوزان في المدن، والمناطق اليمنية المختلفة. وسنوردها فيما يلي كما أوردها نيبور نفسه:

١٦ ديتو Dito = قفلة واحدة Caffila.

١٠ قفلات Caffilas = وقية واحدة Wakie(*).

(*) لا يبدو محتملاً ان تكون هذه الوقية هي نفس الوقية التي كان يوزن بها الذهب وتساوي $\frac{1}{15}$ رطلاً هولندياً كما هو مذكور أعلاه.

١½ وقية = بيك واحد Bek.

٨٧ بيك = وزن ١٠٠ ريال أسبانيا.

الأوزان الكبيرة في المخا:

رطل واحد = ١٥ دقيقة.

موند واحد Maund = ٤٠ ديتو.

٤٠٠ ديتو أو ١٠ موند = فراسلة واحدة.

٦٠٠٠ ديتو أو ١٥ فراسلة = بهار واحد Bahâr.

الأوزان الكبيرة في بيت الفقيه:

٢٩ ديتو = موند واحد.

٢٩٠ ديتو = فراسلة واحدة.

١١٦٠٠ ديتو أو ٤٠ فراسلة = بهار واحد.

وقد ذكر نيبور أن صديقه فورسكال كان قد سجل أيضاً أوزاناً مشابهة، وأورد الأونسة والرطل الهولندي والرطل الإنجليزي، وهما مختلفان، فالفراسلة تساوي ٢٨ رطلاً هولندياً وتساوي ٣٢ رطلاً إنجليزياً[1].

٦. العملات:

أشار نيبور مرة واحدة فقط إلى عملية بيع وشراء، تمت بطريقة المقايضة(*)، وذلك في سياق حديثه عن رحلة البعثة من جدة إلى اللحية. ففي منطقة، ذكر أنها تقع بين أبو عريش والحجاز، قدم بعض السكان للسفينة، التي كانت تقل أعضاء البعثة، الحليب والزبدة، مقابل الذرة والبازلاء[2].

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 220.

(2) Niebuhr, C., BVA, S. 270 U.RB, Bd. 1, S. 292-293.

(*) كانت طريقة المقايضة لا تزال موجودة في مناطق الريف اليمني إلى عام ١٩٦٢م، مما يجعلنا نعتقد أنها كانت أكثر انتشاراً في عصر نيبور. ولعل عدم تكرر ذكره لها يرجع إلى أنه لم يصادفها شخصياً أثناء رحلته سوى مرة واحدة.

وما عدا ذلك فإن كل ما تخلل كتاباته من معلومات يدل على أن العملات السائدة، كانت هي وسيلة الدفع، وهي في معظمها عملات أجنبية، أما العملات المحلية فقد كانت مقتصرة على القطع النقدية الصغيرة(*). وكانت هناك عملات فضية وعملات ذهبية كما سنرى.

أ. العملات الأجنبية:

إن أكثر عملة تكررت إشارات نيبور إليها هي الريال النمساوي، الذي كان يسمى في أوروبا الريال القيصري الروماني(**) وأما اليمنيون فكانوا يسمونه ريال حجر[1]، وهو عملة نمساوية. وذكر نيبور أنه عندما لوحظ في فينا أن هناك طلب متزايد على الريال القيصري، وأنه أصبح يصدر بكميات كبيرة إلى بلدان شرق البحر الأبيض، وخاصة إلى مصر، تم إنقاص محتواه من الفضة بنسبة ٥٪ عن السابق. وقد تنبه اليمنيون إلى ذلك سريعاً، وأخذوا يحرصون على أن لا يقبلوا الريالات الجديدة التي سكت بعد عام ١٧٥٦[2]م(***).

وإلى جانب الريال القيصري (النمساوي) كانت هناك عملة فيصرية أيضاً، من فئة نصف الريال. كما كان يوجد لدى التجار الريال الأسباني والريال الفرنسي. وكان الريال الأسباني يعتبر أفضل من الفرنسي. ولا يكاد المرء يعثر في اليمن على عملة ذهبية سوى الدوكاتن Ducaten، وهي عملة ذهبية كانت

(1)
Niebuhr, C., BVA, S. 217-219.
(2)
Niebuhr, C., BVA, S. 217-219.

(*) يشبه هذا تماماً وضع النقد في عهد المملكة المتوكلية اليمنية (١٩١٨ - ١٩٦٢).
(**) كلمة ريال تعني بالأسبانية ملكي. وقد أطلقت هذه التسمية في البلاد العربية في القرنين ١٧، ١٨ على عملات فضية كبيرة، هولندية وألمانية ونمساوية وفرنسية وأسبانية. وقد ضرب الريال النمساوي، أو ريال ماريا تريزا، لأول مرة عام ١٧٥١ م ونحن هنا، في كل مرة نذكر فيها الريال، نقصد الريال النمساوي، لأنه كان الريال المتداول بين الناس عند زيارة نيبور كما تدل على ذلك إشاراته.
انظر:
Rittmann, D. Münzsammlerslexikon, Unter Taler, Ducaten.
وكذا: الموسوعة، ص ٩٠٥.

تسك في البندقية وكانت قيمتها تصل إلى ٢٦ ريالاً[1]. وهناك عملة صغيرة تكرر ذكرها لدى نيبور وهي الأشتوفر Stuver. وهي في مستوى الفلس والسنت... إلخ. ولم يذكر نيبور مصدرها.

وقد أورد نيبور في كتابه (وصف بلاد العرب) أسماء عديد من العملات الأوروبية، ذكر أنها شائعة الاستعمال في شرق البحر الأبيض، كالدوكاتن الدينماركي والشلنج والروبية إلخ[2]... ولعل هذه العملات أو بعضها كان مستعملاً في البلاد العربية. إلا أن نيبور لم يشر في يومياته إلى وجود أي منها في اليمن، باستثناء ما سلف ذكره.

ب. العملات المحلية:

لم تكن النقود في اليمن تسك - كما أشار نيبور - إلا بكميات قليلة، وقد قام أحد أبناء الإمام المؤيد محمد بن إسحاق، واسمه أحمد، كان يقيم في الدن ويحصل على إيرادات وصاب العالي والسافل، قام بسك عملة باسمه، قبل سنوات من مجيء (نيبور) إلى اليمن، مما دفع بالإمام المهدي عباس إلى إجباره على القدوم إلى صنعاء والإقامة فيها[3]. أما الإمام المهدي عباس نفسه فقد قام بسك عملة ذهبية محلية صغيرة، قيمتها ريال ونصف، وثلاثة أرباع الريال. وذلك بتذويب عملة البندقية الذهبية (الدوكاتن)، وإعادة سكها. ولكن هذه العملة الذهبية المحلية لم تكن رائجة الاستعمال، ولا يكاد المرء يعثر عليها لدى الصرافين إلا نادراً. كما تم سك ستة آلاف قطعة من العملة الذهبية، قيمة القطعة ثلاثة ريالات. ولكن لا يستطيع المرء - كما أشار نيبور - أن يعثر عليها حتى لدى يهود صنعاء(*). أما العملات المحلية الفضية فقد سكت بقطع

(1)
Niebuhr, C., BVA, S. 217-219.
(2)
Niebuhr, C., BVA, S. 97-98.
(3)
Niebuhr, C., BVA, S. 245.
(*) كان معظم المشتغلين في صنعاء بالصيرفة من اليهود. انظر: Niebuhr, C., BVA, S. 216.

مختلفة الأحجام والقيم. وأكبر قطعة منها كانت تساوي نصف ريال، وتسمى بأسماء مختلفة. فقد كان هناك الكبير والخماسي والباولة والحرف. وكان الريال يساوي ٣٢ كبيراً أو ٦٤ خماسياً أو ٧٢ باولة أو ١٦٠ حرفاً. وكانت هناك أنواع كثيرة من الخماسي، بعضها يستعمل في مناطق ولا يقبل في مناطق أخرى. وكانت الأسعار تحسب بصور مختلفة، «ففي اللحية تحسب الأسعار عند شراء شيء من السوق بالباولة. أما في بقية مناطق تهامة فبالخماسي. وفي المناطق الجبلية بالحرف وبالكبير. وأما الصيارفة فيحسبون أسعار العملة وفقاً لعملة وهمية هي البقشة(*)، حيث يساوي الريال ٨٠ بقشة»(١).

وقد أثبت نيبور في كتابه (وصف بلاد العرب) صورة لنصف الريال اليمني، وقدم وصفاً له(**)، وقد كتب على أحد وجهيه: أمير المؤمنين المهدي العباس بن المنصور بن المتوكل. وعلى الوجه الآخر: بن القاسم بن الحسين بن المهدي، دامت خلافته، ضرب في صنعاء ١١٧٧(٢). ولاحظ نيبور أن هناك عملة عربية وتركية، مكتوب عليها عبارة (لا إله إلا الله محمد رسول الله). إلا أن العملة الجديدة، في تركيا والبلاد العربية، لم يعد يكتب عليها إلا اسم الحاكم ولقبه. ويقول نيبور: «وقد فسر لي أحد الملاّ في البصرة سبب ذلك، وهو أن المسلمين لا يريدون أن يلمس النصارى واليهود والوثنيين بأيديهم غير الطاهرة هذه الكلمات المقدسة. ولكني أشك في أن سلطان القسطنطينية وإمام اليمن يفكران نفس تفكير رجل الدين هذا. إذ أنهما،

(١) Niebuhr, S. 217-219, U.S. 141.

(٢) Niebuhr, C., BVA, S. XXXIV.

(*) يقصد نيبور هنا كما يبدو أن هذه العملة لم يكن يجري التعامل بها في السوق. ويحدث مثل هذا الأمر عادة إذا كان قد تم التعامل بعملة لفترة طويلة ثم اختفت، فإن التعامل بها بعد ذلك بصورة نظرية أو وهمية أمر مفهوم لأنها لا تزال باقية في أذهان الناس، فالريال والبريزة عملة اختفت من مصر ومع ذلك استمرت في أذهان الناس كعملة وهمية يتعاملون بها. ولكن من غير المحتمل أن يتداول الناس اسم عملة لم يسبق لهم التعامل بها.

(**) انظر الملحق.

بالأحرى، قد تركا كتابة هذه الكلمات على العملة ليفسحا مكاناً لكتابة اسميهما ولقبيهما»(١).

وفي المخا لاحظ نيبور أن التجار، عندما يسلمون بعضهم مبالغ كبيرة، يلجؤون بدلاً من عد القطع النقدية، إلى وزنها؛ ولهذا فإن صراف الإمام يقوم بمراقبة وفحص موازين التجار والصرافين أيضاً(٢).

أما عملية نقل النقود، فقد شاهد نيبور بنفسه تجار بيت الفقيه، وهم ينقلون نقوداً، من بين الفقيه إلى المخا، على ظهور الحمير(٣). ومن المخا تنقل كميات كبيرة من النقود على ظهر السفن إلى الهند. وقد عادت السفينة الإنجليزية، التي أقلت من بقي حياً من أعضاء البعثة، عادت إلى الهند وعلى ظهرها مبلغ من الريالات القيصرية وعملة البندقية الذهبية (الدوكاتن)، يساوي مئتين وخمسين ألف ريال(٤). وذكر نيبور أن بعض السفن، العائدة من جدة ومن البصرة إلى الهند، تحمل أيضاً نقوداً أوروبية على ظهرها، ثمناً للبضائع الهندية، التي جاءت بها «وإذا فكر المرء بكمية الفضة التي تأخذ طريقها من أوروبا، على شكل عملة إلى الهند والصين سنوياً، فإنه سيستغرب كيف أن أوروبا لم تُستنزف منذ وقت طويل. هذا إذا لم يضع في اعتباره الكنوز التي تجلب من أمريكا إلى أوروبا»(٥).

٧ ـ الموانىء اليمنية وحركة السفن فيها:

تضمن عرضنا السابق للسلع، المصدرة والمستوردة، إشارات ضمنية إلى الموانىء اليمنية. وسوف نحاول هنا رسم صورة لهذه الموانىء، في القرن الثامن عشر، من خلال إشارات نيبور المتفرقة إليها. فنقف على حالتها

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 99-100.

(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 219.

(٣) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 437.

(٤) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 445-446.

(٥) Niebuhr., RB, Bd. 1, S. 445.

وأهميتها وحركة السفن منها وإليها، وعلاقاتها بالموانىء الأجنبية.

فمن الشمال إلى الجنوب بدأت ملاحظات نيبور عن الموانىء اليمنية بعد أن غادر حدود الحجاز. وقد ذكر أن «كل المناطق الواقعة جنوب حلي تعتبر جزءاً من اليمن»[1]. إلا أن أول ميناء هام في المناطق اليمنية أشار إليه هو ميناء جيزان، التابع لمنطقة أبو عريش. وكانت معاملة شريف أبو عريش للأعراب، وخاصة لرعايا إمام صنعاء، معاملة غير ودية[2]. ومع ذلك فقد كان ميناء جيزان هو ميناء تصدير البن الآتي من منطقة حاشد وبكيل إلى جدة، ومنها إلى السويس والقاهرة، وكانت تصدر منه أيضاً أوراق السنا، كما سبقت الإشارة. وكان لتجار جيزان علاقات تجارية مع الموانىء الأفريقية الشرقية[3].

وأول ميناء هام إلى الجنوب من جيزان هو ميناء اللحية، وهو أول موانىء الإمام من جهة الشمال. وقد سبقت الإشارة إلى أهميته بالنسبة لتصدير البن إلى جدة، بشكل خاص. وكان لتجاره أيضاً علاقات مع الموانىء الأفريقية الشرقية[4]. وقد نزلت البعثة فيه، فرست السفينة التي أقلتها على بعد ¾ الميل (ميل ألماني[*])، أي حوالي ٥,٦٥٠ كلم، من اليابسة وتم إنزال الأفراد والأمتعة بواسطة القوارب الصغيرة[5].

وكان ميناء الحديدة أفضل حالاً من ميناء اللحية. ومع ذلك لم يكن يستطيع استقبال السفن الكبيرة[6]. وكانت الحديدة تعتبر ميناء بيت الفقيه. وقد حل ميناؤها محل ميناء غليفقة، الذي ربط نيبور بين أهميته وأهمية مدينة زبيد. فقد أدى تراجع أهمية ميناء غليفقه إلى تراجع أهمية زبيد نفسها. إذ أن

(1) Niebuhr, C., RB, BD. 1, S. 291.
(2) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 294.
(3) Niebuhr, C., BVA, S. 267.
(4) Niebuhr, C., BVA, S. 267.
(5) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 295, 298.
(6) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 324.

(*) انظر هامش ص ١٤٩ من هذا البحث.

غليفقة كانت تعتبر ميناء زبيد. وهكذا حلت بيت الفقيه محل زبيد في الأهمية، وحل ميناء الحديدة محل ميناء غليفقة. وقد حاول نيبور أن يفسر اندثار ميناء غليفقة، وهو يشاهد مدينة غليفقة، وقد أصبحت مجرد قرية صغيرة مهملة، بقوله: «يبدو أن السبب في ذلك ليس فقط تراجع مياه البحر في السواحل العربية ونمو الشعاب المرجانية، وإنما أيضاً بسبب الرمال الناعمة الكثيفة التي تتراكم هنا»[1].

وقد أشار نيبور إلى ميناء سماه ميناء موسى، وقال عنه إنه «كان مزدهراً ومشهوراً في التاريخ القديم»[2]، وأن موضعه ربما كان في قرية موشد[*] Mauschid نفسها، وذلك لتشابه الاسم والموقع الجغرافي[3].

أما ميناء المخا فهو أهم الموانىء اليمنية على الإطلاق. ومنه اكتسب البن اليمني اسمه العالمي مُكا. ويقع ضمن مملكة الإمام، وله علاقات تجارية مع الموانىء الأفريقية الشرقية[4]. وقد تضمنت كتابات نيبور أيضاً إشارات متفرقة إلى الموانىء اليمنية الجنوبية التالية: ميناء عدن: وهو - كما أشار - ميناء ممتاز، إلا أن علاقة حاكم عدن بجيرانه سيئة، مما أدى إلى عدم وجود حركة تجارية نشطة، ومع ذلك فلا يزال البن الآتي من يافع وقعطبة يصدر من هذا الميناء[5].

موانىء الشحر ومرباط وحاسك وظفار: وأهم نشاط تجاري لهذه الموانىء هو تصدير البخور والصبر، خاصة إلى عمان والهند[6].

(1) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 323.
(2) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 358.
(3) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 358.
(4) Niebuhr, C., BVA, S. 267.
(5) Niebuhr, C., BVA, S. 254-255.
(6) Niebuhr, C., BVA, S. 282, 287.

(*) في موضع آخر ذكر نيبور أن اسم هذه القرية هو موشد أو موسح ولعله يقصد موشج التي تقع في الموقع نفسه الذي حدده، على الساحل بين المخا وزبيد. ولأنه قد اعتمد كثيراً على السمع في تسجيل أسماء القرى والأماكن فقد التبست عليه بعض الأسماء بسبب تشابه مخارج بعض الحروف. انظر: BVA, S. 225.

وقد ذكر نيبور أن السفن تحتاج إلى مرشدين، أثناء مرورها في المنطقة الواقعة بين مينائي جدة واللحية، وخاصة السفن الأوروبية، وذلك لكثرة الشعاب المرجانية ولأن الموانىء في هذه المنطقة ليست موانىء بالمعنى المفهوم، على خلاف الموانىء الواقعة بين جدة والسويس[1].

وتحدث نيبور عن نظام هبوب الرياح على السواحل اليمنية وتأثيرها على حركة السفن. فالرياح تهب ستة أشهر من الجنوب وستة أشهر من الشمال. وهذا لا يعني - كما لاحظ نيبور - أنها لا تهب رياح من اتجاهات أخرى، ففي أغسطس تسيطر الرياح الشمالية. ومع ذلك تهب أحياناً رياح غربية. ومرة هبت كذلك رياح شرقية. إلا أن الرياح الشمالية، والرياح الجنوبية، تبقى هي المسيطرة والمتحكمة في حركة السفن، من الموانىء اليمنية وإليها[2]. فالسفن التي تبحر من الموانىء اليمنية إلى الهند مثلاً لا تبحر قبل شهر مايو[3].

وقد لاحظ نيبور، أن اليمنيين لم يعودوا قادرين على السيطرة على حركة النقل البحرية، بل لم يعودوا قادرين حتى على نقل كل بضائعهم المصدرة على سفنهم، فهم يقومون فقط بنقل جزء من البن، من موانىء المخا والحديدة واللحية وجيزان إلى جدة، وبنقل جزء من البخور والصبر، من الموانىء الجنوبية في حضرموت إلى مسقط. في حين تتولى السفن العمانية نقل الجزء الآخر.

وفي سياق حديث نيبور عن رحلة البعثة من جدة إلى اللحية، أكد تفوق السفن العمانية على السفن اليمنية. فقد نصحت البعثة وهي في جدة أن تبحر على سفينة عمانية، لا على سفينة يمنية، فأشرعة السفن العمانية شبيهة بأشرعة السفن الأوروبية والهندية. في حين أن أشرعة السفن اليمنية مصنوعة من

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 287-288.
(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 445.
(٣) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 309.

الحصير، كما أن قادة السفن العمانية أكثر خبرة، ومعرفة بالبحار، من اليمنيين، وقد ثبت لنيبور أن السفن العمانية أفضل من اليمنية، عندما لحقت السفينة العمانية التي أقلت البعثة، بعد سبعة أيام من إبحارها من جدة، بسفينة يمنية، كانت قد غادرت ميناء جدة، قبل إبحار السفينة العمانية بثلاثة أيام. وكان هذا كما يقول نيبور: «دليلاً على أن سفينتنا العمانية أفضل من السفينة اليمنية، لأن اليمنية عند هبوب رياح معاكسة خفيفة لا تستطيع، بأشرعتها الحصيرية، حتى أن تغادر الميناء»[1].

ولعله بسبب هذا التفوق وجد العمانيون مجالاً للاشتغال بنقل البضائع، من وإلى الموانىء اليمنية، حتى إن كثيراً من العمانيين - كما أشار نيبور - أصبح يعيش على نقل البن من اليمن إلى موانىء الخليج[2]. وكانت حركة النقل بين اليمن وعمان تتم عن طريق البحر، لأن طريق البر، كان طريقاً غير مأمون ومرهق ويمر عبر مناطق كثيرة تتبع مشايخ مستقلين كثيرين[3].

وإذا وضعنا في اعتبارنا ما ذكره نيبور من أن بعض السفن الأجنبية تعود إلى الهند، بعد بيع حمولتها من بضائع الهند في المخا، غير محملة، وذلك لأن أهم ما تصدره اليمن هو البن، والهنود لا يحبون البن كثيراً[4]، فإنه يمكن الاستنتاج، أن حركة السفن المحملة بالبن من اليمن كانت تتركز في اتجاهين: اتجاه جدة، حيث ينقل البن من هناك إلى السويس في مصر، كما سبقت الإشارة، واتجاه مسقط وموانىء الخليج، العربية والإيرانية. وقد شاهد نيبور خلال رحلة البعثة من جدة إلى اللحية سفناً كثيرة، صغيرة الأحجام، محملة بالبن، ومتجهة من موانىء اليمن إلى ميناء جدة[5].

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 289 - 290.
(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 35.
(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 289. U. RB, Bd. 1, S. 286.
(٤) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 445 - 446.
(٥) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 290.

أما بالنسبة لحركة السفن الأجنبية، فيمكننا أن نستخلص من إشارات نيبور المعلومات التالية:

كانت شركة الهند الشرقية الإنجليزية ترسل من أوروبا إلى المخا، عبر بومبي بالهند، سفينة كل عامين، لجلب البن. وكان عليها في كل مرة تاجر ينزل في المخا، ويتوجه إلى بيت الفقيه، ليقضي فيها بضعة أشهر. وعدا عن هذه السفينة التابعة للشركة، كانت تأتي إلى الموانىء اليمنية سفن إنجليزية أخرى، من قبل تجار من البنجال ومدراس وبومبي وسورات[1]. ورغم أن شركة الهند الشرقية الإنجليزية لم تكن ترسل سوى سفينة واحدة كل عامين، إلا أنها ظلت تحتفظ ببيوت مستأجرة في كل من المخا وبيت الفقيه بصورة دائمة. ويبدو أنها لم تكن تحقق من تجارتها مع الموانىء اليمنية، ما كان يحققه التجار الإنجليز المقيمون في الهند من مكاسب، فقد أرسل هؤلاء عام ١٧٦٣ م إلى ميناء المخا سفينتين من البنجال، وسفينة من بومبي، وسفينتين من سورات. وكان التجار الإنجليز يتركون - أحياناً - تاجراً منهم في المخا، ليبقى فيها طوال العام. ولكن بعد أن عومل أحدهم معاملة سيئة، أصبح جميع التجار، الذين يأتون على السفن، يحرصون على مغادرة المخا، عائدين على سفنهم في نهاية الموسم، تاركين بضائعهم، التي لم يتمكنوا من بيعها، لدى وكلائهم التجاريين[2].

وأما الفرنسيون فلم يعودوا يرسلون سفناً إلى الموانىء اليمنية منذ سبع سنوات على مجيء نيبور إلى اليمن، وذلك نتيجة لحرب السنين السبع التي كان من أبرز أطرافها فرنسا وبريطانيا(*). ومع ذلك فقد ظلوا يحتفظون بمقرات بيوتهم التجارية في كل من المخا وبيت الفقيه، وكانت إيجاراتها تدفع بواسطة وكيلهم الهندي الجنسية[3].

---

(1) Niebuhr, C., BVA, S. XII - XIII, 222.

(2) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 444.

(3) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 444, U. BVA, S. 222.

(*) نشبت حرب السنين السبع في الفترة من ١٧٥٦ م إلى ١٧٦٣ م وكان من نتائجها أن أصبحت بريطانيا الدولة الاستعمارية الأولى في العالم على حساب فرنسا.

وأما الهولنديون فقد كان آخر عهد سفنهم بالموانىء اليمنية قبل عامين من قدوم نيبور، عندما جاءت إلى المخا سفينتان من مستعمرتهم (بتافيا Batavia)(*). ويبدو أن تجارتهم مع الموانىء اليمنية، لم تعد مربحة، لهذا توقفت سفنهم عن المجيء إليها[1].

وأما البرتغاليون، الذين كانت لهم تجارة مزدهرة في الماضي مع الموانىء اليمنية، فقد توقفت سفنهم عن المجيء، منذ سنوات طويلة[2].

وقد أكد نيبور أن اليمنيين، بل والعرب عموماً، قد خسروا خسارة كبيرة، عندما اكتشف الأوروبيون طريق رأس الرجاء الصالح(**)، وأصبحوا لا يكتفون بمد أنفسهم في أوروبا، بواسطة سفنهم، بالبضائع الهندية والصينية، بل ويمدون بها أيضاً عرب المغرب ومصر وتركيا[3].

وفي سياق ملاحظاته عن التجارة الأجنبية مع الموانىء اليمنية، سجل نيبور ملاحظة أشبه ما تكون بتوصية موجهة إلى الدينماركيين. فالسلع الأوروبية لا تهم اليمنيين كثيراً باستثناء الحديد، الذي يتاجر به الإنجليز، يشترونه من الدينمارك، ويجلبونه إلى المخا وجدة، «وهنا من الممكن جداً أن يتولى الدينماركيون أنفسهم جلب الحديد الأوروبي والأقمشة البنجالية وغيرها من البضائع الهندية، وأن يقوموا بنشاط تجاري ممتازل، مع الموانىء

---

(1) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 362, 444. U. BVA, S. 222.
وقارن أيضاً: فان دام، هولندا، ص ٣٠ - ٣١.

(2) Niebuhr, RB, Bd. 1, S. 444, U. BVA, S. 222.

(3) Niebuhr, C., BVA, S. 284, 285.

(*) بتافيا هي جاكرتا عاصمة أندونيسيا. وقد كان هذا هو اسمها حتى عام ١٩٥٠. انظر: NUL, Bd. 1, S. 404.

(**) منذ اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح قضي نهائياً على دور اليمن كوسيط تجاري. ومع ذلك فقد ظلت سوقاً تلتقي فيه تجارة الهند والصين بتجارة الشام ومصر وتركيا وأوروبا. كمثال للسلع التي كانت تأتي من الشرق والغرب إلى المخا في بداية القرن السابع عشر انظر: براور، اليمن، ص ٩٨ - ١٠٠.

العربية، منطلقين من مستعمرتهم ترنكبار، مثلما يعمل الإنجليز منطلقين من مستعمراتهم أيضاً[1].

٨. القوافل التجارية:

أشار نيبور إلى أن القوافل التجارية كانت قديماً تشق (بلاد العرب) من الجنوب إلى الشمال. وبهذا لم تكن الموانىء، التي تصل إليها بضائع الهند، تحقق وحدها مكاسب مالية، بل كانت المدن الأخرى داخل البلاد تحقق مكاسب أيضاً. وكذا البدو، الذين كانوا يزودون القوافل بالجمال. وذكر أن مثل هذه القوافل كانت لا تزال موجودة عندما كان هاينرش مدليتون Heinrich Midleton (*) في المخا وذلك عام ١٦١١ م، فقد قدمت في ذلك العام قافلة كبيرة إلى المخا ضمت تجاراً من دمشق والسويس ومكة، جاؤوا ليتاجروا مع التجار القادمين إلى المخا من الهند[2].

وإضافة إلى هذه الإشارة، تعرض نيبور مراراً إلى ذكر السفر مع القوافل. إلا أننا لا نستطيع أن نستدل مما ذكره على أن تلك القوافل كانت قوافل تجارية، إلا على سبيل الافتراض. وعلى أي حال فقد كانت تلك القوافل وفقاً لإشاراته، تتحرك ضمن المناطق اليمنية، كما كان بعضها يتجه نحو الحجاز عن طريق صعدة.

وقد تحدث نيبور عن قافلة الحج، التي - كما ذكر - كان يرأسها عادة واحدة من وجهاء بيت الكبسي، وكانت رحلتها من صنعاء إلى مكة تستغرق خمسة وأربعين يوماً. مع أن المسافة بين المدينتين حسب تقديره لا تتجاوز مئة ميل

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 336-447.

(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 285.

(*) هو السير هنري ميدلتون، الذي قاد الرحلة البحرية السادسة لشركة الهند الشرقية الإنجليزية. ورسا في ميناء عدن والمخا، أواخر عام ١٦١٠م وتم اعتقاله من قبل عامل المخا ومعه حوالي ثلاثين بحاراً من بحارة سفنه وأخذوا جميعاً إلى صنعاء. ثم تمكن من الهروب إلى سفنه الراسية في الميناء. للمزيد انظر: ماكرو، اليمن والغرب، ص ٢٦ - ٢٧. وبراور، اليمن، ص ١١٢ - ١١٣.

الأولى، وهي مسافة يمكن للمسافر أن يقطعها في ما لا يزيد عن عشرين يوماً ولعل القافلة تتوقف في المدن التي تمر بها لممارسة التجارة[1]، مما كان يجعلها تحتاج إلى أكثر من ضعف الزمن المعتاد للوصول إلى مكة.

٩. إيرادات الإمام:

يمكننا أن نصنف إيرادات الإمام في صنعاء، استناداً إلى كتابات نيبور، في نوعين:

أولهما: إيرادات المناطق الزراعية، **وثانيهما**: إيرادات الجمارك، وخاصة جمارك الموانىء.

ولم يكن الإمام يتسلم إيرادات جميع المناطق الزراعية، فقد كانت هناك مناطق تذهب إيراداتها إلى أفراد من أسرة الإمام، أو إلى أسر أخرى. فعلى سبيل المثال، كانت تذهب إيرادات منطقة وصاب السافل، ومنطقة المخادر، إلى عائلة إسحاق[2]. وإيرادات رماع ابن حميد، وبعض القرى في منطقة سنحان، إلى أفراد من أسرة الإمام[3].

أما بالنسبة لإيرادات الموانىء، فقد كانت إيرادات اللحية والحديدة والمخا، تذهب إلى خزينة الإمام، في حين أن جيزان وعدن وموانىء حضرموت جميعها، كانت تقع خارج حدود مملكته. وقد أبرز نيبور أهمية مينائي المخا والحديدة - بصورة خاصة - بالنسبة للإيرادات. فذكر أن الحركة التجارية في المخا كانت مزدهرة جداً، ولذا فإن إيراداتها الجمركية التي كان الإمام يحصل عليها، كانت إيرادات عالية.

وسجل نيبور في يومياته صورة لطريقة التعامل في جمرك المخا،

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 285.

(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 224, 237.

(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 232, 250, 251.

ومقدار الضرائب المتحصلة، فذكر أن التجار الأتراك والعرب والهنود كانوا يتوجهون ببضائعهم مباشرة إلى جمرك الميناء لمعاينتها من قبل موظفي الجمرك، ودفع الضرائب المستحقة عليها. وكانوا يدفعون عادة ضريبة تتراوح بين ٨٪ إلى ١٠٪ من قيمة السلعة. في حين كان الأوروبيون يدفعون على بضائعهم، الآتية من أوروبا والصين والهند، ضريبة مقدارها ٣٪ فقط من قيمة السلعة، وكانوا يتمتعون بامتياز آخر، وهو أنه كان يسمح لهم بنقل بضائعهم مباشرة من السفن إلى مخازنهم في المدينة، حيث تتم معاينتها، من قبل موظفي الجمرك، في المخازن نفسها. وحتى تلك البضائع، التي كان الهنود يجلبونها إلى المخا من الهند ثم أصبح الإنجليز يتولون جلبها بعد أن بسطوا سيطرتهم هناك، أضحت تخضع للضريبة نفسها المقررة على الأوروبيين، أي ٣٪. ويقوم التجار المحليون في المخا بتسديد ضريبة على هذه البضائع مقدارها ٥٪ بعد شرائها من الإنجليز «وهكذا يحافظ اليمنيون على علاقاتهم الطيبة بالأوروبيين، وفي الوقت نفسه لا تلحق بهم خسائر نتيجة لتوسع تجارة الإنجليز في الهند»[١]. وكان الأوروبيون يدفعون على البضائع التي يحملونها من المخا ضريبة مقدارها ٣٪ أيضاً[٢].

وأما بالنسبة لميناء الحديدة فقد اكتسب أهمية كبيرة، بفضل تصدير البن، وكان يحقق دخلاً جمركياً عالياً[٣]. وكان عامل الحديدة يبدو - كما أشار نيبور - وكأنه لا عمل له سوى قبض الضريبة الجمركية[٤].

وإضافة إلى الإيرادات الجمركية، التي كانت تحققها الموانىء، كانت هناك ضرائب، تدفع على مرور البضائع والمسافرين، في الجمارك التابعة للمناطق الإدارية المختلفة، ففي قرية Orâsch كانت تدفع ضريبة جمركية على

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 444.
(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 444.
(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 228.
(٤) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 324.

الطريق الذي كان ينقل إلى يافع، باعتبار أن يافع لم تكن تابعة للإمام[١]. وفي بيت الفقيه وزبيد، كما في قرية موشج الواقعة على الساحل بين زبيد والمخا وقرية Machsa، الواقعة في طريق بيت الفقيه - العدين، كان المسافرون يدفعون ضرائب على أحمال جمالهم[٢]. وقد ذكر نيبور أنه وزميله فورسكال قد دفعا في قرية Machsa ضريبة مرور مقدارها ربع ريال فقط. وعلق على ذلك بقوله: «إن هذه الضريبة، وكل الضرائب التي تأخذها الحكومة اليمنية من المسافرين، ضئيلة جداً، مقارنة بما يجب أن يدفعه المرء في أوروبا»[٣].

وكان يتم تسديد ضريبة البن في قرية الحدية Hadie التابعة لمنطقة كسمة، قبل أن يتم نقله إلى بيت الفقيه أو إلى الحديدة مباشرة[٤]. ولم يوضح نيبور ما إذا كان يتم دفع ضريبة أخرى على هذا البن في ميناء التصدير.

وكان يتوجب على المسافرين المتجهين من مملكة الإمام إلى نجران ومنطقة قحطان ومكة، دفع ضريبة باهظة، في جمرك مدينة صعدة، التي كانت طريق السفر تمر عبرها. وكانت هذه الضريبة تذهب إلى إمام(*) صعدة[٥].

وقد حاول نيبور أن يقدم صورة واضحة، عن مقدار إيرادات الإمام المهدي عباس، مع تأكيده، أنه «من الصعب على الرحالة الأجنبي أن يحصل على معلومات دقيقة، عن إيرادات حاكم بلد من البلدان، وخاصة في البلاد العربية. حيث يضطر المرء إلى طرح أسئلته بصورة غير ملحوظة. ونادراً ما يجد فرصة للتحدث مع أناس، تتوفر لديهم، أنفسهم، معرفة كافية بهذه الإيرادات»[٦]. وكانت أفضل المعلومات هي تلك التي حصل عليها «من يهودي

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 374.
(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 340, 358 U. BVA, 224.
(٣) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 340.
(٤) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 336.
(٥) Niebuhr, C., BVA, S. 272.
(٦) Niebuhr, C., BVA, S. 209.

في صنعاء اسمه عراقي Orâki[1]، كانت له حظوة لدى إمامين متعاقبين. وعدا عن أنه كان واحداً من أهم موظفي البلاط[*]، فإن المرء لا يخشى أن يطرح عليه أسئلته بوضوح. وحسب معلومات العراقي، كانت إيرادات الإمام المهدي محمد تبلغ ٨٣ ألف ريال قيصري شهرياً، أي تسع مئة وستة وتسعين ألف ريال سنوياً. ولكن بعد أن انفصلت قعطبة وعدن وأبو عريش وتعز وأصبحت إيرادات وصاب والمخادر وقسم من بلاد آنس وحراز تذهب إلى بعض الأمراء، انخفضت الإيرادات في عهد الإمام المنصور إلى ثلاثين ألف ريال شهرياً. أي إلى ثلاث مئة وستين ألف ريال سنوياً، ثم ارتفعت في عهد الإمام المهدي عباس، لتبلغ أربعين ألف ريال شهرياً، أي أربع مئة وثمانين ألف ريال سنوياً، وذلك بعد أن استطاع الإمام المهدي عباس بسط نفوذه على بعض المناطق، التي كانت قد انفصلت عن مملكة الإمام»[2].

وقد استقى نيبور معلومات، من مصادر مختلفة، عن إيرادات المناطق الإدارية التابعة للإمام، كل على حدة. وعبر عن اعتقاده، بأن الأرقام التالية، هي أكثر قرباً إلى الحقيقة[3]:

- إيرادات المخا: في أشهر أبريل ومايو ويونية ويوليه، أي في أشهر الموسم: ٧٠٠٠ ريال شهرياً
- في الأشهر الأخرى: ٤٠٠٠ ريال شهرياً
- إيرادات اللحية: في أشهر أبريل ومايو ويونيه ويوليه ٣٠٠٠ ريال شهرياً
- في الأشهر الأخرى: ٢٠٠٠ ريال شهرياً.

(١)
(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 209.
(٣) انظر: Niebuhr, C., BVA, S. 209.
(*) ذكر نيبور أن العراقي هذا كان قبل أن يجرده الإمام المهدي عباس من وظائفه مسؤولاً عن الجمارك جميعها وعن مباني ومزارع الإمام: Niebuhr, C., BVA, S. 210.
وقارن: غالب، ابن الأمير، ص ٢٢٧ - ٢٢٩. Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 422 - 423.

. إيرادات بيت الفقيه:	٣٦٠٠ ريال شهرياً[*].
. إيرادات الحديدة:	١٤٠٠ ريال شهرياً.
. إيرادات حراز:	١٥٠٠ ريال شهرياً.
. إيرادات حفاش	١٢٠٠ - ١٤٠٠ ريال شهرياً.
. إيرادات زبيد	١٤٠٠ ريال شهرياً.
. إيرادات الجبي وبرع	٢٤٠٠ ريال شهرياً.
. إيرادات كسمة	٤٠٠٠ ريال شهرياً.
. إيرادات الحيمتين	١٠٠٠٠٠ مئة ألف ريال سنوياً

وهذه الأرقام - كما أشار نيبور - أرقام قريبة من المعلومات التي حصل عليها من العراقي، الذي لم يستطع أن يقابله سوى مرة واحدة، بعد وصول البعثة إلى صنعاء[1].

ويبدو من المستغرب أن تكون إيرادات الحديدة ١٤٠٠ ريال شهرياً فقط أي مساوية لإيرادات زبيد، وأقل من إيرادات اللحية، فهذا الرقم لا يتناسب مع تأكيد نيبور بأن الحديدة تحقق إيراداً عالياً وأن عاملها لا شغل له إلا تحصيل الإيرادات، ولا مع تأكيده بأن أهمية زبيد قد تلاشت وحلت محلها بيت الفقيه كما حلت الحديدة محل ميناء زبيد (غليفقة).

وكانت ضريبة البن هي أهم مصدر من مصادر إيرادات الإمام «إذ يقال أن الإمام يحصل على ربع ثمن البن كضريبة، قبل أن يسمح بشحن الكمية المباعة في السفن»[2] ولم يوضح نيبور ما إذا كان هذا الربع قد حسبت ضمنه الضريبة التي كانت تدفع في جمارك الموانىء، أم أن الضريبة الجمركية في الموانىء كانت تدفع من قبل التجار الأجانب، في حين يكون الإمام قد استحوذ من المزارعين على ربع ما قبضوه ثمناً لما باعوه من محصولهم[3].

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 209.
(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 209.
(٣) قارن، هامش ص ١٧١ من هذا البحث.
(*) لم يميز نيبور بين إيرادات أشهر الموسم والأشهر الأخرى إلا بالنسبة للمخا واللحية.

الفصل الثالث

الحياة الاجتماعية والدينية والثقافية

١. تصنيف السكان:

لم يتعرض نيبور للتركيب الاجتماعي للسكان، ولذا فإن أقصى ما يمكن استخلاصه من إشاراته، هو تصنيف للسكان، يختلط فيه الأساس الديني والمذهبي بالأساس القومي. وذلك على النحو التالي:

أ. المسلمون:

وينقسمون إلى سنيين، يسكنون تهامة ومنطقة تعز، وزيديين، يسكنون المنطقة الممتدة من إب إلى صنعاء[١]. وهذا التقسيم يهمل، كما هو واضح، المناطق غير الخاضعة للإمام. وقد أكد نيبور أن عدد السنيين، نسبة إلى الزيديين، متساوٍ تقريباً. وأن «اتباع المذهبين يتعايشون بصورة ممتازة. ولم أسمع أنهم يكرهون أتباع الأديان الأخرى»[٢].

ب. اليهود:

وهم أقلية يسكنون في قرى منفصلة خارج المدن[٣]. ففي صنعاء مثلاً،

---

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 183 - 184. U. RB, Bd. 1, S. 396.

(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 23.

(٣) Niebuhr, BVA, S. 25.

يسكنون في قرية منفصلة عن صنعاء، اسمها (عسر)(*). ولأنه لا يسكنها سوى اليهود، فإنها تسمى أيضاً قاع اليهود «وهي عبارة عن قرية كبيرة، أو بالأحرى مدينة صغيرة»[1] تقع قرب بير العزب. ويقدر عدد اليهود فيها بحوالي ألفي نسمة. بينهم أفضل الحرفيين، وأمهر الصناع، في اليمن، يعملون طوال النهار، في أسواق صنعاء، ويعودون مساءً إلى بيوتهم. ويجد المرء بينهم أناس أغنياء، وفيهم شخص اسمه عراقي (Oraki)(**)، عمل موظفاً كبيراً لدى إمامين متعاقبين. فعمل مع الإمام المنصور ثلاثة عشر عاماً. ثم عمل مع الإمام المهدي عباس(***)، خمسة عشر عاماً، كمسؤول عن الجمارك، وعن مباني ومزارع الإمام. ولكن الإمام المهدي زج به في السجن، وغرمه خمسين ألف ريال، وذلك قبل مجيء البعثة الدينماركية إلى اليمن بعامين(****)، ثم أطلق سراحه قبل وصول البعثة إلى صنعاء بأسبوعين. ومنحه خمس مئة ريال. وفي الفترة نفسها التي أوقع فيها الإمام المهدي بالعراقي، أمر بهدم معابد اليهود في قريتهم، فهُدم منها اثني عشر معبداً، ولم يبق لهم سوى معبدين. كما قرر عدم السماح لهم بالسكن في منازل يزيد علوها على طابق واحد، فتم تهديم الطوابق الزائدة[2].

ويختلف اليهود في ملابسهم عن المسلمين، فهم لا يضعون على

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 232.

(2) Niebuhr, C., BVA, S. 232. U. RB, Bd. 1, S. 422 - 423.

(*) هكذا كتب نيبور اسم عصر بالأحرف العربية.

(**) في كتاب ابن الأمير وعصره ورد أن زعيم اليهود هو سالم العراقي، وأنه كان يتحكم في حاشية الإمام «إلى أبعد مدى يصدقه العقل». ولعل عراقي الذي ذكره نيبور هو سالم العراقي هذا نفسه. انظر: غالب، ابن الأمير، ص ٢٢٧ - ٢٢٩.

(***) تولى الإمام المنصور الإمامة من عام ١١٣٩ هـ/١٧٢٧ م وحتى وفاته عام ١١٦١ هـ/١٧٤٨ م. وخلفه ابنه الإمام المهدي حتى وفاة الأخير عام ١١٨٩ هـ/١٧٧٥ م. انظر: الجرافي، المقتطف، ص ١٩٣ وما بعدها، وكذا العمري، مئة عام، ص ١١، ١٩، وما بعدها.

(****) وصلت البعثة الدينماركية، إلى اليمن في نهاية ديسمبر ١٧٦٢ م وغادرتها في نهاية أغسطس ١٧٦٣ م.

رؤوسهم أكثر من طاقية صغيرة، تتدلى من تحتها خصلتا شعر طويلتان، على الجانبين، تميز اليهود عن غيرهم، وقمصانهم وسراويلهم وأحزمتهم، كلها من القماش الأزرق اللون. ولا يسمح لهم بحمل أي نوع من أنواع الأسلحة، بما في ذلك الجنبية[1]. ويشير نيبور إلى أن عدد اليهود قد تضاءل عبر السنين، وأن عددهم في مملكة الإمام، حسب تقدير اليهود أنفسهم، يبلغ - أي في عام ١٧٦٣ م - خمسة آلاف نسمة. وهم إما تلموديو المذهب أو فريسيون(*). وكانت أهم مناطقهم السكنية هي تلك التي كانت في تنعم، بخولان، ولا زالت توجد هناك أسر يهودية، وبعض المعابد «وهذا يعني أنه إذا كانت هناك مخطوطات قديمة من التلمود في اليمن، فيجب البحث عنها في هذه المنطقة. مع أن اليهود في تعز وصنعاء قد أكدوا لي أنهم لم يسمعوا عن وجود مخطوطات في اليمن، عمرها أكثر من خمس مئة عام. أما الكتب التي رأيتها لديهم فقد كانت جميعها مطبوعة في أمستردام والبندقية»[2].

ومن ضمن القرى اليهودية، التي ذكرها نيبور، قرية بجانب مدينة جبلة وقرية بجانب مدينة ذمار.

جـ. الهنود:

أشار نيبور إلى أن المرء يجد هنوداً في جميع المدن اليمنية الكبيرة، يعملون في التجارة أو كحرفيين أو خدماً لدى أغنيائهم، أي لدى أغنياء اليهود[3]. وهم يمارسون طقوسهم الدينية بحرية، لكنه لا يسمح لهم بحرق موتاهم، كما لا يسمح لهم بجلب نسائهم من الهند[4]، ويمكث بعضهم سنين

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 66 - 67. U. RB. Bd. 1, S. 423.

(2) Niebuhr, C., BVA, S. 184.

(3) Niebuhr, RB. Bd. 1, S. 306.

(4) Niebuhr, BVA, S. 25 - 26. U. BD., S. 319.

(*) من أبرز الفرق الدينية اليهودية. انظر: NUL. Bd. 3, S. 1490. وكذا: الموسوعة، ص ١٢٩٩.

طويلة في اليمن. ولكنهم جميعاً يعملون ليكسبوا مالاً ثم يعودون في النهاية إلى بلادهم مهما طال مكثهم في اليمن. وينظر اليمنيون إليهم دائماً كغرباء[1]. وهم، على خلاف اليهود، يسكنون داخل المدن مع المسلمين[2]. وكانوا يلبسون ملابس بيضاء، كما هو الحال في بلادهم، ثم أمروا أن يلبسوا ملابس حمراء. ولما قاموا بتقديم مبلغ كبير من المال للإمام، ألغى الإمام أمره السابق. إلا أنه سرعان ما صدر إليهم أمر جديد بأن يلبسوا عمامات حمراء اللون «ولم تعد لديهم رغبة في تقديم مبلغ آخر للإمام، ولذا فإنهم يُشاهدون الآن وهم يلبسون ملابس بيضاء وعمامات حمراء»[3]. ولا يسمح لهم - تماماً كاليهود - بحمل أسلحة ولا جنابي.

وأورد نيبور تقديرات لأعداد الهنود في بعض المدن اليمنية، على النحو التالي[4]:

- في اللحية حوالي ٤٠ شخصاً.
- في بيت الفقيه أكثر من ١٢٠ شخصاً.
- في المخا حوالي ٦٠٠ - ٧٠٠ شخص.
- في صنعاء حوالي ١٢٥ شخصاً.

د. البدو:

أكد نيبور أنه لا يوجد بدو في مملكة الإمام[5]. ولكنه أشار إلى وجود بدو في شمال أبوعريش يعيشون مستقلين تحت حكم مشايخهم. وهم مسلحون بالحراب، وملابسهم بسيطة، فليس على جسد الواحد منهم سوى

(١)
(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 443.
(٣) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 407.
(٤) انظر على التوالي: Niebuhr, C., BVA, S. 67.
(٥) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 309, 319, 443, 423.
Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 339.

قطعة قماش، ملفوفة حول خصره، وعلى رأسه رباط بدلاً من العمامة، وبعضهم يلبس طاقيات مصنوعة من سعف النخل الأخضر. وشعورهم مرسلة وهم مسالمون لا يعتدون على أحد ما لم يستخدم معهم القوة[1]. وقد شاهدت البعثة بعض هؤلاء البدو أثناء رحلتها من جدة إلى اللحية. كما أشار نيبور إلى وجود بدو في الجوف، مشهورين بشجاعتهم[2].

هـ. العبيد:

تدل إشارات نيبور على وجود العبيد في اليمن. ونقرأ أول ذكر لهم في سياق وصفه لرحلة البعثة من جدة إلى اللحية. فعلى ظهر السفينة كان الملاحون عبيداً أفريقيين، وعددهم تسعة ملاحين[3]. وفي اللحية كان عاملها (الأمير فرحان) عبداً سابقاً ثم أعتق[4]. كما كان أحد التجار يمتلك العديد من الجواري[5]. وكان الإمام المهدي يمتلك جواري كثيرة. ولكنهن أقل مما كان يمتلكه والده الإمام المنصور «الذي يقال أنه كان يمتلك أكثر من مئتي جارية»[6]. وكانت أم الإمام المهدي عباس نفسه جارية، مما حدا بأحد الأشراف، الذين قابلهم نيبور في زبيد، إلى أن يعبر عن ازدرائه بأصل الإمام الذي «اعتبر أن دمه غير نقي لأن أمه حبشية»[7]. وكان بعض العبيد، الذين يمتلكهم الحكام، يعتقون ويقلدون مناصب إدارية أو عسكرية، كما حدث بالنسبة للأمير فرحان، وكذا بالنسبة لبعض نقباء الجيش، الذين كانوا عبيداً فيما مضى[8].

(١)
(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 292. U. BVA, S. 269.
(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 276.
(٤) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 285.
(٥) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, 295 - 296.
(٦) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 303 - 304.
(٧) Niebuhr, C., BVA, S. 204.
(٨) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 329 - 330.
Niebuhr, C., BVA, S. 207, 211.

٢. معلومات عن الحياة اليومية:

كثرت إشارات نيبور إلى جوانب تمس الحياة اليومية، كالطعام والشراب والنوم والملابس والسفر والسكن والتطبيب والبيع والشراء. كما تضمنت كتاباته بعض الإشارات إلى وسائل التكييف والاستمتاع، كالقات والدخان والكحول والحشيش. وسوف أحاول هنا أن أستعرض ما ذكره من معلومات حول هذه الجوانب، باستثناء البيع والشراء، حيث سبق تناولهما عند حديثنا عن الحياة الاقتصادية.

أ. الطعام والشراب:

لم يلاحظ نيبور تنوعاً في طعام اليمنيين. إذ تشكل الذرة المادة الغذائية الرئيسية، إذا لم تكن الوحيدة، ولا يقدم في المقاهي (المطاعم) غير خبز الذرة مع قهوة القشر، وأحياناً مع حليب النياق[١]. ونادراً ما يحصل المسافرون على خبز مصنوع من القمح[٢]. وأما شراب اليمنيين فلا يتكون من غير الماء وقهوة القشر. ونادراً ما يشربون قهوة البن، لاعتقادهم أنها «تسخن الدم»[٣]. لهذا فإنهم يصنعون قهوتهم من قشور حبوب البن. ومنظر هذه القهوة ونكهتها أشبه ما تكون بنكهة ومنظر ماء الشاي. إنهم يعتبرون هذه القهوة أبرد بالنسبة للجسم، وبالتالي فإنها صحية أكثر من قهوة البن. ويسمونها قهوة أو قشر، ويشربونها في فناجين مصنوعة من الفخار. أما وجهاؤهم فيشربونها في فناجين صينية[٤]. ويشاهد المرء في الطريق من يريم إلى ذمار أناس يبيعون قهوة القشر للمسافرين، ويجلسون بين جدران أربعة دون سقف[٥]. واليمنيون عموماً معتدلون في طعامهم وشرابهم[٦].

---

(١) Niebuhr, RB, Bd. 1, 341.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 314.

(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 55.

(٤) Niebuhr, RB, Bd. 1, S. 313. U. BVA, S. 55 - 56.

(٥) Niebuhr, RB, Bd. 1, S. 406.

(٦) Niebuhr, C., BVA, S. 51.

ب. الملابس(*):

يلبس وجهاء اليمنيين، شأنهم في ذلك شأن الأتراك والهنود، ملابس طويلة، لكنها تختلف في جزء منها عن ملابس هؤلاء. ففي اليمن تكون ملابس النصف الأسفل واسعة، وفوقها قميص أبيض في تهامة وأبيض أو أزرق في الجبال. مع أكمام طويلة وواسعة أو قصيرة وضيقة. ويلبسون صديرية وجاكيت وشباشب تركية أو حذاء جلدي أصفر اللون. كما يتمنطقون بجنبية ذات حزام جلدي مطرز. وملابسهم العليا تصل إلى تحت الركبة بقليل. ويضعون على أكتافهم قطعة قماش طويلة وأنيقة، ويغطون رؤوسهم بغطاء غال الثمن وغير مريح. إذ يضعون فوق رؤوسهم عدداً من الطاقيات مطرز بعضها بآيات قرآنية. وفوق ذلك كله يلفون هذه الطاقيات بقماش طويل. «وإنه لمن المتعب إبقاء هذا الحمل الثقيل فوق رؤوسهم بصورة دائمة. ولذا فإنهم يخلعون هذا الغطاء عندما يكونون في بيوتهم أو لدى أصدقائهم، ولا يبقون منه إلا طاقية واحدة أو طاقيتين، تغطيان رؤوسهم»[١]. أما عامة الناس فلا يغطون رؤوسهم إلا بطاقيتين ملفوفة عليهما قطعة قماش طويلة، ولدى بعضهم سراويل وقمصان، وبعضهم يلبس قطعة قماش واحدة فقط، يلفها حول خصره، لتغطي الخصر إلى ما تحت الركبة، وما عدا ذلك يبقى عارياً. ويسيرون - أي عامة الناس - حفاة الأقدام. وفي المناطق الجبلية يرتدي عامة الناس جاكيتاً من جلد الماعز[٢]. وفي مملكة الإمام يحلق الرجال شعر الرأس(**)، وأما في المناطق الأخرى من اليمن فيرسلون شعورهم. وحتى المشائخ في هذه المناطق يتركون شعورهم مرسلة، شأنهم في ذلك شأن عامة الناس. ولا يرتدون طاقيات ولا عمامة، بل

---

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 62 - 63, 64.

(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 64.

(*) انظر بعض نماذج من الملابس في الملحق.

(**) لم يتمكن نيبور من التوغل في جميع مناطق مملكة الإمام ونحن نستبعد أن جميع الرجال في مملكة الإمام كانوا يحلقون رؤوسهم.

يكتفون بوضع خرقة فوق شعورهم الطويلة. أما البدو في حدود أبو عريش فيضعون فوق رؤوسهم طاقيات مصنوعة من سعف النخل الأخضر، كما تقدم. ويكاد جميع اليمنيين يحملون حروزاً مربوطة إلى سواعدهم، وخواتم فضية في أصابعهم[1]. وتتكون ملابس النساء، بشكل عام، من قميص طويل وسروال. ولكن النساء في تهامة يلففن أجسادهن بقطعة من القماش، من الخصر إلى تحت الركبة، ولا يستخدمن السراويل. أما النصف الأعلى من الجسم فيغطينه بصدرية. وفي بعض المناطق كاللحية، تضع النساء قطعة قماش على رؤوسهن، ويعمدن إلى تغطية وجوههن بها، ما عدا العينين، إذا سرن في الطرقات. ولكنهن أحياناً لا يتشددن في تغطية وجوههن، خاصة عندما يعتقدن أن وجوههن جميلة، أو عندما تريد إحداهن أن تري وجهها لشخص ما، بصورة تبدو غير متعمدة[2]. وفي تعز والمخا وصنعاء تغطي النساء وجوههن، بما في ذلك العينين، بقطعة من القماش. وفي مناطق الجبال تبدو النساء أكثر انطلاقاً من نساء المدن، فلا يسترن وجوههن. ويتحدثن مع الرجال بحرية وثقة. ويلبسن قمصاناً طويلة، وسراويل من القماش، المخطط باللونين الأزرق والأبيض. والقمصان مطرزة عند الرقبة وتحت الركبة بألوان مختلفة، أما السراويل فمطرزة في الأسفل حول الساق[3]. وتحمل النساء كمية كبيرة من الأسورة والخواتم، وبعض الأسورة مصنوعة من الزجاج. كما يلوّنّ أكفهن وأقدامهن بالحناء ويزينّ عيونهن بالكحل، ووجوههن بالخضاب[4]. وتكثر النساء من استعمال النيلة الزرقاء. فملابسهن غالباً مصبوغة بها[5].

وأما ملابس الأقليات، وهم اليهود والهنود، فقد سبق الحديث عنها.

---

(1) Niebuhr, C., BVA. S. 64 - 65.

(2) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 304.

(3) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 335 - 336.

(4) Niebuhr, C., BVA, S 65 - 66.

(5) Niebuhr, C., BVA, RB, Bd. 1, S. 315.

جـ. السكن:

سجل نيبور ما لاحظه من اختلاف في المساكن، بين منطقتي تهامة والجبال. ففي الجبال تبنى البيوت بالحجارة. أما في تهامة فمعظم بيوتها عبارة عن أكواخ، وبناؤها لا يكلف كثيراً، فهي تبنى من أغصان الشجر والأعشاب، وتكسى جدرانها بالطين المخلوط ببراز الأبقار، وتدهن من الداخل بالكلس، وسقوفها مبنية بأعشاب متوفرة بكثرة في تهامة. ونادراً ما تكون هناك نوافذ. أما الأبواب فهي مجرد قطع من الحصير. وفي هذه البيوت وحولها توضع سرر أشبه بكراسي طويلة، منسوج سطحها بخيوط من القماش، يجلس المرء عليها وينام بارتياح. ومثل هذه السرر - الكراسي لا توجد في مناطق الجبال. ونادراً ما تكون الأكواخ مقسمة في الداخل إلى أجنحة أو حجرات. فإذا كان حجم الأسرة كبيراً. أو كانت هناك حيوانات، فإنه يتم بناء أكثر من كوخ للأسرة الواحدة، ثم تحاط جميعها بسياج واحد، مبني من أغصان الشجر[1].

د. النوم:

لفت نظر نيبور في مناطق الجبال استخدام المواطنين لكيس كبير من القماش، ينامون فيه عراة تماماً، ويحكمون إغلاقه عليهم، ليحموا أنفسهم من الحشرات[2]. ولم يشاهد مثل هذا الكيس في تهامة. ويقول: «لم أحاول أبداً أن أستعمل مثل هذا الكيس. ولكني تعودت سريعاً على تغطية وجهي أثناء النوم، وخاصة في العراء»[3]. وعادة تغطية الوجه أثناء النوم، عادة لا يعرفها الأوروبيون، لكن نيبور وجدها عادة عملية، إذ تجنب المرء أذى الرياح، وما يمكن أن يحمله الهواء من أتربة ومواد دقيقة[4].

---

(1) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 307 - 308. U. BVA. 62.

(2) Niebuhr, C., BVA. S. 64.

(3) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 341.

(4) Niebuhr, C., RB. Bd. 1, S. 341.

هـ. التطبيب:

لم يتحدث نيبور عن النظام العلاجي أو عن الأمراض السارية. ولكن يمكننا أن نستخلص من إشاراته المتناثرة المعلومات التالية:

تنتشر الملاريا في تهامة، وهو المرض الذي قضى على أفراد البعثة جميعهم، الواحد تلو الآخر، ما عدا نيبور. وقد أظهر المواطنون اهتماماً بطبيب البعثة طوال وجود البعثة في اليمن، فقصدوه في اللحية والمخا وذمار للعلاج، حتى أن أحد المرضى في ذمار رافق البعثة إلى صنعاء، ليبقى قريباً من الطبيب[1].

وفي سوق مدينة يريم شاهد نيبور «بعض الحجامين يخدشون جلود بعض المواطنين بسكاكين رديئة، ويضعون على الجروح محاجم، من قرون الحيوانات، يمصون بواسطتها الدم»[2]. وأثناء مقابلة البعثة للإمام المهدي في صنعاء، أحضر إلى طبيب البعثة صندوق مملوء بالأدوية الغربية، كان أحد البريطانيين قد أهداها للإمام. وقد طلب الإمام من الطبيب تحديد أسماء تلك الأدوية وشرح دواعي استعمالها. وتم باللغة العربية تسجيل الكثير مما شرحه[3].

و. وسائل التكييف والاستمتاع:

تتكون وسائل التكييف والاستمتاع، بصورة رئيسية، من القات والكحول، وقد سبق الحديث عن القات، في سياق حديثنا عن الحياة الاقتصادية. وكان نيبور قد أتى على ذكره لأول مرة عند وصوله تعز. مما يعني أنه لم يصادفه خلال رحلته في تهامة. ثم شاهده بعد ذلك في المناطق الجبلية، وهو في طريقه إلى صنعاء. وأما الكحول فقد ذكر نيبور أن المسلمين لا يشربونه، نظراً

(١)
(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 300, 367, 407.
(٣) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 403.
Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 426.

لتحريم شربه دينياً. إلا أنه يوجد من بينهم أناس «مولعون به أشد الولع»[1]. لكنهم يتكتمون في شربه. ولا يشربونه إلا مساء في بيوتهم[2].

وقد وجدت البعثة الكحول متوفراً في اللحية، ولكن نوعيته رديئة[3]، بل لقد وجد طبيب البعثة لدى أحد أغنياء اللحية معدات كاملة لتحضير الكونياك[4]. وفي المخا يتم استيراد العرق الهندي، بواسطة التجار الإنجليز[5]. أما أفضل أنواع النبيذ فيمكن الحصول عليه في صنعاء، حيث يصنعه اليهود من الأعناب بكميات كبيرة، ويبيعونه للمسلمين بحذر شديد، لأن من ضبط منهم وهو يحمل نبيذاً إلى بيت أحد المسلمين، فإنه يعاقب عقاباً صارماً[6].

ولم يشر نيبور إلى الحشيش سوى مرة واحدة، وذلك في اللحية، حيث دخن أحد القائمين على خدمة البعثة مادة الحشيش، ثم خيل إليه أنه يستطيع أن يتحدى أربعة جنود، صادفهم في الطريق، وأن يغلبهم جميعاً. ولما أصر على معاركتهم قام أحدهم بضربه وإرجاعه إلى البيت[7]. ورغم أن نيبور لم يشر إلى الحشيش سوى مرة واحدة، خلال تجواله في اليمن، فإن إشارته تدل على أن هناك أناس كانوا يستعملونه. فقد قال: «لأن عامة الناس لا تستطيع أن تحصل على المشروبات الكحولية، فإن البعض يلجأ إلى تدخين الحشيش كوسيلة من وسائل المتعة»[8].

(١)
(٢) Niebuhr, C., BVA. S. 56.
(٣) Niebuhr, C., BVA. S. 56.
(٤) Niebuhr, C., RB. Bd. 1. S. 299.
(٥) Niebujr, C., BVA. S. 56.
(٦) Niebuhr, C., RB. Bd. 1. S. 261.
(٧) Niebuhr, C., S. 420-421, 298.
(٨) Niebuhr, C., BVA. S. 57.
Niebuhr, C., BVA. S. 57.

وإلى جانب القات والكحول يدخن اليمنيون التبغ بواسطة المشرعة والمداعة(*)[1].

ز. السفر:

يسافر اليمنيون سيراً على الأقدام، أو على ظهور الحمير أو الجمال. وفي تهامة لا يسافر الناس إلا ليلاً، وذلك بسبب الحر الشديد[2]. وتنتشر المقاهي(**) في طرق السفر الرئيسية. كما توجد في تهامة كثير من المضافات، التي تسمى في اليمن (منزلة)، وهي أماكن يستطيع المسافر أن يأكل ويشرب ويبيت فيها مجاناً[3]. ويحصل المسافر عادة في هذه المنازل، كما في المقاهي، على خبز الذرة وقهوة القشر[4]. وإضافة إلى المقاهي والمنازل، فإن المسافر إذا مر بأناس أثناء الطعام، فإنهم عادة يلحون عليه أن يشاركهم طعامهم[5]. وفي المناطق الجبلية، وخاصة في منطقة جبلة والعدين، يجد المسافر في طريقه ما تسمى بالسقايات[6]، التي تملأ بالماء، ليشرب منها المسافرون(***). كما يجد أيضاً مباني صغير خالية، يلجأ إليها عند هطول الأمطار[7]. وقد لاحظ نيبور أن بعض الطرق الرئيسية، خاصة في جبلة والعدين، مرصوفة بالحجارة، ولكنها -كما أشار- قد أُهملت، ولم تُعمل لها صيانة منذ سنوات طويلة[8].

---

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 58-59. U. RB, Bd. 1, S. 322.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 355-356.

(٣) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 314. U. BVA, S. 46-47.

(٤) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 314.

(٥) Niebuhr, C., BVA, S. 46-47.

(٦) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 344, 355

(٧) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 344, 396.

(٨) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 344.

(*) المشرعة هي الاسم اليمني للغليون. أما المداعة فهي ما يعرف بالشيشة أو النارجيلة في بعض البلاد العربية.

(**) يطلق اليمنيون اسم مقهاية وجمعها مقاهي على المكان العام لشرب الشاي والقهوة كما على الأماكن المخصصة لمبيت وإطعام المسافرين.

(***) انظر ص ١٦٠ من هذا البحث.

وإذا كان المسافر العادي يقنع بما يجده في المقاهي والمنازل، من خبز الذرة وقهوة القشر وماء السقايات، فإن الأغنياء والأعيان يسافرون مصطحبين معهم الخدم وكل وسائل الراحة. وقد عاش نيبور حياة المسافر اليمني العادي وتعامل مع كل ما يصادفه هذا المسافر في طريقه، وتخلى عن عاداته الأوروبية، خلال تجواله في اليمن[1].

٢. بعض العادات والتقاليد:

أشار نيبور إلى أن اليمنيين يميلون إلى الحياة الاجتماعية فيتجمعون في المقاهي والأسواق[2]. ولا يميلون إلى الخصام. لكنهم إذا ما بدؤوا يتخاصمون، فإنهم يصرخون بأصوات عالية، وربما يتطور الأمر إلى أن يمتشق أحدهم جنبيته. إلا أنه سرعان ما يتدخل الحاضرون ويصلحون بينهم في الحال، أو يتفق المتخاصمون على تنصيب حكم بينهم. وليس لدى اليمنيين ألفاظ سباب كثيرة، كما لدى الأوروبيين، ولكنهم حساسون تجاه كلمات السباب، ولا يتراجعون عن الانتقام لكرامتهم[3].

وقد تحدث نيبور عن بعض الصفات الأخلاقية كالخداع والنفاق، واعتبرها صفات غير شائعة، وعادات لا يمارسها اليمنيون[4].

ويحيي اليمنيون من يقابلهم بالتحية المعتادة، وهي (السلام عليكم)، ويرد الآخر التحية بقوله: (وعليكم السلام). ويلقون هذه التحية حتى على المسيحيين، خلافاً لما في مصر. فالمصريون يكتفون تجاه المسيحيين بالقول: (صباح الخير) أو (صاحب سلامات)[5].

---

(١) انظر ص ٥٦-٦٩ من هذا البحث.

(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 27-28.

(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 28-32.

(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 28-29.

(٥) Niebuhr, C., BVA, S. 28-29.

ويذكر نيبور أنه في المناطق الجبلية، وخاصة لدى العسكر والمسافرين، يحيي الناس بعضهم بالقول: (يوم النور)، ويرد الآخر: (يوم النور)(*). ويعلق على هذه التحية بقوله: «لم أفهم معنى هذه التحية، ولكنه قيل لي بأن الإنسان العاقل لا يقول: يوم القبور، ولكنها عبارة تقال بصورة تلقائية رداً على من يقول: يوم النور»(١).

وقد عاش نيبور أيام عيد الأضحى في مدينة تعز وسجل وصفاً للاستعدادات ولمظاهر الاحتفال بالعيد. فقبل العيد بأيام يستقبل العامل والأعيان الهدايا من المواطنين، وهي عبارة عن عدد كبير من الخراف. أما من لا أمل له في الحصول على خراف مجاناً، فإنه يقوم بشراء العدد الذي يحتاجه منها، لأسرته وللتوزيع على الفقراء. ولأن العيد يدوم يومين إلى ثلاثة أيام ولا يأتي الفلاحون أثناءه بمنتوجاتهم إلى أسواق المدينة، فإن كل شخص في المدينة يقوم قبل العيد بتجهيز نفسه بكل ما يحتاجه من مواد غذائية. وفي ليلة العيد أطلقت مدافع باب الشيخ موسى ثلاث طلقات، وأطلقت مدافع حصن القاهرة طلقتين، إعلاناً بقدوم العيد. وفي صباح العيد أطلقت المدافع عدة طلقات، واتجه العامل والمواطنون إلى خارج المدينة، لتأدية صلاة العيد في العراء. وبعد حوالي ساعة واحدة أطلقت المدافع مرة أخرى. وعاد موكب العامل إلى المدينة. وبدأ الجنود والأعيان يقومون بعملية استعراض بخيولهم، شبيهة بعملية الاستعراض، التي تتم عادة بعد صلاة الجمعة. حيث تركض الخيول تباعاً في حين يمسك كل راكب رمحه عالياً، كما لو كان يسدده نحو هدف في الأمام. وبعد الاستعراض ينصرف الجميع إلى بيوتهم، يأكلون ويمضغون القات ويدخنون، متمتعين ببهجة العيد ومسراته(٢).

---

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 49.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 386-387.

(*) هذه تحية عربية لا يتبادلها اليمنيون. إلا إذا كانت تقال على سبيل المزاح.

وفي صنعاء شاهد نيبور موكب الإمام المهدي عباس، وهو عائد من صلاة الجمعة(*)، وهو موكب أصبح يعتبر جزءاً من حياة الناس العامة في صنعاء، وقدم وصفاً له(١). فبعد انتهاء صلاة الجمعة، اتجه الإمام إلى باب اليمن، ثم سلك طريقاً خارج المدينة إلى باب شرارة. وكان يسير أمامه بضع مئات من الجنود، وفوق رأسه ورؤوس أمراء الأسرة الإمامية رفعت المظلات «وهو امتياز لا يتمتع به إلا الأمراء»(٢) أو حكام المناطق المستقلة، كمشايخ يافع ومشايخ حاشد وبكيل وشريف أبو عريش وغيرهم، تعبيراً عن استقلالهم. وعدا عن الأمراء كان هناك حوالي ست مئة رجل «من الأعيان الدينيين والدنيويين والعسكريين»(٣)، بعضهم يمتطي أحصنة مطهمة، وبعضهم يسير على الأقدام. وإلى جانب الإمام كان يرفرف علم مرفوع. لقد كان موكباً ضخماً. ولكن نيبور لاحظ أنه موكب غير منظم «فالجميع يتحرك هنا وهناك دون أدنى نظام»(٤). وفي باب شرارة أخذ الجنود يطلقون عيارات نارية، بطريقة سيئة، قال عنها نيبور إنه لم يشاهد «في أي مكان غير اليمن أسوأ منها»(٥). ولم يستطع نيبور أن يستمر في مشاهدة الموكب، لأنه شعر بالتعب ولم يستطع أن يبقى فترة أطول معرضاً لأشعة الشمس، فعاد إلى بير العزب، حيث مسكن البعثة. إلا أنه أضاف: «إن من المفترض أن يقوم الجنود بعد ذلك ببعض التدريبات أمام قصر الإمام، كما يقوم الأعيان باستعراض مهاراتهم كخيّالة»(٦). وكانت أبواب صنعاء - كما لاحظ نيبور - جميعها مغلقة أثناء الصلاة(٧).

---

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 423-425.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 424.

(٣) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 424.

(٤) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 424.

(٥) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 424.

(٦) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 425.

(٧) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 425.

(*) لم يتمكن نيبور من مشاهدة الموكب عندما كان متجهاً إلى الصلاة، ولم يستطع أن يستمر في مشاهدته حتى نهايته وهو عائد من الصلاة.

وفي بريم شاهد موكب عريس ذاهب إلى الحمام. كان في مقدمة الموكب عدد من الأطفال، يرقصون على إيقاع الطبل، ووراءهم عدد آخر من الشباب والكبار، بعضهم يرفعون بنادقهم عالياً، ويطلقون عيارات نارية، بصورة متواصلة، والعريس يسير في مؤخرة الموكب، يحيط به بعض أصدقائه. وعاد الموكب من الحمام وقد حل الظلام. وكانت هناك بعض المشاعل مرفوعة على الأيدي لإضاءة الطريق[1].

وتحدث نيبور عن ظاهرة الثأر. ويتضح من ملاحظاته أنها لم تكن ظاهرة عامة في المجتمع اليمني. فقد كان القاتل يخضع للقصاص، بحكم من المحكمة العليا في صنعاء. في حين كان البعض يفضل اللجوء إلى الثأر. وكان الثأر يقود إلى ثأر آخر، من قبل الجهة الأخرى. وهكذا، حتى أن بعض حالات القتل والقتل المضاد قد دامت، حسب ما تلقاه نيبور من معلومات، خمسين عاماً. ويعلق نيبور على ذلك بالقول: «ومع كل ذلك فلا أعتقد أن كل اليمنيين يلجؤون إلى الأخذ بالثأر. وإنما هناك، كما يبدو، أسر محدودة تتمسك بهذه العادة، وإلا لما سادت هذه الحالة من الأمن في تهامة، وهي حالة يلمسها المسافرون ويعيشونها عملياً»[2].

ومن العادات الغريبة، التي لفتت انتباه نيبور، أن الأجانب يترجلون عند مداخل المدن، ويسيرون على الأقدام إلى البيوت التي سيقيمون فيها. وقد تكررت هذه العملية، بالنسبة لأعضاء البعثة، في اللحية وفي صنعاء. ولاحظ نيبور، في صنعاء، أن مستقبلي البعثة ومرافقيها، من اليمنيين، ظلوا راكبين، في حين كان على أعضاء البعثة أن يسيروا راجلين[3].

٤ ـ من حكايات المقاهي: بار بروشام والأميرة نُجيمة:

تحدث نيبور عن حاشد وبكيل كقبيلة واحدة، تتكون من عشائر عديدة،

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 402-403.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 357, 358. U. BVA, S. 29-35.

(٣) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 359-360, 411.

ولكل عشيرة مشائخها، وقد اتحدت حاشد وبكيل عسكرياً تحت اسم (اتحاد حاشد وبكيل)(*). ومن الحكايات الطريفة التي سمعها، أثناء تجواله في اليمن، حكاية تروي أصل حاشد وبكيل، فحاشد وبكيل هما ابنا باربروشام، الفارس الذي كان يعمل في بلاط الملك والد الأميرة نجيمة. وقد أحب باربروشام الأميرة نجيمة، وعاشا قصة حب مضنية، توجت بفرارهما من قبضة الملك، من الأناضول إلى دمشق، ومنها انضما إلى قافلة، متجهة إلى مكة، ومن مكة إلى اليمن، حيث استقرا وأنجبا. وتنتمي كل عشائر حاشد وبكيل إلى هذين المحبين الأسيويين الخياليين. وقد علق نيبور على هذه الحكاية بأنها «لا تعدو أن تكون مجرد حدوثة ألفها أحدهم، ليحصل من وراء روايتها، على مبلغ زهيد من المال، من رواد المقاهي»[1]. ويحمل هذا التعليق إشارة ضمنية إلى أنها كانت تحكى حكايات في المقاهي. ولكنه لم يدون لا في يومياته ولا في إجاباته على أسئلة العلماء، التي وجهت إلى البعثة، ما يدل على أنه قد شاهد مثل هذه الظاهرة، أو استمع إلى حكايات مماثلة. كما أنه لم يشر إلى مصدر هذه الحكاية، ولا إلى المكان الذي سمعها فيه.

٥ ـ الفرق الدينية:

حاول نيبور أن يقدم صورة عن الفرق الدينية الإسلامية، معتمداً في ذلك على ما تلقاه من معلومات من أتباع هذه الفرق. وقد جاء تصنيفه لها متأثراً إلى حد كبير بأنظمة الحكم القائمة في بعض البلدان الإسلامية. فالفرق التي أتى على ذكرها هي: السنة ـ الشيعة ـ الزيدية(**) ـ الأباضية ـ المصاليخ، ثم فرقتان جديدتان، أسس أحدهما الشيخ المكرمي، والآخر الشيخ محمد بن عبد الوهاب. كما أشار إلى وجود بعض الفرق في إيران، تنتمي إلى الخوارج،

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 260-261.

(*) انظر: ص ١١٢، ١٢١ ـ ١٢٣ من هذا البحث.

(**) لم يتنبه نيبور إلى أن الزيدية هي إحدى فرق الشيعة.

وإلى أن السنة تحكم في تركيا، والشيعة في إيران، والزيدية في اليمن، والإباضية في عمان، وأما المصاليخ فهي فرقة تتكون من البدو الذين يسكنون في الحدود بين اليمن والحجاز[١].

ويتضح من تصنيف نيبور للفرق الإسلامية، ومن استعراضه لتعاليمها، عدم إلمامه بها. ولذا فإن ما كتبه بهذا الصدد لا يستحق أن نقف عنده.

وقد أُعجب نيبور بالتسامح الديني السائد في اليمن. وأكد أن أتباع المذهبين الدينيين الرئيسيين، السنة والزيدية، يعيشون مع بعضهم بوئام وانسجام، وأنهم من ناحية أخرى لا يكرهون أتباع الأديان الأخرى[٢]، وإذا دخل في الإسلام مسيحي أو غيره ممن يأتون على السفن إلى الموانىء اليمنية، فإنه يتم صرف مبلغ شهري له، قدره ريال وربع الريال، ليتدبر به أمر معيشته، ريثما يستطيع أن يجد له عملاً يعيش منه. ويبرز تسامح اليمنيين المسلمين في عدم منعهم من أسلم، من الاستمرار في التعامل والاحتكاك بأتباع دينه السابق. كما أنهم لا يحولون بينه وبين مغادرة اليمن، متى أراد ذلك. ولو كان في صحبة أتباع دينه السابق[٣]. وإذا تزوج مسلم من مسيحية أو يهودية، فإنه يحترم عقيدتها، ولا يحاول أن يجبرها على التنكر لدينها[٤]. ويمارس اليهود حياتهم وطقوسهم الدينية ويشيدون معابدهم بكل حرية. كما يمارس الهنود أيضاً طقوسهم الدينية، ولكن لا يسمح لهم بحرق موتاهم[٥].

ولم يسمع نيبور عن وجود مسيحيين في اليمن، ولكنه يفترض أنه ربما يوجد بعض الأحباش المسيحيين في المدن الساحلية أو الجزر التابعة لليمن[٦].

---

(١)

(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 18-27.

(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 23.

(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 24.

(٥) Niebuhr, C., BVA, S. 25.

(٦) Niebuhr, C., BVA, S. 26. U. RB, Bd. 1, S. 319.

Niebuhr, C., BVA, S. 184.

٦. الأولياء:

تقديس الأولياء جزء من حياة المجتمع الدينية. وقد أشار نيبور إلى أن تقديس الأولياء ظاهرة ملموسة في اليمن، وخاصة في منطقة تهامة، كما ذكر أن السنيين في تهامة يؤكدون أن الزيديين لا يقدسون الأولياء. وتتضح مكانة الأولياء، لدى أهالي تهامة، من خلال الربط بين نشوء المدن التهامية وبين الأولياء. وكذا من خلال ترويج الأساطير التي تحكي قدرات الأولياء ومعجزاتهم الخارقة.

ويبدو لي أن نيبور، في كل مرة كان يشير فيها إلى الأولياء، قد أقحم بصورة لا شعورية رؤيته الأوروبية الخاصة. فأدى ذلك إلى عملية مزج بين إطاريين ثقافيين مختلفين، بحيث عكس حديثه عن الأولياء صورة قد لا تكون هي الصورة السائدة فعلاً في المجتمع اليمني. بل لقد استخدم عند حديثه عن دور الأولياء في إنشاء المدن مصطلح (شوتس هايلجر Schutzheiliger)، وترجمته الحرفية (القديس الحامي). وهو مصطلح منبثق من إطار اجتماعي وثقافي أوروبي. ففي أوروبا هناك قديسون وقديسات حماة، فهذا القديس، مثلاً، حامي مدينة كذا، وإليه يتوجه المواطنون في هذه المدينة لطلب العون والبركة والحماية، وروحه تحوم دائماً في سماء المدينة، تعين المحتاج وتواسي الضعيف وتمسح دموع المصابين وتسهر على حماية المدينة في وجه المتربصين بها. هذه الصورة الأوروبية للقديس دمجت لدى نيبور بصورة الولي في اليمن. فإذا الولي اليمني قد أصبح حامي مدينة بعينها أو ولياً لحرفة أو صنعة معينة[١].

لقد وجدت أن التنبيه إلى عملية الدمج هذه بين صورتين مختلفتين للولي، أمر ضروري لفهم الصورة التي قدمها نيبور في كتاباته للأولياء في

---

(١) انظر مثلاً:

Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 440-441.

اليمن، وذلك قبل أن استطرد في عرض هذه الصورة. وسوف أحاول في ما يلي أن أتتبع مظهري التقديس في اليمن، كما رسمهما نيبور وهما: ربط نشوء بعض المدن بالأولياء، وترويج الأساطير حول قدراتهم ومعجزاتهم، متدرجاً في عرضي بحسب خط الرحلة، الذي سلكته البعثة، من مدينة اللحية وحتى مدينة تعز:

مدينة اللحية[1]:

أنشئت مدينة اللحية منذ حوالي ٣٠٠ عام بالنسبة للزمن الذي زار فيه نيبور اليمن. وقد أنشأها ولي يعتبره المواطنون حامي هذه المدينة. فقد بنى هذا الولي كوخاً على الشاطىء، وأقام فيه. ولما توفي أقيمت على قبره قبة. ولما كان المسلمون السنيون يتبركون بالأولياء، فقد أخذ الناس شيئاً فشيئاً يبنون مساكن لهم حول قبره. وهكذا أنشئت مدينة اللحية. وكان مقر العامل، قبل نشوء مدينة اللحية، في مدينة مرابية Maràbea . التي تبعد عن اللحية بمقدار ميل واحد(*)، نحو الشمال، ولكن ميناء هذه المدينة ساءت حالته مع الزمن، في الوقت نفسه الذي كانت تتسع فيه اللحية. ولذا أصبحت اللحية مقراً للعامل.

وقد قبر أحد أبناء حامي اللحية في Bahâs والآخر في مور ويعتبر كل واحد منهما حامياً للمنطقة التي قبر فيها.

مدينة بيت الفقيه[2]:

ليست مدينة بيت الفقيه من المدن القديمة، فإنشاؤها يرجع إلى بضع مئات من السنين فقط. وقد أنشئت حول قبر أحد الأولياء وسميت باسمه بيت الفقيه. والفقيه المقصود بهذه التسمية هو الفقيه أحمد بن موسى. ويوجد قبره

(١) Niebuhr, RB, Bd. 1, 304 - 305.

(٢) Niebuhr, RB, Bd. 1, S. 319 - 320.

(*) الميل الألماني القديم يساوي ٧٥٣٢ متراً.

في مسجد يقع خارج المدينة. وتقام حول هذا القبر زيارة في شهر ربيع الأول من كل عام. ويرتبط ازدهار مدينة بيت الفقيه بتضاؤل أهمية مدينة غليفقة ومدينة زبيد. ومع تزايد أهمية بيت الفقيه بنى حاكمها قلعة في مكان مختار قريب من الماء، وأخذ الأهالي يبنون بيوتهم حول القلعة «فقد أصبحوا يرجون الحماية، كما يبدو، من العامل وقلعته أكثر مما يرجونها من وليهم»[1]. وهكذا تزاحموا حول القلعة، حتى أصبح لا يُرى بجانب مسجد الولي الفقيه أحمد بن موسى سوى بضعة أكواخ.

ومن معجزات الفقيه أحمد، يروي الناس الحكاية التالية:

سُجن أحد الباشوات الأتراك في أسبانيا مدة عشرين عاماً، وقُيد بقيود ثقيلة، ورُبط إلى صخرتين ضخمتين. وقد استمر يهتف مستغيثاً بالعديد من الأولياء، دون جدوى، حتى تذكر الولي أحمد بن موسى. فما أن هتف باسمه حتى مد الولي أحمد يده من القبر، وفي لمح البصر جاء الباشا بقيوده مع الصخرتين أيضاً. وقد حدثت هذه المعجزة في ليلة أصبحت موعداً لإقامة زيارة سنوية حول قبر هذا الولي.

مدينة المخا[2]:

مدينة المخا، كمدينة بيت الفقيه، ليست من المدن القديمة، إذ لا يزيد عمرها عن ٤٠٠ سنة بالنسبة للزمن الذي زار فيه نيبور اليمن.

وينسب إنشاؤها إلى ولي مشهور هو علي بن عمر الشاذلي[3]. وقد عرف هذا الولي أثناء حياته بالزهد والورع، فأخذ الناس يقصدونه من أماكن بعيدة، ليستمعوا إلى تعاليمه ومواعظه. ولا يرجع إلى علي بن عمر الفضل في إنشاء

(١) Niebuhr, RB, Bd. 1, S. 319.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 439 - 440.

(٣) Niebuhr, BVA, 222.

اليمن، وذلك قبل أن استطرد في عرض هذه الصورة. وسوف أحاول في ما يلي أن أتبع مظهري التقديس في اليمن، كما رسمهما نيبور وهما: ربط نشوء بعض المدن بالأولياء، وترويج الأساطير حول قدراتهم ومعجزاتهم، متدرجاً في عرضي بحسب خط الرحلة، الذي سلكته البعثة، من مدينة اللحية وحتى مدينة تعز:

مدينة اللحية[1]:

أنشئت مدينة اللحية منذ حوالي ٣٠٠ عام بالنسبة للزمن الذي زار فيه نيبور اليمن. وقد أنشأها ولي يعتبره المواطنون حامي هذه المدينة. فقد بنى هذا الولي كوخاً على الشاطىء، وأقام فيه. ولما توفي أقيمت على قبره قبة. ولما كان المسلمون السنيون يتبركون بالأولياء، فقد أخذ الناس شيئاً فشيئاً يبنون مساكن لهم حول قبره. وهكذا أنشئت مدينة اللحية. وكان مقر العامل، قبل نشوء مدينة اللحية، في مدينة مرابية Marâbea . التي تبعد عن اللحية بمقدار ميل واحد(*)، نحو الشمال، ولكن ميناء هذه المدينة ساءت حالته مع الزمن، في الوقت نفسه الذي كانت تتسع فيه اللحية. ولذا أصبحت اللحية مقراً للعامل.

وقد قبر أحد أبناء حامي اللحية في Bahâs والآخر في مور ويعتبر كل واحد منهما حامياً للمنطقة التي قبر فيها.

مدينة بيت الفقيه[2]:

ليست مدينة بيت الفقيه من المدن القديمة، فإنشاؤها يرجع إلى بضع مئات من السنين فقط. وقد أنشئت حول قبر أحد الأولياء وسميت باسمه بيت الفقيه. والفقيه المقصود بهذه التسمية هو الفقيه أحمد بن موسى. ويوجد قبره

(1) Niebuhr, RB, Bd. 1, 304 - 305.

(2) Niebuhr, RB, Bd. 1, S. 319 - 320.

(*) الميل الألماني القديم يساوي ٧٥٣٢ متراً.

في مسجد يقع خارج المدينة. وتقام حول هذا القبر زيارة في شهر ربيع الأول من كل عام. ويرتبط ازدهار مدينة بيت الفقيه بتضاؤل أهمية مدينة غليفقة ومدينة زبيد. ومع تزايد أهمية بيت الفقيه بنى حاكمها قلعة في مكان مختار قريب من الماء، وأخذ الأهالي يبنون بيوتهم حول القلعة «فقد أصبحوا يرجون الحماية، كما يبدو، من العامل وقلعته أكثر مما يرجونها من وليهم»[1]. وهكذا تزاحموا حول القلعة، حتى أصبح لا يُرى بجانب مسجد الولي الفقيه أحمد بن موسى سوى بضعة أكواخ.

ومن معجزات الفقيه أحمد، يروي الناس الحكاية التالية:

سُجن أحد الباشوات الأتراك في أسبانيا مدة عشرين عاماً، وقُيد بقيود ثقيلة، ورُبط إلى صخرتين ضخمتين. وقد استمر يهتف مستغيثاً بالعديد من الأولياء، دون جدوى، حتى تذكر الولي أحمد بن موسى. فما أن هتف باسمه حتى مد الولي أحمد يده من القبر، وفي لمح البصر جاء الباشا بقيوده مع الصخرتين أيضاً. وقد حدثت هذه المعجزة في ليلة أصبحت موعداً لإقامة زيارة سنوية حول قبر هذا الولي.

مدينة المخا[2]:

مدينة المخا، كمدينة بيت الفقيه، ليست من المدن القديمة، إذ لا يزيد عمرها عن ٤٠٠ سنة بالنسبة للزمن الذي زار فيه نيبور اليمن.

وينسب إنشاؤها إلى ولي مشهور هو علي بن عمر الشاذلي[3]. وقد عرف هذا الولي أثناء حياته بالزهد والورع، فأخذ الناس يقصدونه من أماكن بعيدة، ليستمعوا إلى تعاليمه ومواعظه. ولا يرجع إلى علي بن عمر الفضل في إنشاء

(1) Niebuhr, RB, Bd. 1, S. 319.

(2) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 439 - 440.

(3) Niebuhr, BVA, 222.

المدينة فحسب، بل يرجع إليه الفضل أيضاً، وفي الوقت نفسه، في نشر استعمال البن، وتأسيس تجارته، وإبراز قيمته، داخل اليمن وخارجها، الأمر الذي أدى إلى اعتباره حامي المقاهي، كما سنرى.

ففي يوم من الأيام ألقت إحدى السفن، المتجهة من الهند إلى جدة، مراسيها أمام شاطىء المخا. وعندما شاهد ركاب السفينة الهنود كوخاً وحيداً منتصباً في الخلاء تملكهم الفضول، وأرادوا معرفة أمره، فنزلوا إلى البر واتجهوا نحو الكوخ، الذي كان يسكنه الشيخ علي بن عمر الشاذلي. وقد استقبلهم الشاذلي استقبالاً طيباً، وقدم لهم شراب البن، وهو شراب كان يحبه كثيراً. وظن الهنود، الذين لم يكونوا قد عرفوا البن من قبل، أنه نوع من أنواع الدواء، واعتقدوا أنهم إذا سقوه لتاجر، زميل لهم، كان مريضاً على ظهر السفينة، فإنه سيشفى. وقد أكد لهم الشاذلي، أنه بفضل دعواته وبفضل شراب البن، لن يشفى مريضهم فحسب، بل وسيجني أرباحاً طائلة. إذا هو أنزل بضاعته إلى البر وباعها في هذه المنطقة. وأنه (أي الشاذلي) قد تنبأ بأن هذه المنطقة ستكون مركزاً تجارياً كبيراً. وأن الهنود سيبيعون مستقبلاً الجزء الأكبر من بضائعهم فيها.

أثار الشاذلي بحديثه فضول الهنود أكثر فأكثر، وأنزلوا مريضهم إلى البر ليسمع ويرى بنفسه ذلك الرجل غير العادي. وفي اليوم نفسه أمَّ المكان أناس كثيرون. جاؤوا إليه من مناطق مختلفة ليستمعوا إلى مواعظ الشيخ الشاذلي.

شرب التاجر الهندي المريض البن، الذي غلاه له الشيخ الشاذلي بنفسه، وشعر بالتحسن. وكان بين من أمَّ المكان تجار كثيرون، قاموا بشراء جميع البضائع المحملة على السفينة. وعاد التجار الهنود مسرورين إلى الهند. وأشاعوا هناك خبر هذا الولي، الذي أصبح، شيئاً فشيئاً، مشهوراً في الهند. وبدأت البيوت تبنى حول كوخ الشاذلي، وأخذ عدد السفن القادمة من الهند

إلى المخا بالتزايد. وتحول الكوخ إلى قرية ثم إلى مدينة مزدهرة، هي مدينة المخا الحالية.

وعندما مات الولي علي بن عمر الشاذلي شيد على قبره مسجد معروف باسمه. وهو يقع خارج المدينة. وهناك بئر تعرف باسمه أيضاً. كما سمي باسمه واحد من أبواب المدينة. ولا زال واحد من أنساله يسكن المخا، ويحظى باحترام الناس، الذين يخاطبونه (بالشيخ). ويقسم الناس باسم الشاذلي دائماً ولا يعتبر الشاذلي حامي مدينة المخا فحسب، بل وحامي كل المقاهي في تهامة، فيذكره الناس في تلك المقهى كل صباح، عندما يقرؤون الفاتحة... ويحمدون الله أنه عرفهم بواسطة الشاذلي على استعمال البن ويطلبون له ولذريته الرحمة»[1].

مدينة تعز[2]:

كانت مدينة عدينة، التي تقع أطلالها فوق مدينة تعز، في جبل صبر، هي مقر حكام هذه المنطقة. ولما مات أحد الحكام. وهو الملك إسماعيل مالك Ismael Mûlk ، تم دفنه تحت جبل القاهرة، بناءً على وصيته. وأخذ أهالي مدينة عدينة وغيرهم يبنون لهم بيوتاً حول قبر هذا الملك الولي. وبهذه الصورة نشأت مدينة جديدة، هي مدينة تعز. «وهكذا فإن الفضل في إنشاء مدينة تعز يرجع إلى الأولياء المسلمين، تماماً كما هو الحال بالنسبة لنشأة كل من اللحية وبيت الفقيه والمخا»[3].

ويعتبر الولي إسماعيل حامي مدينة تعز. وقد بُني مسجد عند قبره، يعرف باسمه، ولا يسمح بالاقتراب منه. ولمنع الاقتراب منه سبب توضحه الحكاية التالية:

---

(١) Nebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 440.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 379 - 381.

(٣) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 381.

جاء متسولان إلى حاكم مدينة تعز يطلبان الإحسان. فمنح الحاكم أحدهما دون الآخر. وهرع المتسول الذي لم يمنح إلى قبر الملك الولي إسماعيل، وهتف باسمه يطلب الإنصاف. وكان الولي اسماعيل معروفاً في حياته بالسخاء والجود. ولم يرد - في مماته - أن يرجع المستول خائباً. ففتح قبره وسلم للمتسول رسالة موجهة إلى الحاكم، يأمره فيها أن يدفع للمتسول مئة ريال. وأمر الحاكم بفحص الرسالة فحصاً دقيقاً فثبت أنها بخط إسماعيل، وأنها قد مُهرت بتوقيعه. فلم يجرؤ الحاكم على الرفض. واضطر إلى دفع المبلغ للمتسول على مضض. لكنه أمر بعد ذلك ببناء حاجز يحول بين الناس وبين الوصول إلى قبر إسماعيل، حتى لا يتكرر ما حدث، ويذهب المتسولون إلى القبر لطلب الإحسان.

وإلى جانب هؤلاء الأولياء الذين ينسب إليهم - أحياءً أو أمواتاً - تأسيس مدن اللحية وبيت الفقيه والمخا وتعز، تكررت إشارات نيبور إلى أولياء آخرين، أمثال حامي مدينة جيزان، الشيخ حسن بن صادق بن الولي الشاذلي[1]. وأحمد بن علوان، «الولي المشهور المقبور في يفرس»[2]، الذي علم مريديه كثيراً من فنون «السحر الطبيعي»[3]، كأن يعرضوا أنفسهم لقرص الأفاعي السامة، أو يطعنوا أجسادهم العارية بالسيف، دون أن يلحقهم أي ضرر. والشيخ موسى المقبور في مسجده المعروف الواقع في خارج سور مدينة تعز، في الجهة الغربية منه، وقد سمي باسمه باب مدينة تعز المؤدي إلى مسجده، ويعرف اليوم باسم باب موسى[4].

وفي حضرموت تقام زيارة سنوية حول قبر النبي هود. وعدا عن المعنى الديني لهذه الزيارة، فإنها تمثل موسماً تجارياً هاماً[5].

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 267.
(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 243.
(٣) Niebuhr, C., BVA, 243.
(٤) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 380.
(٥) Niebuhr, BVA, S. 288.

٧. العلم والعلماء:

رغم أن مدينة زبيد كانت قد فقدت أهميتها، كمدينة أولى في تهامة، وكمقر لحاكم المنطقة، وحلت محلها في الأهمية مدينة بيت الفقيه، فإن نيبور قد أشار عند زيارته لها إلى أن أهم ما فيها هو أكاديميتها، التي كانت لا تزال تمارس دورها في خدمة العلم(*)، وتنتفع بها تهامة كلها وجزء من الهند. وهي أكاديمية معروفة «منذ سنوات طويلة»[1]، ولا زال طلاب العلم يدرسون فيها العلوم الإسلامية[2]. وقد وجد نيبور في مدينة مسقط عالماً هندياً، قضى سنوات من عمره في أكاديمية زبيد، وذكر أن ذلك العالم قد شرح له معنى «أهل الكسا»[3]. كما وجد عالماً آخر في الهند، قضى أيضاً سنوات في الأكاديمية، وقد شرح له - أي لنيبور - نظام القضاء في اليمن[4].

هذه الإشارات تفصح عن مدى أهمية أكاديمية زبيد، ليس في داخل اليمن فحسب، بل جاوزت أهميتها حدود اليمن، حتى أصبح يقصدها طلاب العلم من بلدان إسلامية بعيدة كالهند.

وكانت هذه الأكاديمية أحد مركزي العلم الرئيسيين في اليمن. أما المركز الثاني فقد كان في ذمار. وقد أشار نيبور، عند مروره بذمار ومشاهدته لأعداد كبيرة من الطلاب، إلى أن أكاديمية ذمار أكاديمية مشهورة، تدرس فيها العلوم الإسلامية. وأنها تضم حوالي خمس مئة طالب[5]. وكانت هاتان الأكاديميتان تخرجان علماء متفقهين على المذهبين، الزيدي في ذمار والسني في زبيد.

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 328.
(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 328.
(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 10 - 11, 270.
(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 205.
(٥) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 407.

(*) عرفت زبيد خلال تاريخها الإسلامي أكثر من مدرسة. وقد أورد القاضي إسماعيل الأكوع أسماء ٤٧ مدرسة، كان معظم مشائخها من أتباع المذهبين الشافعي والحنفي. انظر: الأكوع، المدارس الإسلامية، ص ١٨ - ٢٨١.

ولكن وضع العلماء، كما يستشف من بعض الإشارات، لم يكن وضعاً كريماً. فقد تكررت إشارات نيبور إلى العلماء الفقراء، ولم يشر مرة واحدة إلى عالم غني، باستثناء الحكام منهم. ففي سياق حديثه عن إقامة البعثة في مدينة اللحية قال: «من بين العرب الذين زارونا في هذه المدينة عالمان فقيران، حصلت منهما على الكثير من المعلومات الجغرافية والأخبار، التي ضمنتها كتابي وصف بلاد العرب»[1]. وفي رحلته من بيت الفقيه إلى زبيد رافقه عالم فقير قال عنه: «لقد استمتعت بصحبته كثيراً»[2].

وأكد نيبور أنه يوجد بين اليمنيين علماء يعرفون الحسابات الفلكية ويستطيعون وضع تقويم تاريخي، وأن لديهم طريقة خاصة لحساب الزمن، ولكنه لم يتمكن من التعرف على تلك الطريقة[3].

٨. الفنون:

أكد نيبور أن الفنون في اليمن «في وضع سيء للغاية»[4]. فالمسلمون بشكل عام لا يقبلون التماثيل والرسوم. ولهذا لا يوجد في اليمن رسامون ولا نحاتون[5].

ولئن كان المرء في تركيا، رغم أنها بلد مسلم، يلمس اهتماماً بالموسيقى، تحت تأثير الصوفية المولوية(*)، فإن هذا الفن في اليمن مهمل تماماً «فلم أسمع في هذا البلد صوت آلة موسيقية أخرى غير الطبل والمزمار»[6]. وينظر اليمنيون إلى الموسيقيين نظرة تخلو من الاحترام، ومع

(١)
(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 311.
(٣) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 326.
(٤) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 386.
(٥) Niebuhr, C., BVA, S. 215.
(٦) Niebuhr, C., BVA, S. 216.
(*) المولوية طريقة صوفية أسسها جلال الدين الرومي (١٢٠٧م - ١٢٧٣م). Niebuhr, C., BVA, S. 216.
انظر: LIW, Bd. 1, S. 147 - 148.

ذلك فإنهم يستمتعون بالموسيقى ويطربون لها. فقد كان أهالي اللحية يتحلقون حول أفراد البعثة، حينما كانوا يعزفون في المساء بآلاتهم الغربية. ورغم غرابة الأنغام، فقد كان يلاحظ عليهم الانسجام والاستمتاع[1].

ولعل الفن الوحيد الذي كان موجوداً في اليمن هو الشعر، فقد أشار نيبور إليه إشارة واحدة ذات دلالة، حيث قال: «يقال أن في الجوف أفضل شعراء اليمن»[2].

٩. النقوش والآثار:

لم يشاهد نيبور نقوشاً يمنية قديمة، ولكنه أشار مراراً إلى وجود نقوش في بعض الأماكن، حكي له أنها ليست عربية ولا عبرية. وقد استنتج أنها نقوش يمنية قديمة. وأهاب بالعلماء الأوروبيين أن يزوروا مواقعها وأن يحاولوا دراستها[3]. وقد استفاد العلماء الرحالة، الذين جاؤوا إلى اليمن فيما بعد، من إشارات نيبور وقصدوا المناطق التي تحدث عن احتمال وجود النقوش فيها. كمنطقة ظفار التي استطاع (سيتسزن Seetzen)، استناداً إلى إشارات نيبور، أن يصل إليها ويعثر على نقوش حميرية فيها، وذلك عام ١٨٠٩م[4].

وقد تحدث نيبور عن مأرب، ووصف سدها، كما تقدم معنا، ولكنه أخطأ في حكمه على قيمة آثارها، فقد قال إنها توجد في آثار مأرب «بقايا قصر بلقيس، ولكن لا توجد هناك نقوش، ولهذا ربما لا تستحق هذه الآثار أن يشاهدها المرء»[5]. وحكمه هذا يستند إلى ما سمعه من وصف لمأرب وآثارها، إذ أنه لم يزرها بنفسه.

وفي بعض الأماكن كبيت الفقيه وغليفقة عثر نيبور على كتابات

(١)
(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 302.
(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 272.
(٤) Niebuhr, C., BVA, S. 234. U. RB, Bd. 1, S. 400 - 401.
(٥) Dawani, Yemen, S. 61.
Niebuhr, C., BVA, S. 277.

كوفية[1]، قام بنقلها وأثبتها فيما بعد في كتابه (وصف بلاد العرب)، ويروي في يومياته، كيف استطاع أن ينقل كتابة كوفية في غليفقة(*). فقد وجد حجرين مكتوب عليهما بالخط الكوفي، واستطاع أن ينقل ما كتب على أحدهما، وفي اليوم التالي عاد إلى مكان الحجرين، لينقل ما كتب على الحجر الآخر، ولكنه لم يجده في مكانه. فتوجه إلى الحاكم وأخبره بالأمر ووعده بهدية إذا هو ساعده في العثور على ذلك الحجر. فأخذه الحاكم، وسار به عبر أزقة ملتوية، حتى وصلا إلى كوخ، تحته قبر أحد الأولياء، واسمه الشيخ صالح، وهناك كان الحجر الآخر. وقد أكد الحاكم لنيبور «أن الحجر لم ينقله إلى هناك أحد من الأهالي، بل أتى به الشيخ صالح نفسه، ليبقيه تحت حمايته»[2].

وذكر نيبور أن اليمنيين يكتبون عادة أسماء المدن، دون وضع نقط على الحروف[3]. كما لاحظ وهو في مدينة مسقط أن أهالي عمان لا يزالون يطلقون على أبنائهم أسماء قديمة، كتبع وحمير[4].

(1) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 320, 324.
(2) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 324.
(3) Niebuhr, C., BVA, S. 282.
(4) Niebuhr, C., BVA, S. 186.
(*) انظر الملحق.

الفصل الرابع

وصف المدن والطرق

سجل نيبور، في ما سجله، وصفاً للمدن اليمنية، التي مر بها. كما أورد أسماء كثير من القرى المنتشرة على طول خط الرحلة. وتكررت إشاراته، إلى جانب ذلك، إلى حالة الطرق، التي سلكها. كما ضمن كتابيه (وصف رحلة إلى بلاد العرب والبلدان المجاورة) و(وصف بلاد العرب) رسوماً لبعض المدن، إضافة إلى رسوم الملابس والأدوات الزراعية والحقول. . . إلخ،(*) بعضها قام برسمه رسام البعثة باورنفايند، والبعض الآخر قام برسمه نيبور نفسه.

ويمثل ما قدمه نيبور، من وصف ومن رسوم، توثيقاً تاريخياً لوضع المدن والقرى والطرق والملابس والأدوات. . . إلخ، في يمن القرن الثامن عشر.

وسوف نستعرض هنا وصف نيبور للمدن والطرق، وفقاً للتسلسل الذي وردت فيه في كتاباته، أي وفقاً لمسار رحلته من اللحية وحتى صنعاء.

١. مدينة اللحية[1]:

تقع اللحية في منطقة قاحلة، غير صالحة للزراعة. تغمر مياه البحر جانبها

(1) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 304 - 308.
(*) انظر الملحق.

الشمالي المنخفض، إذا استمر هبوب الرياح الجنوبية فترة طويلة، فتبدو اللحية عند ذلك كما لو أنها تقع على جزيرة. واللحية هي الميناء الشمالي لمملكة الإمام، ولكنها ميناء رديء، إذ تضطر السفن إلى الرسو بعيداً عن الشط، ويتم نقل البضائع والركاب، من السفن إلى البر أو العكس، بواسطة القوارب. وعندما يكون مستوى الجزر منخفضاً، فإن القوارب نفسها تعجز عن الوصول إلى الشاطىء.

ومدينة اللحية مدينة غير مسورة، ومع ذلك فإنها ليست مفتوحة بشكل كامل إذ إنها محاطة باثني عشرة قلعة، كل قلعة منها تبعد عن الأخرى مسافة مئة وعشرين خطوة مزدوجة (حوالي ٢٠٠ إلى ٢٥٠ متر)، ولكل منها باب مرتفع لا يمكن الوصول إليه إلا بواسطة سلم متحرك. أما بيوت المدينة فبعضها مبني بالحجارة، ولكن معظمها عبارة عن أكواخ كتلك الأكواخ المنتشرة في تهامة. وبما أن هذه الأكواخ غير مقسمة في الداخل إلى غرف، فإن الأسرة الواحدة تضطر - إذا كان عددها كبيراً - إلى بناء عدة أكواخ متجاورة. مما يجعل المدينة تحتل رقعة من الأرض واسعة، رغم أن عدد سكانها ليس كبيراً(*). وفي خارج المدينة توجد عدة محارق في العراء، تستخدم لحرق الأحجار المرجانية. والماء في اللحية سيء للغاية. ولهذا فإن مياه الشرب تجلب من بئر في وادي نعمان Naamân ، الذي يبعد عن اللحية بمسافة $\frac{3}{4}$ الميل (حوالي ٥ كلم)(**)، نحو الجنوب الشرقي، أو من بئر Kandie ، التي تبعد عن اللحية بمسافة $2\frac{1}{3}$ ميل (حوالي ١٨ كلم)، أو من بئر فتيته Ftite ، التي تبعد عن اللحية بمسافة $2\frac{1}{2}$ ميل (حوالي ١٩ كلم)، نحو الشمال الشرقي، والماء المجلوب من بئر فتيتة هو أفضل ماء للشرب يمكن الحصول عليه في اللحية.

(*) لم يحدد نيبور عدد السكان.

(**) استخدم نيبور في قياس المسافات الميل الألماني القديم، وهو يساوي ٧٥٣٢ متراً.

٢. مدينة بيت الفقيه(١):

تقع مدينة بيت الفقيه على سهل فسيح، تنتشر الزراعة فيه على الرغم من أنه يبدو سهلاً غير خصب. وهي مدينة غير مسورة، تنتشر مبانيها على رقعة واسعة من الأرض. ومعظم بيوتها عبارة عن أكواخ، مبنية بالطريقة التهامية المعتادة. وتوجد فيها قلعة، بداخلها بئر عميقة. وليس في المدينة منارات، سوى منارة واحدة، هي منارة المسجد الكبير. وبفضل موقع بيت الفقيه أصبحت أهم سوق للبن في اليمن، بل في العالم كله، فهي لا تبعد عن مناطق البن الجبلية بأكثر من مسافة يوم ونصف اليوم، وعن ميناء الحديدة بمسافة أربعة أيام، وعن ميناء المخا، بمسافة أربعة أيام ونصف اليوم، وعن صنعاء بمسافة ستة أيام(*). ويسكن فيها عدد كبير من الهنود الوثنيين، وخاصة من منطقة ديو Diu . وتعتبر بيت الفقيه مدينة حديثة نسبياً. إذ إن عمرها لا يتجاوز بضع مئات من السنين.

٣. مدينة غليفقة(٢):

كانت مدينة غليفقة مدينة مشهورة، عندما كانت ميناءً لزبيد، ولكنها أصبحت غير صالحة لرسو السفن، وتلاشت أهميتها، ولم تعد تتكون سوى من ثلاثين كوخاً على الأكثر، مبعثرة بين أشجار النخيل. وسكانها فقراء، يعتمدون في معيشتهم على التمر وتربية الماعز وصيد السمك. وليست غليفقة غنية إلا بملح الطعام. حيث يتوفر فيها بكميات كبيرة. ولا يشاهد المرء من بقايا المدينة القديمة سوى جدران متهاوية لمسجد كبير، هو مسجد السيد علي. والسيد علي هذا مقبور في قرية موشج، ويعتقد سكان غليفقة أنه بفضل دعواته سخر الله لهم نبع ماء عذب، كانوا لا يزالون يشربون منه (أي عند زيارة نيبور لهذه المدينة).

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 317 - 320. U. BVA, S. 226.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 323.

(*) يبدو هذا التقدير غير دقيق إذا قارنا المسافات بين بيت الفقيه والمخا، وبينها وبين صنعاء.

٤. مدينة الحديدة[١]:

تعتبر مدينة الحديدة ميناء بيت الفقيه. وبعض بيوتها مبنية بالحجارة، كمقر العامل، ومبنى الجمارك، وبيوت أغنياء التجار. أما الغالبية العظمى من البيوت فهي عبارة عن أكواخ، مبنية على الطريقة التهامية. وفي الحديدة قلعة مطلة على البحر. ويعتبر الشيخ صادق، الذي يقع قبره خارج المدينة، حامي مدينة الحديدة.

٥. مدينة زبيد[٢]:

تقع مدينة زبيد في أكبر وديان تهامة وأكثرها خصوبة. وقد كانت في الماضي مقر حكام المنطقة، وأهم مركز تجاري فيها. ولكن بعد أن ضعفت أهمية غليفقة كميناء، وانتقل الثقل التجاري إلى المخا والحديدة واللحية وبيت الفقيه، «لم يبق لزبيد سوى ظلال باهتة من ماضيها الزاهر»[٣]. ومع ذلك فلا زالت تبدو أكثر جلالاً وجمالاً من أي مدينة أخرى في تهامة، ويرجع ذلك إلى مكانتها الدينية الرفيعة. وقد ترتب على مكانتها الدينية أن أصبحت المؤسسة الدينية فيها أكثر ثراءً من سواها. حيث لا تقل حصة المؤسسة الدينية والمساجد عن $\frac{3}{5}$ دخل مدينة زبيد والمناطق المحيطة بها. في حين لا تزيد حصة الحكام عن $\frac{1}{5}$ والسكان عن $\frac{1}{5}$ أيضاً. وتضم المدينة عدداً كبيراً من المساجد، والقباب المبنية على قبور الأولياء، ويتم تجديد طلائها كل عام بمناسبة قدوم شهر رمضان. ومن بين مساجدها: مسجد ابن عمر، ومسجد الأشعري، الذي شيده الصحابي أبو موسى، ومسجد باشا، الواقع عند باب الشبارق، والمسجد الواقع عند باب القرتب، وعدد آخر بناه الباشوات الأتراك، الذين حكموا زبيد. ويضيف نيبور، خطأ، «وأما مسجد الإسكندرية الواقع في القلعة ومسجد

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 324 - 325.
(٢) Niebuhr, C., RB, Bd.1, S. 327 - 328.
(٣) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 327.

الكمالية القريب منه، فيرجع الفضل في تشييدهما إلى سيدات(*) تركيات»[١]. ويشاهد المرء، إضافة إلى المساجد المذكورة، مساجد أخرى كثيرة، شيدت وفقاً للطابع المحلي المهيب. كما توجد آثار قنوات لتنظيم المياه القادمة من الجبال إلى المدينة. ولكن هذه القنوات لم تعد صالحة. ولذا فإن السكان يحصلون على مياه الشرب من الآبار، التي هي غير عميقة في هذه المنطقة. ويشاهد المرء في المدينة، وحولها أيضاً، حدائق جميلة.

وعن أبواب المدينة ذكر أبو الفداء أنه كان للمدينة ثمانية أبواب. ويعلق نيبور على ما ذكره أبو الفداء بقوله: «ولكني لم أسمع سوى عن أربعة أبواب»[٢]، وهي: باب النخل، في الجنوب الغربي، وقد جرفته المياه قبل زمن قصير. وباب القرتب، الذي لا يزال قائماً، ولكنه ربما يُجرف قريباً، لكونه يقع في مجرى مياه الوادي. وباب الشبارق، الواقع في الجهة الشمالية الشرقية. وباب سهام، في الجهة الشمالية. والبابان الأخيران باب الشبارق وباب سهام لم تبق منهما سوى الجدران، أما عقودهما فقد انهارت.

وأما سور المدينة فقد انهار جميعه تقريباً. ويقوم المواطنون الفقراء بجمع ما تبقى من حجاراته، الملقاة على الأرض، لبيعها. ورغم ذلك - أي رغم انهيار السور - فإنه يمكن الوقوف على نطاق المدينةالقديم، بشكل دقيق. فلا يزال يوجد في معظم الأماكن، التي كان السور مقاماً عليها، ارتفاع واضح عن سطح الأرض «وقد سرت حول المدينة متتبعاً آثار سورها القديم وأبوابها، وتمكنت من الطواف حولها في مدة ساعة واحدة وبضع دقائق»[٣]. ولا تشغل المساكن

(١) Niebuhr, C., RB, Bd.1, S. 327.
(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 328.
(٣) Niebuhr, C., RB, Bd.1, S. 328.

(*) مسجد (ومدرسة) الكمالية شيده كمال الرومي، الذي حكم زبيد من عام ٩٢٧/ ١٥٢١ م، وحتى عام ٩٣٠ هـ/١٥٢٤ م. وأما مسجد ومدرسة الإسكندرية فقد شيده إسكندر بن سولي المشهور بإسكندرموز. الذي توفي عام ٩٤٣ هـ/١٥٣٧ م، بعد أن حكم في اليمن ستة أعوام ونصف: انظر: النهراولي، البرق، ص ٣٥ - ٣٦، ٥٦٥ - ٥٩.

القائمة أكثر من نصف المساحة الواقعة داخل إطار السور القديم. وتوجد حول المدينة بقايا من ضواحيهاالقديمة، ولا تزال قائمة، وفيها بعض المساجد.

وأهم ما يوجد في زبيد هو أكاديميتها المشهورة، والتي لا تزال محتفظة بمكانتها وأهميتها، (أي حتى الزمن الذي زار فيه نيبور اليمن).

٦. مدينة العدين[١]:

مدينة العدين، مدينة صغيرة ومسورة، تتكون من حوالي مئتين وخمسين، إلى ثلاث مئة بيت، مبنية جميعها بالحجارة. ويجري بجانب المدينة مسيل (سائلة) صغير يصب في وادي زبيد. وفي خارج المدينة وعلى جبل مرتفع ينتصب قصر شيخ العدين وحاكمها، حيث يسكن هو وعائلته.

٧. مدينة جبلة[٢]:

تقع مدينة جبلة على واد ضيق وعميق، متخذة شكلاً نصف دائري، بمحاذاة الوادي. ويصل امتدادها في الطول إلى حوالي خمس مئة خطوة مزدوجة[*]. وأما عرضها فيبدو ضيقاً. ويعلق نيبور على ذلك بقوله: «ولذا فإنني أشك في أن يبلغ عدد منازلها إلى ست مئة منزل»[٣]. وطرق المدينة مرصوفة، وبيوتها عالية ومبنية بالحجارة، كما هو الحال بالنسبة لجميع البيوت في المناطق الجبلية. ويبدو منظرها جميلاً. وبالقرب من المدينة يسكن اليهود في قرية منفصلة.

وقد ذكر نيبور في يومياته، أنه لم يشاهد سوراً حول المدينة كما لم يشاهد فيها أية قلعة. إلا أنه في كتابه (وصف بلاد العرب) أشار إلى أن عامل جبلة يسكن في قلعة[٤].

---

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 343.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 346. U. BVA, S. 238 - 239.

(٣) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 346.

(٤) انظر Niebuhr, C., RB. Bd. 1, S. 346. U. BVA, 238 - 239.

(*) حوالي ٩٠٠ متر تقريباً.

٨. مدينة حيس[١]:

تقع مدينة حيس في تهامة، وهي مدينة صغيرة غير مسورة. وفيها قلعة يسكنها العامل. وليس في حيس سوى بيوت قليلة مبنية بالحجارة.

٩. مدينة المخا[٢]:

تقع مدينة المخا في منطقة قاحلة، بسبب ندرة الأمطار. وهي مدينة مأهولة بالسكان ومسورة. وبالإضافة إلى السور، توجد أبراج للحراسة على طريق موزع، منتشرة بين المدينة وبئر البليلي Beleile . وعلى البحر تطل قلعتان مزودتان بمدافع. وهما قلعة طيار Teiâr وقلعة عبد الرب ابن الشيخ الشاذلي. وبعض البيوت داخل سور المدينة مبنية بالحجارة وبطريقة جميلة، مشابهة لطريقة بناء بيوت بئر العزب في صنعاء. أما أكثر البيوت، سواءً داخل السور أو خارجه، فإنها ليست أفضل من الأكواخ المنتشرة في تهامة.

وفي خارج المدينة تنتشر أشجار النخيل بكثرة. وبين هذه الأشجار توجد حدائق جميلة.

ولسور المدينة خمسة أبواب وهي:

١ - باب العمودي.

٢ - باب الشاذلي.

٣ - باب فجير.

٤ - باب صندل.

٥ - باب الساحل.

وقد ضمن نيبور يومياته المنشورة رسماً توضيحياً[٣] حمل عليه الأبواب الآنفة الذكر وفقاً للتسلسل الرقمي المذكور كما حمل عليه، إضافة إلى ذلك، بعض المواقع الهامة، وفقاً للتسلسل التالي:

---

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 352.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 438 - 440. U. BVA, S. 222.

(٣) انظر الملحق.

٦ ـ مقر العامل.

٧ ـ المقبرة التي يقبر فيها الأوروبيون، وقد قبر فيها أول المتوفين من أعضاء البعثة الهولندية، وهو فون هافن.

٨ ـ أبراج على طريق موزع.

٩ ـ الطريق إلى بيت الفقيه.

ولم يتمكن نيبور من معرفة تاريخ إنشاء مدينة المخا بصورة أكيدة. إلا أنه أشار إلى أن المدينة تعتبر من المدن الجديدة. إذ لا يتجاوز عمرها أربع مئة عام. ويرتبط إنشاؤها باسم الولي الشيخ الشاذلي(*)، الذي يقع قبره خارج المدينة. وقد بُني فوقه مسجد كبير سمي باسمه. ويطلق اسم الشاذلي أيضاً على بئر ماء عذب يشرب منها سكان المخا.

ويسكن في المخا حوالي سبع مئة هندي. كما يسكن بعض اليهود منعزلين خارج المدينة[1].

١٠. مدينة الدريبات وسجن ابن عقلان[2]:

مدينة الدريبات هي عاصمة منطقة ابن عقلان، وهي مدينة صغيرة، تقع على جبل، وتحتها، على الطريق يقع سوق، وفيه عدد من البيوت. وأهم ما يوجد في الدريبات هو السجن المخيف المشهور في كل اليمن. ويقع هذا السجن في سوق الدريبات وهو منحوت في الصخر، ولا يدخله نور النهار، ولا يدخله الهواء بحرية إلا إذا فُتح بابه.

وقد شاهد نيبور من خلال باب السجن وهو مفتوح عدداً كبيراً من السجناء، وقد قيدوا وربطوا جميعاً إلى سلسلة حديدية طويلة.

---

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 443.

(٢) Niebuhr, C. RB, Bd. 1, S. 375 - 376.

(*) هو علي بن عمر بن إبراهيم. عاش في الفترة من ١٣٥٤ م وحتى ١٤٢٥ م. انظر: الزركلي، الأعلام، مج ٤، ص ٣١٦.

١١. مدينة تعز[1]:

تقع مدينة تعز عند أقدام جبل صبر الخصب من جهة الشمال. وهي محاطة بسور يتراوح سمكه بين ستة عشر إلى أربعة وعشرين قدماً، وعليه عدد من الأبراج الصغيرة. وقد بني السور، كما بنيت الأبراج، من الجهة الخارجية بطبقة رقيقة من الياجور المحرق، ومن الجهة الداخلية باللِّبن. وفي الجهة الجنوبية الشرقية من المدينة، وضمن سورها، ينتصب مرتفع صخري حاد، يصل ارتفاعه، حسب تقدير العين المجردة، إلى أكثر من أربع مئة قدم. وعلى قمة هذا المرتفع يقع حصن القاهرة.

وقد أحيط الحصن بسورين: سور خارجي، هو امتداد سور المدينة، وسور داخلي.

ولمدينة تعز بابان: باب الشيخ موسى، والباب الكبير، وكلاهما يقعان على طريق المخا ـ صنعاء، وليسا بعيدين عن بعضهما، وهما مبنيان بالطريقة اليمنية. كما يوجد باب صغير في حصن القاهرة، باتجاه جبل صبر. وكان هناك باب صغير آخر، بين حصن القاهرة والباب الكبير، تم سده قبل سنوات قليلة.

وفي حصن القاهرة، كما على بابي المدينة: باب الشيخ موسى والباب الكبير، توجد بعض المدافع «وفي السنة التي زرنا فيها تعز كان هناك برج لا يزال في حالة التشييد، ويمكن أن توضع عليه بعض المدافع»[2]. ويوجد في المدينة حوالي ست مئة جندي، يتمركز ستون جندياً منهم في حصن القاهرة، والباقون موزعون على البابين والأبراج وفي داخل المدينة.

وقد ضمن نيبور كتابه رسماً توضيحياً[3]، للمدينة، بين فيه المواقع التالية:

---

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 377 - 381. U. BVA, S. 241.

(٢) Niebuhr, C., RB., Bd. 1, S. 378.

(٣) انظر الملحق.

١ ـ باب الشيخ موسى.

٢ ـ الباب الكبير.

٣ ـ البرج الجديد.

٤ ـ قصر السيد أحمد.

٥ ـ قصر السيد عبد الله.

٦ ـ مسجد الأشرفية، وتستخدم أقبيته كمخازن للحبوب.

٧ ـ مسجد إسماعيل، وهو مسجد كبير، ويجدد باستمرار، ولكنه ليس جميلاً، وتستخدم أقبيته كمخازن للبارود.

٨ ـ قبة حسين، وهي عبارة عن مبنى كبير وجميل يقف وسط مكان خال لا تحيط به أية مبان. وقد شيدت القبة على قبر أحد الباشوات الأتراك.

٩ ـ مسجد قصر Kasr.

١٠ ـ السوق، أو شارع السوق.

١١ ـ مساجد كبيرة خارج المدينة وقد تهدمت بعض أجزائها.

١٢ ـ المصلى، حيث تقام صلاة العيد. وهو محاط بسور، وفيه جناح للوضوء.

١٣ ـ الطريق إلى صنعاء.

١٤ ـ الطريق إلى المخا.

وفي خارج المدينة، في الجهة الغربية منها، يوجد مسجد الولي المشهور، الشيخ موسى، الذي سمي باسمه أحد بابي المدينة. وفي الجهة الشرقية من المدينة يوجد مسجد ضخم يقع على مرتفع، وبجانبه مبنى، لا يقل ضخامة عنه، يضم قبور الأفضل وأسرته. «ويبدو طراز بناء المسجد والمبنى الآخر شبيهاً بالطراز التركي. مما يجعلني أظن أن الأفضل(*) هذا كان باشا في

(*) الأفضل العباس بن داود أحد ملوك الدولة الرسولية، تولى الحكم بعد وفاة الملك المجاهد عام ٧٦٤ هـ/١٣٦٣ م، وتوفي عام ٧٧٦ هـ/١٣٧٥ م. انظر: الخزرجي، العقود، جـ ٢، ص ١١١ وما بعدها.

تعز»[١]، وفي هذا المسجد، كما في المساجد الأخرى بالمدينة، توجد كتابات عربية، مكتوبة بشكل متداخل، تصعب قراءتها. وللمسجد منارتان، دمرت أجزاء منهما أثناء حرب تعز الأخيرة(*). ويوجد عدد آخر من المساجد داخل المدينة وخارجها، ولكن معظمها لم يعد يستخدم. ولهذا فقد أخذت تتهدم شيئاً فشيئاً.

وقد اهتم حكام تعز المتأخرون ببناء القصور أكثر من اهتمام أسلافهم، وبدلاً من بناء المساجد اكتفى كل منهم ببناء مبنى صغير، عليه قبة، بجانب بيته ليؤدي فيه الصلاة ويقبر فيه بعد موته. وتعتبر قصور السيد أحمد(**) وأبنائه من أجمل قصور تعز. وقد توقف التوسع في البناء في مدينة تعز بشكل عام. وتشاهد في أماكن كثيرة في المدينة آثار الدمار التي خلفتها الحرب الأخيرة. وفي القرب من تعز تشاهد بقايا مدينتين قديمتين، هما: عُدينة Oddene، وتقع على سفح جبل صبر، فوق مدينة تعز مباشرة، ولم يبق منها سوى مساجد مهدمة، «ويقول العرب أنها كانت مقر حكام المنطقة»[٢]. والأخرى ثعبات Tobâd، وتقع على بعد نصف ميل ألماني تقريباً، جنوب شرقي تعز، على جبل صبر، ولا تزال تشاهد بقايا من سورها ومن مسجد كبير فيها، لم تبق منه سوى قبة صغيرة. كما لا تزال تشاهد فيها جدران مسجد الأحمر، وهي مبنية بحجارة حمراء «وأغرب ما فيها خط طويل كتب في أعلى الجدار، ليس كوفياً ولا عربياً حديثاً»[٣].

(١) Niebuhr, C., RB, Bd.1, S. 380.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd.1 S. 381.

(٣) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 381.

(*) شهدت تعز حرباً طاحنة بين الإمام المنصور حسين بن المتوكل قاسم وبين أخيه أحمد عامل تعز ولم تحسم هذه الحرب إلا بعد وفاة المنصور وذلك على يد ابنه الإمام المهدي عباس. انظر: الحداد، تاريخ اليمن، ص ٣٣٧ وما بعدها. وكذا: الجرافي، المقتطف، ص ١٩٥ وما بعدها. وزبارة، نشر العرف، ص ٥٩٥ وما بعدها، والشماحي، اليمن، ص ١٤٨.

(**) لعل المقصود هنا هو عامل تعز السيد أحمد بن المتوكل قاسم أخو الإمام المنصور، الآنف الذكر.

١٢. مدينة إب[١]:

تقع مدينة إب في قمة مرتفع، يحيط بها سور وأبراج، وبيوتها مبنية بالحجارة، وطرقها مرصوفة. ويقدر عدد بيوتها عادة بثلاثة أرباع بيوت مدينة جبلة «وبحسب تقديري لا يزيد عدد بيوتها عن خمس مئة بيت. أما العرب فيقدرون عددها بثمان مئة بيت، وبيوت جبلة بألف ومئتي بيت»[٢].

وهناك، في مدينة إب، عدد من المساجد الصغيرة، ولكن ليس من بينها سوى مسجدين لهما منارات. وفي شرق المدينة ينتصب جبل مرتفع جداً، وهو جبل بعدان، الذي تنحدر منه المياه، التي يشرب منها السكان.

١٣. مدينة يريم[٣]:

يريم مجرد مدينة صغيرة، أو بالأحرى قرية كبيرة. فيها قلعة تقع على مرتفع صخري حاد، يسكن بداخلها عامل المنطقة. وبيوت المدينة مبنية إما بالحجارة أو بالياجور أو باللبن المغطى بطبقة من الطين المخلوط ببراز الأبقار.

ولم يستطع نيبور أن يتعرف على المدينة بصورة جيدة بسبب مرضه. ولكنه استطاع، من نافذة المنزل الذي نزلت فيه البعثة، أن يرسم القلعة وجزء من المدينة[٣].

١٤. مدينة ذمار[٥]:

تقع مدينة ذمار في منطقة سهلية. وهي مدينة كثيرة المباني وغير مسورة. وتوجد بالقرب منها قلعة كبيرة. وأشهر ما في ذمار أكاديميتها «التي تضم، كما قيل لي، حوالي خمس مئة طالب»[٦]. ويسكن في المدينة عدد من الهنود. أما

(١)
(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 396. U. BVA, S. 239.
(٣) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 396.
(٤) انظر الملحق.
(٥) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 400.
(٦) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 407.
Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 407.

اليهود فيسكنون في قرية خاصة بهم خارج المدينة. وفي مكان غير بعيد من ذمار يجري مسيل صغير، تنتهي مياهه في رمال الجوف.

وقد أشار نيبور إلى أن أحد أعيان ذمار قد ذكر له أن ذمار تضم خمسة آلاف بيت، إلا أنه، أي نيبور، يشك في صحة هذا الرقم[١].

١٥. مدينة صنعاء[٢]:

تقع مدينة صنعاء عند أقدام جبل نقم، الذي لا زالت توجد عند سفحه بقايا قصر قديم، يقول اليمنيون إنه كان قد بناه سام بن نوح. وفي الجانب الغربي من المدينة يوجد نهر صغير. وعلى ضفافه يقع بستان المتوكل، الذي أنشأه الإمام المتوكل(*)، وقد بنى فيه الإمام المهدي عباس قصراً جميلاً. وبستان المتوكل محاط بسور ترابي، يتصل طرفاه بسور المدينة(**)، وعليه أبراج كثيرة، يبعد الواحد منها عن الآخر بمقدار ثلاثين خطوة مزدوجة(***). وفي جانب المدينة المواجه لجبل نقم توجد قلعة، يؤكد اليمنيون أنها بنيت على تل غمدان، ولها سور متصل طرفاه أيضاً بسور المدينة.

ويحيط بمدينة صنعاء سور يفصلها عن القلعة، كما يفصلها عن بستان المتوكل. ويبلغ طول سور المدينة بما فيه سور القلعة مسافة يمكن قطعها في مدة ساعة وثمان دقائق بالسير المريح. ولا يدخل ضمن هذه المسافة سور بستان المتوكل.

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 407.
(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 418 - 422. U. BVA, S. 231 - 232.
(*) الإمام المتوكل إسماعيل بن القاسم تولى الإمامة بعد وفاة أخيه محمد بن القاسم عام ١٥٠٤ هـ/١٦٤٤ م، واستمر فيها حتى وفاته عام ١٠٨٧ هـ/١٦٧٦ م. انظر: الزركلي، الأعلام مج ١، ص ٣٢٢.
(**) انظر الملحق.
(***) حوالي خمسين متراً.

ولمدينة صنعاء أربعة أبواب كبيرة، وهي:

١ ـ باب اليمن.

٢ ـ باب السبح.

٣ ـ باب شعوب

٤ ـ باب إسترَان Bab Ess'trân. وهذا الأخير ينفذ إلى القلعة، ولكنه لم يعد يفتح منذ سنوات عديدة.

وبالإضافة إلى الأربعة أبواب الكبيرة هناك ثلاثة أبواب صغيرة، وهي:

١ ـ باب شرارة.

٢ ـ باب حديد Hadid.

٣ ـ باب فجير Fogair(*).

وتبدو مدينة صنعاء مدينة مأهولة بالسكان بشكل كبير، ولكنها مع ذلك ليست مزدحمة المباني، إذ تتخللها كثير من الحدائق. وقد أحصى نيبور عدد المنارات فوجدها تسع إلى عشر منارات(**). ويقع الجامع الكبير في منتصف المدينة وله منارتان، وأما المساجد الأخرى فقد قيل لنيبور أن أسماءها هي: المدرسة، صلاح الدين، الطواشي، البكيرية، ومسجد آخر داخل القلعة. ولكل من هذه المساجد منارة واحدة(***). وقد بُني بعض هذه المساجد من قبل الأتراك. وبنى الإمام المهدي عباس مسجداً فخماً غني بالمياه، التي ينتفع بها الإنسان والحيوان. وشيد بجانب المسجد مبنى صغير جهز فيه قبراً له.

(*) ذكر نيبور اسمين آخرين للبابين الصغيرين الأخيرين باب حديد وباب فجير وهما: Bab Baab Intaba yHâsr. انظر: الهامش Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 418.

(**) هذه الطريقة في التقدير تكررت لدى نيبور أكثر من مرة، وليس لها سوى تفسير واحد، وهو أن نيبور قد سها في بعض الأحيان عن تسجيل العدد في حينه، ثم حاول تسجيله لاحقاً في وقت لم يعد متأكداً فيه مما إذا كان العدد مثلاً تسعة أم عشرة.

(***) لم يذكر نيبور مساجد أخرى غير ما ذكره أعلاه، ومع ذلك فإن عدد المنارات التي ذكرها تدل على وجود مساجد أخرى.

ويوجد في مدينة صنعاء حوالي اثني عشر حماماً عاماً. كما تنتصب مجموعة من القصور الفخمة، كقصر بستان السلطان ودار النصر ودار فتح Dar Fatch، وقد بنيت جميعها من قبل الإمام، المهدي عباس. إضافة إلى قصر الإمام المنصور وإلى العديد من البيوت الكبيرة، التابعة لأفراد أسرة الإمام. ولأعيان صنعاء. وهذه الدور والقصور مبنية بالحجارة المنحوتة أو بالياجور. وهناك بيوت كثيرة مبنية باللبِّن. ولنوافذ البيوت مصاريع، تظل مفتوحة في الطقس الجيد، وتغلق عندما يكون الطقس رديئاً، وعند ذلك ينفذ الضوء عبر كوة صغيرة مدورة، تقع فوق النافذة، وقد سدت بقطعة سميكة من زجاج ماريا Marienglas (*)، ينفذ الضوء من خلالها، وفي بعض بيوت الأعيان وضع زجاج، بعضه ملون جلب من البندقية، بدلاً عن زجاج ماريا. ولم يتمكن نيبور من رسم أي بيت من بيوت صنعاء، ولكنه عثر بين أوراق زميل رحلته، رسام البعثة، باور نفايند، على رسم لأحد بيوت بئر العزب، وجده كافياً لإعطاء صورة عن فن البناء اليمني.

وفي مدينة صنعاء ـ كما في مدن الشرق التجارية الكبيرة ـ محطات للقوافل ومبان مخصصة لمبيت التجار والمسافرين، يسمى الواحد منها سمسرة. كما توجد في صنعاء أسواق لمختلف أنواع السلع(١).

وتقع قلعة صنعاء على تل غمدان الشهير وبداخلها قصران: أحدهما يسمى دار الذهب Dar eddàhhb، والآخر دار أمير Dar Amer. وقد شاهد نيبور في قلعة صنعاء أطلالاً لمبان قديمة. ويسكن في القلعة عدد من أفراد أسرة الإمام. كما يوجد فيها دار لسك النقود، وسجون، ذات حجرات مختلفة الأحجام. وفي أعلى موقع في القلعة توجد جربة المدافع، أي حظيرة

(١) انظر ص ١٦٤ ـ ١٦٦ من هذا البحث.

(*) لعله يقصد القمريات المنحوتة من الرخام الأبيض الشفاف والتي لا زالت تعلو نوافذ بعض البيوت اليمنية حتى اليوم.

المدافع، وفيها عدد من المدافع. كما يوجد عدد آخر من المدافع موزع على ثلاثة أبواب من أبواب المدينة، وهي: باب اليمن وباب السبح وباب شعوب.

وفي غرب مدينة صنعاء توجد قرية، أو ضاحية بئر العزب، وفيها جامع كبير وله منارة. وتقع بيوت بئر العزب متناثرة على مسيل صغير. وبالقرب من بئر العزب توجد قرية كبيرة، تسمى قاع اليهود، يسكنها اليهود. وإلى الشمال من صنعاء تقع منطقة الروضة على مسيل، وتبعد عن صنعاء بمسافة ساعة ونصف إلى ساعتين، وتكثر فيها الحدائق. وعادة ما يشبهها العرب بمنطقة دمشق.

١٦. وصف الطرق:

تكررت إشارات نيبور إلى وجود طرق مرصوفة، سواءً في المدن، كمدينة جبلة ومدينة إب أو في مناطق الجبال كما في الجبال بين العدين وجبلة وفي جبل سمارة وجبل كوكبان. لكن هذه الطرق المرصوفة قد أهملت صيانتها - كما ذكر - منذ سنوات طويلة[١].

وإضافة إلى هذه الطرق صادف نيبور، بعد مغادرته القاعدة، متجهاً مع أفراد البعثة إلى إب، جسراً قائماً فوق عقد ضخم مبني بالحجارة وذلك قرب سمسرة Mhàrras [٢]. ويستطيع المسافر أن يمر على ذلك الجسر، متجنباً مجرى الماء، المنحدر بقوة من الجبال. ويبدو من خلال أسماء القرى التي ذكرها نيبور مثل قرية ذوشرق Duschruk وقرية دمنة Dimne ، أن ذلك الجسر يقع على سائلة السياني.

---

(١) انظر: Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 344, 395, 396, 397, 398. U. BVA. S. 237, 257.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 394 - 395.

الفصل الخامس
الأحداث التاريخية

تناول نيبور تاريخ اليمن على وجهين: الوجه الأول كان عبارة عن عرض عام للتاريخ اليمني، أما الوجه الثاني فقد كان تسجيلاً لروايات متفرقة عن أحداث تاريخية معاصرة.

١. العرض التاريخي العام:

لم يعثر نيبور على كتب أو معلومات تمكنه من تسجيل صورة واضحة عن تاريخ اليمن القديم. ولذا فقد اكتفى بإيراد ما سمعه من بعض اليمنيين من تفسيرات لأصل اسم تبع [١]. ثم حاول أن يقدم عرضاً عاماً لتاريخ اليمن الإسلامي، معتمداً في ذلك على نصوص من كتاب (قرة العيون)، كان قد نقلها زميله فورسكال قبل وفاته، وعلى رواية مواطن هولندي، كان قد أسلم وقضى سنوات، في مدينة المخا وفي مناطق حاشد وبكيل، حاول خلالها أن يقرأ في التاريخ وفي العلوم الدينية. وقد قدم ذلك الهولندي روايته لنيبور شفوياً، وسجل جزءاً منها كتابة. وتغطي روايته تاريخ اليمن منذ عهد الإمام القاسم بن محمد وحتى عهد الإمام المهدي عباس، أي حتى زيارة نيبور لليمن. ولا يخرج عرض نيبور لتاريخ اليمن الإسلامي، وهو عرض موجز على أي حال، ولا يتجاوز

---

(١) انظر: Niebuhr, C., BVA. S. 185 - 186.

أربع صفحات ونصف من صفحات كتابه (وصف بلاد العرب)(*)، لا يخرج في مضمونه عما نجده في الكتب التاريخية التقليدية. ولذا فإن سرده هنا لن يكون أكثر من تكرار لا لزوم له.

وقد استهل نيبور عرضه التاريخي العام للحديث عن المصاعب، التي يواجهها الرحالة الأجنبي، عند محاولته التعرف على تاريخ بلد ما. ويعكس حديثه هذا بعض الفوارق القائمة حينذاك بين الوضع العلمي في كل من أوروبا والبلاد العربية. كما أورد أسماء بعض المراجع التاريخية، التي كانت متداولة في اليمن. ولعله من المفيد أن نقتطف بعض فقرات من حديثه هذا: «إذا كان من الصعب على الرحالة أن يحصل على معلومات موثوقة عن حاضر بلد من البلدان، فإن الأمر يغدو أكثر صعوبة بالنسبة لتاريخ ذلك البلد. وقد يشعر الرحالة الأوروبي، وهو يتجول في أوروبا بالسعادة، إذا تعرف على عالم ملم بتاريخ بلده. إلا أن مثل هذا العالم، نادراً ما يكون لديه الصبر والوقت، للتحدث مع شخص غريب، عن دقائق وتفاصيل تاريخ بلده. فإذا كان هذا هو الحال في أوروبا، فإن ما يتوقع الرحالة الحصول عليه في البلاد العربية هو أقل بكثير، حيث يندر وجود العلماء، ونحن لا نحسن لغتهم، الأمر الذي يتطلب منهم بذل جهد، قد لا يجدون في أنفسهم الرغبة في بذله معنا، بنفس القدر الذي يمكن أن يبذلوه مع أبناء دينهم. وفي جميع البلدان الأوروبية لا توجد فقط مكتبات عامة، بل يوجد أيضاً علماء يشتغلون بالتاريخ، مما يسهل على الرحالة جمع معلومات تاريخية، عن البلد الذي ينوي زيارته، حتى وهو لا يزال في بلده. أما العرب فلا يهتمون كثيراً بالتاريخ الحديث، ولا يهتمون مطلقاً بالتاريخ القديم، السابق على عصر محمد. ولا توجد لديهم مكتبات عامة في أي مكان. وحتى علماءهم الكبار، لا يتوفر لديهم من الكتب، إلا ما هو ضروري جداً لهم»(١).

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 185.

(*) من ص ١٧٨ إلى ص ١٩١.

ثم يستطرد نيبور في الحديث عن الجهد الذي بذله للحصول على كتب تاريخية، وكيف أن البعض قد أطلعه على كتب، لكنه لم يجد وقتاً لنقلها، ولم يستطع أن يقنع أصحابها ببيعها. وينتهي إلى القول: «لهذا فإنني سأذكر أسماء هذه الكتب، التي كان يشار إليها، كلما سألت عن تاريخ اليمن. فلربما وجد التجار الأوروبيون، الذين سيزورون المخا في المستقبل، فرصة لشرائها، أو ربما يتمكن المرء، بقليل من الجهد، من شرائها في القسطنطينية أو القاهرة. حيث توجد محلات لبيع الكتب. وهذه الكتب هي: البرق اليماني، نفايس العرايس، تاريخ الأولين والآخرين، جمهرة العرب، روح الروح، تاريخ الخزرجي»(١).

٢. روايات عن أحداث تاريخية معاصرة:

تلقى نيبور معلومات عن أحداث تاريخية معاصرة، لم يكن قد مضى على حدوثها زمن طويل. وكانت تفاصيلها لا تزال حية في ذاكرة المواطنين. بل لقد شاهد آثار بعضها بنفسه. مما يجعل روايته لها، بعد أن توثق من صحتها مستخدماً منهجه، الذي أشرنا إليه في فصل سابق(٢)، تكتسب قيمة تاريخية، لقرب الحدث من الراوي والمتلقي. وسوف نسرد هنا هذه المعلومات كما رواها وبحسب تسلسلها الزمني.

أ. قصف مدينة المخا من قبل الفرنسيين(٣):

كان عامل الإمام في المخا يأخذ أحياناً بضائع هندية للإمام من التجار الفرنسيين، التابعين لشركة الهند الشرقية الفرنسية، دون أن يسدد ثمنها. وتراكمت الديون على العامل، أو بالأصح على الإمام، حتى بلغت اثنين وثمانين ألف ريال. وأخذ الفرنسيون يطالبون بتسديد المبلغ. وظل العامل

(١) Niebuhr, S., BVA, S. 186 - 187.

(٢) انظر ص ٥٦ - ٦٢ من هذا البحث.

(٣) انظر: Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 44 - 443. U. BVA, S. 222.

بسوف ويؤجل. «وقبل حوالي خمسة وعشرين عاماً، أي في عام ١٧٣٨ م»[1]، أرسلت الشركة إلى المخا سفينة حربية، مرافقة لسفنها التجارية. وقام قائد السفينة الفرنسي، فور وصوله إلى ميناء المخا، بإبلاغ عامل الإمام، بأن الفرنسيين لن ينزلوا بضائعهم إلى البر، إلا بعد أن تسدد الحكومة اليمنية ما عليها من ديون.

وحاول العامل إقناع الفرنسيين بإنزال بضائعهم أولاً، ثم يمكن بعد ذلك التحدث في موضوع الديون. إلا أن الفرنسيين أرادوا أن يؤكدوا جديتهم وتصميمهم على تحصيل ديونهم، وذلك بعملية استعراض للقوة، فقصفوا القلعة الشمالية للمدينة ودمروها. وبعد ذلك جرت مفاوضات، أوضح العامل فيها أنه لا يستطيع أن يدفع شيئاً، دون أمر من الإمام، وطلب مهلة مدتها خمسة عشر يوماً، ليتصل بالإمام، ويستمد منه التعليمات. ولما انقضت المهلة المحددة، ولم يتلق الفرنسيون أي رد، قاموا بقصف بيت العامل نفسه. وقتل نتيجة للقصف أحد المواطنين. ولما لم يؤد ذلك إلى نتيجة قاموا، أثناء صلاة الجمعة بقصف المسجد، الذي كان يصلي فيه العامل، وقتل نتيجة لذلك عدد من المواطنين.

وبدأ المواطنون، الذين سقط منهم عدد من القتلى، بسبب دين الحكومة، يوجهون لومهم إلى العامل، ويطالبونه بمعالجة الموقف وإرضاء الفرنسيين.

وقد تمت معالجة الموقف فعلاً. وذلك بأن قام أحد التجار اليمنيين في المخا بتسديد دين الإمام، وعادت المياه إلى مجاريها، وأنزل الفرنسيون بضائعهم إلى المدينة.

ويؤكد نيبور أنه عند وصول البعثة العلمية الدينماركية إلى المخا عام

(1) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, 442.

١٧٦٣ م لم يكن التاجر، الذي سدد عن الإمام دينه للفرنسيين قد استرد نقوده من الإمام حتى ذلك الوقت.

ولم تنته عملية قصف المخا من قبل الفرنسيين دون رد فعل من قبل المواطنين، فقد أقدم أحدهم على قتل أحد الفرنسيين، بعد نزولهم إلى البر، انتقاماً لمقتل قريب له، كان قد قتل أثناء القصف.

ب. حرب تعز[1]:

كان الإمام المنصور حسين(*) قد عين أخاه الأمير أحمد عاملاً على تعز. وقد أظهر هذا رغبة في الاستقلال بحكم تعز عن سلطة أخيه الإمام، وضرب عملة باسمه، مما دفع الإمام المنصور إلى إرسال قوات إلى تعز لإخضاع أخيه. إلا أن أخاه استطاع أن يدافع عن المدينة بقواته المكونة من ألفي رجل. وظل مستقلاً بحكم تعز مدة اثني عشر عاماً. وقام بوضع حواجز جمركية، مما أجبر رعايا الإمام، المسافرين من المخا إلى صنعاء، أن يتجنبوا السفر عبر تعز، ويسلكوا طريق العدين.

وخلف الأمير أحمد بعد موته ستة أبناء، وهم: عبد الله وعلي ويحيى ومحسن ويعقوب وحسين. وتولى ابنه الأكبر عبد الله شؤون الحكم، وقد ساد السلام بينه وبين إمام صنعاء معظم فترة حكمه. وتوفي عبد الله عام ١٧٥٩ م، وكان له ابن اسمه عبد الكريم، ولم يكن قد تجاوز الثالثة عشرة من العمر، حال أعمامه بينه وبين أن يخلف والده في حكم تعز. وتنازع ثلاثة منهم الحكم، وهم: علي ويحيى ومحسن. وحاول كل واحد منهم أن يجمع حوله الأتباع. واستطاع أحدهم أن يسيطر على قلعة القاهرة، المطلة على مدينة تعز،

(1) انظر:
Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 381 - 384. U. BVA, S. 240.

(*) الإمام المنصور حسين بن القاسم تولى الإمامة في الفترة من ١١٣٩ - ١١٦١ هـ/١٧٢٧ - ١٧٤٨ م، انظر: العمري، مئة عام، ص ٤٤ - ٤٥. الجرافي المقتطف، ص ١٩٣. الحداد، تاريخ اليمن، ص ٣٣٦.

والآخر على باب الشيخ موسى، والثالث على الباب الكبير(*). ولكن لم يكن أيٌ منهم يملك من الإيرادات المالية ما يمكنه من حشد أتباع كافين للتغلب على أخويه المنافسين. وعندما كانت تتوفر لهم بعض الذخائر، كانوا يتبادلون التراشق بها حتى تنفذ. وظل الموقف بهذه الصورة، فلم يحل السلام بين الإخوة، ولم يستطع أحدهم أن يحسم الموقف لصالحه.

وإزاء هذا الوضع لجأ الأمير الصغير عبد الكريم إلى الاستعانة بابن عمه إمام صنعاء، المهدي عباس، الذي كان قد أصبح إماماً بعد وفاة والده الإمام المنصور عام ١١٦١ هـ/١٧٤٨ م. فكتب إليه يطلب نصرته ويرجو دعمه، حتى يتمكن من السيطرة على الموقف في تعز، والقضاء على أطماع أعمامه.

وانتهز الإمام المهدي الفرصة، وبعث بجيش إلى تعز، بقيادة النقيب الماس، مكلفاً بإخضاع المدينة، والقبض على المتمردين، وإيصالهم إلى صنعاء. ولما كان النقيب الماس غير مجهز بمدافع، فإنه لم يستطع اقتحام المدينة، واكتفى بمحاصرتها من الخارج، وإطلاق نيران البنادق باتجاه التحصينات، من مسجد الأفضل، الواقع خارج سور المدينة. ولم يستخدم المحاصرون (بفتح الصاد) مدافعهم ضد جيش الإمام، خشية أن يدفع ذلك الإمام إلى نقل بعض المدافع الضخمة، من المخا، لقصف تحصيناتهم. وبينما كان جيش الإمام يحاصر تعز، تقدم الشيخ عبد الرب، الذي كان قد استقل بحكم الحجرية عن مملكة الإمام - كما سيأتي معنا - ليساعد جيش الإمام في فتح المدينة. وقد نجح الشيخ عبد الرب، باستخدام الحيلة، في اقتحام المدينة. وذلك عن طريق رشوة بعض الجنود المدافعين. فقد وعد اثني عشر جندياً، كانوا يدافعون عن أحد الأبراج، في الجهة الشرقية من السور، بإعطائهم ألف ريال مقابل تعاونهم معه، وحفر ثغرة في برجهم إلى الخارج، تستطيع بعض القوات المحاصرة للمدينة أن تنفذ منها. وقد تم ذلك فعلاً، واقتحمت

(*) هما البابان الرئيسيان لمدينة تعز.

القوات الإمامية، وقوات الشيخ عبد الرب، مدينة تعز، ونهبتها وألقت القبض على الأمراء المتنافسين، وذلك عام ١٧٦٠ م. وأمر الإمام بقدوم الأمراء ومعهم عبد الرب إلى صنعاء، وزج بالأميرين يحيى ومحسن في السجن. وأما الأمير علي، الذي كان والد زوجة الإمام، فقد احتفظ بحريته، وظل يعيش في البلاط بصنعاء مع إخوته الآخرين وابن أخيهم، الأمير عبد الكريم، الذي شاهده نيبور يسير مع أعمامه في موكب الإمام، عند عودة الإمام من صلاة الجمعة. وأما الشيخ عبد الرب فقد كان له مصير آخر، كما سنرى في الفقرة التالية.

جـ. الإمام المهدي عباس والشيخ عبد الرب بن أحمد[1]:

توفي الإمام المنصور في صنعاء عام ١٧٤٨ م، بعد حكم دام واحداً وعشرين عاماً، مخلفاً وراءه «خمسة عشر إلى عشرين ولداً»[2]. وكان يفترض أن يتولى الإمامة بعده ابنه علي، وهو الابن الأكبر، من الزوجة الأولى، ابنة السيد محمد بن حسين، حاكم كوكبان. ولكن هذه الزوجة، التي كانت عام ١٧٦٣م لا تزال تسكن في صنعاء في قصر يسمى دارسنان، لم تكن بذكاء زوجة الإمام الثانية، أم ولده عباس، التي كانت جارية للإمام قبل أن يتزوجها. فقد كتمت أم عباس خبر موت زوجها، الإمام المنصور، إلى أن تمكن وزير الإمام، القاضي يحيى بن صالح، أن يحشد حوله الأنصار، للوقوف مع الأمير عباس، وتمكن من اعتقال الأمير علي وزج به في السجن. وقد بقي في السجن حتى توفي عام ١٧٥٩م. وبعد أن تمكن عباس من الأمر وأعلن إمامته ولقب بالمهدي، أمر بالقبض على نصيره، القاضي يحيى وأودعه السجن، ولم يطلق سراحه إلا قبل فترة وجيزة من وصول البعثة الدينماركية إلى صنعاء.

خاض الإمام المهدي حروباً عديدة ضد منافسيه، وضد بعض القبائل، التي انتقضت عليه. فقد أعلن أمير كوكبان، أحمد بن محمد بن حسين،

(1) انظر:
(2) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 383-384, 307, U. BVA, S. 197-204.
Niebuhr, C., BVA, S. 204.

إمامته، ودخل في حرب مع الإمام المهدي عباس، انتهت بعقد اتفاقية سلام بينهما. وتخلى أحمد بن محمد عن الإمامة، لكنه ظل يحكم منطقة كوكبان، مستقلاً عن سلطة الإمام.

وفي عام ١٧٥٠م دخل الإمام في حرب ضد قبائل نهم وذيبان(*)، التي تحركت بحوالي ثلاثة آلاف مقاتل، حتى كادت تصل صنعاء. وقد تمكن من إلحاق الهزيمة بها.

وفي عام ١٧٥٧م هاجمت قبائل حاشد وبكيل قوات الإمام، التي كانت تتجمع في ذمار استعداداً لمهاجمتها. وقد استطاع الإمام أن ينتصر عليها. وفي العام نفسه، أي عام ١٧٥٧ م نشبت حرب بين الإمام المهدي وبين أحمد بن محمد بن إسحاق، أمير منطقة وصاب، الذي أعلن إمامته، وسك عملة باسمه. وقد هُزم أحمد بن محمد، وأُخذ إلى صنعاء، وأُجبر على الإقامة فيها. كما دخل الإمام في حرب ضد أبناء عمه، الذين كانوا يحكمون منطقة تعز، مستقلين عن سلطة الإمام، كما تقدم معنا.

ورغم الحروب المتواصلة وكثرة المنافسين والأعداء، إلا أنه لم يكن بين أعداء الإمام المهدي من هو أكثر خطورة وأشد مراساً من الشيخ عبد الرب بن أحمد، أمير منطقة الحجرية. كان عبد الرب ابناً لعامل الإمام على يفرس. ولما توفي والده عينه الإمام خلفاً لوالده، تقديراً لخدمات الوالد. وبعد سنوات استدعاه الإمام إلى صنعاء لتقديم حساباته. وتعبيراً عن رضى الإمام عن سير أعماله كلفه بمهمة هدم بعض الحصون والقلاع، التي يسيطر عليها بعض المشايخ(**)، ثم عينه عاملاً على قعطبة، وهي منطقة أكثر أهمية من يفرس. وكان عبد الرب قد كثر أعداؤه، وخاصة بسبب تهديمه للقلاع والحصون. وكان

(*) نهم وذيبان هما من قبائل بكيل. انظر، الحجري، مجموع، مج ١، ص ٦٤، ٣٥١، مج ٢، ص ٧٤٦.

(**) لم يورد نيبور أسماء المشايخ، ولا أسماء المناطق التي تقع فيها تلك الحصون والقلاع.

من أبرز أعدائه النقيب محمد بن عبد الله الوادعي، الذي كان له حصن في Robo el Haûa، قرب المخادر. عمل محمد بن عبد الله على الكيد لعبد الرب لدى الإمام بواسطة أصدقائه في صنعاء، الذين استطاعوا أن يوغروا صدر الإمام عليه. فاستدعاه الإمام للمثول بين يديه، إلا أن أصدقاء لعبد الرب في صنعاء أبلغوه بحقيقة مشاعر الإمام نحوه، مما جعله يخشى السفر إلى صنعاء. وبدلاً عن ذلك أخذ يستعد للدفاع عن نفسه، تجاه أي محاولة، قد يقدم عليها الإمام، لأخذه إلى صنعاء بالقوة. وساعد امتناعه عن القدوم إلى صنعاء أعداءه في إقناع الإمام، باستخدام القوة ضده. وهكذا تم تجهيز قوة عسكرية لإخضاعه، قوامها ثلاثة آلاف مقاتل، يقودهم النقيب محمد بن عبد الله الوادعي، الذي وجد في ذلك فرصة لتصفية حساباته مع عبد الرب. حاصر جيش الإمام الشيخ عبد الرب في قعطبة، ولما ضاق بالحصار غادر قعطبة ليلاً مع رجاله، الذين كان عددهم يتراوح بين خمس مئة إلى ست مئة مقاتل، والتجأ إلى حصني الدملوة والمنصورة، في الحجرية، ليقاوم الإمام هناك، بين أهله وأنصاره.

وعاد النقيب محمد بن عبد الله إلى صنعاء خائباً، فأرسل الإمام جيشاً آخر إلى الحجرية، ولكنه هزم. وبعد أن استأنس عبد الرب في نفسه القوة، انتقل من موقف الدفاع إلى الهجوم، وأخذ يغير على مناطق الإمام، حتى وصل مدينة جبلة واحتلها، ثم انسحب منها، بسبب عدم توفر التحصينات فيها، فهي مدينة غير مسورة، واكتفى بأخذ مبلغ من المال من أهالي المدينة، وعاد إلى الحجرية.

وعندما عجز الإمام عن إخضاع عبد الرب، حاول أن ينسق مع السلطان عبدالكريم، سلطان عدن، الذي كان بدوره قد بدأ يخشى تعاظم شأن عبدالرب. وتم الاتفاق بين الإمام والسلطان عام ١٧٥٧م على مهاجمة عبد الرب بجيشين، يطبقان عليه من الجانبين. ولما علم عبد الرب بفحوى الاتفاق، لم ينتظر تحرك الجيشين، بل توجه من فوره باتجاه عدن، واستطاع أن يحتل لحج، وأن يضرب

حصاراً على السلطان في عدن، دام حوالي خمسة أشهر، مما اضطر السلطان إلى طلب الصلح، وقام بدفع مبلغ من المال لعبد الرب، مقابل رفع الحصار والانسحاب من منطقته. وقد كان موقف الإمام أثناء ذلك كله، موقفاً سلبياً، فلم يحاول أن يمد يد المساعدة إلى حليفه سلطان عدن.

وفي عام ١٧٦٠م كانت قوات الإمام تحاصر مدينة تعز، كما تقدم معنا، وكان عبد الرب قد تعزز موقفه واستطاع أن يستولي على قلعة موزع، وكاد أن يستولي على المخا، لولا أنه تلقى تهديداً من عامل المخا بأنه - أي العامل - قد اتفق مع الإنجليز، الذين كانوا يتمركزون في Rehde، بأن يقوموا بقصف قوات عبد الرب الزاحفة، بمدافعهم، إذا هي أقدمت على مهاجمة المدينة. مما أجبر عبد الرب على إيقاف زحفه. ووجد الإمام نفسه أمام موقفين صعبين. فمن ناحية كانت قواته تقف أمام أسوار مدينة تعز عاجزة عن اقتحامها. ومن ناحية أخرى كان شأن عبد الرب يزداد تعاظماً، إلى درجة أنه أخذ يضم بعض مناطق الإمام إليه. وأمام هذين الموقفين لجأ الإمام إلى مناورة هدف من ورائها ضرب أعدائه بعضهم بالبعض الآخر. فعمل على الاستعانة بعبد الرب لاحتلال تعز «ولكن عبد الرب، الذي كان يعرف طريقة تفكير الإمام، لم يطمئن إلى كل عهود الإمام ووعوده»[1]، إلا أن قائدين كبيرين من قادة جيوش الإمام، وهما النقيب الماس والنقيب أحمد الأحمر، استطاعا أن يقنعا عبد الرب، ويضمنا له عدم غدر الإمام به. فتم الصلح بين الإمام وعبد الرب، على أن يساعد عبد الرب قوات الإمام في احتلال تعز، وأن لا يهاجم بعد ذلك أي منطقة من مناطق الإمام. وبالمقابل وافق الإمام على الاعتراف بسيادة عبد الرب على الحجرية، وعدم المطالبة مستقبلاً بأية حقوق له - أي للإمام - على هذه المنطقة، وأن يعتبر عبد الرب صديقاً وحليفاً له. وأكد الإمام موافقته بسبعة أيمان. ويعلق نيبور على ذلك بقوله: «ولكن لماذا سبعة أيمان، ولماذا

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 200-201.

لا يكفي يمين واحد. هذه أحجية بالنسبة لي لم أستطع فهمها»[1]. وكان شاهدا هذا الصلح هما النقيبان المذكوران آنفاً. وما أن أُبرم الصلح حتى توجه عبد الرب لتعزيز جيش الإمام، المحاصر لتعز.

وبعد أن تم احتلال تعز طلب الإمام حضور أبناء عمه أمراء الأسرة الحاكمة في تعز، ومعهم الشيخ عبد الرب. وتوجس عبد الرب خيفة من طلب الإمام هذا، ولكن النقيبين، الماس والأحمر، ضمنا له أن الإمام لن يمسه بمكروه. وهكذا توجه عبد الرب في موكب مهيب إلى صنعاء، وسط تحيات وترحاب المواطنين، في كل المناطق التي مر بها. فقد كان ينظر إليه كبطل استطاع أن يتحدى سطوة الإمام وأن يرغمه على احترامه. وخرج سكان صنعاء لاستقباله، ودخل صنعاء دخول المنتصرين. ولكن الإمام سرعان ما أوقع به وجرده من سلاحه وأمر بصبغ وجهه ويديه باللون الأحمر، وبوضعه عارياً مقيداً فوق جمل، ووجهه إلى الخلف، والطواف به في شوارع مدينة صنعاء، مصحوباً بدقات الطبول. وكانت واحدة من أخوات عبد الرب تعيش في صنعاء، ولما شاهدت أخاها في هذا الوضع المهين قذفت بنفسها من سطح الدار، وارتطم جسمها في الشارع، أمام موكب أخيها، وفارقت الحياة. وقد ظل عبد الرب يضرب ويعذب ويلقى به وسط القاذورات ثلاثة أيام، ثم أمر الإمام بإعدامه. وكانت هذه - كما يقول نيبور - «هي نهاية ثائر وبطل عربي كبير، كانت له شهرته في اليمن في السنوات الأخيرة»[2]. ولم تنته الأحداث المرتبطة بعبد الرب بموته «فقد ولدت الطريقة المخزية، التي خرق بها الإمام وعوده وعهوده، كراهية في نفوس رعاياه، وخاصة في نفسي النقيبين الماس والأحمر، اللذين ضمنا لعبد الرب سلامته»[3]. ولما كان النقيبان يشعران بأنهما من القوة بحيث لا يستطيع الإمام أن يلحق بهما أذى، فقد بادر أولاً النقيب أحمد الأحمر

(١) Niebuhr, C., BVA, S. 201.
(٢) Niebuhr, C., BVA, S. 202.
(٣) Niebuhr, C., BVA, S. 203.

إلى مقابلة الإمام، وعبر له عن سخطه، فزج به الإمام في السجن. وهنا بدأ النقيب الماس يهيء نفسه للتحرك عسكرياً ضد الإمام، وعندما علم الإمام بذلك احتال عليه، واستدعاه بلطف إلى قصره، واستقبله استقبالاً بشوشاً، وقدم له القهوة، كما هي العادة، ولم تكن قهوة عادية، إذ إن النقيب الماس فارق الحياة، قبل أن يعود إلى داره.

وفي حاشد، بعد أن وصلت أنباء سجن النقيب أحمد، جهز أخوه، الشيخ قاسم الأحمر مقاتلي اتحاد حاشد وبكيل وزحف بهم إلى عمران. ووجه الإمام قواته لملاقاة الشيخ قاسم. وفي أول اشتباك بين الطرفين سقط أحد أبناء الشيخ قاسم، واسمه مرشد، قتيلاً، وانسحبت قوات حاشد وبكيل «وخشي الإمام إذا هو ابقى النقيب أحمد سجيناً أن تتحرك حاشد وبكيل من جديد في محاولة لإطلاق سراحه، ولذا أمر بإعدامه. وتم قطع رأسه في مدينة الروضة»[1]. وقد قامت حاشد وبكيل بعدة عمليات عسكرية انتقامية ضد بعض مناطق الإمام، فهاجمت اللحية، وبعض القرى التهامية، وأحرقتها وذلك قبل مجيء البعثة الدينماركية إلى اليمن بفترة وجيزة، ثم زحفت مرة أخرى إلى قرب اللحية، أثناء وجود البعثة في المخا، «ويقال إن الإمام قد التزم بدفع خمس مئة ريال شهرياً لأسرة أحمد الأحمر»[2].

د. الشيخ المكرمي يستقل بحكم نجران[3]:

اشتهر الشيخ المكرمي في السنوات الأخيرة في أنحاء اليمن بشجاعته وجرأته، وهو لا ينتمي إلى أسرة حاكمة. وقد طاف في شبابه المبكر في أنحاء الجزيرة العربية، وزار الهند وإيران. وبعد عودته إلى اليمن عينه إمام صعدة عاملاً على نجران، ولكنه سرعان ما استقل بها، وأصبح الآن يخافه جيرانه

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 203.

(2) Niebuhr, C., BVA, S. 204.

(3) انظر: Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 295, 297.U.BVA, S. 272-274, 267, 250

القريبون والبعيدون، ويخشون دهاءه وشجاعته. وقد توغل في بلاد حاشد وبكيل وفي مملكة الإمام، قبل سنوات قليلة، حتى وصل منطقة حراز واستطاع الاستيلاء على أحد الحصون هناك. ولم يستطع الإمام استرجاع ذلك الحصن حتى الآن. وفي شتاء ١٧٦٢ - ١٧٦٣م هاجم منطقة أبو عريش(*) وألحق الهزيمة بحاكمها الشريف محمد، في معركة دارت في الغرب من عاصمته، كما سنرى في الفقرة التالية، وفي نهاية عام ١٧٦٣ وبداية عام ١٧٦٤ م زحف الشيخ المكرمي بجيشه حتى وصل منطقة الأحساء(**). «وهكذا تحرك بجيشه على امتداد الجزيرة العربية، من السواحل العربية وحتى الخليج الفارسي(***)، ماراً عبر العديد من المناطق الأجنبية، وهو أمر يبدو بالمقاييس الحربية الأوروبية غير ممكن، إلا أن الجيوش العربية لا تثقل نفسها باصطحاب المدافع ولا باصطحاب خيام كثيرة. بل تحمل معها كميات قليلة من المواد الغذائية. ويتحرك الجندي غير مثقل، إذ لا يحمل سوى سيفه، ويسير شبه عار»[1].

والشيخ المكرمي ليس مشهوراً في بلاد العرب بقدراته وشجاعته كقائد عسكري فقط، بل هو مشهور أيضاً كشخصية دينية.

هـ. شريف أبو عريش والشيخ المكرمي[2]:

كانت منطقة أبو عريش جزءاً من مملكة الإمام، إلى وقت قريب. وقد

(1) Niebuhr, C., BVA, S. 273.

(2) انظر: Niebuhr, C., BVA, S. 266-267.

(*) نفضل الاحتفاظ بأسماء الأماكن على صورتها المتداولة بين الناس دون أي تغيير قد تتطلبه قواعد اللغة.

(**) كان نيبور في هذا التاريخ قد غادر اليمن، ويبدو أنه قد تلقى هذه المعلومة وهو في طريق عودته إلى الدينمارك.

(***) الكتابات الغربية تسمى الخليج العربي عادة الخليج الفارسي وقد أوردنا التسمية نفسها كما وردت عند نيبور لأننا هنا ننقل نصاً حرفياً. أما السواحل العربية فيقصد بها سواحل البحر الأحمر الشرقية، ويسميها نيبور بهذه التسمية في كل كتاباته.

عين الإمام، منذ سنوات، عاملاً على هذه المنطقة، اسمه الشريف أحمد. فاستقل الشريف أحمد بحكم المنطقة، وفصلها عن مملكة الإمام. ولما توفي تولى الحكم من بعده ابنه محمد، الذي دافع عن استقلال أبو عريش في وجه أطماع جيرانه. وقد حاول الإمام استرجاع المنطقة، وهاجمها عدة مرات بقوات مكونة من أبناء حاشد وبكيل، إلا أن هؤلاء لم يكونوا يقاتلون بعزيمة صادقة. وفي شتاء ١٧٦٢م - ١٧٦٣م هاجم منطقة أبو عريش الشيخ المكرمي حاكم نجران، وتصدى له الشريف محمد بن أحمد بقوة قوامها خمس مئة إلى ست مئة مقاتل، معظمهم من حاشد وبكيل والجوف. ودارت معركة بين الجانبين، خارج مدينة أبو عريش، العاصمة، واستطاع المكرمي أن يهزم الشريف محمد، الذي انسحب وتحصن خلف أسوار المدينة. وضرب الشيخ المكرمي الحصار على أبو عريش، إلا أنه سرعان ما انسحب باتجاه نجران، إذ وصلته أخبار بأن شيخ قبيلة قحطان قد هاجم نجران.

وكان نيبور قد سمع أثناء رحلته من جدة إلى اللحية أن الإمام قد أمر بتحصين اللحية، عندما كان الشيخ المكرمي يشن هجومه على أبو عريش، وذلك خوفاً من أن يزحف المكرمي إليها - أي إلى اللحية[1].

و. حريق بيت الفقيه[2]:

وقع حريق في بيت الفقيه، أثناء وجود البعثة الدينماركية فيها. وقدم نيبور وصفاً له على النحو التالي:

«في يوم ١٧ أبريل ١٧٦٣م شاهدت كيف يواجه اليمنيون المصائب بثبات. ففي هذا اليوم اشتعلت النار في أحد البيوت، في الجهة الجنوبية من المدينة، ولأن الرياح كانت تهب بقوة من الجهة الجنوبية الغربية، فقد امتدت

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 295.

(٢) انظر: Niebuhr, C., RB Bd. 1, S. 354-355.

النيران إلى جزء كبير من المدينة، واشتعلت البيوت سريعاً، إذ كانت محاطة بأغصان وفروع الأشجار الجافة، وأسطحها مغطاة بالأعشاب اليابسة. وأثناء ذلك كان العرب يتصرفون بهدوء وإتزان، فلم يسمع لهم صراخ ولا عويل. وإذا عبر لهم المرء عن حزنه، لما أصابهم، أجابوا: إنها إرادة الله. وكنا نسكن في منزل مبني بالحجارة، في أحد أطراف المدينة، لا تصل إليه النار. وكنا على ثقة من أنها لو حرقت كل الأكواخ المحيطة به فلن يصاب بأذى. صعدنا إلى سطح المنزل وشاهدنا الناس فوق أسطح جميع المنازل المبنية بالحجارة، يراقبون الحريق بهدوء. وقد جاء إلينا عالم فقير، اعتاد أن يزورنا، ووقف معنا، بعد أن استطاع أن ينقل بعض متاعه من بيته إلى مكان مأمون، وأشار ببرود عجيب إلى بيته، الذي كان قد بدأ يشتعل. إن ما يفقده العربي في مثل هذه الكوارث لا قيمة له، إذا قيس بما يمكن أن يفقده الأوروبي. فاليمني يحمل أدواته المنزلية على ظهره، ويتجه إلى جانب آخر من المدينة، أو إلى العراء. إنه لا يفقد عادة سوى كوخه، الذي يستطيع، بقليل من الجهد والمال، أن يبنيه من جديد. ولكن مع ذلك فإن ما يفقده يمثل، بالنسبة لرجل فقير، خسارة جسيمة»[1].

وعندما عادت البعثة في شهر أغسطس من العام نفسه، ١٧٦٣م، من صنعاء ومرت ببيت الفقيه، في طريقها إلى المخا، تحدث نيبور مرة أخرى عن حريق بيت الفقيه بالعبارات التالية:

«لأن الجزء الأكبر من بيت الفقيه كان قد التهمته النيران، في ١٧ يناير، فقد اعتقدنا أننا سنجدها لا زالت مدينة مدمرة. ولكننا وجدنا أن معظم البيوت، أو بالأصح الأكواخ، قد أعيد بناؤها. وقد تم بناء منازل كثيرة بالحجارة، وذلك حتى لا تلتهمها النيران مستقبلاً»[2].

(١) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 354-355.

(٢) Niebuhr, C., RB, Bd. 1, S. 426.

الملحق

Kleidung der vornehmen Araber in Iemen.

Abbildung einer Araberin auf dem Caffegebürge.

Abbildung einer Araberin in Tehâma.

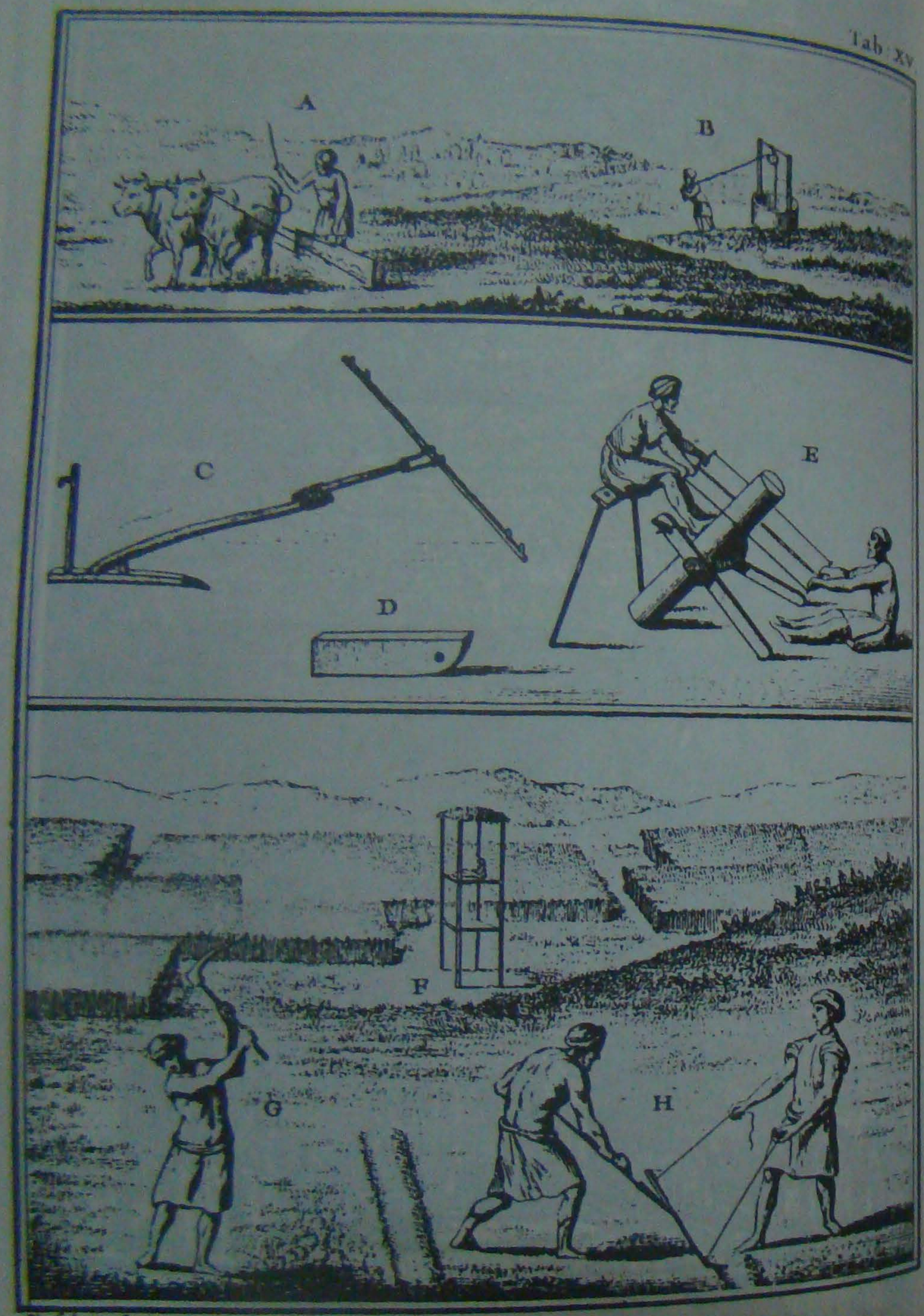

Deschert sc.

Bauernfeind del. Deschert sc.

Kleidung der Banianen zu Mochha.

Kriegsübungen der Araber in Yemen

Tab. LXIX

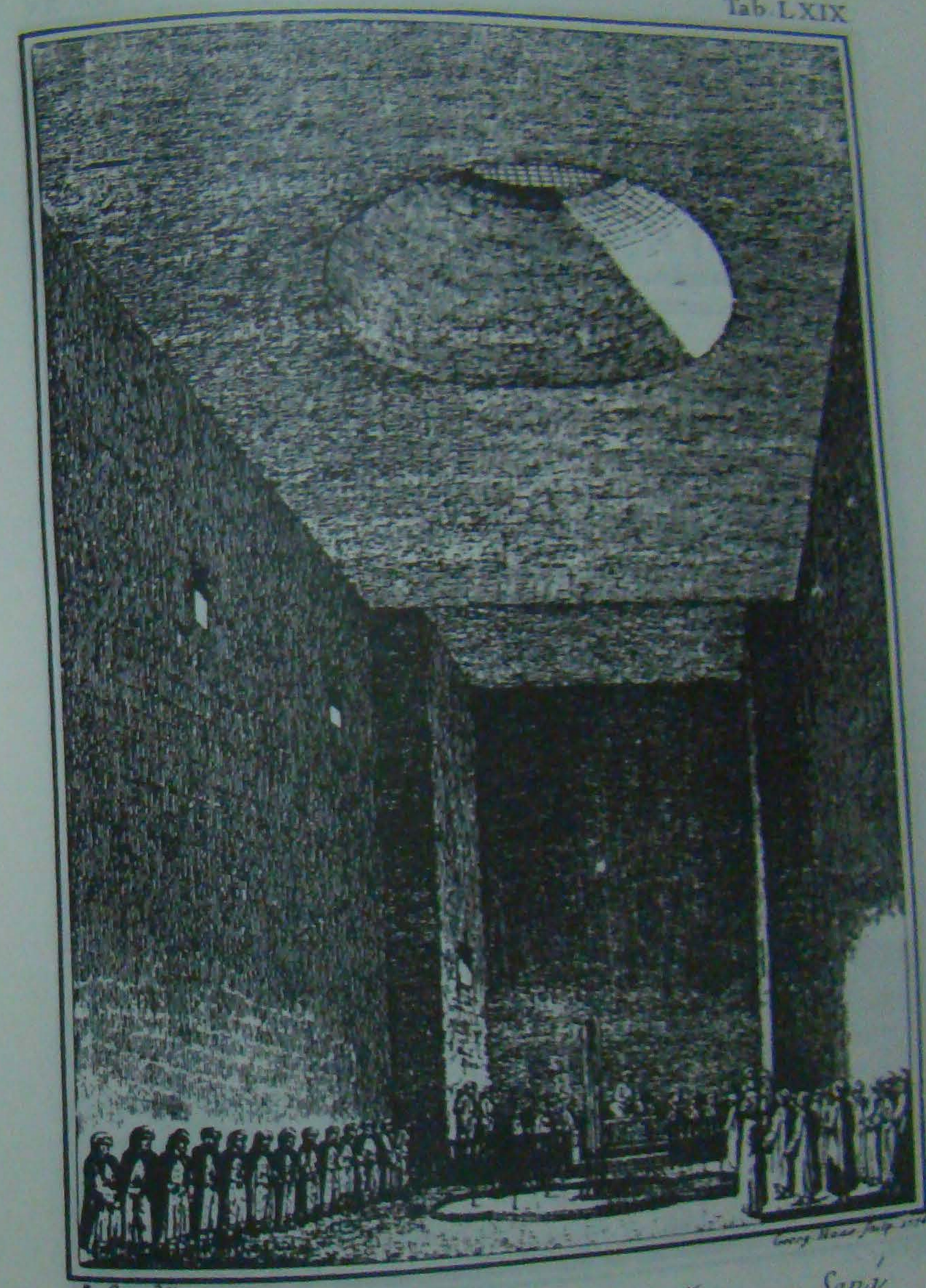

Vorstellung der Audienz bey dem Imam zu Sanâ

Tab: XI

Tab: X

Tab: XII.

Tab: XIV.

Martin Sc.

Martin Sc:

Inschrift auf einem Leichenstein zu Galeſ'ea

Martin Sc:

Inſchrift *auf einem Leichen-Stein zu* Beit-el-Fakih.

Martin Sc.

Inschrift auf einem Leichenstein zu Galesea

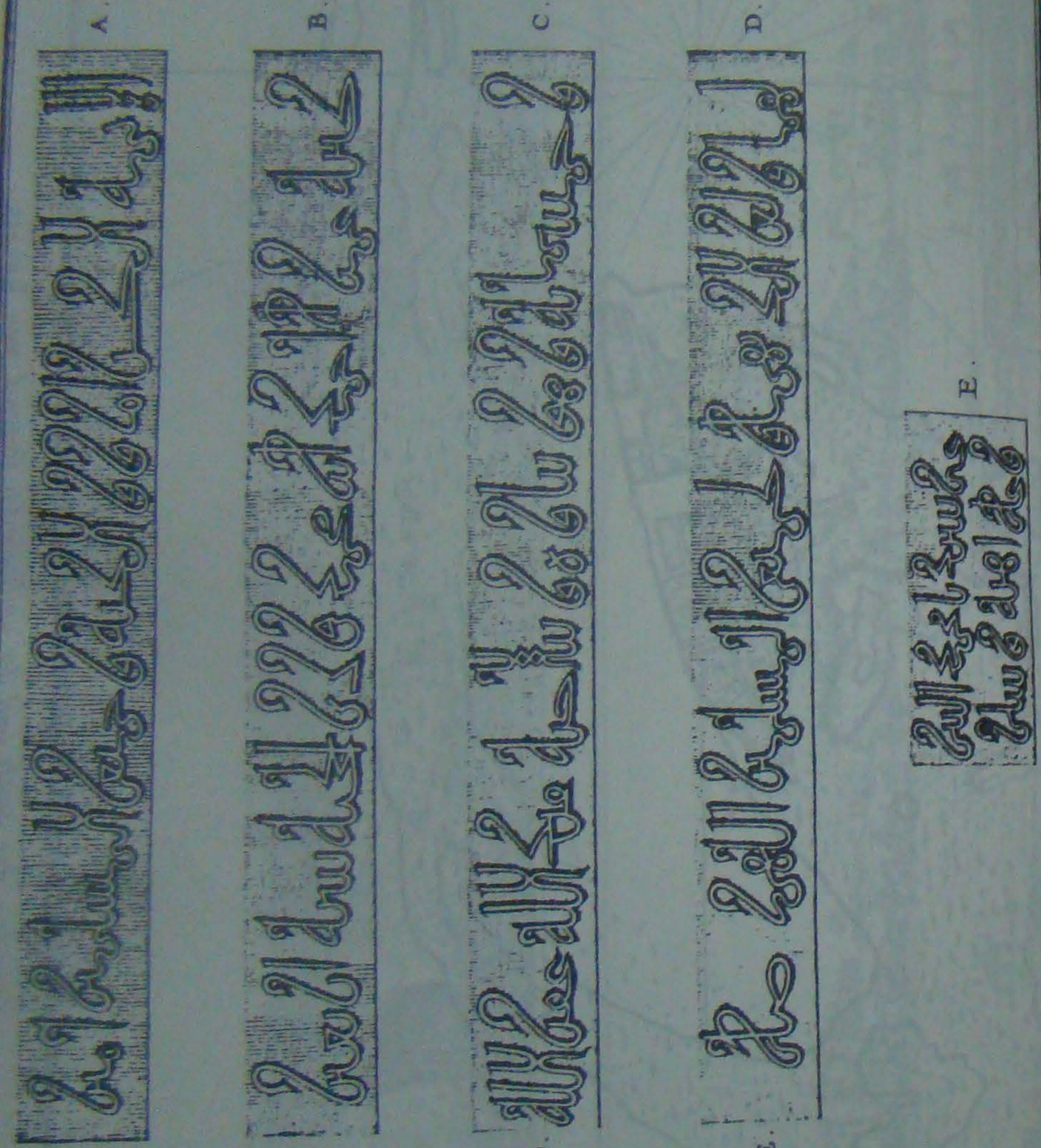

Martin Sc.

Inschrift an einer Mosque' zu Thôbâd nahe bey Ta-ïs.

Prospect der Stadt Loheia von der S. S. W. Seite.

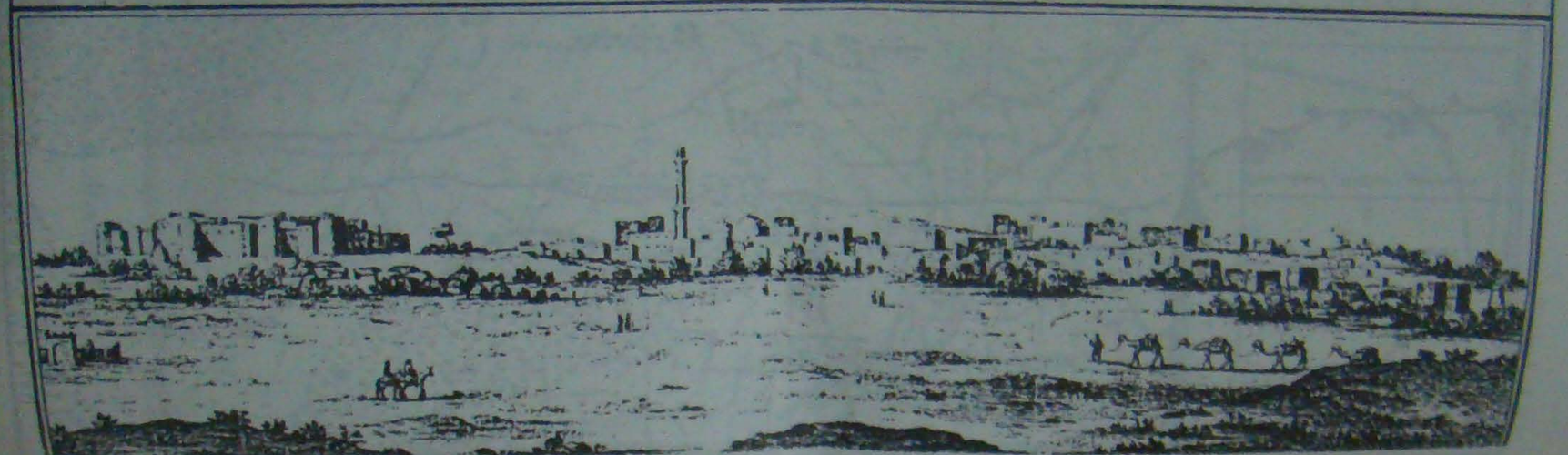

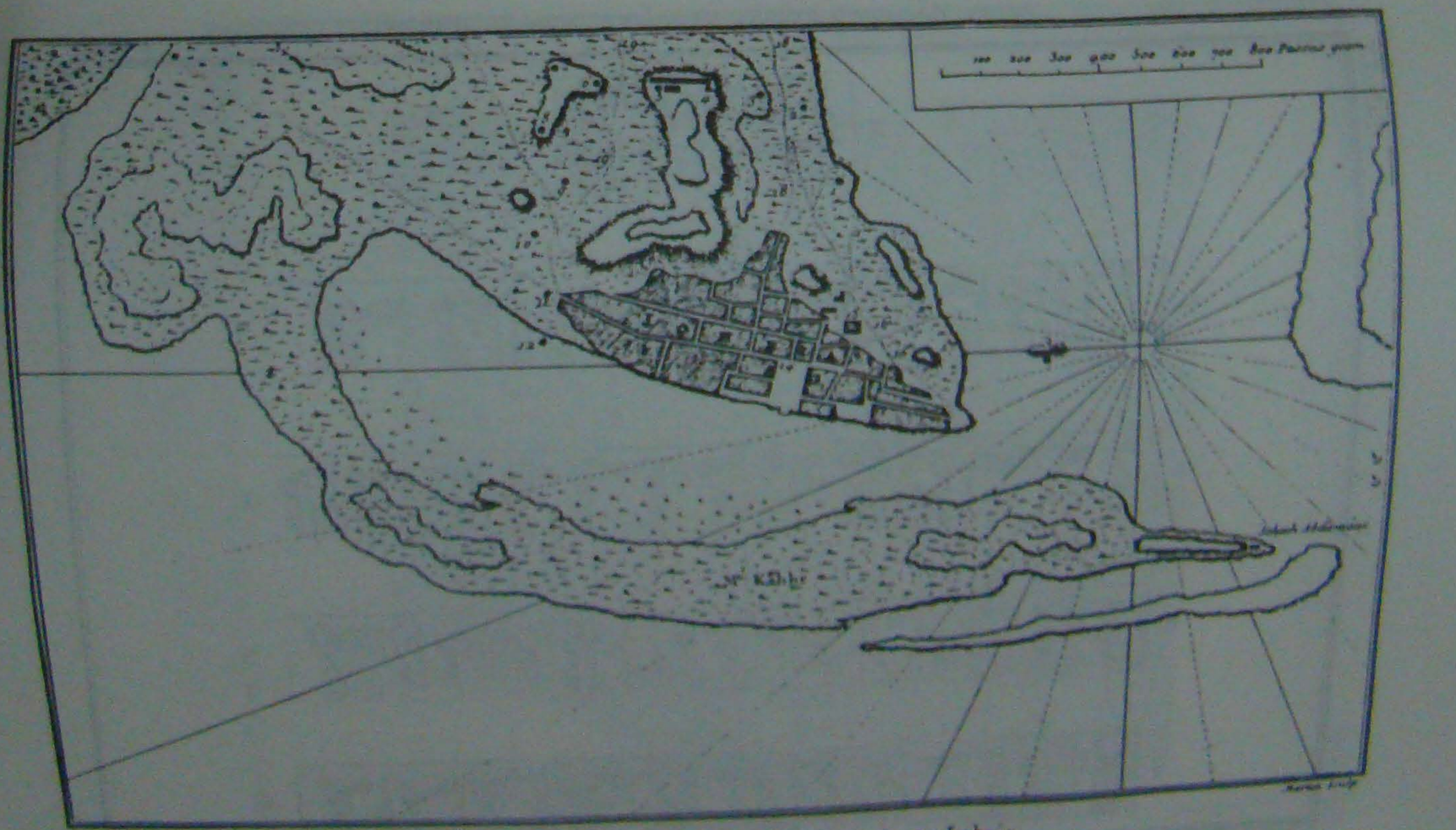

Grundriss der Stadt und der umliegenden Gegend von Loheia.

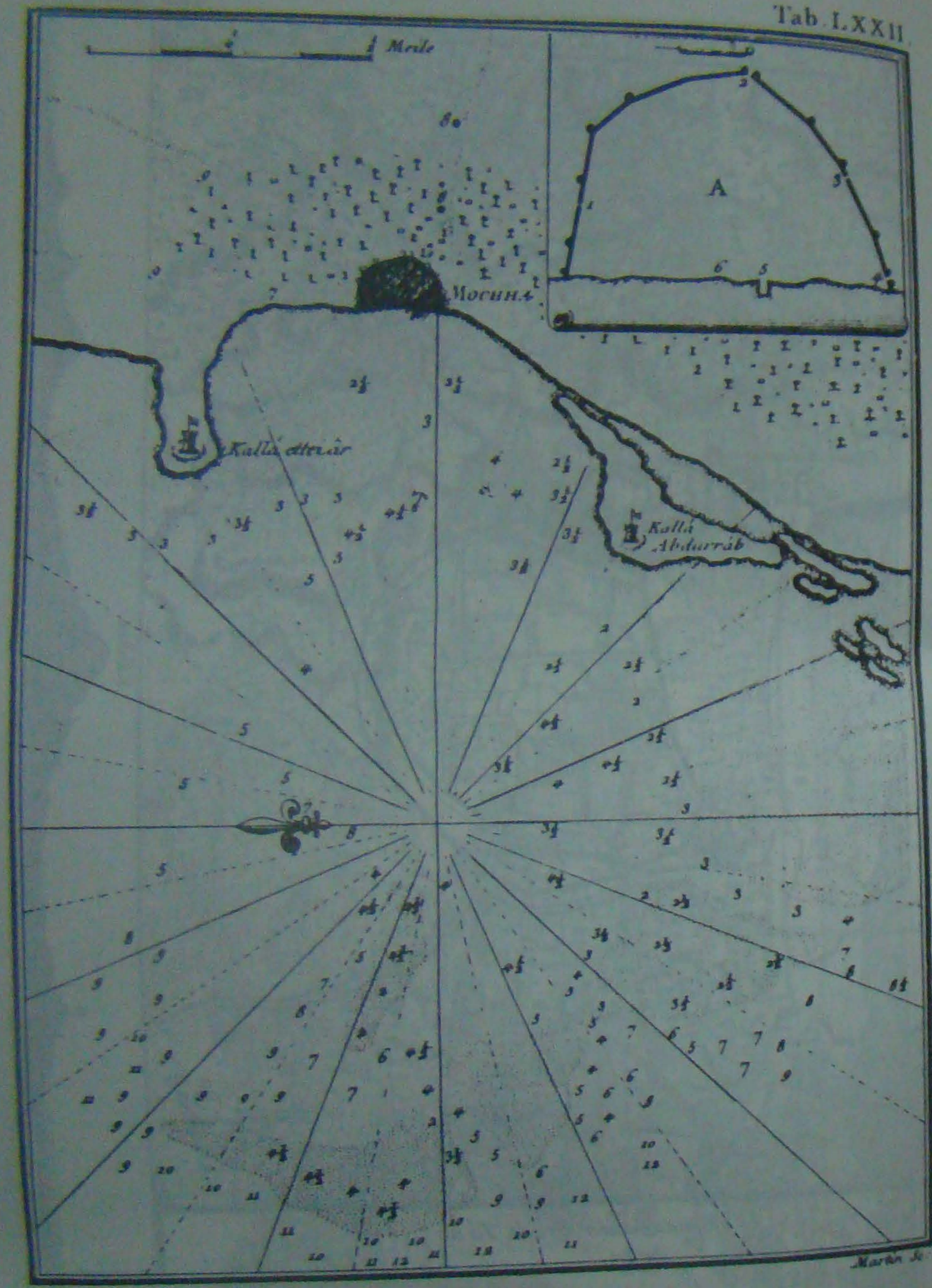

Lage der Stadt und des Hafens Mochha

Tab. LXVI

Grundriss der Stadt Tá'ás.

Tab. LXVII

Tab. LXX

Grundrisz der Stadt Saná

Tab. LXVIII.

Prospect eines Hauses zu Bûr el Arab bey Saná.

Prospect des Castels und eines Theils der Stadt Ierûm.

المصادر والمراجع

أ. باللغة العربية:

١ - أباظة، فاروق عثمان:

عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر، القاهرة، ١٩٧٦ م.

٢ - الأكوع، إسماعيل علي:

المدارس الإسلامية في اليمن، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٠ م.

٣ - براور، ك. خ. وكبلانيات، أ.:

اليمن في أوائل القرن السابع عشر، ليدن، ١٩٨٨ م.

٤ - البطريق، عبد الحميد:

تاريخ أوروبا الحديث. من عصر النهضة إلى مؤتمر ڤينّا، مطابع جامعة الرياض، ١٩٨٨ م.

٥ - الجرافي، عبد الله عبد الكريم:

المقتطف من تاريخ اليمن، ط ٢، مؤسسة دار الكتاب الحديث، بيروت، ١٩٨٤ م.

٦ - الحجري، محمد أحمد:

مجموع بلدان اليمن وقبائلها، مج ١ - ٢، تحقيق إسماعيل الأكوع، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٤ م.

٧ - الحداد، محمد يحيى:

تاريخ اليمن السياسي، ط ٣، دار الهنا، القاهرة، ١٩٨٦ م.

٨ - الحموي، ياقوت:

معجم البلدان، ١ - ٥، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٤ م.

٩ - الخزرجي، علي بن حسن:

العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، ط ٢، تحقيق محمد بن علي الأكوع، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٣ م.

١٠ - زبارة، محمد بن محمد:

نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف، مج ١ - ٣، من مطبوعات مركز الدراسات والبحوث اليمني.

١١ - الزركلي، خير الدين:

الأعلام، مج ١ - ٨، ط ٦، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤ م.

١٢ - سالم، سيد مصطفى:

الفتح العثماني الأول لليمن، ط ٣، مطبعة الجبلاوي، شبرا، ١٩٧٨ م.

١٣ - سزكين، فؤاد:

محاضرات في تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت، ١٩٨٤ م.

١٤ - الشماحي، عبد الله عبد الوهاب:

اليمن الإنسان والحضارة، مكان وتاريخ الطبع(؟).

١٥ - صبحي، حسن:

التاريخ الأوروبي الحديث، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٢ م.

١٦ - العمري، حسين عبد الله:

مئة عام من تاريخ اليمن الحديث، دمشق، ١٩٨٤ م.

١٧ - العوا، عادل:

التجربة الفلسفية، ط ٢، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٤ م.

١٨ ـ غالب، قاسم وآخرون:
ابن الأمير وعصره، مكان وتاريخ الطبع (؟)
١٩ ـ القرآن الكريم.
٢٠ ـ الكتاب المقدس.
٢١ ـ لقمان، حمزة علي:
تاريخ الجزر اليمنية، بيروت، ١٩٨٢ م.
٢٢ ـ الموسوعة العربية الميسرة، ط ٣، دار الشعب ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٢ م.
٢٣ ـ النهروالي، قطب الدين:
البرق اليماني في الفتح العثماني، ط ٢، دار التنوير، بيروت، ١٩٨٦ م.
الويسي، حسين علي:
اليمن الكبرى، مطبعة النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٢ م.
٢٤ ـ اليافي، عبد الكريم:
تمهيد في علم الاجتماع، ط ٤، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٤ م.
٢٥ ـ يحيى، جلال:
تاريخ العلاقات الدولية في العصور الحديثة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢ م.
٢٦ ـ اليمني، عمارة بن أبي الحسن:
تاريخ اليمن، تحقيق حسن سليمان محمود، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٥٧ م.

ب. مترجمة إلى اللغة العربية:

١ ـ توشار، جان وآخرون:
تاريخ الفكر السياسي، ترجمة علي مقلد، الدار العالمية، بيروت، ١٩٨٧ م.

٢ ـ ديورانت، ول وايريل:
قصة الحضارة، ط ٣، ترجمة زكي نجيب محمود وغيره، جامعة الدول العربية، القاهرة.
٣ ـ فان دام، نيقولاس وآخرون:
هولندا والعالم العربي، ترجمة سعد جابر، لاهاي، هولندا، تاريخ ومكان الطبع (؟).
٤ ـ كولنجوود، ر. ج.:
فكرة التاريخ، ط ٢، ترجمة محمد بكير خليل، وزارة التربية والتعليم، القاهرة، ١٩٦٨ م.
٥ ـ ماكرو، إريك:
اليمن والغرب منذ عام ١٥٧١ م إلى عام ١٩٦٢ م، ترجمة حسين عبد الله العمري، فكان الطبع (؟)، ١٩٧٨م.
٦ ـ هانس، ثوركلد:
من كوبنهاجن إلى صنعاء، ترجمة محمد أحمد الرعدي، دار العودة، بيروت، ١٩٨٣ م.
٧ ـ ويدجيري، البان ج.:
المذاهب الكبرى في التاريخ، ط ٢، ترجمة ذوقان قرقوط، دار القلم، بيروت، ١٩٧٩ م.

ج. باللغة الألمانية:

١ ـ
- Baumhauer, Otto (Hrsg.):
Arabien, Henry Goverts Verlag, Stuttgart, 1965.
٢ ـ
- Dawani, Tawfiq:
Jemen Zwischen Reisebeschreibng und Feldforschung (Dessertation), Balbak Verlag, Berlin, 1987.
٣ ـ
- EW = Enzyklopädie der weltgeschichte, 2 Bände, Hrsg. Uwe K. Paschke, Holle Verlag, Baden Baden, O. D..
٤ ـ
- Hansen, Thorkild:
Reise nach Arabien, Die Geschichte der Königlich dänischen

- **Weber, Otto:**
Forschungsreisen nach Südarabien bis Auftreten Ed. Glaser, in: «Der Alt Orient», 8 Jg., Heft 4, Leipzig, 1904. - ١٧
- **Weiter, Mathias:**
Geographie im Jemen, Bedeutungswandel einer Wissenschaft für ein Entwicklungsland (Dessertation), Bonn, 1988. - ١٨
- Weltgeschichte in Zehn Bänden, VEB Deutscher Verlag der Wissenschaften, Berlin, 1966. - ١٩

jemen - Expedition, 1761 - 1767, Hoffmann und Campe Verl., Hamburg, 1965.
- KEW = Kleine Enzyklopädie, Weltgeschichte, 2 Bände, VEB Bibliographisches Institut, Leipzig, 1979. - ٥
- LIW = Lexikon der Islamischen Welt, 3 Bände, Hrsg. von K. Kreiser u. a., Verl. W. Kohlhammer, Stuttgart, 1974. - ٦
- **Lohmeier, Dieter (Hrsg.):**
Schriften der Schleswig - Holsteinischen Landesbibliothek, Band 1, Carsten Niebuhr und die Arabische Reise 1761 - 1767, Heide in Holstein, 1986. - ٧
- **Michaelis, David Johann:**
Fragen an eine Gesellschaft Gelehrter Männer, die auf Befehl Ihro Majestät des königes von dännemark nach Arabien, reisen, Frankfurt am Main, 1762. - ٨
- NUL = Das neue Universal - Lexikon, 3 Bände, Lingen Verlag, Köln, 1979. - ٩
- **Niebuhr, B. G.:**
Carsten Niebuhrs Leben, Kiel, 1817. - ١٠
- **Niebuhr, Carsten:**
BVA = Beschreibung von Arabien. Aus eigenen Beobachtungen und im Lande selbst gesammelt Nachrichten, Kopenhagen, 1772, Nachdruck 1969. - ١١
- **EBD.:**
RB = Reisebeschreibung nach Arabien und anderen Ländern, Bd. 1, Kopenhagen, 1774, nachdruck: Graz, 1968. - ١٢
Bd. 2, Kopenhagen, 1778, nachdruck: Graz, 1968.
Bd. 3, Hamburg, 1837, nachdruck: Graz, 1968.
- **Rittmann, Herbert (Hrsg):**
Deutsches Münzsammlerslexikon, München, 1977. - ١٣
- **Schlobies, Hans:**
Die Wissenschaftliche Erschliessung Südarabiens, in: «Der Orient in deutscher Forschung», Leipzig, 1944. - ١٤
- **Schmidt, Walter:**
Das Südwestliche Arabien, Frankfurt - M. 1913. - ١٥
- **Schweinfurth, G.:**
Briefliche Mitteilungen von Prof. Schweinfurth an Prof. Ascherson Über seine Reise in Südarabien.
in: «Verhdl. d. Gesell. für Erdkunde Z. Berlin», Bd. XVI, 1889. - ١٦

الفهرس

الصفحة

١ ـ مقدمة ٧

الباب الأول: تمهيد ١٧

الفصل الأول: خلفية تاريخية: ١٩

١ ـ أوروبا الحديثة ١٩

٢ ـ الدينمارك ٢٣

٣ ـ الاهتمام الأوروبي باليمن في العصر الحديث .. ٢٦

الفصل الثاني: البعثة الدينماركية إلى اليمن وكارستن نيبور ٣١

١ ـ البعثة الدينماركية: ٣١

أ ـ فكرة البعثة. ٣١

ب ـ أهداف البعثة ٣٣

جـ ـ تكوين البعثة ٣٦

د ـ خط الرحلة ٣٧

هـ ـ المصاعب التي واجهتها البعثة في اليمن ... ٣٩

و ـ الأهمية العلمية للرحلة وأهم إنجازاتها ٤٥

الصفحة

ز ـ لماذا أسرعت البعثة في مغادرة اليمن ٤٩

٢ ـ كارستن نيبور: ٥٠

أ ـ شخصية نيبور ٥٠

ب ـ حياة نيبور اليومية وطريقة عمله ٥٦

جـ ـ إنجازات نيبور وقيمتها العلمية ٦٣

د ـ بعض انطباعات نيبور عن اليمن ٦٩

هـ ـ عودة نيبور إلى أوروبا ٨١

الباب الثاني: المادة التاريخية في كتابات نيبور عن اليمن ٨٥

الفصل الأول: الحياة السياسية: ٨٧

١ ـ نظام الحكم والهيكل الإداري لدولة الإمام ٨٨

٢ ـ المناطق الإدارية التابعة لمملكة الإمام ٩٢

٣ ـ المناطق المستقلة عن مملكة الإمام ١١٠

٤ ـ الجيش: ١١٩

أ ـ جيش الإمام ١١٩

ب ـ جيش حاشد وبكيل ١٢١

جـ ـ التسليح. ١٢٣

د ـ النظام الدفاعي ١٢٥

هـ ـ التدريب ١٢٧

و ـ المرتبات ١٢٨

٥ ـ القضاء. ١٢٨

٦ ـ الفساد الإداري ١٣١

٧ ـ علاقة الإمام بالمشايخ ١٣٣

٨ ـ علاقة الإمام بالأقليات السكانية: ١٣٥

الصفحة

أ ـ اليهود ١٣٥
ب ـ الهنود ١٣٦
٩ ـ تعامل الإمام مع الأجانب ١٣٧
١٠ ـ معلومات عن أسر و شخصيات سياسية كبيرة .. ١٤٢
أ ـ الإمام المهدي وأسرته ١٤٢
ب ـ وزير الإمام ١٤٤
جـ ـ عامل اللحية ١٤٤
د ـ أسرة الوادعي وأسرة إسحاق ١٤٥
الفصل الثاني: الحياة الاقتصادية: ١٤٧
١ ـ الصناعة: ١٤٧
أ ـ صناعة الأواني الفخارية ١٤٧
ب ـ صناعة الأقمشة ١٤٨
جـ ـ صناعة النيلة ١٤٨
د ـ صناعة الأسلحة ١٤٩
هـ ـ صناعة الحديد ١٤٩
و ـ صناعات أخرى ١٤٩
٢ ـ الزراعة: ١٥١
أ ـ المحاصيل الزراعية ١٥٢
ب ـ المياه وأنظمة الري ١٥٧
جـ ـ الأدوات الزراعية ١٦٠
٣ ـ الثروة الحيوانية ١٦١
٤ ـ الثروات الطبيعية ١٦٣
٥ ـ التجارة: ١٦٤
أ ـ أهم الصادرات ١٦٧

الصفحة

ب ـ أهم الواردات ١٦٨
جـ ـ الأسعار والأوزان ١٧٠
٦ ـ العملات: ١٧٣
أ ـ العملات الأجنبية ١٧٤
ب ـ العملات المحلية ١٧٥
٧ ـ الموانىء اليمنية وحركة السفن فيها ١٧٧
٨ ـ القوافل التجارية ١٨٤
٩ ـ إيرادات الإمام ١٨٥
الفصل الثالث: الحياة الاجتماعية والدينية والثقافية: ١٩١
١ ـ تصنيف السكان: ١٩١
أ ـ المسلمون ١٩١
ب ـ اليهود ١٩١
جـ ـ الهنود ١٩٣
د ـ البدو ١٩٤
هـ ـ العبيد ١٩٥
٢ ـ معلومات عن الحياة اليومية: ١٩٦
أ ـ الطعام والشراب ١٩٦
ب ـ الملابس ١٩٧
جـ ـ السكن ١٩٩
د ـ النوم ١٩٩
هـ ـ التطبيب ٢٠٠
و ـ وسائل التكييف والاستمتاع ٢٠٠
ز ـ السفر ٢٠٢

الصفحة

٣ ـ بعض العادات والتقاليد ٢٠٣
٤ ـ من حكايات المقاهي : باربر وشام والأميرة نجيمة ٢٠٦
٥ ـ الفرق الدينية ٢٠٧
٦ ـ الأولياء ٢٠٩
٧ ـ العلم والعلماء ٢١٥
٨ ـ الفنون ٢١٦
٩ ـ النقوش والآثار ٢١٧
الفصل الرابع : وصف المدن والطرق: ٢١٩
١ ـ مدينة اللحية ٢١٩
٢ ـ مدينة بيت الفقيه ٢٢١
٣ ـ مدينة غليفقة ٢٢١
٤ ـ مدينة الحديدة ٢٢٢
٥ ـ مدينة زبيد ٢٢٢
٦ ـ مدينة العدين ٢٢٤
٧ ـ مدينة جبلة ٢٢٤
٨ ـ مدينة حبس ٢٢٥
٩ ـ مدينة المخا ٢٢٥
١٠ ـ مدينة الدريبات وسجن ابن عقلان ٢٢٦
١١ ـ مدينة تعز ٢٢٧
١٢ ـ مدينة إب ٢٣٠
١٣ ـ مدينة يريم ٢٣٠
١٤ ـ مدينة ذمار ٢٣٠
١٥ ـ مدينة صنعاء ٢٣١
١٦ ـ وصف الطرق ٢٣٤

الصفحة

الفصل الخامس : الأحداث التاريخية : ٢٣٥
١ ـ العرض التاريخي العام. ٢٣٥
٢ ـ روايات عن أحداث تاريخية معاصرة: ٢٣٧
أ ـ قصف مدينة المخا من قبل الفرنسيين ٢٣٧
ب ـ حرب تعز ٢٣٩
جـ ـ الإمام المهدي عباس والشيخ عبد الرب بن أحمد ٢٤١
د ـ الشيخ المكرمي يستقل بحكم نجران ٢٤٦
هـ ـ شريف أبو عريش والشيخ المكرمي ... ٢٤٧
و ـ حريق بيت الفقيه ٢٤٨
الملحق : ٢٥١
١ ـ نيبور بملابس أعيان اليمن ٢٥٣
٢ ـ ملابس نساء تهامة ٢٥٤
٣ ـ ملابس نساء الجبال ٢٥٥
٤ ـ ملابس الهنود البينيان ٢٥٦
٥ ـ بعض الأدوات الزراعية ٢٥٧
٦ ـ منظر لمراسم استقبال البعثة من قبل الإمام المهدي عباس... ٢٥٨
٧ ـ منظر للتدريب العسكري أمام أسوار مدينة صنعاء. ٢٥٩
٨ ـ ١٠ ـ بعض العملات التي كان يجري التعامل بها في منطقة الشرق الأوسط ٢٦٠
١١ ـ أ ـ رسالة من الأمير فرحان إلى البعثة، أرفقها برأس غنم، عند وصول البعثة إلى اللحية ٢٦٣
ب ـ توجيه من الإمام المهدي عباس إلى العمال في طريق تهامة

الصفحة

بأمرهم باستضافة البعثة على حساب بيت المال ٢٦٣

جـ ـ وجها عملة يمنية تحمل اسم الإمام المهدي عباس ٢٦٣

١٢ ـ خط منقول من مشهد قبر في بيت الفقيه ..... ٢٦٤ و ٢٦٥

١٣ ـ ١٤ ـ خط منقول من مشهد قبر في غليفقة ٢٦٦

١٥ ـ خط منقول من مسجد ثعبات، قرب مدينة تعز ٢٦٧

١٦ ـ مخطط لمدينة اللحية وما جاورها ٢٦٨

١٧ ـ رسمان لمدينتي اللحية وبيت الفقيه ٢٦٩

١٨ ـ مخطط لمدينة بيت الفقيه ٢٧٠

١٩ ـ مخطط لمدينة المخا ٢٧١

٢٠ ـ مخطط لمدينة تعز ٢٧٢

٢١ ـ رسم لمدينة تعز ٢٧٣

٢٢ ـ رسمان أحدهما لمنزل في حي بير العزب بصنعاء. والآخر لمدينة يريم ٢٧٤

٢٣ ـ مخطط لمدينة صنعاء ٢٧٥

المصادر والمراجع ٢٧٦

الفهرس ٢٨٢

TABULA ITINERARIA
sistens illam partem
TERRÆ YEMEN
quam
Societas litteraria auspiciis et sumtibus
FRIDERICI V. ET CHRISTIANI VII.
Daniæ Regum
in orientem missa
peragravit
Ad observationes astronomicas et hodometricas
conformata; Auctore
C. Niebuhr.
MDCCLXIII.
SIGNORUM Explicatio
Urbs Capitalis
Urbes Communes
Vicus
Pagi
Arx
Hospitium
Fluvius
Torrens
Iter Auctoris
B. Beni i. e. filii
M. Mons
Lohaia
Kameran I.
Hodeida
Beit el Fakih
Zebid
Mocha
Sana
Meridies

كتب تحت الطبع

١ ـ الشاهد الاخير على اغتيال جزر البحر — واسيني الأعرج
٢ ـ الأصول التاريخية للواقعية الاشتراكية في الأدب الجزائري — واسيني الأعرج
٣ ـ وقاحة — رواية — الزاوي أمين
٤ ـ الرأس — رواية — الزاوي أمين

مجموعة قصص الاطفال

تأليف الدكتور عبد المجيد زراقط

١ ـ حبة القمح والتراب
٢ ـ الدوري والغربال
٣ ـ شكر الجميل
٤ ـ وردة الغابة
٥ ـ العصافير في العام الجديد

كيفية التعامل

- مؤسسة دار الكتاب الحديث مستعدة لإرسال ما يطلبه القراء الكرام من منشوراتها الى جميع أنحاء العالم بالبريد المسجل .
- دارنا مستعدة لتلبية طلبات الهيئات الثقافية والمكتبات من كتبها والكتب اللبنانية الأخرى لسائر دول العالم وتعطي حسماً خاصاً لطلبات الجملة وتكاليف أجور الشحن بحراً على عاتق الدار .
- يرفق كل طلب بقيمته نقداً أو حوالة مصرفية على رقم حسابنا في البنك العربي المحدود بيروت ـ رقم ١ ـ ٥١٠٠٨٠٠/٠٢٦٢٧٨ أو بموجب فتح اعتماد بالقيمة لدى المصارف في بيروت .
- أسعارنا بالليرات اللبنانية وكل العملات الواردة الينا تسجل حسب قيمة صرفها من تاريخ الوصول شرط أن تكون معادلة لقيمة الكتب المطلوبة . التحويل بالفرنك الفرنسي ، ويعادل الفرنك الفرنسي ليرة لبنانية .
- المراسلات والحوالات والشيكات ترسل باسم «مؤسسة دار الكتاب الحديث» لبنان ـ بيروت ـ ص.ب ١٤/٥٩٦٣ .